سلسلة تاريخ العرب والإسلام

## دراسات في تاريخ

# المدن العربية الإسلامية

تأليف

الدكتور عبد الجبار ناجي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

دراسات

في تاريخ المدن العربية الإسلامية

# دراسات
# في تاريخ المدن العربية الإسلامية

تاليف
الدكتور عبد الجبار ناجي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر








شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠١

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: بسمة التقي

# تقديم

## أهمية دراسة المدن العربية الإسلامية

تُعَدُّ دراسات المدن عموماً من الدراسات المهمة وقد أولتها الجامعات الغربية والأمريكية منذ فترات قصيرة اهتماماً متزايداً، وذلك لأن المدينة وتطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والإدارية والسياسية تمثّل الوحدة الحيوية والجزء الفعّال من حركة التقدُّم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات. والمدينة، كما رأى كلٌّ من شبنجلر وبودلنك من الغرب والجوهري والفيروزابادي وابن منظور من العرب، هي الحضارة وهي تعادل تعبير الأمة..

لذلك لقد أخذت بعض الجامعات العربية والأمريكية على عاتقها تخصيص أقسام علمية ومواد دراسية تعرف بأقسام ومواد التمدُّن Urbanization تتناول دراسات المدن وتخطيطاتها ومشاكلها الاجتماعية والسكانية والاقتصادية، كما تركز على أحوال المدن الصناعية والتقنية والفكرية والعلمية. وكان من بين نتائج هذا التوجه والاهتمام ظهور الكثير من الدراسات والبحوث المتعلقة بالمدن الأوروبية، على وجه الخصوص، والمدن الآسيوية والأفريقية خلال مراحل تاريخية مختلفة.

والواقع أن دراسة المدينة موضوع حيوي وفعّال إبان النهضة التي يشهدها القطر خلال سنوات الثورة. وما من أحد لا يلمس على الصعيد العملي التطوُّر

الذي شهدته المدن العراقية من النواحي المختلفة. فالخطط والوحدات العمرانية القديمة أخذت تتلاشى لتحلَّ محلَّها خطط ومحلّات عصرية تتلائم والتطوُّرات التي يمرُّ بها القطر، كما تضاعفت أعداد الشوارع الرئيسية والطرق الداخلية كي تلائم الحركة المتطوِّرة السريعة وتوافق تزايد الرفاه الاجتماعي.

ومما يجدر ذِكْرُهُ أن دراسة التطوُّرات التي شهدتها المدن العربية في أحوالها التمدُّنية المختلفة في الوقت الراهن لا تكتمل دون الرجوع إلى إرث العرب الحضاري في هذا المجال. فالمدن العراقية والعربية الحاضرة وليدة تجارب تاريخية قديمة وهي امتداد متطوِّر للمدن العراقية والعربية القديمة. فالعراق مثلاً كان مهد الحضارات البنّاءة المتطوِّرة التي قدَّمت إسهامات مبدعة كثيرة للإنسانية زمن البابليين وخلال النهضة العربية الإسلامية. ومع أن هناك تبايناً بين واقع المدينة الأوروبية الوسيطة والحديثة وبين واقع المدينة العربية الإسلامية والحديثة بما له علاقة ببقاء الكثير من تراث وآثار المدن الأوروبية واختفاء بل اندثار المدن العربية الإسلامية، غير أن هذا التباين لن يكون دليلاً يعتمد عليه بعض المستشرقين الأوروبيين في محاولتهم التقليل من دور العرب في حقل المدن والتمدُّن وفي محاولتهم تقليص حجم إسهام العرب في فهم المدينة وتأسيس المدن. وإن هذه الدراسة هي إسهام متواضع لإظهار عدة حقائق علمية تتعلق بالمفهوم المتطوِّر للعرب وإسهامهم الكبير في هذا المجال. إذ إنها ستركِّز على:

١ ـ إظهار الإرث الحضاري العميق للمدينة العربية الإسلامية.

٢ ـ إبراز وضوح رؤية العرب بالنماذج المتعدِّدة للمدن وفقاً لوظائفها وللعوامل التي لعبت دوراً بارزاً في نشأتها وتطوُّرها.

٣ ـ إبراز فكرة التواصل الحضاري في هذا المجال بين الماضي والحاضر وبما يفيد الأمر في المساعي الحثيثة المبذولة في حقل الحفاظ على آثار وخطط المدينة العربية الإسلامية ومنافع ذلك التمدُّن العربي الحديث والمعاصر. فكما يقول لويس ممفورد بأنه من أجل أن نتفهَّم دور المدينة المعاصرة لا بدَّ لنا من

فهم ودراسة التكوين التاريخي للتمدُّن والوظائف الأساسية للمدينة وبدون ذلك لا يمكننا اتخاذ خطوات مستقبلية جريئة.

وأخيراً أسأل المولى العليّ القدير التوفيق في بلوغ تلك الأهداف.

عبد الجبار ناجي

# الباب الاول

# الاتجاهات الحديثة
# في دراسة المدن العربية الإسلامية

## الفصل الاول

# الدراسات المقارنة للتمدن العربي الإسلامي

لا بدَّ لنا من القول بأن الدراسات المقارنة العربية الحديثة عن التمدُّن العربي قليلة إذا ما قورنت بالدراسات الأجنبية. ودون شك، فإن اهتمام المؤلِّفين العرب المحْدَثين أخذ يتزايد مؤخَّراً، وأن هناك عدداً من الدراسات الممتازة باللغة العربية عن هذه المدينة أو تلك. غير أنها مساهمات تركزت على مدينة معيَّنة دون غيرها ولم تأخذ بعين الاعتبار واقع هذه المدينة الخاضعة للبحث في حركة التمدُّن العربي بصورة عامة، أكانت مدينة تمثِّل ظاهرة تاريخية في إطار تكوينها ونشأتها وتطوُّرها، وهل يجمعها أيُّ قاسم مشترك مع مدينة أو مجموعة من المدن العربية الأخرى؟ أكانت مدينة مستقلة أم متأثرة بالمدن القديمة والمدن الأوروبية في العصور الوسطى، مدى أصالتها إن لم تكن مقلَّدة؟ أيضاً لأن هذه الدراسات قد عُنِيَتْ بعدد من المدن الفردية، فإنها تجاوزت الحديث عن هذه المدينة بما له علاقة بفلسفة نشوئها، وهل كانت مدينة وليدة التطوُّرات الحضارية للمنطقة التي وجدت فيها أم أنها مدينة نشأت بفعل فاعل اقتصادي أم أنها مدينة دينية في تركيبها ونشأتها أم أنها مدينة سياسية؟.

لقد شهدت المدن الأوروبية منها والعربية منذ عصر الثورة الصناعية، وما زالت تشهد تطوُّرات ومتغيِّرات اقتصادية وعمرانية وتخطيطية وتقنية كثيرة، الأمر الذي جعل الأستاذ توينبي يطلق على هذا التطوُّر الحديث في كتابه الموسوم «المدن في حركة» «التفجر التمدُّني» تشبُّهاً بما كان معروفاً وشائعاً بالتفجُّر السكاني. وتعبير توينبي هذا يعكس بوضوح تصاعد أهمية المدن وفعالية الدور الذي تلعبه، فكان من بين نتائج هذا التفجُّر التمدُّني أن ظهر في أوروبا وعلى

صعيد الدراسات المتعلقة بالمدن الأوروبية في العصور الوسطى وقبل حركة التصنيع عدد من هذه الدراسات والكتب التي تناولت طبيعة التمدُّن في المدينة الأوروبية الوسيطة والحديثة، وكذلك فإنها تناولت بالدراسة تركيب هذه المدن الداخلي والمشاكل التي تعاني منها. ولم تقف عند هذا الحد، فإنها سطرت جملة حلول للتغلُّب على أمثال تلك المشاكل.

لا يزال حقل الدراسات المقارنة للتمدُّن، في الوقت الراهن، حقلاً حديثاً ومعقَّداً. فهو لم يبلغ من العمر سوى عدد من السنوات، وأنه معقَّد لما يحتاج إليه الباحث من خلفيات تاريخية عديدة وواسعة لإجراء مقارنات تمدُّنية بين مجموعة عيِّنات من المدن من النواحي الوصفية والتركيبية والعمرانية في منطقة جغرافية واسعة أيضاً. وقد أسهم الباحثون الاجتماعيون الأوروبيون والأمريكيون في هذا الحقل مساهمة متميزة، وانقسموا في توجُّهاتهم ونظرياتهم في هذه الدراسات المقارنة إلى اتجاهين:

(أ) الاتجاه الذي يضع الجوانب الوصفية للمدن والظروف الخارجية كأساس لعقد المقارنة بين العيِّنات. والتركيز في هذا الاتجاه يكون على التنظيمات الاجتماعية، ولم يجهد الممثلون لهذا الاتجاه أنفسهم في تتبُّع الامتدادات التاريخية لمجموعة المدن المُنوى دراساتها. كما أنهم لم يحاولوا الولوج إلى داخل المدينة الحديثة لتشخيص الصعوبات والأزمات التي تواجهها كالأزمات والتوترات الاجتماعية والصعوبات الاقتصادية.

(ب) الاتجاه الذي يُعرف بالدراسات البنيوية Structural للتمدُّن. وهو اتجاه أخذ بنظر الاعتبار مجمل العوامل المحيطية والبيئية للمدينة مع التركيز على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وممثلو هذا الاتجاه لم يقفوا منعزلين عما تشهده المدن من متغيرات وتوترات، فما يحدث في هذه المدينة مثلاً من توترات واضطرابات لا بدَّ من ربطها بالتطوُّرات الاجتماعية والاقتصادية لتلك المدينة. فلماذا لم

تقع مثل هذه التغيرات في مدينة أخرى ضمن المجموعة التي يُراد[1] دراستها.

وانطلاقاً من تلك الاتجاهات، فإن الدراسات المقارنة للمدن قد خضعت كغيرها من الدراسات الإنسانية الأخرى إلى تفسيرات وتحليلات تتجه إلى إبراز تأثير أحد العوامل دون الآخر من العوامل التطوُّرية واعتباره العامل الأساس. فقد اختار الأستاذ آدمز Adams مثلاً، نموذجين من التمدُّن في منطقتين جغرافيتين متباعدتين هما التمدُّن في مجتمع وادي الرافدين خلال فترة ما قبل الميلاد ومجتمع وادي أمريكا (المكسيك) في الفترة التي سبقت الغزو الإسباني. وبمعنى آخر أنه أخضع للمقارنة عيِّنة تمدُّنية عربية قديمة إزاء تمدُّن أمريكي حديث من أجل العثور على عناصر التوافق والتشابه إن وجدت. وهدف الدراسة تهيئة مقارنة منظمة بما تسمح به المعلومات، بين أشكال وصِيَغ المؤسسات السياسية واتجاهاتها وبين التحولات الاجتماعية والاقتصادية الموجودة آنذاك. والمعروف أن الزراعة مثلاً، كانت النمط الانتاجي السائد في هذين المجتمعين. كيف أثر هذا التطوُّر الاقتصادي على بقية الصُّعد الديموغرافية (السكانية) والاجتماعية بما فيها الأحوال الاجتماعية المتعلقة بالعادات والتقاليد ومستوى حياة العائلة وتكوين الأُسَر؟ ما مدى تأثير هذا التطوُّر الاقتصادي على الأمور السياسية الداخلية والخارجية؟ إذن، فإن العامل الأساس الذي استندت إليه دراسة آدمز هو العامل الجيوبوليتيكي[2].

ومن الجانب الآخر، فإن الباحث الاجتماعي فوستال دي كولانج Fostal de Coulanges قد توصل في دراسته حول (المدينة القديمة) إلى أن العامل الديني

---

(١) أنظر عن هذه الاتجاهات

Gideon Sjoberg: Theory and Research in Urban Sociology in the Study of Urbanization (USA) 1968 PP. 157-158 Philip Hauser: The Study of Urbanization (1968) P. 210. Robert T. Daland «Comparative Perspectives of Urban Systems» in Comparative Research (USA) (1969) 20-29

(٢) Robert McC. Adams: The Evolution of Urban Societt, Early Mesopotamia and Prehipanie Maxico (Chicago 1960) P. 1, 12.

يُعَدُّ رابطاً أساسياً بين السكان في أيِّ مدينة. وابتدأ بِسَرْدِ الأدلّة على ذلك بقوله إن كلمة (Urbs) التي يقصد بها المكان الذي يجتمع فيه السكان ومنه جاءت كلمة Urban (بمعنى مدنة أو تمدني)، هي كلمة تشير إلى مكان مقدَّس قبل كلِّ شيء[١]. ومع أن الأستاذ المشهور توينبي يؤيد فعالية العامل الديني في ظهور المدن قبل فترة حركة التصنيع قائلاً بأن كلَّ مدينة ظهرت قبل حوالي مائتي سنة كانت مدينة ذات اتجاه ديني ضمن الاتجاهات الأخرى. ولكنه مع ذلك، يوضح في مكان آخر من كتابه بأنه من النادر أن يجد المرء مدينة في أيِّ وقت ومكان هي مدينة تجارية فقط أو مدينة سياسية فقط أو مدينة عسكرية فقط أو مدينة دينية فقط[٢].

غير أن استنتاج توينبي السابق لم يضع حدًّا لتأثير الواحدية في العوامل في الدراسات التمدُّنية، إذ ظلَّ العديد من الباحثين الاجتماعيين، بالدرجة الأولى، يؤيدون تأثير أحد العوامل في نشوء التمدُّن وفي دراساتهم المقارنة، ومن بين هذه الآراء رأي العالم الاجتماعي (سيو بيرج) الذي درس بدقة وتفصيل المدينة قبل حركة التصنيع. وتتبع هذه الدراسة أعداداً غير قليلة من المدن الأوروبية والآسيوية كالمدن الصينية والهندية واليابانية، وفي بعض الحالات المدن الأفريقية والعربية. وتتركز دراسته على إبراز العامل السياسي في نشوء المدن خلال الفترة ما قبل الثورة الصناعية، موضحاً بأن أيَّ مدينة ظهرت خلال تلك الفترة حتى المدينة التي تحمل صفة المدن التجارية وليس بمقدورها الديمومة والبقاء والازدهار دون تأييد مباشر أو غير مباشر من قبل الدولة ودون أن يكون هناك نظام سياسي قوي يدعمها، ومن أجل تعزيز رأيه هذا يستشهد بمؤرِّخ إيطالي ألَّف في المدينة الإيطالية هو جيوفاني[٣] بوتيرو، متغافلاً عن تأثير رأي ابن خلدون المؤرِّخ العربي الذي سبق جيوفاني الإيطالي بزمن غير قصير.

---

(١) Fustal de Coulanges: The Ancient City: A Study on the Religion Laws and Institutions of Greece and Rome (New York) P. 127, 131; 134.

(٢) Arnold Toynbee: Cities on the Move (Oxford 1970) P. 153.

(٣) Giden, Sjoberg: The Pre-industrial City Past and Present (Texas 1969) P. 6, 7, 8.

والمعروف أن ابن خلدون يُعَدُّ الرائد في إبراز أثر العامل السياسي في نشوء وارتقاء المدن.

وعلى خلاف ما تمَّ ذكره من دراسات مقارنة للمدن التي تتجه في تفسيراتها إلى إبراز عامل واحد في ظهور التمدُّن، فإن دراسة الاجتماعية، جانيت أبو لغد، عن مدن القاهرة وتونس والرباط لم يُحذَ حذْوَها، إذ قامت بإجراء مقارنة جيدة بين تلك النماذج من المدن العربية استناداً إلى العناصر المتشابهة ابتداء بالخلفيات التاريخية القديمة والإسلامية، وكذلك عناصر التشابه الديموغرافي والعمراني والاقتصادي والاجتماعي والجغرافي. وهي تخلص في هذا الاتجاه إلى أن تواريخ وإرث هذه المدن في الفترة الإسلامية قد وفَّر لها إمكانية مستقبلية في تاريخها الحديث[1]. أما العنصر الآخر الذي استندت إليه دراستها المقارنة فهو التباينات والاختلافات التمدُّنية بين مجتمعات تلك المدن.

## ما هي المدينة:

يتبادر إلى الذهن ونحن نلقي الأضواء على إسهامات العلماء الأجانب في الدراسات المقارنة للمدن مسألة مهمة تتعلق بتحديد موقف هذه الدراسات من المدينة، وهل هناك نظريات وصِيَغٌ معتمدة في تحسين المرتبة التمدُّنية لهذا المكان أو ذاك؟ ما هو المقياس الذي تستطيع الاعتماد عليه لوصف هذا الموضوع بأنه مدينة وذلك الموضوع قرية أو بلدة؟ وهل هناك سِمات محدَّدة لمنطقة ما أو مكان ما كي يكون مدينة، في الوقت ذاته، هل هناك خصائص وسِمات محدَّدة ثابتة لمكان ما يأخذ تعبير قرية أو بلدة؟ إن هذه التساؤلات وغيرها تنطوي على أهمية بالغة في موضوع المدن العربية الإسلامية وذلك لأن ما توصل إليه العلماء الأجانب من تحديدات ومعايير للتمييز بين المدينة والقرية لقد استخدم أيضاً من قِبَلِهِم في تحديد وضعية التمدُّن العربي والمدن العربية الإسلامية مقارنة بالمدن الأوروبية.

ومن بين الآراء والتفسيرات التي تتناول هذا الموضوع رَأيٌ يُرْجِعُ أصل

---

(١) Janet Abu Lughud: The Legitimacy of Comparison in Comparative Urban Studies (California 1974) PP. 2. 76-77.

المدينة إلى وجود Castle أو البرج Burg او Bourough ويقضي هذا الرأي بأن شاغلي هذه المراكز المحصَّنة كانوا يستغلونها في حالات الحروب أو الخوف من أيِّ هجوم خارجي. فالمدينة على هذا الأساس عبارة عن قلاع اتُّخِذَتْ أماكن للسكن في الحالات الاضطرارية. لذلك يعلّل أنصار هذه النظرية العسكرية Military theory بناء أهالي القلاع الأسوار وحَفْرَ الخنادق زيادة في التحصين ودَفْعِ مخاطر الأعداء(١).

إن التفسير العسكري لأصل المدينة يمتُّ بِصِلَةٍ كبيرة إلى التفسير السياسي، ذلك التفسير الذي يبيِّن أن الناس، من تجّار وحِرَفيين، كانوا يجتمعون في هذه الحصون والقلاع لأجل حماية أنفسهم وتجارتهم من خطر الغزوات والهجمات. وبمرور الزمن تتزايد أهمية ذلك الموضوع بزيادة حجم التبادل التجاري فيتحوَّل إلى مدينة. والمدينة السياسية عند أنصار التفسير السياسي تُعَدُّ من أقدم أنواع المدن وأكثرها وضوحاً(٢).

وفي مقابل هذين التفسيرين هناك رَأْيُ هنري بيران المعارض. فإن بيران باعتباره متخصصاً بالمدن التجارية ردَّ على تلك الآراء بقوله إن مدينة القلعة أو مدينة الحصن لا تتوافر فيها خصائص المدينة، وهي في حقيقتها مدينة أساقفة لا تحتوي إلا على مؤسسات أسقفية دينية. والمهم هو ما ينشأ حول هذه الحصون والقلاع من مراكز وتجمُّعات تجارية حيث يجتمع التجار خارج الأسوار مستفيدين من الظروف الاقتصادية والجغرافية كمرور طرق القوافل. هنا وعلى امتداد هذه الطرق تنبثق بعض المراكز التي تمثّل مراكز مرور أو ترانسيت فتتحوّل إلى مدن تجارية خارج أسوار القلاع. فالمدينة وفقاً لهذا التفسير هي مجتمع التجار بالدرجة الأساس(٣).

---

(١) Maitland, F: Township and Bourough (Cambridge 1898) P. 18 Ashley: The beginnings of towns Life in the Middle ges. In Q J E (1896) P. 374.

(٢) Kenneth, Bolding: «The Death of the City: A Frightened Look at Past Civilization», in The Historian and the City, P. 133.

(٣) H. Pirenne: Medieval Cities (Princeton) 1925.

يتضح مما سبق بأن هناك تبايناً في المعيار الذي تبنّاه العلماء لتحديد مرتبة هذا الموضع وذاك المكان من الناحية التمدُّنية. وقد انعكست هذه الاختلافات في وجهات النظر على مسألة تعريف المدينة. فما الذي يعنيه هؤلاء بالمدينة؟ فمن بين التحديدات التي توصَّل إليها المتخصصون الذين يميلون إلى نظرية السكان والعوامل الاقتصادية التعريفات الثلاثة الآتية:

١ ـ المدينة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدِّن المتحضِّر وذلك لأنها تمثِّل رقعة حضارية خاصة.

٢ ـ المدينة هي أيُّ مكان مستقر ينشغل فيه أكثرية شاغليه بأنماط إنتاجية غير النمط الزراعي.

٣ ـ المدينة هي أيُّ مكان محدَّد من الأرض يجتمع فيه الناس من مختلف الأجناس. وأن تكون نسبة تجمُّعهم كثيفة[١].

لم تُرْضِ هذه التعريفات أنصار النظريات الأخرى فأضاف بعضهم مسائل كوسائل النقل والمواصلات معتقدين أنها تعتبر القاعدة الأساسية في التمييز بين المدن عبر المراحل التاريخية. فبينما صارت بعض المراكز مدناً لكونها في الأساس مؤسسات دينية أو لكونها قلعة أو حصناً، فإن هناك بالمقابل مراكز أخرى قد تحوَّلت إلى مدن بفعل موقعها من وسائط أو طرق النقل والمواصلات كأن تكون واقعة على نهر أو بحر على طريق مرور القوافل البرية والنهرية أو تكون مراكز ارتباط حيث تتجمع فيها عدة طرق[٢].

اقترح الباحثون الذين شدَّدوا على عنصر الكثافة السكانية في تحديد وضعية المكان التمدُّنية عدة أرقام لتوضيح نسبة الكثافة، فمنهم من رأى أن المكان الذي يبلغ تعداد سكانه أقلَّ من ٥٠٠٠ شخص يعتبر قرية زراعية، بينما يكون المكان الذي يضمُّ ٢٠/٠٠٠ شخص مدينة صغيرة، أما المكان الذي يرتفع

---

(١) Weber, Max, The City (New York) 1955. P.8.

(٢) Max Weber: The City P. 18.

تعداد نفوسه إلى ١٠٠/٠٠٠ شخص فهو مدينة متوسطة الحجم، ويرقى المكان إلى مرتبة المدينة الكبيرة إذا بلغ عدد نفوسه ١/٥٠٠/٠٠٠ شخص. لذلك صارت كلٌ من لندن وباريس مثلاً من مجموعة المدن المتوسطة، ومدينة جَنَوَى صارت من مجموعة المدن الصغيرة[١].

ولقد حدَّد الباحث الاجتماعي هوسر Hauser جملة شروط وخصائص لتحديد وضعية مكان ما من الناحية التمدُّنية والشروط هي: توافر الكثافة في حجم السكان والتقدُّم التكنولوجي ومدى الإمكانية في السيطرة على الظروف الطبيعية وتطوُّر المؤسسات الإنتاجية والاقتصادية والسياسية[٢].

وفي الوقت نفسه، فإن علماء آخرين رأوا أن توافر السور الدفاعي أو الحصن، والسلطة السياسية هما المعياران الأساسيان لجعل المكان يسمّى مدينة[٣].

لكن يبدو أن مسألة المعايير هذه قد تبلورت، بشكل أوضح، عند كلٍّ من أشلي الألماني وماكس ويبر، إذ إن هذين العالِمَيْن قد وضعا حدًّا للاختلافات السابقة. وخصوصاً ماكس ويبر، وكان موقفهما متميزاً بوضع عدد واضح من الخصائص والسِّمات التي تجمع بين نظريات وتفسيرات مختلفة وجَعْلِها المعايير الأساسية التي تتحدَّد بموجبها وضعية مكان ما من الناحية التمدُّنية. وصارت خصائص ماكس ويبر شائعة ومألوفة عند علماء التمدُّن يطبِّقونها ويستشهدون بها حينما يعالجون مثل هذه القضية. وكانت هي النظرية التي اعتمد عليها الباحثون في تحديد وَضْعِ المدن العربية الإسلامية والتمييز بينها. وعلى الرغم من توافر عناصر متشابهة في خصائص أشلي وماكس ويبر، فإن الأخير قد حصل على شهرة واسعة، وكانت معايير أشلي تتركز على:

---

(١) Philip Hauser: Urbanization: An Over-View in the Study of Urbanization, P. 102.

(٢) op-cit

(٣) M, Hammond: The City in the Ancient World (Harvard 1962) P. 6-70.

١ ـ توافر الأمن والاستقرار وهيمنة السلطة السياسية على النشاطات التجارية

٢ ـ وجود الحصن

٣ ـ وجود قانون يشمل برعايته المصلحة العامة

وكانت معايير ماكس ويبر خمسة هي:

١ ـ أن يكون في المكان حصن أو سور

٢ ـ أن تتوافر فيه سوق أو أسواق

٣ ـ أن توجد فيه محكمة أو قضاء وتشريع يتمتع بقانون مستقل

٤ ـ وجود نقابة أو أيِّ شكل من التعاون النقابي

٥ ـ أن يتمتع ذلك المكان بحكم ذاتي مركزي يستند إلى مبدأ الانتخاب[١].

**موقف القدامى من المدينة:**

لا تعني تلك النظريات والتفسيرات الحديثة بأن القدامى من العرب والأوروبيين كانوا متساهلين أو بالأحرى جاهلين في مسألة المعيار أو المعايير التي يتميز على أساسها الموضع، وفيما إذا كان قرية أم بلدة أم مدينة. والحقيقة أن المستشرق كرونباوم Grunebaum، مثلاً، قد استشهد بمؤرِّخ يوناني توفي سنة ١٧٦م، على أنه شخَّص الخصائص التي ينبغي توافرها في المكان ليصبح مدينة. ومجموع هذه الخصائص سبع، فالمكان الذي يمتلك: ١ ـ المؤسسات الحكومية (سلطة سياسية) ٢ ـ الجمنازيوم ٣ ـ المسرح ٤ ـ السوق ٥ ـ المياه ٦ ـ الحدود الواضحة ٧ ـ مجلس يضمُّ أعضاء وممثلين عن السكان. إن هذا المكان سيكون مدينة[٢]. إن نظرة إلى قائمة المعايير هذه

(١) Max Weber, The City P. 81. Ashley Beginnings of towns P. 382-84.

(٢) Von Grunebaum: The Muslim town and Helenistic town in Scientia (1955) P. 364.

ستبيِّن بأن هناك حوالي أربع خصائص منها تُشَابِهُ المعايير التي توصَّل إليها ماكس ويبر علاوة على معايير أخرى كانت مهمة وشائعة في المدينة اليونانية والرومانية كالجمنازيوم والمسرح.

ومن الجانب الآخر، فإن المؤلِّفين العرب، من جغرافيين وبلدانيين ومؤرِّخين، قد أسهموا في تحديد معايير خاصة للمواضع التي أُطْلِقَ عليها اصطلاح المدينة، فالجغرافي المشهور المقدسي (في نهاية القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد) قد وضَّح في كتابه الآراء المختلفة، الشرعية منها والتمدُّنية، بشأن هذا الموضوع، إذ يذكر أن المصر في رَأْيِ الفقهاء يُقْصَدُ به (كلُّ بلد جامع تقام فيه الحدود ويحلُّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رساتقه) ويبدي وجهة نظره معقِّباً على هذا التحديد، بأن المصر كلُّ بلد يحلُّه السلطان الأعظم ويجمع فيه الدواوين وتقلد منه الأعمال[1]. وشدَّد ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي على معايير وعناصر معيَّنة في تحديد المدينة منها:

حجم السكان وضرورة توافر الكثافة السكانية، وجود المسجد الجامع والمنبر، توافر المياه الصالحة للشرب، إنتاج اقتصادي زراعي أو تجاري[2]. وإذا ما تصفَّحنا مقدمة ابن خلدون نجد عدة تعريفات للمدينة فيها الخصائص التي ينبغي توافرها فيقول (أعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف) ثم يضيف قائلاً بوجوب مراعاة عدة أمور في اتخاذ هذا القرار، منها: دفع المضار، ٢ ـ الاحتماء من الهجمات ٣ ـ جلب المنافع. وله قول طريف جداً في هذا الصدد يقول (فالأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها لا تُعَدُّ من الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدن)[3].

## أهمية هذه المعايير في دراسة المدن العربية:

ما المدى الذي يمكن فيه الاستفادة من الدراسات المقارنة للتمدُّن السالفة

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٧.
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان (ط/بيروت) ج٤ ص١١٤، ٤٢١، ج٥ ص٣٩٦، ٣٨٩.
(٣) ابن خلدون: المقدمة (بيروت) ص٣٤٧، ٣٦٠.

الذكر في موضوع المدينة العربية الإسلامية في العصور الوسطى؟ وهل هناك إمكانية لترجيح أحد هذه التفسيرات والآراء في تفسير أصل المدينة العربية وتبيان موقعها، كمدينة فردية، من حركة التمدُّن العربي عامة، وذلك عن طريق إجراء دراسات مقارنة لها مع أخواتها المدن العربية الأخرى في منطقة واحدة مختلفة أو مناطق مختلفة خلال فترات تاريخية متباعدة؟ خاصة، بأن هناك روابط تاريخية واجتماعية وسياسية وقومية مشتركة تربط المدن العربية بعضها ببعض على عكس المدن الأوروبية. وكم يا ترى قد انتفع المتخصصون أو ممن ألف في نشأة المدن العربية الإسلامية وتطوُّرها وتركيبها الداخلي من النظريات والتفسيرات الأجنبية السابقة؟ فمن الجدير بالذكر، أن الدراسات والمساهمات الأوروبية التي تناولت المدن العربية الإسلامية التي تيسَّر لنا التعرُّف إليها قد انتفعت كثيراً بتفسيرات ونظريات علماء الاجتماع وتأثرت فعلاً بها بأشكال متفاوتة. إذ ركز بعضهم في نظرته إلى المدينة الإسلامية على الجوانب السكانية والاجتماعية والاقتصادية في حين توجه اهتمام دراسات أخرى إلى تتبُّع نظرية المؤسسات وفيما إذا كانت تلك المدينة العربية هي مدينة بالفعل تبعاً لنوع المؤسسات الموجودة، وكذلك وفقاً للخصائص والمعايير التي طرحها ويبر ولاسيما تلك المتعلقة بالمؤسسات السياسية ومسألة وجود نقابة. أما القسم الثالث من الدراسات فقد تأثر بنظرية التمدُّن الاجتماعي التي التزم بها علماء الاجتماع، وذهب القسم الرابع من الدراسات إلى عدم التخصيص على نظرية أو تفسير دون غيرها، إنما اتجهت هذه الدراسات إلى دراسة المدينة العربية بصورة شاملة جامعة موضحة أثر العوامل المختلفة.

فالاستاذ ألبرت حوراني، البريطاني، مثلاً رأى بأن هناك مدناً عربية حملت صفة واحدة أو قامت بوظيفة واحدة، فهي إما أنها كانت مراكز تجارية تقع على الطرق البرية أو مرافىء وموانىء نهرية، الأمر الذي يجعل بالإمكان تعريفها بالمدن التجارية اعتماداً على وظيفتها في نَقْلِ البضائع لا إنتاجها[1]. وفي

(١) A. H-Hourani: The Islamic City (Oxford 1970) PP. 130 14, 22.

الجانب الآخر، هناك صُنْفٌ من المدن العربية التي كانت تقوم بوظيفة دينية، ومدن أخرى كانت تُعَدُّ مدناً إدارية.. الخ. وقد حاول أرنولد توينبي الاستفادة من التفسير الديني الذي تتبَّعه في كتابه المشهور (دراسة التاريخ)، وذلك بتطبيقه على موضوع نشوء المدن وتطوُّرها، فأجرى مقارنة بين المدن الأوروبية الوسيطة والمدن العربية الإسلامية مشيراً إلى أن هذين النوعين يتَّسمان بوجود الكنيسة أو الكاتدرائية والمسجد الجامع وهما من المباني بَلْهَ المؤسسات المدنية المهمة في تلك المدن[١].

---

(١) Toynbee: Cities on the Move P. 153.

الفصل الثاني

# الاتجاهات في دراسة المدن العربية الإسلامية

تحفل المكتبات الأوروبية والأمريكية بعدد وافر من الدراسات والبحوث عن مدينة أو مجموعة من المدن العربية الإسلامية، ودراسات عن التمدُّن الإسلامي بصورة عامة. وهي إسهامات، بالرغم مما فيها من قصور ونواقص مصدرية، تستحق الثناء، فقد تناولت المدن العربية الإسلامية القديمة منها والحديثة، من جميع الميادين التاريخية والحضارية بغية إبراز أهميتها ومكانتها في حركة التمدُّن، وكذلك دراسة تركيبها السكاني والاجتماعي ومخلَّفاتها الأثرية وموقعها الجغرافي بما له علاقة بنموّها وتطوُّر وظيفتها. وكما هي الحال بالنسبة إلى الدراسات الاستشراقية بصورة عامة، فإن المؤرّخين كانوا من أكثر المساهمين في تلك الدراسات كمًّا ونوعاً ولا سيما خلال المرحلة الأولى. وتتجلى صحة هذا من خلال إلقاء نظرة سريعة على قائمة أسماء من كتب عن المدن العربية والتمدُّن العربي خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين والحقبة التي أعقبتها، حيث يجد المرء أن الأغلبية العظمى من هؤلاء ممن عُنِيَ بالدراسات التراثية والتاريخية بالدرجة الأولى. فما هي يا ترى الدوافع الرئيسة التي دفعت بهؤلاء المؤرّخين المستشرقين للتوجه والاهتمام بالمدن العربية؟ والمعروف أن هؤلاء قد ركزوا في مجال التاريخ العربي الإسلامي على جملة مواضيع تخدم بالدرجة الأولى أهدافاً سياسية، غير أن دراسة المدن العربية وتركيبها الاجتماعي وخصائصها العمرانية قد تبدو لأول وهلة مدفوعة بدوافع علمية أو حب الاستطلاع ولا تخدم الأهداف السياسية. لكن هذا الأمر يمثّل جانباً من

الحقيقة، فإن هذه الدراسات كما سنوضحه في أدناه، سارت على نفس المنهج الاستشراقي وهدفت، من بين ما هدفت له، إلى تحقيق أهداف سياسية.

لا بدَّ من القول بأن أغلب، وربما الغالبية العظمى، من المساهمات الأوروبية عن التمدُّن العربي الإسلامي ابتداءً من العشرين سنة الأولى للقرن العشرين حتى منتصف هذا القرن تقريباً كانت فرنسية. علاوة على ذلك، فإنه بالإمكان تحديد الرقعة الجغرافية من وطننا العربي التي شملتها هذه الدراسات الفرنسية، وهي شمال أفريقيا بضمنها مصر وبلاد الشام (سورية) بالدرجة الأولى، ومدن العراق إلى حدٍّ ما، ويقلُّ اهتمام المستشرقين الفرنسيين بمدن المشرق بشكل ملحوظ. عندئذٍ فإن هذه التحديدات الجغرافية للمناطق التي أثارت اهتمامات الدراسات الفرنسية ستوفر مؤشراً واضحاً عن الدوافع التي دفعت بهم إلى الاهتمام بالتمدُّن العربي في شمال الوطن العربي في فترة ما بين الحربين وبروز النزاعات والمنافسات بين الدول الكبرى القائمة آنذاك من أجل الاستحواذ على هذه المنطقة وتقاسمها كمناطق نفوذ لها. فكان لفرنسا نفوذ وهيمنة سياسية وعسكرية واسعة على شمال أفريقيا وسوريا قبل حركات الاستقلال العربية.

وبالرغم من قوة الدوافع السياسية هذه، فإنه من غير المنطقي تغافل الدوافع الأخرى وأهمها تطوُّر الحركة الاستشراقية وتشعُّبها. فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين تطوُّراً ملحوظاً في تزايد وتشعُّب الدراسات الاستشراقية (تلك التي تُعْنَى بشكل خاص بتاريخ الشرق وحضارته) لتشمل مختلف الحقول، الفلسفية والتاريخية السياسية والاجتماعية والحضارية والفكرية والأثرية، وكان نطاق هذا التطوُّر واسعاً في أوروبا وعلى وجه التحديد في فرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا. وقد تفاوتت وجهات نظر المستشرقين بالنسبة للحضارة العربية وبالتالي تباينت نتائج دراساتهم إزاء مواضيع التاريخ العربي وحضارة العرب. فكان منها المناوىء في نظرته وتفسيره للعرب والإسلام والحضارة العربية، بينما صار بعض الدراسات إيجابياً في الاتجاه. ومن بين هؤلاء المستشرقين الذين عَنَوْا بالدراسات التاريخية والمدنية: لامانس وبلاشير وسوفاجيه وبروفنال ولويس

ماسينيون وديمومبين ودوزي وفلوجل وفيل ودي ماسيه وكاترمير وفنسنك ونولدكه وكرنباوم وترتون وشاخت وتشنروكلود كاهين وجورج مارسيه ووليم مارسيه وشارل بلا وعشرات المستشرقين الآخرين. وساهموا في دراسة مواضيع عدة، منهم من نَشَرَ وحقَّق عدداً من المخطوطات العربية المهمة ومنهم من كتب في الفِقْهِ والفلسفة والأدب العربي والتصوُّف ومنهم من ألَّف في جوانب تاريخية وحضارية واجتماعية ومنهم من كتب عن مدينة عربية فردية، ومنهم من كتب عن مجموعة من المدن العربية الإسلامية[1].

ولقد تميَّزت الدراسات الاستشراقية الفرنسية، باعتبارها أكثر الدراسات أهمية في حقل التمدُّن العربي، بعدد من المزايا:

١ ـ أنها ركزت بشكل لافت للنظر على الجوانب الفكرية والاجتماعية من التراث العربي. ويبدو أن هذا الاتجاه قد تأثر بالنزعة الفكرية التاريخية التي تميَّز بها المجتمع الفرنسي. فكانت فرنسا هي التربة التي أنجبت حركة الأنسكلوبيديين وحركة التنوير، زيادة على ذلك ما جاءت به الثورة الفرنسية من أفكار سياسية واجتماعية واقتصادية هي في حقيقتها انعكاس للنشاط الفكري عند مفكري المجتمع الفرنسي قبل وأثناء الثورة.

٢ ـ الاهتمام بدراسة المدن العربية الإسلامية والتمدُّن العربي خلال الفترة الإسلامية. ومن المحتمل أن يكون هذا الاهتمام متأثراً إلى حدٍّ ما بتطوُّر دراسات المدن الأوروبية والفرنسية، وكذلك بالدور الذي لعبته المدينة الفرنسية خلال مراحل التاريخ في الميادين الاجتماعية والاقتصادية. فالمدينة الفرنسية والإيطالية لهما تاريخ قديم، فأسهمت باريس ومارسيليا وجَنَوَى والبندقية وآمالفي إسهاماً كبيراً في فترة الانتعاش التجاري والاقتصادي لمنطقة البحر المتوسط. ولعلَّ هذه المكانة التاريخية للمدن الفرنسية قد هيأت

---

(١) : د. عبد الجبار ناجي: تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي (سلسلة الموسوعة الصغيرة) عدد ٨٥ (١٩٨٠).

الحافز والخلفية التاريخية لأولئك الذين اهتموا بالشرق وتراثه ليتناولوا مدنه أيضاً.

٣ ـ وما زلنا بصدد الحديث عن اهتمام الاستشراق الفرنسي بالتمدُّن العربي الإسلامي فإن هناك ملاحظة لا بُدَّ من ذكرها وهي أن هذه الدراسات ركزت بشكل ملحوظ على دور المؤسسات المدينية كالنقابات والأصناف والبنوك والحركات الشعبية، داخل المدن العربية. فمما له أهمية هنا أن لويس ماسينيون مثلاً يُعَدُّ من أبرز المدافعين عن وجود نقابات مهنية في المدينة الإسلامية إبان العصور الوسطى. كما أنه يُعَدُّ من المهتمين أيضاً بدراسة المصارف والبنوك وتأثيرها على الأحوال المالية والنقدية في المدن العربية. كما أن آخرين اهتموا بإبراز العلاقة بين النقابات والسلطة من جهة وبينها وبين الحركات السياسية المعارضة من الجهة الثانية. إن هذا الاتجاه هو الآخر ربما كان متأثراً بوضع الحركات النقابية في المدن الفرنسية، والدور السياسي الذي لعبته. والمعروف في الوقت الحاضر أن اتحاد النقابات الفرنسي يشكِّل مركز ثِقْلٍ في التطوُّرات السياسية للمدينة الفرنسية. ومن المحتمل أن هذا المتغير قد أثر على حركة الاستشراق الفرنسي المتخصص في حقل التمدُّن العربي الإسلامي، فالمؤرِّخ يتأثر بالأحداث والتطوُّرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية في أيِّ مجتمع من المجتمعات.

* * *

تعدَّدت اتجاهات الدراسات الأجنبية عن المدن العربية الإسلامية، وفي أدناه وصف لهذه الاتجاهات مستندة إلى مواقف مؤلِّفيها من المدينة وكذلك إلى المواضيع التي تناولوها وركزوا عليها أكثر من غيرها.

(أ) الاتجاه الإيجابي المؤيد لوجود مدينة عربية ذات كيان مستقلٍّ وترتيب منظَّم. ولقد مثَّل هذا الاتجاه عدد من المستشرقين الفرنسيين كان لويس ماسينيون من أبرزهم، إذ إنه يحتل مركز

الصدارة في قائمة المساهمين بالدراسات التمدُّنية ضمن هذا الاتجاه. وقد ظلَّت آراؤه وأفكاره باقية حتى الوقت الحاضر تؤثر في تفسيرات وآراء من جاء بعده من المؤرِّخين الأوروبيين والعرب، ولا سيما تلك الآراء المتعلقة بمسألة النقابات والأصناف الإسلامية. لقد بحث ماسينيون هذا الموضوع بشكل وافٍ في مقالة له في دائرة المعارف الإسلامية (الطبقة القديمة) تحمل عنوان صنف Sinif، ثم تناول الموضوع ذاته في بحث آخر عن الأصناف والمدينة الإسلامية[1]. وتُعَدُّ الأسواق من أهم الوحدات الطوبوغرافية التي وقف عليها ماسينيون معتبراً إياها النواة المركزية لتركيب المدينة الاقتصادي والطوبوغرافي. ثم يعالج في ضوء ذلك العناصر التي تميَّزت بها المدينة العربية وجَعَلَها على الشكل الآتي:

١ ـ استندت المدينة الإسلامية سواء أكانت في المشرق أم في المغرب إلى أربعة عناصر، أولها العنصر الخاص بالمسائل المالية والصرف ويقصد بها الدواوين والصيارفة ويتجمع حول هذا المجمع أو بالقرب منه مكان جمع الضرائب ودار الضرب حيث تُسَكُّ فيه النقود ودار المحتسب. أما العنصر الثاني فهو القيسارية (وهي عبارة عن مجموعة من المحلات التجارية التي تضمُّها سوق مسقوفة ولها مدخل يغلق أثناء الليل. وتضمُّ القيسارية مجموعة من الأسواق الفرعية المتخصصة بحسب المهن والبضائع والتجارات المعروضة). والعنصر الثالث هو السوق أو مجموعة الأسواق التي تتجمع تقريباً في وسط المدينة، ولا سيما الأسواق التي تُعنى بالغزل والنسيج. وتتجمع في العادة أسواق فرعية حول هذه السوق مثل سوق الجزارين والخبازين. أما العنصر الرابع فيتمثل بوجود المدرسة أو الجامعة التي تكون في العادة ملاصقة للمسجد الجامع في المدينة.

---

(١) L. Massignon: Les corps de Metiers et la cité Islamique in Ris (Vol, 28/1928) PP. 473 - 90. idem (Sinif) in E.I.

٢ ـ وتتوزع الأصناف والنقابات في هذه المراكز والتجمعات السوقية الأربعة بحيث يكون لكلّ حِرْفَةٍ أو مهنة معيَّنة نقابة أو صنف تأخذ على عاتقها مسؤولية حماية أعضاء هذه المهنة أو الحرفة وتدافع عن حقوقهم. ولقد شهدت المدينة العربية الإسلامية منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، مولد المؤسسات الحِرَفِيّة أو النقابات. ويوضح ماسينيون أن وجود هذه النقابات ارتبط بظهور بعض الحركات المتطرّف سياسياً كالقرامطة. ولذلك فإنه يصل إلى نتيجة مفادها أن النقابة في المدينة الإسلامية قد التزمت بموقف معارض للدولة العباسية على عكس موقف النقابة الأوروبية الوسيطة. إن النقابة في المدينة الإسلامية قد أوجدتها الظروف الذاتية الممثلة بتطوُّر الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لأرباب الحِرَفِ والمِهَنِ الصغيرة في المدن، وهي لم تكن انعكاساً وتطوُّراً لسياسة الدولة.

وعلى الرغم من أن ماسينيون لم يهتم كثيراً بالتوزيعات الطوبوغرافية والسكانية في المدينة العربية، ولم يركز على مسألة نظام توزيع الشوارع والطرق وتوافر مصادر المياه ونظافة المدينة وجَعْلِها المِحْوَرَ الرئيس لإضفاء صفة المدينة على تلك المراكز التي درسها، إنما كان همُّه الوحيد تتبُّع ودراسة المؤسسات المدينية والحركات الشعبية باعتبارها من أهم المؤسسات التي تميَّز بها المدن.

ولقد أعقبت دراسات ماسينيون بشأن النقابة دراسات أخرى من قِبَلِ عدد من المستشرقين حاولوا تطوير نظرية ماسينيون بالمصادر والاستشهادات التاريخية فقام برنارد لويس بتتبُّع أدوار النقابة في المدينة ومدى فاعليتها وارتباطها بالحركات السياسية المتطرِّفة منذ القرن العاشر للميلاد. ثم قام اتجر Ateger بتطبيق فكرة النقابات عند دراسته النقابات التونسية متعقِّباً الاستشهادات والروايات التاريخية منذ الفترة الإسلامية وصولاً إلى الغاية التي يهدف إليها وهي إظهار دور ومكانة النقابات التونسية في الفترة الحديثة[١]. لذلك وجدنا بأن

(١) B. Lewis: «The Islamic Guilds» in The Economic History Review (Ciii) P. 20. Ateger: Les Corporations Tunisiennes (Paris 1909).

آراء ماسينيون والمتأثرين به تؤيد وجود المؤسسات، وهي العنصر الأساس الذي ينبغي توافره. فضلاً عن ذلك، فإن هذه المؤسسات كانت مرتبطة بعنصر آخر موجود في المدينة العربية الإسلامية وهو الأسواق المنظمة تنظيماً حِرَفِياً ومِهَنِياً واقتصادياً.

وفي الوقت نفسه، فقد ركزت دراسات أخرى على الجوانب البنيوية والعمرانية للمدينة الإسلامية، منها، على سبيل المثال، دراسات الأخوين وليم مارسيه وجورج مارسيه، إذ اهتمت دراساتهما بالتشابهات الطوبوغرافية في المدينة وانتهيا إلى استنتاج يفيد بأن هذه الجوانب المتشابهة المشتركة تدلّل على الوحدة التركيبية للتمدُّن الإسلامي. فالإسلام كما وجدا، دين ظهر في مجتمع متمدِّن من الجزيرة العربية، وكانت المدينة ضرورية وحيوية للدين الجديد باعتبارها المكان الذي تُطَبَّقُ فيه الشعائر الإسلامية كالصلاة الجامعة التي تقام في المسجد الجامع. فالمسجد الجامع وإلى جواره المدارس الدينية صارا من الوحدات الطوبوغرافية البارزة والمشتركة في المدن حيث تتوزع على أساسها الوحدات السكنية وخطط المدن الأخرى والأسواق(١).

كذلك أثار وليم مارسيه وأخوه مسألة مهمة هي تصنيف المدن العربية الإسلامية إلى صنفين، الصنف الأول منها يتمثل بالمدن التي تأسست بفعل الفتوحات الإسلامية والتي كان للدين الإسلامي والاستراتيجية العربية العسكرية الأثر البارز في اتخاذها، وهي المدن التي عُرِفَتْ بالامصار. وهذه الأمصار من تأسيس العرب ولم تكن مدناً مخطَّطة أو مؤسسة من قبل، لذلك فهي تبرز بوضوح إسهامات العرب الحضارية في بناء المدن الجديدة. أما الصنف الثاني فهو المدن التي كانت موجودة أصلاً قبل أن يفتحها العرب، أي المدن القديمة أو الذاتية. وهي مدن تمتعت بمكانة تمدُّنية مرموقة أثناء الفترة اليونانية والرومانية.

---

(١) W. Marçais: L'Islamisme à l'urbaine in Comptes rendus des séances Académiques des inscriptions et belies (1928) PP - 86. 100, G. Marçais: La conception des cités dans L'Islam in Revue d'Alger (1945) PP. 517 - 33.

وتناول هذا الاتجاه (أي أصناف المدن) باحث آخر هو إدموند بوتي Pauty وهو مستشرق أثري فرنسي خصَّص بحثاً عن المدن وأصنافها وأطلق على الصنفَيْنِ السابقَيْن المدن الذاتية والمدن المخلوقة[1]. وانتقد في هذا البحث موقف بعض الدراسات التي كتبها بعض المستشرقين الفرنسيين خلال العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، التي تنادي بأن المدن الإسلامية هي في حقيقتها مدن يونانية ورومانية لا غير. وهناك، وفقاً لرأي بوتي، صنفان من المدن الإسلامية، فقد نَمَتْ المدن الذاتية القديمة وتطوَّرت عبر مراحل تاريخية طويلة، فهي مدن عاشت وانتعشت نتيجة لتوافر عدة عوامل وظروف كالموقع الجغرافي الذي أكسبها أهمية تجارية لوقوعها على طرق النقل والتجارة في تلك الفترات التاريخية القديمة. أما المدن المخلوقة فهي مدن أسسها العرب والمدن التي ابتناها بعض الأمراء لتكون عاصمة لدولتهم أو مقراً للحكم، وبعضها الآخر قد بُنِيَ ليكون منتزهاً للأمير أو الخليفة. لذلك صار هذا الصنف من المدن مرتبطاً بشكل أساس، بوجود تلك الدولة أو ذلك الأمير. ومع ذلك، فإن بعض هذه المدن المخلوقة أفلح في البقاء والاستمرارية عمراً طويلاً حتى بعد أن تغيَّر العامل الأساس لوجودها نظراً لما توافر فيها من تحوُّلات اقتصادية واجتماعية.

والمهم في تفسير بوتي أن هذه المدن المخلوقة التي أسسها العرب قد نشأت دونما تخطيط مسبق ولم تَرِثْ أي تصميم عمراني قديم، يوناني أو روماني.

علاوة على ذلك، فإن وليم مارسيه وبوتي أبانا في دراساتهما عن الأسس الأخرى التي تستند إليها المدن العربية الإسلامية، فبينما جعلها ماسينيون ترتكز بشكل أساس على فكرة اقتصادية كالأسواق. أشار مارسيه إلى أمور أخرى هي:

---

(1) E. Pauty: «Villes et Villes créées» in Annales de L'Institut d'Etudes Orientales (1x/1951) PP. 52 - 75.

(أ) التوزيع السكاني للمدن الإسلامية اتخذ أساساً قبلياً، فالخطط الاجتماعية التي شكّلت الخارطة العامة للمدينة وصارت أساس تركيبها العمراني كانت موزّعة توزيعاً قبلياً.

(ب) السوق: وهي تمثل المركز الحيوي للنشاط التجاري والاقتصادي. ووضع مارسيه موقع أسواق المدن بجوار المساجد الجامعة أمثال سوق أصحاب الكتب ومجلّديها وسوق النجارين وسوق الخياطين وسوق الأساكفة وصنّاع الأحذية وسوق باعة السجاجيد وسوق الدباغين وسوق الصباغين. كما امتاز توزيع أسواق المدن الإسلامية بوجود عدد آخر من الأسواق عند مداخلها وهي أسواق لبعض المواد التي يحتاجها هذا المكان الذي يربط بين البادية والمدينة أمثال سوق باعة السروج وسوق الصفارين.

(ج) السور والمقبرة: ولقد حدَّد مارسيه وجود المقبرة خارج الأسوار.

(د) الشارع المركزي أو الرئيس: وهو سِمَة تميَّزت بها المدن العربية الإسلامية، وكان هذا الشارع (وفي بعض المدن يوجد شارعان) يقسم المدينة ويمرُّ بالمسجد الجامع، وتتوزع على جانبيه خطط المدينة ومحلاتها السكنية.

* * *

بقيت أصداء هذا الاتجاه الإيجابي عن وضع المدينة العربية الإسلامية تتردد في كتابات المؤلّفين المستشرقين الآخرين، فتناولها مثلاً موريس لومبارد عندما تحدَّث عن التمدُّن الإسلامي وأشاد بالنتائج التمدُّنية التي جلبها الإسلام معتبراً إياها من أعظم التطوُّرات التمدُّنية، وأن التمدُّن الإسلامي يُعَدُّ أكثر بعداً وتأثيراً من التمدُّن الروماني ويضاهي إلى حدٍّ كبير التطوُّر التمدُّني الهلّيني والأوروبي الوسيط.

(ب) الاتجاه المعارض: فالآراء والتفسيرات التي طرحناها توًّا لا تعني أنها تمثِّل الاتجاه العام للمستشرقين إزاء وضع المدينة العربية. فقد

أفرزت دراسات ومساهمات استشراقية أخرى من موقف سلبي يتركز على جملة أمور هي:

١ ـ تجريد المدن العربية من أصالتها وجَعْلُها مدناً مقلَّدة.

٢ ـ أنها مدن رومانية أو يونانية من حيث التركيب الداخلي لبُنْيَتِها العمرانية.

٣ ـ أنها مدن غير منظّمة، وتسودها الفوضى والارتباك ويقف المستشرق الفرنسي سوفاجيه Sauvaget على رأس قائمة أنصار هذا الاتجاه. إذ إنه صوَّر في كتابه المشهور (حلب) وفي دراساته الأخرى عن مدن اللاذقية ودمشق، بأن تخطيط هذه المدن لم يكن إسلامياً، وهي مدن قديمة. وأن العرب الفاتحين لم يضيفوا إليها أيَّ قدر من الخطط إنما أبْقَوْا خططها السابقة دون تغيير والإضافات القليلة التي أضافوها أدت إلى اضطراب وحدة تلك المدن وتشويه تركيبها[١] الداخلي. وخلاصة رأيه أن المدينة الإسلامية ما هي إلا تقليد للمدينة الأوروبية القديمة.

وتناقل عدد من المستشرقين الآخرين آراء سوفاجيه هذه، فكرَّرها كارديت Gardet وأضاف إليها رأياً مفاده أن المدينة الإسلامية كانت خالية من المؤسسات الإدارية ولم تتمتع باستقلالية، وأن هناك قصوراً عند شاغليها بعدم شعورهم بالمواطنة، وأن الفرد العربي لا يحب مدينته ولا يشعر بانتمائه القوي لها.

وكان موقف هنري بيران Pirenne من التمدُّن العربي أكثر تحاملاً وسلبية، إذ حدَّد عدة خطوط في كتابه (المدن مجتمع التجار) منها: أن هنري بيران يعزو السبب إلى انحطاط وتدهور تجارة أوروبا وتجارة البحر المتوسط إلى الفتوحات الإسلامية ولقد أطلق عليها تعبير (الغزو الإسلامي). فهو يرى بأن التقدم

(١) J. Sauvaget: Alep (Paris 1941) PP. 68 - 69.

الإسلامي قد جلب الدمار إلى أوروبا القديمة ووضع حدًّا لرخاء منطقة البحر المتوسط ورفاهيتها، كما أنه ساعد على انحطاط اقتصاد مدن المنطقة من أمثال مارسيليا والبروفانس، وأنه أدى إلى اضطراب الأحوال النقدية[١]. وتأتي آراء أكسفير بلانهول Planhol مطابقة لآراء سوفاجيه وبيران وهو في بعض الأحيان يصرِّح بآراء أكثر تطرُّفاً وتحاملاً، وبينما كانت تفسيرات سوفاجيه معنيّة ببعض مدن سوريا، فإن وجهات نظر بلانهول التي اقتبسها من سوفاجيه قد شملت المدن الإسلامية عموماً، في الوقت الذي أظهرنا فيه سابقاً أن المدن التي تناولها سوفاجيه لا تمثِّل جميع أصناف المدن الإسلامية. ومن الجانب الثاني، فإن بلانهول يقف موقفاً معارضاً لكلِّ الآراء الإيجابية أمثال رأي ماسينيون وبوتي ومارسيه. صوَّر بلانهول المدينة العربية في كتابه الجغرافي (العالم الإسلامي) بأنها مدينة تعمُّها الفوضى في التخطيط ولا تتوافر فيها أية أسس تخطيطية منظمة ثابتة، وأنها ضعيفة التماسك والوحدة على عكس المدن الرومانية ومدن أوروبا في العصور الوسطى. أما بالنسبة إلى موقفه من الإسلام والتمدُّن الإسلامي فإنه يرى بأن الإسلام لم ينجح في إيجاد البديل للتمدُّن الأوروبي والمدن الأوروبية التي خضعت للفاتحين العرب. لذلك، فإن المسلمين اضطروا إلى تقليد التمدُّن القديم. فمن النواحي العمرانية، فإن السوق في المدينة الإسلامية صار تقليداً لشارع الأعمدة Colonnaded Avenue الروماني، أما القيسارية فكانت تقليداً للبازليكا Basilica الروماني، والحمّام تقليد للثرما Therma وهو الحمّام اليوناني القديم. وتطرَّق أيضاً إلى موضوع تقسيم المدن العربية إلى خطط ومحلات، فقال بأن هذه الخطط أيضاً ليست إسلامية. ولم ينسَ بلانهول أمراً في المدن الإسلامية إلا حجَّمه وجعله تقليداً للمدينة الرومانية فذكر بشأن تخطيط شوارع المدن قائلاً بأنها كانت شوارع ضيِّقة ومضطربة أدت إلى عرقلة الحركة داخل المدن[٢].

والحقيقة أن الكثير من آراء هذا الاتجاه لا يستند إلى أسس علمية، لذلك

---

(١) H. Pirenne: Medieval Cities (Princeton 1925) P. 24.

(٢) Xavier de Planhol: The World of Islam (New York 1959) P. 7' 8.18. 18 - 19. 23.

فإن مناقشتها لا تحتاج إلى عناء علمي كبير لكثرة نواقصها وعموميتها. فقد وقع بلانهول مثلاً في خطأ أساسي هو خطأ التقليد لأنه كرّر ـ نفس المعلومات التي عرضها سوفاجيه دون أن يتحرى عن الحقيقة بأن آراء سوفاجيه منطقية على مدينة حلب فقط، وأن حلب كما ألمحنا لا تمثّل إلا مدينة واحدة من المدن العربية الإسلامية الكثيرة. وهي، بادىء ذي بدء، مدينة اتّسَمَتْ بصفة القِدَم تاريخياً وأصولها لا ترجع إلى الفترة اليونانية أو الرومانية فحسب، إنما إلى الفترة الكنعانية. كما أن العرب المسلمين لم يؤسسوها أثناء الفتوحات الإسلامية. والدليل على أن بلانهول قد اتّبع طريق النقل والاقتباس فقط، هو مناقشته لقضية الشوارع الرئيسة داخل المدن التي وصفها بالاضطراب وعدم مسايرتها لظروف المدن. لو أنه أجهد نفسه قليلاً واعتمد على المصادر العربية ككتب الجغرافيين والمؤرّخين لعثر على معلومات غزيرة تنافي رأيه تماماً، ولنأخذ وصْفَيْنِ مباشَرَيْنِ لموضوع الشوارع من تاريخ الطبري والأحكام السلطانية للماوردي. وهما وصفان يوضحان المعايير القياسية الهندسية الدقيقة لتنظيم شوارع المدن العربية، تلك المعايير التي وُضِعَتْ من قِبَلِ المؤسسين ولا يجوز الإخلال بها والخروج بها والخروج عنها. فيذكر الطبري مثلاً أن سعد بن أبي وقاص عندما صمَّم على اتخاذ مدينة الكوفة ووَضَعَ خططها عيَّن أبا الهياج بن مالك لهذا الأمر وزوَّده بكتاب الخليفة عمر بن الخطاب الذي يحتوي على إرشاداته وتوصياته بشأن تخطيط الشوارع الرئيسة والفرعية (وأنه أمر بالمنهاج ـ وهي الطرق الرئيسة ـ أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين ذراعاً، وما بين ذلك عشرين، وبالأزقة سبعة أذرع، ليس دون ذلك شيء، وفي القطائع ستين ذراعاً إلا الذي لبني ضبة)[1]. وأورد الماوردي رواية تتعلق بتأسيس مدينة البصرة فقال (وقد مُصِّرَتِ البصرة على عهد عمر... فجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وجعلوا عرض زقاقتها سبعة أذرع، وجعلوها وسط كلْ خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم.. ولم يفعلوا ذلك إلا عن رَأْيٍ اتفقوا عليه أو نصٍّ لا يجوز

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص ٤٤.

خلافه)[1]. فهل هناك أيُّ لَبْسٍ في ما تعنيه المعلومات الواردة في هذين النصَّين، وأن تخطيط شوارع المدن وأزقتها كان مستنداً الى مقاييس محدَّدة تأخذ بنظر الاعتبار تطوُّرات المدينة وحركة الناس في داخلها؟ هل بإمكاننا الاستنتاج بأن الشارع الرئيسي كان ضيّقاً ومعرقلاً للحركة وعرضه أكثر من ثلاثين م (باعتبار الذراع أكثر من ٥٠ سم). وأخيراً ألَا يعكس موضوع اتخاذ رحبة فسيحة لمربط الخيل فكرة نظام المدينة وحلول العرب في التغلُّب على مسألة التزاحم؟

والمستشرق الانجليزي ستيرن Stern من بين المستشرقين الآخرين الذين تأثروا بآراء سوفاجيه ـ بلانهول. إذ أسهم في المؤتمر الذي عقدته جامعة أكسفورد بريطانيا عام ١٩٦٥ حول المدينة الإسلامية ببحث عن تركيب المدينة الإسلامية[2]. ويدور البحث بصورة عامة حول مناقشة ستيرن والأصح معارضته للأفكار التي طرحها ماسينيون بشأن النقابة. ويعتقد ستيرن أن رأي ماسينيون غير صحيح فالمدينة الإسلامية خالية من المؤسسات وبشكل أخص من النقابات، كما أنه وجد بأن خططها مقتبسة من خطط جاهزة للمدن اليونانية القديمة كالشارع والسوق المركزية. وكرَّر أيضاً الرأي بأن المدينة لا تحتوي على وحدة تركيبية وأن بُنْيَتَها العمرانية مضطربة، أما بشأن موقفه من الآراء الإيجابية فإنه وقف موقفاً متشدداً ومعارضاً لها، وعارض رأي الحسيني الذي عرضه في كتابه (الإدارة العربية) والذي يؤكد فيه استقلالية المدينة في تدبير شؤونها بنفسها عدا ارتباطها بالسلطة المركزية عن طريق دفع ريع سنوي، وأن التاريخ العربي شهد ظهور إمارات شبه مستقلة في المدن العربية تشابه في حركتها واستقلاليتها ما برز في المدن الحرة في أوروبا. كذَّب ستيرن هذه الآراء وسخر منها دون دليل واستشهاد تاريخي وإنما لمجرَّد قوله بأن المجتمع الإسلامي لم يرثِ المؤسسات المدينية إلا من الحضارات القديمة اليونانية والرومانية، وأنه لم يطوِّر ذاتياً أيَّ

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية (مصر) ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) S.M. Stern: «The Constitution of the Islamic City» in Islamic City (Oxford 1970) PP. 37, 40, 29 - 30.

نوع من المؤسسات التي اتسمت بها المدن الأوروبية. لقد كان باستطاعة الحضارة العربية ـ كما يرى ستيرن ـ الاستحواذ على ما كان موجوداً من عناصر تمدُّنية ومؤسسات في المدن القديمة وتطويرها وتنميتها لكن ذلك لم يحدث. أما موقفه بالنسبة إلى المدن التي أسسها العرب خلال فترة الفتوحات الإسلامية فكان سلبياً أيضاً، إذ يرى بأن هذه الأمصار لا تملك الخصائص الخمس التي وضعها ماكس ويبر في تحديد المدينة، فالأمصار خالية من المؤسسات وذلك لسيادة وتأثير التقاليد البدوية.

وكرَّر ألبرت حوراني في بريطانيا آراء سوفاجيه أيضاً وبصورة خاصة الآراء المتعلقة بوضعية المدينة ومدى توافر الخصائص التي ذكرها ماكس ويبر. ويرى ألبرت حوراني أن المدينة العربية الإسلامية تفتقر إلى اثنتين من خصائص ماكس ويبر وهي المحكمة والحكم الذاتي أو الاستقلالية. لهذا يستنتج بأنها ليست مدينة بالمعنى التام لكلمة City، فضلاً عن ذلك فإنه يرى بأنها مدينة مقلِّدة للمدن اليونانية والرومانية. فالعرب، بحسب رأيه، اتخذوا مؤسساتهم الإدارية ومحلات سكناهم في المدن التي أسسوها في نفس المناطق القديمة للمدن الذاتية الرومانية كالأغوار Agora والشارع المركزي والمعبد أو الكنيسة. وهذه الوحدات الطوبوغرافية تشكّل قلب المدينة اليونانية والرومانية. إن العرب الفاتحين أحلّوا فقط المسجد الجامع محلَّ المعبد أو الكنيسة واتخذوا الأسواق الرئيسة محل الشارع المركزي والأغوار(١).

ومن الواضح أن آراء ماسينيون وحوراني هي الأخرى مقلِّدة ومتطابقة مع الآراء السابقة وأنها وقعت في نفس الخطأ الذي وقع فيه بلانهول ولم يحاول مؤلّفوها التحرّي عن معلومات جديدة في التراث العربي الإسلامي الغني. فما كان موجوداً في حلب مثلاً لا يمكن تعميمه على المدن العربية جميعاً، وأن الأمصار التي أسسها العرب لا يتفق تخطيطها وأسس وجودها مع ما ذكره الباحثان عن عدم استقلالية المدينة العربية وتبعيتها عمرانياً للمدن اليونانية والرومانية.

---

(١) A.H. Hourani: «The Islamic City in the light of recent research» in The Islamic City PP. 13 - 14, 22.

(ج) ويتضمن الاتجاه الثالث لمساهمات المستشرقين عن المدينة العربية الإسلامية مجموعة من الدراسات التي تناولت إحدى المدن العربية عبر المراحل التاريخية المختلفة. والملاحظ في هذه الدراسات أنها أُلِّفت من قِبَلِ المستشرقين المعنيين بالدراسات التاريخية وغيرهم، كما أنها شملت ما ألّفه المستشرقون الفرنسيون وغيرهم من أوروبا وأمريكا. ومع أنها دراسات تخصصت بواحدة من المدن العربية الإسلامية دون الأخرى، فإنها ألْقَتْ أضواءً مكثفة على عدد من الجوانب الجديدة في المدن، فركزت دراسات ماسينيون عن خطط الكوفة، والأخرى عن خطط البصرة، وشارل بلا عن مجتمع البصرة، على توزيع الخطط القبلية في هذه الأمصار وتحديد عناصر مجتمعاتها. في الوقت ذاته، فإن سوفاجيه تتبّع في دراسته عن (حلب) أهمية هذه المدينة منذ أقدم الفترات التاريخية كالسلوقية والرومانية والإسلامية. وقسّم حلب خلال الفترة الإسلامية تقسيماً سياسياً يتضمن حلب خلال فترة الخلافة ثم حلب خلال فترة الفوضى السياسية وحلب إبان فترة الدويلات التركية وحلب في عهد المماليك ثم حلب في الفترة العثمانية. ويُعَدُّ كتاب تورنو Tourneau عن مدينة (فاس) من الكتب الجيدة حيث تتبّع فيه تاريخ هذه المدينة منذ الفترة الإسلامية المبكرة. ووقف أيضاً على موضوع النقابات التجارية في فاس في العصور الوسطى واصفاً درجات النقابة وأن لها رئيساً يدعى (أمين النقابة)، وكذلك صلاحية النقابة التجارية والواجبات التي تقوم بها في حماية أعضائها[1]. ودرس ديسْبوَا Despois مدينة القيروان في شمال أفريقيا مبيِّناً العوامل التي دفعت العرب إلى اتخاذها وتأثير ذلك على الجوانب الاجتماعية، ودرس كليرجت Clerget مدينة الفسطاط والقاهرة وركزا على الجوانب الجغرافية والاقتصادية. وأسهم عدد آخر من المستشرقين في الكتابة

---

(١) R. Le Tourneau: Fes in the Ages of the Marinides (Oklahoma 1961).

عن مدن المشرق فهناك دراسة فري عن مدينة بخارى ودراسة كلارك Clark عن مدينة شيراز ودراسة كوستيليو Costelio عن مدينة كاشان من النواحي الجغرافية. أيضاً درس آربري مدينة شيراز.

(د) والاتجاه الرابع للدراسات عن المدن العربية يتمثل بدراسات جديدة تبحث وراء الحركات الشعبية في المدن وفقاً لتوافر خصائص ماكس ويبر. وذلك لأن التركيز على هذه الحركات الاجتماعية الشعبية التي تميّزت بوجودها بعض المدن العربية شكّل سِمَة سياسية ووفر الدليل على استقلالية المدينة، لأنها كانت حركات موجهة ضد السلطة. إن هذا الصنف من الدراسات يبدو أنه يهدف إلى إبراز دور هذه الحركات لأنها واحدة من الأسس المهمة في موضوع المؤسسات، كما ظهر ذلك في الحركات السياسية المعارضة التي ظهرت في بعض المدن الأوروبية خلال العصور الوسطى. ويمثّل كلود كاهين المستشرق الفرنسي هذا الاتجاه، إذ بادر في الكتابة عن هذه المواضيع بدراسات تفصيلية عن التنظيمات الاجتماعية والحركات الشعبية في المدن الإسلامية كحركة العيارين والفتوّة والأحداث والحرافيش والشجعان. وأبرز الدور الفعّال المستقل الذي لعبه العيارون في بغداد خلال فترة السيطرة البويهية كما بيّن أن الأحداث في سوريا كانوا خلال القرن الـ [illegible] عشر للميلاد قوة سياسية مستقلة لا يستهان بها وقد اعترفت بها السلطة رسمياً. ووقف على تنظيم الأحداث والعيارين الداخلي فكان هناك رئيس للأحداث في سوريا يدعى (رئيس المدينة) وكانت زعامته وراثية[1]. ومن بين العلماء الآخرين الذين اهتموا بدراسة الحركات الشعبية آشتر Ashtor إذ درس في بحثه عن (التمدُّن الإداري في سوريا خلال الفترة الوسيطة) أحوال مدن سوريا الاجتماعية وسلّط الأضواء على

---

(١) C. Cahen: «Mouvements Populaires et autonomisme urbain dans L'Asie Musulmane du Moyen Age» in Arabica (V/1958) PP. 225 - 50 (V1/1959) PP. 25 - 56, 223 - 265.

الحركات الشعبية المعارضة سياسياً للحكام الأتراك. وهدفه من وراء هذه الدراسة إبراز دور هذه الحركات السياسية المعارضة ضد اللوردات[1].

(هـ) وهناك اتجاه في العديد من الدراسات، وبالأخص الاجتماعية منها، عمد بدرجة أساسية إلى تفسير المدن العربية وفقاً لنظرية التمدُّن الاجتماعي. وهذا الاتجاه مثَّله بصورة بارزة علماء الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية. ويبدو أن هذا التطوُّر في الدراسات التمدُّنية قد حدث في فترة السبعينات من هذا القرن لوفرة الإسهامات وتعدُّدها وفقاً لنظريات علم الاجتماع. ومن الملاحظ في هذه الدراسات أنها لا تعتمد تواريخ المدن، وبالأحرى المدن في التاريخ، كأساس منهجي لها كما كانت الحال بالنسبة إلى الدراسات الأوروبية التي عُنِيَتْ كثيراً بهذا المجال، إنما اتخذت المدن العربية كنماذج تمدُّنية تفيد في توضيح النظريات الاجتماعية. فالباحث الاجتماعي لم يُعْطِ أهمية كبيرة إلى الجذور التاريخية للمدن وفيما إذا كانت تتميَّز بوجود مؤسسات مدينية أم كما فعل المستشرقون الأوروبيون من قبل. ومن المحتمل أن ذلك يرجع إلى أن المدن الأمريكية المعاصرة لا تملك رصيداً تاريخياً طويلاً أو أصالة تاريخية كما هي الحال في المدن الأوروبية. وأن المدينة الأمريكية فقيرة في تراثها التاريخي الأمر الذي جعل المتخصص الاجتماعي في حقل التمدُّن لا يجد المبرِّر والدوافع إلى تتبُّع أصولها التاريخية، وبالتالي الأصول التاريخية للنماذج التمدنية الأخرى في خارج الولايات المتحدة، ومن بينها المدن العربية الإسلامية. في المقابل، فقد توجه هؤلاء الباحثون إلى إبراز وضعية

(١) F. Ashtor: «L'administration urbaine en Syrie Medievale» in Rivista degli studi (1956) PP. 73 - 128.

المدن من حركة التقدم التمدني الاجتماعي وأنهم لا يعتبرون المدن القديمة ومدن العصور الوسطى إلا مدناً قديمة لا غير[1].

وأن الباحث الأمريكي نادراً ما يجدها ملائمة للدراسة والاستفادة من تجاربها في المشاكل التي تجابهه في حركة التمدُّن في الوقت الحاضر. ووفقاً لذلك، فإن الباحث الاجتماعي الأمريكي قد وجَّه همَّه واهتمامه بشكل متزايد لدراسة المدينة الأمريكية وما تجابهه من مشاكل تمدنية معقَّدة كتزاحم السكان وتزايد نسبة الهجرة واضطراب خططها ونَقْصٍ أو تزايد عوامل العمران فيها تبعاً لميزانيتها، واضطراب أحوالها الاقتصادية والاجتماعية كتزايد نسبة البطالة والفقر ومشاكل تتعلق بالنقل والمواصلات وفساد الجوّ والعزلة الاجتماعية لبعض أحيائها وغير ذلك من القضايا الاجتماعية للتمدنية. لقد أثَّرت هذه الجوانب في توجيه اهتمام الباحث الاجتماعي وتحديد فلسفته للتمدُّن عموماً والتمدُّن العربي بما يتعلق الأمر بموضوعنا، إذ نجده لا يشغل نفسه كثيراً في مسألة وجود المؤسسات المدينية التي شغلت اهتمامات المستشرقين الأوروبيين أو عدم وجودها. فهو لا يجعلها الأساس في التمييز بين المدن وفي الوقت نفسه يعلّق أهمية أكبر في التحرّي عن وضعية هذه المدن العربية من حركة التمدُّن الاجتماعي وما هي علاقتها بالقرى أو الأرياف. وفيما إذا أفلح العرب في مواجهة مشاكل الهجرة والحلول التي توصلوا إليها للتغلُّب على تلك المشاكل، وكيف استطاع العرب توفير المياه الصالحة للشرب؟ وهل كانت المدن العربية وشوارعها نظيفة أم لا؟ وهل أفلح المسؤولون في المدن العربية في توفير الخدمات المدينية كتشجيع حركة البناء والعمران وتنظيم وتوزيع الشوارع والطرق والسكك الفرعية؟ وما هي البنية الاجتماعية والاقتصادية للمدن العربية؟ كذلك فإن الباحث الاجتماعي يحاول أن يجد هذه القرائن في مجموعة المدن العربية لا في مدينة فردية واحدة.

والباحثون الأمريكيون، كزملائهم في أوروبا، انصرفوا لدراسة عدد من

---

(١) Max Weber, The City, P. 42.

المدن العربية الإسلامية في مناطق عربية معيَّنة. وبالإمكان تحديد الرقعة الجغرافية من وطننا العربي التي أثارت اهتماماتهم ودراساتهم وهي بالدرجة الأولى شمال أفريقيا ومصر. فهناك عدد لا بأس به من الدراسات التمدنية عن هذا الجزء، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل عن الدوافع التي دفعتهم إلى ذلك. والمعروف كما مرَّ سابقاً أن هذا الجزء كان الموضع الذي تركزت عليه دراسات المستشرقين الفرنسيين، ويبدو أن توجُّههم هذا كان مدفوعاً بعاملين مهمَّين: أولهما أن الدراسات التمدنية الحديثة قد ركزت على مدن شمال أفريقيا، وثانيهما وفرة الدراسات التمدنية الفرنسية عن التمدُّن العربي الإسلامي في هذه المنطقة، مما سهَّل للباحثين الاجتماعيين في أمريكا مهمة الحصول على معلومات تاريخية تمدنية جاهزة. وبالفعل فإن عدداً من الدراسات الفرنسية قد تُرْجِمَتْ من قِبَلِ مترجمين في أمريكا عن تاريخ مدن شمال أفريقيا كدراسة لومبارد (العالِم الإسلامي) وقد اعتمد الباحثون الأمريكيون عليه بشكل ملحوظ، ودراسة تورنو (تاريخ مدينة فاس) وكان له أيضاً تأثير في توفير المعلومات بمساهماتهم. والمهم بالنسبة لنا أن هذين العاملين قد أسهما في عملية تكرار وتقليد العديد من الآراء والتفسيرات التي طرحها المستشرقون الفرنسيون المتعلقة بالمدن العربية الإسلامية كآراء هنري بيران المعادية للتمدُّن الإسلامي وموقف العرب من التمدُّن أن الفتوحات الإسلامية أدت إلى تدمير التمدُّن الأوروبي.

ومن بين الدراسات الاجتماعية الأمريكية التي نستشهد بها للتدليل على ما تقدَّم ذكره دراسة سيوبيرج Sjoberg حول (المدينة قبل حركة التصنيع)[١]. فهو يتحدث في جانب من كتابه عن دور الشرق في حركة التمدُّن خلال مرحلة ما قبل الثورة الصناعية، ويرى بأن أكثر أقسامه كانت منذ الفترة المسيحية متمدِّنة إلى درجة معيَّنة. فيشير إلى أن العرب المسلمين استطاعوا خلال فترة زمنية قصيرة أن يصبحوا سادة منطقة واسعة محطِّمين الأمبراطوريات القديمة. لقد أشاع العرب الفاتحون الرخاء والعمران بتشييدهم المدن العديدة، وأن مدناً مثل

---

(١) Giden Sjoberg: The Pre-industrial City, Past and Present (Texas 1960).

مكة والمدينة وبغداد ودمشق كانت في بداية أمرها مدناً صغيرة لكنها بمرور الزمن شهدت تحوُّلات جذرية ولا سيما بعد أن انتهى دور المدن الرومانية والفارسية. إن سيوبيرج حينما يدلي بهذه المعلومات الأخرى المتعلقة بالتشابهات الطوبوغرافية والاجتماعية بين المدن العربية يعتمد على دراسات سوفاجيه وجورج مارسيه ووليم مارسيه.

كذلك درس بينيت Benet الاجتماعي التمدُّن الإسلامي، فبينما كانت الأولى مدناً أسطورية، فإن المدن العربية قد نشأت ونَمَتْ خلال فترة تاريخية محدَّدة وواضحة. ويولي بينيت اهتماماً ملحوظاً بالجوانب الاجتماعية للمدينة العربية ولا سيما مسألة البداوة وأثرها في تقسيمات المدينة الطوبوغرافية كالمحلات والأرباع والأخماس القبلية. ومن آراء بينيت رأيه بخصوص مدى ديمومة وبقاء المدن العربية، فهو يذكر أن المدن العربية في الغالب مدن وقتية ترتبط حياتها وفترة بقائها بحياة الدولة التي أسستها وهي تموت وتنتهي بانهيار تلك الدولة على عكس المدن الأوروبية التي تميَّزت باستمرارية تاريخية. فإن عملية الهدم وإعادة البناء والتعمير قائمة في كلِّ وقت في أوروبا، وأن الأوروبيين يعيدون بناء ما تهدَّم، مما ساعد على بقاء عملية التمدُّن مستمرة[1].

وهناك دراسة هاموند حول (المدينة في العالم القديم) التي تناولت مدن الحضارات القديمة ومن بينها المدن الإسلامية. وآراء هاموند تخالف ما سبق ذكره من أفكار بخصوص المدينة، إذ إنه يرى عدداً من أمثال بغداد وسامراء والقاهرة قد نشأت وانتعشت في مناطق لا تتمتع إلا بالقليل من الأصالة في التاريخ التمدني. يعتبر هاموند المدينة العربية مركزاً لأداء الواجبات الدينية. وأن العرب المسلمين لم ينظروا إلى المدينة وكأنها تمثِّل وجوداً سياسياً واجتماعياً قائماً بذاته. أما المسألة الأخرى التي ركز عليها هاموند فهي التركيب القبلي الاجتماعي للمدينة مستنتجاً أنها كانت مجرَّد معسكرات قبلية. وأن التنظيمات القبلية ظلَّت هي السائدة على البنية الاجتماعية للمدينة. وهي صفة لم يقتصر

---

(١) F. Benet: «The Ideolgy of Islamic Urbanization», in International Journal of Comparative Sociology (vol iv/1963) PP 211 - 226.

وجودها على الأمصار التي أسسها العرب أثناء الفتوحات الإسلامية فقط، إنما شملت الوضعية الاجتماعية لأغلب المدن الذاتية القديمة أيضاً. وهو يكرر ما سبق أن ذكره هنري بيران وبلانهول عن موقف الحضارة الإسلامية من حركة التمدُّن بأنها كانت ضد التمدُّن وأن العرب دمَّروا التمدُّن الأوروبي[1].

خلاصة القول إن نظرة المتخصصين في علم الاجتماع التمدني العربي الإسلامي قد تأثرت هي الأخرى بشكل كبير باهتماماتهم الاجتماعية وذلك بتركيزهم على إبراز الأسس القبلية للبنية الاجتماعية للمدن وما نتج عن ذلك من متغيرات في العلاقات الاجتماعية لسكان المدينة وتقسيماتها العمرانية وخططها ومحلاتها.

ومن الجدير بالذكر، أن علماء الاجتماع قد وقعوا بعدد من التناقضات بسبب ضيق نظرتهم بما يتعلق بالنظريات الاجتماعية وبسبب آرائهم الاجتماعية الجاهزة. وقد أثَّرت هذه التناقضات، بدورها، على المستوى العلمي لدراساتهم وبصورة أخص، تلك المتعلقة بالجوانب التاريخية. إذ ربما تنطبق بعض التفسيرات على مدينة عربية دون غيرها مما يجعل من التعسُّف أن تعمم هذه النتائج على جميع المدن العربية، فدراسة مدينة فاس مثلاً أو أيِّ مدينة من مدن المغرب العربي لا يجوز أن تتخذ نموذجاً ينطبق على مجموعة أكبر من المدن العربية. بالفعل إن الحواجز الاجتماعية المستندة إلى التقسيمات القبلية كانت واضحة للعيان خلال بداية الفتوحات الإسلامية (القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد) لكن هذه الحالة قد شهدت تحوُّلات وتبدُّلات خلال القرون، الثالث والرابع والخامس، للهجرة، عندما تبدلت وظائف عدد من المدن العربية التي ابتدأت حياتها كمعسكرات قبلية وصارت مراكز إنتاجية من النواحي التجارية والزراعية والصناعية والإدارية. هذه المتغيرات في النمط الإنتاجي ساعدت على انفتاح هذا الصنف من المدن على أعداد غفيرة من الوافدين الجدد الذين لا ترجع أنسابهم إلى هذا الأصل القبلي أو ذاك. وانخرط هؤلاء في مزاولة صنوف

(١) Mason Hammond: The City in the Ancient World (Harvard 1962). 341, 342.345.

الأعمال في حياة المدينة الإنتاجية، الأمر الذي ساعد بمرور الزمن على انصهار العلاقات القبلية المنغلقة فتحطمت تلك الحواجز الاجتماعية التي كانت ماثلة وقائمة بين المحلات والخطط داخل المدينة والتي ساعدت أيضاً على العزلة الاجتماعية القائمة على النسب. وهناك جملة أدلّة واستشهادات أدلى بها بعض المستشرقين الأمريكيين الذين عَنَوْا بالتاريخ العربي أكثر من كونهم علماء اجتماع من أمثال كويتاين Goitein الذي اعتمد على وثائق الجنيزة المهمة، فهو يذكر «بأنه من الخطأ الفادح أن نعزو إلى العرب قلّة التذوُّق للحياة في المدينة، أن الأدب العربي يقدِّم معلومات غير قليلة بخصوص اللوم الذي وُجِّهَ ضد البذخ المتزايد في تشييد العمران والبيوت وكذلك إلى الاسراف والبذخ في تشييد المساجد»[١] ويضيف كويتاين أن العرب الذين أسسوا الأمصار الإسلامية الأولى كانوا من أشد المحبين للبناء والعمران فضلاً عن أنهم كانوا يحبون مدنهم ويفاخرون بها ويفضلونها على غيرها من المدن ويفتخرون في الانتساب إليها. واستشهد على ذلك بوثيقة تؤكد أن أهل زوجة اشترطوا على الزوج في عقد الزواج بأن لا يبدِّل سكن المدينة بمكان آخر دون أَخْذِ موافقة الزوجة. وأشار إلى رسالة أخرى تبيِّن أن إحدى الزوجات لم تتحمل العيش في الريف فاضطرت إلى الهرب من زوجها نحو القاهرة، الأمر الذي جعل الزوج مضطراً إلى موافقة زوجته في الارتحال من الريف إلى دمياط. ويؤكد مستشرق أمريكي آخر معنيٌّ أيضاً بالدراسات التاريخية للمدن العربية وهو لابيدوس Lapidus بأن العرب كانوا يفتخرون بمدنهم ويفضلونها على غيرها ويفضلون حياة المدن بدلاً من حياة الريف[٢].

ومما له علاقة بأفكار علماء الاجتماع وتناقضها مسألة المصادر التي اعتمدوا عليها، فإنهم في حقيقة الأمر اعتمدوا على معلومات تاريخية جاهزة واستنتاجات سبق أن توصَّل إليها غيرهم في العشرينات أو الثلاثينات من القرن العشرين

---

(١) Goitein: «Cairo: An Islamic city in the light of the Geniza Documents» in Middle Eastern Cities (1966) P.83.

(٢) Ira. Lapidus: «Muslim Cities & Islamic Society» in Middle Eastern Cities, P. 75.

حينما كانت المصادر العربية المحققة والمنشورة قليلة لا تقارن بالحجم الهائل للمصادر والمعلومات التاريخية التي ظهرت في سبعينات وثمانينات ذلك القرن، وأوضح دليل على ذلك موضوع المفاخرة بين أهالي الأمصار والمدن الإسلامية أمام الخلفاء والمسؤولين التي يمكن الحصول عليها في كتب الجغرافية العربية والأدب العربي، التي تنص بوضوح على مبدأ تعلُّق أهالي المدن بمدنهم وتفضيلها على غيرها والمفاخرة بفضائلها.

ومن جملة التناقضات التي وقع فيها بعض الباحثين الاجتماعيين المتخصصين بالمدينة العربية الإسلامية ما ذكره هاموند بشأن الحضارة العربية، على أنها كانت تقف ضد حركة التمدُّن. فلو كان هاموند ممن اختص بالدراسات التاريخية العربية لوجد من الصعوبة الوصول إلى هذه النتيجة المتعسفة وذلك لأنها لا تستند إلى أدلّة تاريخية، فضلاً عن كونها تقليد لفكرة سابقة اعتمدت على معلومات جاهزة. ففي المقابل، هناك العديد من الأوروبيين قد اعترف بفعالية وإبداء الحضارة العربية، وبأن الدين الإسلامي دين مدني بطبعه. والمهم هو كيف دلَّل هاموند على رأيه السابق؟ إنه أخذ مدينة أثينا كنموذج لتوضيح صحة رأيه إذ قال إن أثينا مدينة عريقة ولعبت دوراً مهماً في المنطقة لكنها صارت إبان السيطرة التركية مجرَّد قرية وذلك كما يقول، يرجع إلى أن الأتراك كانوا ضد حركة التمدُّن. ومناقشة هذا الرأي بسيطة، فإن هاموند بإصداره هذا الرأي يكون قد تجاهل أمراً تاريخياً مهماً يتعلق بنشاط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط عموماً، فقد خضعت هذه المنطقة إلى عدة تطوُّرات ومتغيِّرات سياسية واقتصادية أدت إلى اختفاء عدد من المدن عن المسرح نهائياً بينما تضاءل دور وأهمية مدن أخرى فتحوَّلت إلى مرتبة ثانوية، وفي الوقت نفسه فقد ساعدت تلك الظروف نفسها على ظهور مدن جديدة. والمسألة الأخرى المتعلقة بالفتوحات الإسلامية أنه، ووفقاً لما هو موجود من معلومات غزيرة، لم تؤدِّ إلى تخريب المدن القديمة التي كانت موجودة قبل مجيء العرب، والصحيح هو العكس أن هذه المدن كالموصل وحلب وقرطاج قد انتعشت فصارت مدناً كبيرة بينما انتقل دور قرطاج إلى القيروان وتونس لتوافر الظروف

الملائمة أكثر مما كانت في قرطاج. علاوة على ذلك، فإنه اعتماداً على أقوال المتخصصين في المدن بأن عدداً من هذه المدن القديمة اليونانية والرومانية قد ضعفت بل انحلّت فعلاً وصار دورها التمدني ثانوياً وقد تناقصت أهميتها إلى مرتبة القرى قبل أن تبدأ فترة الفتوحات الإسلامية بزمن غير قصير. وكما أشرت سابقاً أن مدينة قرطاج في تونس وبالميرا في بلاد الشام لم يَعُدْ لها الدور البارز حينما قَدِمَ العرب إلى بلاد الشام وشمال أفريقيا، وفي مقابل ذلك، استمر بقاء مدن أخرى وأخذت تحتل مراكز مهمة في حركة التطوُّر التمدني العربي كمدن دمشق وحلب والقدس والاسكندرية والموصل وقرطبة وغير ذلك.

* * *

ومن الجهة الثانية، فإن الحديث عن المساهمات الاجتماعية في حقل المدن العربية الإسلامية لا تعني أنها السِّمة الغالبة على دراسات الباحثين في أمريكا، فقد أسهم عدد من المستشرقين المهتمين بالتاريخ العربي الإسلامي في الكتابة عن المدن العربية أيضاً. فهناك عدد من المستشرقين الأمريكيين ممن ألَّفوا عن مدينة عربية واحدة، في حين أن بعضهم درس مجموعة من العيِّنات. غير أن المهمّ في دراسات المستشرقين هذه أنها اتجهت إلى تتبُّع مواضيع تمدنية تختلف إلى حدٍّ ما، عن المواضيع التي شغلت المساهمات الاستشراقية في فرنسا وأوروبا. فقد أولى الأمريكيون أهمية إلى المواضيع العمرانية والأحوال الاجتماعية للمدن العربية والمشاكل الناجمة عن توافر المياه الصالحة للشرب، كذلك، فإن بعضهم اهتم بالجوانب الأثرية في المدينة الإسلامية. فالمستشرق لاسنر Lassner قد تخصص في مدينة بغداد مثلاً فدرس خططها، وبشكل خاص، قصر الخليفة المنصور المعروف بقصر الذهب. علاوة على ذلك، فإنه ألَّف كتاباً عن (طوبوغرافية بغداد في أوائل العصور الوسطى).

وعلَّق في هذا الكتاب كثيراً على المصادر التي توفر المعلومات عن طوبوغرافية بغداد وأهمها تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. ومن بين المواضيع التي أثارت اهتمام لاسنر في مدينة بغداد مسألة وضع المدينة من حركة التمدُّن العربي وخاصة بعد تأسيس الأمصار الإسلامية وعلاقة هذه الأمصار بجذب

القبائل العربية وبتطوير حركة العمران، وتنشيط الفعاليات التجارية والاقتصادية. وكذلك فإنه خصّص جانباً من دراسته لمسألة سَعَةِ التمدُّن العربي في العراق مقارنة بالتمدُّن الساساني ووصل إلى نتيجة تفيد بأن سَعَةَ التمدُّن العربي كانت، باستثناء مدينة بغداد وسامراء، تشكِّل نسبة قدرها ٣٣٪ من مجموع المنطقة التمدُّنية المستقرة، وإذا ما أضيف إليها بغداد وسامراء سترتفع لتعادل أربعة أضعاف نسبة التمدُّن في العراق إبان الفترة الساسانية. ويضيف لاسنر إلى هذه النتيجة قائلاً بأن نموَّ حركة التمدُّن العربي الإسلامي قد وصل إلى أكبر درجة من التطوُّر التمدني قبل الأزمنة الحاضرة. وتُعَدُّ هذه الآراء أدلّة واضحة ضد من رأى بأن العرب دمروا أثناء الفتوحات الإسلامية المدن القديمة ولم يشجعوا على تطوير حركة التمدُّن. إضافة إلى هذه المواضيع الحيوية التي اهتمَّ بها لاسنر، فإنه حاول الاستفادة من الدراسات المقارنة بإيجاد القواسم الأثرية المشتركة لمجموعة القصر المسجد الجامع (في مدينة بغداد) موضحاً أن هذه المجموعة الأثرية تمثِّل سِمَةً أثرية في المدينة الإسلامية لا نعهدها في فن العمارة الأوروبية[(١)].

أما جورج سكانلون Scanlon الذي اشترك في بعثة التنقيبات في مدينة الفسطاط بمصر، فإنه كتب بحثاً إلى الندوة التي عقدتها جامعة أكسفورد عن المدينة الإسلامية. وتناول فيه موضوع الخدمات الصحية ومسألة السكن في مدينة عربية في العصور الوسطى. وخصَّ ببحثه جملة مواضيع طريفة منها اهتمام العرب المسلمين بمسألة النظافة في مدنهم مشيراً إلى أن هناك نظاماً خاصاً بكلِّ مدينة لتوفير خدمات النظافة. أما موضوع مياه الشرب، فإن سكانلون تتبَّعه أيضاً قائلاً إن الدولة كانت المسؤولة عن توفير المياه الصالحة للشرب بحفر القنوات إلى داخل المدن. وكانت السلطة أيضاً مسؤولة عن تنظيم الشوارع والدروب للتغلُّب على مشكلة التزاحم وذلك عن طريق تحديد أنواع الدواب المسموح

(١) J. Lassner: «The Caliph's Personal Domain: The City of Baghdad Re-examined» in the Islamic City (Oxford 1979) P. 103-18; idem, The Topography of Baghdad in the Early Middle Ages (Detroit 1970) P. 103, 138-392 133-34, 180.

بدخولها إلى داخل المدينة وتهيئة أماكن خاصة لربط دوابهم. والموضوع الآخر الذي اهتمت به دراسة سكانلون وظيفة المحتسب والأعمال المنوطة به في المراقبة اليومية لنظافة الشوارع والمحلات ومتابعته في تطبيق المبادىء الصحية على أصحاب المحلات والمطاعم والباعة ومطالبتهم بضرورة تنظيف الأجزاء المواجهة لحوانيتهم وتوفير مياه الشرب أمام محلاتهم. وقد اتَّبع نفس المنهج في بحث ومعالجة مدينة الفسطاط، فوصف شكل البيوت فيها، ونظام توزيع الشوارع والدروب، وتوفير المياه، وقد قامت البعثة التي أسهم فيها سكانلون بثلاث عمليات تنقيبية في الفسطاط خلال سنوات ١٩٦٤، ١٩٦٦، ١٩٦٧. ونشر تقريراً مفصَّلاً عن نتائج هذه العمليات فقدَّم في القسم الأول من تقريره تفصيلاً تاريخياً عن بداية تأسيس المدينة مبرزاً فيه التطوُّرات الطوبوغرافية التي شهدتها المدينة اعتماداً على قول عدد من الجغرافيين المسلمين[١].

وهناك دراسة روجرز Rogers التي قدَّمها أيضاً مؤتمر المدينة الإسلامية وتتناول موضوع تخطيط مدينة سامراء. ومن بين الأمور التي تستحق الذكر إشارته إلى أصالة تخطيط مدينة سامراء على الرغم من أن المنطقة التي اتخذت فيها كانت مأهولة ببعض الديارات والقرى. فهي نموذج للمدينة الإسلامية تختلف بوضوح عن أية مدينة هلينية. وعلى هذا الأساس، فإن روجرز لا يعتقد بأن بناء مدينة سامراء يُعَدُّ ظاهرة تمدُّنية منعزلة إنما هي جزء من حركة التمدُّن العربي التي ترجع أصولها إلى الفترة الأموية. إذ إن الأمويين اعتادوا على اتخاذ قصور ومراكز تمدنية في الصحراء لتكون متنزهات لهم. وبذلك فإن تأسيس مدينة سامراء يُعَدُّ مؤشِّراً لِعَظَمَةِ السلطان. ومن المواضيع الأخرى التي تناولها مسألة المرتبة التمدّنية لمدينة سامراء هل كانت مدينة أم قرية؟ ويعقِّب على هذا بقوله إن الحالة ترتبط بمشكلة أهم هي فيما إذا كانت سامراء مصر أم رباط أم

---

(١) G. Scanlon; «Housing and Sanitation: some aspects of medieval Islamic public service» in the Islamic City PP. 170-91; idem «Preliminary Report: Excavations of Phustat (1964)» in Journal of the American Research Centre in Egypt (1966/vol iv). (1966) vol v (1967) vol vi.

مدينة نزهة مثل الزهراء في الأندلس أم مدينة دبلوماسية مقارنة بما أسَّسه الأغالبة إلى جوار مدينة القيروان[1].

أما بحث المستشرق كريبر Graber حول المدن وسكانها فهي دراسة أراد فيها المؤلف أن يوضح العلاقة بين المدينة كوجود تمدُّني وبين فعاليات ونشاطات سكانها ونشاط مؤسساتها خلال الفترة الممتدة من سنة ٨٠٠م إلى ١٢٠٠م. الفترة التي يرى بأنها تمثِّل أوج تطوُّر البورجوازية التجارية في التاريخ العربي الإسلامي، فالمدينة في رَأيِ كريبر أبعد من أن تكون وجوداً مادياً إنما هي عبارة عن سلسلة من الشدّ بين أقطاب متعارضة وأحياناً متضاربة ويقصد بذلك الأحوال التجارية المهيِّئة في المدينة بما له علاقة التطوُّر الاقتصادي وهو يعترف بأن النمط الزراعي هو النمط الذي ساعد على رخاء المدينة ورفاهها. وفي الوقت نفسه، فإن كريبر يشخِّص أهم السِّمات العمرانية للمدينة العربية بقوله إنها مدينة تتميَّز أولاً بمسجدها وإلى جانبه هناك عدد من المشاهد والمزارات الموزَّعة في المدينة. وكذلك تتميَّز بمحلاتها وخططها السكنية المقسمة قبلياً وعنصرياً، ويستثنى من هذا المراكز التجارية كالأسواق مثلاً، إذ إنها تضمُّ أناساً من مختلف الأديان والأجناس. والسِّمة الثالثة في المدينة الأسوار التي تشيَّد لأغراض الحماية من الهجمات. اما السِّمة الرابعة فهي وجود عدد من المؤسسات المدينية. وفي جانب آخر من دراسته يتناول مصادر ثروة المدينة وأثرها الاجتماعي والاقتصادي. وتناول أيضاً وصفاً لبيت في مدينة إسلامية، ومصادر المياه[2].

تعكس هذه النماذج من الدراسات الاستشراقية الأمريكية واقعاً تاريخياً للتمدُّن العربي الإسلامي يختلف عن الصورة التي وضعها الباحثون الاجتماعيون. وحسبما يبدو أن الدراسات التاريخية اعتمدت على معلومات

(١) J. M Rogers: «Samarra: A study in medieval Town-planning in The Islamic City» PP 119-55.

(٢) Pleg Graber: «Cities & Citizens: The Growth and the Culture of Urban Islam and the Arab World» (U.S.A 1976) P. 90, 100, 92, 95.

ومصادر جديدة أثرية منها وغير أثرية مما وفَّر للباحث الوصول إلى نتائج وآراء مغايرة لما توصَّل إليه المستشرقون الأوروبيون في بداية القرن العشرين، وهو أمر يدعم رأينا بأن للمؤرِّخين مادة وأسلوباً ومنهجاً أدق من صِيَغِ الاعتماد على استنتاجات ومعلومات وأفكار جاهزة.

(و) وبالرغم من حداثة الدراسات العربية الحديثة المهتمة بحقل التمدُّن العربي الإسلامي إذا ما قورنت الحالة مع الدراسات والمساهمات الكثيرة للمستشرقين الأوروبيين والأمريكيين، فإن هناك عدداً من الدراسات التي أسهم فيها مؤرِّخون ومؤلِّفون عرب تستحق التقدير. ومما له علاقة بحداثة الاهتمام بدراسة المدن العربية الإسلامية من قِبَلِ مؤرِّخينا العرب هناك سببان رئيسان هما:

(*) عدم استقلالية حقل التمدُّن العربي الإسلامي أو بالأحرى حقل التخصص في المدن العربية الإسلامية من الجوانب التاريخية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية من وجهة نظر الباحثين العرب بالدرجة الأولى. إذ إن الحديث أو دراسة عوامل نشوء وتطوُّر المدن عبر التاريخ العربي الإسلامي عند الباحثين العرب المحدثين عبارة عن فقرة من فقرات موضوع أكبر هو الحضارة العربية.

وبالفعل، فان تصفُّحاً سريعاً للدراسات التي أُلِّفت عن الحضارة العربية ستوضح لنا بأن الحديث عن أحوال المدن العربية أو التمدُّن العربي يكون تارة ضمن الحديث عن المجتمع العربي وطبقاته والعادات والتقاليد السائدة فيه خلال العصر الوسيط، وتارة أخرى نجده ضِمْنَ الحديث عن إسهامات العرب في المجالات الفنية والعمرانية تحت عناوين (فن البناء) أو (فن العمران)، وتارة ثالثة يفرد له بعض المؤلِّفين باباً خاصاً يحمل عنوان (أحوال المدن) ويقع هذا الباب أيضاً ضِمْنَ باب أعمّ هو الأحوال الاجتماعية للمجتمع العربي. وهكذا صار موضوع دراسة المدن أو دراسة التمدُّن العربي جزءاً ثانوياً لا تخصصاً قائماً بذاته. وأن المؤرِّخين العرب نظروا إليه باعتباره يمثِّل جانباً حضارياً أو

أقلّ فنياً وعمرانياً، بالرغم من الحقيقة بأن المدينة هي المكان الذي تظهر فيه جميع خبرات المجتمع الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والإدارية.

(*) ومما زاد في عدم استقلالية حقل التمدُّن العربي الإسلامي تداخله وتشابكه مع عدة حقوق معرفية أخرى. فالأثري المتخصص في الآثار الإسلامية يجد في المدينة العربية نموذجاً واقعياً لدراسة تخطيط المدينة وآثارها العمرانية والهندسية القديمة. وفي الجانب الآخر يرى الجغرافي أو بالأحرى المتخصص في جغرافية المدن المدينة العربية الإسلامية كجانب تاريخي وصفي وتعريفي للمدينة أو لمجموعة المدن التي يخضعها للدراسة الجغرافية التمدُّنية الحديثة والمعاصرة خلال تناوله الجوانب السكانية والاجتماعية والبيئية والتخطيطية، ولعلّه من المفيد ذكره هنا، أن تداخل التمدُّن العربي (من الناحية التاريخية) مع اختصاص جغرافية المدن (من الناحية الجغرافية) أدى إلى أن تصبح السِّمة الجغرافية هي السِّمة الغالبة على الدراسات والإسهامات العربية. إن الجغرافيين ولاسيما أولئك في جغرافية المدن، يجدون أنفسهم وهم يخضعون مجموعة من المدن العربية للدراسة مضطرين إلى التقديم لهذه المدن، كلٌّ على انفراد تاريخياً، ولم تكن بأية حال من الأحوال دراسة وبحثاً تاريخياً إنما تكون تقديماً وتعريفاً بأصولها التاريخية، مما يؤدي بحدّ ذاته إلى أن يقع بعضهم بخطأ المصادر وإعادة ترديد المعلومات التاريخية البسيطة، شأنهم شأن علماء الاجتماع التمدُّني. والحقيقة أن هؤلاء لا يتحملون أيَّ لوم علمي لأنهم إنما يبغون الحصول على مواد ومعلومات تاريخية تعريفية جاهزة سواء أكان مصدر هذه المعلومات دراسات أجنبية أم عربية فربما تتكرر عندهم آراء وتفسيرات تاريخية مصدرها أيضاً سوفاجيه وماسينيون وغيرهما من المستشرقين دون أن يعرفوا النظريات التي فسَّر هؤلاء المستشرقون فيها التمدُّن العربي الإسلامي. إن اهتمام الجغرافي في الدرجة

الأساس، المدينة العربية المعاصرة والبحث في جغرافيتها وموقعها وتوزيع السكان فيها ونسبة كثافتهم وتقسيم العمل فيما بينهم وتنظيم شوارعها وتقسيم خططها ومحلاتها ومصادر المياه فيها ومصادر ثروتها.. الخ من المواضيع المعاصرة التي تقع ضمن اختصاصهم. ونادراً ما يهتم بموقع هذه المدينة من حركة التمدُّن العربي عبر التاريخ، كما أنه نادراً ما يقف على خصائصها وفيما إذا كانت تُعَدُّ من المدن أو القرى خلال الفترات التاريخية القديمة والإسلامية.

من هذا المنطلق صار الاتجاه الثاني للدراسات العربية الحديثة عن المدن العربية من اختصاص المؤرِّخين. وبالفعل فقد ظهرت منذ أوائل الخمسينات لهذا القرن دراسات تاريخية جادة عن المدن العربية الإسلامية، غير أنها تقع ضمن اتجاه دراسة مدن عربية فردية، وأخص بالذكر منها، دراسة الدكتور صالح أحمد العلي التي تناولت موضوع (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة) وهي من الدراسات الرائدة في حقل التمدُّن العربي، إذ أفلح مؤلِّفها كثيراً في تقصّي وجمع معلومات على غاية من الأهمية من المصادر التاريخية والجغرافية والفقهية تتعلق بالمؤسسات الاقتصادية والمالية التي كانت موجودة في مدينة البصرة، وهي إحدى الأمصار الإسلامية التي أسسها العرب، في القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد. ودرس الأستاذ الدكتور صالح العلي أيضاً خطط البصرة في بَحْثٍ رصين أبان فيه تنظيم المدينة العمراني وتوزيع محلات السكن (الأخماس) وتوزيع السكان ومصادر المياه في المدينة[1]. وتُعَدُّ هاتان الدراستان أدلّة مصدرية وتاريخية للتدليل على وضعية مدينة البصرة (إحدى المدن العربية) من حركة التمدُّن العربي المتطوِّرة. وهناك دراسة سليمان صائغ عن تاريخ الموصل، وهي دراسة شاملة تتبّع فيها المؤلِّف تاريخ المدينة اعتماداً على عدد يسير من المصادر التاريخية. وقد قسَّم تاريخ المدينة بحسب الفترات

---

(١) الدكتور صالح احمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول للهجرة (أصلها باللغة الانكليزية) (بغداد ١٩٥٣) خطط البصرة مجلة سومر/ ١٩٥٢. وكمثال عن الدراسات الجغرافية للمدن ودراسات د. جمال حمدان (جغرافية المدن) و (المدينة العربية).

التاريخية السياسية كالموصل زمن الفتوحات الإسلامية، والموصل خلال الفترة الأموية، والموصل خلال الفترة العباسية.. الخ. وهي عبارة عن دراسة وصفية لتاريخ هذه المدينة منذ أبعد الفترات حتى الوقت الحاضر. أما دراسة الدكتور الحبيب الجنحاني عن (القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية) فهي دراسة جيدة لهذه المدينة خلال فترة تاريخية من حياتها وتطوُّرها تعقَّب فيها المؤلِّف عوامل نشوئها ثم تنظيماتها الاجتماعية والاقتصادية والإدارية. كما ويجدر أيضاً ذِكْرُ دراسة الدكتور عبد العزيز السالم عن (قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس) وهي دراسة تاريخية جيدة تناول فيها الجوانب السياسية والعمرانية لهذه المدينة.

ظلَّ اتجاه دراسة المدن العربية الفردية يمثِّل الاتجاه العام للمساهمات العربية الحديثة حتى الوقت الحاضر، مع العلم بأن الاهتمام بهذه الدراسات أخذ يتزايد ويتضاعف بشكل ملحوظ حتى صار تخصصاً مستقلاً. وتخصصت به عدد من الدراسات الأكاديمية للحصول على شهادات عليا. وقد لعب العامل الإقليمي دوراً بارزاً في توجُّه الدراسات عن المدن، مما أدى إلى إغناء المكتبة العربية في حقل التمدُّن العربي الإسلامي. وكان نصيب المساهمات العراقية وافراً ومتميِّزاً، إذ ظهرت مجموعة من الدراسات التي حصل فيها مؤلِّفوها على شهادات الماجستير والدكتوراه. وقد تناولت هذه المساهمات بالدراسة مدن بغداد والبصرة والكوفة وواسط والموصل وسامراء والحلّة وغير ذلك، وتُعَدُّ من المساهمات العلمية الجادة إذ غطت الجوانب الوصفية والتاريخية والعمرانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لهذه المدن، كما أسهم بعض الدراسات العراقية في دراسة مدن خارج العراق كمدن اليمن والأندلس الإسلامية.

وفي المقابل، فإن الاهتمام بالدراسات المقارنة للتمدُّن العربي ما زالت في مراحلها الأولى ولم تنلْ من اهتمام الباحثين العرب إلا قليلاً. ومن بين الدراسات العامة عن المدن العربية دراسة الدكتور ناجي معروف عن (عروبة المدن) هَدَفُ المؤلِّف منها إبراز أصالة الفكر العربي في تخطيط المدن بأنواعها العسكري والسياسي والاجتماعي والإداري. وتناول فيها أيضاً العوامل التي

دفعت العرب إلى اتخاذ المدن وكيف؟ ثم هناك دراسة السيد مصطفى الموسوي عن (العوامل التاريخية لنشأة وتطوُّر المدن العربية الإسلامية) ركَّز فيها المؤلِّف على المدن العراقية مبرزاً أثر العوامل الجغرافية والعسكرية والدينية في اتخاذ المدن في العراق.

# الباب الثاني

# مفهوم العرب للمدينة

الفصل الاول

# معنى المدينة ومقوماتها ومعاييرها في المصادر المختلفة

## المدينة في المعاجم اللغوية:

كيف نظر العرب، المؤرِّخون منهم والجغرافيون والكتَّاب، إلى موضوع المدينة خلال الفترة الإسلامية؟ وهل هناك تفهُّم عربي واضح للمدينة وفقاً لمنظورها وبُعدها الحضاري؟ وهل حدَّد العرب معايير وخصائص متميِّزة للمكان لكي يتخذ دور المدينة، أعني هل ميَّزوا بين المدينة وغيرها من المراكز التمدنية الأخرى تمييزاً مستنداً إلى معيار الحجم أم كثافة السكان أم المساحة أم ماذا؟

يرجع أصل كلمة مدينة في اللغة العربية إلى مدن. وأن معنى مَدَنَ في المكان أقام به، ومعنى مَدَّنَ المدائن أي مصَّرها، ولقد أورد كلٌّ من الفيروزابادي وابن منظور معنى آخر للمدينة فهي عندهما تعني الحصن على أن يُبنى هذا الحصن على أضطُمّة من الأرض. لذلك، فإن كلَّ قطعة أرض يُبنى فيها حصن في اضطُمَّتها تُعَدُّ مدينة. ومما له أهمية إشارة الفيروزابادي إلى أن المدينة تعادل من حيث المقوِّمات الأمة[1] بمدلولها الاجتماعي والجغرافي.

علاوة على هذا التعريف الذي يراد منه تحديد معنى المدينة بالمكان الذي يجتمع فيه الناس، هناك تعريف متطوِّر آخر أورده الجوهري والزبيدي، فقد أشار

(١) أنظر الفيروزابادي: القاموس المحيط (مادة مدن) ص ٢٧٠، ابن منظور: لسان العرب (مادة مدن)، الزبيدي: تاج العروس مادة (مدن).

إلى أن أصل كلمة مدينة يرجع إلى جذر دِين. ويذكر الجوهري أن المقصود بكلمة دِين المُلْك ـ ويضيف الزبيدي إلى هذا التحديد الطريف قائلاً إن كلمة وَدِنْتُهُ تعني مَلَكْتُهُ هو مَدِينٌ مملوك. ثم يعقّب على ذلك بقوله إن جماعة من الناس يَرَوْنَ بأن تعبير مدينة يرجع في الأصل إلى كلمة دِين لكونها تملُّك[1]. والحقيقة أن هذا التحديد اللغوي الأخير وأقصد به المدينة تعادل (دِين) وتعادل مُلْكاً له أهمية بالغة جداً وذلك لأن عدداً من المستشرقين المتخصصين في حقل التمدُّن من أمثال كويتاين قد أرجع أصل الكلمة إلى كلمة دين Din، معتقداً أنها أساساً ترجع إلى أصل آرامي أو عبري ويقصد بها في هذه اللغات[2] العدالة. ثم أورد حجازي في كتابه (المدخل في علم اللغة) بأن أصل كلمة المدينة يرجع إلى كلمة دِين وأشار إلى أنها كلمة سامية وأنها (أي المدينة) تُعْرَفُ عند الأكّديين والأشوريين بالدين بمعنى القانون. كما أن المقصود باسم الفاعل (الديّان) في اللغة الآرامية والعبرية القاضي، وأن بيت الدين هو مقرُّ الحكم أو المحكمة. كما يوضح بأن كلمة المدائن والمدين في اللغة العبرية تُعَدّان مصطلحَيْنِ قانونيَّين. من كلٍّ ذلك يستنتج حجازي بأن مصدر كلمة المدينة آرامي وأنه مأخوذ من لفظة مدينتا التي تعني بالآرامية مكان القضاء[3].

يتبيَّن من جميع هذه الدلائل اللغوية بأن العرب، أو مؤلّفي المعاجم اللغوية، حينما أرجعوا أصل كلمة مدينة لغوياً إلى جذر دِين، المراد به الملك والتملُّك، إنما يدلُّ دلالة أكيدة على وضوح فَهْم العرب ورؤيتهم إلى العلاقة الجدلية بين المدينة والقانون، الأمر الذي سنقف عليه بتمعُّن فيما بعد.

وعلاوة على ما ذكرنا من تفسير لغوي لكلمة مدينة التي يُقْصَدُ بها المُلك، فإن هناك عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة التي وَرَدَ فيها ذكر لاسم الفاعل من كلمة دِين (أقصد الديان ويراد به في هذه الأحاديث الشريفة المالك والحاكم).

---

(١) أنظر الجوهري: الصحاح، مجلد ٦ ص ٢٢٠١ (مادة مدن)، الزبيدي تاج العروس (مادة دين).

(٢) Goitein: «Cairo: in Islamic City in the light of the Geniza Documents» in Middle Eastern Cities, P. 83.

(٣) : محمود حجازي: المدخل في علم اللغة ١٢٦.

فقد أورد كلٌ من البخاري وأحمد بن حنبل حديث عن جابر بن عبد الله عن الرسول الكريم (ص) قاله (سمعت رسول الله (ص) يقول يحشر العباد أو قال الناس حفاة عراة عزّل، ليس معهم شيء يناديهم بصوت يسمعه من بُعْد كما يسمعه من قُرْب أنا الملك الدَّيّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا أحد من أهل النار عليه مظلمة حتى قصَّه منه)[1]. وجاء في حديث نَبَوِيّ شريف آخر ما نصه (يا مالك الناس ودَيّان العرب)[2]. ووَرَدَ في حديث ثالث عن ابن عمر أنه قال (سمعت رسول الله (ص) وهو على المنبر وهو يقول: يأخذ الدَّيّان سماوات وأرضيه بيده وقبض يده وجعل يقبضهما ويبسطهما)[3]. نستدلُّ من هذا الحديث وغيره بأن أصل الكلمة كما وَرَدَتْ في المعاجم اللغوية والأحاديث الشريفة عربي لا كما يرجعه البعض إلى أصل آرامي أو عبري، ليس هذا فقط، فإن المفهوم الذي كان يتضمَّنه لَفْظُ مدينة على أنه الحاكم والقضاء يوضح بأن المعنى العربي للمدينة بما يفهم منه القانون والقضاء. وفوق ذلك إذا ما أضفنا إلى هذا التحديد التحديد السابق الذي صارت فيه المدينة تقابل أو تعادل تعبير الأمة نكون قد قدَّرنا، بحق، المفهوم الحضاري المتطوّر للمدينة عند العرب.

هل اقتصر استخدام العرب لتعبير المدينة كمدلول عن المكان الذي يقام به ويسوده النظام أو القضاء كما هي الحال في اللغات الآرامية والعبرية؟ الواقع أن العرب، على خلاف الغير، لم يقتصروا باستعمال كلمة مدينة لتحديد الهوية التمدنية للمكان وإنما استخدموا تعبيراً ومفاهيم أخرى تشير إلى التحديد ذاته من أمثال: مصر، وحاضرة ومدرة. ولو راجعنا الأصول اللغوية لهذه التعبيرات والمفاهيم لاتَّضح لنا عُمْقُ الفهم العربي الحضاري لمدلولاتها. فالمصر لغة يعني الحدّ أو الحاجز بين أمرين. ويقال مثلاً إن فلاناً اشترى الدار بمصُورِها

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين (مصور عن الطبعة الهندية، بيروت) ج٤ ص ٥٧٥.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير (ت. حمدي عبد المجيد/ بغداد ١٩٨٠) جزء ١٢ ص ٣٨٩.

أي الدار بحدودها، ويقال أيضاً مصَّر المكان تمصيراً أي جعل منه مصراً. في نفس الوقت، فقد وَرَدَ أن المصر هو كلُّ كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات. وعند الاعتماد على ما ذكره الجغرافي المقدسي البشاري في معنى المصر نجده يقصد به العاصمة[1]. والمعروف تاريخياً أن كلمة مصر ارتبطت، على وجه العموم، بالأمصار الإسلامية السبعة، واقتصرت، على وجه التحديد، بالأمصار أو المدن التي أسسها العرب المسلمون أثناء حركات التحرُّر العربية، وتحدّد التعبير، بصورة واقعية، وبشكل أضيق، بالمصرين المشهورين البصرة والكوفة على اعتبار أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) قد ذكر في رسالته الجوابية على فكرة القادة العرب المسؤولين عن هاتين الجبهتين العسكريتين في مسألة اتخاذ معسكرات لهم وللجيوش العربية المقاتلة قائلاً (لا تجعلوا البحر بيني وبينكم بل مصّروها أي صيّروها مصراً بين البحر وبيني أي حدًّا) وكما وَرَدَ النص في رواية أخرى (لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصّروها)[2].

المهم أن التحديد السابق لتعبير مصر على أنه يعادل المدينة بما يُقْصَدُ به تلك المدن التي اتخذها العرب على أطراف البادية لكي تكون على صِلَة سهلة وميسورة بمركز الخلافة العربية، وبما يشير إليه التعبير بأنه المكان الذي تقام فيه الحدود، أي القانون والقضاء. وبذلك يُعَدُّ إضافة أخرى إلى الفهم الحضاري للمدينة عند العرب.

أما بشأن تعبير الحضارة فقد تحدَّد أصلها اللغوي بجذر حَضَرَ والحضرة والحضارة وأن الحضارة تعني الإقامة في الحَضَر، ووَرَدَ أيضاً أن الحاضرة

---

(١) أنظر الزمخشري: أساس البلاغة (مادة مصر) ص ٥٩٦، الفيروزابادي: مادة (مصر)، ابن منظور (مادة مصر). وفيما يتعلق بالتحديد الجغرافي أنظر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٧، ٤٧، ١٩٧.

(٢) أنظر البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٣٦، ٣٤٥، الطبري: تاريخ الرسل والملوك (ط/دار المعارف) ج٤ ص ٤١. الجوهري (مادة مدن) والزبيدي تاج العروس عن ابن الأعرابي (مادة مصر).

يُقْصَدُ بها المدن والقرى والريف على خلاف البادية. وأن الحاضر هو الشخص الذي يقيم في المدن والقرى. ويشير الزمخشري إلى أمر مهم في هذا الموضوع، إذ يقول إنما يراد من الحضرة بناء دار وأن عدة البناء من الآجُرّ والجصّ وغيرها[1]. وبذلك فإننا نجد ربطاً لغوياً وحضارياً بين الحضارة بمعنى الإقامة في الحضر والمدينة من جهة المواد الإنشائية الصلدة المستخدمة في بناء الحضرة وهي الآجُرّ والجصّ والحصى وغير ذلك.

ويرجع أصل كلمة مَدَرَة إلى مَدَرٍ ويعني الطين العَلِكَ، ومما يقال إن العرب كانت تطلق على القرية تعبير مَدَرَة. في الوقت ذاته، فإن هناك رأياً يقول بأن المقصود بما وَرَدَ في خطاب عامر بن الطفيل مع النبي (ص) (لنا الوَبَرُ ولكم المَدَرُ) إنما هو المدن والحضر لا القرى، وذلك لأن بناء دورهم كان بمادة الدرّ. وفي مجال آخر يقال إن مَدَرَة الشخص بمعنى بلدته. ويعرِّف الزبيدي المَدَرَة تعريفاً محدَّداً إذ يقول إن المدينة الضخمة كان يقال لها المَدَرَة[2]. وبذلك يمكننا إضافة تعبير المَدَرَة التي تعادل المدينة، ذات البناء الصلد، إلى مجموعة التعابير التمدُّنية التي استخدمها العرب للإشارة إلى المدينة، وكان التشديد في جميعها على معيار الاستقرار والإقامة في مكان محدَّد.

لهذا، فعند الحديث السابق عن التحديدات والتعريفات اللغوية لكلمة مدينة والتعابير الأخرى المستعملة تبرز عدة نقاط ومن أهمها:

١ ـ تعريف المدينة بأنها المكان أو الرقعة من الأرض التي يجتمع فيها الناس ويقيمون فيها ولها حدود ثابتة. وهو تعريف متطوّر للمدينة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار التحديدات التي وضعها علماء الاجتماع التمدُّني الأجانب بخصوص المدينة وهي:

---

(١) أنظر الجوهري: الصحاح (مادة حضر) الفيروزابادي (مادة حضر) الزمخشري أساس البلاغة (بيروت ١٩٦٥) ص ١٣٠، ابن منظور (مادة حضر) الزبيدي: تاج العروس (مادة حضر).

(٢) أنظر ابن دريد: جمهرة اللغة (ط١/١٣٤٥هـ) ج٢ ص٢٥٦، الزمخشري: أساس البلاغة ص ٥٨٦، الجوهري ج٢ ص ٨١٢، الفيروزابادي (مادة مدر) ابن منظور (مادة مدر) الزبيدي: (مادة مدر).

(أ) المدينة المكان الذي يجتمع فيه الناس في منطقة محدَّدة من الأرض.

(ب) المدينة هي المكان الذي يجتمع في الناس.

(ج) هي المكان الذي ينشط فيه أكثرية شاغليه بنشاطات اقتصادية غير زراعية(١).

٢ ـ كذلك فإن التحديدات اللغوية السابقة تعكس لنا الفهم المتطوّر للعرب بشأن المدينة حينما جعلوها تقابل الحضارة والأمة وهو مفهوم ينسب في مجال تحديد المدينة بمعنى الحضارة إلى شبنجلر وبودلنك(٢).

٣ ـ وتبرز تلك الأقوال والدلائل بأن الأمر كان واضحاً في أذهان العرب على أن المدينة هي ليست كلُّ مكان دونما شروط، إنما المكان الذي تقام فيه الحدود، وبأن جذرها اللغوي (دين) يرتبط ارتباطاً قوياً بمسألة العدالة والقضاء والقانون. ومن هنا يكون العرب قد سبقوا ماكس ويبر في تشديدهم على هذه الخصائص.

## المدينة والقرية في القرآن الكريم:

يمدُّنا القرآن الكريم بآيات غير قليلة تتعلَّق بموضوع تحديد معنى المدينة ومعاييرها، وهي إشارات تحمل أهمية كبيرة في دراسة الوضعية التمدُّنية العربية الإسلامية. فلقد وَرَدَ تعبير المدينة في العديد من الآيات الكريمة مبيِّنة بوضوح الحدود التمدنية لهذه الكلمة، ومن بين الآيات الكريمة التي وَرَدَتْ فيها كلمة مدينة آية: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة الأعراف]، ويظهر من استخدام كلمة

(١) Egon Ernest Hergel: Urban Sociology (New York 1955) P. 8.

(٢) Kenneth Boudling: «The Death of the City» in The Historian & City P. 133. كذلك اسوالد شبنجلر: تدهور الحضارة الغربية (بيروت ١٩٦٤) ج٢ ص ٣٦٦.

مدينة على أنها تشير إلى المكان الذي يقام به ويجتمع فيه الناس. ووَرَدَتْ أيضاً في سورة التوبة إذ جاء: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ والمقصود بالمدينة الواردة هنا يثرب. ووَرَدَتْ الكلمة في سورة الكهف إذ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾[(١)]. فالمدينة على هذا الأساس تمثّل سوقاً أو مركزاً اقتصادياً ثابتاً حيث التبادل النقدي هو أساس التعامل التجاري، وربما كانت الإشارة هنا إلى مدينة خارج الجزيرة العربية. ومن الجدير ذكره في هذا المجال، أن الآيات الكريمة التي وَرَدَ فيها ذِكْرٌ للمدينة تعكس، في أغلبها، الإشارة إلى المراكز التمدنية المتحضرة الواقعة في منطقة البحر المتوسط من أمثال إنطاكية وأفسوس ومصر[(٢)].. ولم يَرِدْ ذِكْرٌ لأيٍّ من المدن الواقعة في الجزيرة العربية أمثال مكة والطائف ومأرب وصنعاء تحمل تعبير المدينة عدا إشارة إلى مدينة يثرب (بتعبير مدينة) مما يحملنا إلى القول بأن الاستعمال القرآني الكريم لكلمة مدينة يشير إلى تلك المدن الكبيرة الرئيسة. وذلك لورود آيات متعددة أخرى يرِدُ فيها تعبير القرية التي قد يكون المقصود بها المدينة الصغيرة أو المتوسطة الحجم. ومن بين هذه الآيات آية في سورة البقرة جاء فيها: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[(٣)] فالآية ربما تشير إلى عاد أو ثمود أو غيرها من دول المدن في الجزيرة العربية. ووَرَدَ أيضاً في سورة الأنعام آية جاء

---

(١) أنظر كذلك الآيات الآتية التي وردت فيها كلمة المدينة: سورة يوسف/آية ٣٠، سورة الكهف ٨٢، سورة النحل/٤٨، سورة القصص/١٥، ١٨، ٢٠، سورة الأحزاب/٦٠.

(٢) حول هذا الموضوع أنظر الشيخ طنطاوي جوهري: الجواهر في تفسير القرآن الكريم ٩ ص ١٨٦، مصطفى الموسوي: العوامل التاريخية لنشأة المدن ص ٣٥٠ ـ ٣٥٥.

(٣) سورة البقرة/ ٢٥٩.

فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، واستخدام تعبير القرية في هذه الآية يشير بوضوح إلى القرية المدينة. وقال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾[1] وهنا أيضاً يتجلى الهدف من التعبير القرية = المدينة وبالتالي هي المكان الآهل بالناس.

وكذلك الحال فيما وَرَدَ في سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وقوله تعالى في سورة النمل: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ تبرز هذه الآيات الكريمة جميعاً أن المقصود بمفهوم القرية المدينة، علاوة على ذلك، فإن هناك آيات أخرى تشير إلى القرية التي تتضمَّن خصائص المدينة الميناء أو المدينة المرفأ كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾، أن استعمال تعبير القرية وكأنها الحاضرة يبرز بجلاء كونها مدينة وأنها حاضرة البحر بمعنى المدينة المرفأ التي تَرِدُها السفن أو المدينة الميناء. وكذلك في قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[2] فالقرية التي يأتيها الرزق من كلِّ مكان يُفْهَمُ منها المدينة الميناء حيث التجارات الواردة من كلِّ جهة.

---

(١) وللمزيد من الاستشهادات القرآنية أنظر سورة الكهف/٧٧ سورة الأنبياء/٦، ١١، ٧٤، ٩٥. سورة الحج/٤٥، ٤٨، سورة الفرقان/٤٠، ٥١، سورة الشعراء/٢٠٨، سورة القصص/٥٨، سورة العنكبوت/٣١، ٣٤.

(٢) هناك إشارات أخرى عن هذا الاستعمال في سورة الأعراف/٤، ١٦١، سورة النساء/٧٥، سورة الأنعام/١٢٣، سورة يونس/٩٨، سورة يوسف/٨٢، سورة الحجر/٤، سورة الإسراء/١٦.

ومما يزيد الأمر توكيداً ورود هذا المفهوم التمدني لكلمة مدينة وقرية في القرآن الكريم قوله في سورة الكهف: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ فالجدار المذكور لا بدَّ أن يكون مبنياً من مادة الطين أو الآجُرّ وهما مادتان عمرانيتان استخدمتا في المدينة بالدرجة الأولى. ووَرَدَ أيضاً في سورة القصص آية: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

علاوة على ذلك، فإن هناك آيات تشير إلى مدينة مكة بتعبير القرية كقوله تعالى في سورة محمد: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾[1]، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

من هذا كلّه، يمكننا القول بأن الإشارات التي وَرَدَتْ في الآيات القرآنية المذكورة في أعلاه تبيِّن بأن استخدام كلمة القرية على عدد من المراكز الواقعة في الجزيرة العربية والتي يتوافر فيها عدد من الخصائص المدنية إنما يُراد بها المدينة الصغيرة مقارنة بالمراكز التي اتخذت تعبير مدينة خارج الجزيرة العربية. وقد ميَّز القرآن الكريم بين هذه القرى أي المدن الصغيرة وبين تلك المدن.

## المدينة في الحديث الشريف:

ولعلّه من المفيد الإشارة إليه بأن التصوير الذي صوَّرته بعض الأحاديث النبوية الشريفة لتعبير المدينة والقرية يكاد يكون مماثلاً ومطابقاً لما وَرَدَ ذكره في الآيات القرآنية. والمعروف أن الأحاديث الشريفة تحتوي على معلومات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية غنية لا يمكن الاستغناء عنها في الكتابة عن بعض الجوانب من التاريخ العربي الإسلامي. فالأحاديث التي تضمَّنت تعبير

(١) أنظر أيضاً ما ورد في سورة سبأ/ ٣٤، سورة يس/ ١٣، سورة الأعراف/ ٩٤.

المدينة تشير، بصورة عامة، إلى تلك المدن الكبيرة المستقرة والواقعة خارج الجزيرة العربية كمدينة دمشق مثلاً. إذ قد جاء في حديث عن أبي الدرداء أن الرسول (ص) قال (إن فسطاط المسلمين يوم اللحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن[1] الشام)، فالتعبير يوضح بجلاء قِدَمَ وجود مدينة دمشق التي اتخذت خيام وفساطيط المسلمين إلى جوارها. ووَرَدَ التعبير، أي المدينة في حديث شريف آخر ذكره الإمام أحمد بن حنبل يقصد به مدينة القسطنطينية أو مدينة[2] رومية. وكذلك الحال في حديث آخر عن ابن عمر أنه قال (قال رسول الله (ص) يوشك المسلمون أن يحاصَروا إلى المدينة حتى يكون أبعد مساحلهم سلاح[3]). وهناك حديث ثالث استخدمت فيه كلمة مدينة للإشارة إلى مدينة رسول الله، يثرب، فقد وَرَدَ في الحديث (أتيتك من المدينة مدينة رسول الله..). وذُكِرَ أيضاً حديث عن أسلم بن أبي عمران أنه قال (غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة فحمل رجل على العدو..)[4] فالإشارتان السابقتان في الحديثَيْنِ يُقْصَدُ بهما مدينة يثرب حيث استخدم التعبير ذاته (المدينة) في الآيات القرآنية الكريمة، أما الإشارة الثانية في الحديث الأخير فإنه يُقْصَدُ به مدينة الروم القسطنطينية.

وفي نفس الوقت، فإن هناك حديثاً وَرَدَ فيه تعبير الأمصار بمعنى البلدان أو بالأحرى المدن، فقد روى أبو أيوب الأنصاري أنه سمع رسول الله (ص) يقول (ستفتح عليكم الأمصار وستكون جنود مجندة تقطع عليكم فيها بعوث)[5]. وبهذا الاتجاه يشير الحديث الشريف (رفعت مدائن كسرى وما حولها ومدائن

(١) أبو داود السجستاني (المتوفى ٢٧٥هـ) سنن (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) لبنان ج٤ ص ١١١.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (تحقيق أحمد محمد شاكر) ج٢ ص ١٧٤.
(٣) سنن أبي داود (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) ج٤ ص ١١١.
(٤) أنظر سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه (نشر محمد فؤاد عبد الباقي) المقدمة ص ١٧ سنن أبي داود ج٣ ص ١١ ـ ١٣.
(٥) سنن أبي داود (كتاب الجهاد) ج٣ ص ١٦.

كثيرة..)[1]. كما وَرَدَ في الحديث الشريف استخدام لتعبير المدينة بأنها المدينة الميناء أو المدينة المرفأ، فقد جاء في حديث نَبَوي شريف ما يأتي (سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر..)[2].

وهناك أحاديث تتضمَّن استخداماً لكلمة المدينة التي كانت تقوم بوظيفة الحصن، والواقع أن هذه الأحاديث قد ميَّزت بين الحصن أو القلعة وهو كما يُفْهَمُ من تلك الأحاديث، يشكِّل جزءاً من المدينة وبين ما يحيط به. فقد أورد الإمام أحمد بن حنبل حديثاً جاء فيه (أنه انتهى إلى حصن أو مدينة) وكذلك حديث (فيخرجون من مدائنهم وحصونهم) وحديث (وينحاز المسلمون إلى مدائنهم وحصونهم)[3].

## المدينة في نظر الفقهاء:

ولما كنا بصدد الفائدة التي استقيناها مما أورده القرآن الكريم والحديث الشريف بخصوص تحديد المدينة وتمييزها عن القرية، فإنه من الضروري جداً أن نعرِّج على موقف الفقهاء من هذه المسألة. فهل أبدى الفقهاء وأئمة المدارس الفقهية رأياً حول المعايير والخصائص التي ينبغي توافرها في مكان ما لكي يكون مدينة. يبدو أن هناك اتفاقاً عاماً بين الفقهاء المسلمين بصدد الشروط والمستلزمات التي يجب توافرها في عقد وإقامة الصلاة الجامعة يوم الجمعة، وذلك لأنها الصلاة الجامعة الرئيسة التي تقام في المسجد الجامع في كلِّ أسبوع، فضلاً عن اعتبار أن للمسجد الجامع خصوصية تمدُّنية وفقاً للمفهوم العربي الإسلامي. ولذلك يرى الفقهاء بأن هذه الصلاة الجامعة لا يمكن إقامتها في أيِّ مكان دونما تحديد. إذ لا يجوز إقامتها إلا في الأمصار، فقد وَرَدَ عن النبي الكريم (ص) حديثاً نصه (لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة)[4]. إنه من الواضح القول بأن ورود كلمة

(١) النسائي (ط/أوروبية) كتاب الجهاد ج٣ ص ٤٢.
(٢) صحيح مسلم بن الحجاج القشيري كتاب فتن ٧٨.
(٣) مسند أحمد بن حنبل ج٣ ص ٧٧، ج٥ ص٤٤.
(٤) جمال الدين عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي: نصب الراية لأحاديث الهداية (ط/١٩٣٨/١) ج٢ ص ١٩٥.

الأمصار في الحديث يُقْصَدُ به المدن التي أسسها العرب وأطلقوا عليها تعبير أمصار. ويأتي تحديد الماوردي في الأحكام السلطانية موافقاً تماماً لما وَرَدَ في هذا الحديث الشريف، إذ أشار بشأن صلاة الجمعة قائلاً بأنه لا يجوز إقامة صلاة الجمعة إلا في (وطن مجتمع المنازل)[1]. وتحديد الماوردي واضح بالنسبة إلى مفهوم المدن بمعنى المكان الذي يجتمع فيه الناس، فضلاً عن أنه تحديد يوافق تماماً ما سبق عرضه من آراء أصحاب المعاجم اللغوية في معنى المدينة وتعريفها. فهل يعني هذا أن عنصر اجتماع المنازل والناس هو العنصر الوحيد في تحديد المدينة؟ الجواب كلا، فإن شرط اجتماع المنازل، بحدِّ ذاته، يرتبط بعدد من الشروط منها:

(أ) ضرورة أن يقطن أو يقيم في هذا الوطن من تنعقد به صلاة الجمعة.

(ب) ضرورة أن لا يظعن أو لا يرحل من هذا الوطن هؤلاء الناس صيفاً أو شتاء[2].

وإذا ما دققنا النظر في هذين الشرطين نراهما يتطابقان أيضاً مع التحديدات السابقة للحاضرة، مما يقودنا إلى الاستنتاج بأن هناك توافقاً طبيعياً بين مفهوم اللغويين من العرب للحاضرة والمدينة وبين التحديد الفقهي.

أما بالنسبة إلى التحديدات التي طرحها الإمام أبو حنيفة بخصوص الشروط الواجب توافرها لإقامة هذه الفريضة الإسلامية، فإنه يُعَدُّ تطوُّراً فريداً في فَهْمِ العرب للمدينة ومعاييرها وبأنها مكان العدالة والقضاء. فهو يقول إن صلاة الجمعة تختصّ بها الأمصار دون غيرها، وإنه لا يجوز إقامتها في القرى. وقد اعتبر أبو حنيفة المصر هو ذلك المكان حيث يتوافر فيه:

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٠٣.

(٢) الماوردي: الأحكام ص ١٠٣. والنص الذي ورد فيه هذا القول هو أن الأهالي (لا يظعنون منه شتاء ولا صيفاً إلا ضمن حاجة سواء كان مصر أو قرية).

(أ) سلطان يقيم الحدود.

(ب) قاضٍ ينفّذ الأحكام[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفقهاء فيما قد اتفقوا على تحديد معنى المصر بأنه وطن مجتمع المنازل، فإنهم من الجانب الآخر لم يعيّنوا عدداً أو رقماً معيَّناً لعدد هذه المنازل أو لعدد الأفراد الذين يحلُّونها. كذلك فإن الفقهاء اختلفوا في عدد الأشخاص الذين يحضرون المسجد الجامع لكي يقيموا باجتماعهم صلاة الجمعة. فاعتماداً على رَأيِ الإمام الشافعي أن هذه الصلاة لا تنعقد إلا باجتماع أربعين رجلاً من أهل الجمعة، في حين حدَّدها الإمام أبو حنيفة بأربعة أشخاص بدلاً من أربعين وأن يكون إمام الجمعة أحدهم، ورأى الإمام مالك بأنه لا أهمية ولا اعتبار لعدد الأشخاص في انعقاد الجمعة وإنما الأهمية في أن يكون عدداً كافياً بحيث تُبنى له الأوطان عالياً (ومالك في هذه الإشارة قد يقصد المنازل والدور المبنية الثابتة) والدليل على هذا ما وَرَدَ بأنه لا يجوز إقامة صلاة الجمعة في السفر أو في خارج المصر إلا أن يتصل بناؤه[2].

والواقع أن الإشارة إلى ضرورة توافر أربعين شخصاً في مكان ما كَنِصابٍ شرعيٍّ لأن يصبح ذلك المكان مدينة ولكي تقام فيه صلاة الجمعة يتضمَّن أهمية تمدُّنية واضحة إذ تعكس جانب الكثافة السكانية. ويبدو أن الرقم (٤٠) يحمل مضمون الكثرة العددية بصورة مطلقة، وأن هنالك عدداً من الروايات التاريخية التي تشير إلى المساجد الجامعة التي اختطَّها العرب المسلمون في بعض

---

(١) الماوردي: الأحكام ص ١٠٣ كذلك أنظر الحديث الشريف الذي سبق ذكره بأن صلاة الجمعة لا تقام إلا في مصر جامع والقول أيضاً في رواية أخرى لهذا الحديث بأنه مصر جامع أو مدينة عظيمة.

(٢) أنظر الماوردي: الأحكام ص ١٠٣. وقد ورد بأنه إذا كان المصر جامعاً لعدد من القرى التي اتصل بناؤها بحيث أصبح واسعاً بكثرة أهله كبغداد فإنه في هذه الحالة يجوز إقامة الجمعة في المواضع القديمة منه وأن اتصال البنيان لا يمنع من إقامتها في مواضعها. واختلف الفقهاء أيضاً فيما إذا كان الإمام من بين الأربعين شخصاً أم لا.

الأمصار الإسلامية كالبصرة والكوفة بأنها كانت واسعة البناء بحيث إنها تتسع إلى أربعين ألفاً من المصلّين لا أربعين مصلّياً فقط كما وَرَدَ سابقاً. وفي القرآن الكريم عدد من الآيات الكريمة التي جاء فيها ذِكْرٌ للعدد (٤٠) كإشارة إلى الحدّ الأعلى أو إلى الكثرة العددية أو إلى مرحلة البلوغ كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وقوله عزّ وجلّ في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[1].

في نفس الوقت، هناك عدد من الأحاديث النبوية التي يَرِدُ فيها ذِكْرٌ للرقم أربعين كمؤشّر على الكثرة أيضاً كحديث «وما بعثته في الأرض قال أربعون يوماً» وحديث آخر «فيقوم على جنازته أربعون رجلاً» وحديث «بعث الله لأربعين سنة» وحديث «كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله[2] أربعين يوماً».

من هذه الاستشهادات يمكن القول بأن الأربعين شخصاً الوارِدَ ذِكْرُهُم في مجال عدد المصلّين إنما هو توضيح بارز لفكرة الاجتماع العددي الكثير باعتباره سِمَةً مميِّزة لمكان ما لكي يكون مدينة. فضلاً عن ذلك، فإن ما تقدَّم يشير إلى أن الفقهاء المسلمين قد وضعوا نُصْبَ أعينهم مسألة توافر عدد من الخصائص والشروط التي يمكن الركون إليها في تحديد ماهية المكان وحجمه وفيما إذا كان مدينة أم غير ذلك. والخصائص هي:

---

(١) كذلك أنظر الآية ١٤٢ في سورة الأعراف ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.
(٢) أنظر سنن أبي داود (كتاب الملاحم) سنن لابن ماجة (باب الفتن). صحيح مسلم (باب الفضائل) سنن الترمذي (باب طهاره).

(أ) القدرة البشرية والكثافة السكانية.

(ب) وجود سلطة قضائية تقيم الحدود.

(ج) تطوُّر عمراني

* * *

## المدينة في نظر الجغرافيين

ومن الأمور المهمة أن الجغرافيين العرب قد أشاروا إلى عدة تحديدات وتعريفات للمدينة ومعاييرها تشابه، إلى حدٍّ ما، تلك التحديدات التي عرضتها المصادر اللغوية والفقهية، مما يوضح بجلاء الاتفاق السائد في الرؤية العربية للمدينة. ويُعَدُّ الجغرافي المقدسي من أكثر الجغرافيين العرب دقة ومباشرة في هذا المجال، إذ يعرض ثلاثة تحديدات تمثّل، بدورها، أربع وجهات نظر: أولها الفهم الجغرافي، فإنه جمع هذا الفهم في العبارات الآتية قائلاً «أعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجاله» ويفسّر هذه التعابير وصولاً إلى تحديد خصائص المدينة فيقول (وأما نحن فجعلنا المصر كلّ بلد حلَّه السلطان الأعظم وجُمِعَتْ إليه الدواوين وقُلّدَتْ منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم) وتمثّل وجهة النظر الثانية رَأْيَ الفقهاء في المدينة فيقول إنهم اختلفوا في تحديد معنى المصر، فكان هذا بحسب رأيهم (كلّ بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلُّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه). ويعرض المقدسي في وجهة النظر الثالثة ما كان متداولاً بين الناس بالنسبة إلى مفهوم المدينة فيقول (والمصر عند العوام كلُّ بلد جليل). أما المفهوم الرابع فهو الذي يعرض وجهة نظر اللغويين من أن المصر (كلُّ ما حُجِزَ بين حدَّين)[1].

لقد قدَّم المقدسي عدة استشهادات على المفاهيم التي عرضها بشأن المدينة أو بالأحرى المصر. فمن بين المراكز الحضارية التي ينطبق عليها التفسير

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٧.

الجغرافي الأول هناك مدينة دمشق والقيروان ويدخل ضمن الصنف أيضاً بعض الأمصار والقصبات التي تتبعها نواحٍ لها مدن أمثال طخازستان لبلخ والبطائح لواسط والزاب لأفريقية. ومن بين النماذج التي يمكن تطبيقها كأمثلة على التحديد الفقهي للمصر نابلس وزوزن. وأن مدن الريّ والموصل والرملة تمثّل المفهوم الثالث للمصر، بينما كانت البصرة والرقة وأرجان[1] النماذج التي ينطبق عليها التفسير الرابع.

والحقيقة أننا إذا ما استبعدنا المفهوم الشائع للمصر عند الناس وكذلك وجهة نظر أهل اللغة، فإنه بالإمكان الوصول إلى جملة من الخصائص المشتركة بين تفسير الفقهاء والجغرافيين. بمعنى التفسير النظري والتفسير التطبيقي. فالمكان بحسب ما وَرَدَ في هذين التفسيرين يتمتع بالسِّمات الآتية:

(أ) بلد جامع.

(ب) تقام فيه الحدود.

(ج) يحلُّه أمير.

(د) ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه.

هو المكان الذي ينطبق عليه مفهوم المصر. إن تعبير (البلد الجامع) يشابه إلى قدر معيَّن ما يعبِّر عنه أغلبية الناس بخصوص المدينة أنها (البلد الجليل). فالتركيز في هذين التعبيرين البلد الجامع والبلد الجليل على حجم المكان وكثافة السكان. أما بالنسبة إلى السِّمة الثانية المتعلقة بإقامة الحدود، فإن المقصود بها توافر عنصر القضاء والمحكمة وتطبيق الشرع. وتشير السِّمتان الثالثة والرابعة إلى معيار أو خصيصة الحكم الذاتي واستقلال المصر اقتصادياً. في نفس الوقت، فإن الخصائص التي ركز عليها الجغرافيون هي:

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٧.

(أ) أن يحلَّ المكان السلطان الأعظم.

(ب) أن تُجمع إليه الدواوين.

(ج) أن تقلَّد منه الأعمال.

(د) أن تُضاف إليه مدن الأقاليم.

فإذا ما أخضعنا الأمثلة والنماذج التي عرضها المقدسي عن هذا المفهوم للمصر إلى الدراسة والتحليل، سنجد بأن المقصود بتعبير السلطان الأعظم المشار إليه في الفقرة (أ) يعادل منصب الأمير الذي ذكره الفقهاء، والدليل على ذلك أن كلاً من دمشق والقيروان الواردتين في النموذج كانتا فعلاً من المدن أو الأمصار التابعة لمركز الخلافة العربية الإسلامية. أما بخصوص الخصائص المتبقية التي ركز عليها الجغرافيون فَتُعَدُّ أيضاً تعبيراً واضحاً عن فكرة استقلال المدينة أو الحكم الذاتي فيها وتعبيراً عن بُنْيَتِها الاقتصادية.

وهناك سؤال يتبادر إلى الذهن عن مدى واقعية تحديدات المقدسي؟ وهل حاول تطبيقها، أعني رؤيته لخصائص المدينة، على ما أدلى به من معلومات جغرافية عن المدينة العربية في كتابه أم أنها كانت رؤية نظرية؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فهل تشدَّد في ذِكْرِها وإبراز مدلولاتها الحضارية في حقل المدن؟ الحقيقة أن كتاب أحسن التقاسيم يضمُّ أمثلة عديدة تؤكد على أن صاحبه، المقدسي، كان يعي أهمية هذه الخصائص وضرورة توافرها في المصر، إذ إنه ذكر في عدة مرات بأن القصبة هي بمثابة المدينة الرئيسة أو العاصمة، إلى حدٍّ ما، فالرملة مثلاً قصبة فلسطين والفسطاط قصبة مقدونية وبلبيس قصبة الجوف والعباسية قصبة الريف بمصر[1]. كذلك فإنه طبَّق معيار (وجود السلطان الأعظم في المصر) على النماذج التي جعلها بمرتبة المدينة أو المصر. فقد أشار، عند ذكره مدينة حلب في بلاد الشام، إلى أنها (بلد نفيس خفيف... في وسط البلد قلعة حصينة واسعة وفيها ماء وخزائن السلطان

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٣، ٩٤.

والجامع. . . والقصبة ليست بكبيرة إلا أن بها مستقر السلطان)[1]. كذلك فإنه أشار خلال حديثه عن مدينة الفسطاط بمصر فقال ما نصه (هو ـ الفسطاط ـ مصر في كلِّ قول لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه)[2] ولعلَّ المقدسي في هذا المثال، ينبِّه إلى أهمية عنصرَيْنِ جغرافيَّيْنِ آخرَيْن هما مساحة المدينة وموقعها وكذلك كثافة سكانها، الأمر الذي سنجد في النماذج التي سنذكرها لاحقاً أهميتهما في تحديد المدينة وتعريفها.

ومع ذلك كلِّه، فإن المقدسي قد وقع في بعض الحالات في تناقض ولاسيما حينما تطرَّق إلى الاستشهادات المرتبطة بفكرة المدينة والمصر، فإنه بينما يقول ما نصه (ولا مدينة في قياس علمنا هذا إلا بمنبر)[3] نراه يشير في عدة أماكن من كتابه إلى مراكز تحمل صفة المدن لكنها لا تحتوي على منبر. كذلك فإنه بينما يذكر في كتابه ما نصه بأنه (ليس كلُّ قصبة مصر)[4] في حين أنه أورد في قائمة الأمصار التي سبق ذكرها بعض القصبات لا تحمل صفة المصر، فقد أشار إلى أن سمرقند وإيران شهر وشهرستان وأردبيل والأحواز وشيراز والمنصورة ومكة وبغداد والموصل ودمشق والفسطاط والقيروان وقرطبة هي المراكز التمدُّنية التي تُعَدُّ أمصاراً مضيفاً إلى قوله هذا ملاحظة مهمة تفيد بأن ما تبقّى من مراكز ومدن عربية إسلامية هي قصبات وليست أمصاراً أمثال بلخ وبست وزرنج وتستر وصنعاء والبصرة والكوفة وواسط وحلوان وسامراء وتاهرت وفاس وسجلماسة. ويبرز تناقض آخر في إشارته السابقة بأن بلخ هي مصر ولها نواحٍ، كذلك في مجال إشارته إلى المدن المركَّبة، إذ يقول ما نصه (أما المدن المحيطة بقصباتها مثلاً في البصرة الأبُلّة ومطارا[5] ومذار وعبادان) في الوقت

(1) ن.م ص ١٥٥، ياقوت الحموي: معجم البلدان (بيروت) ج٢ ص ٢٨٢.
(2) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٧.
(3) ن.م ص١٩٣.
(4) ن. م ص ٤٧ ـ ٤٨.
(5) ن. م. ص ٤٧ ـ ٤٨.

الذي جعل فيه البصرة، كما مرَّ قبل صفحات، ضِمْنَ القائمة التي تشير إلى القصبات. ولعلَّ هذا التناقض يرجع بشكل أساس إلى أن الجغرافيين العرب قد شذّدوا على جانب مهم في عملية التمييز بين الأمكنة وفيما إذا كان هذا المكان هو مدينة كبيرة أم مدينة متوسطة أم مدينة صغيرة. ويرتبط بهذا الجانب أيضاً أمر آخر هو مبدأ العاصمة أو المدينة العاصمة والمدينة أو المدن التابعة للمدينة العاصمة. علاوة على ذلك، فإنه اعتماداً على قول ياقوت الحموي قد يرجع هذا التناقض إلى الاختلاف والتباين الموجود بين بعض التعابير التمدُّنية بين منطقة وأخرى من العالم الإسلامي، إذ يشير الحموي بخصوص اصطلاح الإقليم قائلاً بأنه اصطلاح متعارف عليه عند العامة وجمهور الأمة، إذ إنهم يسمّون كلَّ ناحية مشتملة على مدن وقرى إقليماً، أمثال الصين وخراسان والعراق والشام وأفريقية ومصر، في حين أن أهل الأندلس يطلقون على كل قرية كبيرة جامعة إقليماً، فإن قال الأندلسي (أنا من إقليم كذا يعني أنه من بلدة كذا..)[1]. ويذكر ياقوت أيضاً خلال حديثه عن كورة (مريه) في الأندلس قائلاً إنها كورة واسعة في الأندلس ولها من الأقاليم بنحو من الثلاثين كورة، ويضيف إلى هذا التحديد قولاً بأن أهل المغرب يسمّون الناحية إقليماً[2]، يتبيَّن من هذه النصوص أن هناك غموضاً في رؤية الجغرافيين بشأن التحديد الدقيق للقصبة وغيرها من المصطلحات التمدنية، وللتدليل على هذا أيضاً، الإشارة التي أوردها الجغرافي قدامة بن جعفر حيث يقول (لا بدَّ لسائر النواحي من قصبة يشار منها إلى نواحيها فتقول قصبة مملكة الإسلام العراق)[3]. فالقصبة عند قدامة بن جعفر تعبير واسع أوسع بكثير من المدينة في الوقت الذي يجعل المقدسي القصبة أقلَّ درجة من المصر كما ألمحنا في السابق. وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى التحديد الذي طرحه ياقوت الحموي بهذا الصدد، إذ يذكر أنه لا بدَّ للكورة من قرى عديدة وأنه (لا بدَّ لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر... يجمع اسمها ذلك

---

(١) أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص ٢٦، ج٣ ص ١١٦، كذلك أنظر تعريفه للكورة ج١ ص ٣٦.

(٢) ياقوت الحموي: ج٣ ص ١١٦.

(٣) قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتاب (اغتناء دي غويه) ص ٢٣٤.

اسم الكورة)[1]، حيث يُفْهَمُ من هذا القول إن القصبة والمدينة هما تعبيران متعادلان من حيث الأهمية تقريباً.

لذلك، فإنه يبدو من هذا العرض بأن فَهْمَ المقدسي لتعبير السلطان الأعظم هو تعبير يشابه ما أشار إليه الفقهاء بالأمير، عندئذٍ تكون خصائص المدينة التي شخَّصها المقدسي متقاربة أيضاً أو متشابهة تقريباً للخصائص التي حدَّدها الفقهاء. وعلينا أن لا نغفل ما يتضمَّنه فَهْمُ المقدسي ورؤيته للمدينة المركبة التي اصطلح عليها بالمدينة المحيطة بقصباتها من أهمية تمدُّنية.

* * *

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص ٣٧.

الفصل الثاني

# خصائص المدينة العربية الإسلامية

لقد سبق أن أوضحنا في الفصل السابق موقف العرب ورؤيتهم للمدينة العربية وتحديد معاييرها الأساسية. وهو حسبما وَرَدَ مفهوم متطوِّر سواء أكان ذلك في تحديدهم لمعنى المدينة أم في تركيزهم على وظيفتها أم في جَعْلِهِم المدينة وكأنها تعادل مفهوم الحضارة، أم في إظهارهم وإبرازهم للدور الذي لَعِبَتْهُ في التاريخ العربي وهي مفاهيم ورؤى نسبت دون حقٍّ إلى إسهامات الأجانب في حقل التمدُّن دون سواهم.

أما الموضوع الآخر الذي نُسِبَ إلى الأجانب أيضاً دون العرب فهو خصائص المدينة، إذ إن الكتابات الأجنبية بهذا الجانب تُرْجِعُ مسألة الخصائص والمعايير المدينية إلى ماكس ويبر وغيره. فما هو موقف الكتّاب العرب والجغرافيين منهم، بصورة خاصة، تجاه موضوع الخصائص؟ هل شدّدوا أيضاً على عدد من الخصائص والمستلزمات الضرورية في جَعْلِ هذا المكان مدينة وذاك قرية والخصائص الضرورية في تحديد وظيفة المدينة العربية الأساسية؟ هل هناك قواسم مشتركة فيما يخصُّ خصائص المدينة، بين قطاعات أو نماذج متنوِّعة للمدن العربية أم أنها خصائص منعزلة واعتباطية وَرَدَتْ هنا وهناك دونما رابطة مشتركة؟

لا بدَّ لنا في بداية الحديث عن مساهمة العرب في هذا الموضوع أن نكرِّر رؤية الفقهاء في المدينة وتشديدهم على المستلزمات الضرورية في المكان الذي يرتفع إلى مرتبة المدينة والمستلزمات هي: القضاء (بمعنى القانون وتطبيق

الشريعة) والاستقلال المالي والاقتصادي. وقد ذكرنا بأن هاتين السّمتين من السّمات البارزة في قائمة خصائص ماكس ويبر الخمسية التي يعتمد عليها الكثير من الباحثين الأجانب في دراساتهم عن المدن العربية الإسلامية. زيادة على ذلك، فإن دراسة ما كتبه الجغرافيون العرب تكشف عن هذه الحقيقة وهي أن هؤلاء أيضاً قد شخّصوا من الخصائص والمستلزمات المشتركة في التمييز بين المدينة وغيرها من المراكز، ولتحقيق هذا الغرض فإننا سندرس مجموعات من المدن العربية وأقوال وأوصاف الجغرافيين فيها.

ومن الجدير بالملاحظة أن الجغرافيين أوردوا عدداً من التعابير التي يستشفُّ منها بأنها تمثّل، إلى حدّ ما، فلسفة تصنيفهم للمراكز الحضارية، والحقيقة أن ذلك التصنيف يمتُّ كثيراً إلى النظريات التمدُّنية الحديثة. فهناك تعابير تمدُّنية ذات صِيَغٍ عامة من أمثال ولاية وكورة وناحية، التي يُفْهَمُ من أوصاف الجغرافيين لها بأنها عبارة عن مناطق جغرافية واسعة أوسع بالتأكيد من المدينة، وأن المدينة تُعَدُّ جزءاً إدارياً أو جغرافياً منها. في الوقت ذاته، تتردد تعابير أخرى أمثال مدينة ومدينة كبيرة ومدينة صغيرة التي تعكس مسألة التركيز على الحجم (في المساحة أو السكان أو كليهما)، كما أن هناك تعابير من أمثال مدينة وكورة في آن، أو مدينة عظيمة وهي ولاية أيضاً إشارة إلى سَعَةِ المدينة وتزايد أهميتها ويوجد في الكتب الجغرافية أيضاً تعبير ثالث من أمثال قصبة أو مدينة عامرة وهي قصبة في نفس الوقت أو ناحية، وهي تقوم بوظيفة القصبة أيضاً كإشارة إلى تمييزها عن المدينة، ولأنها قد تقوم بوظيفة العاصمة أو المدينة العاصمة. والأهم من ذلك، ورود تعبير قرية تقوم بوظيفة القصبة الأمر الذي يسمح لنا بالقول بأنها إما أن تكون قرية كبيرة تشبه المدينة أو أنها كانت مدينة قصبة ثم تحوَّلت ظروفها التمدُّنية إلى قرية لكنها لم تفقد وظيفتها الأساسية كقصبة.

وفي الجانب الآخر، فإن الجغرافيين العرب يكرِّرون استخدام تعبير رابع هو بلدة وبِصِيَغٍ وأشكال متعددة، فهناك بلدة وبليد وبليدة كبيرة وبلد. وقد تعكس هذه التعابيرُ مفهوماً مهماً إزاء الموضع الذي يمثّل حلقة الوصل بين المدينة

والقرية، أو أنها قد تكون إشارة إلى مدينة بخصائص أقلّ من المدينة الكبيرة مثلاً. ووَرَدَ تعبير البلدة بصيغة أخرى من أمثال بلدة ولها كورة وهو أمر غريب على اعتبار أن الكورة تعني منطقة واسعة جغرافياً، مما قد يُسْتَشَفُّ منه بأنها بلدة نُسِبَتْ إلى الكورة أو نَمَتْ بنموِّها. كذلك وَرَدَ تعبير مهم آخر وهو بليدة وقصبة في الوقت ذاته، كما وَرَدَ تعبير بلدة عظيمة وبليدة صغيرة. وفي مجال آخر وَرَدَ تعبير بلد وولاية التي ربما تشابه ما ذكر من بلدة ولها كورة.

ومن بين التعابير الأخرى التي استعملها الجغرافيون كإشارة إلى المراكز المدنية تعبير حصن صغير أو موضع أو صقع وهناك تعبير يشير إلى وظيفة الموضع الاقتصادية أمثال فُرضة أو مرفأ، كما أن هناك تعابير مرادفة للعاصمة أمثال قاعدة أو كرسي أو منبر[1]. ولعلَّه من المفيد القول بأن الجغرافيين من جهة أخرى ميَّزوا بين هذه التعابير الدّالّة على المدينة بحجومها المختلفة وبين القرية وأنهم لم يغفلوا ذِكْرَها وطبَّقوا عليها نفس الأسلوب في تصنيعها إلى قرى صغيرة وأخرى كبيرة اعتماداً على المساحة أو السكان أو الأهمية، ومن بين التعابير التي استخدموها في هذا المجال تعبير قرية، وقرية كبيرة أو قرية كبيرة كالمدينة أو قرية كبيرة شبيهة بالمدينة أو قرية كالبلدة. والتعابير كما هو واضح، تدلُّ دلالة واضحة على تصوُّر دقيق لدرجات هذه المراكز ووظائفها.

وعلى العموم، فإن مثل هذه التعابير المتعدِّدة إنما تشير بجلاء إلى رؤية الجغرافيين العرب الدقيقة للمدينة الكبيرة والصغيرة وللبلدة والبليدة وللقرية والقرية الكبيرة التي تشبه المدينة وغير ذلك. ويبدو أن هؤلاء الجغرافيين كانوا مدركين للتحوُّلات التمدُّنية التي تطرأ على هذه المواضع فتحوّلها من مدينة إلى قرية، كما أنهم كانوا مدركين لمضامين ومدلولات هذه التعابير. ولكي نوثّق هذا

---

(١) أنظر الإصطخري: الأقاليم ص ١٤، ٢٠، ٢٩، ٣٤، ٣٩ ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٧، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، وفي معجم البلدان لياقوت الحموي استشهادات كثيرة حول الموضوع أنظر على سبيل المثال ج١ ص ٢٨٨، ٣٣٠، ٣٨٧، ٤٠٤، ج٢ ص٩٢، ١٩١، ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٧، ٤١٣، ٤٧٨، ٥١٢، ج٣ ص١٢٨، ٢١٢، ٢٢٢ ج٤ ص ٢٨١، ٤٢٨، ج٥ ص٧، ٦٦، ٢٣٣، ٢٩٤، ٣٢٠، ٣٥٠.

الاستنتاج، بصورة دقيقة، نستشهد بعدد من الاستشهادات الوصفية وهي استشهادات انتقيناها دون تحديد جغرافي، إنها أمثلة لمدن عراقية ومصرية ومغربية وأندلسية ومشرقية أوردها الجغرافيون. وهناك قائمة مفصّلة لعدد من النماذج والأمثلة تجدها في آخر هذا الكتاب.

يمكننا تقسيم أوصاف الجغرافيين للمدن العربية الإسلامية وفقاً للوظائف والمهمات الرئيسية التي تميَّزت بها دون غيرها، وذلك اعتماداً على الخصائص والمستلزمات التي انفردت بها المدن. فهناك مثلاً خصائص متميِّزة انفردت بها المدن التي كانت تقوم بوظيفة المدينة القصبة، إذ أورد الإصطخري عن شيراز المدينة التي استحدثها العرب إلى جوار إصطخر في بلاد فارس، وصفاً جاء فيه أنها (نحو من فرسخ في السَّعة وليس عليها سور وهي مشبكة البناء كثيرة الأهل ودواوين فارس وعمالها وولاة الحرب فيها)[1]. فالتركيز كان في هذا الوصف القيِّم على ١ ـ مساحة المدينة ٢ ـ ازدحام السكان بها ٣ ـ والأهم كثيراً اعتبارها مركزاً للدواوين ومقرًّا لإقامة ولاة فارس وعمّالها. ويحدثنا المقدسي عن الفسطاط القصبة قائلاً إنها (مصر في كلِّ قول لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه وتنضر إقليمه واشتهر اسمه.. فهو خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم ليس في الأمصار أجلُّ منه كثير الأجلّة والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الأسواق والمعايش.. إلى حمّاماته المنتهى ولقياسيره لباقة وبها.. ليس في الإسلام أكبر مجالس منه جامعة ولا أحسن تجمُّلاً من أهله ولا أكثر مراكب في ساحله)[2]. تبرز من خلال هذا الوصف البديع لمدينة الفسطاط القصبة جملة خصائص أساسية تتقابل تقريباً مع بعض خصائص مدينة شيراز القصبة، وهي ١ ـ المساحة حيث تتصف بالكبر ٢ ـ زحمة السكان ٣ ـ أن الفسطاط مركز إداري تجتمع فيه الدواوين. علاوة على هذه الخصائص المشتركة تميَّزت الفسطاط مركز إداري تجتمع فيه الدواوين. علاوة على هذه الخصائص المشتركة

---

(١) الإصطخري: المسالك والممالك (نشر دي غوييه) ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) (المقدسي): أحسن التقاسيم ص ١٩٧.

تميّزت الفسطاط حسبما أشار المقدسي بـ : ١ ـ رخاء اقتصادي ناتج عن أهمية المدينة من الناحية التجارية فكثرت أسواقها وقيسرياتها وتجّارها ٢ ـ رخاء الأسواق ٣ ـ كثرة الحمّامات ٤ ـ الشهرة العلمية بما احتوت من علماء ومشايخ. كذلك ذكر ياقوت الحموي وصفاً لمدينة قصبة تقع بالقرب من بلخ تدعى الأنبار فقال عنها إنها (مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان وهي أكبر من مرو الروذ[١] ولها مياه وكروم وبساتين كثيرة وبناؤهم طين) هنا أيضاً نجد التركيز يتمثّل بـ: ـ ١ ـ مساحة المدينة القصبة ٢ ـ إنها كانت محل إقامة السلطان ٣ ـ توافر المياه ٤ ـ البناء بالطين. ومن بين الاستشهادات الأخرى، نشير إلى مدينة المنصورة بالهند وهي أيضاً مدينة قصبة، وُصفت بأنها قصبة أرض السند وأنها «مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ذات جامع كبير سواريه ساج ولهم خليج من نهر مهران، وفي أهلها مروة وصلاح ودين وتجارات وشربهم من نهر المدينة يقال له مهران وأسعارهم رخيصة»[٢]. بذلك تكون خصائص هذه المدينة التي تلعب دور القصبة هي: ١ ـ المساحة ٢ ـ وجود المسجد الجامع ٣ ـ رخاء اقتصادي ٤ ـ توافر مياه الشرب. ولقد اتُّخذت مدينة صحار في عمان قصبة لتوافر عدد من الخصائص المتشابهة مع ما تمَّ ذِكْرُهُ في المنصورة، إذ وُصِفَتْ بأنها مدينة (طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجُرّ والساج، كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها)[٣]. ويضيف المقدسي على هذا الوصف عدداً آخر من خصائصها التمدُّنية فيقول إن (صحار ليس على بحر الصين بلد أجلُّ منه عامر حسن طيب نَزِهٌ ذو يسار وتجار وفواكه أجلّ من زبيد وصنعاء، وأسواق عجيبة وبلدة طريفة ممتدة على البحر، ودُورهم من آجُرّ وساج شاهقة والجامع على الساحل ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سَعَةٍ من كلّ[٤] شيء) فالخصائص التي جعلت من صحار أن تكون قصبة عمان هي: ١ ـ المساحة وأنها أجلُّ من زبيد وصنعاء ٢ ـ المسجد الجامع ٣ ـ موقعها

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٢٥٧.
(٢) ن. م ج٥ ص ٢١١.
(٣) ياقوت الحموي: ج٣ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٩٢ ـ ٩٣.

الاستراتيجي التجاري ٤ ـ توافر الأسواق العجيبة التي هي من المحتمل تضمُّ سلعاً وبضائع تَرِدُها من الخارج ٥ ـ توافر المياه العذبة الصالحة للشرب ٦ ـ بناء دُور أهاليها من الآجُرّ والساج ٧ ـ المناخ الملائم. وفي نفس الوقت صارت فيه مدينة قوس قصبة الصعيد في مصر لأنها (مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محطّ التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة)[١]، فمدينة قوس إذن تمتعت بخصائص: ١ ـ المساحة والكبر ٢ ـ الموقع التجاري وتوافد التجار عليها. وصارت مدينة شهرستان قصبة بلاد سابور لأنها (كانت عامرة، آهلة، كثيرة الخيرات، معدن الخصائص والأضداد ويجتمع فيها الأترج والقصب والزيتون والعنب، وأسعارهم رخيصة وبها بساتين كثيرة وعيون غزيرة ومساجد محفوظة)[٢]، هنا أيضاً تبرز خصائص مشتركة: ١ ـ سعة المساحة ٢ ـ وجود المسجد الجامع وعدد آخر من المساجد ٣ ـ زحمة السكان ٤ ـ الرخاء الاقتصادي ٥ ـ توافر المياه من العيون. تلك الخصائص التي جعلت شهرستان تمثّل المدينة القصبة. كذلك فقد وصف المقدسي مدينة زبيد في اليمن بأنها (قصبة تهامة وهو أحد المِصْرَيْن لأنه مستقرُّ ملوك اليمن، بلد جليل، حسن البنيان يسمّونه بغداد اليمن.. وبه تجّار وكبار وعلماء وأدباء، مفيد لمن دخله، مبارك على من سكنه، آبارهم حلوة وحمّاماتهم نظيفة، عليه حصن من الطين)[٣]، فمدينة زبيد صارت قصبة لأنها تتميّز بـ: ١ ـ كبر المساحة ٢ ـ محل إقامة ملوك اليمن ٣ ـ رخاء اقتصادي ٤ ـ توافر المياه الحلوة ٥ ـ توافر الحمّامات ٦ ـ وجود سور من الطين. أما مدينة سجلماسة في المغرب فإنها كانت (قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها. وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين، وسطها حصن يسمّى العسكر، فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحرّ والبرد جميعاً، صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات،

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص ٤١٣.

(٢) ن. م. ج٣ ص ٣٧٦.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٧١، ٨٠.

كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كلِّ بلد، ومع ذلك ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة. وهي في رمال ولهم مياه)[1]. إن قراءة السّمات التي تميَّزت بها سجلماسة تجتمع وتوافق، إلى حدٍّ كبير، تلك السمات التي تمَّ ذِكْرُها في المدن القصبات وهي:

١ ـ سَعَةُ المساحة

٢ ـ فيها دار الإمارة

٣ ـ وجود المسجد الجامع

٤ ـ رخاء اقتصادي

٥ ـ موقعها التجاري

٦ ـ توافر المياه

٧ ـ لها سور من طين

وفي الجانب الآخر يمكننا القول إن هناك خصائص مشتركة ومتشابهة إلى درجة كبيرة بين مدن تمثّل صنفاً آخر وهي المدن العامة التي لم تُتَّخَذْ قصبات، أقصد المدن بمفهومها المجرَّد. والواقع أن دراسة الأوصاف الجغرافية التي تشمل هذا الصنف من المدن تمكن الباحث من إيجاد قواسم مشتركة بين خصائص ومعايير المدينة بشكل عام وخصائص المدينة القصبة. فقد جاء في وصف مدينة قرطبة في الأندلس أنها (ليس بجميع المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر يدانيها في كثرة الأهل وسَعَةِ رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمّامات وفنادق وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة وكثرة المال)[2]، فقد جعل الجغرافي ابن حوقل مدينة قرطبة مهمة وحيوية بالنظر إلى ما تتوافر فيها من خصائص وهي: ١ ـ سَعَةُ المساحة ٢ ـ كثرة السكان وازدحامهم ٣ ـ رخاء اقتصادي ٤ ـ رخاء الحياة في أسواقها ونشاطها

---

(١) ن. م. ص ٢٣١.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

٥ ـ كثرة الحمّامات والفنادق كتعبير عن كثرة من يرتادها ٦ ـ توافر المساجد ٧ـ نظافة المدينة. أما مدينة حماة في بلاد الشام فقد وُصِفَتْ بأنها (مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وبظاهر السور حاضر كبير جداً فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي)[١]. فالخصائص التي يمكن إبرازها في مدينة حماة هي: ١ـ سَعَةُ المساحة ٢ ـ رخاء اقتصادي ٣ ـ نشاط أسواقها ٤ ـ وجود سور يحيط بها ٥ ـ المسجد الجامع ٦ ـ توافر المياه. وما قيل في وصف مدينة كتّه أو كثّه بأنها (من أجلّ المدن التي تكون بكورة إصطخر.. وهي مدينة على طرف البرية ولها طيب هواء وتربة وصحة وخصب، ولها رساتيق تشتمل على مدينة محصَّنة بحصن وللحصن بابان من حديد.. جامعها في الربض ومياههم من القنى، الأنهر لهم تخرج من ناحية القلعة، وقربه قرية فيها معدن الأنك، وهي نَزْهَة جداً ولها رساتيق خصبة كثيرة المياه والثمار تحمل منها إلى أصفهان)[٢]، من هذا الوصف يمكننا اعتبار هذه المدينة من المدن المركَّبة لاحتوائها على حصن محصَّن وربض فيه الجامع وهي عموماً تتَّسم أيضاً بـ: ١ـ كبر المساحة ٢ ـ رخاء اقتصادي ٣ ـ وجود المسجد الجامع ٤ـ أحوال مناخية جيدة ٥ ـ تربة صالحة للزراعة ٦ ـ وفرة المياه. أما مدينة نفزاوة فقد وَصَفَها ياقوت الحموي على أنها (مدينة من أعمال أفريقية لها سور صخر وطوب وفيها جامع وحمّام وأسواق حافلة، وهي كثيرة النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة)[٣]، فالتركيز في هذه المدينة تمثَّل في: ١ ـ وجود سور دفاعي حصين ومتين ٢ ـ وجود المسجد الجامع ٣ ـ وجود حمّام ٤ ـ نشاط أسواقها ٥ ـ توافر المياه ٦ ـ رخاء اقتصادي. وعلى نفس المنوال تقريباً، وصفت مدينة سرت، إذ جاء فيها أنها (مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور من طوب

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص ٣٠٠.
(٢) الإصطخري: الأقاليم ٦٣، ياقوت الحموي: ج٤ ص ٤٣٨.
(٣) ياقوت الحموي: ج٥ ص ٢٩٦.

وبها جامع وحمّام وأسواق)[1] فالتشديد، كما هو واضح من الوصف، كان على: ١ ـ السور المتين من الطوب ٢ ـ وجود المسجد الجامع ٣ ـ الأسواق ٤ ـ الحمّام.

وتتجلّى مسألة التشديد على عنصر المساحة وكبر حجم المدينة في أوصاف الجغرافيين للمدن الآتية: منها ما قيل عن مدينة هراة بأنها (أكبر من أبرقوه وهي في الأبنية وسائر ما وصفنا مقاربة لأبرقوه، إلا أن لها مياهاً وثماراً كثيرة تفضل عن أهلها فَتُحْمَلُ إلى النواحي)[2]. ويبدو أن هذه المدينة التي وصفها الإصطخري بكبر المساحة، مقارنة بمدينة أبرقوه، قد فاقت أبرقوه أهمية أكثر عندما صارت مدينة مصدِّرة تصدِّر الفواكه إلى النواحي المختلفة. غير أن صفة الكبر في مساحتها، خلال القرن العاشر للميلاد، بالنسبة إلى أبرقوه، قد تزايدت في الفترات اللاحقة، فتوسعت مدينة هراة كثيراً زمن ياقوت الحموي في القرن الثالث عشر للميلاد، بحيث قال عنها (مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان لم أرَ بخراسان عند كوني بها سنة ٦٠٧ هـ مدينة أجلّ ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها فيها بساتين كبيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، محشوّة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء)[3]. يفيدنا هذا الوصف المستفيض في إبراز فكرة تركيز الجغرافيين على عنصر المساحة والحجم في إضفاء طابع الأهمية والفعالية للمدينة. علاوة على ذلك، فإن الجغرافيين لم يهملوا العناصر والخصائص الأخرى، فقد اتَّسَمَتْ هراة بـ: ١ ـ زحمة الأهالي ٢ ـ وفرة المياه ٣ ـ رخاء اقتصادي ٤ ـ شهرة علمية. وعلى ذكر حجم مدينة أبرقوه التي اتُخِذَتْ كمقياس لتبيان حجم مدينة هراة، فقد وَرَدَ عنها بأنها (مدينة محصَّنة كثيرة الزحمة نحو الثلث من إصطخر مشتبكة العمارة.. وليس حواليها شجر، وهي خصبة رخيصة الأسعار)[4]، إن تقدير حجمها بالثلث من مدينة

(١) ن. م. ج٣ ص٢٠٦، أبو الفداء: تقويم البلدان ص ١٤٨.
(٢) الإصطخري: المسالك ص ٧٧.
(٣) ياقوت الحموي: ٥ ص ٣٩٦.
(٤) الإصطخري: الأقاليم ص ٦٣، ياقوت الحموي نقلاً عن الإصطخري: معجم البلدان ج١ ص ٧٠.

إصطخر قد جعلها، لوضوح حجمها، أساساً للمقارنة مع هراة. والحقيقة أن هنالك نصوصاً متعدِّدة تبيِّن سَعَةَ بعض المدن ومساحاتها. فقد وُصِفَتْ مدينة فسافي كورة دارا بجرد أنها تقارب شيراز في الكبر[١]، وقيست المنصورة في السند بأن مقدار حجمها في الطول والعرض ميل × ميل[٢]، ووُصِفَتْ مدينة أصفهان بأنها (صحيحة التربة طيبة الهواء عذبة الماء، وأن مساحة أصبهان ثمانون فرسخاً في ثمانين فرسخاً[٣]، وقدِّرت مساحة البصرة أيام ولاية خالد بن عبد الله القسري في الفترة الأموية بأنها فرسخان في فرسخين)[٤]، وهناك أمثلة أخرى سنذكرها في الباب الخاص بالمدن.

وفي الوقت نفسه، يتوافر عدد من النصوص الجغرافية التي تشدِّد في أوصافها للمدن على مسألة السوق والجامع وتجعلهما من الخصائص التي ينبغي توافرها في المدينة. صحيح أن الأوصاف الجغرافية السابقة لم تغفل هذا الجانب، فكان ذِكْرُ المسجد الجامع والسوق متكرراً في جميع تلك الاستشهادات تقريباً، ولكن مع ذلك، فإن هذه النصوص تبرز جوانب السوق والجامع، بصورة أكثر، فقد وُصِفَتْ مدينة سيهي بأنها (مدينة كبيرة فيها جامع وسوق)[٥]. ووُصِفَتْ مدينة المحلة في مصر بأنها (مدينة على نهر الاسكندرية فيها جامع لطيف وليس بها كثير أسواق غير أنها عامرة نزيهة الشط)[٦]. كما وُصِفَتْ مدينة سرت بأنها (مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور وبها جامع وحمّام وأسواق)[٧].

وبالإضافة إلى تلك النماذج والاستشهادات الجغرافية عن المدن ـ القصبات والمدن المجردة هناك أوصاف جغرافية أخرى تتضمن خطوطاً مشتركة عن مدن

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض عن ٢٤٧ ن. م ص ٢٧٧.
(٢) ن. م. ص٢٧٧.
(٣) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر البلدان ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٤) الشيخ نعمان بن محمد: معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر ص ١٣٥.
(٥) ياقوت الحموي: ج٣ ص ٣٠٢.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٢٠٠.
(٧) ياقوت الحموي: ج٣ ص ٢٠٦.

بَرَزَتْ في عالم التجارة إما موانىء أو مرافىء، والتي يمكن تسميتها بالمدن التجارية أو بمدن المرافىء. ومن الجدير بالذكر، أن هذه المجموعة أو الصنف من المدن كانت، وفقاً لأوصاف الجغرافيين العرب، تشتمل على عدد من الخصائص المتشابهة تقريباً. فقد وُصِفَتْ مدينة صحار في عمان بأنها قصبة عمان (وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهي أعمر مدينة بِعُمان وأكثرها مالاً) وأنها تميَّزت بالإضافة إلى تلك المميِّزات لكونها (ليس على بحر الصين بلد أجلُّ منه، عامر حسن طيب نَزْهٌ ذو يسار وتجّار وفواكه وأسواق عجيبة، وبلدة ظريفة ممتدة على البحر..)[1]. من هذا، فإن التركيز في مدينة صحار التجارية كان: ١ ـ على موقعها من بحر الصين ٢ ـ وعلى كونها مقصد السفن والمراكب والتجار ٣ ـ وعلى ما يتوافر بها من متاجر وأسواق وتجّار أغنياء موسرين. أما مدينة العريش في مصر فقد وُصِفَتْ بأنها (مدينة جليلة وهي كانت مرسى مصر أيام فرعون... وفيها جامعان ومنبران وهواؤها صحيح طيب وماؤها حُلْوٌ عَذْبٌ، وبها سوق جامع وفنادق جامعة كبيرة وكلأ التجار ونخل كثير وفيها صنوف من التمور ورمان يُحْمَلُ إلى كلِّ بلد)[2]. فالعريش علاوة على ما اتَّصَفَتْ به من خصائص المدينة التجارية القائمة على الموقع التجاري القديم وكونها مرسى ترسو فيه السفن التجارية، فإنها اتَّسَمَتْ أيضاً بـ ١ ـ المناخ الملائم ووفرة المياه الحلوة العذبة ٢ ـ السوق الجامع الكبير كدلالة على نشاط الحركة التجارية ٣ ـ الفنادق الكبيرة كتعبير واضح عن كثرة ما كان يرتادها من التجار والمسافرين ٤ ـ والأهم الإنتاج الذاتي المتمثّل بالتمور والرمان واعتباره عنصراً تجارياً للتصدير إلى مختلف البلدان. وتتجلى خصائص هذا النصف من المدن التجارية بوضوح أكثر في الوصف الجغرافي لمدينة عدن في اليمن، إذ وَرَدَ في وَصْفِها بأنها (مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ردئة لا ماء بها ولا مرعى وشربهم من عَيْنٍ بينها وبين

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٩٢ ـ ٩٣، ياقوت الحموي: معجم ج٣ ص ٣٩٤.
(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص ١١٤.

عدن مسيرة نحو اليوم وهو مع ذلك رديء، إلا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك فإنها بلدة تجارة). ووَرَدَ بشأنها وَصْفٌ آخر جاء فيه (إنما شهرتها لأنها فُرضة على البحر ينزلها السائرون في البحر وبها مغاص اللؤلؤ)[1]. فمدينة عدن في واقع الأمر لا تتوافر فيها خصائص مدينية، بصورة عامة، فهي خالية من المياه العذبة ومناخها رديء وليس فيها جامع ولا منبر لكنها إنما كسبت شهرتها التجارية بسبب: ١ ـ موقعها على البحر ٢ ـ ورود التجار والمسافرين في السفن التجارية البحرية إليها ٣ ـ لأنها محطة بحرية ترفأ اليها السفن السائدة في المحيط الهندي إلى البحر الأحمر، ووُصِفَتْ مدينة الجار الواقعة على البحر بأنها مدينة مرفأ أيضاً لأنها تقع (على ساحل بحر القلزم.. وهي فُرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ولها منبر وهي آهلة، وشرب أهلها من البحيرة)[2]. ويتبيَّن من هذا الوصف الخصائص المشتركة مع المدن التجارية السابقة المتمثلة بـ: ١ ـ موقعها على ساحل البحر الأحمر وعلى طريق السفن التجارية الواردة من الصين والهند والحبشة وغيرها من البلدان التي اكتسبت سمعة تجارية كبيرة بما تصدِّره إلى المدن العربية الإسلامية من بضائع وتجارات، ٢ ـ وكانت أيضاً محطة مرفأ ترفأ إليه السفن ويَرِدُها التجار. بالإضافة إلى ذلك، فإنها تمتعت بِسِمَات أخرى منها: ١ ـ أنها مأهولة وكثيفة السكان ٢ ـ بها مسجد جامع ٣ ـ وماؤها عذب من البحيرة. أما مدينة قلهات في عُمان فقد وُصِفَتْ بأنها (مدينة بِعُمَان على ساحل البحر لها ترفأ أكثر سفن الهند وهي الآن فُرضة تلك البلاد وأمثل أعمال عُمان عامرة آهلة..)[3]. هنا أيضاً يبرز التشديد في هذا الوصف الجغرافي على: ١ ـ موقعها على ساحل بحر عُمان ٢ ـ كونها محطة بحرية تجارية ترفأ إليها السفن الواردة من الهند

---

(١) الإصطخري: المسالك ص ٢٦، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٨٥، ياقوت الحموي: ج٤ ص ٨٩.
(٢) ياقوت الحموي: ج٢ ص٩٢ ـ ٩٣.
(٣) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٣٩٣.

٣ ـ مزدحمة السكان. ووصف الجغرافيون مدينة جدة بأنها (فُرضة أهل مكة على ساحل البحر وهي عامرة كثيرة التجارات والأموال، ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة[١] منها). فالخصائص التي توافرت في مدينة جدة تتلاقى مع تلك الخصائص في بقية المدن التجارية وهي: ١ ـ وقوعها على ساحل البحر الأحمر مما هيأ لها إمكانية أن تلعب دور الفُرضة أو الميناء لأهالي مكة ٢ ـ إنتاجها الذاتي وكونها كثيرة الأموال والتجارات.

ومع ذلك، فقد يتبادر إلى الذهن ونحن نشخِّص هذه الخصائص المشتركة لمدن المرفأ تساؤل يتعلق بالتسهيلات التجارية التي توفِّرها هذه المدن بالإضافة إلى ما تمتعت به من موقع تجاري مهمّ. فهل وفَّرت هذه المدن لكونها تقع على ساحل البحر أو النهر تسهيلات معيَّنة للسفن والتجار الوافدين إليها؟ وهل أفلحت في الانتفاع من هذا الموقع في تطوير إنتاجاتها الذاتية وتصديرها؟ لقد أوضحنا في السابق أن بعض مدن التجارة قد تجاوزت مرحلة كونها محطة ترفأ إليها السفن إلى مرحلة الانتفاع من إمكاناتها الذاتية في التصدير. ومع ذلك، فإن هناك مستلزمات أخرى ينبغي توافرها في هذه المدن المرفأ لتسهيل مهمة سَيْرِ السفن التجارية وأخصُّ بالذكر الفنارات أو المنارات والأسواق والفنادق، وقد تنبَّه الجغرافيون العرب إلى هذه المسألة فذكر بعضهم وصفاً للخشبات التي كانت منصوبة في البصرة على ساحل الخليج العربي وأطلقوا عليها أيضاً اسم البرج. ولعلَّ من المفيد ذكره الوصف التفصيلي لهذه الخشبات ومنافعها في مسألة التجارة وتجارة السفن بالذات لما له علاقة بما تقدَّم ذِكْرُهُ من تساؤلات، فَوُصِفَتِ الخشبات هذه بأنها (أربع خشبات منصوبة قد بُنِيَ عليها مَرْقَبٌ يسكنه ناطور يوقد بالليل ليُهتدى به ويُعلم به المدخل إلى الدجلة)[٢]. فالفائدة التي تقدِّمها الخشبات إضاءة الطريق للسفن وذلك لوجود عدة مخاطر، وأن نَصْبَها

(١) الإصطخري: المسالك ص ٢٣، الأقاليم ص ١٠، وقد وصف ياقوت الحموي مدينة جدة بأنها بلد على ساحل بحر اليمن وأنها كانت فرضة مكة ج٢ ص ١١٤.

(٢) ابن حوقل: مسالك ص ٣٨، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط/باريس) جزء ١ ص ٢٣٥، ناصر خسرو: سفرنامة (تحقيق الخشاب) ص ١٥١.

وتعيين ناطور يقوم بعملية الإضاءة يُعَدُّ تسهيلاً واضحاً للسفن البحرية. وتبرز فائدة هذه المسألة وضرورة توافر المستلزمات التي يوفِّرها الميناء في وَصْفِ مدينة سفاقس في شمال أفريقيا، إذ وَرَدَ عنها بأنها (مدينة من نواحي أفريقيا جلّ غلاّتها الزيتون وهي على ضفة الساحل وهي على البحر ذات سور وبها أسواق كثيرة ومساجد وجامع وسورها صخر وآجُرّ وفيها حمّامات وفنادق وقرايا كثيرة وقصور جمّة ورباطات على البحر ومنائر يُرقى إليها في مائة وستين درجة في محرس يُقال له بطريه وهي وسط غابة الزيتون.. يقصدونها التجار من الآفاق بالأموال لابتياع الزيت..)[1] والواضح أن مدينة سفاقس لم تكن مدينة مرفأ فحسب، إنما كانت مدينة تجارية يَرِدُها التجار لابتياع زيت الزيتون وقد صارت هذه السلعة عنصراً تجارياً للتصدير. وهي أيضاً اتَّسَمَتْ بمزايا مدن المرفأ التي وقفنا عليها فكانت تتمتع بـ: ١ ـ موقع جغرافي على ساحل البحر المتوسط ٢ ـ يَرِدُها التجار والسفن التجارية من مختلف الأرجاء، ولكونها مدينة تجارة فقد توافرت فيها عدة مستلزمات ضرورية منها:

١ ـ حصانتها ٢ ـ وجود المسجد الجامع والمساجد الأخرى ٣ ـ وجود فنارات تشبه الخشبات لإهداء السفن البحرية الطريق الصحيح ولتجنيبها مخاطر البحر ٤ ـ توافر الفنادق لإسكان التجار والحمّامات والربط على ساحل البحر لتكون قريبة من الوافدين بها. ووُصِفَتْ مدينة صعدة بأنها (مدينة عامرة آهلة يقصدها التجار من كلّ بلد، بها مدابغ الأدم وجلود البقر.. وهي خصبة كثيرة الخير)[2]، ويبدو أن تمييز صعدة بوجود مدابغ الأدم وجلود البقر إشارة إلى ما كانت تصدِّره من هذه السلعة وربما الأحذية، وأن التجار كانوا يقصدونها لهذا الغرض. وجاء في وصف لمدينة طبرقة بأنها (مدينة بالمغرب من ناحية البحر البربري على شاطىء البحر.. وهي عامرة لورود التجار إليها، وفيها نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج في بحر طبرقة)[3]. فالمدينة تميَّزت أيضاً بـ:

(١) ياقوت الحموي ج٢ ص ٢٢٢.
(٢) ن.م. ج٣ ص ٤٠٦.
(٣) ياقوت الحموي ن. م. ج٤ ص ١٦.

١ ـ موقعها الجغرافي الذي أكسبها صفة مدينة المرفأ لكونها على ساحل البحر ٢ ـ يَرِدُها التجار والسفن البحرية. أما المستلزمات التي توافرت في طبرقة لتسهيل عملية التجار والإبحار فهي حسبما يبدو الخور الذي تدخل فيه السفن فتتجنّب خطورة الأمواج البحرية.

وهناك جملة من الخصائص المتشابهة لصنف رابع من المدن العربية يمكن تسميته بمدن الحصون، فاعتماداً على الأوصاف الجغرافية لنماذج من مدن هذه المجموعة، يتبيَّن أن هناك معايير وأسساً واضحة لدى هؤلاء الجغرافيين بخصوص وظيفة مدينة الحصن. فقد وَرَدَ مثلاً في وصف مدينة توزر في أقصى أفريقية بأنها مدينة (عليها سور مبني بالحجر والطوب، ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة وحولها أرباض واسعة وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل والبساتين)[1]. إن التركيز في هذا الوصف الجغرافي كان على حصانة المدينة ومتانة سورها بالإضافة إلى توافر الخصائص المدينية الأخرى كالجامع والسوق ووفرة المياه، لأن شرب الأهالي كان من ثلاثة أنهار ووفرة الإنتاج. ووُصِفَتْ مدينة قفصة بأنها (مدينة حصينة لها سور من لَبِن عالٍ جداً طول اللبنة عشرة أشبار وبها نهر طيب)[2]، هنا أيضاً كان التشديد على حصانة المدينة ومتانة بناء السور. ووُصِفَتْ مدينة تنس التي تبعد ثماني مراحل عن وهران بأنها (مدينة مسوَّرة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكانها لحصانتها وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر من جبال على مسيرة يوم من جهة[3] القبلة). فخصائص هذه المدينة تتمثل أيضاً كالمدن السابقة بحصانتها ووجود القلعة فيها فضلاً عن توافر خصائص أخرى كالمسجد الجامع والأسواق وتوافر المياه. وهناك أمثلة أخرى على هذا الصنف من المدن التي تميَّزت بوجود القلعة والسور المتين كمدينة حلب التي كان عليها سور حصين مبني من الحجارة وقلعة حصينة في داخلها، استغلها الأهالي منذ فترات قديمة في

(١) ن. م. ج٢ ص ٥٨٢.
(٢) ن. م. ج٤ ص ٣٨٣.
(٣) أنظر الإصطخري: المسالك ص ٣٤، ياقوت الحموي: ج٢ ص ٤٨.

التاريخ لتفادي أخطار الهجمات والغزوات. ووُصِفَتْ مدينة حصن منصور في ثغر ملطية بأنها مدينة صغيرة لكنها حصينة وبها منبر ورستاق وقرى[١]. ووُصِفَتْ إصطخر بأنها من المدن المحصَّنة، إذ إنها كانت تحتوي على حصن حواليه ربض ولها سور، كما اشتهرت (كثه) بأنها مدينة محصَّنة لها حصن وربض. وشيراز بأن لها قهندز حصين عالٍ يُعْرَفُ بقلعة شهمويذ وقد أطلق ابن حوقل تعبير المدن المحصَّنة على قائمة من المدن التي تحتوي على قلاع وتحيط بها الأسوار[٢].

## تصنيف المدن العربية وفقاً لحجومها:

ومما يثير الدهشة أن الجغرافيين العرب قد سبقوا ما توصل إليه بعض المتخصصين في التمدُّن من العلماء الأجانب في موضوع نظرية حجم المدينة كأساس مهمٍّ في تمييز المدن الكبيرة والصغيرة وفي التفريق بين المدينة والقرية. فإن هناك عدداً من الأوصاف الجغرافية التي تُعَدُّ مؤشّراً واضحاً على أن هؤلاء الجغرافيين قد ميَّزوا بين المدن نفسها اعتماداً على أسس ثابتة وهي مدى توافر الخصائص المدينية التي سبق ذكرها في المدن السابقة، فجعلوا بناء بعض المدن يتَّصف بالكبر من ناحية الحجم والقسم الآخر بأنها مدن وسطة والقسم الثالث بأنها مدن صغيرة ـ وقد اعتمد هذا التوزيع والتصنيف في أنواع المدن أساساً واضحاً قائماً على حجم المدن ومساحاتها. فمما وَرَدَ بشأن مدينة هيت أنها (مدينة وسطة على غربي الفرات وعليها حصن وهي عامرة آهلة[٣]..) إن وَصْفَ مدينة هيت بأنها متوسطة الحجم إنما يشير إلى تفهُّم وإدراك، فالمدينة تمتعت بخصائص مدينية أهمها: ١ ـ وجود حصن ٢ ـ آهلة بالسكان ٣ ـ عامرة إلا أن هذه الخصائص لا تشمل جميع الخصائص التي سبق أن عرضها الجغرافيون للمدينة الكبيرة كوجود الأسواق والمسجد الجامع والإنتاج الذاتي وغير ذلك.

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٣، ١٦٦.
(٢) ن. م. ص ٢٤١، ٢٤٥.
(٣) الإصطخري: الأقاليم ص ٣٩.

لهذا كلّه جعلها الجغرافيون أقلّ حجماً أو أقلّ أهمية من المدن الكبيرة. كذلك وُصِفَتْ مدينة برقة بأنها (مدينة وسطة ليست بكبيرة وحواليها كورة عامرة كبيرة)[1]. وتعبير وسطة ليست بكبيرة تعبير واضح عن أن الجغرافيين وضعوها ضِمْنَ المدن الأقل أهمية والأقل حجماً، ونظراً لذلك لم يشدّدوا على ضرورة توافر الخصائص الأخرى.

ومن الناحية الثانية، فإن الوصف الجغرافي لمدينة النهروان يبيّن لنا هذه الفكرة أيضاً، فقد وُصِفَتْ بأنها مدينة (صغيرة عامرة كثيرة الغلات والخيرات والنخيل والكروم والسمسم خاصة، ونهرها يفضي إلى سواد بغداد)[2]. فالنهروان صغيرة من حيث الحجم والسكان ولكنها تحمل أهمية اقتصادية متمثلة بإنتاجها الزراعي، فهي ربما تكون أقرب إلى القرية. ووُصِفَتْ أيضاً مدينة الأسوس في مصر بأنها (مدينة صغيرة آهلة خصبة ذات نخيل وزرع)[3]. وكانت مدينة خوراذان (صغيرة إلا أنها عامرة رفقة، العيش بها هنيء.. بها سوق حاد والجامع عامر وخيرات وأشجار تخترقها)[4]. وكانت مدينة ده اشتران في بلاد فارس (صغيرة وقربها قرية ولها جامع فيها منارة طويلة في سوق صغير.. وحولها بساتين حسنة)[5]. أما مدينة ميلة فهي (مدينة صغيرة بأقصى أفريقية ليس لها غير المزروع وهي قليلة الماء)[6]. إن دراسة تفصيلية لأوصاف هذه المجموعة من المدن الصغيرة تجعلنا نخلص إلى نتيجة مفادها أن هذه المدن كانت صغيرة إما حجماً وسكاناً وإما حجماً فقط، وأن النمط الإنتاجي فيها هو الزراعة بما تشتهر من إنتاج محاصيل زراعية أهمها النخيل والغلّات والفواكه. غير أنه مع كونها صغيرة في الحجم والسكان أو كليهما، فإنها مدن لا تخلو من بعض الخصائص التي تفرُقها عن القرية الزراعية، وأهم هذه الخصائص

---

(١) الإصطخري: المسالك ص ٣٣، الأقاليم ص ٢٠.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢١٨.
(٣) الإصطخري: الأقاليم ص ٢٩.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٣٥.
(٥) ن. م. ص٤٣٧.
(٦) ياقوت الحموي: ج٥ ص ٢٤٤.

المدينية: ١ ـ وجود المسجد الجامع ٢ ـ السوق ٣ ـ وبدرجة أقل توافر المياه.

فالملاحظ أن الجغرافيين العرب، كما ذكرنا، لم يشدّدوا في أوصافهم على خصائص متعددة كما هي الحال في المدن الكبيرة كالأسواق المتعددة والسور ومساحة المدينة ورخائها ووجود الحمّامات والفنادق والتجارات ووجود المنبر.. الخ. لكنهم في نفس الوقت جعلوها بمرتبة أرقى من القرى وذلك بإظهار أهميتها في بعض المجالات الاقتصادية، ويبدو أن التعابير التي تكرَّر ذِكْرُها عند الجغرافيين من أمثال بلدة كبيرة أو بلد أو بلدة أو بليد أو بليدة صغيرة، إنما تقابل من النواحي الوصفية الجغرافية تعابير مدينة أو مدينة متوسطة أو مدينة صغيرة. وللتدليل على هذا الرأي نستشهد ببعض الاستشهادات الجغرافية: فما ذُكِرَ بشأن بلدة جبل أنها (بليدة بين النعمانية وواسط من الجانب الشرقي كانت مدينة وأما الآن فإني رأيتها مراراً وهي قرية كبيرة...)[١]. فالواضح أن ياقوت الحموي وصف جبل بأنها كانت تُعَدُّ بليدة وحينما زارها في القرن الثالث عشر للميلاد تحوَّلت إلى قرية كبيرة، فتعبير البليدة إذن ربما يعود إلى الفترة التي كانت فيها مدينة متوسطة أو صغيرة. ووُصِفَتْ بلدة المحول بأنها (بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والمياه)[٢]. إن خصائص هذه البليدة توافق تقريباً خصائص المدينة الصغيرة، إذ إنها تتميَّز بطيب هوائها وحسن ريفها وبساتينها. كما وُصِفَتْ بلدة نهر الدير بالبصرة، والدير عبارة عن نهر صغير يقع بين مطارا والبصرة وكانت تقع عليه (بليد حسن وبه يعمل الغضار)[٣]. فالتعبير أيضاً يشير إلى أن هذا البليد هو عبارة عن مدينة صغيرة، ووُصِفَتْ بلدة نجيرم أنها (بليدة مشهورة دون سيراف) ويضيف ياقوت الحموي ملاحظة مهمة على تبدُّل أحوال هذه البليدة فيقول (رأيتها مراراً ليست بالكبيرة ولا بها آثار تدلُّ على أنها كانت كبيرة)[٤]، فالبلدة هذه كانت عبارة عن مدينة

---

(١) ياقوت الحموي: ج٢ ص ١٠٣.
(٢) ن. م. ج٥ ص ٦٦.
(٣) ن. م. ج٥ ص ٣٢٠.
(٤) ياقوت الحموي: ج٥ ص ٢٧٤.

متوسطة أو صغيرة لأن ياقوت الحموي لم يجد فيها عنصر الكبر في الحجم والسكان. ومن الأوصاف التي تبيِّن التبدلات التي حلَّت بالمدن، وَصْفُ ياقوت الحموي لمدينة برقعيد في الموصل، فإنه اولاً يعتمد السرخسي كمصدر لتحديد خصائص هذه المدينة، ووفقاً لهذا المصدر، فإن برقعيد كانت (بلدة كبيرة من أعمال الموصل) غير أن ياقوت يعقِّب على هذا الوصف قائلاً بأن برقعيد صارت أثناء زيارته عبارة عن بليدة تقع في طرف بقعاء الموصل، فهي إذن ليست ببلدة كبيرة بمعنى مدينة إنما بليدة أي بدرجة تمدنية أقل. المهم أن ياقوت الحموي لم يقف عند هذه المناقشة فقط، إنما يوضح مشاهداته عن هذه البلدة، فقال (قلت أنا ـ أي أنه يشير في مناقشته إلى رأي سرخسي ـ كانت هذه صفتها ـ يقصد صفة برقعيد على أنها بلدة كبيرة ـ في قرابة سنة ثلثمائة هجرية، أما الآن فهي خراب صغيرة حقيرة)[1].

ومن المحتمل أن تتبدل ظروف البليدة التي تقابل المدينة الصغيرة أو المتوسطة إلى أن تصبح قصبة بمعنى المركز الأساس للمنطقة، كما هي الحال في بلدة النعمانية، إذ إنها بليدة بين واسط وبغداد لكنها تحوَّلت إلى قصبة أعمال الزاب. ومما اتَّسَمَتْ به وجود السوق[2]. كذلك وُصِفَتْ بلدة بون بأنها عبارة عن بليدة تقع بين هراة وبغشور في خراسان وصارت قصبة ناحية باذغيس، والواقع أن المركز الذي كان يحلُّه الأمير في هذه الناحية قبل بون في كوغناباذ في القرن الرابع للهجرة يبدو أنه تحوَّل إلى هذه البليدة فصارت قصبة[3].

من الناحية الثانية، فإن تعبير البلد أو البلدة قد يشير إلى مفهوم المدينة التي ليست صغيرة الحجم، فالمعروف، مثلاً، أن واسط مدينة تقع على جانبَيْ دجلة فيقول عنها ياقوت الحموي أثناء زيارته بأنه زارها عدة مرات فوجدها (بلدة

(١) ن. م. ج١ ص ٣٨٧ بالفعل يصفها ابن حوقل في القرن الرابع للهجرة بأنها مدينة كثيرة الزرع من الحنطة والشعير: صورة الأرض ١٩٩.

(٢) يصف ابن حوقل النعمانية على أنها مدينة صغيرة: صورة الأرض ص ٢١٩، ياقوت: ج٥ ص٢٩٤.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٦٨، ياقوت: ج١ ص ٥١٢.

عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوق الحصر، وكان الرخص موجوداً فيها من جميع الأشياء، ما لا يوصف)[1]. صحيح أنها كانت أيضاً منذ الفترة التي تأسست فيها كثيرة الأشجار والنخيل والزروع، لكنها حسبما وصف ياقوت الحموي قد تبدَّلت واتَّسع حجمها. فالمدينة إذن تقابل ما اصطلح عليه بلدة عظيمة. كما وُصِفَتْ مدينة كفر لاثا بأنها بلدة فيها مسجد وجامع ومنبر من نواحي مدينة حلب وكانت بلدة نَزْهَة طيبة فيها مياه جارية وبساتين[2]. أما جويث فهي عند زيارة ياقوت كانت بلدة تقع إلى الشرق من شط العرب مقابل الأبُلّة. وقد زارها ياقوت الحموي عدة مرات فوجد فيها أسواقاً وحشداً كبيراً من الناس. ومن الجدير بالملاحظة، أن جويث هذه لم تكن لها أهمية كبيرة في الفترات السابقة، وأن ذِكْرَها وَرَدَ خلال العمليات العسكرية إبان حركة الزنج في البصرة[3]، لكنَّ الجغرافيين في القرن الرابع للهجرة لم يصفوها بالبلدة، مما يدلُّ على أن أحوالها قد تبدَّلت في القرن السادس للهجرة. ومن بين الأوصاف الجغرافية الطريفة التي تتعلق بهذا الموضوع ما قيل بشأن بلدة بروجرد وهي من مدن ناحية الكرج في الجبال، فقال عنها ياقوت إنها (بلدة بين همذان وبين الكرج وكانت تُعَدُّ من القرى إلى أن اتخذ حمولة، وزير آل ابي دلف، بها منبراً اتخذها منزلاً لمّا عظم أمره واستبدَّ بالجبال وهي مدينة خصبة كثيرة الخيرات)[4]. ولو رجعنا إلى وصف ابن حوقل في القرن الرابع للهجرة نجد أنه لا يصفها بالقرية إنما مدينة أيضاً. لكن المعلومات التي أدلى بها والتي من المحتمل أنها صارت مصدراً لمعلومات ياقوت تبيِّن أن بروجرد مدينة وقد استحدث فيها حمويه، (وليس حمولة كما أشار ياقوت) بن علي وهو وزير آل أبي دلف. لذلك يمكن القول بأنها كانت قبل استحداث المنبر قرية ثم تبدَّلت بها الأحوال بعد ذلك، فصارت مدينة وُصِفَتْ بأنها مدينة خصبة كثيرة الخير

(١) أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢١٤، ياقوت الحموي: ج٥ ص ٣٥٠.
(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٤٧٠.
(٣) أنظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك/دار المعارف ج٩ ص ٤٠٠، ياقوت الحموي: ج٢ ص ١٩١.
(٤) ياقوت الحموي: ج١ ص ٤٠٤.

وكانت فواكهها تُحْمَلُ إلى الكرج وهمذان والدينور[1]. ووُصِفَتْ مدينة بلدة خيف سلام بأنها (بلد بقرب عسفان على طريق المدينة فيه منبر وناس كثير من خزاعة ومياهها قنى وباديته قليلة من جشم وخزاعة)[2]. فالتركيز كما هو واضح كان على: ١ ـ موقع هذه البلدة على الطريق إلى المدينة ٢ ـ وجود المنبر ٣ـ كثافة السكان ٤ ـ توافر المياه لكنه لم يرقَ إلى مرتبة المدينة كما وُصِفَتْ أسفيجاب أو أسبيجاب عند ابن حوقل بأنها (مدينة نحو الثلث من بنكث وتشتمل على مدينة وقهندز وربض.. وعلى المدينة الداخلة سور وعلى الربض أيضاً سور يحيط به، مقداره فرسخ وفي ربضه مياه وبساتين وأبنيتها طين.. ويستمر ابن حوقل واصفاً إياها بأنها تشتمل على أربعة أبواب ولها أسواق في المدينة والربض حيث هناك دار الإمارة والحبس والجامع في المدينة الداخلة، ثم أشار إلى رخائها الاقتصادي قائلاً بأنها مدينة ذات خصب وسَعَة وليس بخراسان كلها وما وراء النهر بلد لاخراج عليه إلا أسبيجاب)[3]. من هذا الوصف يمكننا القول بأن أسبيجاب عبارة عن ولاية واسعة لها مدينة تحمل نفس الاسم وقلعة وربض، لكننا إذا رجعنا إلى وصف ياقوت الحموي نجده يطلق عليها تعبير بلدة كبيرة ويعدُّها من أعيان بلاد ما وراء النهر، وقال إن لها ولاية واسعة وقرى ومدن كثيرة[4]. لذلك فإن مدينة أسبيجاب هي نفسها البلدة الكبيرة عند ياقوت، مما يرجِّح الاحتمال بأن البلدة الكبيرة تعني المدينة التي تتوافر فيها خصائص المساحة والموقع والسور ودار الإمارة والمسجد الجامع والرخاء الاقتصادي وتوافر المياه. وهناك مثال آخر يتعلق بتبدُّل أحوال المراكز الجغرافية بالنسبة إلى المدينة والبلدة والمثال مدينة بسطام في ناحية قومس في إقليم الديلم وطبرستان، فمما ذكره ياقوت الحموي في وَصْفِها أنها (بلدة كبيرة بقومس تقع على جادة الطريق الى نيسابور) ويبدو أن وقوعها على هذا الطريق قد ساعدها في تطوُّرها إلى بلدة كبيرة وذلك بأن ياقوت يعقِّب على قوله هذا

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣١٣، ياقوت الحموي: ج١ ص ٤٠٤.
(٢) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٤١٢.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٤١٨.
(٤) ياقوت الحموي: ج١ ص ١٧٩.

برأي أن بسطام هذه كانت كما وَصَفَها مسعر بن هلال قرية كبيرة تشبه المدينة الصغيرة. ومسعر بن هلال هذا أحد المصادر التي اعتمدها ياقوت ويرجع إلى فترة مبكرة، لكن هذه القرية الكبيرة تحوَّلت أثناء زيارة ياقوت الحموي فيقول (وقد رأيت بسطام هذه وهي مدينة كبيرة ذات أسواق إلا أن أبنيتها مقتصدة ليست من أبنية الأغنياء)[1]. فإذا ما رجعنا إلى وَصْفِ ابن حوقل في القرن الرابع للهجرة نجده يؤكد رواية مسعر بن هلال أن بسطام كانت صغيرة مقارنة بمدينة قومس الرئيسة الدامغان، لكنه يشير إلى أن بسطام كانت كثيرة العمارة والفواكه وأن فواكهها تُحْمَلُ إلى العراق[2] بكثرة. من هذا كلّه نَصِلُ أيضاً إلى نتيجة أن تعبير البلدة الكبيرة بمعنى المدينة عند ياقوت. وفي نفس المجال وصف دنيسير على أنها بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة، ويضيف ياقوت أنه زارها حينما كان صبيًّا فكانت آنذاك عبارة عن قرية ثم زارها بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً فوجدها (قد صارت مصراً لا نظير لها كبراً وكثرة أهل وعظم أسواق وليس فيها نهر جارٍ إنما شربهم من آبار عذبة طيبة مرية وأرضها حرة وهواؤها صحيح)[3]، فهي إذن قرية ثم مدينة وبلدة عظيمة وهي أيضاً مصر، وقد جمعت بعد تطوُّرها إلى مدينة ومصر، عدة مزايا تتفق ومزايا المدينة منها:

١ ـ سَعَةُ حجم مساحتها

٢ ـ كثافة سكانها العالية

٣ ـ نشاط أسواقها

٤ ـ توافر المياه

٥ ـ التربة الصالحة للزراعة والأحوال المناخية الملائمة.

ومما يؤكد ويوضح هذه التبدُّلات التي طرأت على دنيسير في ماردين في منطقة الجزيرة وَصْفُ ناسخ كتاب صورة الأرض لابن حوقل الذي يرجع إلى

(١) ياقوت الحموي: ج١ ص ٤٧١.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٢٢.
(٣) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٤٧٨.

سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م، إذ يقول فيه إن دنيسير كانت عبارة عن موضع يبعد حوالي أربعة فراسخ من ماردين ويسمّى أصلاً سوق دنيسير وكان قبل ذلك قرية يجتمع فيها الناس في صحرائها كل يوم أحد لأغراض البيع والشراء، لكنها تدرَّجت في العمارة حتى صارت خلال زيارته ذات (عمارة كثيرة واتخذ بها الخانات والفنادق والحمّامات والأسواق) وكانت البضائع والسلع تُجلب إليها من سائر البلدان فجذبت الناس (من كلِّ فجٍّ عميق وكثر بها الارتفاع والضمانات)[1]. ويبدو أن نشاط الطريق التجارية إلى ماردين وغيرها من المدن وتمتعها بموقع جيد في الصحراء قد وفَّر لها مستلزمات التطوُّر فتحوَّلت من قرية إلى سوق إلى مدينة ومصر.

كذلك من الجدير بالذكر أن هناك عدة أوصاف جغرافية تبيِّن كيف أن بعض المواضع كالبلد أو البلدة قد تبدَّلت أهميتها الإدارية فصارت قصبات كما هي الحال في بلدة خلاط في أرمينية. يقول ياقوت الحموي إنها (البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة وهي قصبة أرمينية الوسطى)، ويبدو أن خلاط هذه لم تكن قصبة إلا في فترة متأخرة ربما خلال فترة ياقوت الحموي، إذ إن قصبة أرمينية في القرن الرابع للهجرة كانت دبيل وهي مدينة كبيرة أجمل مدن أرمينية الداخلة وكان فيها دار الإمارة والمسجد الجامع إلى جانب بيعة للنصارى وقد اشتهرت بثياب المِرْعِزّى والصوف والأصباغ. أما وضعية خلاط بالنسبة إلى دبيل فكانت آنذاك صغيرة لا تشابهها في العظم والكبر. ثم تبدَّلت أحوالها خلال زيارة ناسخ كتاب صورة الأرض فصارت خلاط في حوالي منتصف القرن السادس للهجرة قد تضاعف حجمها (أضعافاً مضاعفة) وصار أهلها أغنياء وموسرين واشتملت على (المتاجر والأسواق الجادة) وتحوَّلت إلى محطة أو مركز تجاري يقصده التجار[2] من كلِّ مكان. ويبدو أنها استمرت في التطوُّر إلى أن صارت قصبة أرمينية كورة بدلاً من دبيل. كذلك فإن مدينة كارزين في بلاد فارس كانت قصبة كورة قباذ خرة على الرغم

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٠٢، ياقوت ج٢ ص ٣٨١.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٩٤، ٢٩٥.

من أنها كانت مدينة صغيرة تبلغ مساحتها حوالي الثلث من حجم ومساحة مدينة إصطخر وهي (ليست من الكبر وقوة الأسباب بحيث يجب ذِكْرُها) كما قال ياقوت الحموي إلا أنه ذَكَرَها لكونها قصبة. والحقيقة أن كارزين كانت منذ القرن الرابع للهجرة صغيرة ولم تكن قصبة لكورة أردشير خرة وكانت مدينة شيراز وسيراف من أكبر مدنها. ومما قاله ابن حوقل عنها إنها كانت تحتوي على قلعة لكنها صغيرة لا تستحق الذكر وقد ذكرها ابن حوقل لكونها قصبة قباذ خرة[1]. ويبدو أن وجود القلعة له أثر في تحوُّلها إلى قصبة. وفي نفس الوقت فقد وُصِفَتِ الدورق بأنها (بلد بخوزستان وهي قصبة وهي مدينة وكورة واسعة)[2].

إن النماذج الوصفية الجغرافية السابقة تشير إلى وضوح رؤية الجغرافيين العرب فيما يتعلق الأمر بالخصائص والمعايير التي تتميَّز بها المدن، والتي ينبغي توافرها في مختلف أنواع وأصناف المدن تبعاً للوظيفة أو لمجموعة الوظائف التي كانت تقوم بها هذه المدينة أو تلك. وقد استطعنا من خلال تلك الاستشهادات أن نشخُص ثلاثة خطوط في تبويب وتصنيف خصائص المدن العربية الإسلامية وهي:

١ ـ هناك خط تتجلّى فيه مسألة التركيز على الخصائص المطلوبة في المدن الساحلية أو مدن الأسواق أو المدن التجارية بما فيها مدن الموانىء والمرافىء أو المدينة الفُرضة. وتتمثل هذه الخصائص بالعوامل التجارية ومقدار توافر التسهيلات الملاحية التي تقدِّمها هذه المدن للسفن التجارية والتجار بما في ذلك من كثرة الأسواق أو كثرة الفنادق والحمّامات أو كثرة خيراتها وإنتاجاتها الذاتية التي قد يدخل بعضها كعامل في التصدير، وكذلك بما يوجد على سواحلها من فنارات وأبراج تساعد في إرشاد السفن التجارية وتحذيرها من المخاطر. وعلاوة على هذه السِّمات البارزة، فإن مدن هذه

(١) الإصطخري: المسالك ص ٢٠٦، ابن حوقل: ص ٢٤٦، ياقوت: ج٤ ص ٤٢٨.
(٢) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٤٨٣.

المجموعة احتوت على خصائص مدينية بارزة أخرى كالمسجد الجامع والمياه العذبة.

٢ ـ كما أن هناك خطاً شدّد فيه الجغرافيون على جملة خصائص تصلح للمدينة بوجه عام ويمكن تلخيصها بوجود المسجد الجامع والكثافة السكانية العالية وتوافر السوق أو الأسواق النشطة ووجود الحمّامات ووفرة الإنتاج والخيرات، بنوعيه الزراعي والصناعي، ووفرة المعادن ووفرة المياه العذبة سواء أكانت من الأنهار أم الآبار وملاءمة الأحوال المناخية.

٣ ـ أما الخط الثالث للمدن فهو المتمثل بالخصائص التي تميَّزت بها مدن الحصون أو الحصون عامة وهي خصائص تركز بالدرجة الأولى على وجود السور الحصين أو المتين البناء. وفي بعض الحالات توجهت الاهتمامات نحو إبراز دور القلعة في هذه المدن ومدى حصانتها والفوائد التي تقدِّمها لأهالي المدينة.

فضلاً عن ذلك، فإن خصائص السور والقلعة والموقع الحصين لا يعني انعدام مقوّمات مدينية أخرى، أخصُّ منها بالذكر وجود المسجد الجامع والسوق أو الأسواق ووفرة الإنتاج ولا سيما المعادن ووفرة المياه.

* * *

## المنبر وأهميته في خصائص المدينة

لقد وَرَدَ في الفقرة السابقة إشارة إلى المنبر في عدة مرات وهي إشارات تعكس أهمية هذا التعبير وضرورة توافره كإحدى الخصائص في المدينة العربية الإسلامية. وقد دفعت أهمية المنبر ببعض الباحثين عن التمدُّن العربي الإسلامي سواء أكانوا عرباً أم أجانب إلى القول بأن هذا المنبر يُعَدُّ العلامة الفارقة الرئيسة التي تتميَّز بها المدينة عن القرية أو أي مركز تمدُّني آخر.

فالمكان الذي يشتمل على منبر يكون مدينة بالفعل، وما عدا ذلك، فإنه قرية

أو ما يشبه ذلك. ونظر بعض هؤلاء الكتّاب إلى مسألة المنبر بما يعادل موضوع المسجد الجامع، فالمنبر في رأيهم هو الجامع. والواقع أن بعض الجغرافيين العرب في العصر الإسلامي الوسيط قد شدّد على هذه الناحية كثيراً، فمما أورده المقدسي بشأن بلاد ما وراء النهر نصٌ يفيد بأن هذه البلاد تشتمل على قرى كبار تشبه المدن حجماً ولا ينقصها من أن تكون مدينة إلا وجود المسجد[1] الجامع. من هذا المنطلق وجدنا من المناسب جداً الوقوف على مسألة المنبر باعتباره من خصائص المدينة العربية.

تعتمد مناقشتنا الموضوع على جملة أسس، في بداية الأمر لا بدَّ من القول بأن تعبير المنبر الذي أورده الجغرافيون لم يكن في جميع الأوصاف الجغرافية وفي جميع الأحوال مرادفاً لتعبير المسجد الجامع، لأن هناك عدداً من الحالات التي كان فيه المنبر يمثّل بحدّ ذاته وحدة إدارية لا علاقة لها بالمسجد الجامع. فالجامعين في الفرات الأوسط عبارة عن منبر صغير يحيطه رستاق عامر وخصب جداً[2] ولم تَرِدْ في هذا الوصف أيُّ إشارة تبيِّن أن هذا الموضع، الجامعين الذي تبدلت فيما بعد أحواله العمرانية فصار مدينة الحلّة سنة ٤٩٥هـ، كان مدينة لوجود المنبر أو لأنه كان العلامة البارزة لهذا التحديد؟ والأبعد من ذلك، أن الوصف السابق للجامعين لم يعكس فكرة كون المنبر الذي يعادل الجامع. كذلك فقد وردت إشارة إلى الموضع أثناء تعريف ياقوت الحموي بكورة صغد قائلاً إنها كورة عجيبة وكانت سمرقند قصبتها، ويذكر ياقوت أن الجغرافي الجيهاني قد وصف سمرقند بأنها منبر كورة صغد الأجلّ، في الوقت الذي يرى فيه ياقوت أن قصبة كورة صغد لم تكن سمرقند إنما اشتيخن وقد فضّلها[3] على سمرقند. أقصد بأن تعبير المنبر هنا وَرَدَ بما يعادل القصبة.

وفي نفس الوقت، فإن تعبير المنبر لم يكن محدَّداً، كما يرى بعض الباحثين، بالمدن، وأن عدم وجوده يقلّل من مرتبة المركز أو الموضع التمدُّني،

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٩٨.
(٢) الإصطخري: المسالك ص ٢٨٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٤٤.
(٣) ياقوت الحموي: ج٣ ص ٤٠٩.

وذلك لأن هؤلاء الباحثين قد افترضوا أن المكان الذي لا يتوافر فيه منبر لا يُعَدُّ مدينة. ويستند هذا الرأي إلى أن هناك عدداً من الأوصاف الجغرافية والاستشهادات تتعلق بمراكز ومواضع عديدة تتراوح درجة تمدُّنها من حصن إلى قرية صغيرة إلى قرية كبيرة إلى قرية جامعة إلى بلدة أو بليدة وإلى مدينة صغيرة أو مدينة متوسطة أو كبيرة يوجد فيها المنبر، ومن بين هذه المواضع فقد وُصِفَتْ قرية منع في حلب بأنها قرية كبيرة بها منبر من نواحي عزاز في حلب،[1] ووُصِفَتْ قرية الجحفة بأنها (قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة)[2]. لو رجعنا إلى وَصْفِ خصائص هذه القرية لوجدنا بأنها كانت من المنازل العامرة التي تبعد عن البحر بنحو ميلين وكانت كبيرة وعامرة وتعادل في ذلك مدينة فيد بها نخيل وزروع قليلة لقبيلة طيء. وقال عنها ابن حوقل بأنه (ليس بين مكة والمدينة منزل يستقل بالعمارة والأهل سائر السنة كَهِيَ ولا بين المدينة والعراق يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة مثل فيد)[3]. كذلك وُصِفَتْ قرية ثروق بأنها (قرية عظيمة لسدوس بن عدنان فيها منبر)[4]. أما قرية عسفان التي تبعد حوالي ستة وثلاثين ميلاً عن مكة فكانت (قرية جامعة فيها منبر ونخيل)[5]. كما وُصِفَتْ بليدة سعيد آباذ، وهي عبارة عن بليدة في جبال طبرستان، بأن فيها منبراً. كما[6] وُصِفَتْ الفهرج بأنها بلدة تقع بين فارس وأصبهان وكان بها منبر[7]. والواقع أن ابن حوقل قد عدَّ الفهرج، إحدى مدن ناحية يزد في كورة إصطخر، وقال أيضا إن بها منبراً[8]. ووُصِفَتْ خيف سلام بأنها عبارة عن بلد يقع بالقرب من عسفان على طريق المدينة وكان فيه منبر

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص ٢١٤.
(٢) ن. م. ج٢ ص ١١١.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٤٠.
(٤) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٧٧.
(٥) ن. م. ج٤ ص ١٢٢.
(٦) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص ٣٠٣، ياقوت: ج٣ ص ٢٢٢.
(٧) الاصطخري: المسالك: ص ٦٨، ياقوت نقلاً عن الإصطخري: ج٤ ص ٢٨١.
(٨) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٣٧.

وناس كثير[١]. من جهة ثانية، وُصِفَتْ خيل بأنها كورة وفي نفس الوقت بليدة تقع بين الريّ وقزوين لها عدة قرى ومنبر[٢].

كذلك وصف حصن منصور في بلاد الشام بأنه كان حصناً صغيراً وفيه منبر، وقيل عنه بأنه عبارة عن مدينة حصن صغيرة لها رستاق وقرى[٣]. في نفس الوقت كانت الكنيسة عبارة عن حصن في بلاد الشام (فيه منبر ثغر في معزل عن ساحل البحر) فهي إذن حصن وثغر في آن. ووصف المثقب بأنه حصن فيه منبر (ومنبره ومصحفه) بخطّ عمر بن عبد العزيز[٤].

كما أن هناك نماذج من المراكز التي تسمّى بالفُرضة لوقوعها على البحر أو النهر، كانت تتمتع بوجود منبر، فقد وُصِفَتْ الجار بأنها فُرضة مدينة يثرب تقع على شط البحر وهي أصغر من جدة وقد كان بها منبر[٥].

إذن، فإن هذه المراكز التمدُّنية المختلفة قد تمتعت بوجود المنبر وأن بعضها كان قرية كبيرة وبعضها الآخر بلدة أو مدينة صغيرة، مما يدلُّ على أن المنبر لا يرتبط ارتباطاً تاماً بالمدينة.

وفوق ذلك، فإن مجرَّد قراءة سريعة لقائمة المدن التي احتوتها نواحي كورة سابور ونواحي كورة دارا بجرد ونواحي كورة أردشير خرة إصطخر وجميعها نواحي بلاد فارس، تلك القائمة التي أوردها الإصطخري وابن حوقل، ستبرز لنا عنصراً جديداً في مفهوم تعبير المنبر ودلالته وموقعه من تلك الأصناف والمراكز التمدنية السابقة. والحقيقة سوف نكتفي بتدوين قائمة نواحي كورة واحدة لمجرَّد التدليل على ما قدَّمنا، فقد وَرَدَ في قائمة نواحي أرجان مثلاً أن (أرجان ومدينتها أرجان وبازرنج ليس بها منبر، وبلاد سابور بها منبر، وريشهر بها منبر، وبنيان ليس بها منبر، ومهروبان وبها منبر، ودير أيوب ليس بها منبر،

(١) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٤١٤.
(٢) ن. م. ج٢ ص ٤١٣.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٦٦.
(٤) ن. م. ص ١٦٧.
(٥) ن. م. ص٣٩ ياقوت الحموي: ج١ ص ٩٢ ـ ٩٣.

والملجان ليس بها منبر، والسلجان ليس بها منبر، ودير القمر ليس بها منبر، وفزرك بها منبر، وجنابه بها منبر وشينيز (أو سينيز) بها منبر،وصوان ليس بها منبر)[1] فما هو المعيار الذي اعتمد عليه الإصطخري وابن حوقل في هذا التصنيف؟ وهل يشير ذلك إلى أن هذه المراكز هي قرى أم مدن صغيرة في ناحية أرجان؟ ولماذا كانت بعض تلك المراكز خالية من وجود منبر بينما اشتملت مراكز أخرى على ذلك؟ لكن دون شك، فإن تعبير المنبر في هذه القائمة لم يقتصر على المدن الكبيرة وإنما على القرى والمدن الصغيرة أيضاً، كما أنه لم يكن تعبيراً مرادفاً لمسألة المسجد الجامع.

كذلك يتضح من قراءة بعض الأوصاف والنصوص الجغرافية الأخرى، بأن المدن التي كانت تقوم بوظيفة القصبات هي الأخرى كانت تُمَيَّزُ عن غيرها بوجود المنبر، وفي بعض الحالات قد يعكس الوصف الجغرافي أن المنبر يعني القصبة.

فالإصطخري يشير إلى أن سيراف تحتوي على ثلاثة منابر سيراف وهي القصبة ومدينة نجيرم وجم[2]. وكما وُصِفَتْ بيشك بأنها قصبة كورة رخ من نواحي نيسابور وكانت تحتوي على أسواق (إلا أنها ليس بها منبر)[3]، ووُصِفَتْ الطواويس على أنها إحدى مدن بخارى وأنها (أكبر منبر لها)[4]، كما أن ناحية يزد في بلاد فارس تُعَدُّ أكبر ناحية في تلك البلاد وبها أربع مدن كثّه وهي القصبة والفهرج، ويعلّق الإصطخري قائلاً (وليس في النواحي بها أربع منابر غير هذه الناحية)[5]، بمعنى أربع مدن بضمنها مدينة كثه القصبة. وجاء أيضاً أن روذ راورد اسم رستاق وكان منبرها في الكرج وهي مدينة صغيرة وبناء دورها[6] من الطين، فالقصبة هنا هي المنبر.

---

(١) الإصطخري: المسالك ص ٧١، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٣٩.
(٢) الإصطخري: المسالك ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٣) ياقوت الحموي: ج١ ص ٥٢٨.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٤٠٣.
(٥) الإصطخري: الأقاليم ص ٦٣.
(٦) الإصطخري: الأقاليم ص ٨٦.

ولزيادة إظهار عدم صحة الرأي القائل بأن تعبير المنبر مرتبط بحجم سكان الموضع أو بالمسجد الجامع، نذكر ما أورده ابن حوقل بشأن عدد من المدن والقرى التابعة لمدينة الريّ في الديلم، فإنه بعد أن يذكر أسماء مدن صغيرة في الريّ يقول (وللريّ سوى هذه المدن قرى تزيد في قدرها وجلالتها على هذه المدن كثيراً ولا منابر فيها مثل سد و رامين و ورزنين و وزك وقوسين) ويضيف ملاحظة مهمة قائلاً إنه قد وصل إلى علمه بأن بعض هذه القرى تزيد كثافة سكانها على عشرة آلاف رجل لكنها خالية من المنبر[١].

أما المسألة الأخرى التي يؤكد عليها عدد من الباحثين المحدثين في حقل التمدُّن العربي الإسلامي فهي تلك التي يعتبرون فيها تعبير المنبر وكأنه يعادل المسجد الجامع الذي ينبغي وجوده في المدينة. وهو موضوع بحاجة إلى مناقشة أيضاً، إنه من الصحيح القول بأن التفسير اللغوي لكلمة منبر تشير إلى أنه مرقاة الخاطب وأن المنبر سمّي بذلك لارتفاعه وعلوُّه. وقيل إن المنبر هو كلُّ مرتفع من شيء ووَرَدَ أيضاً اللفظ في اصطلاح انتبر الأمير بمعنى ارتفع فوق المنبر[٢]. إذن، فالمقصود به المكان الذي تقرأ منه الخطبة في المسجد الجامع سواء خطبة الصلاة الجامعة أم خطبة الأمير أو والي المدينة في أوقات غير ذلك. على هذا الأساس صار المنبر يعادل أو يرادف كلمة المسجد الجامع. ومع أن هذا الرأي واضح وصريح، لكنَّ هناك عدداً من الاستشهادات التي أوردها الجغرافيون العرب لا تؤكد ذلك وتشير إلى الجامع والمنبر أو المسجد الجامع والمنبر بشكل منفصل لا يوحي بارتباط الواحد منهما بالآخر أو اندماجهما بحيث يمكن الاستعاضة بالمنبر عن الجامع والعكس. فقد وُصِفَتْ قرية بوهرز بالقرب من بعقوبا بأنها (قرية كبيرة قرب بعقوبا بها جامع ومنبر)[٣]. ووُصِفَتْ قرية بهاران في أصبهان بأن بها (جامع ومنبر كبير)[٤]، فما الذي توحيه هنا صفة الكبر

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ٣٢٢.

(٢) أنظر ابن منظور: لسان العرب (مادة نبر)، الزبيدي: تاج العروس (نبر).

(٣) ياقوت الحموي: ج١ ص ٥١٢.

(٤) ن. م. ج١ ص ٥١٤.

بالنسبة إلى المنبر، فهل هو كبر في الحجم أم كبر في مساحة المكان؟ وكذلك ذكر بأن قرية سوارقيه التي تقع بين مكة والمدينة كانت (غنّاء كبيرة كثيرة الأهل فيها منبر ومسجد جامع)[1]، ووُصِفَتْ قرية جلماثرد بأنها (قرية كبيرة من قرى أصبهان فيها منبر وجامع كبير)[2].

ولم يقتصر هذا الأمر على القرية الكبيرة، أعني ورود تعبير المنبر والمسجد الجامع بشكل منفصل، إنما اتسمت به المدن والبلدة، فمما وَرَدَ بشأن كفر لاثا من نواحي حلب بأنها بلدة بها جامع ومنبر[3]. وكان في ممطير، إحدى مدن طبرستان، مسجد جامع ومنبر[4]. زيادة على تلك الاستشهادات، فقد وَرَدَ بأن مدينة العريش في مصر كانت تحتوي على جامعَيْن ومنبرَيْن[5]، وأن قرية الفرع وهي إحدى قرى نواحي المدينة، كانت كبيرة كالكورة وتشتمل على منابر ومساجد لرسول الله (ص)[6]. بذلك يمكننا القول بأن الجامِعَيْن والمنبَرَيْن وكذلك ارتباط المنابر بمساجد الرسول تعابير واضحة عن المنبر الذي هو مرقاة الخاطب الذي يخطب في المصلّين. وهذا ما يستشفُّ أيضاً من النصّ الطريف الآتي الذي ذكره الإصطخري وابن حوقل بخصوص حصن المثقب (أو المتقب) وهو حصن استحدثه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، فقال ابن حوقل إن هذا الحصن كان يحتوي على منبر للخليفة ومصحفه الذي كان مكتوباً بخطّه، واختصر الإصطخري الأمر فقال إن الحصن يحتوي على (منبر ومصحف له)[7] فكأن المنبر انعكاس لمكان إلقاء الخطبة ووجود المصحف الكريم فيه.

ومن الجانب الآخر فإنه من الممكن القول بأن ليس هناك من تشدُّد أو تحديد بالنسبة إلى المركز التمدُّني ـ سواء أكان ذلك مدينة أم قرية كبيرة ـ أن

(١) ن. م. ج٣ ص ٢٧٦.
(٢) ن. م. ج٢ ص ١٥٦.
(٣) ن. م. ج٤ ص ٤٧٠.
(٤) ن. م. ج٥ ص ١٩٨.
(٥) ن. م. ج٤ ص ١١٤.
(٦) ن. م. ج٤ ص ٢٥٢.
(٧) الإصطخري: الأقاليم ص ٣٤، ابن حوقل: صورة ص ١٦٧.

يتوافر فيه منبر واحد فقط، وذلك لأن هناك نصوصاً جغرافية واستشهادات متعدّدة تبيِّن احتمالية توافر أكثر من منبر في الموضع، ولقد استشهدنا ببعضها في الفقرة السابقة. ومن بين هذه الاستشهادات الأخرى، وُصِفَتْ نفوسة في المغرب أنها تشتمل على منبرَيْن في مدينتَيْن إحداهما في سروس والثانية يقال لها جادو[1]. كذلك، فإن ناحية يزد في كورة إصطخر تحتوي على أربعة منابر، الأمر الذي جعل الإصطخري يعلّق على ذلك مندهشاً بقوله (وليس في النواحي ناحية بها أربع منابر غير هذه الناحية)[2] وفي مقابل قول الإصطخري نجد أن المقدسي وياقوت الحموي يشيران إلى ناحية غرشستان بقولهما إنها ناحية واسعة تحتوي على عشرة منابر أجلُّها بيشير[3]. أيضاً وَرَدَ بأن بيرين عبارة عن صقع من أصقاع البحرين وتشتمل على منبَرَيْن[4]. وأن الفرع المذكور آنفاً فيها منابر عدة. ووُصِفَتْ منطقة كرمان بأنها تحتوي على خمسة[5] وأربعين منبراً صغاراً وكبارا.

نخلص إلى القول بأن مفهوم المنبر واسع ولم يتحدد وجوده على المدينة فحسب، إنما اشتملت بعض القرى الصغيرة والكبيرة وعدد من الحصون والبلدة والمدينة على منابر. والأهم من ذلك، أن تكرار ذكره والتركيز على وجوده لم يقتصر على المدينة، بل حسبما اتضح سابقاً فإن تكرار الاستشهاد به كان في القرى الكبيرة أكثر من المدن. ومع ذلك، فإن من المفيد قوله في هذا المجال بأن المنبر قد اعتبر من بين الخصائص والمعايير التي يمكن إضافتها إلى جملة الخصائص الأخرى للقرية الكبيرة أو البلدة أو القصبة بالدرجة الأولى في حين لم يشدِّد الجغرافيون على ذلك في المدن. والحقيقة أن هناك بعض الحالات التي صار فيها المنبر السِّمة الأساسية أو المعيار الأساس في الموضع إلى جانب وجود السوق، فقد وَرَدَ بشأن قرية يمابرت، وهي من قرى أصبهان،

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص ٢٩٧.
(٢) الإصطخري: الأقاليم ص ٥٨.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٢٢، ياقوت الحموي: ج٤ ص ١٩٣.
(٤) ياقوت: ج٥ ص ٤٢٧.
(٥) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص ٢٠٦.

بأنها قرية كبيرة بها سوق ومنبر[١]. كما وُصِفَتْ خيل بأنها بليدة تقع بين الريّ وقزوين تشتمل على عدة قرى ومنبر وأسواق[٢]. وأن تبل قرية من قرى حلب يوجد فيها سوق ومنبر[٣]. فكأن السوق والمنبر يرتبط الواحد منها بالآخر ويشكّلان الخصائص البارزة للموضع، وبشكل خاص، للقرية الكبيرة أو للبلدة.

إذن ما المقصود بتعبير المنبر على وجه التحديد؟ فهل يُقصد به أيُّ موضع من المواضع؟ أم هل يُقصد للدلالة على كون الموضع مقرًّا للأمير أو الوالي الذي يتخذ القصبة أو عاصمة أو مركز الناحية مقرًّا له ومركزاً لإمارته؟ أم هل يُقصد به المكان الذي يتخذه الشيخ أو الوجيه أو رئيس القبيلة مقرًّا له؟ في الجانب الآخر هل يمكن أن يكون المنبر كدلالة على خطبة الجمعة أو الموضع الذي يجوز فيه إقامة صلاة الجمعة والخطبة من على منبر المسجد الجامع؟ وهل يُقصد به للدلالة على عاصمة الناحية أو الإقليم أو المركز الأساس لها؟ قد يكون الجواب بالإيجاب على جميع تلك التساؤلات التي تبيِّن اتجاهات وتفسيرات مختلفة لواقع المنبر وعلاقته بالمدينة العربية وذلك لتوافر نصوص واضحة نسبياً عن هذا التفسير أو ذاك. غير أن ارتباط المنبر بالقصبة والموضع الذي يحلُّه أمير وشيخ قبيلة أو رئيس يُعَدُّ من الآراء الأكثر رجحاناً. فناحية كرم من نواحي كورة دارا بجرد كانت تحتوي على منبرَيْن بمعنى مركزَيْن أحدهما في أباذة والآخر في كرد بجرد[٤]. وما وَرَدَ بشأن بروجرد الواقعة بين همذان والكرج يوضح هذا الرأي بجلاء، فهي كانت في بداية الأمر من بين القرى لكنها تحوَّلت إلى مدينة عندما استحدث فيها حمويه بن علي، وزير آل أبي دلف، منبر، ويقال حينما اتخذ حمويه هذا فيها المنبر وصارت منزلاً له حينما عظم أمره واستبد في الجبال[٥] أيضاً، لا بدَّ لنا من الاعتماد ثانية على ما ذكره

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص٤٤١.
(٢) ن. م. ج٢ ص ٤١٣.
(٣) ن. م. ج٢ ص ١٤.
(٤) الإصطخري: المسالك ص ٧٠.
(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣١٣، ياقوت: ج١ ص ٤٠٤.

المقدسي وياقوت الحموي بشأن ناحية غرشستان بأنها تحتوي على عشرة منابر أجلُّها بيشير، وذلك لأن بيشير كانت مستقرَّ الشار. ويُقصد بالشار الملك[1]. وقد وُصِفَتْ قرية مهايع بأنها قرية كبيرة في تهامة وتتميَّز بكثرة سكانها ووجود منبر بقرب سايه وواليها يُعيَّن من قِبَلِ أمير المدينة[2]. كما وُصِفَتْ خزبات دو بأنها خزبة معدن تابعة لقبيلة بني عبادة (بها أمير ومنبر[3]). ووَرَدَ بخصوص حصن فيرفت وهو حصن يقع بين جبل نفوسة ومدينة القيروان في المغرب العربي وكان هذا الحصن لقبيلة بني زمور، وهو حصن يحتوي على عدد كبير من القرى والمدن بلغت نحو ثلاثمائة قرية وعدة مدن ومع ذلك (ليس فيها منبر لأنهم لم يتفقوا على رجل يأتمّون به)[4]. كذلك وَرَدَ بشأن الوشم وهو عبارة عن موضع يقع باليمامة يقول عنه ياقوت بأنه يشتمل على أربع قرى ومنبرها الفقي[5]. أما الفقي هذا فهو وادٍ تابعٌ لبني العنبر من قبيلة عمرو بن تميم، ومن المحتمل جداً أن تسمية الفقي ترجع إلى اسم شيخ أو أمير هذه القبيلة. لذلك، فإن هذه النصوص الجغرافية تبيِّن بوضوح أن معنى المنبر هو مركز المنطقة وعلى وجه التحديد مقر الأمير أو الوالي أو الشخص المتنفذ.

ومع رجحان هذا الاستنتاج لتوافر الأدلّة العديدة، فإننا لا يمكننا تعميم صلاحيته وذلك لوجود عدد آخر من الأوصاف الجغرافية الغامضة أو التي لا تنطبق على فكرة أن المنبر يعادل القصبة أو المكان الذي يحلُّه رئيس أو شيخ قبيلة الخ. ومن المحتمل أن مثل هذه الأوصاف تُستثمر للوصول إلى استنتاج آخر في تحديد معنى المنبر بما له علاقة بالمدينة العربية والتمدُّن العربي. ومن بين هذه الأوصاف وَصْفٌ للإصطخري يتعلق بطبرستان، إذ قال ما نصُّه (أما جبال وزرنج وقادن فلست أعرف بها منبراً غير سمنان في[6] جبال قادن) فهل

(١) ياقوت: ج٤ ص ١٩٣.
(٢) ن. م. ج٥ ص٢٢٩.
(٣) ن. م. ج٢ ص ٣٦٧.
(٤) ن. م. ج٥ ص ٢٩٧.
(٥) ن. م. ج٤ ص ٢٦٩.
(٦) الإصطخري: الأقاليم ص٩٠ وقيل جبال روينج وقارن ابن حوقل: ص ٣٢٠.

المقصود أن الإصطخري لم يستطع تحديد القصبة في هذه الجبال أم المدينة الرئيسة أم ماذا؟ كذلك أورد ابن حوقل مسألة خلال حديثه عن هجرة قبيلتي مضر وربيعة من مدينة الخضرمة باليمامة إلى جزيرة مصر حينما نزل بنو الأخيضر في الخضرمة يقول (صارت ـ يعني جزيرة مصر ـ لهم ولتميم كالدار التي لم يزالوا بها. وابتنوا بها غير منبر: كالمحدثة التي بظاهر أسوان وكالعلاقي وهو المنهل يجتاز به الحجيج إلى عيذاب..)[1]، فهل المقصود بالمنبر هنا أنهم استحدثوا موضعاً جديداً بدلاً من الخضرمة في اليمامة أم ماذا؟ ويشير ياقوت الحموي خلال حديثه عن الوشم في اليمامة أيضاً قائلاً إن منبرها من (أكبر منابر اليمامة)[2]، فما هو المقصود بأن منبرها من أكبر منابر اليمامة؟ أيُشير إلى كبر حجم المدينة أم القرية أم الموضع عموماً؟ وهل الكبر متعلق بحجم الموضع أم بكثافة السكان أم بالاثنين معاً. وفي نفس المحور أيضاً وصف منبر بهاران في أصبهان بأنه منبر كبير[3]. كذلك، فإن ابن حوقل خلال تشخيصه الطريق الذي يربط طبرستان بجرجان يذكر تعقيباً جاء فيه (ومن أراد أن يخرج من آمل إلى مامطير مرحلة ومنها إلى سارية مرحلة، ولا يكون الطريق على تريجي وهو أقصر إنما ذكرت الطريق الأول لأن فيه منبرَيْن)[4] فهل يشير ابن حوقل إلى مامطير وسارية باعتبارهما موضعَيْن أو مركزَيْن يسهلان مسألة المرور بالطريق الذي يمرُّ بهما؟ أم أنهما قصبتان؟.

ومن المحتمل أن نقول بأن هذه الاختلافات بشأن إبراز أهمية المنبر وعلاقة وجوده أم عدم وجوده بوضعية المدينة أو البلدة أو القرية يرجع إلى أن الأوصاف التي تقدَّم ذِكْرُها إنما تمثّل فترات تاريخية متباينة. ربما كان التركيز بل التشديد على وجود المنبر بشكل كثير خلال الفترة الإسلامية المبكرة، ولذلك اعتبر من بين الخصائص الأساسية لتحديد موقف هذا المكان أو ذاك في

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٨.
(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٢٦٩.
(٣) ن. م. ج١ ص ٥١٤.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢٦.

أن يكون مدينة كتعبير عن كون هذه المدينة أو تلك تمثّل وحدة إدارية كبيرة، ولا سيما أن التشديد على وجود المسجد كأساس في تحديد المدينة كان كبيراً أيضاً. ويبدو أن هذه النظرة شهدت تطوُّراً خلال الفترات المتأخرة حينما تعددت المدن وتعددت وظائفها وحينما ظهرت وحدات تمدُّنية جديدة كالقرى الجامعة والبلدة الكبيرة وغير ذلك، فظلَّ التشديد على معيار المسجد الجامع، وبالتالي المنبر كأساس وحيد ومهم في تركيب المدينة وتحديد عناصرها، وتوجه الاهتمام والتشديد من قِبَلِ الجغرافيين على مدى توافر عناصر وخصائص أخرى جديدة كالأمور الاقتصادية والإنتاج الذاتي والأسواق وتوافر المياه وحجم المدينة أو المركز التمدُّني وكثافة سكانه ومدى تمتعه بمزايا دفاعية... الخ.

* * *

### تحديد الجغرافيين للقرية:

ومن الطريف ذِكْرُهُ أن الجغرافيين العرب كانوا مدركين وعلى تقدير واضح في التمييز بين تعابير المدينة أو البلدة من جهة وتعبير القرية، ولم تكن هذه التعابير مضطربة ومفتقرة إلى نظام. وإن إدراكهم وتقديرهم في واقع الأمر يتركز في مسألة الخصائص الأساسية التي تميَّزت بها القرى دون غيرها، وكذلك من حيث تصنيفهم لهذه القرى وفقاً لحجومها إلى مراتب ودرجات. إذ قد وَرَدَتْ في مصنَّفاتهم تعابير متعددة عن القرية، فهناك قرية كبيرة وهناك قرية جامعة وهناك قرية كبيرة جامعة أو قرية شبيهة بالمدينة أو قرية كالمدينة، وهناك تعبير قرية كبيرة كالبلدة أو قرية غنّاء أو قرية من أعيان القرى أو قرية عامرة. ولا ريب أن ذِكْرَ هذه التعابير لم يكن أمراً اعتباطياً وغير دقيق، كما سنرى، إنما قد استند إلى عدة أسس ومعايير تمدُّنية متميِّزة تمثَّلت في هذه المجاميع والأنواع المختلفة من القرى. لذلك نرى، بأنه من المفيد جداً التعرُّف إلى بعض أوصاف الجغرافيين لعدد من القرى العربية وأصنافها بغية إدراك قدرة العرب وتفهُّمهم لهذه المسألة.

وهناك نصٌّ طريف جداً نبتدىء به الحديث عن القرية أورده ابن حوقل

ويتعلق بنظرية الحجم السكاني في تفسير المراكز التمدنية. يذكر هذا الجغرافي خلال تناوله مدينة الريّ في الديلم وضواحيها، المتمثلة ببعض المدن الصغيرة كمدينة خوار التي تبلغ مساحتها حوالي ربع ميل. ويعقِّب على هذه المدن الصغيرة قائلاً (وللريّ سوى هذه المدن قرى تزيد في قدرها وجلالتها على هذه المدن كثيراً ولا منابر فيها مثل سد ورامين.. وغير ذلك من القرى التي بلغني أن في إحداها ما يزيد من أهلها على عشرة آلاف رجل)[١]. ويبدو أن ابن حوقل حينما ذكر رقم ١٠,٠٠٠ شخص إنما يهدف إلى إبراز كثافة سكان هذه القرية التي تعبِّر عن حجمها المناسب لأن تكون مدينة صغيرة كتلك المدن التي ذكرها. ولو عدنا قليلا إلى الوراء، خلال الباب الأول من هذا الكتاب، لوجدنا أن النظرية الألمانية التي تشدّد على نسبة السكان، كمعيار أساس في تحديد المدينة، تشير إلى أن المكان الذي يتراوح سكانه من (٥) آلاف نسمة إلى (٢٠) ألف نسمة يُعَدُّ مدينة صغيرة. من هنا يتبيَّن لنا ذكاء الملاحظة التي أبداها ابن حوقل والتي تدلُّ دلالة أكيدة على أن عشرة آلاف شخص كحجم سكان لموضع ما يؤهِّله أن يكون مدينة صغيرة. لهذا كلّه، فإن ابن حوقل وَصَفَ بعلوّ قدر هذه القرى وجلالها مقارنة بالمدن الصغيرة التي شملها حديثه عن مدينة الريّ.

أما بشأن الخصائص التي اتفق عليها الجغرافيون التي ينبغي وجودها في القرية وفقاً لمراتبها وأنواعها، فإن هناك عدة أمثلة واستشهادات تبيِّن الخطوط المشتركة لأوصاف الجغرافيين في هذا الصدد. فقد وُصِفَتْ قرية تبل وهي من قرى مدينة حلب بأنها تشتمل على سوق ومنبر[٢]. كما وُصِفَتْ قرية خديمكن وهي من قرى كرمينيه من نواحي مدينة سمرقند في بلاد ما وراء النهر أنها تشتمل أيضاً على جامع ومنبر[٣]. وذُكِرَتْ قرية قطية الواقعة على الطريق المتجهة إلى مصر بأنها قرية وسط الرمل بالقرب من الفرما وبيوت سكانها

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢٢، أنظر مبحث ما هي المدينة في الفصل الأول من الباب الأول.

(٢) ياقوت: ج٢ ص ١٤.

(٣) ن. م. ج٢ ص ٣٤٩.

صرائف من جريد النخل وشربهم من ركية مالحة، ونظراً لقربهم من البحر كثر عندهم السمك[1]. أما قرية فاطماباذ فكانت من قرى مدينة همذان وقيل إن مسجد الجامع لمدينة همذان كان في قرية فاطماباذ وكانت مزارع الكروم والزروع إلى جانب المسجد[2] الجامع. أما قرية ضرعاء فإنها كانت تقع إلى أسفل من رقيم وبها قصور ومنبر وحصون، وكانت كلٌ من قبيلة هذيل وعامر بن صعصعة يشتركان في حرث الأرض فيها[3]. فالخصائص المشتركة بين هذه القرى وفقاً للأوصاف الجغرافية هي: ١ ـ وجود مسجد جامع ٢ ـ المنبر ٣ ـ السوق ٤ ـ إنتاجها الزراعي، في نفس الوقت نلاحظ هناك تسامحاً من قِبَلِ الجغرافيين في مسألة العمران وكثافة السكان وحجم القرية ووفرة المياه فيها.

وإذا ما انتقلنا إلى إبراز الخصائص التي تتميَّز بها القرية الكبيرة أو القرية الجامعة، نلاحظ أن هناك اختلافاً نسبياً واضحاً في أوصافها وعناصر تكوينها عن الخصائص التي تقدَّم ذِكْرُها بشأن القرية بصفة عامة. فقرية الفراذية في بلاد الشام على سبيل المثال وُصِفَتْ بأنها (قرية كبيرة بها منبر وبها ماء غزير ومواضع نزيهة)[4] كما وُصِفَتْ قرية الفرع التي تُعَدُّ من نواحي المدينة وتقع على يسار السقيا على طريق مكة بأنها قرية كبيرة غنّاء بها منبر ونخل ومياه كثيرة، وأنها كبيرة بحيث وُصِفَتْ كالكورة وكانت لقريش ومزينة، وتحتوي على عدة قرى ومنابر ومساجد لرسول الله (ص)[5]، ووُصِفَتْ قرية جنوجرد بأنها قرية كبيرة من قرى مرو تقع على بعد خمسة فراسخ من مرو وكانت تقع على طريق القوافل الخارجة من مرو. يقول ياقوت (وعهدي بها كبيرة ذات سوق واسع وعمارات حسنة وجامع فسيح[6] وكروم وبساتين). إن الأوصاف الجغرافية السابقة لعدد من القرى الكبيرة تبيِّن أن هناك تركيزاً واضحاً على عدد من

(١) ن. م. ج٤ ص ٣٨٧.
(٢) ن. م. ٤ ص ٢٣٢.
(٣) ن. م ج٣ ص ٤٥٥.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٦٢.
(٥) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٢٥٢.
(٦) ن. م. ٢ ص ١٧٢.

الخصائص التي لم يكن التشديد عليها كثيراً في القرية بشكلها العام من أمثال العمران والإنتاج الذاتي الواسع، إلى حدٍّ ما، وتوافر المياه فضلاً عن الخصائص الجامع والمنبر والسوق.

ولعلَّه من الصحيح القول بأن تعبير (القرية الكبيرة الجامعة) مشابه إلى درجة كبيرة في الخصائص المتمثلة بها مع القرية الكبيرة، فقد وُصِفَتْ قرية تل صباح وهي من قرى نهر الملك التي تبعد عن بغداد بحوالي عشرة أميال أنها قرية كبيرة جامعة (فيها سوق وجامع كبير)[1]، ومن المحتمل أن إطلاق صفة الكبر على الجامع في هذه القرية مؤشر إلى كثرة أهاليها فكانت قرية كبيرة وجامعة، وربما يعود سبب وَصْفِها بالجامعة لكونها قريبة من بغداد العاصمة. ووُصِفَتْ قرية عسفان التي تبعد حوالي ستة وثلاثين ميلاً عن مكة بأنها قرية جامعة تحتوي على منبر ونخيل ومزارع[2]. أما قرية فرنوط الواقعة بين القاهرة والاسكندرية فقد وُصِفَتْ بأنها قرية كبيرة جامعة تقع على نهر النيل وتشتمل على (أسواق ومسجد جامع[3] وكنيسة خراب كبيرة). فالخصائص الأساسية التي ركَّز عليها الجغرافيون في هذا الصنف من القرى هي الكثافة السكانية ووجود أسواق لا سوق.

أما الخصائص التي تميَّزت بها القرى التي وُصِفَتْ عند الجغرافيين بأنها قرية عامرة فإنها تماثل أيضاً خصائص القرية الكبيرة والقرية الكبيرة الجامعة، فقد وُصِفَتْ قرية زبالة التي تقع بين واقصة والثعلبية بأنها قرية عامرة تشتمل على أسواق وحصن وجامع[4].

كذلك كانت وضعية القرية التي وُصِفَتْ بالقرية الغنّاء وهو تعبير يشير إلى أهميتها من النواحي الزراعية فضلاً عن جمال الطبيعة فيها، فقد وُصِفَتْ قرية

(١) ن. م. ج٢ ص ٤٠.
(٢) ن. م. ج٤ ص ١٢٢.
(٣) ن. م. ج٢ ص ٢٢٧.
(٤) ياقوت الحموي: ج٣ ص ١٢٩.

مهريجرد بأنها (قرية غنّاء من كورة تمد وهي من أجلّ قراها وأعمرها وأكثرها سواداً ومياهها[1] وأنهاراً).

وأُطلِقَ تعبير (من أعيان القرى) على تلك القرى الكبيرة التي تشبه المدن الصغيرة فقد وُصِفَتْ قرية طنان بأنها (من أعيان قرى مصر) وكانت تقع بالقرب من مدينة الفسطاط ووُصِفَتْ بأنها قرية تشتمل على بساتين بلغت ميرة هذه البساتين عشرة آلاف[2] دينار في كلّ عام، مما يشير إلى كثرة إنتاجها وغناها، فضلاً عن أهميتها الجغرافية لموقعها القريب من الفسطاط التي صارت فيما بعد القاهرة.

ومع كلّ ذلك، فإن الأوصاف الجغرافية الأخرى التي خصَّت بالذكر تلك القرى الكبيرة التي ارتفعت إلى درجة المدن الصغيرة في الحجم والسكان والأهمية قد تضمَّنت خصائص جديدة قد لا يوجد ما يشابهها في القرى الكبيرة، فضلاً عن القرى بشكلها العام، فقد وُصِفَتْ قرية شيرز بأنها من قرى مدينة سرخس بين نيسابور ومرو في خراسان وكانت تشبه المدينة حجماً وسكاناً، إذ تشتمل على (سوق عامر وخلق كثير وجامع كبير إلا أن شربهم من ماء آبار عذبة)[3]. أما قرية الفضلية التي تُعَدُّ إحدى قرى نواحي شرقي الموصل فقد وُصِفَتْ بأنها قرية كبيرة تشبه المدينة وتشتمل على نهر وكروم وبساتين وبها (سوق وقيسارية وبازار) وقيل إنها تشبه باعشيقا في الحجم[4]، كذلك وُصِفَتْ قرية شنشت بأنها إحدى قرى الريّ المشهورة وكانت كبيرة كالمدينة[5]. ووصف ابن حوقل قرية دزك أو دزه من قرى مدينة الريّ في الديلم بأنها من القرى التي تزيد في قدرها وجلالتها على المدن الصغيرة، وتُعَدُّ من مشاهير قرى الريّ[6] كالمدينة من حيث الحجم. كما وُصِفَتْ بعقوبا بأنها قرية كبيرة تشبه المدينة

---

(١) ن. م. ج٥ ص ٢٣٤.
(٢) ن. م. ج٢ ص ٤٢.
(٣) ن. م. ج٣ ص ٣٨٢.
(٤) ن. م. ج٤ ص ٢٦٧.
(٥) ن. م. ج٣ ص ٣٦٨.
(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٢٢.

وتتميَّز بكثرة الأنهار والبساتين وكثرة الفواكه والنخيل[١]، وبها رطب وليمون. وذكر ياقوت الحموي بشأن قرية فنين بأنها (قرية عهدي بها عامرة أحسن من مدينة مرو)[٢]. ووُصِفَتْ قرية طرق وهي من أعمال مدينة أصبهان بأنها قرية كبيرة تشبه البلدة)[٣]. فالتركيز البارز في هذه المجموعة من القرى الكبيرة كان على حجمها وكثافة سكانها بالدرجة الأولى، لذلك أطلق عليها الجغرافيون صفة أنها تشبه المدينة، أعني بشكل أدق المدينة الصغيرة، وأن خصائصها تتمثل بـ ـ ١ ـ كثرة الأهالي ٢ ـ إنتاجها الزراعي ٣ ـ توافر مصادر المياه.

ومما يجدر ذِكْرُهُ في هذا الصدد، أن هنالك عدداً من القرى قد تبدَّلت بها الأحوال فاتخذت وظيفة القصبة، فمما وَرَدَ بشأن قرية جازر، وهي من قرى النهروان من أعمال بغداد وتقع بالقرب من المدائن، أنها كانت قصبة طسوج الجازر[٤].

خلاصة ما تقدَّم من أوصاف جغرافية للأنواع المتعددة من القرى اعتماداً على خصائص كلِّ نوعٍ منها، يمكننا القول بأن تصنيف الجغرافيين لهذه المراكز يُعَدُّ تصنيفاً دقيقاً ومنظَّماً، إذ اعتمدوا على أسس واضحة في تمييزهم بين القرى بمعناها المجرَّد وتلك التي تقترب من الحواضر والمدن. ويبدو أن معيار الجامع والمنبر يُعَدّان من المعايير المهمة في أوصاف تلك القرى، وفي الوقت ذاته، فإن هذين المعيارين صارا ثانويَّيْنِ في أوصاف القرى الشبيهة بالمدن، مما يشير إلى أهميتها مقارنة بحجم القرية وكثافة سكانها وتطوُّر مواردها الزراعية التي أصبح التركيز عليها كثيراً.

---

(١) ياقوت الحموي: ج١ ص ٤٥٣.
(٢) ن. م. ج٤ ص ٢٧٨.
(٣) ن. م. ج٤ ص ٣١.
(٤) ن. م. ج٢ ص ٩٤.

الفصل الثالث

# مستلزمات المدينة العربية الإسلامية

إن المتمعّن في الخلفيات التاريخية للعوامل التي ساعدت على اتخاذ العرب المدن والحواضر بأنواعها المختلفة سيخرج دون ريب بنتيجة مفادها أن هؤلاء العرب كانوا يضعون جملة مستلزمات وشروط في اختيارهم مواضع المدن وفي التفاضل بين المواضع التي يتمُّ اختيارها تبعاً لصفات هذه المواضع المختارة الصحية والجغرافية والحضارية والاقتصادية.. الخ. فلم تكن مسألة تأسيس المدن العربية واختيار مواضعها من المسائل العشوائية والآنية، كما يعتقد بعض الباحثين الأجانب في حقل التمدُّن العربي كما تقدَّم في الباب الأول. وبالفعل فإن هذه المستلزمات والشروط كانت بحدّ ذاتها تتفاوت في الأهمية تبعاً للوظيفة الأساسية للمدينة المؤسسة، ومن بين هذه المستلزمات التي ركز عليها العرب في تأسيس المدن والأمصار هي:

## ١ ـ المستلزمات والمتطلبات العسكرية:

لقد اتخذ العرب المشاركون في عمليات التحرُّر العربي، أي الفتوحات الأسلامية الكبرى ضد الساسانيين الفرس من جهة الشرق وضد البيزنطيين من الجهة الشمالية والغربية، عدة مراكز عسكرية كانت وظيفتها الأساسية في بداية التأسيس عبارة عن مخيّمات عسكرية غير ثابتة، الغرض منها توفير محلات لإقامة المقاتلين العرب ولإمداد الجيوش العربية أثناء القتال. وقد أطلق على هذه المجموعة من المراكز تسمية الأمصار (جمع مصر) وهو تعبير، كما رأينا سابقاً، يُقصد به تلك المراكز التي تتخذ على الأطراف والحدود. ومن الناحية

الواقعية، فإن التعبير شمل سبعة مراكز حضارية مستقرّة وهي: المدينة والشام ومصر (بمعنى الفسطاط) والجزيرة والبحرين والبصرة والكوفة. ولعلّه من المناسب القول إن هذا التعبير (مصَّر، وتمصَّر) صار واسعاً خلال الفترات التاريخية المتأخرة وبات يحمل مضامين تمدُّنية تدلُّ على تبدُّل الأحوال العمرانية والاجتماعية والإدارية للمركز المتخذ وتحوّله إلى مدينة، ففي هذا المعنى يذكر ياقوت الحموي ملاحظة مهمة بشأن مدينة قلهات في عمان قائلاً بأن هذه المدينة ليست من المدن القديمة عمرانياً (ولا أظنها تمصَّرت إلا بعد الخمسمائة)[1]، ويقصد بذلك أنها لم تتطوّر إلى مدينة ذات عمران وخصائص مدينية إلا في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد.

إن وقفة سريعة على تلك المراكز السبعة التي اتخذت صفة ووظيفة الأمصار توحي في بداية الأمر إلى هذه الفكرة، أي تحوُّل هذه المراكز عمرانياً وإدارياً، ومن الناحية التمدُّنية لا كما اتفقت عليه بعض الآراء من أن تعبير المصر إنما جاء من الاستخدام الذي وَرَدَ في رسائل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) إلى القادة العرب في جبهات البصرة والكوفة، فالرواية التاريخية تبيّن أن الخليفة ذكر في رسالته الجوابية على رسالة عتبة بن غزوان في البصرة حول حاجته إلى اتخاذ موضع للمقاتلين العرب، فاحتوى الجواب على قول الخليفة (لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً (أو نهراً)[2] بل مصّروها) أي اجعلوا الموضع على الحدود. بذلك، فإن هذه التوصية المهمة قد قصدت بالمصر المشار إليه بكلمة (مصّروها) بأنه الحد أو الطرف. غير أنه من الناحية الواقعية، فإن هذا التحديد، المصر هو الحد، لا ينطبق تماماً على جميع المراكز السبعة أو الأمصار السبعة وهو ينطبق على ثلاثة مراكز فقط هي البصرة والكوفة والفسطاط. أما المراكز الأربعة الأخرى وهي المدينة والجزيرة والشام والبحرين، فإنها لا تمثّل تحديداً واحداً بل تحديدَيْنِ إن صحَّ التعبير وهما تحديد المدينة المركز والمنطقة الواسعة. فضلاً عن أنها ـ أي هذه المراكز الأربعة ـ كانت موجودة ومعروفة قبل بدء

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٣٩٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٣٦، ٣٤١.

الفتوحات الإسلامية بزمن غير قليل. وهي فوق كلّ ذلك، لا تتواءم ومفهوم المصر بمعنى الحد والطرف، فإنها لا تقع على الحدود والأطراف.

وأن الأمصار الحقيقية التي أوجدها أو أسسها العرب أثناء حركات التحرُّر العربية والتي تنطبق عليها نظرية المصر هي البصرة والكوفة والفسطاط. وأن القصص والروايات التاريخية التي سبقت تأسيسها والتي ذُكِرَتْ أثناء ذلك تبيِّن بأن هذه الأمصار الثلاثة تأسست بفعل العوامل العسكرية، وأن هذه العوامل قد لعبت دوراً بارزاً في اختيارها ومن ثم تأسيسها. فالمصران الأول والثاني كانا قد اختيرا في فترة تاريخية متقاربة إلى درجة كبيرة وكان ذلك في الأساس بدافع تقسيم المنطقة التي توجَّه العرب إلى تحريرها إلى منطقتين أو لِنَقُل إلى جبهتين عسكريَّتَيْن. فصار القسم الشمالي من بلاد فارس المتمثل بالمدائن العاصمة وما جاورها وما ابتعد عنها بنفس الاتجاه من اختصاص القيادة العربية التي اختارت الكوفة مصراً. أما فتح الأبُلّة والأحواز والجزء الجنوبي من بلاد فارس باتجاه سجستان فقد صار من اختصاص القيادة العسكرية العربية التي اختارت البصرة مصراً. في الجانب الثاني، فإن الفسطاط هي الأخرى قد اختار موضعها القائد عمرو بن العاص لتكون المركز العسكري المشرف على عمليات الفتح في مصر، بالدرجة الأولى، وعلى جزءٍ من المغرب وشمال أفريقيا.

من هذا المنطلق، يجد المرء بأن مستلزمات اختيار وتأسيس هذه الأمصار الثلاثة كانت إلى درجة كبيرة متشابهة أو مشتركة. إذ قد وَرَدَ في الروايات التاريخية أن الخليفة عمر بن الخطاب توجهت اهتماماته العسكرية صوب منطقة البصرة وذلك نتيجة للعمليات العسكرية الحربية التي كانت تقوم بها قبائل بكر ابن وائل على المسالح الفارسية في الخريبة والأبُلّة. لذلك وجّه عتبة بن غزوان إلى هذه المنطقة قائلاً له (صر إلى ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على إخوانك)[1]. من هذا يتبيَّن لنا

(١) أنظر الدينوري: الأخبار الطوال (القاهرة ١٩٦٠، ص ١١٦ ـ ١١٧)، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٣٦.

بأن الهدف العسكري الرئيسي من توجيه عتبة بن غزوان هو مشاغلة الفرس كي لا يجدوا فرصة في إمداد جيوشهم التي كانت تجابه قتالاً حاداً من القيادة والجيش العربي في جبهة الكوفة. ومع كلّ ذلك، فإن عتبة بن غزوان صار بمرور، الزمن محتاجاً إلى أن يتخذ هذا الموضع الجديد، البصرة، مخيَّماً أو معسكراً للمقاتلين المرافقين له، فبعث رسالة إلى الخليفة بهذا المعنى قائلاً فيها إنه (لا بدَّ للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غَزْوِهِم)[1]. أما الذي يهمُّنا من ذلك القول، الشروط والمستلزمات التي وضعها الخليفة الثاني أمام أنظار عتبة بن غزوان قبل أن يعطيه الإذن والموافقة في عملية اتخاذ البصرة. فالمزايا والأوصاف التي بها تميَّز الموضع المختار أو المنتخب جاءت على لسان عتبة بن غزوان رداً على تساؤل الخليفة الذي قال له (إجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريباً من الماء والمرعى واكتب إليّ[2] بصفته)، إن هذه الأوصاف كانت متطابقة مع العناصر الأساسية المكوِّنة لمخيَّم عسكري مؤقت. أقصد توافر الماء والمرعى. فكان عتبة بن غزوان على تلك التوصية أنه عثر على موضع يتمتع بمزايا تتفق وذلك المبدأ، فهو:

اولا: يقع على طرف البرّ وقريب من الريف

ثانياً: قريب من مناقع (مشارب) المياه

ثالثاً: يكثر فيه القصب

رابعاً: يكثر فيه القِضّة (الحصى)

وقد وافقت هذه المزايا الشروط التي اشترطها الخليفة فأجاب بأن هذه المنطقة (أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب)[3]. ولو حلَّلنا هذه المستلزمات الأربعة التي ركَّز عليها عتبة بن غزوان وبأنها كانت ضرورية

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٣٦، ٣٤٥، الدينوري: الأخبار الطوال ص ١١٧.

(٢) البلاذري: فتوح ص ٣٤١ ويذكر أن عتبة بن غزوان كتب إلى الخليفة واصفاً الأبلة بأنها فرضة البحرين وعمان والهند والصين، ص ٣٣٧. كذلك أورد البلاذري بأن الخليفة نصح عتبة أن ينزل الناس في موضع قريب من الماء والمرعى ص ٣٣٦.

(٣) البلاذري: فتوح ص ٣٤١.

جداً في كسب موافقة الخليفة على الاختيار، نراها قد اقتصرت فيما يتعلق الأمر بوظيفة الموضع أو المصر على الجانب العسكري بشكل رئيسي. وإن الخليفة عمر بن الخطاب وكذلك القائد عتبة بن غزوان لم يشدّدا على أمور اقتصادية وتجارية، بالرغم من أن هناك رواية أوردها ياقوت الحموي تفيد بأن الخليفة عمر بن الخطاب قد استشار ثابت السدوسي عن صفة أرض البصرة، وأن هذا الرجل قد أشار قائلاً (يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة فيه مصر وفيه مسالح للعجم يقال له الخريبة ويسمّى أيضاً البصيرة بينه وبين دجلة أربعة فراسخ له خليج فيه الماء إلى أجمة قصب. فأعجب ذلك عمر)[1]. ومن المرجَّح أن تعبير الخليج هنا قد لا يُفْهَمُ منه خليج البصرة أو الخليج العربي، إنما قد يكون المقصود به شط العرب الذي كان يسمّى أيضاً دجلة البصرة، لكن مع كلِّ ذلك، فإن المستلزمات العسكرية كانت واضحة جداً في مسألة اختيار موضع مدينة البصرة.

أما بخصوص اختيار موضع مدينة الكوفة وتأسيسها فإنه من الممكن القول بأن الموضع الذي اتخذت فيه الكوفة، كما هي الحال بشأن موضع البصرة، لم يكن مأهولاً عمرانياً وبشرياً قبل اتخاذ الكوفة، وإنه كان، إلى حدٍّ ما، خالياً من المراكز التمدنية، فقد كان الموضع يقع على الشرق من مدينة ومملكة الحيرة التي لعبت دوراً فعّالا في تاريخ ما قبل الإسلام، بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت هناك مسلحة فارسية إزاء البادية لمتابعة تحركات القبائل العربية كما هي الحال في الأبُلّة والخريبة في منطقة البصرة. لقد جاء اختيار وتأسيس الكوفة على أثر تطورات سريعة في العمليات الحربية في هذه المنطقة وعلى أثر انتصارات المسلمين الرائعة على الفرس الساسانيين بعد افتتاح السواد وانسياب الجيوش العربية الإسلامية نحو الشرق، هذه التطوُّرات العسكرية فرضت الحاجة الماسة إلى اتخاذ مخيَّم عسكري غرضه تسهيل عملية الاتصال بالمدينة وكذلك تسهيل وصول الإمدادات العسكرية. من هذا المنطلق، وافق الخليفة عمر بن الخطاب

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٤٩١.

على فكرة القائد سعد بن أبي وقاص في أن يتخذ (دار هجرة وقيروان)[١]. كما وَرَدَ التعبير نصّاً في رسالة القائد سعد بمعنى أنه هدف إلى اتخاذ مخيَّم لمرابطة الجنود والمقاتلين. فما كان من سعد إلا أن يجدَّ في البحث عن موضع ملائم ويتفق مع توصية الخليفة. الحقيقة أن اختياره قد وقع في بداية الأمر على مدينة المدائن، العاصمة الساسانية والمدينة القديمة الثابتة، لكن المنطقة التي كانت تقع فيها المدائن لم تكن ملائمة من النواحي العسكرية للاستراتيجية العربية في الفتوحات آنذاك، تلك الاستراتيجية التي تقوم على مبدأ أن لا يفصل الموضع عن المدينة بحر أو نهر أو جبل وبذلك تتعرقل مسألة الإمدادات والمواصلات. علاوة على ذلك، فإن موضع المدائن لا يوافق متطلبات العرب في تلك الفترة، وأقصد اختلاف الظروف المناخية، فإنه كان رطباً شديد الوخومة وتكثر فيه الحشرات والهوام وهي أمور لم يتعوَّد عليها المقاتل العربي بعد. والمهم أن الخليفة عمر حينما علم باختيار سعد واتخاذه المدائن مخيَّماً له، كتب إليه رسالة يأمره فيها أن يتحوَّل عن المدائن قائلاً له (حوِّلهم) التي تحمل مضمون التنفيذ السريع. وبذلك تحوَّل سعد والعرب إلى موضع يسمّى سوق حكمة ويقال إلى موضع يسمّى كويفة ابن عمر وهو موضع يقع إلى دون الكوفة. بعد أن تمَّ الاختيار، كتب سعد إلى الخليفة بذلك فجاءه الجواب يحمل المتطلبات والشروط الضرورية المناسبة للمقاتلين، إذ قال فيه (إن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف)[٢]، وهو رأيٌ بالغ الأهمية إذ ترتسم من خلاله مستلزمات المركز العسكري التي تشابه المستلزمات التي فُرِضَتْ في تأسيس البصرة. وحسبما يذكر أن سعداً جدَّ في البحث عن موضع موافق لتلك الأوصاف التي شخَّصها الخليفة فأشار عليه أحد أصحابه بموضع الكوفة والصفات التي كان يتمتع بها فأبان عن أنها (أرض مرتفعة عن المباق منحدرة عن الفلاة ينبت فيها الخزامي والأقحوان

---

(١) يذكر الطبري بأن الخليفة عمر كتب إلى سعد يستفسر منه عن سبب تغيير ألوان العرب ولحومهم عندما نزلوا المدائن أول الأمر فأجابه أنها وخومة الجو فقال له: (إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق أبلها من البلدان) تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص ٤١.

(٢) الطبري: ج٤ ص ٤٠ ـ ٤١، ياقوت: ج٤ ص ٤٩١.

والشبح والقيصوم والشقائق)[1]. علاوة على ذلك، فإنها تتصل بالبادية ولا يفصلها عن المدينة نهر أو جسر. فردَّ سعد حينئذٍ على رسالة الخليفة مبيِّناً الأحوال المناخية الملائمة للموضع وما يتمتع به من موقع عسكري جيد.

وتظهر نفس المستلزمات والمتطلبات العسكرية التي ساعدت على تاسيس كلٌ من البصرة والكوفة في الجذور التاريخية لاختيار وتأسيس مدينة الفسطاط. فلقد ذكرت الروايات التاريخية أن القائد عَمْرَ بن العاص بعد أن أفلح في دَحْرِ الجيوش المحتلة من المنطقة وفَتْحِ مدينة الاسكندرية التي تُعَدُّ قاعدة حيوية لجيوش العدو، وجد نفسه بحاجة ماسّة إلى مكان يقيم فيه المقاتلون المرافقون له. وبالفعل فإنه كتب إلى الخليفة يستأذنه باتخاذ موضع ومستقرٌ له ولمن معه من المسلمين، فأجابه موافقاً على طلبه وناصحاً إياه بحسن الاختيار، مبيِّناً له المستلزمات والشروط الأساسية التي ينبغي تحقيقها في المكان المتخَب قائلاً ما نصّه (لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر)[2] وهي توصية تشابه تماماً ما سبق أن عرضه الخليفة على عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص، مما يؤكد اتفاقها مع الاستراتيجية العسكرية العربية آنذاك. وقد نشط عمرو بن العاص في البحث عن موضع بديل لما كان قد وقع عليه اختياره في بداية الأمر، وذلك لأنه كان قد اتخذ حصن أم دنين مكاناً للإقامة عندما كان محاصراً قوات العدو. ويبدو أن هذا الحصن لم يكن موافقاً للمتطلبات التي عيَّنها الخليفة، فضلاً عن أنه لا يلائم الطبيعة الحربية العربية، فأشار عليه أصحابه بالعودة إلى الفسطاط (الخيمة) الذي كان قد نزل به عمرو بن العاص قبل بداية هجومه على الاسكندرية. والمهمّ في هذا الأمر أن هؤلاء قد ركّزوا على الأسس العسكرية ذاتها عند اختيار البصرة والكوفة، إذ قالوا له (نرجع إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء)[3]، وهو تعبير يعكس، بجلاء، الإمكانيات

---

(١) البلاذري: فتوح ص ٢٧٧، ٣٧٥، ابن خلدون: العبر (بيروت) ج٣ ص ٣٢١.

(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص ٢٦٣. أنظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا (ط/ الأميرية) ج٣ ص ٣٢٦، المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (ط/القاهرة ١٩١٣) ج٧ ص١ ـ ٧.

(٣) ياقوت: ج٤ ص ٢٦٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص ٦٤ـ ٦٦.

العسكرية المتوافرة في ذلك الفسطاط والمتمثلة بوقوعه على طرف البرّ واتصاله الميسور بمركز المدينة، علاوة على أنه كان قريباً من مشارب المياه. على هذا الأساس، فإن المتطلبات العسكرية في اختيار موضع مدينة الفسطاط في مصر كانت واضحة جداً ولم تَرِدْ أية إشارة إلى أن القائد عَمْرَ بن العاص كان مخطِّطاً أو مفكِّراً في شروط ومستلزمات أخرى تجارية أو إدارية في هذه المرحلة.

وإذا ما نظرنا إلى الدوافع التي دفعت القائد عقبة بن نافع في اختيار وتأسيس مدينة القيروان في تونس وجدنا أنها تطابق أيضاً تلك الدوافع التي أسَّسَت البصرة والكوفة والفسطاط على أساسها. وكانت المستلزمات العسكرية هي الرئيسة في اختيار موضع القيروان. وليس مصادفة أن نرى القيروان هي الأخرى كانت منطقة غير مأهولة بشرياً أو عمرانياً، وأن المدينة التاريخية القديمة الموجودة في هذه المنطقة كانت قرطاج، لكنَّ عقبة والعرب المرافقين له لم يتخذوها مقرًّا عسكرياً لهم. فالرواية التاريخية تشير إلى أن عقبة بن نافع لم يأمن جانب البربر ولم يَثِقْ بهم كثيراً، لذلك فإنه بعد حصوله على الانتصارات العسكرية واحتياجه إلى معسكر للمقاتلين لم يتخذه قريباً منهم. وقد أوضح عقبة رأيه هذا عندما قال لأصحابه (إن أهل هذه البلاد قوم لا خلق لهم إذا عضَّهم السيف أسلموا، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عادتهم ودينهم ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأياً، وقد رأيت أن أبني هنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا[1] رأيه) وأضاف إلى هذا الرأي قوله في صفات الموضع فقال إنه في طريق البرّ وهو اصطلاح يُقْصَدُ به الاتصال الطبيعي السهل بالصحراء وإنه لا يفصله جبل أو نهر، علاوة على أنه يتمتع بالمزايا الطبيعية والمناخية التي تعوَّد عليها المقاتلون العرب، كما أنه أماط اللثام عن أهمية موقعه الاستراتيجي بالنسبة إلى البربر من جهة والبيزنطيين من جهة ثانية، فأشار إلى أنه يقع في أجمة بمعنى المكان الذي يصعب فَرْضُ الحصار عليه ومباغتته من قِبَل البربر، كما أنه قال (إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

تطرقها مراكب الروم فتهلكوا وهي في وسط البلاد)[1]. فالمستلزمات العسكرية المتوافرة في القيروان واضحة أيضاً، إنها تبعد عن ساحل البحر المتوسط وبذلك تكون الجيوش العربية في مأمن من أيّ هجوم بحري من قِبَلِ الأساطيل البيزنطية، كذلك، إنها تواجه مراكز القبائل البربرية في منطقة جبل الأوراس فتكون في مأمن أيضاً من هجوم قبلي مفاجىء، والأهم من كلّ ذلك، اتصال القيروان بالفسطاط اتصالاً سهلاً، مما يجعل عملية الإمداد والمواصلات مع مركز القيادة لهذه الجهة سهلة أيضاً.

وبالإضافة إلى هذه الأمصار الإسلامية الأولى، فإن المدن التي صارت مدن الحصون أو مدن الثغور هي الأخرى تخضع إلى نفس الاتجاه أي بما توفره من مستلزمات عسكرية أدت إلى اختيارها من أمثال متانة بناء حصونها ومتانة السور المحيط بها ووجود القلعة أو القهندز، وقد سبق ذِكْرُ هذا الصنف من المدن فلا حاجة إلى تكرار المتطلبات المتوافرة فيها والتي تتماشى مع مبدأ المستلزمات العسكرية.

## ٢ ـ المستلزمات الاقتصادية والتجارية:

دون شك، فإن العرب المسلمين كانوا على إدراك وفَهْم خاص بالنسبة إلى العناصر المكوّنة للمدن التي لم تكن وظيفتها الأساسية عسكرية بشكل خاص، وكذلك للمدن التي لا تقع ضِمْنَ مفهوم الأمصار التي تقابل وتعادل المخيّمات العسكرية. ولعلّه من الممكن تمييز هذه الرؤية أو هذا الفهم بالضروريات والمستلزمات التي تأثرت وظيفتها الأساسية بالعوامل الاقتصادية والتجارية سواء أكانت تلك المدينة هي مدينة ميناء أم مدينة سوق أم مدينة فُرضة أم غير ذلك من الوظائف التجارية والاقتصادية. فالجاحظ مثلاً حينما يعدِّد معرِّفاً المدن والأمصار الإسلامية العشرة المهمة في العالم الإسلامي، فإنه يشير إلى ثلاث

(١) أنظر عن قصة تأسيس القيروان ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٣، البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ج٣ ص ١١٠٥ ـ ١١٠٦، وياقوت الحموي: ج٤ ص ٤٢٠، ٤٢١، الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ٥٥ ـ ٥٦.

مدن منها ويميِّزها عن غيرها وفقاً للتحديد الاقتصادي والتجاري، وهي مدن بغداد والبصرة والفسطاط فيقول (الصناعة بالبصرة والخير ببغداد والتجارة بمصر[1]) كما أشار عدد آخر من المؤلِّفين العرب إلى مدينة البصرة بأنها مدينة التجارة.

بالإمكان تصنيف الوظيفة الاقتصادية للمدن ومستلزماتها التجارية بما له علاقة بأثر العوامل التجارية والاقتصادية في ازدهارها وشهرتها إلى عدة أصناف:

أولاً:

المدن التي توافرت فيها المستلزمات الجغرافية الاستراتيجية كالموقع الجغرافي الملائم لممارسة أغراض عديدة من بينها الأغراض التجارية. لنأخذ على سبيل المثال مدينة بغداد. حقاً إن تأسيس مدينة بغداد زمن أبي جعفر المنصور لم يأتِ كنتيجة مباشرة تماماً للمتطلبات التجارية والاقتصادية الموجودة في ذهن هذا الخليفة. إنما كان تأسيسها انعكاساً لجملة شروط ومستلزمات منها السياسي والعسكري ومنها المناخي ومنها التجاري والاقتصادي ومنها الاجتماعي. غير أننا عندما نتصفَّح المزايا الأساسية للموقع الذي تقرَّر أن تكون مدينة بغداد فيه، نرى بأن هناك تشدُّداً غير قليل على مدى ملاءمة الموقع تجارياً. فقد أورد الطبري والمقدسي رواية تؤكد صحة هذا الاستنتاج ومفادها أن الخليفة قد استشار عدداً من أصحابه الذين رافقوه في حملة البحث عن مكان مناسب لبغداد فأشاروا عليه بموضع معيَّن غير بعيد عن الموقع الأصلي، ومع أن الخليفة قد وافقهم من حيث المبدأ على توافر عدة شروط في ذلك المكان، لكنه بيَّن رأياً ذكياً مخالفاً قائلاً (صدقتم، هو هكذا، ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات وإنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فإني إن أقمت

---

(١) الجاحظ كما ورد في كتاب المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٢٣، كذلك أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٣٨، الثعالبي: ثمار القلوب/القاهرة ص ٢٠٣.

في موضع لا يجلب إليه من البرّ والبحر شيء غَلَتِ الأسعار وقلَّت المادة واشتدَّت المؤونة وشُقَّ ذلك على الناس)[1] فالتركيز في هذا القول على الجوانب الاقتصادية بالدرجة الأساس، ولذلك فإن المنصور عندما وقع اختياره على الموضع الذي تأسست به مدينة بغداد وعَرَضَهُ للمناقشة واستجلاء الآراء وإبراز خصائص الموضع المتطابقة مع تلك الشروط قيل له ما نصّه (يا أمير المؤمنين، سألتني عن هذه الأمكنة وطيبها وما يُخْتارُ منها فالذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج، في الجانب الغربي طسوجَيْن وهما قطربل وبادوريا، وفي الجانب الشرقي طسوجَيْن وهما نهر بوق وكلواذى، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء، فإن أجْدَبَ طسوج وتأخّرت عمارته كان في الطسوج الآخر العمارات) يوضح هذا الجزء من الرواية المزايا الاقتصادية، ولم تكن المستلزمات التي توافرت في مدن الأمصار العسكرية لها أهمية أساسية في هذا الاختيار، بالعكس، فإنها لا توافق التفكير الاستراتيجي العسكري الذي كان سائداً في الفترة الإسلامية إبان فترة الفتوحات الإسلامية. وتتجلّى المزايا التجارية بشكل أكبر في ما ذَكَرَتْهُ الرواية فيما بعد، إذ جاء فيها (وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في الزاب وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة..)[2]. إن المستلزمات التي أوضحتها الرواية تعكس مدى الأهمية التي كان يعلّق عليها المنصور في اتخاذ بغداد بما تتمتع به من موقع جغرافي واستراتيجي، وبما يوفره هذا الموقع من أهمية تجارية واقتصادية.

ومدينة الحلّة التي اتخذها بنو مزيد، وعلى وجه التحديد، الأمير صدقة المزيدي عام ٤٩٥هـ/١١٠١م، إلى الغرب من نهر الفرات، تقع في مكان وسط بين بغداد والكوفة حيث كانت على خط طريق القوافل التجارية وقوافل الحجاج

---

(١) الطبري: تاريخ ج٧ ص ٦١٥.
(٢) الطبري: ج٧ ص ٦١٧، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١١٩ ـ ١٢٠.

وبصورة رئيسة، من بغداد إلى الكوفة ثم إلى مكة[1]. علاوة على ذلك، فإن النهر الذي يمرُّ بها كان نهراً صالحاً لمرور السفن التجارية، لذلك أشار الرحالة ابن جبير بأنها كانت مقصد التجار فصارت من أفخر البلاد وتميَّزت أسواقها بأنها كانت حافلة بالصناعات الضرورية التي فرضها عليها موقعها الجغرافي، وأنها كانت حافلة بالمرافق المدنية[2]. وصارت، بمرور الزمن، المحطة التي يتجمع فيها الحجاج قبل توجُّههم إلى الكوفة ومكة.

أما مدينة فاس في شمال أفريقيا فقد اتخذها الأدارسة مدينة وكانت تقع على الطرق التجارية التي تربط بين مصر من جهة الشرق وتلمسان غرباً ثم إلى سجلماسة جنوباً، وكانت طريقاً تجارياً مهماً لِنَقْلِ البضائع والتجارات برّاً. وهي إلى جانب ذلك كانت تقع في منطقة خصبة تكثر فيها الحجارة والأخشاب التي اسْتُثْمِرَتْ في عملية البناء والعمران[3]

وهناك أمثلة عديدة من المدن التي تطوَّرت واشتهرت بفعل موقعها الجغرافي وأهميته في طرق التجارة البحرية والنهرية والبرية. وقد هيأت لهذا النوع من المدن العوامل التجارية مجالاً واسعاً للنموّ والتطوُّر واجتذاب الناس واستثمار الإنتاجات الذاتية.

ثانياً:

المدن التي توافرت فيها المستلزمات الاقتصادية الذاتية، تلك المدن التجارية التي تركزت وظيفتها الاقتصادية على كونها تمثِّل مدينة سوق. فالمتطلبات التي تركِّز عليها الفهم العربي في هذا النوع من المدن تُعَدُّ انعكاساً بارزاً للوظيفة التي مثلتها. فمدينة سفاقس، على سبيل المثال، هي مدينة من مدن شمال أفريقيا وكانت تتميَّز بموقع ممتاز على ساحل البحر المتوسط وتبعد عن المهدية

---

(١) ياقوت الحموي: ج٢ ص ٣٥٢، عبد الجبار ناجي/الإمارة المزيدية في الحلّة (بصرة ١٩٧٠) ص ٢٥٣ ـ ٢٦١.

(٢) ابن جبير: رحلة (بيروت ١٩٥٨) ص ١٨٩، ياقوت الحموي: ج٢ ص ٣٥٢ ابن بطوطة: رحلة (بيروت) ص ٢٢٠.

(٣) ياقوت الحموي: ج٤ ص٢٣٠، دائرة المعارف الإسلامية (ط/جديدة) مقالة (Fas).

عاصمة الفاطميين حينما كانوا في شمال أفريقيا بحوالي ثلاثة أيام وتبعد عن سوسة بِيَوْمَيْنِ وبينها وبين قابس ثلاثة أيام. إذن كانت سفاقس على اتصال تجاري عبر هذه الطرق بالمدن الرئيسة في هذه المنطقة. ويبدو أن هذه الطرق كانت تمرُّ بها لما تميَّزت به سفاقس من أهمية اقتصادية ذاتية لكونها سوق تجارية اختصت بتجارة الزيتون والزيت، فإنها كانت في وسط غابة من أشجار الزيتون وما موجود بها من هذه الزراعة لا يوجد بمثلها من المدن. لذلك فإن أسعارها أيضاً كانت رخيصة، الأمر الذي ساعد على جذب التجار للانتفاع من ذلك، فيقال إن ستين قفيزاً إلى مائة قفيز من الزيتون كانت تباع بدينار. فقصدها التجار من مختلف أنحاء المنطقة بغرض ابتياع الزيتون فاتجهت إليها الطرق التجارية البرية والبحرية حتى قيل إن زيت مصر خلال القرن الرابع للهجرة كان يُجْلَبُ من سفاقس لقلَّة وجوده في بلاد الشام. أدت هذه التطورات الاقتصادية الإنتاجية إلى جلب الأموال والرخاء والتطوُّر العمراني للمدينة، فكان بناء الدور من الحجارة والجير وكانت أسواقها عامرة. وقد تميَّزت سفاقس، بناء على هذه السِّمات الاقتصادية، بعدد من الخصائص التي ساعدت المدينة على القيام بوظيفة السوق تلك المتمثلة بموقعها الساحلي ووجود مرسى لرسوِّ السفن التجارية كما كانت مدينة مسوَّرة بسور من حجارة وصخر وله أبواب حديدية منيعة، وتميَّزت بكثرة أسواقها وتعدُّدها ونشاطها وكثرة الفنادق والربط والحمَّامات، ولأنها تقع على ساحل البحر، فقد وفَّر لها ذلك الموقع صيود السمك الكثير فكانت (تصاد بحظائر قد زربت وعملت في الماء فتؤخذ بأيسر سعي)، وأسهمت المدينة في تسهيل عملية النقل والتجارة بإنشاء منائر وفنارات تهدي السفن التجارية الواردة إليها عبر الطرق البحرية[١].

وتميَّزت مدينة صعدة في اليمن بكونها مدينة سوق أيضاً، إذ كانت مشهورة بإنتاجاتها الصناعية الذاتية المتمثلة بصناعة دبغ الأدم وجلود البقر، وكانت تصدِّره إلى مختلف الأنحاء، فإن أكثر الأدم في نجران وجرش والطائف كان

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٣، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٢٢٦، ياقوت: ج٣ ص ٢٢٣.

يُستَوْرَدُ من صعدة لذلك صارت مجمعاً للتجار والأموال، وكان التجار يقصدونها لابتياع الجلود والأحذية[1].

كذلك كانت مدينة بست وهي من أعمال سجستان وتأتي بعد زرنج، مدينة سجستان العظمى، مدينة سوق أيضاً حيث وُصِفَتْ بأنها كانت تحتوي على متاجر إلى بلد السند والهند وفيها نخيل وأعناب وكانت خصبة جداً[2].

ومدينة صحار بِعُمان هي الأخرى مدينة سوق تجارية، إنما اشتهرت بما توافر فيها من مستلزمات اقتصادية، فكانت تتميَّز بموقعها الجغرافي على خليج عُمَان (أطلق عليه المقدسي بحر الصين) ووُصِفَتْ بأنه ليس على بحر الصين هذا بلد أجلُّ من صحار، وقال عنها جغرافي آخر بأنه لا يكاد يُعْرَفُ على خليج عمان (بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار). وهي بالإضافة إلى سُمْعَتِها التجارية هذه كانت قصبة عمان كثيرة الخيرات والفواكه. وربما كان لهذا الموقع الجغرافي الممتاز أثر بالغ في جلب التجار والتجارات حتى وُصِفَتْ بأنها تحتوي على التجار والتجارة بما لا يحصى كثرة، وتميَّزت بأسواقها[3] الكثيرة العجيبة.

وكانت مدينة شهرستان ببلاد فارس مدينة سوق عامرة وقصبة كورة سابور، فقد وُصِفَتْ بأنها كثيرة الخيرات ومعدن الخصائص والأضداد، ولعلَّ المقصود بذلك أنها سوق تجتمع فيه منتجات القرى والمدن المجاورة ثم تقوم بتصديرها فكانت سوق للأترج والقصب والزيتون والعنب، فضلاً عما توافر بها من بساتين فواكه عديدة وعيون مياه غزيرة. لذلك اتصفت أسعار هذه الفواكه والمنتجات التي تجتمع فيها بالرخص[4].

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٤٣، ياقوت: ج٣ ص ٤٠٦.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٥٣، ياقوت: ج١ ص ١٠٢.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٤٤، المقدسي: ص٩٢، ياقوت: ج٣ ص ٣٩٣.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ياقوت الحموي: ج٣ ص ٣٧٧.

**ثالثاً :**

في الوقت نفسه، فإن هناك صنفاً من المدن التي توافرت فيها المستلزمات الاقتصادية بالنظر إلى وظيفتها المتمثلة بكونها مدينة مرفأ أو فُرضة، وقد برز فيها عدد من المتطلبات التجارية القائمة على هذه الوظيفة أو التي تخدمها. ولعلَّ الموقع الجغرافي له أكبر الأثر في إضفاء صفة المرفأ والفُرضة على مدن هذا الصنف، فالجار وجدّة مثلاً مدينتان تقعان على البحر الأحمر، والجار تبعد عن المدينة (يثرب) مسافة ثلاث مراحل ويما يعادل مسيرة يوم وليلة، كما تبعد عن ميناء أيْلة بنحو عشر مراحل. المهم أن الجار هذه وُصِفَتْ بأنها فُرضة المدينة كما كانت جدّة فُرضة مكة. وأنها كانت المرفأ الذي ترفأ إليه السفن التي تمخر عباب البحر الأحمر الواردة من الحبشة والصين والهند وعدن ومصر. وكانت جدّة مدينة عامرة كثيرة التجارات والأموال. ووُصِفَتْ أحوالها الاقتصادية بأنه ليس في الحجاز بعد مدينة مكة أكثر مالاً وتجارة من فُرضة جدة. نفس الشيء يمكن قوله بالنسبة إلى مدينة قلهات في عمان، فقد كانت هذه المدينة مدينة مرفأ أيضاً حيث تأتي إليها السفن القادمة من الهند والصين قبل أن تستمر برحلتها إلى الغرب. لذلك أضفى عليها هذا الموقع التجاري أهمية عمرانية واجتماعية[1]. كذلك كانت مدينة عدن في اليمن، فالمدينة كانت صغيرة قياساً بالمدن الواقعة في المنطقة. كما أنها كانت تفتقر إلى المياه والمراعي فاضطر أهلها إلى جلب مياه الشرب من عين ماء تبعد بحوالي مسيرة يوم، ومع هذا كان ماء رديئاً. مع كلِّ هذه الظروف الصعبة، فإنها اكتسبت شهرة واسعة لما فيها من متطلبات مدينة المرفأ، كانت مشهورة في عالم التجارة لموقعها، فهي فُرضة البحر الأحمر ومرفأ المراكب الهندية، ومحطة ينزلها السائرون في البحر. من هذا كلِّه، كانت عدن مجمعاً للتجارة من مختلف الأنحاء نظراً لكونها محطة للسفن التجارية[2]. ولو أخذنا مدينة طبرقة في المغرب لوجدنا أنها كمدينة عدن صغيرة ذات منزلة تمدنية ضعيفة قياساً بالمدن المغربية الأخرى، لكنها مع ذلك بلغت شهرة واسعة لأنها كانت في طريق

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٣٩، ياقوت: ج٤ ص٣٩٣.

(٢) الإصطخري: المسالك ص٢٦، ابن حوقل: صورة الأرض ٤٤، المقدسي: ص٨٥.

المراكب والسفن، ولكونها تشتمل على نهر كبير صالح لدخول السفن التجارية البحرية الكبيرة لتخرج بواسطته إلى بحر طبرقة. وقد وُصِفَتْ لهذه الأسباب بأنها عدوّة أهل الأندلس حيث ينتهي إليها الآتي من الأندلس ويركب منها المسافر إلى هذه البلاد. وكانت ترتبط بمدينة تونس المشهورة بطريق برية عبر مدينة باجة. لقد اكتسبت طبرقة هذه تطوُّراً واسعاً بفضل هذا الموقع حتى قيل عنها (إنما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالأندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها وتعشيرهم). وعلاوة على هذه السّمة المهمة، فإن طبرقة تميَّزت بكثرة محاصيلها الزراعية كالقمح والشعير والغلّات والزروع حتى فاقت بذلك جميع مدن المغرب في تلك المحاصيل كثرة وجودة ونقاء. وصارت بذلك واسعة الرخاء غزيرة الدخل وافرة الأرباح على تجّارها ومزارعيها[1].

وكانت مدينة طرطوشة في الأندلس تقع إلى الشرق من بلنسية وقرطبة. وقد اشتهرت لكونها مدينة تقع على البحر ويحلُّها التجار كمحطة يقضون بها فترة قبل توجُّههم إلى سائر الأمصار. فصارت لهذا السبب مدينة عامرة[2].

وكانت مدينة الفرما في مصر من المدن المشهورة التي أكسبها موقعها على البحر الأحمر وبالذات على شاطىء بحيرة تنيس، أهمية تجارية غير قليلة، إذ صارت مركزاً لورود التجار إليها سواء على الطرق البرية أم على طريق البحر الأحمر. ويبدو أن أهمية موقعها التجاري هذا جعل المدينة مفتوحة للتجار ليلاً ونهاراً خاصة أولئك الذين يأتون من بلاد الشام إلى الفسطاط لكونها تقع على هذه الطريق. وفي مصر أيضاً اشتهرت قوص قصبة الصعيد بأنها مدينة مرفأ حيث يحطُّ فيها التجار الذين يسلكون البحر الأحمر من عدن، وقد أكسبها موقعها هذا الرخاء والعمران فَوُصِفَ أهلها بأنهم أرباب ثروة وأموال[3].

كذلك اشتهرت مدينة قاين قصبة قوهستان بكونها فُرضة خراسان، ويُصَدَّرُ منها نسيج البزّ بكثرة[4].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٦، ياقوت: ج٤ ص١٦.
(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٠.
(٣) أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٦، ياقوت: ج٤ ص٤١٣.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٧٢، ياقوت: ج٤ ص٣٠١.

رابعاً:

ويوجد صنف آخر من هذه المدن التجارية التي توافرت فيها مستلزمات اقتصادية متنوّعة، وهذا الصنف من المدن يتمثل بتلك التي دخلت فيها بعض صناعاتها وإنتاجاتها في التبادل التجاري مع البلدان المختلفة. فقد اشتهرت مدينة البصرة مثلاً بإنتاج أنواع من المنسوجات القطنية الجميلة التي اشتهرت فيها المدينة كثيراً وتلك المنسوجات هي البزّ والخزّ، الأمر الذي دفع المقدسي إلى أن يقول بتعجب (ألم تسمع بخزّ البصرة وبزّها). وكان هذان النسيجان يُصَدَّران إلى الآفاق. كذلك اشتهرت مدينة عبادان الواقعة على رأس الخليج العربي بمرور السفن التجارية الداخلة والخارجة إلى نهر شط العرب، وقد اشتهرت بصناعة الحُصُرِ الجيدة، فقال المقدسي عن ذلك: إن حُصُرَ عبادان كانت تقلَّد في مصر وبلاد فارس. كما ذاعت شهرة البصرة في صناعة عدد من العطور الجميلة كعطر البنفسج والماورد، واشتهرت الأبُلّة في منطقة البصرة بصناعة العمائم الجيدة، كما اشتهرت بلدة الدير في البصرة بصناعة أنواع من الغضار وكان يُصَدَّرُ إلى المدن المجاورة[1]. وفي مصر برز عدد من المدن التي اشتهرت بما توفره من مستلزمات صناعة النسيج، فكانت الفيوم من أكبر المراكز في زراعة الكتان حيث يُصَدَّرُ إلى مختلف النواحي، واشتهرت بدور الطراز الكثيرة التي تَصْنَعُ أنواعاً من الأنسجة التي تُعَدُّ للتصدير والتي لا يُستغنى عنها لشهرتها كالبهنسة التي تُصْنَعُ منها الستور والاستبرقات والشرع والخيام والأحلة والبسط والمضارب. وتُصَنَّعُ هذه الصناعات أيضاً بالصوف والكتان وتُصْبَغُ بأصباغ لا تستحيل وألوان ثابتة مصوَّرة، عليها صُوَرُ حيوانات مختلفة. وقد كانت هذه الصناعات مرغوبة جداً لدى التجار، فيقول ابن حوقل (وللتجار من أقطار الأرض في استعمال أغراضهم بها من الستور الطوال الثمينة التي طول الستر من ثلاثين ذراعاً إلى ما زاد ونقص مما قيمة الزوج منها ثلثمائة دينار وناقص وزائد) وكان يُعْمَلُ في تنيس ودمياط في مصر الثياب الكتانية الرفيعة

(١) أنظر المقدسي: ص١١٨، ١٢٨، ٤١٥.

وثياب الشرب والدبيقي والمصبغات من الحلل التنيسية التي لا يضاهيها في جميع البلدان مثلها في القيمة والحسن والترف والدقة في الصُّنع. ومما اشتهرت به نوع من النسيج الذي يسمّى (أبا قلمون) وهو نسيج كتاني جميل الصنع ويُصدَّر إلى البلدان. وقيل إن ما صُدِّرَ من هذه المنسوجات في القرن الرابع للهجرة إلى العراق تبلغ قيمته من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار. واشتهرت أخميم من مدن أسوان بمصر بصناعة نسيج كتاني تعمل منه الشقة والمناديل ويُصَدَّرُ إلى الحجاز[١].

واشتهرت نيسابور بأنها مدينة تجارية كبيرة، فكان لها سوقان كبيران، تحتوي على الخانات والفنادق لنزول التجار وجميع التجارات، وقيل إن كلَّ فندق من فنادقها الكبيرة كان مخصصاً لأنواع التجارات والبضائع. واشتهرت نيسابور أيضاً بصناعة أنواع جيدة من البزّ وفاخر الثياب القطنية، وكانت تُصَدِّرُ القزّ إلى سائر البلدان وذلك لكثرته وجودته. واشتهرت مرو في خراسان أيضاً بالأبريسم والقزّ الكثير، كما اشتهرت بتصدير القطن الفاخر وهو غاية في اللين، وكانت تُصنع منه الملابس الجميلة التي تُصَدَّرُ من مرو إلى بلدان مختلفة، واشتهرت طبرستان بصناعة الأنسجة من الأبريسم والأكسية الصوفية الثمينة ومناديل قطنية[٢].

في الجانب الآخر اشتهر عدد من المدن العربية الإسلامية بالإنتاجات الزراعية المصدَّرة إلى الخارج، فكانت البصرة تنتج تموراً بأنواع عديدة وتُحَمَّلُ منها إلى الأطراف. واشتهرت مدينة العريش بمصر بكثرة نخيلها وتعدُّد أصناف تمورها، كما اشتهرت بزراعة الرمان حيث كان والتمر يُحْمَلان إلى الأطراف، كما اشتهرت سفاقس بالزيتون وكان التجار يقصدونها لشراء الزيت والزيتون. كما اشتهرت توزر في أفريقيا بإنتاج التمور حتى قيل بأنها من أكثر البلاد في أفريقيا إنتاجاً للتمور. أما فواكه الموصل فقد كانت تُحْمَلُ إلى الأطراف.

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٤٣، ١٤٩، المقدسي: ص٢٠٣، ناصر خسرو: سفرنامة ص٧٧.

(٢) ابن حوقل: ص٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٢٣.

واشتهرت حلوان بزراعة التين وتصديره. وامتازت سرقسطة في الأندلس بفواكهها التي عُدَّتْ من أفضل الفواكه في الأندلس، كما اشتهرت بعقوبا بكثرة بساتين الفواكه. واشتهرت غرشستان بزراعة الأرزّ الذي كان يُحْمَلُ منها إلى البلدان. وكانت روذراورد في بلاد الكرج مشهورة بإنتاج الزعفران(١).

وهناك أيضاً العديد من المدن العربية التي اشتهرت بوجود أنواع من المعادن. فكانت حلوان مشهورة بوجود عيون الكبريت، واشتهرت أوال وعدن وأكثر مدن الخليج العربي بمغاصات اللؤلؤ والأحجار الكريمة الأخرى. واختصَّت بلاد ما وراء النهر بمعادن الذهب والفضة والزيبق والحديد وكان النوشادر يُصَدَّرُ إلى الخارج حتى إن ابن حوقل رأى منه في صقلية. واشتهرت البجة بمعدن الذهب ولا سيما في مدينة عيذاب(٢).

---

(١) ن. م. ص٢١٢، ٢٢٠، ياقوت: ج٢ ص٥٨، ج٣ ص٢١٢، ج٤ ص١١٤، ١٩٣، ج٥ ص٣٢٠.

(٢) الإصطخري: أقاليم ص١٤، ابن حوقل: ص١٥١، ٣٨٥.

الفصل الرابع

# موقف الجغرافيين من التبدلات في أحوال المدن

إن الأمثلة الوصفية الجغرافية العديدة التي وقفنا عليها في الفصول السابقة تفرض سؤالاً يتعلّق بمدى واقعية هذه الأوصاف في إبراز الوضعية العامة للتمدُّن العربي الإسلامي؟ وهل بالإمكان الاستفادة منها في مناقشة الآراء والتفسيرات التي عرضها عدد من المتخصصين الأجانب في هذا الحقل؟ وهل أفلح هؤلاء الجغرافيون العرب في الربط بين واقع المدينة الإسلامية من حيث المنشأ والتطوُّرات التي شهدتها عمرانياً ومدى ديمومتها أو عدم ديمومتها طويلاً وما أسباب تلك الاستمرارية أو عوامل نكوص وانكماش المدن العربية؟ الواقع أن جميع هذه الأسئلة والاستفسارات تحتِّم علينا البحث في رؤية الجغرافيين العرب للمدن من حيث عوامل نشوئها وتطوُّرها وضمورها أو اختفائها.

من المدهش حقاً أن الجغرافيين العرب لم يكتفوا في ذكر أوصاف جغرافية عامة للمدن وتبيان محامدها وصفاتها الإيجابية خلال فترة بقائها. كما أنهم لم يفخروا أو يشيدوا بالمدن التي زاروها أو سمعوا عنها فوصفوها في كتبهم باعتبارها تحتل موقعاً مشرّفاً في التاريخ أو أنها كانت مدينة مشهورة فقط، إنما حاولوا أيضاً إبراز الدور الذي تلعبه في الواقع وفيما إذا استمرت الحال فيها في تمتعها بنفس الفعالية والنشاط إبان فترة تأسيسها وتطوُّرها. علاوة على ذلك، فإنهم كانوا يذكرون المدن التي لم تكن لها أهمية كبيرة إلى جانب المدن المشهورة، وفي بعض الحالات، فإنهم كانوا يقفون موقفاً غير إيجابي من أن عدداً من المراكز اكتسب تسمية المدينة في الوقت الذي لم تكن هناك من

المزايا المؤهلة لهذه الصفة، في حين كانت هناك قرى كبيرة أفضل وأكبر حجماً ومساحة من تلك المدن الصغيرة تستحق أن تكون مدناً لا قرى. فابن حوقل مثلاً حينما يذكر مدينة خوار في الديلم يقول عنها بأنها مدينة لطيفة صغيرة تبلغ مساحتها حوالي ربع ميل، في نفس الوقت هناك قرى تزيد في أهميتها وحجمها كثافة سكانها من خوار وغيرها من المدن الصغيرة في الديلم لكنها لم تبلغ درجة المدن. مقابل ذلك، فإن قرطبة في الأندلس، مثلاً، وُصِفَتْ بأنها أعظم مدينة وليس هناك مدينة تضاهيها في الحجم والسكان لا في المغرب والجزيرة فحسب، بل في الشام ومصر أيضاً. وحينما تذكر مدينة فيد في الحجاز يوضح مكانتها بأنه ليس بين مكة والمدينة بلد يستقل بالعمارة والأهل خلال طيلة جميع السنة مثل فيد[1]. إن هذه المقارنة الواقعية بين المدن من حيث الحجم والسكان والموقع إنما تدل دلالة واضحة على عمق الأوصاف الجغرافية من قِبَلِ الجغرافيين ومدى تفهُّمهم الواقعي لوضعية تلك المدن.

ولم يكتف الجغرافيون العرب باتخاذ موقف المقارن بين المدن نظرياً إنما كانوا يتدخلون، عن مشاهدة وتجربة، في تشخيص الجوانب الاجتماعية أو بالأحرى الانثروبولوجية في إضفاء صفة المدينة على ذلك المركز أم لا، فيتناولون بالذكر عادات أهالي المدينة ولغتهم ولباسهم وتقاليدهم في أمور الحياة العادية وعلاقتهم ببعض وأخلاقهم ونفسيتهم وموقفهم من الغريب وأشهر علمائهم ومفكّريهم. فيقول الإصطخري عن خوزستان إنها خالية من الجبال والرمال إلا اليسير وأما باقي الإقليم فكأنه أرض العراق وكذلك في هوائها وتربتها، الأمر الذي تؤكده التفسيرات الجغرافية عن الوحدة الجغرافية الطبيعية بين الأحواز والعراق. وفي مجال وَصْفِ أهالي خوزستان، بايولوجياً، يقول الإصطخري والغالب على (خلقهم صفرة اللون والنحافة وخفة اللحى ووفور الشعر فيهم أقلُّ مما في غيرهم). وأما النساء فإن عامتهن يتكلمن العربية والفارسية ولباس أهالي الأحواز كاللباس في العراق[2]. وقد وَصَفَ أهالي مدينة كرمان بنحافة الأجسام وسمرة اللون وذلك لغلبة الحرّ. والبلوص في هذه

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٤٠، ١٠٧، ٣٢٢

(٢) الإصطخري: اقاليم ص ٥٢ ـ ٥٣.

الناحية ـ كرمان أصحاب نِعَم وبيوت شعر كالبادية وأنهم قوم لا يتأذى بهم أحد، ذوو سلامة ولا يعترضون المسافرين والتجار ويبالغون في الترحيب بالغريب. في حين كانت حياة أهالي ناحية ده بارست في كرمان حياة تقشُّف لذلك صار أغلب أهلها لصوصاً[1]. وخلال حديث الجغرافيين عن مدن بلاد الهند والسند يخصص بعضهم جانباً من ذلك الحديث عن أزياء أهل تلك المدن فيقول ابن حوقل إن أزياء المسلمين والكفار فيها واحد وهو الأزر والميازر لشدة الحرّ. ثم يتناول لغة سكان مدن السند، فيقول أما لسان أهل المنصورة والملتان ونواحيهما فكانت اللغة العربية والسندية، بينما كانت لغة أهل مكران الفارسية[2] والمكرية. وفي ذِكرِ مدينة الريّ يذكر الجغرافيون أن أزياء أهاليها كانت كأزياء العراقيين، وفيهم مروءة ودهاء. وفي مدينة خوار، إحدى مدن الريّ، أناس (يرجعون إلى مروءات وسرىً وعِلْم[3] وديانات).

ووَصَفَ أهالي مدينة طرابلس في المغرب بأنهم قوم متميِّزون عمن جاورهم من الأهالي بنظافة الثياب والأحوال والتجمُّل في اللباس وحسن الصّور والقصد في معيشتهم. ويتصفون بأنهم أصحاب مروّة ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة وعقول مستوية ومعاملة محمودة. وكانت هناك رباطات لضيافة الغرباء، وأن معاملة الأهالي الطيبة للغرباء كانت ذائعة الشهرة. في حين كان أهالي مدينة قابس غير محظوظين من الجمال والنظافة، وكانوا يعترضون الطرق التجارية والتجار فينهبون أموالهم. ووَصَفَ أهالي مدينة سجلماسة بحسن الأخلاق وفيهم مروّة وفتوّة وأدَبٌ وكَرَم. وقد زارها ابن حوقل سنة ٣٤٠هـ فاندهش من كثرة مشايخها وسَعَةِ معرفتهم وعِلْمِهم. ولم يَفُتْ ابن حوقل في التطرُّق إلى عادات القبائل البربرية بين مدينة أودغست وسجلماسة، إذ كانوا منعزلين يعيشون على الألبان واللحوم، لكنهم كانوا يتصفون بالقوة والجَلَدِ والجرأة والفروسية، وكانوا يتلثَّمون وهم أطفال فلم يرَ من أحدهم إلا

---

(١) الإصطخري: أقاليم ص٧٣، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) الإصطخري: أقاليم ص٧٦، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٨٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٢١، ٣٢٢.

عيونهم[1]. أما أهالي المدن العراقية فكانوا وافري العقول واسعي الحلوم، ويقرُّ بذلك (لهم أهل الطاعة والفضائل) فقيل عن بغداد إنها جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف. تحتوي على أرباب الغايات في كلِّ فنٍّ وعِلْم. ووُصِفَتْ مدن البصرة والكوفة وواسط بأنها كثيرة الأدباء والعلماء والزهّاد[2].

ومن الجانب الآخر، فإن الجغرافيين العرب لم يهملوا أمراً حيوياً آخر في حياة المدن العربية وتطوُّرها ذلك المتعلِّق بتواريخ هذه المدن والتركيز على أصولها اللغوية ومَنِ الذي أسَّسها. فضلاً عن التطوُّرات السياسية الأخرى التي لها علاقة بتاريخ هذه المدينة أو تلك. إن الذي يتصفَّح ما كتبه هؤلاء عن تأسيس مدينة بغداد، مثلاً، وتطوُّرها يجد نفسه أمام أحداث ووقائع تاريخية إلى جانب الوصف الجغرافي لهذه المدينة، وحينما يقرأ المرء ما كتب عن الموصل عند ابن حوقل يجد أنه أمام صفحة تاريخية إبان الفترة الحمدانية. كذلك الحال في مدينة حلب وما واجهته، خلال فترة ابن حوقل، من مصائب غزو البيزنطيين. لذلك يمكن القول، بأن الروايات التاريخية التي تضمّنتها الأوصاف الجغرافية للمدن العربية الإسلامية لها أهمية خاصة في التسلسل التاريخي لهذه المدن والمنطقة على حدٍّ سواء.

إذن، نخلص إلى القول بأن موقف الجغرافيين العرب إزاء المدن العربية الإسلامية لم يكن موقفاً وصفياً خارجياً فحسب، إنما شمل مجالات وميادين مختلفة من هذه المدن بما قدموه من معلومات تحمل في طياتها أبعاداً مهمة كثيرة. وهم بالإضافة إلى ذلك، لم يقفوا موقفاً محايداً في ذكرهم التبدلات التي طرأت على حياة المدن وأسباب تلك التغيرات إن وجدت، وآثار ذلك على أحوال المدينة العمرانية والاجتماعية وفيما إذا كبر حجمها أم صغر، وعلاقة ذلك بوضعها من ناحية كونها مدينة أم قرية، وبغية توضيح هذه المواضيع

(١) ابن حوقل: ص٧١، ٧٢، ٩٠، ٩٦، ٩٨.
(٢) المقدسي: ص١٢٨، ياقوت الحموي: (بغداد، البصرة، واسط، الكوفة، الموصل).

نستشهد بهذين الوصفَين اللذين يمثّلان فترتَين تاريخيّتَين متقارِبتَين، والمدينة التي سنخضعها لهذه المقارنة التمدنية هي الفسطاط حسبما وَرَدَ ذِكْرُها عند الإصطخري والمقدسي. فالإصطخري الذي يمثّل فترة سابقة على المقدسي يقول إن الفسطاط (مدينة كبيرة نحو الثلث من بغداد.. والفسطاط على غاية العمارة والخصب.. وهي سبخة ومعظم بنائهم بالطوب طبقات). أما المقدسي فقد زار المدينة حينما صارت تجمع مراكز عدة كالعسكر والقطائع التي كوّنت خلال فترته مدينة القاهرة فجاء وَصْفُهُ للفسطاط بشكل مغاير، إلى حدٍّ ما، إذ قال ما نصّه (وهو مصر في كلّ قول لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين.. واتسع بقعته وكثر ناسه وتنضّر إقليمه.. أجلُّ من مدينة السلام، خزانة المغرب، ومطرح المشرق، وعامر الموسم، ليس في الأمصار أجلُّ منه، كثير الأجلّة والمشايخ، عجيب المتاجر والخصائص حسن الأسواق والمعايش.. أجلُّ من البصرة، أكبر من دمشق.. وهو نحو ثلاثين فرسخاً.. طبقات بعضها فوق بعض.. وكانت جانبين الفسطاط[1] والجيزة). فالوصفان الجغرافيان السابقان لمدينة الفسطاط يكمل بعضهما البعض الآخر، علماً بأن أحوال المدينة إبان زيارة المقدسي كانت أوسع وأرحب وأكثر تطوُّراً لأنها كما ذَكَرْتُ جَمَعَتْ عدة مراكز. وبذلك فإنها صارت أجلّ من مدينة بغداد بينما كانت أيام الإصطخري حوالي ثلث مدينة بغداد مساحة. كما أنها تطوّرت خلال الفترة الفاطمية إلى أن صارت عاصمة كمدينة بغداد، الأمر الذي جعل المقدسي يصفها بالمِصر وبأنها خزانة المغرب ومطرح المشرق.

ومن بين الاستشهادات الأخرى حول إبراز فَهْم الجغرافيين على تبدُّل أحوال المدن وبذلك تغيُّر معاييرها وخصائصها ما ذُكِرَ بشأن مدينة بغداد التي بلغت شهرتها الآفاق في الحجم والرخاء والعمران وكثرة السكان، ولا سيما بعد أن توسعت لتشمل بغداد، مدينة المنصور، والكرخ والجانب الشرقي بما فيه الرصافة. لكننا إذا ما رجعنا إلى أوصاف الجغرافيين والرحالة خلال القرن

(١) الإصطخري: المسالك ص٣٩، ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٧ المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٩٧.

الرابع للهجرة فصاعداً، نجد بأن هناك تغييرات عمرانية في المدينة، فابن حوقل مثلاً يصف الجانبين الشرقي والغربي من المدينة ولا يعلّق أهمية كبيرة على المدينة المدوَّرة قائلاً (وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر بقرب باب الطاق وكانا اثنين لعبر المجتازين. . ولما بان النقص عليهما عُطِّلَ أحدهما لبيان الاختلال. . وهلك أكثر محالها وذلك أنه كان من باب خراسان عمارة إلى أن تبلغ الجسر وتمتد إلى باب الياسيرية من الجانب الغربي، وعرضه فقد اختل أيضاً من الجانبين جميعاً نحو خمسة أميال ونقص وهلك منه الكثير. . وأعمر بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه[1]. فالوصف الجغرافي هذا يعكس بوضوح أن وضعية بغداد المدوَّرة وما حولها، طرأ عليها تبدُّلات عدة سواء من الناحية العمرانية أم الاجتماعية، ووُجِدَتِ الكرخ التي استحدثها أبو جعفر المنصور سنة ١٥٨ هـ لتكون مكاناً تجارياً يجمع الأسواق التي كانت موجودة في المدينة المدوَّرة. وتتأكد إشارة ابن حوقل بخصوص خراب بعض محلات بغداد من خلال وَصْفِ المقدسي الذي زار المدينة بعد حوالي ثلاثين سنة من مشاهدة ابن حوقل، والظاهر أن المقدسي لم يَسْتَطِبْ البقاء فيها ولم يُعْجَبْ بعظمتها لِما آلت إليه أمورها من اضطراب وفوضى فهو في إحدى المناسبات من كتابه يقارن بينها وبين الفسطاط فيقول (وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم ولا أعلم في الإسلام بلداً أجلَّ منه)[2]. فالمقدسي جعل الفسطاط إبان زيارته لها أجلَّ من بغداد وأعظم تطوُّراً لأنه قارنها ببغداد بعد التأسيس، أما خلال زيارته فكان الخراب قد غلب عليها، إذ يقول بعد أن قَدَّمَ وصفاً تفصيلياً للعوامل التي دفعت المنصور إلى اتخاذها ثم يعقِّب على ذلك بما نصّه (وفوق ما وصفنا حتى ضعف أمر الخلفاء فاختلّت ـ يعني بغداد ـ وخفَّ أهلها فأما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب) ويشير إلى أن أعمر موضع فيها الكرخ وقطيعة الربيع في الجانب الغربي وباب الطاق وموضع دار الأمير في

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٦ ـ ٢١٧ والواقع أن إشارة ابن حوقل هذه لا تعني أن بغداد عموماً كانت خربة في القرن الرابع للهجرة لكن ربما بعض محلاتها أو خططها قد خربت.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٣٦.

الجانب الشرقي، وكانت عمارات وأسواق الكرخ أكثر من الرصافة. والأهم من ذلك، فإن المقدسي يرى بأنها (في كلّ يوم إلى وراء وأخشى أنها تغدو كسامرّا[1]..) ويبدو أن كلام المقدسي صحيح، إذ إن اختلال أحوال بغداد عمرانياً واجتماعياً أخذ يتعاظم بمرور الزمن حتى غدت أثناء زيارة الرحالة ابن جبير في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد عبارة عن مجرّد اسم يحمل تلك العَظَمَة التاريخية السابقة فيقول عنها ويصفها بأنها (المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبقَ منها إلا شهير اسمها.. وهي كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص)[2]. في الوقت نفسه، فإن ابن جبير يقدّم وصفاً للجانبين، الشرقي والغربي، وما يحتويان من مدارس ومساجد وحمّامات وغير ذلك من الوحدات العمرانية الأخرى.

أما مدينة سامراء فهي العاصمة العباسية إبان خلافة المعتصم فما بعد حتى سنة ٢٥١هـ، حينما عاد الخليفة المستعين إلى بغداد. وقد شهدت إبان تلك الفترات التاريخية تطوُّرات عمرانية واجتماعية واسعة لكنها سرعان ما واجهت المشاكل بعد أن تضاءلت أهميتها السياسية بانتقال مركز الخلافة عنها، وما إن حلّ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد حتى صارت مدينة صغيرة خربة فيقول عنها ابن حوقل إنها (في وقتنا هذا مختلفة وأعمالها وضياعها مضمحلّة قد تجمّع أهل كلّ ناحية منها إلى مكان لهم به مسجد جامع وحاكم وناظر في أمورهم وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم)، ويبدو أن ما تبقّى من أمر المدينة هذه فيما بعد قد دُرِسَ أيضاً، حتى صارت خلال زيارة ناسخ كتاب ابن حوقل حوالي منتصف القرن السادس للهجرة مدينة خراباً، إذ يكتفي بالقول (وهي الآن خراب أكثرها)[3].

---

(١) ن. م.
(٢) ابن جبير: رحلة ص ١٨٧.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٨.

ومرَّت مدينة الكوفة المشهورة في التاريخ الإسلامي بنفس المراحل التمدُّنية التي مرَّت بها سامراء، إذ إنها واجهت خلال الفترات العباسية اختلالاً في وَضعِها التمدُّني حتى أضحت في منتصف القرن الرابع للهجرة ضعيفة الحال وصارت أعمالها وسوادها مضافة إلى ضمان مدينة السلام، ويكمل المقدسي وَصْفَ ابن حوقل لهيئة الكوفة فيقول (إنها كانت تشابه بغداد لكنها في وقته صارت مختلفة خربة. . وحينما وصل إليها ابن جبير قال عنها إنها بليدة عتيقة البناء قد سادها الخراب فالغامر منها أكثر من العامر)[1].

وتظهر أيضاً رؤية الجغرافيين في تبدُّل أحوال المدن في وَصْفِهِم لمدينة واسط، فإنها مدينة أموية وكان من المتوقع أن تأسيس مدينة بغداد سيؤثر عليها كما فعل في مدينة الكوفة، غير أنها حسبما يظهر ظلَّت تتمتع بِسِمَة المدينة الكبيرة حتى فترة متأخرة، فَوَصَفَها ابن حوقل بأنها كانت عبارة عن جانِبَيْنِ وفي كلِّ جانب مسجد جامع وهي إشارة واضحة إلى كبر حجمها وكثافة سكانها، وكانت بالفعل هكذا، إذ يقول إنها كانت فسيحة وعمارتها متصلة. حتى إن ضمانها في سنة ٣٥٨هـ بلغ ستة آلاف ألف درهم، وظلَّت أهميتها متميِّزة إبان فترة ياقوت الحموي الذي زارها عدة مرات فبيَّن تطوُّراتها خلال تلك الزيارات قائلاً (رأيت أنا واسط مراراً فَوَجَدْتُها بلدة عظيمة ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوق الحصر وكان الرخص موجوداً فيها في جميع الأشياء ما لا يوصف)[2].

أيضاً فإن وَصْفَ مدينة أذرمة وهي من مدن الموصل تفيدنا في هذا المجال، فالمدينة تقع بين بلد ونصيبين وكانت إبان القرن العاشر للميلاد عبارة عن مدينة صالحة تكثر فيها الغلّات، ويؤيِّد كونها مدينة وَصْفُ السرخسي الذي اعتمد عليه ياقوت الحموي بخصوص هذه المدينة، إذ أبان السرخسي بأنها كانت مدينة من مدن الموصل في وسطها قنطرة معقودة بالصخر والجصّ وعليها

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٥. والمقدسي: ص١٨٧، ابن جبير: رحلة ص١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٤، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٥٠، زكريا القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ١٩٦٠) ص ٤٧٨.

سوران وتشتمل على رحبات وسوق تقدَّر عدد حوانيته بمائتي حانوت ولها باب من الحديد. وزيادة في تحصين المدينة كان حول السور خندق يحيط بالمدينة. لكن أحوال هذه المدينة الصغيرة قد تغيَّر فيما بعد لأن ياقوت الحموي زارها وأيَّد كونها من أعمال الموصل، لكنها صارت قرية ليس فيها مما وَصَفَهُ[1] من شيء.

ومن الأمثلة الأخرى على هذا الموضوع ما قيل بشأن مدينة جبل بين النعمانية وواسط، فإنها كانت مدينة صغيرة كمدينة النعمانية مشتبكة العمارة ولها كورة، لكنها تبدَّلت أحوالها خلال فترة ياقوت الحموي، فصارت قرية كبيرة، وقد زارها ياقوت الحموي مراراً فوجدها كذلك. وإن مدينة نجيرم كانت خلال القرن الرابع للهجرة منبر سيراف وعبارة عن مدينة صغيرة، ويقول عنها ياقوت الحموي بأنها كانت بلدة مشهورة غير أنه زارها مراراً فَوَصَفَهَا بأنها (ليست بالكبيرة ولا بها آثار تدلُّ على أنها كبيرة). أما مدينة برقعيد التي تقع بين بلد ونصيبين فقد وُصِفَتْ خلال فترة ابن حوقل بأنها مدينة كثيرة الزرع من الحنطة والشعير وكان يسكنها قوم من قبيلة بني تغلب، وشرب أهلها من الآبار، ويَصِفُها أحمد بن الطيب السرخسي الذي رافق الخليفة المعتضد في رحلته إلى الرملة لحرب خمارويه، فقال إنها بلدة كبيرة من أعمال الموصل ويبدو أن هذه المدينة الصغيرة ظلَّت محتفظة بموقعها التمدُّني حتى فترة متأخرة، إذ يعلِّق ياقوت الحموي أنها كانت أيضاً بلدة كبيرة في قرابة سنة ٦٠٠ هجرية حينما زارها. أما دنيسر فكانت عبارة عن موضع يُطلق عليه سوق دنيسر ويقع أسفل ماردين في الجزيرة في وسط الصحراء، ويقال إن أصلها كان عبارة عن قرية يتجمع فيها الناس كلَّ يوم أحد من الأسبوع للبيع والشراء، لكنها بمرور الزمن زاد عمرانها فاشتملت على حانات وأسواق وفنادق وحمّامات وسكنها الناس من كلِّ مكان، كانت هذه حالتها في قرابة منتصف القرن السادس للهجرة وتحسنت أحوالها خلال زيارة ياقوت الحموي فيقول إنه زارها وهو صبيّ (وقد صارت

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٩، السرخسي عند ياقوت الحموي: ج١ ص١٣٢.

قرية ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصراً لا نظير لها كبراً وكثرة أهل وعظم أسواق وليس بها نهر جار إنما شربهم من آبار عذبة طيبة مريّة وأرضها حرة وهواؤها صحيح). أما قيسارية وهي بلد على ساحل بحر الشام وتُعَدُّ ضمن أعمال فلسطين، فقد كانت قديماً من أعيان المدن وأمهاتها وكانت واسعة الرقعة كثيرة الخير وكثيرة السكان، لكنها صارت خلال فترته أشبه بالقرية منها بالمدينة[1].

ومن الناحية الأخرى، فإن هناك بعض المدن التي ظلّت محتفظة بوظيفتها وأهميتها على الرغم من مواجهتها العديد من التطوُّرات السياسية، فمدينة هراة وُصِفَتْ في القرن الرابع للهجرة بأنها مدينة واسعة داخلها قهندز ولها رَبَضٌ مجاور فيه المسجد الجامع ودار الإمارة. وكانت مساحة المدينة عبارة عن نصف فرسخ في مثله ولها أربعة أبواب. ويقول ابن حوقل إنه ليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد جامع أعمر بالناس على طيلة أيام الأسبوع من مسجد جامع هراة. وكانت فُرضة خراسان وسجستان وبلاد فارس، ووُصِفَتْ أن لها مدناً كبيرة أمثال كروج، التي تصدِّر الكشمش والزبيب إلى العراق وسائر البلدان، وحينما زارها الحموي سنة ٦٠٦ هـ ـ قال عنها بأنه لم يَرَ بخراسان أثناء وجوده مدينة أجلَّ وأعظم وأفخم وأحسن وأكثر أهلاً من مدينة هراة. كذلك وُصِفَتْ خوارزم في بلاد ما وراء النهر بأنها ناحية خصبة تكثر فيها الحبوب والفواكه ويُنْتَجُ فيها ثياب القطن والصوف وتُحمل إلى الآفاق. وقد اشتهرت بتجّارها الذين كانوا يَصِلون إلى يأجوج ومأجوج لاستخراج الخزوز والأوبار. وكانت صفة خوارزم هذه خلال القرن الرابع للهجرة، وحينما زارها ياقوت الحموي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، وَصَفَها أيضاً بأنها ولاية حسنة عامرة ويقول (ما رأيت ولاية قط أعمر منها فإنها على ما هي من رداءة أرضها وكونها سبخة كثيرة النزور متصلة العمارة متقاربة القرى.. وما ظننت أن في الدنيا بقعة

---

(١) أنظر عن المدن بالتتابع ابن حوقل: ص٢١٩، ٢٣٨، ١٩٩، ٢٠٢، ١٧١، ياقوت الحموي: ج٢ ص١٠٣، ج٥ ص٢٧٤، ج١ ص٣٨٧ ج٢ ص٤٧٨، ج٤ ص٤٢١.

سَعَتُها سَعَةُ خوارزم وأكثر من أهلها. وأكثر ضياعها مدن ذات أسواق وخيرات[1] ودكاكين).

المهمّ في الأوصاف الجغرافية السابقة هو أن الجغرافيين العرب كانوا يشخّصون العوامل التي ساعدت على تغيُّر أحوال بعض المدن ومن بين هذه العوامل العامل السياسي المتمثل باضطراب أمور المدينة الداخلية أو اضطراب أمور الدولة التي تقع فيها هذه المدينة أو تلك أو ضُعْف الخلفاء العباسيين وسيطرة البويهيين الديالمة على العاصمة وما حلّ بالمدينة والبلاد من مِحَنٍ سياسية واجتماعية كانت من العوامل المهمة التي دَعَتْ إلى هجرة الأهالي من بغداد، وخراب عدد من محلّاتها. كما أن انتقال الخلافة من سامراء إلى بغداد ثانية وما أعقب ذلك من انتقال المؤسسات الإدارية والعسكرية قد ساعد على تضاؤل أهمية سامراء. في الوقت ذاته، فإن هناك مراكز قد تبدّلت أحوالها نحو الأحسن نظراً لعوامل اقتصادية وبالذات تجارية لمرور القوافل البرية كما هي الحال في قرية دنيسير التي تحوّلت إلى مصر كبير بفضل مرور القوافل وتوافر المياه العذبة وكونها سوقاً في الصحراء. ومن المحتمل أن نشاط الطريق بين بلد ونصيبين قد أدى هو الآخر إلى بقاء دور برقعيد كمدينة.

---

(١) أنظر ابن حوقل: ص٣٦٦، ٣٩٧ ـ ٣٩٨، ياقوت: ج٢ ص٣٩٦، ج٥ ص٣٩٦.

# الباب الثالث

# دراسة تاريخية لنماذج من المدن العربية والإسلامية

الفصل الاول

# البصرة ـ الأبُلّة ـ شط عثمان

لمدينة البصرة أهمية متميِّزة في تاريخ التمدُّن العربي الإسلامي وذلك لأنها أول مدينة عربية أسسها العرب، مع مدينة الكوفة، خارج الجزيرة العربية حينما توجهت الجيوش العربية الإسلامية لتحرير العراق من السيطرة الساسانية الفارسية في القرن السابع للميلاد. وعلى خلاف العديد من المدن العربية الأخرى، فإن مدينة البصرة استمرت تلعب دوراً مهماً في التاريخ العربي الإسلامي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وفكرياً منذ مراحلها التأسيسية الأولى تقريباً ولمدة قرون عديدة. وقد تبدَّلت أحوالها بعد فترة تأسيسها فصارت مدينة مركَّبة ووحدة إدارية تمثِّل منطقة واسعة تشتمل على مدن وقرى ونواحٍ متعددة وصار والي مدينة البصرة يجمع في نفس الوقت إدارة وولاية مدن ومراكز مختلفة كمدينة الأبُلّة ومفتح وعبادان والأحواز والبحرين، فضلاً عن كونه مشرفاً فعلياً لجبهة قتالية واسعة امتدت حتى سجستان شرقاً، وبذلك فقد أسهم البصريون مساهمة فاعلة في الجيوش العربية التي افتتحت الأحواز وقم وقاشان وأصبهان وغيرها من المدن الفارسية إبان الفتوحات الإسلامية الكبرى. وأسهم البصريون كثيراً في مجالات الأدب والنحو والعلوم الأخرى، وصار للتاجر البصري سمعة كبيرة حتى قيل بأن المرء أينما ذهب في البلاد يجد تاجراً بصرياً. أريد القول بأن هذه المدينة تميَّزت بأهميتها في مجالات عدة لا تشابه الأهمية التي أرادها مؤسسها عتبة بن غزوان منها، فكانت وظيفتها كما هَدَفَ هذا القائد أن تكون مخيَّماً عسكرياً لا غير، لكنها تجاوزت هذه الوظيفة لتتفاعل مع ظروف وتطوُّرات جديدة شهدها المجتمع العربي الإسلامي.

لم تتفق الآراء تماماً حول تفسير معنى كلمة البصرة وأنها اعتماداً على المعاجم اللغوية كلمة عربية خالصة. وإن جميع التفسيرات التي أوردتها المعاجم اللغوية تشير إلى أن كلمة بصرة مأخوذة من الطبيعة الجغرافية لتربية المنطقة. ففي إحدى التفسيرات يُقصد بكلمة بصرة الحجر الأبيض الرخو، وفي رواية ثانية يُقصد بها الكذّان ومعناه الحجارة الرخوة. وفي هذا الصدد ذُكِرَ أن القائد عتبة ابن غزوان عندما مرَّ بموضع المربد أثناء توجهه نحو البصرة لقتال الفرس، وجد الكذّان الغليظ في المنطقة فقال (هذه هي البصرة). ووَرَدَ في رواية ثالثة لابن سيده أن البصرة تعني الأرض الطيبة الحمراء. وفي رواية رابعة أن البصرة هي الطين العَلِكُ، وهناك تفسير خامس للكلمة ويُقصد به الأرض التي حجارتها جصّ. وفي مقابل هذه الآراء التي تختلف في التفسير لكنها تتفق في أنها كلمة عربية، نجد رأياً مخالفاً يشير إلى أن كلمة البصرة هي كلمة معرَّبة يرجع أصلها إلى كلمتَيْن مركَّبتَيْن هما بس راه ويُقصد بهما مفترق الطرق أو ملتقى الطرق[1]. غير أنه رَأيٌ ضعيف لا تؤيده القرائن التاريخية خلال المرحلة الأولى من تأسيس المدينة. فالمدينة لم تؤسَّس لاعتبارات تجارية واقتصادية أو لكونها تقع على طرق المواصلات وطرق القوافل التجارية البرية، إنما كان تأسيسها نابعاً من التطوُّرات العسكرية لتقوم بوظيفة المخيَّم العسكري للجيوش العربية ولتكون مركز إمداد عسكري أثناء الفتوحات الإسلامية. وأن ارتباط الكلمة بأرض البصرة وتربتها هو أكثر واقعية لاشتهار أرض البصرة القريبة من نهر شط العرب بأنها تربة حمراء طينية بينما كانت الأرض حجرية جصّية كلما ابتعدنا غرباً باتجاه البادية. ومع أنه لم يَرِدِ اختلاف حول شكل الكلمة (بصره) في العربية، لكنَّ الكلمة اتخذت أشكالاً مختلفة في المصادر الأجنبية، إذ إنها وَرَدَتْ على شكل بوزرا وبوصار وبالصورا وبابصار وباصورا[2].

دون شك أن مدينة البصرة لم تكن موجودة إبان الفترات التاريخية التي

---

(١) أنظر خليفة بن خياط: تاريخ (دمشق) ص١١٥، ابن منظور: لسان العرب (مادة بصر)، الزبيدي: تاج العروس: (مادة بصر).

(٢) أنظر دائرة المعارف الإسلامية (طبعة قديمة وطبعة جديدة) كذلك دائرة المعارف الإسلامية.

سبقت حركات التحرُّر العربي. صحيح أن هناك إشارة وَرَدَتْ في نقش يعود إلى الملك الأشوري، سنحاريب، إلى موضع يسمّى باب سلامتي الذي من المحتمل أن يكون موقعه في مكان قريب من الموضع الذي اتُّخِذَتْ فيه مدينة البصرة. وكذلك ورود اسم لموضع يسمّى تريدون أو ديريدوس في رحلة نيارخوس عندما أخطأ الطريق ودخل دجلة بدلاً من نهر كارون. ويقال إنه من الممكن القول بأن مكان ديريدوس هذه بالقرب من الموضع الذي صار بعدئذٍ مدينة البصرة، غير أنه من الصحيح جداً القول بأن الجيوش العربية الإسلامية عندما قَدِمَتْ منطقة البصرة سنة ١٢هـ أو ١٤هـ، لم تجد منطقة مأهولة بالعمران والسكان بل كانت خالية، الأمر الذي دفع إلى تسميتها الخريبة. فالعرب المشاركون في العمليات الحربية ضد الفرس الساسانيين قد اختاروا موضع البصرة واختطّوا خططها وكانوا أول من نزلها وبنى المساكن فيها بعد تمصيرها. وفي بداية الأمر، نزل الموضع عدد قليل من أفراد القبائل العربية المرافقين لحملة عتبة بن غزوان. لأن هذا القائد العربي، وهو مؤسس المدينة، اختار ذلك الموضع ليقوم بوظيفة المخيَّم العسكري للفاتحين العرب، تنطلق منه حملاتهم وهجماتهم ضد الفرس، علاوة على هذه المهمة، فإن المخيَّم هذا كان يقوم بمهمة إمداد وتجهيز الحملات العسكرية ضِمْنَ تلك المنطقة من بلاد فارس. وإذا ما رجعنا إلى روايات البلاذري والدينوري والطبري نجد إشارة إلى منطقة كانت موجودة في الموضع المختار أطلقوا عليه اسم الخريبة، لكن هذا الموضع كما ألمحنا لا يعدو أكثر من أطلال وخرائب. فذكر الدينوري بأنه عندما أمر الخليفة عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان التوجه نحو البصرة فإنه وَصَلَها (ولم تكن هناك يومئذٍ إلا الخريبة وكانت منازل خربة... وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية.. فنزلها عتبة بأصحابه في الأخبية والقباب..)[1]. ومما يجدر ذِكْرُهُ أن الموضع الذي كان فعلاً مأهولاً بل كان قاعدة ومسلحة عسكرية للساسانيين هو الأبُلّة التي كانت تقع على نهر شط العرب (الذي كان يسمّى آنئذٍ

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص١١٧، البلاذري: الفتوح ص٣٧٦.

نهر دجلة العوراء). وكانت الأبُلّة بالإضافة إلى كونها مسلحة للفرس ميناء تجارياً مشهوراً. ووصفها عتبة بن غزوان في رسالته التي بعثها إلى الخليفة قائلاً عنها بأنها (مرقى سفن البحر من عُمان والبحرين وفارس والهند[1] والصين).

خلاصة لذلك أن العرب المرافقين للقائد عتبة بن غزوان هم الذين وضعوا خطط مدينة البصرة، وأنهم لم يتخذوا تلك الخطط على أنقاض الخريبة كما أنهم لم يطوّروا تلك الأطلال والخرائب إلى مدينة البصرة، إنما حسبما يذكر الدينوري أن عتبة بن غزوان هو الذي خط بعد اختيار موضع المدينة لنافع بن كلدة الثقفي (فكان نافع أول من خطَّط خطة بالبصرة)[2].

وكما أن هناك عدة روايات بخصوص تفسير كلمة البصرة، فإن هناك اختلافاً بيّناً حَوْلَ سنة تأسيس المدينة. ويبدو أن هناك مجموعَتَيْنِ من الروايات يمثّل الأولى كلٌّ من خليفة بن خياط البصري والبلاذري والدينوري حيث يشيرون إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب هو الذي أرسل عتبة بن غزوان في سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م لفتح وتحرير الأبلّة، وأنه اتخذ موضعه في البصرة في تلك السنة. وتفصيل الرواية التاريخية أن الخليفة اختار اولاً شريح بن عامر وهو من قبيلة بني سعد فسار هذا إلى الأحواز لكنه استشهد، ثم بَعَثَ الخليفة من بعده عتبة وهو من بني مازن في شهر ربيع الأول من تلك السنة فمكث عدة أشهر دون قتال، مما دفع هذا الأمر الخليفة إلى أن يوجّه بَدَلَهُ عبد الرحمن بن سهل فمات قبل أن يصل البصرة، بعدئذٍ انتدب العلاء بن الحضرمي من البحرين ليتوجَّه إلى البصرة ويحلَّ محلَّ عتبة، وقد توفي هذا أيضاً. في هذه الأثناء هجم عتبة على الأبُلّة فحرّرها ثم فتح الفرات وأبزقباذ. وفي رواية أخرى ضِمْنَ هذه المجموعة، تَرِدُ قصة اختيار البصرة بشكل آخر ومفاده أن كلاً من قبيلة بكر بن وائل وتميم كانتا تغيران على الفرس في منطقة الخريبة وكان زعيمهما آنذاك قطبة بن قتادة السدوسي الذي أبدى مساعدة للقائد خالد بن الوليد عندما اجتاز منطقة البصرة سنة ١٢هـ/٦٣٣م متوجهاً نحو الكوفة. وقد بلغت أخبار قطبة

(١) الدينوري: فتوح ص٣٣٧.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال (القاهرة ١٩٦٠) ص١١٧.

السدوسي الخليفة الثاني فولّى عتبة أمْرَ تحرير الأُبُلّة قائلاً له (إن الحيرة قد فتحت. . فصرْ إلى ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على إخوانك) وفي رواية أخرى قال له (إني أريد أن أوجّهك إلى أرض الهند). المهم أن عتبة توجَّه إلى البصرة برفقته عدد قليل من المقاتلين حوالي ثلثمائة رجل. وذلك اعتماداً على رواية تقول بأنه بعد تحرير الأبُلّة غَنِمَ العرب ستمائة درهم فَقُسِّمَتْ على كلّ رجلٍ فأصاب الواحد منهم دِرْهَمَيْنِ، وقيل إن عددهم كان ثمانمائة رجل، وأمدَّه الخليفة، بعد ذلك، بعدد جديد من المقاتلين[1].

أما المجموعة الثانية من الروايات فتشير إلى أن البصرة قد تأسست سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، وتوضح هذه الروايات أن خروج عتبة بن غزوان صَوْبَ البصرة لم يكن بناء على أوامر الخليفة، إنما بناء على توجيه قائد الجبهة الكوفية سعد ابن أبي وقاص الذي كان، بدوره، قد تسلَّم أمراً من الخليفة جاء فيه (اضرب قيروانك بالكوفة ووجِّه عتبة بن غزوان إلى البصرة)[2] والرواية كما هو جَلِيٌّ تشير إلى أن الكوفة قد تأسست قبل البصرة.

وبالمناسبة، فإن هناك رواية ثالثة حَوْلَ سنة تأسيس البصرة تفيد بأن القائد خالد بن الوليد هو الذي حرَّر الأبُلّة سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م، لكنَّ خليفة بن خياط لا يعتقد بصحة الرواية قائلاً بأن خالداً قد مرَّ بالبصرة مروراً أثناء خلافة أبي بكر (رض)[3].

## العوامل التي دفعت العرب إلى اتخاذ البصرة

يبدو من مجريات الأحداث التاريخية السابقة أن الخليفة الثاني كان قد وجَّه عتبة إلى البصرة لاعتبارات عسكرية، بالدرجة الأولى، وهي إما أن يشاغل

(١) الدينوري: الأخبار ص١١٦ ـ ١١٧، البلاذري: فتوح ص٣٣٦، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٣ ص٥٩١، ٥٩٤.
(٢) البلاذري: فتوح ص٣٤٥، الطبري: ج٣ ص٥٩٠.
(٣) خليفة بن خياط: تاريخ ص١١٤.

الروس كي يتمكن سعد بن أبي وقاص من التقدُّم وتحقيق أهدافه العسكرية، وإما أن يحرِّر الأبُلّة ويساعد قطبة السدوسي في هجماته ضد الفرس. لذلك، فإن عتبة بعد نجاحه العسكري ضد الفرس وتحريره الأبُلّة والفرات وأبزقباذ وجد ضرورة ملحّة في أخذ موافقة الخليفة في اتخاذ موضع له وللمقاتلين العرب. وإن هناك عدة أدلّة تشير إلى فاعلية العوامل العسكرية في اتخاذ مدينة البصرة خلال المرحلة التأسيسية على الأقل، ومن بين هذه الأدلّة:

١ ـ تتفق آراء عدد من المؤرِّخين الرواد على أن عتبة قد نزل ومن معه من المقاتلين في بداية الأمر في خِيَم أو أخبية وقباب، فيذكر البلاذري أنهم (ضربوا بها ـ أي البَصرة ـ الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن لهم بناء)[1] فهي تعكس فكرة أن الموضع الذي نزل به عتبة كان يمثّل مخيّماً عسكرياً.

٢ ـ وحينما نجح عتبة في هجماته رأى أهمية موضع المخيَّم استراتيجياً، في حروبه ضد الفرس فكتب إلى الخليفة عمر بضرورة اتخاذ هذا الموضع ليجتمع فيه العرب قائلاً ما نصّه (لا بدَّ للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غَزْوِهِم).

٣ ـ والمهم أن الخليفة قبل أن يعطي الإذن بتمصير الموضع المشترك على عتبة أن يوافق هذا الموضوع جملة شروط ومستلزمات لا بدَّ من وجودها وتوافرها فقال له (لا تجعلوا بيني وبينكم بحراً بل مصّروها..) أي اختر المكان الذي يقع على الأطراف أو الحدود علاوة على هذا الشرط، فإن الخليفة اشترط أن يكون الموضع قريباً من الماء والمرعى. إن دراسة هذه الشروط الثلاثة تجعل من اليسير أن نستخلص الهدف الرئيسي منها ألا وهو تأسيس معسكر للمقاتلين العرب ليكون على اتصال سهل بالمدينة وكذلك أن يكون مكاناً يضمُّ المقاتلين فحسب. وبالفعل فقد ركز عتبة في ردّه على رسالة الخليفة، على المميِّزات الرئيسية التي تميَّز به الموضع بأنه:

---

(١) البلاذري: فتوح ص٣٣٦، ٣٤٥، الدينوري: أخبار ص١١٧.

(أ) قريب من مناقع المياه.

(ب) يقع على طرف البر.

(ج) تكثر فيه القصب والقضة.

فوافق الخليفة قائلاً إنها أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب[1].

٤ ـ الحقيقة أنه كان من المتوقع أن يتخذ عتبة بن غزوان الأبلّة قاعدة عسكرية وعاصمة إدارية ومنطلقاً للحملات العسكرية القادمة. فالمدينة قديمة وتتمتع بموقع وأهمية اقتصادية وتجارية متميِّزة. لكنَّ عتبة لم يتخذها انطلاقاً من المعايير الرئيسية لاستراتيجية العرب العسكرية، فالأبلّة ميناء تجاريٌّ محاط بالبساتين والأنهار. لذلك ستكون هذه الطبيعة الجغرافية عائقاً أمام تحركات العرب السريعة فضلاً عن أنها تعرقل خطة الانسحاب أمام ضغط العدو. وعلاوة على ذلك، فإن منطقة كهذه ستشكل عائقاً طبيعياً في مسألة وصول الإمدادات العسكرية. أيضاً فإن دراسة دقيقة لتعليمات الخليفة إلى قادة الجبهتين، البصرة والكوفة، تبيِّن أنه كان يمانع في اتخاذ المدن القديمة كمخيمات عسكرية للعرب لئلا ينشغل هؤلاء في حياة المدن فَتَفْتُرَ عزائمهم[2].

## تخطيط مدينة البصرة:

أشرنا سابقاً إلى أن موضع البصرة مرَّ بمرحلة سبقت التمصير، تلك المرحلة التي ترتبط باتخاذ عقبة لها كمكان لتجمُّع المقاتلين، فكانت دُورهم آنذاك من الخيام والفساطيط ولم يكن لهم في الموضع بناء. حينئذٍ فإنه من غير الممكن اعتبار هذه المرحلة مرحلة مدينية مستقرّة، فالحملة العسكرية كانت حملة

(١) البلاذري: ص٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤١.

(٢) أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٢١٢.

استطلاعية، كما أن المرافقين لِعُتْبة كانوا قلائل تتراوح أعدادهم بين ٣٠٠ ـ ٨٠٠ مقاتل. ولم يتطوَّر الموضع إلى مصر إلا حينما بدأ عتبة أعمال التخطيط والبناء في الموقع بعد حصوله على موافقة الخليفة. إذ تشير الروايات إلى أن عتبة حينئذٍ تحوَّل من المكان المخيَّم إلى منطقة الدهناء حيث أسس فيها الوحدات العمرانية الأولى. وتبيِّن إحدى الروايات أن عتبة هو الذي بدأ عملية رسم أول خطط للمدينة في حين توضح رواية أخرى أن محجن بن الأذرع السلمي هو الذي اختطَّ أول خطة في المدينة، وتشير رواية ثالثة إلى نافع بن الحارث الثقفي أو الأسود بن سريع التميمي[1]. وتتفق الروايات حَوْلَ مادة البناء في هذه المرحلة أنها كانت مادة القصب وذلك لوفرته بغزارة في بطائح البصرة. واعتماداً على رواية البلاذري أن المقاتلين العرب كانوا إذا أرادوا التوجُّه للقتال (نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو فإذا ما رجعوا أعادوا بناءه)[2]. وهي إشارة واضحة إلى أن الموضع لم يكن بعد مدينة تتميَّز بصفة الثبوت، فضلاً عن اضطراب خططها وعدم انتظام هيئتها العمرانية بما له علاقة بشوارعها وأسواقها ومنازل أهاليها ومحلّاتهم. فالسِّمات البارزة في هذه المرحلة ما زالت تخدم الاحتياجات العسكرية.

ومع ذلك، فإن التطوُّرات العسكرية السريعة قد جاءت بنتائج مهمة على وضعية موضع البصرة، إذ أفلحت الجيوش العربية في السيطرة على كُوَرِ دجلة وتمَّ افتتاح مدن أصفهان وقم وقاشان إبان ولاية أبي موسى الأشعري (١٧ ـ ٢٥هـ/ ٦٣٨ ـ ٦٤٥م) فساعدت هذه الانتصارات على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين فازداد حجم السكان واختلطت القبائل في المدينة بعضها ببعض لعدم وجود خطط مستقلة، الأمر الذي دفع بالخليفة إلى أن ينصح الوالي الأشعري أن يجعل لكلِّ قبيلة محلَّة وأن يأمر الناس بالبناء، كما تمَّ إنجاز مهم خلال هذه الفترة ألا وهو تحديد قياسات الشارع الرئيس والشوارع الفرعية والأزقة، فكان

---

(١) البلاذري: فتوح ص٣٤١، ٣٤٢، اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص١٤٣، خليفة بن خياط: تاريخ ص١١٦.

(٢) البلاذري: فتوح ص٣٤٢.

عرض شارع المربد وهو الشارع الأعظم ستين ذراعاً وما دونه عشرين ذراعاً. وانتظمت خطط المدينة أكثر حينما شبَّ الحريق فيها فالْتَهَمَ البيوت والوحدات العمرانية المبنيّة من القصب، فاستأذن أهل البصرة الخليفة أن يعيدوا بناء ما احترق باللِّبِن بدلاً من القصب فوافق على ذلك[1]. بذلك أخذت المدينة تنتقل من مدينة ريف إلى مدينة منظَّمة إلى درجة كبيرة. وذلك لأن البناء باللِّبِن والطين يساعد على ثبوت أكثر في الوحدات التي تتخذ مما كانت عليه في السابق.

## المسجد الجامع:

تتفق الروايات التاريخية على أن المسجد الجامع يُعَدُّ أول وحدة عمرانية تأسست في البصرة. وقيل إن عتبة بن غزوان هو الذي قام باختطاطه سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، وإنه أمَرَ محجن بن الأذرع السلمي، وقيل في رواية أخرى إنه أمَرَ نافع بن الحارث الثقفي أو الأسود بن سريع بإنجاز ذلك الأمر. وكان البناء في هذه المرحلة بالقصب، غير أن المسجد قد أعيد بناؤه باللِّبِن والطين زمن ولاية أبي موسى الأشعري عام ١٧هـ/٦٣٨م. وكذلك فإن أبا موسى قد سقفه بالعشب وزاد في مساحته لأنه كان ضيّقاً، وظلَّ المسجد الجامع كذلك إلى أن أضاف إليه الوالي الجديد عبد الله بن عامر بن كريز زيادات وإضافات جديدة. لكن الزيادة الكبيرة التي تعرَّض لها المسجد الجامع كانت في ولاية زياد بن أبيه. فقد أعاد هذا الوالي بناء المسجد بمادة الآجُرّ والجصّ والحصى واستبدل سقفه بالساج وجلب حجارة سواريه (أعمدة المسجد) من جبال الأحواز. وكان الحجاج بن عتيك الثقفي هو المشرف على تقطيع الحجارة، فكانت تلك الأساطين تُنقر وتُثقب ثم تُحشى بالرصاص والحديد، وقد بلغ ارتفاع كلّ أسطوانة ٣٠ ذراعاً. وتعرَّض المسجد الجامع إلى عمليات التوسيع والزيادة أيضاً خلال ولاية محمد بن سليمان، في العصر العباسي، إذ إنه وسَّع المسجد الجامع سنة ١٦١هـ/٧٧٧م فيما يلي القبلة وفي الجهة اليمنى مما يلي رحبة بني

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ ص١٦٠، ١٦٧، الدينوري: الأخبار ص١١٨، البلاذري: فتوح ص٣٤٢، الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٧٨ ـ ١٨٠.

سليم وكذلك وسّعه من الجهة الشمالية، وأدخل عدداً من المساكن التي تعود ملكيَّتها لبني ثقيف في المسجد لتوسيع مساحته. وفي خلافة هارون الرشيد جرى تعديل آخر إذ أدمجت دار الإمارة في المسجد فاتسعت رقعته بشكل أكبر(١).

وقد تعرَّض المسجد الجامع إلى تخريب وتصديع خلال هجمات الزنج والقرامطة على مدينة البصرة، الأمر الذي دفع ضامن المدينة أبو عبد الله البريدي في سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م إلى إنفاق مبلغ قدره ألفا دينار لترميم المسجد. كما أنه تعرَّض للحرق سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م، مما دفع والي البصرة باتكين أثناء خلافة المستنصر بالله إلى إعادة بنائه وتشييد أسطواناته فجلب له الحجارة من جبال الأحواز والأخشاب من الخارج، وأسس رباطَيْنِ متَّصِلَيْنِ به، فلما زار ابن بطوطة البصرة وَصَفَ المسجد الجامع بأنه يشتمل على سبع صوامع وقال عنه إنه كان من أحسن المساجد وكان صحنه واسعاً ومفروشاً بالحصباء الحمراء لكنه قائم في وسط الخراب ولا يُصَلّى به إلا صلاة الجمعة.

كان للمسجد ثمانية عشر باباً منها باب بني جحدر وباب عثمان وباب الرحبة. وتُعَدُّ منارته أول منارة في الإسلام وأنها بُنِيَتْ عام ٤٥هـ/٦٦٥م. أما منبره فكان في مقدمة المسجد. واشتمل أيضاً على ميضأة تُعرف بِطست المسجد أو المطهرة وكانت عبارة عن بركة مصهرجة مطلية بالقار(٢).

## دار الإمارة:

من الواضح أن دار الإمارة قد اتخذت في البصرة بعد تعيين وتخطيط المسجد الجامع، ولقد كان تأسيسها مع الوحدات الإدارية الأخرى السجن والديوان، أما بناؤها فكان بالقصب أيضاً، وتبدلت هذه المادة العمرانية أثناء

---

(١) أنظر خليفة بن خياط: تاريخ ج١ ص١١٦، البلاذري: فتوح ص٤٢٦، ٤٢٨، ٤٢٩، الطبري: ج٨ ص١٣٦، المقدسي: البدء والتاريخ جـ ٤ ص٨٩.

(٢) وكيع: أخبار القضاة ج٢ ص١٢٥، مسكويه: تجارب الأمم ج١ ص٣٦٥، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص١٨١. ابن بطوطة رحلة ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

ولاية الأشعري إلى اللَّبِن والطين كالمسجد الجامع. وقد تمَّ نَقْلُ دار الإمارة سنة ٥٤هـ/٦٧٣م إلى قبلة المسجد الجامع من قِبَلِ زياد بن أبيه وكانت، قبل ذلك، تقع في رحبة الدهناء جنوب المسجد الجامع. وقام هذا الوالي بفتح باب من الدار ينفذ إلى المسجد.

ويبدو أن دار الإمارة لم يَعُدْ بعد فترة ولاية زياد بن أبيه مقرًا لأمير البصرة فكان لعبيد الله بن زياد، مثلاً، قصر بعيد عن المسجد يدعى البيضاء، ولما تولى الحجاج الثقفي ولاية البصرة قام بهدم دار الإمارة الملاصق بالمسجد الجامع فبقيت المدينة دون دار إمارة حتى أعاد بناءها صالح بن عبد الرحمن مستخدماً الآجُرّ والجصّ. وقد ذكرنا سابقاً أن الدار أدخلت في المسجد الجامع خلال خلافة هارون الرشيد فانتهى دورها. وتفيد بعض الإشارات التاريخية أنها ربما انتقلت إلى خطة بني نمير وهي خطة بعيدة عن المسجد الجامع[١].

## خطط الأهالي:

تأسست مدينة البصرة منذ أول تخطيطها وفقاً للنظام القبلي كمدن الجزيرة العربية والمدينة ومكة. وصارت لذلك أنموذجاً لمثل هذا التخطيط للمدن والأمصار الإسلامية الأولى كالكوفة والفسطاط والقيروان. ومع أنها قد انقسمت إلى أخماس خمسة يمثّل كلٌ واحد منها قبيلة أو مجموعة من القبائل والبطون، فإن هناك طوبوغرافيات في المدينة اتخذها الناس محلات لسكناهم لا تدخل ضِمْنَ الخطط القبلية من أمثال الخريبة والزابوقة والباطنة والزاوية.

ولعلّه من المفيد القول بأن تقسيم المدينة إلى أخماس للقبائل قد أعطى لها نظاماً دقيقاً وهيئة منظمة. وتشير الروايات التاريخية إلى أن ذلك التقسيم قد تمّ خلال ولاية زياد بن أبيه، لكن من المرجَّح أيضاً أن هذه الأخماس كانت موجودة إبان ولاية أبي موسى الأشعري. فقد قسَّمها هذا الوالي إلى نظام

(١) أنظر البلاذري: فتوح ص٤٢٦، ٤٢٩، أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج٢ ص٣٦٨، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج١ ص٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤.

الأخماس لاعتبارات تتعلق بتوزيع الأرزاق وجَمْعِ المقاتلين العرب. وهذه الأخماس هي:

١ ـ خمس بني تميم: وكان موقعه في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة، ويضمُّ هذا الخمس عدداً من الخطط والمحلات والمربعات التابعة إلى هذه القبيلة، منها محلّة بني منقر وخطة بني سعد وخطة بني عامر ومحلّة بني حمان وخطة بني مالك وبني عمرو ابن تميم وبني مازن. بالإضافة إلى بطون بني تميم، فإن الخمس كان يشتمل على خطط لأولئك الجماعات والقبائل التي دخلت في حلف مع بني تميم كخطة بني العم وخطة الأساورة(١).

٢ ـ خمس أهل العالية: ويشتمل هذا الخمس على قبائل هذيل وخزيمة وقيس عيلان. وقد ضمَّ بدوره عدة محلات وخطط أيضاً منها محلّة بني سليم وخطة بني ناحية ومحلّة هذيل ومحلّة بني عقيل ومحلّة بني نمير ومحلّة بني حرام وغيرها. وتضمَّن هذا الخمس كما هي الحال في الخمس السابق خطط ومحلات لمجموعات لا تنتمي إلى قبائل أهل العالية. فكان، مثلاً، للسيابجة وهم يرجعون أصلاً إلى الهند محلّة التي كانت تقع في خطة بني سليم، ودرب حبشي الذي كان يسكنه أحباش نَقَلَهُم الخليفة عمر بن الخطاب (رض) إلى البصرة، يقع في محلّة هذيل(٢).

٣ ـ خمس بكر بن وائل: وتتوزع محلات خمس هذه القبيلة في منطقة تقع إلى الشمال من شارع المربد وجنوب المسجد الجامع. وهو أيضاً يضمُّ مجموعة من المحلات والخطط، منها محلّة بني سدوس

(١) أنظر ابن دريد: الاشتقاق ص١٤٠، ٢٢٨، ٢٦٠، الجاحظ: الحيوان ج٢ ص٣٣٣، ج٣ ص٢٩٠ ج٥ ص٥٦٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص١٩، البلاذري: فتوح ص٤٣٢، الأصفهاني: الأغاني ج٣ ص٢١١ ج٨ ص٤٢٢، ج١٢ ص٣١٤، ٣١٨.

وخطة بني عدي بن جشم ومحلّة بني ضبيعة بن قيس ومحلّة المسامعة نسبة إلى مسمع بن مالك، ومحلّة بني شيبان ومحلّة بني عجل وغير ذلك[١].

٤ ـ خمس عبد القيس: ويقع هذا الخمس شمال البصرة وتمتد خطط هذه القبيلة ومحلاتها إلى دار الرزق وجسر البصرة. ويبدو أن أفراد هذه القبيلة كانوا يتداخلون في السكن مع غيرهم من القبائل، ومن بين محلاتهم محلّة بني عامر ومحلّة الجارودين وخطط ربيعة بن نزار.

٥ ـ خمس الأزد: وتنتشر هذه القبيلة في المنطقة الجنوبية الشرقية من البصرة، وتضمُّ محلات وخطط فرعية لتجمُّعات قبيلة تشمل القبائل الأزدية المتقاربة في النسب كبني مالك بن فهم والقسامل وبني نصر وبني مازن[٢].

إن تزايد أهمية البصرة في الفتوحات الإسلامية ساعد بشكل مباشر على ورود العديد من القبائل والعشائر إليها واتخاذها مستقرًّا لهم ولا سيما بعد أن أصبحت مركزاً إدارياً ارتبطت به البحرين والمناطق المفتوحة من بلاد فارس فتزايد حجم سكانها سواء أكانوا من العرب أم غيرهم، فَقَدِمَ إليها أقوام كالأساورة والزط والسيابجة، فإن هؤلاء بعد أن أفلحوا في فَتْحِ باب السور وقعت معركة بينهم وبين أهالي البصرة في شارع المربد انسحبَ على أثرها البصريون فتبعهم القرامطة في ذلك الشارع فمروا بالمسجد الجامع ثم سكة بني سمرة ثم قبر طلحة (وكانت محلّة أيضاً) إلى أن وصلوا إلى كلأ المدينة الواقع على شط البصرة[٣]. فكانت سكة المربد تقود الداخل إلى المدينة إلى المسجد الجامع وما جاوره من منشآت.

---

(١) أنظر الطبري: ج٥ ص٣٩٦، ٥٠٤، ٥١٤، ٥١٧.

(٢) ن. م ج٥ ص٢٣٧، ٥١٠، ياقوت: معجم البلدان (ط/أوروبية) ج٢ ص٣٢٤، ج٤ ص٣٤٦، ٣٧٢.

(٣) عريب القرطبي: صلة تاريخ الطبري ص٧٦، ابن الهمداني تكملة تاريخ الطبري (بيروت ١٩٥٩) ص٤٠.

تعكس أسماء الدروب والسكك في البصرة عدة مضامين إذ يغلب عليها الطابع القبلي أو أنها تحمل أسماء أشخاص متنفذين، كما أن بعضها الآخر يحمل أسماء مهنية أو حِرَفِية، مما قد يدلُّ على أنها كانت ضمن أسواق لها علاقة بالمهنة أو الحِرْفَة التي اتخذ اسمها، وللبعض الثالث أسماء أقوام أو تجمعات في محلات معيَّنة. فسكة ابن أو بني سمرة ترجع إلى عبد الرحمن بن سمرة الفزاري وسكة قريش تنسب إلى المجاميع القبلية القرشية. أما سكة الذباحين أو سكة العطارين أو سكة القصارين فهي تشير إلى تلك الحِرَفِ أو ربما الأسواق المنسوبة إلى الحِرَف. وهناك سكة الموالي لأنها كانت ضِمْنَ محلّة الموالي. وسكة البخارية لأنها كانت ضِمْنَ المحلّة التي سكن فيها أهل بخارى الذين قَدِموا البصرة بعد فَتْحِ بخارى سنة ٥٤هـ/٦٧٣م.

## الأسواق:

لم تَرِدْ أية إشارة إلى أن عتبة بن غزوان أو أبا موسى الأشعري حينما وضعا مخطط المسجد ودار الإمارة والمنشآت الإدارية الأخرى خطّطا أيضاً لمجموعة من الأسواق أو لسوق معيَّنة قرب المسجد الجامع. ويبدو أن المدينة ظلّت خالية من الأسواق فترة من الزمن، أو ربما اقتصرت أسواقها على السوق المشهور سوق المربد، الذي يُعَدُّ نقطة التقاء بين البادية والحاضرة. وكانت تتمُّ في هذه السوق عمليات التبادل البضائعي، إذ أورد الطبري أن الخليفة عمر بن الخطاب قال بشأن الأسواق إنها (على سنّة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه)[1]. ويبدو أن الأمر في مدينة البصرة كان يجري على هذا النسق من التجمعات المحلية المتنقلة من الأسواق. وهذه الحالة توافق ما كانت عليه مدينة البصرة خلال الفترة من ١٤هـ - ٢٥هـ.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن أول إنجاز في هذا المجال قد تمّ أثناء ولاية عبد الله بن عامر بن كريز (من ٢٥ - ٣٦هـ/٦٤٥ - ٦٥٦م. إذ إن هذا الوالي قد شجَّع الناس على اتخاذ الأسواق، وبالفعل، فإنه بادر إلى شراء عدد

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٥ - ٤٦.

من الدُّور الواقعة بالقرب من النهر المنسوب إلى والدته (نهر أم عبد الله) الذي كان يتفرع من نهر فيض أو شط البصرة متجهاً إلى داخل المدينة، وهَدَمَ هذه الدُّور ثم بنى في مكانها السوق. فكان سوق عبد الله السوق الرئيسة في داخل المدينة، لكننا لا نملك معلومات تفصيلية عن هذه السوق وتنظيم محلاتها. وفيما إذا كانت هذه المحلات موزَّعة بحسب الحِرَفِ والبضائع أم لا؟ لكن دون شك فإن هذه السوق بقيت تلعب دوراً اقتصادياً مهماً في المدينة حتى فترة ولاية بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (من سنة ١٠٩ ـ ١١٨هـ/[١] ٧٢٧ ـ ٧٣٦م).

وتُعَدُّ فترة ولاية زياد بن أبيه من الفترات المهمة في مسألة تأسيس أسواق البصرة، إذ إنه أيضاً شجَّع على إقامة الأسواق، ومن بين إنجازاته بناء مدينة أو دار الرزق وهي عبارة عن مجموعة أسواق تضمُّها دار واسعة تحتوي على أربعة أبواب. ويبدو أن الدار كانت موجودة فعلاً لكن زياداً قام بتنظيمها وتوسيعها. وكانت مدينة أو دار الرزق تقوم بوظيفة المخزن الكبير للطعام والمؤن[٢]. ومن المحتمل أن تسمية سوق الطعام الذي قد يكون اسماً للمدينة أيضاً، قد جاء من هذه الوظيفة. وكانت مدينة الرزق تحتوي على نشاطات اقتصادية فاعلة.

بعد هذه الفترة قام والي البصرة، بلال بن أبي بردة بتحويل سوق عبد الله من موقعه إلى نهر بلال فجعل على جانِبَيّ هذا النهر النافذ إلى المدينة الحوانيت وصار سوقاً مهمة في البصرة. لكنه بمرور الزمن وبالنظر للتطوُّرات المذهلة التي شهدتها المدينة لم يَعُدْ سوق بلال كافياً لسدِّ الاحتياجات اليومية، ولا سيما بعد أن تحوَّلت وظيفة مدينة البصرة من مدينة معسكر إلى مدينة تجارية، فازداد نشاطها التجاري واجتذبت الأيدي العاملة والتجار من مختلف البلدان، الأمر الذي ساعد على تعدُّد أسواقها وإعادة تنظيمها وفقاً للمِهَنِ والبضائع المعروضة فيها.

---

(١) البلاذري: فتوح ص٤٥٧.

(٢) الطبري: ج٥ ص٢٢٢، ياقوت الحموي: (أوروبية) ج٢ ص٧٧٥ ج. صالح العلي: خطط البصرة (مجلة سومر/١٩٥٢) ق٢ ص٢٩٤ ـ ٢٩٥.

لذلك صار سوق المربد القديم الذي يمثّل البادية في بضائعه المعروضة في محلاته وفي اختصاصات أسواقه الفرعية، سوقاً كبيرة تجمع أسواقاً فرعية، فهناك سوق الدباغين وسوق الإبل وسوق الطحانين وسوق الوزانيين. وتحوَّل الكلأ إلى سوق كبيرة تضمُّ بدورها أسواقاً فرعية متخصصة كسوق أصحاب السقط وسوق القصابين وسوق الكحالين وسوق الدقيق. أما المجموعة الثالثة من الأسواق فصارت تحيط المسجد الجامع وتشتمل كذلك على أسواق فرعية متخصصة منها سوق الطحانين وسوق السمك وسوق عثمان والسوق القديم. وحينما زار المدينة المقدسي، ومن بعد ذلك، ناصر خسرو سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م، قالا إن المدينة تحتوي على ثلاث أسواق سمّاها المقدسي بسوق الكلا وسوق الكبير وسوق باب الجامع، بينما سمّاها ناصر خسرو بسوق خزاعة وسوق عثمان وسوق القداحين[١].

سور المدينة:

ليس هناك ما يشير إلى أن مؤسسي البصرة الأوائل قد فكّروا في تسوير المدينة، وذلك حسبما يبدو لأسباب عسكرية. فالهدف الرئيسي من تأسيسها كما مرَّ بنا عسكري، لإمداد وتموين الجيوش العربية الفاتحة. غير أن تبدُّل أحوال المدينة وتطوُّرها جعلا منها هدفاً سهلاً للقبائل البدوية والحركات السياسية المعادية. ويذكر لنا التاريخ المصاعب التي واجهها البصريون من هجمات الخوارج خلال الفترة الأموية. ويبدو أن حركة إبراهيم ذي النفس الزكية زمن الخليفة أبي جعفر المنصور كانت عاملاً مباشراً في توجُّه المنصور إلى بناء سور للمدينة. فتشير الروايات إلى أن والي المنصور على البصرة الهيثم العتكي قام بتشييده عام ١٥٥هـ/ ٧٧١م، كما أنه قام بِحَفْرِ خندق حَوْلَ المدينة وقد استوفيت أموال البناء من أهالي البصرة. ويبدو أن هذا السور قد تهدَّم أو صار قديماً لأن التاريخ يحدثنا عن بناء سور آخر سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م من قِبَلِ الوالي الواثقي

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٧ ـ ١١٨، ناصر خسرو: سفرنامة (ترجمة الخشاب) ص١٤٦.

درءاً لخطر القرامطة الذين ظهروا في البحرين، وقد بلغت تكاليف بنائه (١٤) ألف دينار. وظلَّ هذا السور ماثلاً حتى زيارة ناصر خسرو، فقد وَصَفَهُ بأنه محكم البناء وقوي، لكنه ربما قد تهدَّم فيما بعد وابتُنِيَ سور ثالث سنة ٥١٦ هـ/ ١١٣٢م، يبعد بحوالي نصف فرسخ عن السور القديم. وقد تهدَّم هذا السور أيضاً فَبُنِيَ للمدينة سور آخر سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م زمن الوالي باتكين[١].

## مصادر المياه:

كانت مسألة توفير المياه للشرب من أصعب المشاكل التي واجهها أهالي المدينة منذ بدء تأسيسها، فالبصرة كانت تبعد مسافة حوالي اثني عشر ميلاً إلى الغرب من نهر شط العرب. ويبدو أن المنطقة التي تأسست فيها المدينة كانت خالية من الأنهار الفرعية التي توصل المياه العذبة، لذلك اعتماداً على رواية الطبري، شكَّل أهالي البصرة وفداً لتقديم شكوى إلى الخليفة عمر بن الخطاب وقالوا في خطابهم بأن إخوانهم في مدينة الكوفة قد (نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب. . . وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة زعقة نشاشة. . يجري إليها ما جرى في مثل مريء[٢] النعامة) وعلى الرغم من كثرة الأنهار والقنوات التي حُفِرَتْ خلال مراحلها التأسيسية من نهر شط العرب، فإن مشكلة الماء وملوحته ظلَّت من أهم صفات مياه البصرة حتى فترة متأخرة. فالإصطخري في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد يقارن بين الكوفة والبصرة قائلاً إن الكوفة قريبة من البصرة في المساحة لكنَّ هواءها أصحُّ وماءها أعذب من البصرة، ويذكر الجغرافي الأخر المقدسي أن مياه البصرة ضيقة وذلك لأنه يحمل في السفن من الأُبُلَّة، أما المياه المجاورة للمدينة فكانت غير طيبة ومالحة لأن ثلثه ماء البحر وثلثه ماء الجزر وثلثه ماء الحجر، ووَصَفَها آخرون بأن ماءها أجاج، ووَصَفَها ابن بطوطة في القرن الثامن للهجرة بأنه إذا غلب

---

(١) أنظر الطبري: ج٨ ص٤٦، ج١٠ ص٧١، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٧٧، ناصر خسرو: سفرنامة ص١٤٦، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٣، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص١٨٢.

(٢) الطبري: ج٤ ص٧٥ (سبخة هشاشة: أرض ملحية لينة. زعقة أي الماء المر. نشاشة الأرض التي لا تساعد على الإنبات).

عليها المدّ غلب الماء المالح على العذب، واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح، حينذاك يأخذ أهالي البصرة الماء لدورهم[١]. ولم يستطع أهالي البصرة التغلّب على هذه المشكلة فحفروا المزيد من القنوات التي تجلب المياه من شط العرب وشط البصرة إلى دُورهم ومحلاتهم، لكن المشكلة ظلّت هي الغالبة.

## انحلال المدينة

شهدت مدينة البصرة تطوُّرات اجتماعية واقتصادية وفكرية كبيرة عبر قرون متعدِّدة على الرغم من جميع الظروف الصعبة. فكانت مركز إدارة مهم للفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، وصارت المنطقة المحيطة بها من أهم المناطق الزراعية، ثم تحوَّلت خلال الفترة العباسية إلى مرفأ وميناء تجاري فتطوَّرت العلاقات الاقتصادية داخل المدينة، إذ ظهرت البنوك والمصارف وتشجع التجار في توسيع علاقاتهم مع الخارج، وأقبل عليها الناس من مختلف البلدان لمزاولة الأعمال. وقد نشطت الحركة التجارية للمدينة من خلال نهر المعقل ونهر الأبُلّة ونهر شط العرب والخليج العربي، فتزايد حجم واردات التجار من الهند والصين وأفريقيا وتطايرت سُمْعَتُهُم. فيقول ابن الفقيه الهمذاني أينما ذهب المرء في العالم فإنه لا بدَّ أن يقابل تاجراً بصرياً. غير أنه منذ منتصف القرن الثالث للهجرة فصاعداً، واجهت المدينة عدة انتكاسات وتحديات سياسية أدت بمرور الزمن إلى ضَعْفِ أهميتها وتضاؤل حجم سكانها، فاعتداءات الزنج على المدينة وتخريبهم معالمها وقَتْلُهُم الأهالي وتخريب الأراضي الزراعية دفع الكثير من أهاليها إلى تَرْكِها والرحيل عنها إلى المدن المجاورة. ثم جاءت ضربات القرامطة من البحرين فأضافت هي الأخرى إلى عوامل تخريب المدينة، إذ تعرَّضت إلى جملة من هجماتهم أو التهديد بالهجوم عليها. وفي إحدى المرات صارت المدينة خلال عدة أيام تحت سيطرتهم يدمّرون ويخربون وينهبون، فاضطر الأهالي إلى تَرْكِها أيضاً. لذلك نجد أن

---

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص٨٢، المقدسي: ص١٢٩، ابن بطوطة: الرحلة ١٣٩ (بيروت ١٩٦٠).

المقدسي خلال زيارته إلى البصرة في القرن الرابع للهجرة يذكر أن طرف البصرة البرّي قد أتى عليه الخراب[1]. كذلك فإن المدينة تعرَّضت لعدد من هجمات القبائل البدوية وحكام المناطق المجاورة كحكام البطائح وحكام الأهواز وحكام عُمان وأمراء الدولة البويهية. فتخربت معالمها ووحداتها العمرانية وأسواقها. وحينما زارها ناصر خسرو في سنة ٤٤٣هـ، وجد أن جانبها الغربي قد أتى عليه الخراب، وأن ناسخ كتاب ابن حوقل حينما زار المدينة سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، قال إنها قد خربت ولم يبقَ من آثارها ومعالمها إلا القليل، فانطمست محلاتها ولم يبقَ منها إلا محلّة النحاسين وقسامل وهذيل والمربد وقبر طلحة. وشاهد حركة المدينة الاقتصادية والاجتماعية، فقال إن سكانها قلائل، ففي كلِّ محلّة من تلك المحلات بيوت معدودة، أما باقي بيوتها فكانت خراباً غير مسكونة وجامعها المشهور ما زال موجوداً لكنه في وسط الخراب، وأما سورها القديم فقد تهدَّم أيضاً. ويسلّط هذا الزائر الأضواء على العوامل التي أدت إلى انحلال المدينة فيركز على الجانب السياسي أيضاً وما واجهته المدينة من غارات وهجمات[2]. وتتقلص محلاتها بشكل أكبر خلال مرحلة لاحقة حينما زارها ابن بطوطة فلم يجد فيها إلا ثلاث محلات فقط وأن المدينة انكمشت اجتماعياً وعمرانياً.

لا شك أن التركيز على العوامل السياسية التي واجهتها المدينة فقط يمثّل جانباً من العوامل، وذلك لأن العراق إبان السيطرة الديلمية والتركية واجه أزمات وتحديات كثيرة، فالقلق والاضطراب السياسي اللذين اتصفت بهما فترات حكم هؤلاء الأجانب قد انعكسا على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والثقافية. وكانت الانتكاسة التجارية من بين الانتكاسات المهمة التي شهدها العراق ومنطقة الخليج العربي وذلك بتحوُّل طرق التجارة البحرية من الخليج العربي باتجاه العراق إلى البحر الأحمر. وهذا بدوره أثّر على نشاط عدد من المراكز التجارية في منطقة الخليج العربي كسيراف وأوال والبصرة.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٧.

(٢) ناسخ مجهول في كتاب صورة الأرض لابن حوقل: ص٢١٣، ناصر خسرو: سفرنامة ص١٤٦.

لذلك نجد أن هناك عدة إشارات تبيِّن انتقال التجار وأصحاب المهن من المدينة إلى بعض المدن المجاورة كالأبُلّة أو إلى بغداد أو إلى مناطق ومدن أخرى. وعلى هذا الأساس نَمَتْ إلى جوار المدينة وباتجاه نهر شط العرب حيث الأمان من هجمات القبائل البدوية عدة مراكز مهمة قد مَهَّدَ بعضها وعلى وجه الخصوص شط عثمان والأبُلّة إلى ظهور مدينة البصرة الحديثة.

## الأبُلّة:

دون شك أن تاريخ مدينة الأبُلّة أقدم وأبعد من تاريخ مدينة البصرة. ويرى البعض أن الاسم الحقيقي للأبُلّة هو أبو لوغوس ذلك المرفأ التجاري الذي تأسس أثناء حملة الاسكندر الكبير والذي كان يقع على دجلة مقابل مدينة سباسنيوس أو باسنيوس. وعلى الرغم من أن تركيب كلمة أبولوغوس الخارجي يوحي فعلاً بأنها كلمة يونانية، كما أن هناك أدلّة تاريخية تثبت وصول حملات الاسكندر إلى هذه المنطقة بغية الاستحواذ على تجارة الخليج العربي والهند. لكن الدكتور جواد علي قد أشار في كتابه الضخم (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) أن أصل كلمة أبُلّة أو أبو لوكس Apologus عراقي قديم فإنها في الكتابات الأكدية يشار إليها بكلمة أوبولم Ubulum، إذ إنها وَرَدَتْ في نصّ يرجع إلى الملك تفلت فلاسر الثالث ويقصد بها اسم قبيلة U - bu - lu، كما وَرَدَتِ الكلمة ضِمْنَ جملة أسماء للقبائل التي كانت تقطن المنطقة الجنوبية من العراق أيام الملك سرجون الثاني. ووصل العلّامة جواد علي إلى القول بأن هناك صِلَة بين أبولوكس وأوبولم والأبُلّة. والمهم أيضاً أن أبولوكس هذه كانت تصدِّر اللؤلؤ والتمر والذهب ومواد أخرى إلى العربية السعيدة[1].

وقد ذَكَرَها كرستنسن خلال الفترة الساسانية، وبالفعل، فإن مصادرنا العربية تشير إلى أنها كانت موجودة وكان للفرس قاعدة أو مسلحة عسكرية فيها لمواجهة ورَصْدِ تحركات القبائل العربية من بكر بن وائل وتميم التي كانت تشنُّ

(١) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٧٠) ص ٢٠ ـ ٢١.

الهجمات تلو الهجمات على قاعدة الفرس في الأُبُلّة. وتشير الروايات التاريخية العربية إلى أن الأُبُلّة كانت مأهولة بالسكان، فقد وَصَفَها عتبة بن غزوان في رسالته الموجهة إلى الخليفة الثاني بأنها كانت (مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين)[1]، وكانت تسمّى أيضاً بأرض الهند أو ثغر الهند، كتعبير واضح إلى وظيفتها كميناء تجاري يتصل عبر دجلة العوراء (شط العرب) والخليج العربي بالهند والصين. والواقع أن نهر دجلة العوراء كان صالحاً لسَيْرِ السفن التجارية الكبيرة المتوجهة إلى منطقة الخليج والخارج.

ومن الطبيعي، فإن وجود مسلحة فارسية في الأُبُلّة جعلها هدفاً عسكرياً مهماً أمام عتبة بن غزوان الذي خطط طويلاً لتحريرها. وبعد أن تحرَّرت الأُبُلّة سقط العديد من المدن والمواضع الفارسية في الجانب الشرقي من نهر شط العرب بسهولة. لكن عتبة ومن جاء بعده من ولاة للبصرة لم يتخذوا الأُبُلّة مدينة للمقاتلين العرب وذلك انطلاقاً من الاستراتيجية العسكرية العربية، ولأن الأُبُلّة كانت على شاطىء النهر وتحيطها الأنهار والبساتين لذلك تكون استراتيجية حصارها والقيام بهجوم نهري مفاجيء أمراً سهلاً. وعلى هذا الأساس، فإن تأسيس مدينة البصرة إلى الغرب من الأُبُلّة بمسافة تقدَّر باثني عشر ميلاً واتخاذها مركزاً عسكرياً وإدارياً رئيساً، قد أدى بمرور الزمن إلى التقليل من أهمية مدينة الأُبُلّة وتضاؤل حَجْم سكانها الذين رحلوا إلى البصرة لمزاولة الأعمال. ويبدو أن التعبير الذي أُطلق عليها بعد هذه المرحلة من تاريخ البصرة (قرية) بدلاً من مدينة له دلالة واضحة على هذا التبدُّل في أحوال الأُبُلّة الاجتماعية والإدارية والاقتصادية.

غير أن أحوال الأُبُلّة قد تبدَّلت نحو الأحسن بمرور الزمن وبصورة خاصة إبان انتعاش الحركة التجارية في الخليج العربي بعد انتقال مركز الخلافة العربية من دمشق إلى العراق، بغداد. فالتحولات الاقتصادية التي شهدها المجتمع العربي خلال هذه الفترة زادت من النشاطات التجارية مع أقطار الخليج العربي

(١) البلاذري: فتوح ص٣٢٧، الطبري: ج٣ ص٣٤٣، ٥٩١، ٥٩٤، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٤ ص٢٢٥.

والهند والصين وأفريقيا سواء عبر الطريق النهري ـ البحري ابتداءً من بغداد ـ واسط ـ شط العرب ـ البصرة بواسطة نهر الأبُلّة ـ عبادان (بواسطة شط العرب ثانية) ـ الخليج العربي أوال ـ سيراف ثم الهند والصين. صحيح أن الأبُلّة لم تُتَّخذْ كمحطة تجارية لتفريغ الحملات والبضائع أو تحميلها، إنما كانت البصرة هي التي تقوم بهذه الوظيفة، لكنّ وقوع الأبُلّة على شط العرب الذي كان صالحاً لسَيْرِ السفن الكبيرة، ثم لكونها مرفأ يشتمل على مركز لبناء السفن وتصليحها،[(١)] صارت في طريق الملاحة النهرية وبالتالي حسبما يذكر ناصر خسرو تحوّلت إلى فُرضة أو ميناء للسفن التجارية البحرية التي لم يكن باستطاعتها الوصول إلى البصرة لكبرها ولعدم صلاحية نهر الأبُلّة إلى سَيْرِ السفن التجارية الكبيرة، لذلك فإن أهمية الأبُلّة أخذت تتصاعد مرة ثانية بتصاعد النشاطات التجارية النهرية والبحرية . ومع ذلك، فإنها كانت تابعة لمدينة البصرة إدارياً على الرغم من ورود تعابير إدارية في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد حَوْلَ وجود والي الأبُلّة أو ما يسمّى صاحب الأبُلّة، فكان محمد بن أبي عون سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م قد نُقِلَ عن ولاية واسط إلى ولاية الأبُلّة وكُوَرِ دجلة، وفي نفس السنة أيضاً عيَّن جعلان التركي أحد القادة الأتراك أبا الأحوص الباهلي والياً على الأبُلّة[(٢)]. والظاهر أن هذين الواليين كانا قد عُيِّنا على الأبُلّة لأن الزنج كانوا مستحوذين على البصرة، لأننا لم نسمع بعد ذلك عن وجود والٍ مستقلٍ للأبُلّة ولا سيما بعد نجاح الموفّق في القضاء على حركة الزنج.

وتعزيزاً لفكرة تطوُّر مدينة الأبُلّة واتساع شهرتها وتزايد حجم سكانها على حساب مدينة البصرة بعد أن واجهت عدة مصاعب سياسية متمثلة بهجمات الزنج، هناك عدة استشهادات تشير إلى أن أهالي البصرة قد تركوا المدينة ليقطنوا في الأبُلّة والأصفهانيين، حتى قيل إن عدد سكانها قد بلغ وفقاً لسجلّ

(١) أنظر مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص٣٦٩ ـ ٣٧٠، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٨ ص١١٧، ٢٠٤.
(٢) الطبري: ج٩ ص٤١٥، ٤٣٧.

المقاتلين العرب حوالي ستين ألف مقاتل ما عدا الأطفال الذين لا يدخلون في السجلّ كمقاتلين والموالي والعبيد. ويمثّل هذا الرقم فترة خلافة الإمام علي بن أبي طالب (رض)، وتطوَّر حجمها خلال ولاية زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد بصورة أكبر حتى وصل الرقم من حوالي مائتي ألف الى ثلثمائة ألف نسمة[1].

وقد ظلَّت وضعية البصرة وتقسيماتها القبلية حتى فترة متأخرة، إذ يشير ناسخ كتاب ابن حوقل، الذي زار المدينة سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، إلى أن هناك عدة محلات في البصرة ما زالت موجودة على الرغم من الخراب الذي حلَّ بالمدينة، ومن بين هذه المحلات محلّة هذيل وقسامل. وعندما زار المدينة ابن بطوطة سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م وجد البصرة قد خُرِّبَ الكثير من خططها وبقيت عدة محلات منها محلّة بني حرام بن سعد ومحلّة[2] بني هذيل.

## شوارع المدينة ودروبها:

اعتماداً على أقوال بعض الجغرافيين والمؤرِّخين، فإن مدينة البصرة عندما خُطِّطت تخطيطاً قبلياً أثناء ولاية أبي موسى الأشعري أُخِذَ بنظر الاعتبار تنظيم شوارعها، أو بالأحرى شارعها الأعظم الرئيسي المسمّى شارع المربد، وذلك أن يكون عرضه ستين ذراعاً (أي ما يقارب ثلاثين متراً). والحقيقة أن شارع المربد يُعَدُّ العمود الفقري للمدينة لأنه يشطرها إلى جانبَيْن، شمالي وجنوبي. لكنّ هذا لا يعني أبداً أنه السكة أو الشارع الوحيد في المدينة وذلك لأنها كانت تحتوي على عدد كبير من الدروب والمسالك الفرعية حتى قيل إنه كان من الصعب التجوُّل في دروبها دون دليل.

يمتدُّ شارع المربد من سوق المربد الذي يقع غرب المدينة إلى مدينة الرزق أو دار الرزق ويسمّى أيضاً بالكلأ الواقع شرقي المدينة. وتتفرَّع من هذا الشارع وبالقرب من المسجد الجامع سكة قريش وسكة ابن سمرة وغيرها من السكك

---

(١) الطبري: ج٥ ص٧٨ ـ ٧٩، ٥٠٤.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٣، ابن بطوطة: رحلة ص١٨٦.

الفرعية. ولقد أورد عريب القرطبي وصفاً عاماً لشارع المربد ابتداء بسور المدينة حتى شط البصرة أثناء حديثه عن هجوم القرامطة على المدينة سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م، خلال أحداث الزنج والقرامطة، منها على سبيل المثال لا الحصر، ما حدث سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م، عند هجوم القرامطة على المدينة، الأمر الذي أجبر الأهالي على تركها والتوجُّه نحو الأُبُلّة، وكذلك حينما هاجم القرامطة أيضاً المدينة سنة ٣٨٥هـ/ ٩٥٥م، ترك الكثير من الأهالي المدينة، وبعد سنة من ذلك الهجوم، وقع هجوم آخر أجبر أعداداً كبيرة جداً من أهالي البصرة على تَرْكِها، وفي سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م، عندما طَرَقَ سَمْعَ أهالي البصرة المذابح التي ارتكبها الديالمة والأتراك بأهالي الأحواز، خافوا على أنفسهم وتركوا المدينة نحو الأُبُلّة وما جاورها[١]. وعلاوة على تلك الاستشهادات التاريخية، فإن هناك أوصافاً جغرافية واضحة عن وضعية الأُبُلّة وتطوُّرها من النواحي الاجتماعية والعمرانية. فقد ذكر ابن حوقل خلال حديثه عن مدن البصرة، فأشار إلى عبادان والأُبُلّة والمفتح والمذار ثم عقَّب على هذه المدن بأنها مدن صغيرة متقاربة في الكبر وأن الأُبُلّة أكبر الجميع (وأفسحها رقعة) وكانت الأُبُلّة دون غيرها من تلك المدن عامرة تشتمل على أسواق صالحة[٢] وعدة قرى، ووَصَفَها المقدسي بعد ذلك بزمن قليل، أنها قرية عامرة كبيرة (أرفق من البصرة) وتحتوي على جامع،[٣] ووَصَفَها الرحالة ناصر خسرو عندما غادر البصرة متوجهاً نحو بلاد فارس بقوله إنها كانت تقع على نهر الأُبُلّة وهي (مدينة عامرة) فهو لم يطلق عليها تعبير قرية، ثم أضاف قائلاً بأنه رأى قصور المدينة وأسواقها ومساجدها وأربطتها (وهي من الجمال بحيث لا يمكن حدُّها أو وَصْفُها)[٤]. وامتدح الجغرافي الإدريسي الأُبُلّة أيضاً على الرغم من أنه لم يَزُرْها إنما استفسر عن

---

(١) الطبري: ج١٠ ص٧٨، المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣٨، سبط بن الجوزي: مخطوط (المتحف البريطاني) ورقة ١٨٧، ٢٣٦. أبو شجاع الروذراوردي: ذيل تجارب الأمم ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٤.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٨.

(٤) ناصر خسرو: سفرنامة ص١٥٠.

أحوالها من بعض التجار البصريين، فَوَصَفَ أهلها بأنهم يعيشون برفاهية ويغلب عليهم الرفاه والرخاء، كما أنها كانت مدينة جميلة واسعة العمران متصلة البساتين[1] كثيفة السكان. ويؤيد ما ذهب إليه الإدريسي صاحب كتاب الروض المعطار حيث يَصِفُها بأنها حسنة الديار واسعة العمارة كثيرة السكان وأهلها مياسير في خصب ورفاهية من العيش.

وبالنظر إلى ما كانت تتمتع به الأبُلّة من جمال الطبيعة والرخاء والموقع التجاري الملائم وبُعْدِها عن مخاطر الهجمات البدوية من البادية، صارت هي المدينة المفضّلة لسكن الأمراء والمتنفذين والعمال والولاة، فكانت دُور وقصور البريديين في الأبُلّة، واتخذ الوزير المهلّبي وهو أبو محمد الحسن بن محمد المهلّبي، وزير معز الدولة البويهي، داره فيها. كما أن الوالي أبا العباس بن واصل وظهير الدين اتخذا دُورهما في الأبُلّة، وكانت دار فضلان الساجي في الأبُلّة، واتخذها عدد من الموظفين الإداريين المهمّين محلاً لإقامتهم[2]. وبالرغم من أننا لا نملك إحصائية دقيقة عن سكان المدينة، لكنه يمكن القول بأن أعداداً غير قليلة من سكان البصرة قد اتخذوا دُورهم ومساكنهم فيها لِما توفّره لهم من طمأنينة وراحة بال من خطر هجوم القرامطة والقبائل البدوية وبذلك استعادت الأبُلّة مكانتها السابقة كميناء تجاري واشتهرت ببعض صناعتها كصناعة الأنسجة الكتانية كالعمائم الجميلة[3].

## شط عثمان

على الرغم من أن التسمية الشائعة لهذا الموضع شط عثمان، فإن هناك بعض الحالات التي وَرَدَ فيها الاسم على شكل شق عثمان، كما أطلق عليه الطبري اسم شاطىء عثمان.

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٨.

(2) أنظر مسكويه ج٢ ص٥٣، ٢١٧، التنوخي: نشوار المحاضرة ج٢ ص٣٨ ـ ٣٩، سبط بن الجوزي: مرآة الزمان (مخطوطة في اسطنبول/ تركيا) مجلة ١١ ورقة ١١ ـ ١٢، ٢٤٥ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٩ ص١٣٧، ١٥٣، ١٦٠، ١٧٤.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٨.

يرجع تاريخ هذا الموضع إلى سنة ٢٩هـ/٦٤٩م، عندما أقطع الخليفة عثمان ابن عفان هذا الشط إلى عثمان بن أبي العاص، الذي كان آنئذٍ يتولى أعمال البحرين. وعثمان هذا هو عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي قد ساهم في عمليات الفتوحات الإسلامية في الجزيرة الفراتية وفي فَتْحِ إصطخر في بلاد فارس. وقد بيَّن البلاذري وياقوت الحموي علاقة عثمان بن أبي العاص بهذا المكان الذي، حسبما يبدو، اتخذ اسمه من اسم هذا الشخص. كان الموضع في بداية أمره سبخة أو أراضي سبخة موات قبل إقطاعها، لكنها انتعشت عندما أحياها عثمان بن أبي العاص. وكان الخليفة الثالث قد كتب إلى والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز كتاباً يأمره فيه إقطاع هذا الشط إلى عثمان. وقد وَرَدَ في الكتاب معلومات حول موقع هذه الأراضي القريبة من الأبُلّة فكانت بداية كتاب الخليفة إلى ابن أبي العاص (بسم الله الرحمن الرحيم ـ هذا كتاب عبد الله عثمان أمير المؤمنين لعثمان بن أبي العاص ـ إني أعطيتك الشط لمن ذهب إلى الأبُلّة من البصرة والمقابلة قرية الأبُلّة والقرية التي كان الأشعري عمل فيها. وأعطيتك براح ذلك الشط أجمة وسبخة فيما بين الخرارة إلى دير جابيل إلى القبرَيْنِ اللذين على الشط، المقابِلَيْن للأبُلّة)[1]. الذي يعنينا من هذه الرواية أن الشط عبارة عن أراضٍ وقرية تقع مقابل الأبُلّة التي كانت آنذاك قرية أيضاً، لكنها لم تكن في الجهة الأخرى من شط العرب، إنما كأنها مقابل الأبُلّة من جهتها الجنوبية ولا سيما أن الرواية أوردت تعبير الخرارة أو الجزارة التي وَرَدَتْ عند البلاذري التي كانت عبارة عن خور يقع في مدخل نهر الأبُلّة.

ليس لدينا معلومات أخرى عن هذا الموضوع خلال هذه الفترة المبكرة عدا تلك التي ذكرها البلاذري وكرَّرها ياقوت الحموي، ويبدو أنه كان عبارة عن قرية صغيرة آخذة بالنمو، إذ تَرِدُ معلومات عنها خلال أحداث حركة الزنج بالبصرة، تلك المعلومات التي تؤكد صحة ما وَرَدَ سابقاً من أنها كانت مجاورة جداً للأبُلّة وتقع إلى جنوبها، وكانت قرية مأهولة. ويبدو أن هذه القرية صارت

(١) أنظر عن التسمية الطبري: ج٩ ص٤٢٦، ٤٧١، ٤٧٢، ابن الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص ـ ١٩، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٣٤٤، البلاذري: فتوح ص٣٤٦، ٣٥٦.

أكبر مما كانت عليه في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، فَوَصَفَها المقدسي قائلاً إنها كانت تحتوي على جامع حسن. والمهم أن هذه القرية قد اتُّخِذَتْ مقرًّا لعدد من عمّال البصرة، أخصُّ بالذكر منهم عائلة البريدي. إذ يحدثنا مسكويه في كتاب تجارب الأمم أن معز الدولة البويهي كان متوجِّهاً لحرب صاحب عمان فوصل الأُبُلّة ونزل في شاطئها (في شاطىء عثمان) في دار البريديين[1]. كان البريديون هم الضامنين لمدينة البصرة أو بالأحرى المسيطرين عليها سياسياً وإدارياً منذ حوالي سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م حتى ٣٣٦هـ/٩٤٧م. ولعلّ السبب الرئيسي في تطوير هذه القرية وزيادة أهميتها يرجع إلى ما عانته البصرة خلال أحداث حركة الزنج من مصاعب ومشاكل واضطراب، الأمر الذي دفع أهاليها إلى تَرْكِها والتوجُّه نحو الأُبُلّة وشط عثمان، كذلك دفعت هذه الظروف إلى أن يتخذ البريديون دُورهم ومقرّاتهم في شط عثمان بدلاً من البصرة، وبمرور الزمن تزايدت أهمية هذه القرية بشكل أكبر، فما جاءت الفترة التي زار فيها ناصر خسرو مدينة البصرة وضواحيها حتى نجد أنها تحوّلت إلى مدينة صغيرة. فيذكر ناصر خسرو أن شط عثمان كانت تمثل الجانب الجنوبي من الأُبُلّة حيث توجد في هذا الموضع الشوارع والمساجد والأربطة والأسواق والأبنية الكبيرة التي لا يوجد لها نظير في العالم. والحقيقة أن ناصر خسرو مكث في شط عثمان ليلة أو ليلتين قبل أن يأخذ سفينة كبيرة تدعى (بوصي) باتجاه الخليج العربي عبر نهر شط العرب. مما يدلُّ دلالة واضحة على أنها أضحت مرسى أو مرفأ للسفن الكبيرة التي تصلح للسفر عبر الخليج العربي، وأشار إلى أنه حينما اتخذ مع بقية المسافرين هذه السفينة كان هنالك ناس كثيرون على جانبَي النهر وهم يصيحون (سلمك الله بابوصي)[2]. فالقرية الصغيرة صارت تشتمل على مساجد وأسواق وشوارع ومرفأ لرسوّ السفن الكبيرة، وإذا ما قارنّا هذا الوصف بما ذكره هذا الرحالة عن مدينة البصرة،

---

(١) الطبري: ج٩ ص٤٧١، ٤٧٢، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤١٢، مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص٢١٧.

(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص١٥٠.

نجد أن شط عثمان لم تَعُدْ تلك القرية الصغيرة وأنها كبرت حجماً وسكاناً على حساب مدينة البصرة. واستمر نموُّ هذه المدينة الصغيرة عبر التاريخ، إذ يحدثنا الجغرافي زكريا القزويني في القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد، أثناء وَصْفِهِ مدينة الأبُلّة، إذ يقول إنها كانت عبارة عن جانِبَيْن، الجانب الشمالي يطلق عليه الأبُلّة، أما الجانب الجنوبي شط عثمان فكان هو الجانب المأهول والمزدهر، وصار يشتمل على عدد من القرى والبساتين المنتجة لمختلف أنواع الفواكه وكان قريباً من الأنهار[1].

وقد نُسِبَ إلى شط عثمان عدد من العلماء والشخصيات من أمثال أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم البصري الشطي المتوفي سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م[2].

* * *

خلاصة القول إن الهدف من تناول وَصْفِ الأبُلّة وشاطىء عثمان دون غيرهما من المدن التابعة للبصرة هو أن هذين الموضعين قد ارتبطا عضوياً بالبصرة وقد تطوَّرا واتَّسعا عمرانياً واجتماعياً على حساب مدينة البصرة. والأهم من ذلك كلِّه، أن هناك رأياً يشير بأن البصرة القديمة بعد أن اختفت من موضعها القديم، ظهرت البصرة الحديثة في الأبُلّة وبصورة خاصة بشاطىء عثمان وصارت هي البصرة الحديثة وغلبت تسميتها على مدينة الأبُلّة وشاطىء عثمان. ومع ذلك، فإن إشارة الشيخ نعمان بن محمد في كتابه، معدن الجواهر، توضح بجلاء انتقال البصرة في القرن السادس عشر للميلاد إلى ما يعرف الآن بالبصرة القديمة لا العشار الذي من المعتقد أن يكون موقع الأبُلّة.

---

(١) زكريا القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٣٤٤.

## الفصل الثاني

# الكوفة ـ الجامعين ـ الحلة

على الرغم من أن هذه المجموعة من المدن لا ترجع، كما هي الحال في مجموعة الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع، كما سنذكر ذلك إلى أصل واحد، أي في حالة الفسطاط، مثلاً، حيث تفرّعت منها العسكر والقطائع، فإن الجامعين وبالتالي مدينة الحلّة لا تتفرع من مدينة الكوفة لكنها مع ذلك يربطها رابط مشترك ذلك هو العامل الجغرافي التمدُّني. إنها تقع في منطقة الفرات الأوسط في العراق وفي طريق المواصلات البرّي بين بغداد ـ الكوفة ـ مكة، علاوة على ذلك، فإن حركة التمدُّن قد انتقلت فيها، خلال الفترة الإسلامية، من الكوفة ـ المدينة الأم ـ إلى الجامعين القرية التي تحوّلت في نفس الوقت إلى مدينة الحلّة. من هذا المنطلق جعلنا هذه المدن ضِمْنَ تركيبة تمدّنية مشتركة.

المعروف هنا أيضاً أن الكوفة تُعَدُّ من الأمصار الإسلامية القديمة، إذ إنها والبصرة في الواقع تُعَدّان من أوائل الأمصار الإسلامية التي أسسها العرب خارج الجزيرة العربية. وقد ارتبط المصران ارتباطاً قوياً بحيث صار يطلق عليهما من قِبَلِ المؤلّفين العرب بالعراقيين أو بالمصرين. وليس غريباً القول بأن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول للهجرة هو تاريخ الكوفة والبصرة لِما لعبا من أدوار سياسية وإدارية وعسكرية مهمة جداً. كما أنه ليس غريباً القول بأن هذين المصرين اقتسما الحركة الفكرية العربية خلال ذلك وبما أسهما به من مدارس نحوية وأدبية صارت تُعرف بأسمائهما مدرسة النحو الكوفية ومدرسة النحو البصرية. لذلك فقد أُلّفَ عدد من الرسائل والكتيّبات في إبراز فضائل كلٍّ منهما على الأخرى في النحو والأدب والفِقْهِ والسياسية والإدارة.

وكما هي الحال بالنسبة إلى سنة تمصير البصرة، فإن هناك تبايناً واختلافاً في سنة تمصير الكوفة، فهناك من يجعل تأسيسها في سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، وبصورة أدق قبل تمصير البصرة، وأن قائد جبهة الكوفة، سعد بن أبي وقاص، هو الذي وجَّه عتبة بن غزوان نحو منطقة البصرة لتحريرها. كذلك هناك من المؤلِّفين القدامى من يجعل سنة تمصيرها ١٧هـ/٦٣٨م، في حين يرى آخرون بأن تأسيسها سنة ١٨هـ/٦٣٩م، ورأيٌ رابع يشير إلى أنها تمصَّرت في سنة ١٩هـ/٦٤٠م[١]. ولعلَّ المتفق عليه أنها مرَّت بعدة مراحل قبل التمصير النهائي الذي جاء بعد تمصير البصرة، وقد تم اختيارها وتوزيع خططها في الفترة من سنة ١٧هـ إلى سنة ١٨هـ.

في نفس الوقت اختلفت الآراء حول تفسير أصل كلمة الكوفة، فهناك من يقول إنها سُمِّيَتِ الكوفة لاستدارتها واستعمل التعبير كوفان بما يعني الرملة المستديرة. وإن المقصود بتعبير تكوُّف الرمل أي تجمَّع بعضه فوق بعض. وهناك من يرى بأنها سُمِّيَتْ كوفة نسبة إلى اسم موضع كان موجوداً في المنطقة اسمه كويفة بن عمر. لكن الآراء التي تجمع على أن الاسم مأخوذ من صفات التربة التي اتسمت بها المنطقة هي الغالبة، فيقال إن الأرض التي يكون فيها المزيج من الحصباء والطين والرمل تسمّى أرض كوفة. في الوقت الذي يشير إليه تفسير آخر بأنها سُمِّيَتْ كذلك نسبة إلى جبل صغير يقع في وسطها يقال له كوفان وهو تفسير ينطبق مع مسألة تجمُّع الرمال فيكون التل هو الكوفان. وقيل إن المألوف عند العرب أن تقول (أعطيت فلاناً كيفة أي قطعة)[٢].

اتخذ العرب الكوفة إلى الغرب من نهر الفرات بمكان لا يبعد كثيراً عن مدينة الحيرة، عاصمة المناذرة، والتي كانت لها شهرة واسعة في تاريخ العرب قبل الإسلام. ويبدو أن فَضْلَ الحيرة على الكوفة عمرانياً تمثَّل باستعمال أهالي الكوفة المخلَّفات العمرانية، كمواد البناء، لمدينة الحيرة، والحيرة على عكس

(١) أنظر اليعقوبي: تاريخ جزء ٢ ص١٥٠، البلاذري: فتوح ص٢٧٤: الطبري ج٤ ص٤٠ ـ ٤٣.
(٢) البلاذري: فتوح ص٢٧٤، اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص١٦٤، ابن منظور: لسان العرب، الزبيدي: تاج العروس.

مدينة الأُبُلّة في البصرة، فإنها لم تكن ذات أهمية عند تأسيس الكوفة. وقد تمَّ فَتْحُها سنة ١٢هـ/٦٣٣م من قِبَلِ خالد بن الوليد[1].

تَجْمَعُ آراء المؤرِّخين والبلدانيين العرب على أن القائد سعد بن أبي وقاص يُعَدُّ هو المؤسس الأول للمدينة، وأنه قد اختار موضعها وأمر بتخطيطها بعد فترة من الانتصارات التي حقَّقها العرب في حربهم ضد الفرس في جبهة المدائن. وكما هي الحال تماماً في مسألة اختيار وتمصير مدينة البصرة، فإن العوامل العسكرية لعبت دوراً أساسياً ومركزياً في دَفْعِ سعد إلى التفكير بادىء ذي بدء في اتخاذ موضع أو مخيَّم للعرب المقاتلين، ولا سيما بعد أن أحرزت الجيوش العربية انتصاراً رائعاً في المدائن وباتجاه الشرق. فأظهرت هذه المتغيِّرات العسكرية حاجة ماسة إلى أن يتخذ العرب مستقرًّا لهم وللعوائل المرافقة لهم، شريطة أن تتوافر في هذا الموضع المنتخب الشروط والمستلزمات التي شدّد عليها المسؤولون العرب آنذاك، ألا وهي أن تكون على اتصال سهل ووثيق بمركز الخلافة لكي تصبح عملية وصول الإمدادات والاتصالات الأخرى مع المركز سهلة وميسورة، وكذلك لكي تطابق الاستراتيجية العسكرية العربية في مسألة الانسحاب عندما يواجه العرب المقاتلون مصاعب عسكرية إلى الصحراء. بذلك كان تعبير (على طرف البر) أو (قريب من الريف) أو (على طرف الصحراء) من التعابير التي تتضمَّن ذلك المدلول العسكري. وقد تجلّى هذا الموضوع بوضوح في اتخاذ كلٍّ من البصرة والكوفة. فيحدثنا التاريخ أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بعد أن أطّلع على مواصفات مدينة المدائن التي اتخذها سعد بن أبي وقاص، في بداية الأمر، مقرًّا له وللمقاتلين، وبصورة خاصة، تلك المميِّزات التي أبرزت مساوئها الاستراتيجية العسكرية، كتب كتاباً إلى سعد ناصحاً إياه في أن يتخذ موضعاً مناسباً وقائلاً له (لا تجعل بيني وبينهم ـ يعني العرب ـ بحراً) وفي رواية أخرى وَرَدَ نصُّ خطاب الخليفة بأن (لا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف). وهناك رواية ثالثة في هذا الصدد لها أهمية

---

(١) الطبري ج٣ ص٣٤٤ ـ ٣٤٦، د. كاظم الجنابي: تخطيط مدينة الكوفة (بغداد ١٩٦٧) ص١٠، ١٩.

خاصة، إذ تبيّن مدى اهتمام الخليفة في مسألة اختيار الأمصار أو المواضع التي اجتمع فيها المقاتلون، إذ تشير هذه الرواية إلى أن الخليفة عيَّن اثنين من روّاد الجيش وهما سلمان والآخر حذيفة، وأَمَرَ سعداً أن يوجّههما ليرتادا مكاناً على أن يكون (برياً بحرياً ليس بيني وبينكم بحراً ولا جسراً)[1]. الواقع أن هذه الأقوال المتعدّدة التي تُنْسَبُ إلى الخليفة، إنما تبرز سِمَة مشتركة في تأسيس الكوفة والأمصار الأخرى التي اختطها العرب ألا وهي تَوَافُقها مع المفهوم الاستراتيجي العسكري في تلك الفترة المبكرة من تاريخنا. والملاحظ أن مثل هذه السِّمة لا نجدها تتكرّر ثانية في الفترات اللاحقة وبعد أن استقرت عمليات الفتح، إذ صار تعبير (على طرف البر) أو (على طرف الصحراء) لا يتلاءم وظروف الانتصارات الساحقة التي حقّقها العرب بعد دَحْرِهِم الفرس في القادسية والمدائن وإصطخر، إذ انسابت هذه الجيوش في مناطق واسعة تفصلها عن مركز القيادة جبال وأنهار متشابكة وجسور.

ومع كل ذلك، فإنه من الجدير ذِكْرُهُ، أن تركيز العرب الأوائل على مسألة تأمين طرق المواصلات والإمدادات من المدينة في الموضع المنتخب وكذلك على أن يكون هذا الموضع على طرف البر لا يعني أبداً افتقار الفَهْم العربي لطبيعة التمدُّن أو اقتصاره على ضرورة توافر العوامل العسكرية المرحلية في المدن التي اتخذوها، بمعنى آخر أن ما تمَّ ذِكْرُهُ ينبغي أن لا يكون قاعدة عامة على العوامل المساعدة على نشوء المدن العربية العديدة، ومنها الكوفة بشكل خاص. وذلك لأننا إذا ما دققنا في القصة التأريخية لتأسيس مدينة الكوفة نرى بجلاء بروز مستلزمات وشروط أخرى إلى جانب المستلزمات العسكرية منها:

١ - المفروض أن يتخذ العرب المقاتلون المدائن مركزاً عسكرياً لهم بعد دَحْرِهِم الفرس في القادسية ودَفْعِهِم عن العاصمة القديمة، المدائن، باعتبارها كانت تقوم بوظيفة العاصمة، فضلاً عن استقرارها عمرانياً واجتماعياً. وهي فوق ذلك كلّه، ستهيّىء ظروفاً إيجابية ومنافع غير

---

(١) أنظر البلاذري: فتوح ص٢٧٤، الطبري: ج٤ ص٤١، ٤٢.

قليلة بالنسبة إلى أمور التموين والإمداد العسكري الذاتي للجيوش العربية التي كانت آنذاك تتعقّب فلول جيوش يزدجرد. غير أن الحيطة والحذر والترقّب لأيّ هجوم معاكس، كانت تُعَدُّ من المقوّمات العسكرية لفتح مناطق جديدة لا يمكن الاستغناء عنها وهذا ما يوضحه لنا أمْرُ الخليفة في توجيه عتبة بن غزوان إلى البصرة لمشاغلة أهل الأهواز وعرقلة إمداداتهم للفرس في المدائن.

فالحقيقة أن العرب لم يجدوا في بداية الأمر معابر للعبور نحو المدائن، وظلّوا يبحثون عن منافذ بديلة إلى أن عثروا على مخاضة عند قرية تقع في أسفل المدائن فعبروها بخيولهم، لذلك لا بدَّ من القول إن القيادة آنذاك قد وضعت في تفكيرها جانب الحيطة والحذر من الناحية العسكرية، إذ ربما يستجمع العدوّ قواه فَيَشِنُّ هجوماً مفاجئاً تكون فيه الجيوش العربية أمام مفاجأة غير متوقعة لا يمكنها العودة أو الانسحاب السريع. لذلك، فإن عملية تَرْكِ المدائن بعد اعتراض الخليفة على مواصفاتها وبعد أن أقام فيها العرب فترة من الزمن تدخل ضِمْنَ هذا التفكير العسكري.

٢ ـ وتعكس أقوال بعض المؤرّخين والجغرافيين العرب عناصر تمدُّنية جديدة من عدم تقبُّل العرب المدائن وقرارهم في تَرْكِها وهي عناصر صحية ومناخية. ويمكننا في هذه الحالة اعتبارها من العوالم الضاغطة في نَبْذِ العرب مدينة المدائن وتحوُّلهم عنها. فقد وَرَدَ أن الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب إلى سعد بن أبي وقاص كتاباً استفسر فيه عن جملة أمور مهمة، إذ قال (أنبئني ما الذي غَيَّرَ ألوان العرب ولحومهم) وهي إشارة تتعلّق بأن الخليفة شاهد هذه الملامح عندما قَدِمَ عليه وَفْدُ أهل الكوفة. وقد أجاب سعد قائلاً (إن العرب خددهم(*)(*) وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة). وكان لجواب

(*) خددهم تعني أضعفهم، البلاذري: ص٢٧٤، الطبري: ج٤ ص٤١.
(*) كفى تعني غير أو بدل.

الخليفة الأثر في اتخاذ قرار تَرْكِ المدائن ويفيد الجواب أن العرب لا يلائمها من البلدان والمناخ إلا تلك التي تلائم إبلهم. وقيل في رواية أخرى (إلا ما أصلح الشاة والبعير) أي أنه ربط بين طبيعة البادية المناخية والمكان الذي سيكون مقرًا لهم ولعوائلهم. وفيما يتعلّق الأمر بآثار وخومة مناخ المدائن على أحوال العرب وتصرُّفاتهم، فقد وَرَدَ في مجال آخر أن العرب إنما كرهوا السكن في المدائن لأنهم استوخموها واستوبؤها وقد تذمَّروا كثيراً من المنطقة لكثرة الذباب والغبار. وذَكَرَ البلاذري أن منطقة المدائن يكثر فيها البعوض وقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة قائلاً إن الناس قد بُعِضوا وتأذّوا بذلك.

لذلك وبالنظر لهذه الظروف المناخية والصحية أرسل الخليفة توجيهاً إلى القائد سعد أن يبحث عن منطقة أخرى ملائمة لكي تكون مستقرًا ومخيَّماً للعرب. واعتماداً على ما ذَكَرَهُ الواقدي، فإن سعداً أراد في بداية الأمر أن يتخذ الأنبار مصراً غير أن الموضع كان يكثر فيه الذباب أيضاً فوجد الأنبار غير ملائمة فتحوَّل عنها أيضاً.

المهم أن الموضع الذي تمَّ الاتفاق عليه وهو موضع الكوفة لم يأتِ اختياراً اعتباطياً وسريعاً وهناك ثلاث روايات تاريخية مهمة تشير إلى تروّي القائد سعد وتدقيقه في الموضع قبل اتخاذ قرار الاستقرار به، فتفيد الرواية الأولى أن رجلاً يدعى عبد المسيح بن بقَيله (او نفيله) الغساني قد عرض على سعد أن يدلَّه على مكان يقع في أرض (انحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المباق) وفي رواية أخرى (ارتفعت عن المبقة). وكان هذا موضع الكوفة ويقال له سورستان. وتعكس هذه الرواية، بوضوح، الاهتمام بالجوانب المناخية الصحية فهي مرتفعة وخالية من الهوام والحشرات. أما الرواية الثانية فتفيد بأن الخليفة أمر سعداً أن يوجِّه كلًّا من سلمان وحذيفة، وكانا من روّاد الجيش، ليبحثا عن موضع يتصف بكونه برياً بحرياً فخرجا باتجاه مدينة الأنبار لكنهما لم يتفقا عليها، حينذاك توجه سلمان باتجاه الكوفة بينما سار حذيفة في شرقي نهر الفرات، ولم يرضَ

هذا عن مكان حتى أتي موضع الكوفة. وكان موضعاً يشتمل على عدد من الديارات منها دير حرقة ودير أم عمرو ودير سلسلة، فأعجبا بالبقعة لجملة خصائص. أما الرواية الثالثة فقد أوردها البلاذري وتفيد بأن سعداً ارتاد مع المقاتلين العرب، بعد تلقّيه توجيه الخليفة بأن يتحوَّل عن المدائن، كويفة بن عمر فوجدها منطقة تحيط بها المياه لذلك لم يعجب بها، لهذا السبب، فتركها وجاء إلى موضع الكوفة وأخذ يتجوَّل فيه حتى انتهى إلى مكان يدعى خدَّ العذراء حيث ينبت الأقحوان والخزامى والشيح والقيصوم والشقائق، فأُعْجِبَ به واختاره ليكون مدينة الكوفة[١].

## تخطيط المدينة:

تقدِّم الروايات التاريخية المتعلقة ببداية تخطيط موضع الكوفة عناصر تخطيطية متشابهة مع تلك التي وجدت في البصرة عند اختيارها وأهمها: بضع طوبوغرافيات للمنشآت ومؤسسات الإدارة، عدد من البيوت المتفرِّقة التي ينتظمها نظام قبلي، وحدات عمرانية قليلة، البساطة في هيئة الموضع.

ويبدو أن المقاتلين العرب قد استقروا في المرحلة الأولى في خيام وفساطيط، كما هي الحال في البصرة وذلك لأن الطبري أورد رواية مفادها أن العرب الساكنين في الكوفة استأذنوا من الخليفة في استخدام القصب لبناء وتشييد منازلهم. وكان جواب الخليفة على طلبهم هذا أن (العسكر أجدّ لحربكم وأذكى لكم، وما أحب أن أخالفكم) فسأل (وما القصب؟ قالوا العِكْرش إذا رُوِيَ قُصِّبَ فصار قصباً، قال: فشأنكم)[٢]. بذلك وافق الخليفة على اتخاذ القصب لأنه أراد من العرب الاستمرار في القتال لا الاستقرار، مما يستدلُّ على أنهم كانوا يسكنون الخيام والفساطيط قبل استبدالها بالقصب. وفي هذه الفترة فقط من تاريخ الكوفة التي لم تكن بعيدة عن سنة التأسيس ١٧هـ، وُضِعَتِ اللَّبِنات الأولى لخطط المدينة، تلك الخطط التي تميَّزت بها المدن

(١) البلاذري: فتوح ص٢٧٤، الطبري ٤ ص٤١، الزبيدي: الحياة الاجتماعية ص٢٢.
(٢) الطبري: ج٤ ص٤٣.

الإسلامية في هذه المرحلة وأولها المسجد الجامع ودار الإمارة وبيت المال ثم بيوت الناس وخططهم.

## المسجد الجامع:

يُعَدُّ المسجد الجامع في الكوفة، كما هي الحال في البصرة، أول وحدة طوبوغرافية اتخذها سعد بن أبي وقاص بعد اتخاذ قرار الاختيار. وكان في بداية الأمر مسجداً بسيطاً مبنيّاً بالقصب لوجوده بكثرة في منطقة بطائح الكوفة، وكانت هذه المادة هي التي استخدمت في بناء البيوت أيضاً، فكان العرب ينزعون القصب أثناء قيامهم بالحملات العسكرية ويتصدّقون به، إذ كانت نساؤهم معهم. ولعلّه من الصحيح القول إن عملية الهدم وإعادة البناء هذه لم تكن تشمل المسجد الجامع على اعتبار أن هذه العملية لا تعني إخلاء الموضع نهائياً من السكان الآخرين. وقد استمرت هذه الحالة، كما يشير المؤرّخين، إلى فترة قصيرة وعلى وجه التحديد، إلى أن نشب الحريق في الكوفة سنة ١٧هـ وكان حريقاً شديداً احترق بسببه ثمانون عريشاً (ولم يبقَ فيها قصبة)[١]. عندئذٍ وافق الخليفة على إعادة بناء وحدات المدينة مستخدمين اللِّبن والطين. فحدث تغيُّرٌ نوعيٌّ ملحوظ على بناء المسجد الجامع وبقية الوحدات العمرانية في المدينة. وتحدثنا الروايات التاريخية أن سعداً قد اختار أبا الهياج بن مالك الأسدي ليكون مشرفاً على تخطيط المدينة وسلّمه توصية الخليفة المهمة جداً في مسألة تخطيط الشوارع والدروب ونظام توزيعها[٢]. ويضيف الطبري قائلاً: إن أبا الهياج وقيل في رواية أخرى إنه كان سعد نفسه، قد اختطّ أولاً المسجد الجامع واتخذه في موضع صار فيما بعد يشتمل على باعة الصابون والتمّارين. وبعد أن اختطّ المسجد الجامع تمّ توزيع الخطط الأخرى حوله واتخاذ المسجد

---

(١) ن. م. عن المسجد الجامع، أنظر الزبيدي: الحياة الاجتماعية ص٢٧، البراقي: تاريخ الكوفة ص١١.

(٢) الطبري: ج٤ ص٤٤، ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٩١، كاظم الجنابي: تخطيط الكوفة ص ٧٤ ـ ٧٥.

مركزاً لتلك الخطط وقد ترك المسجد في (مربَّعة غلوة من كلِّ جوانبه)[1] ثم بُنِيَتْ له ظلّة في مقدمته. ولم يكن المسجد آنذاك يحتوي على مجنَّبات ومواخير. وصارت المربعة التي تحتوي المسجد مكاناً لاجتماع الناس كي لا يتزاحموا. وكانت سَعَةُ هذه الظلّة مائتي ذراع (حوالي ١٠٠م) قد بُنِيَتْ على أساطين من رخام. وزيادة في عَزْلِ المسجد عن بقية الوحدات وبشكل خاص بيوت الناس، فقد احتفر خندقاً حول الصحن كي لا يتجاوز أحد عليه بالبناء ـ وتضمَّنت توصية الخليفة، التي وضعها أبو الهياج نُصْبَ عينيه، الإشارة إلى المسجد الجامع وذلك أن يكون واسعاً لِيَسَعَ أربعين ألف مصلّياً وهي ربما كانت إشارة إلى عدد المقاتلين الموجودين.

ظلَّت مساحة المسجد على هذه الحالة زمناً غير قصير حتى ولاية زياد بن أبيه، فأزاد فيها لتصبح إمكانيتها أوسع وذلك لِيَتَّسِعَ ستين ألف مصلّياً. وقد أورد البلاذري رواية أخذها من أحد شيوخ أهل الحيرة تفيد بأن المسجد الجامع قد بُنِيَ من بعض أنقاض وحجارة قصور المناذرة في الحيرة[2]. ومن بين الإضافات الأخرى التي شهدها المسجد، إبان ولاية زياد بن أبيه، تلك المتعلقة ببناء الأبواب والجدران التي بلغ ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، كما أنه كَسَى أرضه بالحصى وكان قبل ذلك مَكْسُوًّا بالتراب، وبَنَى فيه مقصورة كما فعل في مسجد جامع البصرة. واتخذ فيه أساطين جَلَبَ رخامها وحجارتها من جبال الأهوار وكانت تُنْقَرُ ثم تُثْقَبُ وتُصَبُّ في ثقوبها الرصاص والحديد (السفافيد). بعد ذلك سَقَّفَ سقفه وجعل له مجنبات ومواخير. وبقي كذلك حتى ولاية الحجاج الثقفي على الكوفة فقام بهدمه وإعادة بنائه من جديد[3].

لقد أشاد الجغرافيون والمؤرِّخون بالمسجد الجامع في الكوفة من ناحية بنائه وسَعَتِهِ وكان، علاوة على وظيفته الأساسية في إقامة صلاة الجمعة، يلعب دوراً

---

(١) ن. م.

(٢) البلاذري: فتوح ص٢٨٤، الطبري: ج٤ ص٤٦.

(٣) الطبري: ج٤ ص٤٦، ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٩١، البراقي: تاريخ الكوفة ص١٦، كاظم الجنابي: المصدر السابق ص١٠٩. الحفائر الأثرية في المسجد سنة ١٩٣٨ ص١١٤ ـ ١١٥.

مهماً في المجالات الإدارية والسياسية. ويبدو أنه بمرور الزمن قد تعرَّض إلى الإهمال والخراب، وهو تغيُّر طرأ على مدينة الكوفة بصورة عامة لا المسجد الجامع فقط، وذلك لأنها صارت تواجه مشاكل واضطرابات عديدة أثَّرت على مكانتها. وعندما زارها الرحالة ابن جبير في فترة متأخرة، وجد الغامر منها أكثر من العامر وصار المسجد الجامع يسمّى بالجامع العتيق ووَصَفَهُ بأنه كان يقع في آخر المدينة مما يلي الجانب الشرقي منها، وكانت المسافة الواقعة بينه وبين المدينة خراباً لا عمارة فيها. ويبدو أن المسجد الجامع برغم هذه الظروف كان جامعاً كبيراً يحتوي جانبه القبلي على خمسة أبلطة، وكانت هذه الأبلطة مصنوعة من الحجارة ومنحوتة قطعة قطعة وقد فُرِّغ فيها الرصاص، وقد وُضِعَتْ على أعمدة من السواري. وأشار ابن جبير إلى محراب الإمام علي، ويقع في آخر هذا البلاط القبلي المتصل بآخر البلاط الغربي بناء يشبه مسجداً صغيراً يسمّى التنور توجد فيه آثار قديمة منها بيت بإزاء المحراب، وكذلك يوجد بيت صغير فيه قبر مسلم بن عقيل إلى الجانب الشرقي من المسجد، ووَصَفَ ابن بطوطة المسجد أيضاً ويبدو أنه اعتمد على وَصْفِ ابن جبير[1].

لقد مثَّل المسجد الجامع في الكوفة، كما هي الحال في مسجد البصرة والفسطاط، الوحدة العمرانية المركزية في المدينة، فكانت الأسواق تحيط به وتمرُّ به السكك الرئيسية، ثم إنه صار المِحْوَرَ الذي توزَّعت على أساسه المحلات والخطط السكنية، إذ يذكر البلاذري والطبري أن أبا الهياج بعد أن وضع خطط المسجد أمر رجلاً أن يقف في وسط خطط المسجد ويرمي بسهم من جهة القبلة فأمر من يريد أن يتخذ مساكنه في موقع السهم، ثم رمى بسهم آخر جهة الشمال وأعلم عن موقع السهم ومن يريد أن يتخذه مكاناً للسكن، ثم علا بسهم من قبل مهبّ الجنوب وأمر من يريد السكن فيه، وعلا بسهم من جهة مهبّ الصبا وعيَّن موضعه لمن يريده للسكن. أي بمعنى أن المسجد الجامع كان النواة المركزية للخطط السكنية. فيقال مثلاً إن خطط بني سليم

---

(١) ابن جبير: رحلة ص١٨٧ ـ ١٨٨، ابن بطوطة: رحلة (بيروت ١٩٦٨) ص١١٣.

وثقيف قد اتُّخِذَتْ مما يلي صحن المسجد ونزلت قبيلة بني أسد في جهة قبلة المسجد. كذلك يُذْكَرُ أن المناهج (الطرق) العظمى قد نُظِّمَتْ من وراء الصحن. والأهم من ذلك، دار الإمارة هو الآخر قد تحدَّد موضعه بالنسبة إلى اتجاه القبلة في المسجد الجامع[١].

## دار الإمارة:

كان قصر الملك ( أو ما يسمّى إدارياً بدار الإمارة) يقع عند بداية التأسيس حيال المسجد الجامع وكان هناك طريق منقب يربط بين الاثنين وتبلغ مساحة هذا الطريق مائتي ذراع. وكان بيت المال موضوعاً في هذه الفترة في دار الإمارة، فصار يُعرف بقصر الكوفة أو قصر سعد. ومما يذكر أن سعداً قد بنى على قصره باباً من خشب وخصَّ على القصر خُصّاً من قصب. ولما سمع الخليفة عمر بذلك أرسل من أحرق هذا الباب والخُصَّ المحيط بالقصر.

لقد بقي وَضْعُ دار الإمارة هكذا فترة من الزمن إلى أن وقعت حادثة سرقة لما كان موجوداً في بيت المال، فكتب سعد إلى الخليفة شارحاً له الحالة ومشيراً إلى أن بيت المال كان في قصره، فأمره بِنَقْلِ المسجد الجامع من موضعه السابق الى جنب دار الإمارة شريطة أن يجعل الدار إلى قبلة المسجد. وقد استند الخليفة في هذا العمل إلى أن المسجد الجامع سيكون مأهولاً بالناس، ليل نهار، فيحرسون بذلك بيت المال. ونَفَّذَ سعد رأيَ الخليفة وأراغ بنيانه. فصار المسجد حيال بيوت الأموال إلى نهاية القصر على يمين جهة القبلة، ووُسِّع بعد ذلك من الجهة اليمنى حتى رحبة الإمام علي. ثم وُسِّع أيضاً فصارت قبلة المسجد إلى الرحبة وميمنة القصر[٢].

## خطط الأهالي:

لقد مرَّتْ خطط ومحلات سَكَنِ المقاتلين العرب الذين رافقوا سعداً من

(١) البلاذري: فتوح ص٢٧٤ ـ ٢٧٥، الطبري: ج٤ ص٤٤، ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٩١.
(٢) البلاذري: فتوح ص٢٧٥، ٢٧٧، الطبري: ج٤ ص٤٦، كاظم الجنابي: ص١٤٣ ـ ١٥٠.

المدائن بثلاث مراحل: ـ كانت بيوتهم في المرحلة الأولى تجمع بين الخيام والمنازل المبنية بالقصب وكانوا أثناء الحركات العسكرية ينزعون ذلك القصب ويتصدقون به، فإذا ما عادوا مرة ثانية إلى الموضع أعادوا بناء بيوتهم من القصب،[1] الأمر الذي يوضح عدم استقرار الموضع وافتقاره إلى وحدة مدينية وافتقاره إلى الخطط والعمران. فضلاً عن ذلك، فإن الموضع كان آنذاك صغيراً في حجمه وكثافة سكانه. وعلى أثر الحريق الذي الْتَهَمَ ثمانين عريشاً في الكوفة، استأذن سعد وأهالي الكوفة الخليفة أن يسمح لهم باستبدال القصب باللِّبِن. وقد سبق أن ذكرنا أن الخليفة لم يوافق على طلبهم في بداية الأمر قائلاً إن العسكر أجدّ لحربكم بمعنى أن المعسكر أو المخيَّم الذي اتصف به الموضع لا يمكن اعتباره مدينة مستقرّة. وتحدثنا الرواية ذاتها أن الخليفة بعد أن علم بأمر الحريق وما سبَّبه من كارثة في الكوفة وافق على البناء باللِّبِن على شرط أن (لا يزيدَنَّ أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنّة تلزمكم الدولة)[2]. وقد تمَّ اختيار أبي الهياج الأسدي للإشراف على تنزيل الناس في خطط، فكانت هذه المرحلة هي الثانية في تخطيط الكوفة اجتماعياً. وقد قدَّم اليعقوبي والطبري رواية مفصَّلة عما أنجزه أبو الهياج الأسدي من مهمات في هذا الشأن، وتبيِّن معلومات اليعقوبي أن القاعدة الأساسية التي اتَّبعها أبو الهياج في مسألة التخطيط كانت قبلية وشخصية في آن. والواقع أن البلاذري يشير أيضاً إلى هذه القاعدة حينما أسهم أبو الهياج بين أهل اليمن ونزار بسهمَيْن فَمَنْ خرج سهمه أولاً كان له أن يختار الجانب الأيسر من الموضع وهذا أفضل الجوانب. فكان سهم أهل اليمن في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي، لكن البلاذري لا يفصل كثيراً عن وضعية خطط القبائل الأخرى. أما بالنسبة إلى اليعقوبي فإن خطط عبس صارت إلى جانب المسجد ثم تحوَّل قوم منهم إلى أقصى الكوفة، واختطَّ سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب الفزاري وقوم من قبيلة قيس حيال دار ابن مسعود. واختطَّ عبد الله

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٩١.
(٢) الطبري: ج٤ ص٤٤.

ابن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن حريث دُورهم حول المسجد وأقطع أعداداً من الأشخاص أراضي لبناء دُورهم، أمثال جبر بن مطعم وسعد بن قيس وشريح بن الحارث وأبي موسى الأشعري وحذيفة بن اليمان وعدي بن حاتم وسائر قبيلة طي من ناحية جبانة، وأقطع جرير البجلي وسائر قبيلة بجيلة قطيعة واسعة، وأقطع الأشعث بن قيس الكندي وقبيلة كندة قطيعة من ناحية قبيلة جهينة. ويبدو أن توزيع هذه القبائل على الموضع قد واجه مشاكل فيما بعد ولاسيما أن انتصارات العرب في الفتوحات قد شجَّعت قبائل وأفراداً آخرين للالتحاق بإخوانهم والسكن في الكوفة. فقد جاء الكوفة قوم من قبيلة الأزْد ولم تكن هناك خطة خاصة بهم فوجدوا فسحة تقع بين خطط بَجيلة وكِنْدة فنزلوها، كذلك لم تستطع قبيلة همدان أن تجد مكاناً لها فتفرَّقت مساكنها بين خطط القبائل الأخرى. وحينما نزحت قبيلة تميم وبكر إلى الكوفة سكنت خططاً في أطراف المدينة.

ويبدو من رواية اليعقوبي هذه أن هذه التقسيمات صارت الأساس الطوبوغرافي للمدينة وكان لكلٍّ قبيلة من القبائل جبانة تعرف بها أو باسم زعمائها[١].

أما رواية الطبري فكانت أكثر دقة من الناحية الوصفية والجغرافية من رواية اليعقوبي لأنها حدَّدت كلَّ خطة من الخطط الأخرى أو من المسجد الجامع أو من الصحن. فقد وَرَدَ فيها أن أبا الهياج بعد أن عيَّن المواضع الأربعة وفقاً لأماكن السِّهام التي رمى بها أحد الأشخاص من مخطط المسجد الجامع، ترك مربَّعة تابعة للمسجد، ثم حفر خندقاً حول الصحن ليعزل المسجد الجامع عما قد يحدث من تجاوزات ثم وزَّع المناهج أو سكك المدينة فكان في الودَعة من الصحن خمسة مناهج، ومن جهة قبلة الصحن أربعة مناهج، وجعل ثلاثة مناهج في شرقي الصحن وثلاثة مناهج أيضاً في جانب الصحن الغربي، وجعل لكلٍّ تلك من التوزيعات علامات مميِّزة، بعدئذٍ أنزل بني سليم وبني ثقيف في وَدَعة

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص٣١٠ ـ ٣١١، كاظم الجنابي: المصدر السابق ص٧٦ ـ ٧٨.

الصحن مما يليه على طريقين، وأنزل همدان على طريق، وبجيلة على طريق رابع وتَيْم اللات وتغلب على طريق خامس. كما أنزل في قبلة الصحن قبيلة بني أسد على طريق وجعل بين بني أسد وبين النخع طريقاً وكذلك بين بني النخع وكندة، وطريقاً بين كندة والأزد. ثم أنزل في الجانب الشرقي من الصحن حيث حدَّد ثلاثة طرق، الأنصار ومُزَيْنة على الطريق الأول وقبيلة تميم ومحارب على الطريق الثاني وبني أسد وعامر على الطريق الثالث. أما في الجانب الغربي من الصحن فكان هناك ثلاثة طرق فأنزل بجالة وبَجْلة على طريق وجَدِيلة وأخلاطاً من قبائل أخرى على طريق وجهينة وأخلاطاً على الطريق الثالث. ولم يكتفِ بذلك إنما وزَّع سائر الناس بين تلك الخطط التي تلي الصحن أو من وراء تلك الخطط[1].

لقد كان هذا التوزيع القبلي الذي اتخذ الطرق أو المناهج كأساس يمثِّل فهماً منظَّماً لطوبوغرافية المدينة ولا سيما إذا علمنا بأن أبا الهياج كان يسير وفقاً لتوصية الخليفة في قياسات هذه المناهج وأن يكون الرئيسي منها أربعين ذراعاً. وبنى الأهالي المناهج والطرق التي دون تلك المناهج الرئيسية وكان توزيع المحلات على جانِبَيْ هذه المناهج وفيما بينهما، وخصَّص في كلِّ خطة وطريق مواضع لأهل الثغور والموصل حين يعودوا إلى الكوفة. غير أنه عندما تكاثر حجم السكان بورود القبائل والأفراد على المدينة وترادفت الروادف ضاقت الخطط والمحلات بالناس. فما كان من أبي الهياج الأسدي المخطِّط الأول للمدينة إلا أن يواجه هذه المشكلة بالتوصل إلى حلول لها فكان حلُّه على الشكل الآتي:

من كان (من البطون والأفراد) رادفته كثيرة العدد عليه أن يترك المحلّة أو الخطة التي نزلها وأن يلحق برادفته، ومن كانت رادفته قليلة العدد أنزلهم منازل من شخص إلى رادفته لقلّة عددهم إذا كانوا جيرانهم، وإلا فإن عليهم أن يضيِّقوا على أنفسهم لكي يتاح المجال أمام روادفهم للسكن معهم. وبذلك

(١) الطبري: ج٤ ص٤٥.

احتفظت الكوفة بخططها السابقة، كما ظلَّ الصحن على وَضْعِهِ دون أن تتجاوز عليه المنازل والخطط، ويبدو أن الحلَّ كان مناسباً، إذ يعقِّب الطبري بأن القبائل لم تطمع في التجاوز على الصحن[١] برغم توافد الناس وتكاثرهم وتزاحمهم.

لقد تمثَّلت هذه المرحلة التأسيسية من وَضْعِ خطط منطقة للكوفة بخبرة أبي الهياج البارعة وإدراكه للمفهوم التمدُّني المتمثل باتخاذ حسابات التوسع التي قد تطرأ على الموضع أو الخطط التي رسمها من أجل الإبقاء على الوحدات والمؤسسات الإدارية والمدينية المهمة في المدينة كالمسجد ودار الإمارة ليكونا المحور المركزي لشكل المدينة.

ومما يجدر ذِكْرُهُ أنه بينما تضمَّنت قائمة اليعقوبي الآنفة الذكر إشارات إلى إقطاعات أو خطط أقطعها الخليفة أو سعد بن أبي وقاص أو أبو الهياج تحمل أسماء أفراد لا قبائل، نجد أن رواية الطبري قد أبرزت الطابع القبلي على الخطط التي رسمها أبو الهياج.

المهم أننا ينبغي أن لا نغفل أمراً مهماً في توصية الخليفة بشأن الشوارع والسكك في مرحلة تأسيس الكوفة. فقد أوضح اليعقوبي والطبري أن الخليفة أرسل كتاباً سلَّمه سعد إلى أبي الهياج بخصوص الطرق والدروب جاء فيه أن تكون المناهج أو الطرق الرئيسية أربعين ذراعاً وما دونها ثلاثين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً وأن تكون سَعَةُ الأزقّة (وهي دروب ضيقة) سبعة أذرع وبين الخليفة أن لا تكون الأزقّة أضيق من سبعة أذرع. أما بشأن المناهج أو الطرق الرئيسة في القطائع، فينبغي أن تكون سَعَتُها ستين ذراعاً[٢]. وبالفعل فقد التزم أبو الهياج كما هي الحال في مدينة البصرة بهذه الوصية في توزيع الخطط وتنظيم الشوارع والدروب.

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٤.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٣١٠، الطبري: ج٤ ص٤٤.

وبمرور الزمن أخذت خطط مدينة الكوفة تنتظم أكثر فأكثر خلال المرحلة التي أعقبت التأسيس وخاصة عندما قُسِّمَتِ المدينة إلى أسباع. إذ أورد الطبري رواية عن سيف بن عمر وآخرين تفيد بأن سعداً كتب إلى الخليفة عمر حول موضوع الأعشار التي خُصِّصَتْ ضِمْنَ الخطط السابقة إلى أهل الأيام والقوادس وأن بعضهم رجّح البعض الآخر رجحاناً كبيراً وطلب موافقة الخليفة أن يعيد النظر في خططهم وأن يُدخل بعض التعديلات عليها. وبعد حصوله على موافقة الخليفة، طلب سعد من قوم ممن له دراية ومعرفة بأنساب العرب وغيرهم من أصحاب الرأي عند القبائل، منهم سعيد بن نمران ومشعلة بن نعيم. فقام هؤلاء بإجراء تعديلات على الخطط وجعلوها أسباعاً. وصارت هذه الأسباع موزَّعة على القبائل، لكلٍّ قبيلة ومن حالفها سبع وفقاً للجدول الآتي:

١ ـ السبع الأول وصار من نصيب قبيلة كنانة وحلفائها من الأحابيش وغيرهم، وكذلك قبيلة جديلة وهم بنو عمرو بن قيس عيلان.

٢ ـ السبع الثاني صار لكلٍّ من قبيلة قضاعة ومنهم آنذاك غسان بن شبام وقبيلة بجيلة وخُثْعم وكِنْدة وحضرموت والأزْد.

٣ ـ السبع الثالث وخُصِّص لكلٍّ من قبيلة مذحِج وحمير وهمدان وحلفائهم.

٤ ـ السبع الرابع وصار لقبيلة تميم وسائر قبائل الرباب وهوازن.

٥ ـ السبع الخامس وخُصِّص لكلٍّ من قبيلة أسد وغطفان ومحارب والنمر وضُبيعة وتغلب.

٦ ـ وصار السبع السادس إلى قبيلة الأزْد.

٧ ـ أما السبع الأخير فكان لكلٍّ من قبيلة إياد وعكّ وعبد القيس وأهل هجر والحمراء[1].

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٨.

وقد استمر العمل وِفْقَ هذا النظام في خطط المدينة فترة من الزمن وقيل إنه طرأ بعض التعديلات زمن خلافة الإمام علي على هذه التجمُّعات القبلية[1].

على أية حال، يبدو أن النسابة وأصحاب الرأي والمشورة قد أفلحوا في جمع بطون وعشائر القبائل المختلفة وحلفائهم في خطط خاصة بهم، وبذلك تمَّت السيطرة على مسألة التزاحم والاضطراب في توزيع العشائر والبطون بحسب الخطط المختلفة والتي قد ترجع تسميتها إلى بطنٍ أو قبيلة تقطن في موضع أو خطة أخرى. والراجح أن هذا التوزيع المكاني المنظَّم قد لعب دوراً بارزاً في رسم هيئة وطوبوغرافية المدينة لفترة غير قصيرة. إذ بقيت على هذا المنوال أيام خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية حتى ولاية زياد بن أبيه على الكوفة. والمعروف أن هذا الوالي كان يجمع بين ولايتَيِ البصرة والكوفة وأنه قام بإنجاز عدد من المشاريع العمرانية في مدينة البصرة تقف على رأسها مسألة إعادة تنظيم المدينة وفقاً لنظام الأخماس، فجمع بطون القبائل المختلفة التي ترجع إلى نسب واحد وخصَّص لكلٍّ منها خمساً. ويبدو أنه نَقَلَ هذه التجربة في التنظيم بعد أن أثبتت نجاحها في قضايا توزيع العطاء على الأفراد والقبائل وكذلك في التعامل مع رؤساء القبائل، نَقَلَها إلى الكوفة فأجرى تعديلاً على خططها متَّبعاً نظام الأرباع بدلاً من الأسباع[2].

ويبدو أنها اتخذت هذا التنظيم الرباعي وصار سِمَةً لها بحيث يَصِفُها ابن الفقيه الهمذاني بقوله إنها كانت مدينة مربَّعة برية بحرية[3].

## الأسواق:

يحدثنا الطبري أن الكوفة عند تخطيطها في المرحلة الأولى قد خُصِّص صحنها ليتضمَّن المسجد الجامع ودار الإمارة والأسواق. وبقي كذلك كي لا تتجاوز عليه القبائل أو الأماكن السكنية. وكانت الأسواق في بداية الأمر غير

---

(1) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٢١.
(2) الطبري: ج٤ ص٤٨.
(3) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر البلدان ص١٦٣، ١٦٤.

محدَّدة بمكان واحد، ولا يضمُّها بناء واحد اعتماداً على قول الخليفة عمر إن (الأسواق على سنّة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته[١] أو يفرغ من بيعه) والظاهر أن أسواق الكوفة بقيت على هذه الهيئة غير المستقرّة فترة من الزمن. لكنها اشتملت فيما بعد على سوق وَصَفَهُ اليعقوبي أنه يبدأ من قصر الأمير والمسجد الجامع إلى دار الوليد ثم إلى القلائين وإلى دور ثقيف وأشجع[٢]، ويتجلى من هذه الرواية أن السوق القديم الذي كان بقرب المسجد الجامع هو الذي تطوَّر وتوسَّع بعد أن تثبتت إمكاناته وموقعه إلى سوق أو مجموعة أسواق، لكننا من المؤسف لا نملك معلومات دقيقة عما يشتمله هذا المجمع من أسواق ويبدو أنها كانت موزَّعة توزيعاً حِرَفِياً أو بحسب البضائع والتجارات. وقد ظُلِّلَ هذا السوق بالبواري[٣].

وحسبما يظهر أن هذا المجمع من الأسواق ظلَّ يمثّل السوق الرئيسية الوحيدة في مدينة الكوفة حتى فترة ولاية خالد بن عبد الله بن أسد القسري الذي يرجع نسبه إلى قبيلة بجيلة، إذ قام هذا الوالي بإنجاز مهم في هذا المجال وذلك بأن جعل لكلِّ صنف من الباعة والمحلات داراً أو سوقاً خاصة بهم وأنه جعل غلالها إلى الجند. ومما أورده البلاذري أن خالداً هذا قد بنى أيضاً الحوانيت وسقفها بسقوف من آزاج معقود بالآجُرّ والجصّ[٤]. كما اتخذ أخوه، أسد بن عبد الله القسري، سوقاً أخرى حملت اسمه، سوق أسد، وحوَّل الناس والحوانيت إليها. ولعلّها كانت سوقاً جديدة أو ملحقة بالسوق التي أسسها أخوه من قبل.

ومما يلفت النظر أن كلاً من الإصطخري وابن حوقل لا يشيران إلى مسألة الأسواق في الكوفة، وأنهما أوضحا، بصورة عامة، ضَعْفَ أهمية المدينة وأن ضمانها صار تابعاً لبغداد. لكنَّ المقدسي الذي زار المدينة بعد فترة من حياة

---

(١) الطبري: ج٤ ص٤٦.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٣١٠.
(٣) ن. م.
(٤) البلاذري: فتوح ص٢٨٤، اليعقوبي: البلدان ص٣١.

الإصطخري وابن حوقل يَصِفُ المدينة بأنها (جليلة الأسواق)[1]، مما يدلُّ على أنها كانت في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد تتضمَّن عدة أسواق لا سوق واحد.

لقد شهدت المدينة خلال القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد مصاعب ومشاكل سياسية تمثلت بهجمات القبائل البدوية وقرامطة البحرين، ومن المؤكد أن هذه المشاكل والتحدِّيات قد أثَّرت على وضعية المدينة وأهمية أسواقها وليس غريباً أن نذكر أن ابن جبير الرحالة حينما زار المدينة وجدها خربة ويرجع سبب خرابها إلى ما شنَّته قبيلة خفاجة من هجمات متكرِّرة على المدينة. ولم يذكر ابن جبير أيَّ إشارة إلى أسواقها. لكننا نرى فيما بعد ابن بطوطة الذي زار المدينة في الربع الأول من القرن الثامن للهجرة يشير إلى أنها تحتوي على أسواق حسان وأن أكثر ما يباع في هذه الأسواق التمور والأسماك[2].

## سور المدينة:

كان من البديهي أن تخلو مدينة الكوفة عند تأسيسها سنة ١٧هـ من السور وذلك لأنها كانت في تبدُّل وتوسُّع مستمرَّيْن، فضلاً عن انعدام الحاجة إلى السور لبقاء ارتباط الموضع بمركز القيادة العربية بشكل سهل وميسور. والمعروف أنه كما ذكرنا أن أبا الهياج الأسدي قد حفر خندقاً لكنه لم يكن حول المدينة، إنما جعله حول الصحن وهدف من ذلك إلى مَنْعِ أيِّ تجاوز يَحْدُثُ من قِبَلِ القبائل في مساكنهم على المسجد والصحن. ويرجع الفضل في بناء سور الكوفة، كما هي الحال بالنسبة إلى البصرة، إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. فاعتماداً على رواية محمد بن عمر الواقدي أن المنصور حفر

---

(١) الإصطخري: المسالك ص٥٨، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٧.

(٢) ابن بطوطة: (بيروت ١٩٦٨) ص١١٣.

خندقاً على الكوفة وبنى لها سوراً وجعل نفقات السور والخندق من أموال الأهالي. وقيل إنه فرض في بداية الأمر خمسة دراهم على كلّ فرد من الأهالي لكنه حينما علم بإحصائية سكانها أمر بجباية أربعين درهماً من كلّ فرد، فلما اجتمعت الأموال أَمَرَ بإنفاقها على بناء السور وحَفْرِ الخندق[١]. ولعلّ السبب السياسي هو العامل الأساس الذي دفع المنصور إلى بناء السور وحفر الخندق ولا سيما بعد حدوث حركة إبراهيم، ذي النفس الزكية، في البصرة. وكان حفر الخندق زيادة في تسوير المدينة ضد هجمات الأعداء، فكان يحيط بها دون السور ويأخذ ماءه من نهر الفرات ويَعْبُرُ بواسطة قناطر لها أبواب لتأمين النقل والمواصلات النهرية.

ولم يبقَ سور الكوفة طويلاً، إذ إن ابن حوقل والمقدسي لم يشيرا إلى وجوده. وحينما زارها ابن جبير في القرن السادس للهجرة، أشار بأن المدينة كانت خالية من السور، كذلك الحال عندما زارها ابن بطوطة.

## انحلال دور المدينة:

من الواضح أن الكوفة لعبت دوراً مهماً في التاريخ العربي الإسلامي وقد أسهمت خلال الفترات المبكرة في حياتها إسهاماً كبيراً في الجوانب العلمية والثقافية، فالمدرسة النحوية في الكوفة تمثّل واحدة من أهم المدارس النحوية في العالم الإسلامي حتى فترات متأخرة، كما أن المدينة أنجبت العديد من العلماء والمحدِّثين والفقهاء والقرّاء والوعّاظ والأدباء والشعراء، فضلاً عما تمتلكه من إرث تاريخي إداري لأنها أول عاصمة للخلافة الإسلامية الراشدة أيام خلافة الإمام علي بن أبي طالب. الأمر الذي ضاعف من أهميتها في الأحداث السياسية التي شهدها المجتمع العربي خلال القرن الأول للهجرة. ويبدو أنها بلغت أوجها في الأهمية والنشاط والازدهار خلال العصر العباسي الأول،

---

(١) الطبري: ج٨ ص٤٦.

العصر الذي ازدهرت فيه حياة المدن العربية الإسلامية في المجالات الاقتصادية والتجارية. من هذا المنطلق يذكر لنا البلدانيون موقع المدينة بالنسبة إلى طرق المواصلات التجارية السائدة آنذاك. فكانت المحطة التجارية للتجار الروس الخارجين من الأندلس بعد مرورهم بدمشق، ومنها يتوجهون إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى بلاد فارس.. الخ. وكان هناك طريق بريٌّ من الكوفة إلى مدينة دمشق عن طريق الحيرة، كما اشتهرت المدينة بوقوعها على طريق الحج النشط سنوياً. كذلك، فإن هناك طريقاً برياً يربط الكوفة بالبصرة عبر بادية الكوفة وبادية البصرة[1]. ويبدو أن الطريق النهري كان غير مشجِّع، إذ إنها كانت تقع على بطائح الكوفة التي وُصِفَتْ بكثرة تعرجاتها وتشعُّباتها، مما يصعب السَّير فيها بالقوارب، لذلك صارت أهميتها مشهورة في الطرق البرية. واشتهرت بصناعة الأنسجة والعطور وزراعة الفواكه والتمور.

إن عدم استفادة مدينة الكوفة من موقعها الجغرافي بالقرب من نهر الفرات للمواصلات التجارية النهرية قد يكون عاملاً مهماً في عدم استمرارية ازدهارها واشتهارها في عالم التجارة. صحيح أنها كانت تقع على طريق عدد من الطرق البرية لكنَّ نشاط العلاقات التجارية خلال الفترة العباسية كان أكثر بكثير من خلال الطرق النهرية والبحرية، ولهذا السبب استمرت البصرة وواسط، لوقوعهما على طريق التجارة إلى بغداد وبالعكس تلعبان دوراً فاعلاً. وكما ذكرنا سابقاً أن الكوفة كانت تقع على الطريق النهري الذي يمرُّ ببطائح الكوفة التي وَصَفَها الجغرافيون بأنها كانت صعبة المرور في حين كان طريق بغداد ـ واسط (بواسطة نهر دجلة) ـ بطائح واسط التي كانت خالية من التشعُّبات ـ ثم البصرة بواسطة شط العرب إلى الأحواز بواسطة فرع يتفرّع من نهر شط العرب ـ بينما يستمر نهر شط العرب جنوباً صوب الخليج العربي ـ إلى أقطار الخليج العربي والعالم الخارجي. والمعروف أن الملاحة النهرية كانت أسهل وأقلَّ تعرُّضاً للمخاطر.

(١) أنظر ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص١٨٠، ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٩٩، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٥٥.

ومما ينبغي الالتفات إليه أيضاً أن تأسيس مدينة بغداد واتخاذها عاصمة للخلافة العباسية يُعَدُّ من العوامل الرئيسية أيضاً في تضاؤل أهمية الكوفة التي سبق أن كانت عاصمة هي الأخرى. ويبدو أن تأثير تأسيس بغداد وقيامها بوظيفة العاصمة كان أكثر على الكوفة مما هي عليه الحال بالنسبة إلى البصرة بسبب القرب الجغرافي. فصارت بغداد مركز جَذْبٍ اجتماعي واقتصادي. وبناء على هذا التطوُّر نجد أن ابن حوقل يذكر في كتابه أن الكوفة صارت خلال فترته في القرن الرابع للهجرة (أعمالها وسوادها مضافة إلى ضمان مدينة السلام ومرفوعة أعمالها إلى دواوينها)[1]. ووَصَفَها المقدسي فيما بعد بأنها (بلد مختل قد خرب أطرافه وقد كان نظير بغداد)[2]. ووَصَفَها الرحالة ابن جبير بأنها (مدينة كبيرة عتيقة البناء وقد استولى الخراب على أكثرها فالغامر منها أكثر من العامر) وذَكَرَ في مجال آخر أن الجامع القديم كان يقع في آخرها مما يلي الجانب الشرقي من البلد، وكانت المنطقة المحصورة بين الجامع والجانب الشرقي خراباً لا عمارة فيها[3]. ووَصَفَها ابن بطوطة بأوصاف تشابه ما أورده ابن جبير.

ومن بين العوامل التي أسرعت في خراب المدينة في القرن الخامس للهجرة كما ذكر المؤرِّخون والرحالة تعرُّضها لموجة من الهجمات التي شنَّتها القبائل البدوية. إذ شهدت مدينة الكوفة ومنطقة الفرات الأوسط خلال تلك القرون هجرات بدوية متواصلة مصدرها البادية وقد تضرَّرت، في بداية الأمر، المراكز المتمدنة في المنطقة، كمدينة الكوفة، كثيراً من هذه الهجرات كما في حالة قبيلة بني أسد وخفاجة وعبادة وعقيل. لهذا فإنه ليس غريباً أن ينسب ابن جبير وابن بطوطة خراب الكوفة إلى قبيلة خفاجة التي كانت منازلها مجاورة للكوفة، معلِّقاً على ذلك بأنها أي خفاجة (لا تزال تضر بها)[4].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣١٥.
(٢) المقدسي: ص١٩٠.
(٣) ابن جبير: رحلة (بيروت) ص١٨٧، ابن بطوطة: رحلة ص١١٣.
(٤) ابن جبير: رحلة ص١٨٧.

## الجامعين:

يرجع أصل هذه الكلمة (الجامعين)، كما يبدو، مثنى كلمة جامع. وقد أورد البلاذري رواية تفيد بأن خالد بن عبد الله القسري، والي الكوفة، حفر نهراً في هذه القرية أطلق عليه اسم نهر الجامع ثم ابتنى له قصراً خاصاً به سمّاه قصر خالد، فالاسم إذن يُنسب إلى قرية تقع قرب مدينة الكوفة وأنها كانت إحدى ضواحيها، كما تبيِّن الرواية أن والي الكوفة رغب فيها فاتخذ قصره هناك. وأورد ابن سرابيون أن نهر سورا المتفرّع من الفرات كان يمرُّ بهذه القرية أو بالأحرى بالجامعين الحديث والقديم، وهي إشارة تفيد بأن هذه القرية كانت تضمُّ جامعَيْن أحدهما قديم والآخر جديد.

والواقع أن دور هذه القرية لم يظهر كثيراً خلال الفترة الأموية لكنَّ الاسم يبدأ في الظهور خلال العصر العباسي وتزايدت أهميتها بمرور الزمن ولا سيما من الناحية الاقتصادية أيام سيادة قبيلة بني عقيل على الفرات الأوسط. ثم صارت بعد ذلك المركز السياسي والإداري لقبيلة بني أسد وخاصة بني مزيد الذين اتخذوا في الجامعين منازل عربية.

والظاهر أن وضعية هذه القرية قد تحسنت كثيراً خلال القرن الرابع للهجرة فاعتبرها الإصطخري عبارة عن منبر صغير وهو تعبير قد يكون المقصود به مدينة صغيرة، وهذا بالفعل ما أشار إليه ابن حوقل الذي اعتمد على كتاب الإصطخري فوصف الجامعين بأنها مدينة. وأضاف المقدسي على هذا القول بأنها مدينة من مدن الكوفة. وذَكَرَها الجغرافي ابن سرابيون بأنها مدينة تقع غربي نهر سورا أو غربي نهر الفرات، كما قال ياقوت الحموي. ويُعَدُّ وَصْفُ ياقوت الحموي دليلاً واضحاً على تزايد حجم هذه المدينة، إذ قال إنها كورة وجعل مدينة الحلّة قصبة لها. ويبدو أن الجامعين امتزجت بالحلّة، مما جعل صاحب مراصد الاطّلاع يقول عنها إنها بلدة كبيرة نزهة.

وكان للجامعين طسوج زراعي تسقيه الأنهار المتفرّعة من نهر سورا الأسفل،

وقد أشار الإصطخري إلى أن هناك رستاقاً عامراً خصباً جداً يحيط بالجامعين[1].

الواقع أن أهمية هذه القرية أو البلدة الصغيرة من مدينة الكوفة بات أمراً واضحاً، وفوق ذلك فإن الجامعين صارت المحوَر الرئيسي الذي تطوَّر إلى مدينة مشهورة هي مدينة الحلّة، عاصمة المزيديين، والتي أخذت تحلُّ محلَّ الكوفة من النواحي الاقتصادية والإدارية في منطقة الفرات الأوسط. وذلك لأن بني مزيد قد أطلقوا على الجامعين بعد أن اتخذوا فيها منازلهم العربية اسم حلّة بني مزيد وتحوَّل الاسم فيما بعد إلى الحلّة.

**الحلة:**

تشير الروايات التاريخية إلى أن الأمير المزيدي، صدقة بن مزيد، يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لمدينة الحلّة، إذ اتخذ مدينة الجامعين غربي نهر الفرات موضعاً له ولقبيلته. ومدينة الحلّة تحتل موقعاً جغرافياً وتراثياً مهماً، إذ إنها بالقرب من مدينة بابل المشهورة ومقابلة لها.

ليس هناك معلومات وافية عن تخطيط المدينة، لكنها، حسبما يبدو، مدينة تطوّرت على حساب الجامعين، المدينة الصغيرة التي كانت خططها ومعالمها واضحة. والمعروف أن أصل مدينة الجامعين قرية صغيرة نَمَتْ حول الجامع الجديد الذي تأسّس فيها. وقد اقتصرت أهميتها على أنها قرية زراعية يحيط بها طسوج زراعي خصب جداً. وقد أسّس المزيديون حينما اختاروا الجامعين منازلهم العربية فيها، وربما يُقْصَدُ بالمنازل العربية الخيام والفساطيط، وأن الأمير صدقة قد جدَّد وعمَّر الدُّور والمباني فيها فصارت المدينة تحتوي على الدُّور الفاخرة والمساكن الجميلة، وابتنى لها سوراً يحيط بها لكنه يبدو أنه

(1) أنظر عن الجامعين: الإصطخري مسالك ص٨٧، ابن حوقل: ص٢٤٥، ابن سرابيون: عجائب الأقاليم السبعة ص١٢٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٥٣، ١١٤، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٣٢٣، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ج١ ص٣٠٧، د. عبد الجبار ناجي: الإمارة المزيدية في الحلة ص٢٤٨ ـ ٢٥٢.

خرب أثناء زيارة ابن جبير فلم يبقَ منه غير (حلق من جدار ترابي مستدير)[1]. واستحدث صدقة فيها الأسواق التي كانت حافلة بالبيع والشراء. ولعلَّ من الصحيح القول إن المدينة قُسِّمَتْ إلى محلات، بعضها اتخذ اسم الجماعات أو الأقوام التي قطنتها، كمحلّة الأكراد، وذلك لأن المزيديين استخدموا الأكراد والتركمان في جيوشهم.

المهم أن دور مدينة الحلّة قد تجاوز كونها مستقرًا لبني مزيد وعاصمتهم الإدارية، فتطوّرت إلى محطة تجارية في الطريق البرّي بين بغداد والكوفة، وتضاعفت أهميتها هذه حينما صار طريق الحجاج يمرّ بها سنوياً قبل التوجُّه إلى مكة. لذلك قَصَدَها الناس فوُصِفَتْ بكثافة سكانها، واعتماداً على أقوال الجغرافيين والرحالة إن المدينة صارت تشرف على منطقة واسعة وتشتمل على عدة قرى ومواضع تابعة لها مثل الصروات والقنطرة وحصن بشير والمشترك والنيل التي كانت تُعَدُّ من مدن الكوفة، كما ذكر المقدسي، لكنَّها صارت ضِمْنَ منطقة الحلّة، واشتهرت هذه البلدة الصغيرة بكثرة نخيلها ومواشيها. كذلك صارت سورا تابعة لمدينة الحلّة والتي عدَّها المقدسي أيضاً بأنها كانت من مدن الكوفة، وكانت سورا على طريق المسافرين حيث يقصدها الناس، ولها طسوج زراعي اشتهر بإنتاج الحنطة والشعير والفواكه. أيضاً فإن قرية شوشة والمهاجرين وبرملاحة والغامرية صارت من بين القرى والمواضع التابعة إدارياً لمدينة الحلّة[2].

ووُصِفَتْ أسواق مدينة الحلّة بأنها حافلة بالصناعات الضرورية والمرافق المدنية، لذلك السبب قَصَدَها التجار وأصبحت من أفخر البلاد. فاشتهرت بكثرة الخيول العربية الأصيلة، وبنخيلها حتى إن ابن جبير ذكر بأن منازل الحلّة ودُورها كانت بين الحدائق[3].

---

(1) ابن جبير: رحلة ص١٨٩، ياقوت: ج٢ ص٣٢٢. وعبد الجبار ناجي: الإمارة المزيدية ص٢٥٣ ـ ٢٦١.

(2) أنظر المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٧، ٥٣، ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص٢٩، ياقوت الحموي ج٣، ص١٩٨، ٨٤٣، كذلك أنظر ابن جبير ص١٨٩، بنيامين التطيلي: الرحلة.

(3) ابن جبير: ص١٨٩، وعن خيول الحلة ابن الجوزي: ج٩ ص٢١٨ ج١٠ ص١٢.

## الفصل الثالث

# الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع ـ القاهرة

ترتبط هذه المجموعة من المدن ارتباطاً قوياً بالمدينة الأم الفسطاط، لذلك فإن وَضْعَها بهذا الشكل له دلالته بالنسبة إلى التحوُّلات التي طرأت على الفسطاط وصولاً بمدينة القاهرة.

والمعروف أن الفسطاط (مصر) مدينة قد تضمَّنتها قائمة الأمصار الإسلامية السبعة، وتجمعها وبعض الأمصار، ولا سيما البصرة والكوفة، روابط مشتركة أهمها أنها قد تأسست كنتيجة من نتائج الفتوحات الإسلامية، ولذلك فإن العوامل العسكرية قد لعبت دوراً بارزاً في اختيارها ومن ثم وَضْع خططها ووحداتها العمرانية المختلفة. كذلك فإن المادة الأساسية لسكان الفسطاط ترجع إلى قبائل عربية متعددة كما هي الحال في البصرة والكوفة. وقد ظلَّت الفسطاط بعد تأسيسها تقوم بوظيفة المصر والعاصمة لمصر وأفريقيا فترة من الزمن، فشهدت خلال هذه الفترة تطوُّرات عمرانية وسكانية كبيرة جداً، إذ تعدَّدت خططها ومحلاتها وأسواقها وجوامعها ودروبها، وذاع صيتها في المجالات الثقافية والاقتصادية حتى صارت تضاهي بغداد في الكبر والأهمية.

لقد تباينت الآراء حول تفسير كلمة الفسطاط وصيغة تلفُّظها، فمنهم من رأى أنها فسطاط بالضمّ بينما رأى آخرون بأنها فسطاط بالكسر في الوقت الذي يضع آخرون شكل الكلمة باسم فساط بالضم ويجعلها البعض الآخر على شكل فستاط. ومع وجود هذه الاختلافات، فإن المتَّفق عليه عند أغلب الجغرافيين والمؤرِّخين فسطاط. أما بخصوص معنى الكلمة، فإن هناك رأياً يشير إلى أن

«فسطاط» ارتبطت بالخيمة التي اتخذها قائد جبهة فَتْحِ مصر عمرو بن العاص في هذه المنطقة قبل أن يتوجَّه لِفَتْحِ بابليون والاسكندرية وكانت عبارة عن خيمة من الشعر، ويؤيد هذا التفسير مجريات الأحداث التاريخية لقصة فَتْحِ مصر والاسكندرية. وهناك تفسير آخر لكلمة الفسطاط وتعني ضرباً من الأبنية، بينما يرى رَأْيٌ آخر بأن المقصود بها مجتمع أهل الكورة حَوْلَ المسجد الجامع فيقال لمثل هذا التجمُّع هؤلاء أهل الفسطاط، كما وجد البعض الآخر في الحديث النبوي الشريف أن الرسول (ص) قال (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط) فالكلمة كما أوضحها ابن قتيبة تعني المدينة حيث يجتمع فيها الناس وفي هذا المعنى وَرَدَ بأن كلَّ مدينة تدعى فسطاط[1]. لكنَّ الجغرافيين والمؤرِّخين العرب يميلون إلى أن أصل الكلمة فسطاط ويُقصد بها الخيمة أو الفسطاط الذي اتخذه عمرو بن العاص.

ومن الناحية الأخرى، فقد اختلفت الآراء أيضاً في مسألة تأسيسها وتمصيرها أو السنة التي اتخذ فيها العرب الفسطاط. وهو اختلاف يرتبط بحقيقة الأمر بالاختلاف السائد بين المؤرِّخين حَوْلَ سنة فَتْحِ مصر والاسكندرية. فمنهم من يجعل فَتْحَ مصر سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م، وقد ذهب إلى هذا الرأي كلٌّ من محمد ابن عمر الواقدي وابن سعد وأبي معشر وأيَّده الطبري حيث قال إن مصر فُتِحَتْ في تلك السنة. وفي الجانب الآخر يرى سيف بن عمر أن مصر قد فتحت سنة ست وعشرين للهجرة، بينما يرى آخرون أن فَتْحَها قد تمَّ سنة ٢١هـ/ ٦٤١م، وأن الاسكندرية قد تمَّ فَتْحُها بعد عام، أي سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م. وفي الوقت الذي تجتمع فيه آراء هؤلاء الرواة والمؤرِّخين على أن فَتْحَها قد تمَّ في حوالي العشرين سنة من الهجرة، فإن هناك رواية تفيد بأن عَمْرَ بن العاص قد أشار على الخليفة عمر بن الخطاب عندما قَدِمَ إلى الجابية سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، بأن يأذن له بالتوجُّه نحو مصر لِفَتْحِها قائلاً (إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين

---

(١) أنظر عن اختلاف الصيغة ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٢٦٣، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج٣ ص٣٢٥، ٣٢٦، ابن منظور: لسان العرب (مادة فسط) وعن المعنى ـ أنظر أيضاً ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب (تحقيق عبد المنعم عامر) ص١٣٣، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بيروت) ص٢ ـ٣.

وعوناً لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً وأعجزها من القتال والحرب)[1]. الأمر الذي يشير إلى أن سنة توجُّه عمرو بن العاص إلى مصر كانت سنة ١٨هـ. والحقيقة أن هذه الاختلافات في وجهات النظر حول سنة التأسيس تذكِّرنا بما سبق في مسألة البصرة والكوفة، وحسماً لها فإننا نستطيع القول بأن اختيار الموضع وتأسيس المصر وتمصيره قد امتدَّ من سنة ٢٠هـ إلى ٢١هـ أو ٢٢هـ.

إن الأكثر أهمية بالنسبة إلى حقل التمدُّن العربي الإسلامي في قصة توجُّه القائد عمرو بن العاص نحو مصر وفَتْحِهِ إياها عدة عناصر وأمور أهمها: أن الروايات التاريخية تؤكد بأن الخليفة الثاني حينما انتهى من فَتْحِ بلاد الشام كتب أو أوعز إلى عمرو بن العاص أن يتوجَّه إلى مصر في بداية الأمر، وقد رافق عَمْرَ بن العاص خلال هذه المرحلة قوة من المسلمين تُقَدَّر بأربعة آلاف رجل ينتمون إلى قبيلة علكّ، وفي رواية أخرى كانت القوة حوالي ٣٥٠٠ رجل وأن ثلثهم من قبيلة غامق. ويبدو أن هذه الحملة كانت استطلاعية على الرغم من معرفة عمرو بن العاص بأحوال مصر السياسية. بعد ذلك، أرسل الخليفة إمدادات جديدة تراوحت بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف مقاتل برفقة الزبير ابن العوام وآخرين من الصحابة كالمقداد بن الأسود وعبادة بن صامت. ولقد وَرَدَ ما يؤيد محتويات هذه الرواية حول مجموع المقاتلين الذين دخلوا مصر بعد أن استولى عليها العرب، فقد كان القبط حينذاك في أكثر من ستة آلاف ألف بينما كان مجموع المسلمين خمسة عشر ألفاً[2]. فالعناصر التمدُّنية التي أوضحتها هذه الرواية تتمثل بعدد سكان الفسطاط في مرحلة التأسيس وانتماءاتهم القبلية.

## اختيار موضع الفسطاط

كذلك فإن قصة فَتْحِ عمرو بن العاص لمصر تحتوي على معلومات مهمة

(١) البلاذري: فتوح (جعل مسيرة عمرو سنة ١٩هـ) ص٢١٤، الطبري: ج٤ ص١٠٤ ـ ١٠٥ ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٨٠ ـ ٨١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٢ ص٣٩٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج١ ص٦٤ ـ ٦٦.

(٢) البلاذري: فتوح ص٢١٤، ٢١٥، ياقوت الحموي: ج٤ ص٢٦٢.

بالنسبة إلى الدوافع الرئيسية التي دفعت هذا القائد إلى البحث عن موضع للجيوش العربية ومن ثم اختياره لموضع الفسطاط. كما انها ستبيِّن لنا الشروط والمستلزمات التي رَسَمَها الخليفة والقائد عمرو في قرار الاختيار والتمصير فالرواية تشير إلى:

١ ـ أن عَمْرَ بن العاص قد اتخذ خيمة من الشعر (بمعنى فسطاط) حينما كانت قواته تحاصر حصناً هو حصن قصر الشمع. وقد اتخذ هذه الخيمة التي تعني الموضع الذي تجمَّع فيه المقاتلون العرب وتمثِّل مقرَّ القيادة.

٢ ـ أعقب هذا الحصار انتصار العرب وفَتْحُهُم حصن قصر الشمع (فكان على أثر ذلك أن تراجع العدو إلى الاسكندرية، فما كان على عمرو إلا أن يتخذ قرار التوجُّه نحو الاسكندرية تلك المدينة القديمة الكبيرة). وبعد مسيرة عمرو إلى الاسكندرية أُهْمِلَ ذلك الفسطاط باعتباره لا يمثِّل أيَّ وحدة طوبوغرافية ثابتة. ولأنه لم يتخذ مِصراً بعد. في هذه المرحلة تبرز الروايات أن الخيمة على الرغم من إهمالها لم تقوَّض لوجود حمامة قد باضت في فترة التوجُّه نحو الاسكندرية، ولم يحبِّذ عمرو بن العاص تقويض الخيمة لذلك السبب.

٣ ـ على أثر الانتصار الذي حقَّقه العرب على العدو في الاسكندرية التي فُتِحَتْ عنوةً بغير عهد ولا عقد، وفَرْضِ عمرو الجزية والخراج على أهاليها، بات من اللازم عليه أن يتخذ مكاناً محدَّداً للمقاتلين العرب. وفي هذه الفترة بالذات عُرِضَتْ أمامه عدة خيارات أهمها خيار الاسكندرية، وذلك لأن الاسكندرية تتمتع بموقع جغرافي واستراتيجي مهم، كما أنها مدينة مستقرّة، وكما وَرَدَتْ في رواية ابن عبد الحكم أن عَمْرَ بن العاص رأى بيوتها وبناءها وجمالها فأعجب فيها وقال هذه (مساكن قد كفيناها) غير أن القرار لم ينفَّذ وذلك لأن الاسكندرية مدينة قديمة لا تتلاءم والتفكير العسكري

العربي في اتخاذ المدن، كما أنها غير مأمونة تجاه أيِّ هجوم بحري نهري مفاجىء قد يقوم به العدو فتكون كارثة. وبالفعل فإن عَمْرَ بن العاص عندما همَّ في اتخاذ الاسكندرية، كتب إلى الخليفة في الحصول على الموافقة، فاستفسر الخليفة عن صفات هذه المدينة وسأله فيما إذا كان يفصلها عن مركز الخلافة (ماء) بمعنى نهر، فأجابه عمرو بأن هناك نهر النيل، حينئذٍ اعترض الخليفة مشيراً إلى القاعدة الأساس التي تمثلت باتخاذ البصرة والكوفة قائلاً له (إني لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف) وفي رواية أخرى أنه قال لعمرو (لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر)[1]. فعرض عمرو بن العاص مشورة الخليفة على جماعته لاختيار موضع آخر، هنا ظهر رَأْيٌ بالعودة إلى الخيمة (الفسطاط) التي سبق أن كانت مقرًّا للقيادة. وقد شدَّد أنصار هذا الرأيِ على عدة أمور، إذ قالوا (نرجع أيها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء). فالماء والصحراء هما العنصران البارزان اللذان يمثلان استراتيجية العرب في اتخاذ الأمصار، أي أن يكون الموضع المنتخب قريباً من مشارب المياه، وكذلك على طرف البر ومتصل بالصحراء.

وبذلك، فإن انتقال عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط أدى بالضرورة إلى انتقال كرسي الإدارة من الاسكندرية أيضاً فصارت الفسطاط هي المركز الإداري والسياسي بعد أن كانت الاسكندرية.

## خطط المدينة:

تشير الروايات التاريخية عن المرحلة الأولى لتأسيس الفسطاط إلى أن هناك

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٣٢، ١٣٣، ياقوت الحموي: ج٤ ص٢٦٣، المقريزي: خطط ج٧ ص٤٩ ـ ٥٠.

تفهُّماً في مسألة تخطيطها ولم يكن هذا الأمر عشوائياً. فكما هي الحال في تخطيط البصرة والكوفة، فإن عَمْرَ بن العاص أولى مهمة إسكان العرب ووَضْع خطط محلاتهم وفقاً للقاعدة القبلية إلى مجموعة من الأشخاص ممن لهم دراية ومعرفة بالأمور الهندسية وأنساب العرب وممن كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي على قبائلهم وهم: معاوية بن حديج التجيبي وشريك بن سمي القطيفي أو الغطيفي وهو من قبيلة مراد وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل (وقيل جبريل) بن ناشرة المعافري. فكان هؤلاء هم الذين أشرفوا على توزيع القبائل والسيطرة على النزاعات التي دارت بين الأفراد حول اتخاذ المواضع الملائمة. ونتيجة لذلك اختطَّ العرب خططهم وبنى الناس الدُّور والمساجد فَعُرِفَتْ كلُّ خطة باسم القبيلة والجماعة التي اختطَّتها وفي بعض الأحيان حملت الخطط أسماء أشخاص متنفِّذين قاموا باختطاطها.

## المسجد الجامع:

ليس من الواضح تماماً فيما إذا كان عمرو بن العاص عند قدومه ثانية إلى فسطاطه واتخاذ داره أو قصره (المعروف بالدار الصغرى) مكان ذلك الفسطاط قد تمَّ قبل اختطاطه المسجد الجامع أم العكس. والمعروف أن داره الصغرى هذه كانت بحذاء المسجد الجامع وداره الكبرى التي ربما بُنِيَتْ بعد تلك الدار التي كانت إلى جنبها، ومن المحتمل أن المسجد والدار قد تأسسا في آن، إذ تَرِدُ رواية أن عَمْرَ بن العاص حينما رجع من حصاره وفَتْحِهِ الاسكندرية سأل أحد أصحابه وهو قيسبة بن كلثوم التجيبي من بني سوم أن يتنازل عن موضع سبق أن اختاره أو نزله أثناء حصار المسلمين لحصن قصر الشمع، ويبدو أنه كان بجوار الفسطاط أو قريباً منه. وأن قيسبة هذا وافق على ذلك قائلاً (إني أتصدق به على المسلمين) فسلَّمه إلى المسلمين وتحوَّل مع قومه بني سوم في خطة تُجيب. بذلك اختطَّ المسجد الجامع سنة ٢١هـ/٦٤١م، بمساحة ويبلغ طوله خمسين ذراعاً وعرضه ثلاثين ذراعاً. ويقال إنه وقف على إقامة قِبْلَتِهِ ثمانون رجلاً من الصحابة بينهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري وغيرهم، وكانت مشرقة جداً. وكانت

المنطقة التي بُنِيَ فيها المسجد محاطة بالحدائق والأعناب، لذلك فإن المسلمين اضطروا إلى نَصْبِ الحبال حتى استقام لهم وحدَّدوا قبيلته. واتخذ عمرو المنبر، لكنه كان خالياً من محراب مجوَّف في هذه الفترة وأن قرة بن شريك، عامل الوليد بن عبد الملك، قد جعل المحراب المجوَّف أيام الأمويين. وكان للمسجد بابان يقابلان دار عمرو بن العاص وبابان آخران في جانبه البحري وبابان في جانبه الغربي. فكان، كما ذكر ابن دقماق، الخارج من زقاق القناديل يواجه ركن الجامع الشرقي محاذياً ركن دار عمرو الغربي. ولم يكن للمسجد في هذه المرحلة صحن وكان الناس يصلّون في فنائه. أما المسافة التي كانت تفصل بينه وبين دار عمرو فقد قُدِّرَتْ بسبعة أذرع. والجدير بالذكر أن المسجد الجامع اتُّخِذَ أيضاً مِحْوَراً مركزياً للمدينة، فقد ذُكِرَ أن الطريق الرئيس كان محيطاً به من جميع جوانبه. وأن قريشاً والأنصار وأسلم وغفار وجهينة قد اتخذوا خططهم حول المسجد.

لقد شهد المسجد الجامع في الفسطاط (الذي صار يسمّى بمسجد عمرو بن العاص وسمّي في الفترات التاريخية المتأخرة بالمسجد أو الجامع العتيق) إلى عدة تطورات من إضافات وتحسينات وزيادات وعمليات هدم وبناء أهمها ما كان زمن ولاية مسلمة بن مخلد بن صامت الأنصاري الذي ولّي مصر أيام معاوية سنة ٤٧هـ/٦٦٧م، وقد بدأت أعماله فيما يتعلق بالمسجد الجامع سنة ٥٣هـ/ ٦٧٢م، فزاد في المسجد من الجانب البحري واتخذ له رحبة في هذا الجانب وبيَّضه وزخرفه لكنه لم يغيِّر في بنائه القديم، ووسَّع المسجد أيضاً من جانبه الشرقي حتى ضاق الطريق الذي يربطه بدار عمرو بن العاص. وفرش أرضه بالحصر وكان مفروشاً بالحصى، وقيل إنه جعل للمسجد أربع صوامع في أركانه الأربعة. وفي فترة ولاية عبد العزيز بن مروان، أخي عبد الملك بن مروان، تعرَّض المسجد الجامع للهدم سنة ٧٩هـ/٦٩٨م، وأعاد بناءه فزاد في مساحته من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة. وهدم المسجد مرة أخرى أيام ولاية قرة بن شريك العبسي سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م، واستغرقت عملية إعادة بنائه مدة سنة فنصب فيه منبراً جديداً سنة ٩٤هـ بدلاً من المنبر الذي اتخذه عمرو بن العاص. وكان قرة قد وسَّعه في هذه العملية من جانبه القبلي والشرقي بحيث

اضطر إلى أن يأخذ دار عمرو وابنه عبد الله فأدخلهما في المسجد وصار للجامع أربعة أبواب. وفي زمن ولاية صالح بن علي بن عبد الله العباسي أثناء خلافة السفاح زاد في مؤخرة المسجد وأدخل فيه دار الزبير بن العوام. كما أدخل الوالي موسى بن عيسى أثناء خلافة الرشيد زيادة في رحبة المسجد. ومن بين الزيادات والتحسينات الأخرى التي شهدها المسجد الجامع تلك التي قام بها صاحب الخراج أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع أيام الخليفة العباسي المعتصم، إذ نُسِبَتْ إليه الرحبة التي استحدثها والمحراب في الجانب الغربي من المسجد.

وتعرَّض المسجد الجامع سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م، إلى حريق أشعل ثلاث حنايا من باب إسرائيل إلى رحبة الحارث والزيادات التي أدخلها عبد الله بن طاهر والرواق، فقام خمارويه بن أحمد بن طولون بإعادة بنائه وعمارته وولّي أحمد ابن محمد العجيفي على تلك العملية وكتب خمارويه اسمه في دائرة الرواق وظلت تلك الكتابة موجودة إلى أيام ابن دقماق في القرن التاسع للهجرة.

ومن بين الأوصاف التي وَرَدَتْ في وَصْفِ المسجد الجامع في الفسطاط وَصْفٌ يرجع إلى سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م نذكره للتدليل على بقاء هذا المسجد طيلة تلك الفترات التاريخية جاء في الوصف أن مساحته قد قُدِّرَتْ بثمانية وعشرين ألف ذراع وأن مساحة صحنه قُدِّرَتْ بخمسة آلاف ذراع وصار يحتوي على ثلاثة عشر باباً لكلٍّ منها اسم خاص ويشتمل على أربعة وعشرين رواقاً وثلثمائة وثمانية وستين عموداً وثلاثة محاريب وخمس صوامع[(١)].

## دار الإمارة:

وقد سمِّيَتْ بدار عمرو بن العاص. ويبدو أن عَمْراً قد نزل على أثر عودته من الاسكندرية في فسطاطه الذي كان قد ضربه أثناء الحصار الذي فرضه

---

(١) أنظر عن المسجد الجامع ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٣٣ ـ ١٣٤، ١٤١، الإصطخري: المسالك ص٣٣٧ ـ ٣٤٠. أنظر أيضاً ياقوت الحموي: ج٤ ص٢٦٥. مقالة al-Fustat في EI.².

العرب على حصن قصر الشمع وقد ذكر ابن عبد الحكم أنه كان في موضع الدار التي صارت تُعرف، خلال فترة حياته، بدار الحصى وهي عند دار عمرو الصغيرة. وكان لعمرو، حسبما يبدو من تسميته الدار الصغيرة والدار الكبيرة، داران تلك التي أخذت محلَّ الفسطاط والتي كانت عند باب المسجد الجامع حيث يفصل بينهما طريق يبلغ طوله سبعة أذرع والأخرى التي كانت ملاصقة بها وإلى جانبها. وكان للمسجد بابان يقابلان باب دار عمرو بن العاص، وذكر أن طول دار عمرو من القبلة إلى الغرب يساوي طول المسجد الجامع بين هاتين الجهتين. ويبدو أن هذه الدار تعرَّضت إلى تبدُّلات عدة، ولا سيما أثناء قيام الولاة بتعمير المسجد الجامع وتوسيعه، فحدث مثل ذلك أثناء ولاية قرة بن شريك الذي زاد في المسجد من جهته الشرقية والقبلية، فاضطر إلى أن يأخذ دار عمرو وابنه وأدخلهما في المسجد الجامع. على هذا الأساس فإنه من الصحيح القول بأن دار الإمارة، التي أسسها عمرو، المجاورة للمسجد الجامع قد انتهى دورها بحدود سنة ٩٢هـ، ولم يَعُدْ هناك طريق يربط بين الدار والمسجد الجامع لأن قرة قد أدخل هذا الطريق أيضاً ضِمْنَ عملية توسيع المسجد الجامع. وكان كلُّ أمير أو والٍ يتخذ داراً خاصة به أثناء الفترة الأموية. فقد بنى عبد العزيز بن مروان، والي عبد الملك، داراً عظيمة في الفسطاط سنة ٦٧هـ/٦٨٦م، أطلق عليها اسم دار الذهب وبنى لها قبة مذهَّبة. ويبدو أن هذه الدار كانت واسعة جداً حتى إن الناس أخذوا يطلقون عليها اسم (المدينة) لكبر مساحتها. لكتنا لا نعتقد بأنها كانت تمثِّل دار الإمارة التي تجاور المسجد الجامع وذلك لوجود دار عمرو بن العاص آنذاك. ويحتمل بأنه بعد اندماج دار عمرو بالمسجد الجامع، صار دار الذهب محلاً لإقامة الولاة، فقد نزلها أبناء عبد العزيز بن مروان ثم نزلها بعد ذلك آخر خلفاء بني أمية، مروان ابن محمد. ولكنه حينما أصبح في موقف عسكري محرج أمام الجيوش العباسية تركها بعد أن أحرقها فلم يبقَ في الفسطاط دار إمارة. وحينما قَدِمَها صالح بن علي الهاشمي كأمير لأبي العباس السفاح ابتنى له داراً للإمارة جديدة صارت هي الدار التي اتخذها ونزلها الأمراء العباسيون من بعده إلى فترة ولاية أحمد ابن طولون. إذ إن هذا الوالي نزل في بداية الأمر في تلك الدار التي ابتناها

صالح الهاشمي لكنه بعد ذلك ابتنى قصراً جديداً عُرِفَ بالميدان وكان يقع بين قلعة الجبل والمشهد النفيس وقد ابتنى ابن طولون هذا القصر عام ٢٥٦هـ[١]/ ٨٦٩م. ويبدو أنه كان داراً واسعة أيضاً إذ وَرَدَ بأنه كان يضمُّ عدة أبواب تطلُّ على جامع ابن طولون والمشهد النفيس وهو دليل واضح على ابتعاد دار الإمارة عن المسجد الجامع القديم للفسطاط.

ومن المفيد ذِكْرُهُ، أن هذا القصر صار بمرور الزمن الوحدة العمرانية الأساسية في نشوء وتطوُّر قطاع جديد أو بالأحرى مدينة جديدة ضِمْنَ مدينة الفسطاط التي التي تسمّى بالقطاع التي سنأتي على ذِكْرِها.

وكان بيت المال يقع ضِمْنَ مجموعة المسجد الجامع + دارة الإمارة، إذ أورد ابن دقماق وصفاً لأبواب المسجد الجامع العتيق قائلاً إن هناك ثلاثة أبواب في الجانب البحري منه وكان هناك أيضاً بيت المال الذي في علو الفوارة. وقيل إن بيت المال في المسجد الجامع قد بناه أسامة بن زيد التنوخي سنة ٩٩هـ/٧١٧م وكان آنذاك متولي خراج مصر[٢]. وهناك رواية ترجع إلى زمن معاوية بن أبي سفيان توضح بأن بيت المال هذا كان يطلق عليه الديوان، كما هي الحال في البصرة، وكان إلى جانبه منزل لمولى من موالي عمرو بن العاص[٣].

## خطط الأهالي:

سبق أن أشرنا أن عَمْرَ بن العاص قد عيَّن جماعة من أصحابه، ممن كان لهم دراية ومعرفة وممن كانوا من أصحاب النفوذ على قبائلهم، للإشراف على توزيع الأفراد والقبائل المشاركة في فَتْحِ مصر وإسكانهم، وذلك حينما ظهر تنازع فيما بينهم حول الأماكن المفضلة والقريبة من المسجد الجامع. ومما له علاقة بالموضوع أن تعداد المقاتلين في هذه المرحلة كان يتراوح ما بين اثني

---

(١) أنظر عن دار الإمارة: ابن عبد الحكم ص١٣٣، ١٣٩، ابن دقماق: ص٦٢، ٦٣ ص١٢١.
(٢) ابن دقماق: ص٦٤.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص١٤١.

عشر ألفاً وخمسة عشر ألفاً من قبائل مختلفة. وبالفعل فقد قام هؤلاء الأشخاص بتوزيع خطط المدينة وفقاً للقاعدة القبلية، فضلاً عن اتخاذ عدد من الأشخاص المتنفذين خططهم ودُورهم الخاصة ضِمْنَ تلك التوزيعات القبلية أو في مواضع أخرى. ومن الجدير بالذكر، أن هذه الدور أو الخطط الخاصة قد طرأ عليها تغيُّرات عبر الفترات التاريخية. إن الذي يهمّنا في موضوع خطط أهالي الفسطاط تلك التي وزِّعت على عموم القبائل لا الأفراد. ولِحُسن الحظ فإن هناك قائمة مفصَّلة بهذه الخطط والقبائل التي قطنتها وهي على الشكل الآتي:

### ١ ـ خطة أهل الراية:

وهي الخطط التي اتخذتها مجموعة من القبائل حول دار عمرو بن العاص والمسجد الجامع، ويبدو أنها كانت خطة واسعة تقع في وسط المدينة وقد سكنها كلٌّ من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وثقيف ودوس وعبس وجرش وهم من بني كنانة وليث بن بكر وغيرهم ممن كان في الراية ولم يكن لعشيرته عدد. ويرجع تسمية هذه الخطة، أهل الراية، إلى كونهم يمثلون أفراداً أو جماعات قبلية قليلة العدد جعل لهم عمرو بن العاص راية وأمرهم الوقوف تحتها، فاتخذ ذلك الموضع خطة لهم وصارت تنسب إلى تلك الراية. وقد دُوِّنَتْ أسماؤهم في الديوان تحت هذا الاسم أيضاً. وتُعَدُّ هذه الخطة من أوسع الخطط وأعظمها وقد أورد ابن عبد الحكم عدداً من خطط ودُور وأسواق هذه المجموعة القبلية، فكانت خطة قيس بن سعد بن عبادة قبالة المسجد الجامع وفيها داره المعروفة بدار الفلفل، واختطَّ مسلمة بن مخلد دار الرمل، واختطَّ عقبة بن عامر الجهني داره في سوق وردان، واختطَّت قبيلة ثقيف خطَّتهم في ركن المسجد الجامع الشرقي إلى جنب خطة السراجين، واختطَّت أسلم خططها مما يلي دار العمد لأبي ذر الغفاري وكان لدار الغفاري باب يطلُّ على زقاق القناديل والآخر على دار بركة. وكان في خطط أسلم سوق بربر وسوق الحجامين.. وكانت خطط بني ليث الذين كانوا مع عمرو بن

العاص عند أصحاب القراطيس. واختطّ بنو بحر وهم قوم من الأزد مما يلي خطة بلي التي وقفت يمين راية عمرو بن العاص[1].

## ٢ ـ خطة مهرة:

ويرجع نسب مهرة إلى بني مهرة بن قضاعة بن مالك بن حمير وهي من القبائل اليمانية. يذكر ابن عبد الحكم أن بني مهرة اختطّوا خطّتهم أول دخولهم دار الخيل حتى جبل يشكر. وقد ضمّت هذه الخطة مسجداً عليه قبة سوداء. ومن الممكن تحديد مساكن هذه القبيلة بالنسبة إلى أهل الراية بأنها كانت إلى الجانب القبلي منها، مما يلي منازل سعد بن أبي سرح. ويبدو أن عَمْرَ بن العاص قد نَقَلَ مهرة من موضعهم وضمَّهم إليه فتعطلت خططهم الأولى. والتقت خططهم الجديدة بخطط بني غافق وبني الصدف[2].

## ٣ ـ خطة تُجيب:

وهؤلاء هم من بني عدي وسعد ابنَي الأشرس وهم من قبائل كندة، نسبتهم إلى أمهم تُجيب. وامتدت خططهم حتى خطط مهرة والصدف من الشمال وبني غطيف وقبائل بني مراد غرباً. وكانت تضمُّ مسجداً خاصاً أيضاً[3].

## ٤ ـ خطط بني لخم:

وكانت تتألف من ثلاث خطط خُصِّصَتْ الأولى لبني لخم بن عدي بن مرة ابن أدد ومن خالطهم من قبيلة جذام. أما الثانية فكانت لبني عبد ربه بن عمرو، وصارت الثالثة لبني راشدة بن أذنب بن لخم أيضاً. وقد حدَّد ابن عبد الحكم موقع هذه الخطط بأنها في الجانب القبلي من خطة ثقيف مما يلي سوق أو

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح ص١٤١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٠، ابن دقماق: ص٣، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٢٧.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح ص١٦٤، القلقشندي: ج٣ ص٣٢٧.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح، القلقشندي: ج٣ ص٣٢٧.

محلّة السراجين. وامتدت خططهم إلى بني مهرة. وكانت هنالك عدة مساجد في خططهم لِسَعَتِها[1].

### ٥ ـ خطط اللفيف:

ويرجع سبب تسميتهم اللفيف لأنهم كانوا أفراداً من قبائل متعدّدة تسارعوا إلى سفن ومراكب الروم حينما وصلت إلى الاسكندرية بعد فَتْحِها، فأطلق عليهم عمرو بن العاص تسمية اللفيف لكثرتهم وفقاً لما جاءت به الآية الكريمة﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء] وقد طلب هؤلاء من عمرو أن يفرد لهم خطة، لكنَّ عشائرهم امتنعت وفضّلوا أن يجتمعوا وإياهم في خطة واحدة. لذلك كانوا مجتمعين في الخطط ومتفرّقين في الديوان. وقد أرجع ابن دقماق نسب أغلبيتهم فقال إنها من الأزد ومن بني حجر وغسان وشجاعة ونفر من جذام ولخم وتنوخ[2].

### ٦ ـ خطط أهل الظاهر:

وهم نفر من القبائل الذين عادوا من الاسكندرية بعد اتخاذ الفسطاط وتوزيع خططها على القبائل. وعندما وجدوا العرب قد استقرّوا في خططهم اشتكوا الأمر إلى معاوية بن حديج (الذي كان مشرفاً على مسألة توزيع السكان) فقال لهم (إني أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل) فسُمّوا لهذا السبب بأهل الظاهر. ومن بين هذه القبائل التي سكنت الظاهر العتقاء وهم مجموعة من القبائل كانوا يقطعون الطريق على من يأتي الرسول (ص) وبعد أسْرِهِم أعتَقَهُم. وكان لهم مسجد وسوق[3].

### ٧ ـ خطط بني غافق:

وهؤلاء هم بنو غامق بن الحارث بن الأزد، من القبائل اليمانية. وحدَّد ابن

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح ص١٦٤ ـ ١٦٥، ابن دقماق: ص٣.
(٢) ابن دقماق: ص٣، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٢٧.
(٣) ابن عبد الحكم: ص١٦٥، ابن دقماق: ص٤.

عبد الحكم خططهم قائلاً إنها تقع بين قبيلة مهرة وخطط لخم وامتدت إلى الصحراء ووصلت من جهة القبلة إلى خطط الصدف ومهرة. وقد وُصِفَتْ بأنها واسعة لكثرتهم. إذ كانوا حوالي ثلث مجموع المقاتلين الذين جاءوا مع عمرو ابن العاص. وتشتمل خطّتهم على دروب ومساجد. وكان لأحد بطون غافق وهم الربانيون، خطة مستقلة فيها مساجد أيضاً. وقد علّق ابن عبد الحكم على خطط غافق بأن لها من الخطة أكثر مما قد ذكر في الكتاب وأنه قد ذكر أهمها فقط[1].

٨ ـ خطط الصدف:

وهم بطن من قبيلة كندة ينسبون إلى حضرموت وهم من بني مالك بن سهل ابن عمرو بن قيس بن حمير. وتقع خطّتهم في الجانب القبلي من مهرة[2].

٩ ـ خطط خولان:

ويرجع نسبهم إلى خولان بن عمرو بن مالك بن يزيد بن عريب. وتقع خططهم في الجانب الشرقي للوجه القبلي للحصن وامتدت حتى التقت بخطّة غطيف في الشرق وتُجيب في الشمال[3].

١٠ ـ خطط مذحج:

ويرجع نسب مذحج إلى مالك بن مرة بن أدد بن زيد بن عبد الله بن ناجية، وكانت خططهم تقع بين خطط خولان وتُجيب.

١١ ـ خطط الفارسيين:

ويشير المؤرّخون إلى أنهم من بقايا جند باذان، وهو عامل كسرى الفارسي

(١) ابن عبد الحكم: ص١٦٦ ـ ١٦٨، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٢٨.
(٢) ابن عبد الحكم: ص١٦٨، ابن دقماق: ص٤.
(٣) ابن عبد الحكم: ص١٧١، ابن دقماق: ص٤.

على اليمن قبل الإسلام ثم اعتنقوا الدين الإسلامي في بلاد الشام ورغبوا في الجهاد، فانضموا إلى جيش عمرو بن العاص لِفَتْحِ مصر. وكانت خطَّتهم مجاورة لخطط خولان.

## ١٢ ـ خطة يحصب:

نسبة إلى يحصب بن مالك بن أسلم بن زيد وهو حيّ من المدن. ويذكر ابن عبد الحكم أن حضرموت وبطن من يحصب كانوا فيهم قد اختطّوا خطة عند الصفا.

## ١٣ ـ خطة رعين:

نسبة إلى رعين بن زيد بن سهل وهم حيّ من اليمن أيضاً، وكانت خطَّتهم إلى شرقي خطط خولان.

## ١٤ ـ خطة بني الكلاع:

نسبة إلى الكلاع بن شرحبيل بن سعد بن حمير، من اليمن، وخطَّتهم متصلة بخطة بني رعين إلى الجانب البحري من مسجد الاقدام.

## ١٥ ـ خطة المعافر:

وهو المعافر بن يعفر بن مرة بن أدد وقد اختطّوا مع الأشعريين والسكاسك إلى الشرق من خطة الكلاع.

## ١٦ ـ خطط القبائل المنسوبة إلى سبأ:

ومن هؤلاء بنو مالك بن زيد، والسلف وبنو هجران وكانت خططهم بين بني معافر وحضرموت.

## ١٧ ـ خطة بني وائل:

ويرجع نسبهم إلى وائل بن زيد مناة بن أياس بن حرام بن جذام. وتقع

خطَّتهم في مهبّ الشمال، وكان الفارسيون يقطنون في خطَّتهم بين طائفة من بني وائل وبني يحصب.

## ١٨ ـ خطة القبض:

أو كما وَرَدَتْ عند ابن دقماق القبص وهم بنو القبض بن مرثد.

## ١٩ ـ خطط الحمراوات:

سُمِّيَتْ هذه الخطط بالحمراوات لنزول الروم بها وكان العرب يسمّونهم بالحمر لاحمرار وجوههم. وقد انقسمت إلى ثلاثة مجاميع.

(أ) خطة الحمراء الدنيا وكان يشغلها بنو بلي وهم من قضاعة، وقسم منهم كان من أهل الراية أيضاً. ثم خطة ثراد بن الأزد وخطة بني فهم بن عمرو بن قيس عيلان وخطة بني بحر وهم من الأزد.

(ب) الحمراء الوسطى: وكان بها خطة بني نبه وهم جماعة من الروم حضروا الفتح. وفيها أيضاً خطة بني هذيل بن مدركة، وخطة بني سلامان من الأزد.

(ج) الحمراء القصوى وهي خطة بني الأزرق وكانوا من الروم عددهم حوالي (٤٠٠) رجل قد حضروا الفتح. كذلك تقع فيها خطة بني يشكر من لخم وينسب إليهم جبل يشكر الذي بنى عليه أحمد بن طولون جامعه[١].

## خطط حضرموت:

وهم بنو حضرموت بن عمرو منهم من اختطّ خطّته في الصفا ومنهم الذين قَدِموا أيام الخليفة عثمان بن عفان فقد اختطّوا شرقي خطط الصدف.

---

(١) أنظر عن هذه الخطط ابن عبد الحكم: فتوح: ص١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ابن دقماق: ص ٤ ـ ٥، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٢٨ ـ ٣٢٩. وقد أشار ابن دقماق إلى بني روبيل ضمن خطة الحمراء القصوى ورربيل اسم يهودي رافق عَمْرَ بن العاص من الشام إلى مصر (ابن دقماق: ص٥).

نلاحظ من القائمة المفصَّلة السابقة لخطط مدينة الفسطاط بأن العمود الفقري للسكان كان عربياً قبلياً وتغلب عليه القبائل اليمانية مع وجود مجموعات قليلة غير عربية فارسية ورومانية لا تشكِّل إلا نسبة ضئيلة من السكان. ويبدو أن عدد سكان الفسطاط أخذ يتضاعف بمرور الزمن فلم يَعُدْ خمسة عشر ألفاً فقط، كما كان خلال المرحلة التأسيسية، إذ يشير ابن عبد الحكم إلى أن أناساً كثيرين قد وفدوا المدينة منذ خلافة عثمان بن عفان حتى كثر البنيان فيها وانسدَّت الثغرات التي كانت موجودة بين خططها.

## الدروب والأزقة:

لم يُشِرْ ابن عبد الحكم وغيره من المؤرِّخين المصريين إلى مسألة توزُّع الشوارع والسكك والنظام الذي خضع له هذا التوزيع، في الوقت الذي كانت فيه شوارع ودروب الكوفة والبصرة موزَّعة بحسب قياسات قد اتُّفِقَ عليها. ولكن يبدو أن تعبير الزقاق في مصر يحمل مضموناً أوسع مما هو عليه في مدن البصرة والكوفة. فكان في هاتين المدينتين يمثِّل أضيق مسلك في المدينة، فكان عرضه سبعة أذرع (حوالي ٥/٣م). أما في مصر فكان الزقاق أكثر عرضاً لأن الشارع كان فرعاً من الزقاق. وكان زقاق القناديل من بين الأزقة الرئيسية في مدينة الفسطاط فضلاً عن كونه من الأزقة التي ارتبطت بتوزيع خطط الفسطاط خلال المرحلة التأسيسية. فيذكر ابن دقماق اعتماداً على القضاعي أنه من الخطط القديمة في الفسطاط وإنما سُمِّيَ بزقاق القناديل لاحتوائه على عدد من منازل الأشراف حيث كانوا يضعون على أبوابها القناديل، وقيل إنه سُمِّيَ بذلك لوجود قنديل يوقد ليلاً كان على باب دار عمرو بن العاص، وبالفعل فإن هناك عدداً من دُور المسلمين الذين رافقوا عَمْرَ بن العاص في هذا الزقاق منها دار الفهريين نسبة إلى بني فهر ودار زكرياء بن جهم العبدري ودار أبي ذر الغفاري ودار الزبير. وكان لهذا الزقاق أربعة مسالك، يبدأ الأول منها من شارع خلف المسجد الجامع وأما الثاني فكان يُسلك إليه من درب القسطلاني ويُسلك الثالث إلى زقاق القناديل من زقاق تربة عفان وأما الرابع فإنه يُسلك إليه من سوق بربر. ويبدو أنه يمرُّ بالمسجد الجامع ودار عمرو بن العاص، والحقيقة أن الدار

الأخيرة تقع به. ويذكر ابن دقماق أن هذا الزقاق قد خرب في فترته واندثر وجوده[1]. يتجلّى لنا من خلال هذا الوصف أن زقاق القناديل يُعَدُّ درباً رئيساً تتفرَّع منه المسالك إلى الخطط الأخرى المجاورة.

ومما لا ريب فيه أن ابن دقماق قدَّم قائمة طويلة بأسماء الأزقة في مدينة الفسطاط يرجع تاريخ بعضها إلى المرحلة الأولى من تأسيس المدينة. والمهم في هذه القائمة أنها تبيِّن بأن أسماء العديد من هذه الأزقة قد حملت مضامين قبيلة وشخصية من أمثال زقاق بني جمح وزقاق بني حسنة وزقاق بني وعلة وزقاق بني الأشج وزقاق بني العوام وزقاق الزهري، وهو مولى لعمرو بن العاص، وزقاق ابن بلادة وزقاق ابن أبي الربيع وزقاق ابن وليد الصيرفي. كما أن هناك أزقة تحمل مضامين حِرَفِية ومهنية من أمثال زقاق العكامين وزقاق الغنامة وزقاق الغضارين وزقاق المسك وزقاق الشوك وزقاق التمارية، وكذلك هناك مجموعة من الأزقة تحمل مضامين إقليمية تُنْسَبُ إلى الأقوام التي سكنتها أمثال زقاق المغاربة وزقاق الموالي وزقاق الأندلسيين وزقاق الدهاقين وزقاق الأكراد وزقاق اليهود. وتوجد أزقة تُنسب إلى المساجد التي كانت هذه الأزقة تمرُّ بها من أمثال زقاق مسجد القبة بقصر الشمع، الزقاق الذي يمرُّ بمسجد بني عوف من قبيلة بلي. ويبدو أن كلَّ زقاق من هذه الأزقة كان يمثِّل وحدات سكنية، فزقاق بني جمح مثلاً كان قديماً بركة ينصرف إليها مياه ميضأة جامع عمرو بن العاص ثم اختُطَّتْ كزقاق وكان يسكنه جماعة من السادات والعلماء، وزقاق الطباخ وُصِفَ بأنه كان من أعمر خطط الفسطاط، وزقاق الضيق وَصَفَهُ ابن دقماق بأنه كان من أعمر أزقة مصر وكان يسكن به جماعة من الأعيان[2] وغير ذلك من الأزقة.

إلى جانب ذلك، فإن ابن دقماق ذكر قائمة مفصَّلة أخرى عن دروب الفسطاط التي يحمل بعضها أسماء قبائل وأشخاص وتجمُّعات قومية وإقليمية

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح ص١٤٢، ١٥٣، ١٥٦، ابن دقماق: ص١٣/ ١٤.

(٢) أنظر ابن دقماق: ص١٣ ـ ٢٥، وكذلك أنظر ابن عبد الحكم عن عدد من الأزقة ص١٥٦، ١٦١، ١٦٧.

ويحمل البعض الآخر أسماء أماكن وحِرَفٍ ومِهَنٍ متنوّعة. لكننا لا نعرف على وجه التحديد قياسات هذه الدروب وفيما إذا كانت دروباً تتفرَّع من الأزقة أم أنها كالأزقة سَعَة. ولعلَّ دراسة بعضها تفيد إلى أنها كانت دروباً أقل سَعَة من الزقاق وتنفذ إليه أو تتفرَّع منه مثل درب بني رصاص، وأن هناك زقاق بني رصاص فكان هذا الدرب داخلاً في الزقاق، ودرب النقليين وهو درب مجاور لزقاق متفرِّع عنه، ودرب الحبالين وهو درب يقود إلى زقاق، ودرب ابن معافي يقود إلى زقاق وهكذا. إن وجود أسماء دروب تحمل مضامين حِرَفِية أو مِهَنِية يثير تساؤلاً عما إذا كان هذا الدرب أو ذاك يعني محلّة لأصحاب هذه المهنة أم أنه يقوم بوظيفة سوق لأصحاب هذه المهنة، فهناك مثلاً درب اللوازين ودرب العداسين ودرب البقالين ودرب الحبالين ودرب الزيتون ودرب الصفافرين ودرب القصارين وغير ذلك من الأسماء[1].

ويَرِدُ في مدينة الفسطاط ذِكْرُ تعبير لم يُذْكَرْ في المدن العربية الأخرى كالبصرة والكوفة إلا نادراً، وهو الخوخة (جمعها خوخ). ولعلّها تشابه تركيب وسَعَةِ الأزقة الضيِّقة الموجودة في مدن البصرة والكوفة. هنا أيضاً ينفرد ابن دقماق في إعطاء قائمة مفصَّلة عن الخوخ في الفسطاط بعضها يمتُّ إلى فترة تأسيسها والبعض الآخر الى فترات تاريخية مختلفة. وفي هذه القائمة يجد القارىء أن بعض الخوخ يحمل أسماء أشخاص والبعض الآخر أسماء مِهَن وحِرَف من أمثال خوخة ابن كاتب الحميدي وقد سكنها جماعة من علية القوم، وخوخة المكين ابن عروس وله فيها دار كبيرة، وخوخة الفقيه نصر، والداخل فيها يجد أمامه مسجد الفقيه نصر، وخوخة السراج أخذت اسم أحد ساكنيها السراج الوراق الذي سكنها فترة طويلة. وهناك خوخة الرفايين وهي خاصة بمنازل رفائي القماش، وخوخة الرزازين وتوصل إلى سوق الرزازين، وخوخة القطانين كانت تقع في سوق القطانين[2].

(١) ابن دقماق: ص ٢٥ ـ ٢٩.
(٢) ابن دقماق: ص ٣٠ ـ ٣٢.

## أسواق الفسطاط:

اشتهرت الفسطاط عند الجغرافيين العرب بتعدُّد أسواقها وقيسرياتها وبنشاط الفعاليات التجارية فيها، فقال الإصطخري وابن حوقل إن في المدينة أسواقاً عظيمة ومتاجر ضخمة، وأضاف المقدسي إلى ذلك بقوله إنها حسنة الأسواق والمعايش عجيبة المتاجر[1].

لم توضح الروايات التاريخية التي تناولت بداية تأسيس الفسطاط شيئاً محدَّداً عن تخصيص مكان معيَّن ضِمْنَ خطط عمرو بن العاص ليكون سوقاً، وهناك رواية مهمة تتعلق بهذا الموضوع، فقد ذكر ابن عبد الحكم أن عَمْرَ بن العاص اختطَّ داراً للخليفة عمر بن الخطاب عند المسجد الجامع وكتب إليه بذلك، غير أن الخليفة أجابه بأنه في الحجاز فكيف تكون له دار في مصر، وأَمَرَهُ أن يجعل الدار سوقاً للمسلمين. حينئذٍ جُعِلَتْ هذه الدار التي كانت تُسَمّى بدار البركة سوقاً. على هذا الأساس، فإن أول سوق وُضِعَتْ خططها في الفسطاط كانت بالقرب من المسجد الجامع، والعجيب أن ابن دقماق لم يورد هذه الرواية ولم يذكر هذه السوق عند تحدُّثه عن دار البركة. وقد بيَّن ابن عبد الحكم أن سوق البركة هذه كان يباع فيها الرقيق. ويبدو أن توزيع خطط المدينة توزيعاً قبلياً قد ساعد على ظهور ونموّ أسواق صغيرة وكثيرة أخرى. ومن أهمها حيث تكرر ذِكْرُها عند ابن عبد الحكم سوق البربر وسوق وردان نسبة إلى موسى بن وردان ولعلّه تأسَّس زمن خلافة الوليد بن عبد الملك. أما سوق بربر فإن اسمها يرجع إلى نزول البربر فيها على كعب بن يسار بن ضبة العبسي، وكان هؤلاء البربر يتردَّدون المجيء إلى كعب هذا فَنُسِبَتِ السوق إليهم وكانت تقع في نهاية زقاق القناديل ولها أربعة مسالك، الأول يتفرع من زقاق القناديل والثاني من جهة سوق العكامين والثالث يقود إلى بقعة خربة والرابع باتجاه سقيفة الأشراف وسقيفة العاقلة. ويبدو أنها سوق تحتوي على أسواق فرعية تتخصص بحسب المِهَن والحِرَف، ففيها سوق بأسم سوق الحجامين. ومن بين الأسواق التي

---

(١) الإصطخري: المسالك ص٧٦، ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٧، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٩٧.

ذكرها ابن عبد الحكم ولم يذكرها ابن دقماق سوق الحمام التي في خطة ابن وعلة وهي من خطط الفسطاط القديمة، ولعلَّ أهميتها تضاءلت في فترة ابن دقماق. وهناك سوق الرقيق التي كانت في الأصل داراً لأحمد بن المدبر، عامل خراج مصر للخليفة المتوكل، فلما نَكَبَ أحمد بن طولون هذا العامل في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، هدم الدار وحوَّل رحبتها إلى سوق للرقيق. علاوة على ذلك، فإن ابن دقماق يذكر قائمة بأسماء الأسواق والسويقات التي توضح أن هناك تخصُّصاً في بعضها وفقاً للمِهَن، فهناك سوق الصيادين وسوق السمّاكين وسوق الزياتين. كما أن هناك أسواقاً تحمل مضامين إقليمية، فهناك سوق المغاربة وهي سويقة مشهورة وسويقة ابن العجمية ووُصِفَتْ بأنها من أعمر الأسواق وسويقة العراقيين نسبة إلى جَمْعٍ من البصريين ممن اتهموا من قِبَلِ زياد ابن أبيه بتعاطفهم مع الخوارج، فسيَّرهم زياد نحو الفسطاط فَسُمِّيَتْ هذه السوق باسمهم.

لقد اتسعت حركة نموّ الفسطاط كثيراً خلال الفترة الأموية والعباسية حتى أصبحت الأسواق التي ذكرناها غير كافية للنشاط التجاري، وبذلك يحدثنا ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان بنى القيسريات، وهي عبارة عن تجمُّعات للأسواق والمحلات، ومن بين تلك القيسريات قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش وقيسارية عبد العزيز التي كانت تُباع فيها أقمشة البزّ. وبنى هشام بن عبد الملك فيما بعد قيسارية أخرى لبيع البزّ الفسطاطي تقع بين القصر والبحر أطلق عليها قيسارية هشام. ومن الجدير بالملاحظة أن بعض هذه القيسريات قد بُنِيَتْ وسط أو في الخطط السكنية فكانت قيسارية الكباش في خطة لبطن من قبيلة بلي، وكانت قيسارية هشام في خطط أهل الراية. ويقدِّم ابن دقماق أوصافاً جميلة عن بعض قيسريات الفسطاط فيقول عن قيسارية المحلّي بأنها كانت محلَّ الصوافين وتقع في سوق الغرابليين والعطارين وتشتمل على ستة أبواب، ثلاثة أبواب في جهتها القبلية وباب في الجانب الشرقي يطلُّ على درب اللوازين وباب في الجانب الغربي يقود إلى زقاق الشارع حيث تقع سوق الصرف، أما الباب السادس ففي جانبها البحري ويقود إلى المطابخ والأصح زقاق الطباخ. ويضيف ابن دقماق بأن هذه القيسارية مسكونة جميعها

وليس فيها حانوت خالٍ، وكان يُباع فيها سائر أنواع الصوف والخيش والشعر وغير ذلك، وكان يرتادها تجار القاهرة خلال أيام الأسواق للبيع والشراء فيها. ويبدو أنها خربت أثناء فترة ابن دقماق في القرن التاسع للهجرة ولم يبقَ منها إلا عدد من المحال المسكونة. وهناك قيسارية الصبانة من أوقاف المنصور بن قلاوون تصرف وارداتها على مصالح البيمارستان (مستشفى) المنصوري بالقاهرة. وكانت تحتوي على خمسة أبواب، اثنين منها يطلّان على الجانب القبلي واثنين على الجانب البحري وباب خامس في شرقها حيث يقودها إلى زقاق الرفائين. وكانت قيسارية مأهولة ومحلاتها مسكونة سواء أكان في داخلها أم في خارجها، وقيل إن الأزقة المطلّة على أبوابها الخمسة كانت كذلك مرصوفة بالحوانيت، وكانت بِوَسَطِ ساحتها الغربية مساطب للخياطين. وتميَّزت قيسارية شبل الدولة بأنها متخصصة ببيع أقمشة النساء، في حين كانت قيسارية وَرَثَةِ الظاهر متخصصة ببيع الأقمشة الشامية، وقيسارية ابن ميسر الكبرى مشتهرة ببيع الخام البلدي والمستورد من البلدان، وقيسارية ابن ميسر الصغرى مخصصة لبيع الصناديق وما شاكل ذلك من المِهَنِ المرتبطة بالخشب والنجارة[١].

## أوصاف الفسطاط

مما تقدَّم ذِكْرُهُ من وحدات عمرانية في المدينة، يمكننا القول بأن مدينة الفسطاط شهدت تطوُّرات مدينية سريعة فاتسعت خططها السكنية بتوافد الناس عليها وتعدَّدت أزقتها ودروبها وأسواقها وقيسارياتها وفنادقها. وصار لكلٍّ خطة مسجد أو عدد من المساجد وحمّامات وأسواق وسويقات. ولذلك اشتهر رَسْمُها ووَصْفُها عند الجغرافيين خلال القرن الرابع للهجرة، ومما يجدر ذِكْرُهُ أن المدينة لم تَعُدْ محصورة في الجانب الشرقي من نهر النيل إنما تجاوزت اتساعاتها العمرانية إلى الجانب الآخر المقابل حيث اختارت قبيلة همدان ومن والاها من قبيلة يافع وذي أصبح، اتخاذ خطط سكنية لها في الجيزة على الرغم من أن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك لوجود الفاصل النهري،

---

(١) أنظر قوائم الأسواق والسويقات والقيسريات في كتاب ابن دقماق: ص ٣٢ ـ ٣٤، ٣٧ ـ ٤٠.
أنظر عن بعض الأسواق ابن عبد الحكم: فتوح ص١٣٤، ١٤٥، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١.

وقيل إن سبب استحداث الجيزة خشية عمرو بن العاص من قيام العدو بهجوم مباغت من الجهة الغربية من نهر النيل فأسكن فيها آل أصبح وهمدان وغيرهم. وعندما طلب منهم العودة رفضوا وفضّلوا البقاء في الجيزة واختطّوا فيها الخطط من أمثال خطط نافع بن الحارث من قبيلة رعين، وخطط بني كعب، وبنى بنو همدان مسجداً سُمّيَ بمسجد همدان حيث كانت تقام فيه صلاة الجمعة، ثم بُنِيَ فيها مسجد جامع آخر سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م[١].

لقد وصف الإصطخري وابن حوقل مدينة الفسطاط بأنها كانت خلال فترتهما مدينة مصر العظمى وكانت كبيرة تُقدَّر مساحتها بنحو الثلث من مدينة بغداد وهي (على غاية العمارة والخصب والطيب واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام وممالك جسام... وبساتين نظرة) وتحدَّثا عن بناء بيوت الأهالي فقالا إن معظمها كان من الطوب على شكل طبقات ربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثماني طبقات[٢]. ووَصَفَها المقدسي أن الفسطاط (مصر في كل قول) لأنه كان محلّ إقامة الوالي وقد جُمِعَتْ إليه الدواوين وفُصِلَ بين المغرب وديار العرب، وكانت واسعة الرقعة كثيرة السكان (ليس في الأمصار أهل منه كثير الأجلّة والمشايخ عجيب المناجر والخصائص حسن الأسواق والمعايش... ليس في الإسلام أكبر مجالس منه جامعة ولا أحسن تجمُّلاً من أهله ولا أكثر مراكب في ساحله)[٣]. ويبرز القلقشندي صفة النموّ التدريجي الذي طرأ على الفسطاط وبلوغها مرحلة راقية من التطوُّر بقوله إن عمارة المدينة أخذت تتزايد من وقت إلى آخر حتى صارت (في غاية العمارة ونهاية الحسن)، فكانت تشتمل على الدُّور الأنيقة والمساجد والحمّامات الباهية والقيسريات الزاهية، وكانت آهلة بالسكان، إذ قطنها الناس من مختلف البلدان. وأشار إلى

---

(١) أنظر عن الجيزة الإصطخري: المسالك ص٣٩، ابن عبد الحكم: فتوح ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ابن دقماق ص١٣٥ ـ ١٣٨، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٠٠.

(٢) الإصطخري: المسالك ص٣٩، ٤٢، ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٩٧.

أن أباه قد سمع من البعض قولاً عن أسواقها بأنه شاهد سوقاً متصلة تمتد بين المسجد الجامع حتى جامع ابن طولون وأنه حَسَبَ ما به من الحوانيت التي يبيع أصحابها الحمّص المسلوق فكانت ثلثمائة وتسعين حانوتاً[1].

واعتماداً على قول القلقشندي أيضاً فإن الفسطاط هذه ظلَّت تلعب دور العاصمة المهمة لمصر فترة غير قليلة إلى أن تمَّ تأسيس القاهرة، حينئذٍ أخذ الناس يهجرونها وينتقلون إلى المدينة الجديدة وما حولها. وبدأ الخراب على الفسطاط، ثم أخذ يتعاظم ولا سيما عندما قام وزير الخليفة الفاطمي العاضد، شاور السعدي، بحرق المدينة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م خوفاً من أن يتغلب عليها الصليبيون. فأضرم النار في مساكنها ومحلاتها، وظلَّت تحترق عدة أيام، مما أدى بأهلها إلى أن يتركوها. وفي أيام الظاهر بن بيبرس قام الناس بتهديم ما تبقّى منها، فلم يبقَ من عمارتها إلا ما كان يجاور المسجد الجامع العتيق[2]. وتأييداً لقول القلقشندي، فإننا عندما نتصفَّح قوائم ابن دقماق عن أزقة ودروب وأسواق وقيسريات وحمّامات وفنادق ودُور الفسطاط، نجد أن المؤلِّف يعقِّب على الكثير منها بأنها كانت خلال فترته خراباً أو تحوَّلت إلى مجرَّد طَلَل.

## العسكر:

لا يمثِّل العسكر مدينة منفصلة عن الفسطاط، إنما كان موضعاً متصلاً بها وقد سُمِّيَ كذلك لأنه قد اتُّخِذَ معسكراً، ويرجع تاريخ وجوده إلى أواخر الفترة الأموية وبداية الدولة العباسية حينما نزله صالح بن علي الهاشمي وأبو عون عبد الملك بن يزيد سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م، أثناء مطاردتهما مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وقد وصل قائد العباسيين في مطاردته إلى مصر فَلَحِقَ به وقَتَلَه. وبعد ذلك رجع صالح مع جنده إلى الفسطاط لكنه لم ينزل دار الإمارة فيها، إنما توجَّه صوب خطة الحمراء القصوى حيث كانت منازل بني الأزرق وهم من الروم، وخطط بني يشكر. وقد نزل هذا القائد العباسي مع أبي عون

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٣٣.
(٢) ن. م. ص٣٣٣ ـ ٣٣٤.

ابن عبد الملك الذي تولى ولاية مصر في نهاية سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، في هذه المنطقة. وكانت إذ ذاك خالية من العمران حيث هناك جبل يشكر المنسوب إلى بني يشكر. وأمر أبو عون أصحابه أن يبنوا البيوت في هذا الموضع ثم ابتنى داراً للإمارة وأنزل عبيده وحشمه، وابتنى المسجد الجامع الذي عُرِفَ بجامع العسكر، واتخذت الشرطة بناءً لها في العسكر أيضاً وأُطْلِقَ عليها الشرطة العليا. وبذلك صار دار الإمارة في العسكر الدار التي كان ينزلها ولاة وأمراء مصر أيام الخلافة العباسية. وأعقب هذا التطوُّر السياسي تطوُّر إداري له أهميته في تطوير هذا الموضع وإضفاء طابع الشرعية عليه، وذلك عندما نُقلت المؤسسات والمنشآت الإدارية في الفسطاط إلى موضع العسكر فتحوَّل نتيجة هذه التطوّرات إلى مدينة ذات محلات وأسواق ودُور للأمراء والقادة والإداريين.

ومما زاد في أهمية العسكر أن أحمد بن طولون، والي مصر، قد اتخذ سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م، في العسكر مسجداً جامعاً إلى جوار دار الشرطة العليا وابتنى فيه أيضاً مارستاناً (مستشفى) إذ أنفق على تأسيسها حوالي ستين ألف دينار، وأنشأها بالقرب من بركة قارون. وعلى هذه البركة ابتنى كافور الأخشيدي سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، داراً أنفق على بنائها مائة ألف دينار واتخذها قصراً له.

على أية حال، فإن العسكر أخذ ينمو نمّواً سريعاً من النواحي العمرانية والاجتماعية على حساب الفسطاط، حتى إن أحمد بن طولون قد نزل دار الإمارة فيه أثناء ولايته لمصر. وقد وُصِفَتْ هذه الدار بأنها واسعة تشتمل على عدة أبواب يؤدي أحد هذه الأبواب إلى المسجد الجامع في العسكر. واستمرت أحوال العسكر على هذا المنوال إلى أن اتخذ ابن طولون قرار الانتقال منه إلى قصر جديد هو قصر الميدان الذي يقع في موضع يسمّى القطائع. ومع هذا، فإن أهمية العسكر لم تنتهِ بشكل سريع بعد تحوُّل ابن طولون إلى القطائع. وذلك لأن والي العباسيين الذي جاء بعد إنهاء أمر الإمارة الطولونية اتخذ دار الإمارة في العسكر كمنزل له. إذ تحدثنا الروايات أن محمد بن سليمان الكاتب الذي ولّاه الخليفة العباسي على مصر نزل العسكر عند المصلّى القديم. وأنه

قام بتخريب قصر ابن طولون في هذا الموضع، مما يدلُّ على أنه اتخذ دار الإمارة التي ابتناها أبو عون. واستمر الوضع كذلك في أعقاب ولاية هذا الوالي، إذ نزلها الأمراء الذين جاءوا بعده حتى فترة قدوم جوهر الصقلي، قائد الفاطميين، إلى مصر واتخاذه مدينة القاهرة مركزاً له ولجنده. ثم صارت عاصمة للفاطميين حينئذٍ. يبدو أن العسكر واجه صعوبات، لأن المدينة الجديدة العاصمة قد اجتذبت الناس وصارت المركز الإداري. ويقال إن أهالي مصر قد ساعدوا على التعجيل في خراب هذا الموضع، وذلك أن بدراً الجمالي، أمير الجيوش عند الفاطميين، قام بعمارة مصر وأن الأهالي نقلوا ما كان في العسكر والقطائع من حجارة وأنقاض من مساكن هذين الموضعين إلى القاهرة حتى استولوا على أغلب ما كان موجوداً هناك، فتحوَّل الموضع إلى خراب، ولم يبقَ فيه سوى البساتين. وما إن جاءت فترة المقريزي في القرن التاسع للهجرة حتى صار المكان خالياً من العمران عدا جبل يشكر الذي بنى عليه ابن طولون جامعه. كذلك بقيت بعض المعالم حول الجبل، وعندما كان المقريزي يتجوَّل بين هذه الخرائب والأنقاض تحسَّر بحزن على ذلك قائلاً (وطالما سلكت هذا الفضاء الذي بين جامع ابن طولون وكوم الجارح. حيث كان العسكر وتذكرت ما كان هناك من الدُّور الجليلة والمنازل العظيمة والمساجد والأسواق والحمّامات والبساتين والبركة البديعة والمارستان العجيب وكيف بادت حتى لم يبقَ شيء منها أثر البتة)[1]. ويصف ابن دقماق كوم الجارح بأنه كان متصلاً برحبة موقف الطحانين وكان من أعمر الخطط لكنه أضحى خراباً في فترته (ويسلك منه إلى الخراب من قبلية ومن بحرية إلى سويقة نوام وإلى سوق أحاف)[2].

لقد نُسب إلى العسكر عدد من الأعلام المشهورين، منهم: محمد بن علي العسكري، مفتي أهل العسكر بمصر، وسليمان بن داود بن سليمان بن أيوب

---

(١) المقريزي: الخطط ج٧ ص، أنظر عن العسكر أيضاً ياقوت الحموي: ج٤ ص١٢٣، ابن دقماق: ص٣٤.

(٢) ابن دقماق: ص٥٣.

العسكري البزار، حدَّث عن عدد من الأشخاص، والحسن بن رشيق العسكري المحدِّث المشهور (المتوفى سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)[١].

## القطائع:

يعود الفضل في تأسيس هذه الموضع، الذي تحوَّل بمرور الزمن إلى مدينة ضِمْنَ مدينة الفسطاط، إلى أحمد بن طولون بعد ولايته على مصر التي ابتدأت ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م. فقد أوردنا سابقاً أن ابن طولون سكن في بداية الأمر دار الإمارة في العسكر (المعسكر) كما ابتنى جامعاً وبقي في هذا العسكر فترة إلى حين بنائه قصراً جديداً أطلق عليه اسم قصر الميدان السلطاني في سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م، وكان يقع بين قلعة الجبل والمشهد النفسي.

ولقد حدَّد المؤلِّفون حدود هذه القطائع على أنها تبدأ طولاً من قبة الهواء التي صار موضعها في نهاية القرن التاسع للهجرة قلعة الجبل، إلى جامع أحمد ابن طولون الذي ابتناه في العسكر، أما عرضاً فإنها تبدأ في الرميلة تحت القلعة إلى موضع يُدعى الأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذي يقال له خلال فترة المقريزي بزين العابدين. وكانت مساحة هذه المنطقة تقدَّر بحوالي ميل × ميل. ومن الراجح أن خطوة ابن طولون هذه في تأسيس القطائع قد تأثرت بما قام به الخليفة العباسي المعتصم في اتخاذ وبناء مدينة سامراء، مدينة له ولجند الأتراك. إذ يذكر المؤرِّخون المصريون أمثال المقريزي وابن تغري بردي أنه عندما تكاثرت أعداد عبيد ورجال ومماليك أحمد بن طولون ضاقت به دار الإمارة التي في العسكر، لذلك جدَّ في البحث عن موضع آخر جديد فاختار سفح الجبل واختطَّ به قصره الذي عُرِفَ بقصر الميدان السلطاني وموضعه خلال فترة ابن تغري بردي في العقد الأول من القرن التاسع للهجرة تحت قلعة الجبل بالرميلة وكان موضعه سوقاً للخيل والحمير والبغال والجمال. وبعد أن اختطَّ ابن طولون قصره أمَرَ غلمانه وأصحابه بأن يختطّوا لأنفسهم حول القصر

---

(١) أنظر ياقوت الحموي: ج٤ ص١٢٣.

والميدان بيوتاً وخططاً، فابتنى هؤلاء الدور حتى قيل إن عمارة هذه المنطقة اتصلت بعمارة الفسطاط فكان حدُّها من قيسارية بدر الخفيفي الملاصقة لدار الإمارة إلى باب المدينة. وهدم قبور اليهود والنصارى التي كانت هناك كذلك هدم ما كان موجوداً من بناء الى سوق الحيوان وقيسارية بدر الخفيفي. وأقطع القطائع على رجاله فسُمِّيَتْ كلُّ قطيعة باسم ساكنها أو صاحبها أو الشخص الذي أُقْطِعَتْ إليه، فكانت هناك قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين وقطيعة هارون بن خمارويه وقطيعة النوبة وقطائع أخرى أفردها لكلِّ صنف من الغلمان. بعدئذٍ ابتنى القواد دُورهم في مواضع متفرِّقة من الموضع. فأوجه الشبه بين سامراء والقطائع من حيث الأسباب والدوافع العسكرية التي دفعت بالمعتصم وابن طولون واضحة. علاوة على تشابه الموضعَيْن جغرافياً، ولاسيما بالنسبة إلى قربهما من المدينة الأم، بغداد في مسألة سامراء والفسطاط في مسألة القطائع.

ومن الجدير بالملاحظة أن توزيع الوحدات الطوبوغرافية في مدينة القطائع كان على خلاف ما كان موجوداً في البصرة والكوفة والفسطاط، يتركز حول قصر الوالي وميدانه بدلاً من جَعْلِ المسجد الجامع المِحْوَرَ المركزي لذلك. وهو أمر ليس جديداً تماماً، إذ إن أبا جعفر المنصور هو الآخر قد بنى في المدينة المدوَّرة، بغداد، قصره أولاً. ولعلَّ هذا التطوُّر العمراني الجديد قد ارتبط ارتباطاً قوياً بظروف هذه المرحلة التاريخية. وقد ترتب على هذا المتغيِّر الطوبوغرافي تغيُّر آخر يتعلق بمجموعة دار الإمارة + الديوان + بيت المال، فإن هذه المجموعة كانت هي الأخرى تتمحور بالقرب من المسجد الجامع لكنها صارت في القطائع، كما يبدو، قريبة من قصر الأمير. علاوة على ذلك، فإن هناك أمراً يتعلق بالأسواق، تلك التي كانت موزَّعة في مدينة الفسطاط توزيعاً منظَّماً، وأن السوق الأولى تمحورت أيضاً إلى جانب المسجد الجامع، بينما بدأ عليها التشويش والفوضى في مدينة القطائع.

بعد أن اتُّخِذَتِ القطائع وخَطَّطَ القادة والجند خُطَطَهُم وُزِّعَتِ السكك والأزقة في المدينة وبُنِيَتِ المساجد والطواحين والحمّامات والأفران. واتُّخِذَتِ

الأسواق وكانت تحمل أسماء مأخوذة من المِهَنِ والحِرَفِ التي تركزت فيها، فهناك سوق العيارين وسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الطباخين.

وابتنى أحمد بن طولون المسجد الجامع فيها وذلك لأن أهل الفسطاط شَكَوْا إلى أحمد بن طولون ضيق المسجد القديم خلال صلاة الجمعة لكثرة جنده وسودانه فأمر بعمارة الجامع. والحقيقة أن جامع ابن طولون هذا هو نفسه الذي قد بُنِيَ على جبل يشكر حينما نزل العسكر وقد أنفق على عمارته (١٢٠) ألف دينار، وقد أدخل في بنائه الجير والرماد والآجُرّ الأحمر القوي، وعمل في مؤخرته ميضأة وخزانة شراب فيها جميع الأشربة والأدوية يجلس فيها طبيب يوم الجمعة. وقد فرغ من بنائه سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م. ووضع في وسط صحنه فوارة وفوقها قبة مذهبة تستند إلى عشرة عمد رخام. وقد احترق في سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م، وأمر الخليفة الفاطمي العزيز بإعادة عمارة الفوارة.

لقد أدخل ابن طولون عدة تحسينات وزيادات على قصره والميدان حتى صار الأخير يحتوي على أبواب، منها باب الميدان حيث يدخل ويخرج منه الجيش، وباب آخر باسم باب الصوالجة، وباب ثالث باسم باب الخاصة وهو باب لا يدخل منه إلا خاصة الأمير، وباب رابع اسمه باب الجبل لأنه كان يقع مما يلي جبل المقطّم، وباب خامس باسم باب الساج، وباب سادس باسم باب الصلاة، وباب سابع باسم باب الحرم، وباب ثامن باسم باب الدرمون نسبة إلى حاجب كان يجلس فيه ويتقلد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط، وباب تاسع اسمه باب دعناج نسبة إلى حاجب كان يجلس فيه. وكانت هذه الأبواب لا تُفْتَحُ جميعها إلا في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة. وكان للقصر شبابيك تُفْتَحُ من سائر نواحي الأبواب فتشرف كلُّ جهة على باب[1].

لم يستمر وجود مدينة القَطائع طويلاً وذلك لأنها ارتبطت ارتباطاً مباشراً بمؤسسها الأسرة الطولونية، وأنها سرعان ما أتى عليها الخراب بانتهاء فترة

(١) أنظر عن القطائع. المقريزي: خطط ج٧ ص٤٥ ـ ٤٧، ابن دقماق: ١٢١ ـ ١٢٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٣ ص١٤ ـ ١٦.

حكم هذه الأسرة سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م. فقد خربها محمد بن سليمان الكاتب الذي وجّهه الخليفة العباسي، المكتفي بالله، لمحاربة الطولونيين، وهدم القصر وقلعه من أساسه فلم يَعُدْ له أثر. ويقال إن كافور الأخشيدي قد عمّر له داراً عند جامع ابن طولون. وقد علّق ابن تغري بردي عند بداية حديثه عن القطائع بأنها قد زالت آثارها خلال فترته (ولم يبقَ لها رسم يُعرف)[1].

## القاهرة:

تقع القاهرة المعزية، نسبة إلى الخليفة الفاطمي المعزّ، ضِمْنَ هذه المجموعة من المراكز والمدن التي تأسست بجوار أو حول المدينة الأم، الفسطاط. فقد ابتنى قائد الفاطميين جوهر الصقلي أو الخليفة المعزّ نفسه، مدينة القاهرة في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، بعد استيلائه على مصر. واتخذها قريبة من الفسطاط إذ لا تبعد عنها سوى ثلاثة أميال إلى الشمال منها. وكان الموضع الذي اتُّخِذَتْ فيه بستان الأخشيد أو بستان كافور وسمّاه القلقشندي بستان بني طولون بالقرب من القطائع.

لا شكَّ أن جوهر الصقلي كان مدفوعاً بعدد من الدوافع لاختياره هذا الموضع لمدينة القاهرة، وبعض هذه الدوافع قد أشار إليها الجغرافيون والمؤرّخون العرب، أما بعضها الآخر فنستدلُّها من خلال مجريات الأحداث التي سبقت مرحلة التأسيس ومن بين هذه الدوافع.

١ ـ **الدوافع الجغرافية:** المتمثلة بقرب الموضع المنتخب من مدينة الفسطاط واتصاله بها. وكما عرفنا سابقاً أن هذه المدينة كانت خلال هذه الفترة المركز الرئيسي والآهل بالسكان. وبذلك سيكون الموضع على صِلَة جغرافية وتمدُّنية وثيقة بالفسطاط، المدينة المستقرّة من حيث الخطط والسكان والنشاط الاقتصادي. فنجاح القاهرة سيكون على حساب وَضْعِ الفسطاط التاريخي.

٢ ـ **الدوافع الاستراتيجية:** يشير ياقوت الحموي إلى مسألة استراتيجية مهمة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم ج٣ ص١٤.

في الموقع الذي صار مدينة القاهرة، إذ يُذْكَرُ أن جوهر الصقلي عندما قَدِمَ إلى مصر اشترط عليه أهلها أن لا يأخذ مساكنه وجنده معهم، لذلك صار أمام الأمر الواقع في البحث عن موضع يواجه بلاد الشام لأنه كان يتوقع ردود فِعْلٍ عسكرية من جانب الخلافة العباسية، فكان هذا الموضع كما يقول ياقوت (تبرز إليه القوافل إلى الشام). وقد أبرز هذه الفكرة أيضاً الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار القاهرة في حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة حين قال إن القاهرة هي أول مدينة يصل إليها المسافر بعد خروجه من بلاد الشام..[١].

٣ ـ **عوامل عسكرية**: لقد أشار عدد من المؤرّخين إلى أن جوهر الصقلي قد توجَّه إلى مصر وبرفقته عساكر عظيمة العدة والعدد والسلاح والخيل والأموال. ولما استقرت أحوال الهجوم الذي شنَّه على مصر وانتظمت شؤونه فيها بدت مشاكل اجتماعية ناشئة عن زحمة المدينة بالجنود المرافقين له والرعية، ويبدو أن إمكانية الاحتكاك بين الجنود الغرباء وأهل المدينة كانت موجودة كما هي الحال في أمر المعتصم وأتراكه وأهالي بغداد. ولذلك فإنه اضطر إلى اتخاذ القاهرة واختطاط سور لها، ثم بنى القصور داخل هذا السور وأطلق عليها اسم المنصورية فلما قَدِمَ المعزّ الفاطمي فيما بعد إلى مصر سماها القاهرة. ويؤكد ابن دقماق هذا الرأي بقوله إن جوهر الصقلي أراد من اتخاذه القاهرة أن يكون (هو وأصحابه وأجناده بمعزل عن العامة وعلى هذه العادة كان ملوك بني عبد المؤمن فعلوا ذلك في مراكش وتلمسان)[٢].

٤ ـ **الدوافع الاقتصادية**: لا ينبغي أن نقلِّل من أهمية هذه الدوافع في تصميم جوهر الصقلي على اختيار موقع للمدينة الجديدة يكون أقرب إلى نهر النيل. فيذكر الرحالة ابن بطوطة إشارة تبيِّن أهمية موقعها التجاري والاقتصادي، إذ وَصَفَ النيل بأن (بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية تمرُّ

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة ص٨٦، ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٠١، القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ ص٣٤٤ ـ ٣٤٥. أنظر مقالة «al kahira» في E.I.[2] بقلم Rogers.

(٢) ابن دقماق: ص٣٦.

صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافقة)[١].

## خطط القاهرة:

لقد فصل مؤرّخو مصر كثيراً عن موضوع خطط القاهرة ومحلاتها وأسواقها ووحداتها العمرانية الأخرى، فكتب المقريزي كتاباً حول خطط مصر وآثارها، كذلك أعطى القلقشندي وابن دقماق وابن تغري بردي معلومات وافية عن هذا الموضوع. الذي يهمنا أن دراسة هذه المعلومات عن خطط القاهرة توضح بأنها قد جمعت بين الأسس التاريخية القديمة في وَضْع الخطط وبين التطوُّرات الحديثة، فحاراتها وخططها لم تكن متماشية مع القاعدة القبلية كما كانت في الفسطاط والأمصار الإسلامية الأولى، إنما كانت متنوّعة الأنماط. فهناك حارات ومحلات قد سُمِّيَتْ بأسماء أشخاص وأخرى تحمل أسماء جماعات وأقوام، وثالثة تتضمَّن أسماء قبلية. والواقع أن ابن تغري بردي يشير إلى رواية تتعلق مباشرة بهذا الموضوع، إذ قال إن جوهر الصقلي عندما نزل الموضع واختطَّ السور والقصر اختطَّت كلُّ قبيلة خطة عُرِفَتْ بها. وعلى الرغم من أن الرواية لا تتفِّق تماماً مع تطوُّرات تلك المرحلة وذلك لأن أهالي الفسطاط اشترطوا على جوهر أن لا ينزل في مدينتهم، وأن هذا قد اختار موضع القاهرة ليكون منزلاً له ولجنده، فإنها ربما تدلُّ على التركيب القبلي لجنود جوهر وأن توزيعهم على خطط المدينة جاء وفقاً لهذا المنظور القبلي. ومع ذلك، فإنه إذا ما كان التوزيع القبلي صحيحاً في فترة جوهر الصقلي، فإن المدينة بعد توسُّعها تنوَّعت خططها ومحلاتها الجديدة فجمعت بين التوزيع القبلي وغيره. كذلك، فإن هناك سِمَة أخرى في خطط القاهرة لم تكن موجودة في البصرة والكوفة والفسطاط، لكنها كانت موجودة في خطط مدينة بغداد تلك هي مسألة السور والأبواب. فالروايات تشير إلى أن جوهراً بعد اختياره الموضع الذي كان بستاناً لابن طولون، اختطَّ القصر أولاً، وبنى لها سوراً من اللَّبِن واتخذ فيها الأبواب

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ص٣٢.

الأربعة. وقد وصف ابن حوقل هذا السور بقوله إنه كان منيعاً يزيد على ثلاثة أضعاف ما بُنِيَ فيها، وكانت خلال فترته خالية من العمران وقد استبدل بناء هذا السور في أيام صلاح الدين الأيوبي، فبنى بهاء الدين الطواشي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، السور بالآجُرّ، وكانت مساحته قد قُدِّرَتْ بعد إعادة بنائه بـ ٢٩/٣٠٢ ذراعاً هاشمياً (حوالي ١٤,٠٠٠م) ابتدأ من قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج[1].

على أية حال، فإن بناء القصر والسور كانا قد أنجزا خلال المرحلة الأولى لتخطيط القاهرة. وقيل إن جوهراً حينما خطَّط القصر أولاً ظهر في الأساس ازورار، فلما رآه لم يعجبه لكنه قال إنه حضر في ليلة مباركة. وكان بقرب القصر دير يقال له دير العظام لأنه كان يحتوي على عظام المصريين القدامى، فَنَقَلَ العظام وبنى مكانه مسجداً في داخل السور. وأنه عندما نزل القصر اختطَّت كلُّ قبيلة خطة عرفت بها، فكان بنو زويلة أو الجنود الذين ينتمون إلى هذه القبيلة، وهي من البربر، إلى جانب بابَيْ زويلة، وقطنت قبائل كتامة من البربر في شرق الموضع ثم جعل جوهر للقصر ساحات كان فيها الميدان والبستان.

لقد قسِّمت خطط القاهرة وحاراتها ضِمْنَ الموقع وداخل السور الذي ابتناه جوهر فكانت هناك:

١ ـ **خطة زويلة**: وهي ضِمْنَ المجموعات التي رافقت جوهراً من شمال أفريقيا، والقبيلة من البربر وقد أسست هذه القبيلة بابَيْنِ في القسم الذي اتخذته إلى جنب السور. وكانت حارة زويلة واسعة ومتشعبة إلى محلات وخطط فرعية.

٢ ـ **حارة الجودرية**: نسبة إلى جودر، خادم عبيد الله المهدي الفاطمي، ولقد اختطَّ هؤلاء خطَّتهم عند اتخاذ جوهر موضع القاهرة، ويبدو أن هيئتها القبلية قد تضاءلت فيما بعد عندما صار اليهود هم القاطنين الرئيسيين فيها، فلما

---

(١) أنظر ابن دقماق: ص٣٦ ـ ٣٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ص٣٤، ٣٩، ٤١.

بلغ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله أن اليهود كانوا يهزأون بالمسلمين، سدَّ أبوابها وأحرق اليهود فيها وبذلك تحوَّل من كان فيها إلى حارة زويلة.

٣ ـ **حارة المحمودية**: وهي حارة منسوبة إلى جماعة تُعرف بالمحمودية كانت قد قَدِمَتِ القاهرة أيام العزيز بالله الفاطمي. وأسكنهم في خطة حملت اسمهم[(١)] وسمّاها ناصر خسرو حارة الديالمة. هذه مجموعة من الحارات والخطط التي كانت في داخل سور القاهرة، ويبدو أن المدينة ازدحمت بخططها وسكانها وكان السور حائلاً أمام هذه التوسُّعات السكنية، الأمر الذي دفع الناس إلى اتخاذ محلاتهم وخططهم خارج الأسوار. وهي حالة سبق أن تعرَّضت لها مدينة المنصور (المدينة المدوَّرة) إذ حالت أسوارها بين توسُّع خططها وازدياد كثافة سكانها، مما دفع الأمر بالمنصور إلى إبعاد الأسواق إلى جانب الكرخ، ومن بين حارات وخطط القاهرة خارج السور:

١ ـ **حارة الحسينية**: وهي في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الحارات أحصاها القلقشندي بثماني حارات وتقع خارج باب الفتوح، منها حارة حامد وحارة المنشأة الكبرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى وسوق الكبير، والوزيرية وكان يقطنها الجماعة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعجان وعبيد الشراء. وسكنها أيام الكامل محمد بن العادل الأشراف الحسينيون فتسمَّت الحارة باسمهم. وقد قَدِمَ هؤلاء الأشراف من الحجاز، ثم قطنها بعد ذلك الجنود وبنوا فيها الأبنية العظيمة والدُّور الفخمة فصارت من أعظم حارات الأجناد.

٢ ـ **خطط الخندق**: وكانت خارج حارة الحسينية. وكان المعزّ بالله الفاطمي قد أسكن فيها المغاربة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، عندما اعتدوا على أهالي القاهرة وأخرجوهم من منازلهم. فأمر المعزّ أن ينادي فيهم كلّ ليلة محذِّراً البقاء في القاهرة وأن من بات في القاهرة استحقَّ العقوبة. وقد سُمِّيَتْ بالخندق لوجود خندق حفره العزيز بالله.

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة ص٩٩ ـ ١٠٠، ابن دقماق: ص٣٧، القلقشندي: ج٣ ص٣٥٢ ـ ٣٥٥، ابن تغري بردي: النجوم ج٤ ص٤٢ ـ ٥٤.

٣ ـ خطط المقس: سُمِّيَتْ بذلك لأن المشار الذي يجبي المكوس ويسمّى أيضاً (المكاس) كان يستخرج الأموال فيها فقيل المكس ثم المقس وربما قيل إنها المقسم. واحتوت هذه الخطة على حارات ودُور مشهورة. ولم يبقَ من هذه الخطط شيء أيام القلقشندي.

٤ ـ حارة المصامدة: وتُنسب إلى المصامدة من البربر الذين قَدِموا مع المعزّ بالله. وقد ذَكَرَها ناصر خسرو.

٥ ـ حارة الهلالية: وهي الحارة التي بناها المأمون بن البطائحي خارج الباب الجديد الذي ابتناه الحاكم بأمر الله. وصارت هذه الحارة مشرفة على شاطىء بركة الفيل.

٦ ـ حارة اليانسية: وتُنسب إلى يانس وزير الحافظ وكان يلقَّب بأمير الجيوش. وقيل إن اليانسية اسم جماعة كانت أيام العزيز بالله، وكانت تشتمل على عدد من الحارات الفرعية.

٧ ـ خطط الجامع الطولوني: وكانت في الأصل منازل أحمد بن طولون وعسكره والجبل الذي في جانبها البحري (جبل بني يشكر). وكانت خططاً سكنها أكابر الأمراء وظلّت كذلك إلى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م عندما خربها العوام[١].

وهناك خطط وحارات أخرى لا نريد الخوض في ذِكْرِها ويمكن مراجعتها في كتب المؤرِّخين المصريين. إن هذه الأسماء الواردة إنما تدلُّ دلالة واضحة على أن خطط القاهرة سواء أكانت داخل السور أم خارجه لم تكن قبلية بحتة.

## قصر الخليفة:

سبق أن تقدَّم أن جوهر الصقلي اختطَّ بعد اختياره الموضع القصر مباشرة ويبدو أنه اتخذه في وسط الموضع لأنه أحاطه بساحات جعل فيها ميدان القصر

---

(١) أنظر عن هذه الحارات والخطط القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٥٥ ـ ٣٦٠، ابن تغري بردي: النجوم ج٤ ص٥٣ ـ ٥٤.

وبستانه. ويبدو من الروايات أن هناك قصوراً في هذا الموضع وأن جوهراً قد بنى سوراً على هذه القصور التي كان القصر الذي نزله الخليفة الفاطمي أحدها. وكان، بحسب أوصاف وتحديدات الروايات، قصراً واسعاً يشتمل على أبواب، وكان طَلِقاً من جميع الجهات ولا يتصل به أيُّ بناء. ويذكر ناصر خسرو أن المهندسين مسحوا مساحته فوجدوها تعادل مدينة ميافارقين وهو دليل آخر على أن القصر كان عبارة عن مجموعة قصور. وكان يُرى من خارج المدينة لارتفاع أبنيته. وقد قدَّر ناصر خسرو عدد جواسقه باثني عشر جوسقاً، وعدد أبوابه بعشرة أبواب (في حين جعلها القلقشندي تسعة أبواب) وهي باب الذهب وباب البحر وباب السريح وباب الزهومة وباب السلام وباب الزبرجد. وباب العيد وباب الفتوح وباب الزلاقة وباب السرية، في حين ذكر القلقشندي أسماء بعض الأبواب بشكل مختلف، فهناك باب التربة (وليس السرية) وباب الديلم وباب قصر الشوك وباب الريح (وليس السريح) وباب الزمرد (وليس الزمرجد).

بقي هذا القصر مشهوراً منذ خلافة المعزّ إلى أواخر أيام العاضد وهو آخر خليفة فاطمي. ونزل به صلاح الدين الأيوبي بعد موت العاضد وبقي يمثّل داراً للأمويين إلى أن تحوَّل الملك محمد بن العادل منه إلى قلعة الجبل. وبعد ذلك أهمل هذا القصر فخُرِّب[١].

## جامع الأزهر:

يتضح من الروايات التي تحدثت عن دور جوهر الصقلي في بناء قصر الخلافة في القاهرة واتخاذه موضع المدينة بأنه اتخذ القصر في مكان فيه دير يسمّى دير العظام كان فيه عظام للمصريين القدامى، وقد نَقَلَ جوهر العظام من الموضع وبنى مكانه المسجد الجامع من داخل السور، وقد انتهى من بناء جامع الأزهر سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م. وشهد هذا المسجد الجامع الوحيد في القاهرة حتى فترة الحاكم بأمر الله الفاطمي، إذ قام هذا ببناء جامع له بالقرب من باب

(١) ناصر خسرو: سفرنامة: ص٨٩ ـ ٩٠، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٤٥ ـ ٣٤٨.

الفتوح وباب النصر سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م، فحلَّ محلَّ جامع الأزهر الذي بقي طيلة حكم الفاطميين شاغراً ولم تَعُدْ إليه صلاة الجمعة ثانية إلا في سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، أيام حكم الظاهر بيبرس. وقد أخذت شهرته تتزايد منذ هذه الفترة فأصبح من أرفع الجوامع قدراً.

كان هذا المسجد الجامع هو أول جامع أُسِّس في القاهرة إلى جنب قصر الخليفة، وبعد فترة تعدَّدت المساجد الجامعة فكان هناك الجامع الحاكمي الذي بناه الحاكم بأمر الله والجامع الأقمر الذي بناه الخليفة سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م، والمسجد الجامع في المقس بباب البحر المعروف بالجامع الأنور بناه الحاكم بأمر الله أيضاً سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، والجامع الظافري بناه الظافر الفاطمي داخل بابي زويلة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، والجامع الصالحي الذي بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز خارج باب زويلة[1].

## أوصاف القاهرة:

امتدح الجغرافيون والرحالة العرب مدينة القاهرة فَوَصَفَها ابن حوقل بأنها مدينة واسعة ضمَّت المحلات والأسواق والحمّامات والفنادق والقصور الفخمة. وكانت أيام ابن حوقل ما زالت في مراحل نموِّها الأولى، فَوَصَفَها بأنها كانت خالية من الناس. ولعلَّ هذا القول يشير إلى أنها كانت آنذاك مدينة جوهر الصقلي وجنده. تحدث ابن حوقل عن المسجد الجامع فيها فقال إنه حسن نظيف كثير القوام والمؤذنين. ويبدو أن جوهراً قد نَقَلَ عند بنائه القاهرة ديوان مصر إليها من الفسطاط أو القطائع، فيقول ابن حوقل إن بها ديوان مصر[2]. وصارت القاهرة خلال زيارة المقدسي مدينة كبيرة حسنة يحيط بها السور وله أبواب، وأخذت القاهرة تنمو نموًّا سريعاً، فعندما زارها ناصر خسرو سنة ٤٤١هـ/١٠٤٦م، وجد فيها حوالي عشرين ألف دكان يؤجر العديد منها إيجاراً شهرياً بعشرة دنانير مغربية. وفيها عدد لا يحصى من الأربطة والحمّامات

---

(١) ناصر خسرو: سفرنامة ص٩٢، القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٦٠ ـ ٣٦٢.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٨.

والأبنية وكان الخليفة يملكها جميعها ويؤجّرها على الناس. وكان سور المدينة يشتمل على خمسة أبواب هي باب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة وباب زويلة وباب الخليج. ووَصَفَ دُورَها بأنها كانت تتألف من خمس أو ست طبقات. وفيها بساتين وأشجار. وكان ماؤها يُجْلَبُ من نهر النيل ينقله السقاؤون على الجِمال ولها آبار عذبة[1]. وزارها ابن جبير في القرن السادس للهجرة فَوَصَفَ مشاهدها وقلعتها ومستشفاها. فكان المستشفى في القاهرة كأنه قصر من القصور الواسعة والجميلة فيه خزائن بالعقاقير والأدوية ومقاصر فيها أسرّة للمرضى، وهناك موضع مخصص للنساء ولهن من يقوم بما يحتجن إليه. وفي المستشفى موضع عليه شبابيك حديدية خصِّص للمجانين[2]. وقد وَصَفَها ياقوت الحموي بأنها صارت (أعظم من مصر) بمعنى أنها عظمت على حساب الفسطاط فيذكر أنها كانت أثناء حياته هي (المدينة العظمى وبها دار الملك ومسكن الجند)، ويعقِّب على ذلك بأنها ظلَّت تتمتع بهذه الأهمية فهي (أطيب وأجلُّ مدينة رأيتها لاجتماع أسباب الخيرات والفضائل بها)[3].

لقد أبرز هذا النموُّ العمراني السريع لمدينة القاهرة جملة مشاكل اجتماعية وقد شخَّصها ابن سعيد المغربي الذي زارها في القرن السابع للهجرة، فَوَصَفَ دروبها بالضِّيق وأنها كانت مظلمة كثيرة التراب والأزبال ولم يُرَ في جميع بلاد المغرب أسوأ من القاهرة في هذا الشأن، كما أنه وجدها شديدة الازدحام في الناس والدواب، وأن ارتفاع بيوتها قد جعلها أضيق للضوء والهواء. كما أن هناك مشكلة الماء لأنها كانت بعيدة عن النيل لذلك قلَّتْ فيها مياه الشرب[4].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٩٧ ـ ١٩٨، ناصر خسرو: سفرنامة ص٨٦ ـ ١٠٠.
(٢) ابن جبير: رحلة ص٢١، نقولا زيادة: مدن عربية (بيروت ١٩٦٥) ص١٠١.
(٣) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٠١.
(٤) المقري: نفح الطيب (القاهرة) ج١ ص٤٩٠، نقولا زيادة: ص١٠٤.

الفصل الرابع

# القيروان ـ العباسية ـ رقادة ـ صبرة ـ تونس

يجمع هذه المجموعة من المدن روابط تمدُّنية وعمرانية مشتركة مع المدينة الأم، القيروان، ولذلك فإن دراستها على هذا الشكل له دلالته بالنسبة إلى إبراز الوحدة المدينية في هذا الجزء من المغرب العربي. فالقيروان هي المركز والمحور الرئيسي الذي تركزت حوله مجموعة من المراكز والمدن التي تأسست بفعل عوامل مختلفة لكنها في الأساس واقعة ضِمْنَ منطقة القيروان.

**القيروان:**

على الرغم من أن المؤرِّخين والبلدانيين العرب لم يجعلوا القيروان واحدة من الأمصار السبعة، ضِمْنَ قائمة هذه الأمصار، التي وقفنا على ذِكْرِها في مجال سابق، فإن العوامل التي ساعدت على اتخاذ هذه المدينة وتأسيسها وكذلك الأسس العمرانية التي استندت إليها تشابه إلى حدٍّ كبير تلك التي تمثلت في تأسيس كلٍ من البصرة والكوفة والفسطاط. فالقيروان قد أسَّسها العرب الفاتحون في شمال أفريقيا وذلك لحاجتهم إلى معسكر أو مستقرٌ لهم تتوافر فيه مستلزمات وشروط معيَّنة.

إن الحديث عن المرحلة التأسيسية لمدينة القيروان مبتسر وغير متكامل تماماً. على عكس ما سبق ذِكْرُهُ عن الأمصار السابقة، ويرجع سبب هذا بالدرجة الأولى إلى ندرة المعلومات التاريخية المفصَّلة. وإن كلَّ ما نملك من معلومات عن الجذور التاريخية لاختيار موضع المدينة ومراحل تأسيسها لا يتعدّى الأسطر. وهي معلومات بالرغم من ندرتها، فإنها متشابهة عند المؤلِّفين.

فمن بين مؤرّخي المشرق الذين كتبوا تواريخ شاملة، تاريخ خليفة بن خياط العصفري (المتوفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٣٨م)، لكنه لم يذكر عن تأسيس القيروان غير أسطر معدودة فيكتفي بالقول عند تناوله حوادث سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م (وفيها وجّه معاوية عقبة بن نافع إلى أفريقية، فخطّط القيروان وأقام بها ثلاث سنين. .).[١] أما الطبري فإنه لا يشير إليها في تاريخه المشهور إلا بأسطر قليلة مشابهة لما تمّ ذِكْرُهُ عند خليفة، وهو يذكر القيروان عند حديثه عن عَزْلِ معاوية بن حديج عن مصر وتولية مسلمة بن مخلد على مصر وأفريقية، وفَتْحِ عقبة بن نافع لأفريقية فإنه (اختطّ قيروانها وكان موضعه غيظه. .) ثم أضاف أنّ عقبة بن نافع هو (أول الناس اختطّها وأقطعها للناس مساكن ودُوراً وبنى مسجدها. .)[٢]. أما مؤرّخو مصر وأفريقية فإن ابن عبد الحكم (المتوفى ٢٥٧هـ/ ٨٧١م) قد اهتم بفتوح معاوية بن حديج وعقبة بن نافع في هذه المنطقة ولم يذكر عن القيروان إلا معلومات هامشية ومختصرة، فيشير إلى أن عقبة بعد فَتْحِهِ أفريقية لم يعجب بالقيروان التي اتخذها معاوية بن حديج قبله (فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم وكان وادياً كثير الشجر كثير القطف، تأوى إليه الوحوش. .)[٣] ويستمر في ذِكْرِ قصة عقبة بن نافع مع الوحوش والهوام في موضع القيروان. ولعلّ من المفيد قوله إن أبا عبيد البكري وغيره من المؤرّخين للمغرب والأندلس قد قدّموا معلومات أكثر تفصيلاً مما تقدّم ذِكْرُهُ من قِبَلِ المؤرّخين الرواد. فالبكري (المتوفى ٤٨٧هـ/ ١٠٨٥م) وصف في كتابه (المغرب في ذِكْرِ أفريقية والمغرب)، وهو جزء من كتابه المسالك والممالك، المسجد الجامع في القيروان وصفاً دقيقاً وأشار إلى مواضيع مهمة من تاريخ القيروان عند تأسيسها. كما أن المؤرّخ ابن عذاري قد قدّم لنا معلومات غير قليلة عن تاريخ القيروان في كتابه (البيان المغرب في أخبار المغرب).

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ ص٢٤٧.
(٢) الطبري: الرسل والملوك ج٥ ص٢٤٠.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص٢٦٤ ـ ٢٦٥. أنظر مقالة «al-kayrawan» في El.² بقلم Talbi.

يتفق جميع المؤرّخين والبلدانيين أن سنة تأسيس القيروان هي ٥٠هـ/ ٦٧٠م ولم تَرِدْ روايات أخرى تخالف ذلك بالرغم من أن معاوية بن حديج التجيبي الذي تولى فَتْحَ أفريقية سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م كان قد وصل إلى قوينة في المغرب، واتخذ موضعاً هناك أطلق عليه القيروان، لكنَّ هذا الموضع الذي تأسس قبل سنة ٤٦هـ، من قِبَلِ معاوية هو غير موضع القيروان التي تأسَّست سنة ٥٠هـ. وأن مؤسسها عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان لِفَتْحِ أفريقية. والظاهر أن هذين التعبيرين أفريقية والقيروان، إلى حدٍّ ما، مترادفان في تلك الفترة التاريخية، فالمؤرّخون يشيرون إلى أن عقبة بن نافع فتح أفريقية (وملّكها المسلمين فاستقروا بها واختطَّ مدينة القيروان) فكأن أفريقية هي كالقيروان أو بمعنى أوسع تونس. وهناك عدد من الإشارات التي توضح بأن قائليها قد أطلقوا على القيروان مدينة أفريقية. فالمقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) يحدِّد المسافة بين تونس والقيروان قائلاً ما نصّه (وبينها ـ تونس ـ وبين أفريقيا مرحلتان على البغال)[1] فجعل أفريقية تعادل القيروان التي كانت تبعد عن تونس مسيرة ثلاثة أيام. أريد القول إن هناك اتفاقاً بين المؤلّفين حول سنة تأسيس القيروان على خلاف ما سبق ذِكْرُهُ من تباين واختلاف حول سنة تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط.

اختلف اللغويون حول موضوع أصل تسمية القيروان، فهناك من يرى بأن الكلمة تعني جَمْعاً من الخيل، في حين يرى آخرون بأن المقصود من الكلمة معظم الكتيبة أو معظم الجيش أو القافلة ويستشهدون بشعرٍ لامرىء القيس وَرَدَ فيه:

وغـــــارةٌ ذاتُ قـــــيـــــروانٍ كـــأن أســـرابَـــهـــا الـــرّعـــالُ

وهناك رَأْيٌ ثالث يرى بأن القيروان تعني القافلة، فيقول أبو عبيدة إن كلَّ قافلة قيروان. بالرغم من وضوح أصل الكلمة العربي في هذه التفسيرات اللغوية، فإن هناك من يجعل القيروان كلمة أعجمية معرَّبة وأن أصلها يرجع إلى

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٢٥.

كلمة كاراوان الفارسية ويُقْصَدُ بها أيضاً القافلة، لكن ابن منظور والزبيدي دافعا عن الأصل العربي[١] للكلمة، كما أن ورود الكلمة في شعر امرىء القيس له دلالة في استعمالها العربي القديم ويراد بها جَمْعٌ من الجيش أو الخيل.

## عوامل تأسيس القيروان:

تتفق الروايات التاريخية على أن القائد عقبة بن نافع عندما افتتح أفريقية برفقة جيش يبلغ تعداده حوالي عشرة آلاف فارس يرجع نسبهم إلى القبائل العربية، وإضافة إلى هذا الجيش العربي، فقد اجتمع معه جماعة من البربر المسلمين. والحقيقة أن أول جيش خرج مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية، الذي وصل بفتوحاته إلى تونس لكنه لم يتخذ قيرواناً، وكان يرافق عبد الله هذا جيشٌ بلغ تعداده عشرين ألفاً من قبائل مهرة اليمانية وبطون من قبيلة الأزد وغيرها[٢] من القبائل. أما جيش معاوية بن حديج فكان يضمُّ الكثير من المهاجرين والأنصار. ومن بين القبائل التي وَرَدَ ذِكْرُها في جيش عقبة بن نافع قبيلة بلي وجَمْعٌ من الأنصار والمهاجرين. ويبدو أن العرب الفاتحين لم يكونوا قد اتخذوا موضعاً لهم بشكل دائمي وأن القيروان التي اتخذها معاوية بن حديج لم تكن ثابتة، إذ يشير ابن عبد الحكم إلى أن أبا المهاجر الذي خلف عقبة على ولاية المغرب كَرِهَ أن ينزل في قيروان عقبة. وعقَّب على ذلك بقوله (وكان الناس قبل أبي المهاجر.. يغزون أفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط... وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار. أقام بها الشتاء والصيف واتخذها منزلاً..)[٣].

كان على عقبة بن نافع أن يفكر، بعد انتصاراته العسكرية، في موضع أو مستقرٌ للجيش الذي يرافقه وذلك لعدة أسباب منها: للاعتصام أو للاحتماء

---

(١) أنظر الفيروزابادي: قاموس المحيط (قرن) كذلك الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: مقالة al-kayrawan في EI.[2].

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح ص ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٦.

بالموضع خوفاً من أيّ فِعْلٍ من قِبَلِ الروم أو البربر على حدٍّ سواء، وكذلك لإقامة صلاة الجمعة وصلاة الأعياد فيه. وبالفعل، فإنه كان أمام عقبة أن يستثمر الموضع الذي سبق أن أسّسه معاوية بن حديج لكنه لم يُعْجَبْ به فأخذ يفتش عن مكان آخر. المهم أن عقبة عرض الموضوع على جماعته واستشارهم في مسألة المكان الذي سيكون معسكراً ومستقرًّا لهم. كانت الخيارات الموجودة أمام عقبة والمسلمين الفاتحين متمثلة باثنين، أولهما قيروان معاوية بن حديج وثانيهما مدينة قرطاجنة أو قرطاج وهي مدينة قديمة تمتعت بموقع استراتيجي متميِّز، وكانت تقع على مقربة يسيرة من تونس (حوالي ١٢ ميلاً)، وهي مدينة مرفأ حيث تقع على ساحل البحر المتوسط. إن أصل كلمة قرطاجنة قرطا ثم أضيف إليها تركيب جنة، ويرجع زمنها إلى الفينيقيين الذين أسسوها في الشمال الغربي من خليج تونس وكانت مدينة جميلة طيبة عامرة البناء ولها أسوار من الرخام الأبيض وتشتمل على أعمدة رخامية متنوِّعة الألوان. والحقيقة أن العرب استثمروا رخام قرطاجنة عند تأسيسهم القيروان وتونس. وكانت قرطاجنة تشتمل أيضاً على القصور الفخمة والمعابد الكبيرة والحمّامات[1]. فأما الخيار الأول، قيروان معاوية بن حديج، فإن عقبة وقف ضده لعدم رغبته بموقع المدينة. أما بخصوص قرطاجنة فإن صفاتها وأهمية موقعها ربما قد حببها عند جماعة من المقاتلين العرب، إذ أشار المؤرِّخون إلى أن هؤلاء الراغبين في قرطاجنة اشترطوا (أن يكون أهلها مرابطين فيها وقالوا: نقربها من البحر ليتمّ الجهاد والرباط)[2]. غير أن عقبة اعترض على هذا الرأي مشيراً إلى مسألة مهمة جداً إذ قال ما نصّه (أخاف من ملك القسطنطينية) وفي رواية أخرى بأن جماعة من المقاتلين اعترضوا قائلين (نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر، فتسطوا علينا الفرنج)[3]. وأدلى ياقوت الحموي برواية ثالثة تدور حول نفس المِحْوَر، ذكر أن عقبة قال لجماعته (إنما اخترت هذا الموضع لِبُعْدِهِ عن

(١) أنظر حسن محمد جوهر: تونس (مصر طبعة ثانية) ص٢٥ ـ ٢٦.
(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار (بيروت ١٩٧٥) ص٤٨٦.
(٣) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج١ ص٧٨.

البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكوا..)[1]. إن رؤية عقبة والعرب المرافقين له، وفقاً للآراء السابقة، كانت رؤية واقعية حقاً لأن العرب خلال هذه الفترة التاريخية المبكرة لم يعتادوا بعد على ممارسة الحروب البحرية، فضلاً عن افتقارهم إلى أسطول بحري يقف أمام الأسطول البيزنطي الذي كانت له السيطرة البحرية. لذلك كلّه، فإن عقبة ومن رافقه من العرب قد وقفوا موقفاً معارضاً أيضاً بالنسبة للخيار الثاني في اتخاذ مدينة قرطاجنة. وكانوا فعلاً على حقّ، لأن جميع الدلائل التاريخية تؤكد أن العرب، سواء أكانوا بالنسبة إلى هذه المدينة أم المدن الأخرى التي كانت تقع بالقرب من الأمصار التي أسسوها كالحيرة والأبُلّة والاسكندرية لم يحبوا الاستقرار بها واتخاذها معسكرات لعوامل عسكرية استراتيجية واجتماعية. وقرطاجنة، كما تقدَّم ذِكْرُه، مدينة قديمة ومستقرّة يحيطها سور من جهة البحر، ويحيطها خندق عميق، وكان على الأسوار أبراج عالية. وهذه صفات لا تلائم طبيعة العملية التي انشغل فيها العرب، ألا وهي تحرير الأراضي التي كانت خاضعة للبيزنطيين، فكيف يتخذوا مكاناً محصوراً بأسوار وخندق، وهي سِمَات تلائم الموضع الدفاعي أكثر مما تلائم الموضع المفتوح إلى حركات عسكرية مستمرّة.

وقد أشار الدكتور الجنحاني في دراسته عن القيروان إلى أن عقبة أراد أن يبتعد عن شواطىء البحر المتوسط بهدف حماية ظهر جيشه من أية حملات بحرية بيزنطية مفاجئة[2]. علاوة على ذلك، فإنه هدف أيضاً إلى حماية ظهر جيشه بالطريق البرّي الذي يربط مواضع جنده في هذه المنطقة ومقرّ القيادة الذي كان آنئذٍ في مدينة الفسطاط. وهناك أمر استراتيجي عسكري آخر كان على عقبة أن يفكر بمواجهته وترصُّد حركاته ألا وهو الخوف من البربر الذين لم يدخلوا الإسلام بعد، فكان يَحْذَرُهُم ويخشى أن يشنّوا عليه هجمات برية مفاجئة، إذ يحدثنا المؤرّخون أن عقبة قال لأصحابه إن (أهل أفريقية قوم إذا عضّهم السيف

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٤٢١.

(٢) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب (١٩٦٨) ص٥٥.

أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى دينهم ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأياً)[1]. وقال أيضاً في هذا الصدد ناصحاً أصحابه أن يتخذوا مكاناً فيه شروط ملائمة فقال (قرّبوها من السبخة فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها آمنة من البربر)[2]، فكان موضع القيروان مواجهاً لجبال أوراس معقل البربر حيث كانوا ينحدرون منه فيباغتون العرب في أماكنهم. والملاحظ أن كلمات عقبة بن نافع بشأن العلاقة بين الموضع وشرط أن يكون موافقاً للإبل تذكّرنا بما كان يركز عليه الخليفة عمر بن الخطاب في اتخاذ مدينة الكوفة بأن العرب لا يلائمهم مكان إلا ذلك الذي يلائم حياة إبلهم وأن يكون قريباً من المرعى والمحتطب.

خلاصة لذلك، فإن بالإمكان القول إن الدوافع السياسية العسكرية كانت تمثّل دوافع مركزية في قرار عقبة في اتخاذه موضع القيروان وتأسيسه للمدينة. بقي علينا أن نشخّص الخصائص والمستلزمات المتوافرة في الموضع المنتخب وفيما إذا كان فعلاً موافقاً للتفكير الاستراتيجي العسكري العربي في اتخاذه واختيار الأمصار العسكرية.

فموضع القيروان تميَّز:

١ ـ بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أيُّ بحر أو نهر، فهو اعتماداً على ما كتبه الجغرافيون والبلدانيون العرب يقع على الطريق البرّي الذي يربط بين الفسطاط (مصر) وبين المغرب. وقد قدَّر كتاب المسالك طول هذا الطريق بحوالي ٦٣٨ ميلاً. وبذلك تكون نظرية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المتعلقة باتخاذ الأمصار والمعسكرات: أن لا يفصلها نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء، قد أخذت بنظر الاعتبار في اختيار موضع القيروان أيضاً من قِبَلِ عقبة بن نافع.

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٢٠.
(٢) الحميري: الروض المعطار ص٤٨٦.

٢ - موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلّى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريباً من السبخة (فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها..)[١]، وكذلك في الكلمات التي عبَّر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا (نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر..)[٢]. إن هذين الرأيَيْن يتفقان تماماً وما سبق أن فرضه العرب من مستلزمات في الأمصار الإسلامية السابقة وأن تكون قريبة من الريف حيث الكلأ والمراعي والمحتطب. والآراء بحدّ ذاتها تعكس أبعاداً مناخية وجغرافية على اعتبار أن العربي لم يُعجب باتخاذ المواضع المستقرة ذات المناخ الرطب وأنه يحبّ السكن في المواضع البرية المرتفعة عن المباق.

٣ - بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة عن غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهاً لجبال أوراس، معقل قبائل البربر. إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمَّن بعض المحاصيل التي تكفل للمقاتلين العرب مورداً غذائياً مهماً[٣].

٤ - صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق واضح بين المصرَيْنِ، فإن مياه البصرة كانت من الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مَصْدَرَيْن، الأول منهما الأمطار حيث كانت تُخَزَّنُ في صهاريج يُطْلَقُ عليها اسم (المواجل) وثانيهما مياه وادي السراويل في قبلة

(١) الروض المعطار ص٤٨٦.
(٢) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج١ ص٧٨.
(٣) حسن محمد جوهر: تونس ص٤١، الحبيب الجنحاني: القيروان ص٥٩.

المدينة، لكنه كان مالحاً. لذلك، فإن اليعقوبي حدَّد مصدر مياه القيروان قائلاً: (وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل.. ولهم وادٍ يسمّى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجون إليه)[١]. وأشار المقدسي إلى مسألة تشابه ما ذَكَرَهُ اليعقوبي عند حديثه عن موارد أهل القيروان المائية، فقال إن شربهم من (مواجين وصهاريج يجتمع فيها ماء المطر)[٢]. ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقَّدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجياً إلى حدٍّ ما، إذ يُروى بأن المعزّ قد حفر للمدينة قناة مصدرها من الجبل تملأ تلك المواجل بعد ما تدخل قصره في مدينة صبرة المجاورة. وقد أورد البكري أن هناك حوالي خمسة عشر ماجلاً للماء قد بناها هشام بن عبد الملك لكنَّ أعظم تلك المواجل ما بناه أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب، وهو مستدير ذو مساحة كبيرة يتصل به ماجل أصغر، فإذا جرى الماء من الوادي يقع في الماجل الصغير ثم يتحوَّل بعد امتلائه إلى الماجل الكبير[٣].

* * *

شهدت القيروان بعد تأسيسها تطوُّرات عمرانية واجتماعية سريعة خاصة عندما اتسع نطاق هذه الجبهة عسكرياً، فصارت القبائل العربية تتوافد على المنطقة، مما أدى إلى زيادة حجمها السكاني. لقد استغرق بناء مدينة القيروان، كما ذكر المؤلِّفون، خمس سنوات (من سنة ٥٠ ـ ٥٥هـ/ ٦٧٠ ـ ٦٧٤م، وبلغت مساحتها حوالي ثلاثة آلاف وستمائة باعٍ ومساحة سورها اثني عشر

(١) اليعقوبي: البلدان ص٣٤٨، ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨٠، الحبيب الجنحاني: ص٥٩.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢١٦ ـ ٢١٧.
(٣) البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص٢٦.

ميلاً. واعتماداً على أقوال الجغرافيين إنها اجتذبت إدارة المنطقة. فبعد أن كانت العمليات العسكرية العربية تابعة إلى الفسطاط إدارياً صار الأمر بعد تأسيس القيروان غير ذلك. إذ صارت عاصمة أفريقية حيث تضمُّ ديوان جميع المغرب وبها دار السلطان، وكانت مقرَّ ولاية الوالي، وإليها تُجبى أموال المغرب. لذلك فقد أطلق عليها المقدسي تعبيراً مهماً وهو (مركز السلطان) لِما تمتعت به من مزايا إدارية، ووُصِفَتْ بأنها قاعدة البلاد الأفريقية[1].

## خطط القيروان:

ليست هناك معلومات وافية عن الأسس الهندسية والعمرانية التي استند إليها توزيع خطط القيروان ووحداتها العمرانية على عكس ما نملك من معلومات بشأن المدن الإسلامية الأخرى. وأن كلَّ ما لدينا من معلومات تشير إلى أن عقبة بن نافع بعد اختطاطه المسجد الجامع ودار الإمارة، أقطع الناس المواضع لاتخاذ مساكنهم، فعمَّر هؤلاء المدينة. وامتدت حركة البناء والعمران في الموضع فترة خمس سنوات. ومع ذلك، فإنه بالإمكان القول إن عقبة قد تأثر بتخطيط المدن العربية الأخرى السابقة التي استندت إلى الأساس القبلي. وهو استنتاج توافقه طبيعة المرحلة التاريخية وطبيعة التكوين الاجتماعي للجيش المرافق مع عقبة.

## المسجد الجامع:

تتَّفق الروايات على أن عقبة بن نافع قد خطَّ أول خطة في الموضع المنتخب بعد أن استقرَّ رأيه ألا وهو المسجد الجامع ودار الإمارة. إذ إن هناك قصة تبيِّن حيرة عقبة بعد بنائه المسجد الجامع في تحديد الوجهة الصحيحة للقبلة، فبات ليلته مهموماً لكنه سمع في منامه صوتاً يقول به (في غد أدخل الجامع فإنك تسمع تكبيراً فاتبعه..)[2] التي تبيِّن بوضوح أن البناء موجود لكن تحديد القبلة

(١) الإصطخري: المسالك ص٣٤، المقدسي: ص٢١٦ ـ ٢١٧، الروض المعطار ص٤٨٦.
(٢) البلاذري: فتوح ص٢٣٠، ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٢١، الناصري: الاستقصا ص٧٤، الحميري: الروض المعطار ص٤٨٦ ـ ٤٨٧.

لم ينتهِ بعد. علماً بأن رواية البلاذري عن هذا الموضوع لا تشير إلى مسألة القبلة فقط، إنما يذكر أن عقبة حينما أراد تمصير القيروان فكَّر في موضع للمسجد الجامع، فجاءه رجل في منامه وهو يؤذِّن في الموضع الذي صار بعدئذٍ مئذنة المسجد، فلما أصبح الصباح بنى المنبر في الموضع الذي رأى فيه الرجل وهو يؤذِّن ثم ابتنى المسجد الجامع. ويبدو أن عقبة قد بنى هذا المسجد من مادَّتَي اللَّبِن والطين وذلك اعتماداً على ما ذُكِرَ بأن سور القيروان كان مبنياً باللَّبِن والطين حين هدمه زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي. كما أن المقدسي يشير في كتابه إلى أن بيوت الأهالي في القيروان كانت من مَدَرٍ وآجُرّ، آخذين بنظر الاعتبار أن إشارة المقدسي تخصُّ القرن الرابع للهجرة. وعلى أية حال، فإن بناء عقبة لم يستمر طويلاً إذ قام والي عبد الملك بن مروان، حسان بن نعمان الغساني الذي وصل أفريقية سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م، بهدم المسجد الجامع عدا المحراب وإعادة بنائه من جديد، فيحدثنا البكري أن حساناً هذا قد حمل أثناء عملية تجديد المسجد الجامع ساريتين حمراوين من كنيسة كانت في موضع صار يُعْرَفُ أثناء حياة البكري (القرن الخامس للهجرة) بالقيسارية، وكانتا ساريتَيْنِ عجيبتَيْن (لم يرَ في البلاد ما يُفْتَرَنُ بهما). وقد جعل حسان هاتين الساريتين مقابل المحراب وعليهما القبة المتصلة بالمحراب. وقد تعرَّض المسجد الجامع بعد فترة حسان إلى عدة عمليات من الهدم والبناء والتوسيع والتحسين، ففي خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامل القيروان كتاباً يعلمه فيه عن ضِيقِ المسجد الجامع بالناس، وأن هناك موضعاً قريباً منه تعود ملكيَّته إلى جماعة من قبيلة بهرة فأمره الخليفة بشرائها وإدخالها في المسجد الجامع، كما بنى هذا العامل ماجلاً (مخزن مياه) في صحن المسجد وهو المعروف بالماجل القديم ويقع غرب البلاطات، وبنى صومعة في بئر الجنان. ويبدو أن بعض الفقهاء كرهوا الصلاة في هذه الزيادة على اعتبار أن العامل قد أكره أهلها على بَيْعِها. ولما ولِّي القيروان يزيد بن حاتم سنة ١٥٥هـ/ ٧٧١م، هدم المسجد الجامع أيضاً كلَّه، عدا المحراب ثم أعاد بناءه واشترى العمود الأخضر ووَضَعَهُ في البناء الجديد، ذلك العمود الذي كان يصلّي عليه القاضي أو العباس عبدون. ثم تعرَّض المسجد إلى هَدْمٍ أيضاً أيام ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب

وأنه أراد هَدْمَ المحراب أيضاً، لكنه أحجم عن ذلك. غير أنه استعان ببعض المهندسين الذين قاموا بإدخال المحراب بين حائِطَيْن دون أن يهدموه وبنى محراباً من الرخام الأبيض عليه نقوش. وصار عدد ما في المسجد الجامع من الأعمدة ٤١٤ عموداً وعدد بلاطاته ١٧ بلاطاً. وكان طول المسجد ٢٢٠ ذراعاً (حوالي ١٠٠م) وعرضه ١٥٠ ذراعاً (٧٥م). وبنى زيادة الله المقصورة فيه. وبلغت نفقة بنائه (٨٦) ألف مثقال. وحينما تولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ولاية القيروان زاد في طول بلاطات الجامع ثم بنى القبة المعروفة بباب البَهْوِ على آخر بلاط المحراب. وفرش صحن المسجد بمسافة تبلغ (١٥) ذراعاً. وكان للمسجد الجامع عشرة أبواب ومقصورة خاصة للنساء في شرقيِّها يفصلها عن المسجد حائط[1]. وقد حاول معد بن إسماعيل الفاطمي أن يُحْرِفَ قبلة المسجد سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، لكنه لم ينفِّذ إجراءه هذا.

لقد وَصَفَ المؤرِّخون المسجد الجامع في القيروان بكبر المساحة وعظمة البناء حتى إن المقدسي قال بأنه أكبر من جامع أحمد بن طولون في العسكر في الفسطاط. فكان يحتوي على أعمدة رخامية بيضاء، وأنه كان مفروشاً، وكانت مرازيبه من الرصاص. وأنه ماثلٌ للعيان حتى هذه الفترة حيث ينبهر الزائر في عظمة بناء هذا المسجد وكثرة أساطينه. أما موقعه فإنه كان في وسط الأسواق كما هي الحال في المساجد الجامعة الأخرى، وكانت له أبواب عدة منها باب السماط وباب الصرافين وباب الحواريين وباب سوق الخميس وباب الميضأة وباب الخاصة وكان يقع في التمارين وباب الرهادنة وباب الفضوليين وباب المأذنة وباب الصباغين[2]. وهي أسماء تعكس لنا بوضوح توزيع الأسواق المتخصصة حول المسجد الجامع. لذلك يمكن اعتبار هذه الوحدة العمرانية الوحدة المركزية للمدينة حيث تتوزَّع خططها وأسواقها ومحلاتها.

---

(١) أنظر المقدسي: احسن التقاسيم ص٢١٦ ـ ٢١٧، أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص٢٢ ـ ٢٤، الروض المعطار ص٤٨٧.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح ص٢٦٦، عن دار الإمارة أنظر: البلاذري: فتوح ص٢٣٠، ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٢١.

## دار الإمارة:

تبيَّن جميع الروايات التاريخية أن عقبة بن نافع قد اختطَّ لنفسه داراً بالقرب من المسجد الجامع بالجانب القبلي منه، ولعلَّه قد ابتناها من اللَّبِن أيضاً. وقد بقيت هذه الدار خلال فترة عقبة بن نافع لأن هناك رواية أوردها ابن عبد الحكم تشير إلى أن أبا المهاجر الذي خَلَفَ عقبة قد كَرِهَ أن ينزل في الموضع الذي اختطَّه عقبة ولذلك اتخذ داراً بعيداً عن الدار السابقة بحوالي ميلَيْن. بالرغم من ذلك فليس هناك من دليل آخر يوضح انتقال دار الإمارة نهائياً إلى الموضع الذي اتخذه أبو المهاجر. ويبدو أن دار عقبة ظلَّت تمثِّل دار الإمارة للولاة والعمال الذين جاءوا بعد ذلك حتى سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، إذ يشير أبو عبيد البكري إلى أن إبراهيم بن الأغلب قد بنى لنفسه مدينة أطلق عليها اسم القصر القديم بالجانب القبلي لمدينة القيروان وتبعد عنها بمسافة ثلاثة أميال. ولما انتقل إبراهيم إليها خرب دار الإمارة التي كانت موجودة في القيروان منذ مرحلة تأسيسها[١]. فصارت منذ هذه الفترة مدينة القصر القديم هي مستقرّ أمراء بني الأغلب، وتحوَّلت دار الإمارة بعد ذلك إلى مدينة رقادة والمهدية وصبرة وغيرها من المدن التي تأسست إلى جوار القيروان خلال فترات مختلفة.

لم تَرِدْ أية معلومات وافية عن دار الإمارة في القيروان وسَعَتِها ودُورها طيلة الفترة منذ تأسيسها حتى انتقال الإدارة إلى المدن التي أنشأها الأغالبة والفاطميون بالقرب من هذا الموضع. ومن الممكن القول إن هذه الدار والمسجد الجامع كانا في وسط المدينة لأن المسجد الجامع كان في وسط الأسواق وأن بيت المال أو الديوان والمنشآت الإدارية الأخرى كانت تتجمَّع حول هذين الموضعين.

## خطط الأهالي:

ليست هناك معلومات مباشرة ودقيقة عن الأساس الذي اتَّبعه عقبة في توزيع

(١) أبو عبيد البكري: المغرب ص٢٨. أنظر عن الدار أيضاً ابن عبد الحكم: فتوح ص٢٦٦، البلاذري: فتوح ص٢٣٠.

خطط ومساكن الناس، لذلك لا نعلم فيما إذا كانت خططها قد قسّمت تقسيماً قبلياً كما هي الحال في الأمصار الأخرى، أو أن دروبها ومحلاتها قد اتخذت أساس الإقطاعات الشخصية فحملت أسماء مقطعيها، إذ إن هناك روايات توضح أن عقبة قد أقطع الناس. ومع ذلك فإنه بالإمكان ترجيح الرأي الأول المتعلق بالتوزيع القبلي في المدينة. إذ إن هناك رواية عند اليعقوبي يذكر فيها أن سكان المدينة كانوا عرباً من قريش ومضر وربيعة وقحطان، وحينما توسعت بمرور الزمن، أخذت تضمُّ أخلاطاً من الناس عرباً وعجماً من أهل خراسان الذين وردوا إليها أثناء الفترة العباسية حيث كانوا يشكلون قوة في جيوش الولاة العباسيين الذين جاءوا القيروان. كما أن هناك بربراً وجماعة من الروم[1]. على هذا الأساس يحتمل أن الأقطاعات التي أقطعها عقبة كانت لأفراد القبيلة الواحدة، ويبدو أيضاً أن هناك مساجد في كلّ خطة من هذه الخطط، كما هي الحال في الفسطاط أو المدن الأخرى، إذ يقول ابن خلدون أن الناس بَنَوْا مساكنهم ومساجدهم[2].

إن قراءة القائمة التي أوردها المقدسي في القرن الرابع للهجرة، حول دروب أو محلات القيروان تكشف أسماءها وتشير إلى أن بعضها كان موزَّعاً توزيعاً قبلياً أو شخصياً، فهناك دَرْبُ أسلم ودَرْبُ أصرم ودَرْبُ الربيع أو دَرْبُ عبد الله، آخذين بنظر الاعتبار أنه من الصعب جداً تحديد هوية شاغلي هذه المحلات وفيما إذا كانوا ينتمون إلى هذه القبيلة أو تلك وذلك لأنها إشارة مبتسرة لا تسمح لنا التفصيل فيها. ويبدو أن الناس قد بَنَوْا مساكنهم من اللَّبِن أيضاً خلال المرحلة التأسيسية للقيروان.

## الأسواق:

تكشف المعلومات التي أدلى بها المؤرِّخون أن عقبة عند اتخاذه المسجد الجامع صار موضعاً وسط الأسواق. وتوضح لنا أسماء أبواب المسجد الجامع

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٢) الناصري: الاستقصا ص٧٨.

في القيروان طبيعة توزيع هذه الأسواق وخصائص كلّ سوق منها، فهناك مثلاً باب الصرافين الذي يشير إلى أنه الباب الذي يقود إلى دَرْبٍ أو سوق يجتمع فيها الصرافون، وكانت هذه السوق مجاورة للمسجد الجامع. كما أن هناك باباً باسم باب الصباغين حيث يقود أيضاً إلى دَرْبٍ أو إلى سوق الصباغين ولعلّهم كانوا صبّاغي الأنسجة والملابس. وهناك باب يسمّى باب الخاصة وهو يقود إلى سوق التمّارين، من المحتمل أنه يشتمل على الحوانيت التي يباع فيها التمر، وهناك ذِكْرٌ إلى سوق الرماحين وسوق اللخامين وسوق الفلالين. وتشير رواية أبي عبيد البكري إلى أن سماط سوق القيروان قبل أن يُنقل إلى مدينة المنصورية (مدينة صبرة) كان متصلاً من جهة القبلة إلى الجوف ويبلغ طوله من باب أبي ربيع إلى المسجد الجامع حوالي ميلين إلا ثلث، ويمتد من الجامع حتى باب تونس بمسافة ثلث ميل. ووُصِفَ هذا المجمّع بأنه كان سماطاً متصلاً، ويشتمل على جميع التجارات والصنائع والمِهَن. ويُعزى أمر ترتيبه وتنظيمه إلى هشام بن عبد الملك حيث وزّعه توزيعاً مهنياً فصارت كلّ سوق متخصصة بنوع من المِهَنِ أو البضائع[1].

لقد وُصِفَتْ مدينة القيروان بكثرة أسواقها ونشاط الحركة التجارية فيها. وظلّت هذه الأسواق تعكس وَضْعَ المدينة الاقتصادي فترة من الزمن، فقد قال المقدسي عن القيروان من النواحي الاقتصادية إنها مدينة حسنة الأخباز جيدة اللحوم وفي أسواقها الكثير من الفواكه. وكانت أسعار البضائع فيها رخيصة (فاللحم خمسة أمناء بدرهم) والتين عشرة أمناء بدرهم. ويعقّب على ذلك بقوله (ولا تسأل عن الزبيب والتمر والأعناب والزيت)[2] ويُلَمِّحُ ابن حوقل بشكل مختصر إلى أحوال المدينة فيقول إنها أكثر مدن المغرب تجارة وأموالاً وأحسنها أسواقاً. وقد قدّر ما يرتفع من المغرب من أموال وما يؤخذ من عشور على التجارات الواردة إلى القيروان والخارجة منها إلى مصر بما يبلغ سبعمائة ألف دينار إلى ثمانمائة ألف دينار. وعدّد الصناعات والتجارات التي كانت تُنقل من

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢١٦ ـ ٢١٧، البكري: المغرب ص٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المقدسي: المصدر السابق.

المغرب عبر القيروان من الرقيق إلى الأنسجة الحريرية والصوفية الرفيعة والحرير والرصاص والزئبق والخيول والعنبر والفواكه والتمور.. الخ[١].

ظلّت القيروان مشهورة بأسواقها وحركتها التجارية إلى حوالي سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، حيث بنى إسماعيل مدينة صبرة وسمّاها المنصورية وكانت متصلة بالقيروان، لكن ابنه معد بن إسماعيل اتخذ خطوة أدت إلى نتائج اقتصادية وخيمة بالنسبة إلى القيروان، إذ نَقَلَ جميع الأسواق وصناعاتها وتجاراتها إلى مدينة صبرة[٢].

## السكك والدروب:

المعلومات الوحيدة التي تبيِّن لنا أسماء دروب وسكك القيروان أوردها الجغرافي المقدسي، إذ يقول للمدينة خمسة عشر درباً، ويبدو أنها كانت دروباً رفقة واسعة، لكننا لا نعلم فيما إذا كانت منظَّمة وفقاً للقياسات التي وُضِعَتْ على أساسها دروب وسكك البصرة والكوفة أم لا؟ فهناك دروب تحمل أسماء أشخاص مثل دَرْبِ الربيع أو أبي الربيع ودَرْبِ عبد الله ودَرْبِ نافع ودَرْبِ أسلم ودَرْبِ أصرم، وهي أسماء قد تجمع بين الطابع الشخصي والقبلي. كما أن هناك دروباً تحمل أسماء أسواق وأصحاب مِهَنٍ مثل دَرْبِ الحدائين ودَرْبِ سوق الأحد. وهناك دروب تحمل أسماء أماكن مثل دَرْبِ تونس ودَرْبِ الرهادنة.. الخ، ويبدو أن هذه الدروب كانت تمثِّل محلات سكنية أيضاً تتوزَّع مساكن الأهالي على جانبيها.

## السور:

من المحتمل جداً أن عقبة بن نافع لم يكن قد ابتنى سور مدينة القيروان عند اختياره وتمصيره الموضع، ولعلَّه هَدَفَ من وراء ذلك إلى كَشْفِ ورَصْدِ تحركات قبائل البربر من جبال أوراس والبيزنطيين من البحر. علماً بأن صاحب

---

(١) ابن حوقل: صورة ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) البكري: المغرب ص٢٥.

كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) اعتمد على كتاب (الخلاصة النقية) الذي يذكر مؤلِّفه أن بناء السور يرجع إلى عقبة حيث كانت مساحته اثني عشر ميلاً[1]. فهل يمكننا الاعتماد على هذه الرواية لتفنيد ما سبق ذِكْرُهُ من أن عقبة لم يؤسس السور؟ بالنظر إلى عدم اتفاق المصادر الأخرى التي سبقت فترة حياة صاحب كتاب الاستقصا، بالإمكان القول إن هناك خَلْطاً بين فترة عقبة بن نافع وتاريخ أول ذِكْرٍ لوجود سور القيروان؟ إذ اعتماداً على ما أورده أبو عبيد البكري أن القيروان في مراحلها التأسيسية الأولى كانت تضمُّ سبعة محارس. وهي نقاط حراسة ورَصْد، فكانت أربعة من هذه المحارس تقع خارجها والثلاثة الباقية في داخلها، وهي إشارة تؤيد أن هَدَفَ عقبة العسكري مراقبة تحركات البربر والبيزنطيين. أما السور الذي وَرَدَ ذِكْرُهُ عند اليعقوبي الذي قال ما نصّه (والقيروان مدينة كان عليها سور من لبِنٍ وطين فهدمه زيادة الله..)[2]، وقد هدمه بسبب الثورة التي اشترك فيها عدد من قادة محمد بن الأشعث الخزاعي أول قائد عباسي يدخل المغرب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م. ويوضح أبو عبيد البكري هذا الأمر بقوله إن محمد بن الأشعث الخزاعي هو الذي بنى سور القيروان في تلك السنة، أي سنة ١٤٤هـ، وكان البناء من الطوب (اللَّبِن) وسَعَتُهُ عشرة أذرع[3] (أي ما يقارب ٥م). ويبدو أن سَعَتَهُ لا تعني مساحته الكلية لأن عشرة أذرع قليلة جداً، وربما تكون سَعَةُ أساس السور أو ارتفاعه. لذلك، فإنه من المحتمل جداً أن يكون صاحب كتاب الاستقصاء قد قصد بالسور ذاك الذي ابتناه محمد بن الأشعث لا عقبة بن نافع. وقد وصف البكري هذا السور بقوله أنه كان يحتوي على عدة أبواب، واحد منها في جهة القبلة وموضعه بين القبلة والغرب وهناك باب ثانٍ بين الجهة القبلية والجانب الشرقي من المدينة يسمّى باب أبي الربيع، والثالث هو باب عبد الله وباب نافع في الجانب الشرقي، وباب تونس في جوفية وباب أسلم وباب أصرم في الجانب الغربي. ويبدو أن

---

(١) الناصري: الاستقصا ص٧٨.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٣٤٧، ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨٠.
(٣) البكري: المغرب ص٢٤.

فترة بقاء هذا السور كانت قصيرة، إذ كما وَرَدَ سابقاً، أن زيادة الله بن إبراهيم الأغلبي قد هدمه حينما ثار عليه أهل القيروان متعاطفين مع عدد من قادة الجند الذين رافقوا محمد بن الأشعث، وكان ذلك في سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م، فكانت المدة التي استمر فيها وجود السور حوالي خمس وستين سنة. وظلّت مدينة القيروان خالية من وجود السور قرابة القرنين من الزمان، إذ أعاد بناءه ثانية المعزّ بن باديس بن منصور الصنهاجي سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م، فبلغت مساحته حوالي ٢٢ ألف ذراع (ما يعادل تقريباً ١٠ آلاف متر) وهي مساحة تقلُّ عما ذَكَرَهُ الناصري (أن مساحة السور (١٢) ميلاً). وقد جعل المعزّ السور الجديد مما يلي مدينة صبرة كأنه الفصيل، ويتكوَّن من حائطَيْن يتصلان إلى مدينة صبرة، والمسافة بين الحائطَيْن نصف ميل[1]. لقد وضع المعزّ هذه الصيغة للسور وذلك ليمنع دخول التجار والواردين إلى القيروان إلا بعد مرورهم بمدينة صبرة ليدفعوا المكوس. ومن المحتمل أن السور الذي ذَكَرَهُ صاحب الاستقصا يقْصدُ به سور المعزّ.

## انحلال أحوال مدينة القيروان:

مما تقدَّم ذِكْرُهُ، يمكننا القول بأن لمدينة القيروان مكانة مهمة في عدة مجالات وأهمها الجانب التجاري على اعتبار أنها كانت تحتلُّ موقعاً مهماً على الطريق التجاري البرّي الذي يربط المشرق عبر الفسطاط بالمغرب، وهو طريق مهم جداً، إذ أوضح ابن حوقل أن القيروان كانت ديوان جميع المغرب وإليها تُجبى الأموال وقد قدّر دَخْلُ المغرب من جميع الوجوه، خاصة الخراج والعشور وما يؤخذ من مكوس على ما يَرِدُ من بلاد الروم والأندلس، بحراً، حيث كان يتمُّ تعشير هذه التجارات على سواحل البحر، وما يدفعه الخارج من القيروان إلى مصر وما يَرِدُ إليها بحوالي ٧٠٠,٠٠٠ ـ ٨٠٠,٠٠٠ دينار، وكان يجهز عبر هذا الطريق البرّي مختلف البضائع والتجارات من أنسجة إلى رقيق

---

(١) ن. م ص٣٤ ـ ٣٥.

إلى معادن إلى خيل نفيسة وبراذين وإبل وغنم إلى فواكه وتمور وزيت. بحيث أن المقدسي أطلق على المدينة تعبير فُرضة المغربين ومتجر البحرين[1].

وقد أخذت القيروان تجتذب الناس من مختلف الأجناس بعد أن اتسع صيتها واستقرّت الأوضاع السياسية في المغرب، فسكنها العرب من مختلف القبائل والروم والبربر والعجم. وصار المسجد الجامع فيها مدرسة فكرية التقت فيه أفكار وآراء فقهية وأدبية وفلسفية، فَنُسِبَ إليها المتكلم محمد بن أبي بكر عتيق الملقب بأبي عبيد الله التميمي القيرواني والمعروف بابن أبي كدية وأبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي صاحب الباقلاني وكان يدرس الكلام في مدرسة النظامية في بغداد، والإمام سحنون صاحب كتاب المدوَّنة وابن برذون ومحمد بن عبدوس وعبد الله بن غانم وابن شرف القيرواني الشاعر وابن رشيق وإبراهيم الحصري وغيرهم[2].

غير أن المدينة أخذت تواجه منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد فصاعداً عدداً من التحديات التمدُّنية والاضطرابات السياسية التي ساعدت بمرور الزمن على انحلال وَضْعِ المدينة وتضاؤل أهميتها ومن بين هذه التحدّيات والتطوُّرات:

١ ـ بالإمكان اعتبار مدينة القيروان من المدن المركبة كما هي الحال في بغداد، مدينة السلام، والفسطاط وذلك لوجود عدد من الضواحي أو المدن الصغيرة التي تأسست نتيجة ظروف سياسية وشخصية إلى جوارها وبالقرب منها ولكنها نَمَتْ وتطوَّرَتْ على حسابها، أي القيروان. فقد أسَّس الأغالبة مثلاً عدة مدن كمدينة القصر القديم والعباسية ورقادة وأسَّس الفاطميون مدن صبرة والمهدية. صحيح أن هذه المدن عموماً كانت مدناً صغيرة ووقتية إذ انحلَّ أمرها وتضعضع شأنها بعد انحلال أمْرِ مؤسّسها وتبدُّل الأوضاع السياسية لهذه الإمارة أو تلك. لكنها بحدِّ ذاتها عوامل أساسية لعبت دوراً

(١) أنظر ابن حوقل: ص٩٤ ـ ٩٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٢١٦.
(٢) أنظر الحبيب الجنحاني: القيروان ص١٥٣ ـ ١٦٥.

مهماً في التقليل من أهمية القيروان وتعطيل دورها خلال فترات تاريخية مختلفة، ولا أدلّ على ذلك من مثال واحد يتعلق بِنَقْلِ معد ابن إسماعيل جميع أسواقها وتجاراتها وصناعاتها إلى صبرة.

٢ ـ عوامل تمدُّنية سياسية تلك المتمثلة بهجوم قبائل بني هلال وبني سليم. فقد زحف هؤلاء من مصر بتشجيع من الفاطميين نحو مدن المغرب متَّبعين الطريق البرّي الذي يقود في نهاية الأمر إلى مدينة القيروان والمدن المغربية الأخرى، فكانت القيروان بالفعل واحدة من هذه المدن الرئيسة التي صارت في طريق هجرة بني هلال وسليم، لذلك فرضوا عليها الحصار قبل دخولها عدة أشهر وقد فرضوا سيطرتهم خلالها على المدن المجاورة كرقادة وصبرة. بعدها دخلوا القيروان محطّمين، على أثر ذلك، معالمها ودمَّروا عمرانها ونهبوا دُورها ومحلاتها فمات من أهاليها، على ما يذكره المؤرّخون، الآلاف. لذلك اضطر المعزّ بن باديس أن ينتقل من صبرة ـ القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، إلى مدينة المهدية قبل دخول بني هلال تاركاً المدينة ضحية لهم فصارت في أيديهم. فتحوَّلت، كما يذكر ابن عذاري، إلى مدينة مقفرة قليلة السكان لأنهم هجروها إلى المهدية أو إلى المدن الأخرى. وأشار أبو عبيد البكري إلى أنها أُخْلِيَتْ ولم يبقَ فيها إلا الضعفاء والفقراء. ووَصَفَها ابن عبد الحق في كتابه مراصد الاطلاع بأنه عندما سيطر عليها الأعراب انتقل أهلها، ولم يبقَ فيها غير أولئك الضعفاء والصعاليك[1].

كما ألمحنا في السابق، أن مدينة القيروان مدينة مركَّبة، إذ ظهرت على حسابها مجموعة من المدن الصغيرة لكنها مهمة نتيجة لاتخاذها مقرًّا للولاة وأمراء الإمارات في المغرب. وقد أثَّرت هذه المدن

(١) أنظر البكري: المغرب ص٢٦، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب ج٤ ص٣٠٣، ٣٠٤، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ص ١١٣٩، نيقولا زيادة: مدن عربية ص٦٦.

كثيراً على وضعية مدينة القيروان بالرغم من أنها المدينة الأم. ويبدو أن العوامل الشخصية والسياسية هي التي دفعت ببعض أمراء الأغالبة والفاطميين إلى أن يشيِّدوا مثل هذه المدن، فأهالي القيروان، مثلاً، وقفوا مع الثوار المناهضين لزيادة الله الأغلبي، الأمر الذي دفعه إلى تهديم سورها، كما أن الفاطميين لم يثقوا بأهالي القيروان، فكان لا بدَّ لهم من أن يؤسسوا مكاناً آخر يطمئنّون إلى موقف أهاليه إلى جانبهم. من هذا المنطلق نجد من الضروري دراسة هذه المدن المتولِّدة من القيروان دراسة مختصرة لأهميتها في التحوُّلات التمدُّنية التي طرأت على القيروان.

## مدينة العباسية:

وهي مدينة ابتناها إبراهيم بن الأغلب بن سالم أمير الأغالبة سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، بالقرب من القيروان، وعلى وجه التحديد على بعد ثلاثة أميال من ناحيتها القبلية. ويبدو أن أصل هذه المدينة قصر للأمير إبراهيم الأغلبي، لأن هذا الأمير ترك دار الإمارة الموجودة في القيروان التي كانت تقع إلى جنوب المسجد الجامع، وأسس له داراً أو قصر إمارة جديد على بُعْدِ ثلاثة أميال. ولكن انتقال كرسي الإمارة يعني انتقالاً في شؤونها الإدارية أيضاً، فانتقلت مؤسسات ومنشآت الدولة من موظفين ودواوين. ويذكر ابن عذاري أن الأمير إبراهيم الأغلبي عندما ترك قصر الإمارة القديم إلى قصره الجديد، نَقَلَ معه السلاح والعدد وحوَّل عبيده وجنده وأسكنهم حول قصره، كما أنه نَقَلَ كلَّ من يثق به من الموظفين. غير أن المهم في رواية ابن عذاري أن إبراهيم قام بجميع تلك الإجراءات سراً. فهل يعني ذلك أنه لم يكن مرتاحاً لأهل القيروان أو بالأحرى لم يثق بهم أم أنه لم يكن يريد إثارة نفوس وأحقاد أهالي المدينة الأم، القيروان، من خلال نَقْلِهِ العاصمة ومستقرَّ الولاة؟ أم أنه هدف من وراء ذلك إلى الابتعاد عن أية تحدِّيات سياسية، كأن يؤدي هذا الإجراء إلى حالة من الاضطراب والفتن ضده؟ أم أنها جاءت بفعل عوامل نفسية تتعلق بعدم رغبة أو

كُرْه إبراهيم البقاء في القيروان مع جنده وأن تأسيسه مدينة جديدة تكون رمزاً لإمارته وسطوته؟ أم أنه أراد كما أراد الخليفة العباسي المعتصم أن ينعزل بعسكره وحاشيته وعبيده في موضع خاص لا يبعد كثيراً عن المدينة الأم؟ إن جميع هذه التساؤلات وغيرها تدلل بوضوح وقتية هذا الموضع الجديد وبأنه موضع اقتصرت مهمته بشكل أساسي على أنه قصر جديد للأمير. وقد تركزت حول هذا القصر الوحدات الطوبوغرافية المتمثلة ببيوت وقصور الجنود الموالين له، كما هي الحال في مسألة تأسيس القطائع في الفسطاط التي كانت أصلاً عبارة عن قصر لأحمد بن طولون ثم توسع إلى مدينة. لذلك نجد أن قصر إبراهيم هو الآخر قد شهد تطوُّرات عمرانية واجتماعية مشابهة، إذ صار أولاً المركز الإداري والعسكري للأمير ثم تحوَّل إلى مركز تمدُّني بانتقال الأسواق والناس واتخاذهم خططاً مستقلة عن تلك الموجودة في القيروان.

ترجع تسمية مدينة القصر هذه بالعباسية نسبة إلى بني العباس، وذُكِرَ أنها سُمِّيَتْ أيضاً بمدينة القصر القديم. ومن المحتمل أن مدينة القصر هذه نظراً لما تمتعت به من موقع إداري وبأنها مستقرُّ الأمير أخذت تنمو على حساب القيروان ويرجع ذلك إلى عدة أمور مهمة وهي:

١ ـ **مصادر المياه**: يقف هذا العامل، بالدرجة الأولى، على رأس العوامل الأخرى لأهميته، إذ يقول البكري بأنه إذا قلَّت مياه مدينة القيروان وسادها القحط نقلوا إليها المياه من مدينة القصر. وذلك لأن إبراهيم الأغلبي قد بنى لمدينته عدة صهاريج (مواجل) لخزن المياه أوقات الحاجة. ومن الواضح أن عدم توافر مياه الشرب كان من أهم المشاكل التي واجهت نموَّ مدينة القيروان وتوسُّعها، من ذلك نستنتج أن توافر المياه في مدينة القصر القديم قد هيَّأ لها عناصر مهمة في التطوُّر والنموّ.

٢ ـ **عوامل إدارية عسكرية**: وتتمثل هذه العوامل، كما ألمحنا، بأن هذه المدينة الجديدة صارت محلَّ إقامة أمير هذه الإمارة ومعسكر جنده وعبيده ومحلَّ الدواوين حيث صارت كما يبدو تُجبى إليها الأموال.

٣ ـ عوامل فنية: وُصِفَتْ هذه المدينة بأنها دار الإمارة وقد بناها إبراهيم بالآجُرّ وبنى لها صومعة مستديرة بالآجُرّ والعمد مكوَّنة من سبع طبقات، ويذكر البكري بأنه (لم يُبْنَ أحكم منها ولا أحسن منظراً). وبنى أيضاً المسجد الجامع فيها، إذ بينما كانت دور أهالي القيروان باللَّبِن والطين صارت هذه المدينة أجمل وكانت دُور أهلها مبنية بالآجُرّ.

لذلك كلّه، نَمَتْ هذه المدينة وتوسَّعت فشملت البيوت الكثيرة والحمّامات العديدة والفنادق الكثيرة وأسواقاً جمّة ومواجل للماء كثيرة أيضاً. ونظراً لِسَعَةِ مساحتها، فإنها صارت تحتوي على عدة أبواب منها باب الرحمة وباب غليون وباب الريح وباب السعادة وكان مقابل المقبرة الكبيرة من الجانب الغربي. وكان من بين خططها الداخلية الرحبة الواسعة المحيطة بالقصر ما يُعرف بالميدان.

كانت العباسية، مدينة القصر القديم، مرتبطة بمدينة القيروان حضارياً وبشرياً ومتصلة بها جغرافياً. إذ يقول البكري إن الخارج من القيروان نحو مصر عبر باب الطراز تصبح القيروان إلى يساره ويسلك الطريق الواقع بين رقادة ومدينة القصر وإن أول نقطة يمرُّ بها بعد ذلك وادي السراويل ثم المنية ثم قرية زرور ثم قلشانة التي كانت تبعد حوالي اثني عشر ميلاً عن القيروان[١]. أي أن مدينة القصر لم تُتَّخذ بعيداً عن الطريق التجارية البرية الرئيسية التي كانت تربط مصر بالقيروان وبذلك تهيَّأت لها عوامل جغرافية اقتصادية متمثلة بالموقع.

والواقع أن مثل هذا الصنف من المدن التي يرجع سبب تأسيسها إلى عوامل سياسية أو أنها مدن ولاة أو أمراء قد لا يستمر بقاؤها وتدوم حياتها طويلاً ولاسيما إذا كانت تفتقر إلى عناصر تمدُّنية مستقرة وثابتة أو تفتقر إلى الأصالة التاريخية. فإن مثل هذا قد يؤدي إلى اضمحلالها فسرعان ما تتضاءل أهميتها لتعود الحياة إلى المدينة الأم التي انبثقت هذه المدن عنها بعد أن يتركها مؤسسها أو في حالة تغيُّر أحوال الإمارة سياسياً أو ربما في حالة موت مؤسسها

(١) أبو عبيد البكري: ص٢٧ ـ ٢٨، ياقوت الحموي: ج٤ ص ـ ٣٦٢.

ولم يُعجب خليفته بميزاتها فَيَكْرَهُ الإقامة فيها. ومدينة القصر القديم، وكما سمّاها ياقوت مدينة قصر القيروان، هي واحدة من هذا الصنف من المدن. لقد عاشت فترة تاريخية تزيد على نصف قرن منذ تأسيسها، غير أنها في نهاية الأمر أهملت. ويعود سبب إهمالها وتركها إلى الأغالبة أنفسهم فقد فضّلوا أن تكون مدينة أخرى محلَّ إقامتهم، فكانت رقادة هي المدينة التي أسسها أحد أمرائهم لتكون مدينة قصر له.

**مدينة رقادة:**

يشير البكري بشيء من التفصيل إلى الأصول التاريخية لتأسيس هذه المدينة، وقد اعتمد ياقوت الحموي على هذه المعلومات بالدرجة الأولى فكرَّرها في معجمه. يرجع سبب تسميتها رقادة إلى عدة أسباب: فهناك رواية تشير إلى أن الاسم جاء على أثر حادثة تاريخية تدور حول معركة جرت بين القائم بالدعوة الأباضية الخارجية في منطقة طرابلس وهو أبو الخطاب المعافري وبين شخصَيْنِ من أهالي القيروان اسمهما رنجومه وعاصم بن جميل التقي وقد تغلَّب هذان الرجلان على مدينة القيروان. وكانت المعركة بين الطرفين في موضع رقادة حيث كان عبارة عن منية، فقتل أبو الخطاب خصومه قتلاً ذريعاً فسُمِّيَتْ رقادة لرقاد قتلاهم بعضهم فوق بعض. إن هذه القصة تبيِّن على أن التسمية ترجع إلى حادثة تاريخية لا توافق الفترة التي اتفقت الآراء حول تأسيس المدينة، والتسمية فقط لا تعني أن المدينة كانت موجودة أو أن أبا الخطاب قد أسَّسها. في مقابل هذه الرواية يذكر أبو عبيد البكري أن أصل تسميتها يرجع إلى اعتدال هوائها وطيبة ورِقَّة نسيمها وأن من دخلها (لم يزل ضاحكاً مستبشراً من غير سبب.. وأن أحد بني الأغلب أرِقَ وشرد عنه النوم أياماً فعالجه إسحق فأمره بالخروج والمشي فلما وصل إلى موضع رقادة نام..)[1] من هذا جاء اسم الموضع الذي نام فيه هذا الأمير رقادة، ويبدو أن هذه القصة أقرب إلى فترة تأسيس المدينة وبذلك قد يكون أصل الكلمة يعود إلى ذلك.

---

(١) أنظر البكري: المغرب ص٢٧، ياقوت الحموي: ج٣ ص٥٥. أنظر أيضاً ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤.

كانت مدينة رقادة تقع جغرافياً في ظاهر القيروان حيث تبعد عنها مسافة أربعة أميال أي أبعد بقليل عن موقع العباسية أو مدينة القصر القديم عن القيروان. وقد حدَّد البكري مساحة رقادة بحوالي أربعة وعشرين ألفاً وأربعين ذراعاً (حوالي ١٢ ألف م).

إن القصة التي ذُكِرَتْ سابقاً ربما تشير إلى أن هذا الأمير من بني الأغلب قد اتخذ في الموضع الذي قام فيه مسكناً، لأن البكري يشير إلى أن الموضع، رقادة، صار على أثر تلك الحادثة داراً ومسكناً وموضع برحة للملوك. ويبدو أنها لم تكن مؤسسة كمدينة في تلك الفترة التي ليست بعيدة تماماً عن فترة تأسيسها فعلاً، إذ ينسب المؤرِّخون بناء رقادة إلى الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني ابن أحمد الأغلبي سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، دون أن نعلم عن الأسباب الضاغطة التي جعلته يغيِّر محلَّ إقامته من القصر القديم، وأن المصادر المتوافرة لا تسعفنا في تحديد ذلك السبب أيضاً، وربما يكون السبب سياسياً استراتيجياً يتعلق بخوف الأغالبة من أيِّ هجوم أو معارضة من قِبَلِ أهالي القيروان. وقد يكون جغرافياً لما كانت تتمتع به رقادة من موقع جغرافي جميل، إذ كانت وسط البساتين ذات تربة خصبة وهواء عليل بحيث أن كلَّ من كان يدخلها ينشرح قلبه ويشعر بالراحة.

المهم أن إبراهيم الثاني بعد اتخاذه رقادة وطناً له ومقراً لحكمه ترك مدينة القصر القديم ونَقَلَ معه المؤسسات الإدارية الخاصة بالإمارة، وانتقل بطبيعة الحال جنده وعبيده. وابتنى في الرقادة الأبنية الجديدة والقصور العجيبة، حتى إن المدينة بعد أن خربت وصارت مجرَّد أطلال بقيت مشاهد قصورها الشاهقة الحسنة البناء باقية، كما ذكر الإدريسي. ولم يقتصر عَمَلُ إبراهيم على بناء القصور فقط، إنما ابتنى مسجداً جامعاً جديداً لكننا لا نعلم فيما إذا كان هذا الجامع مجاوراً لقصر الأمير أو متصلاً به. ولعلَّ من الصحيح القول بأن بناء الجامع هذا جاء بعد بناء قصر الأمير. وبدأت المدينة تشهد تحوُّلات جديدة فعمَّر الأغالبة فيها الأسواق وبَنَوْا الحمّامات والفنادق. وقد ساعد على تطوُّر المدينة ما تميَّزت به من كثرة البساتين واعتدال المناخ وخصوبة التربة.

إذن، فإن رقادة قد أخذت الخصائص الإدارية التي كانت بها العباسية، وظلّت تمثّل مقرَّ حكم الأغالبة وموطن سكناهم حتى نهاية إمارتهم في سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م، عندما لم يتمكن زيادة الله الثالث الأغلبي من الصمود أمام جيوش أبي عبد الله الشيعي الفاطمي، فاضطر إلى ترك المدينة هارباً، فوقعت المدينة بأيدي الفاطميين واتخذها عبيد الله المهدي الفاطمي مستقرًّا لحكمه فترة من الزمن استمرت حتى سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، ثم انتقل عنها لأسباب سياسية إلى عاصمة الفاطميين الجديدة المهدية. وتشير الروايات التاريخية إلى أنه بعد انتقال الفاطميين من رقادة، وتأسيسهم مدينة المهدية واتخاذها عاصمة لهم بدلاً من رقادة، بدأت مظاهر الانحلال تظهر على مدينة رقادة. إذ كان من الطبيعي أن يتركها أهلها أيضاً بعد انتقال كرسي الإمارة إلى المهدية. وأخذت تنتقل بها الأحوال نحو الأسوأ فخربت تدريجياً إلى أن تولّى أَمْرَ الفاطميين معد بن إسماعيل فخرَّب ما تبقّى من آثارها وهدم منازلها ولم يبقَ منها غير بساتينها. ولعلَّ الدافع الذي دفع معد بن إسماعيل أن ينتقم من المدينة هذا الانتقام سياسياً وذلك لأنها كانت تمثّل الأغالبة، ويبدو أن بعض أمرائهم ظلّوا في رقادة لأن ابن حوقل حينما يشير إليها يقول ما نصّه (وبظاهرها ـ يعني مدينة القيروان ـ المكان المدعو رقادة وهو مدينة كانت منازل لآل أغلب)[1]. وبذلك فإن بقاء رقادة في نظر الفاطميين يُعَدُّ تحدِّياً سياسياً، الأمر الذي دفعه إلى تخريبها تماماً.

**مدينة صبرة:**

ومدينة صبرة أيضاً من المدن المنبثقة من المدينة الأم، القيروان، فكانت قريبة منها ومتصلة بها، كما ذكر البكري. وكانت تسمّى بالمنصورية.

لقد ذكر ياقوت الحموي روايتين تتعلقان بسبب تسميتها المنصورية وبالأمير الذي أسَّسها. تفيد الرواية أن تسميتها المنصورية ترجع إلى المنصور بن يوسف

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤، عن رقادة أنظر البكري: ص٢٧، ياقوت الحموي: ج٣ ص٥٥ ـ ٥٦، الحبيب الجنحاني ص٦١.

ابن زيري بن مناد بن بلكين وهو اسم يوسف بلكين الصنهاجي الذي تولى الإمارة الصنهاجية من سنة ٣٧٣ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٨٤ ـ ٩٩٦م. ويعقِّب ياقوت على هذه الرواية قائلاً بأنه على الرغم من تسميتها التي تعود إلى أبي الفتح المنصور ابن بلكين، إلا أن مؤسِّسها الحقيقي هو مناد بن بلكين. أما الرواية الثانية التي يشير إليها البكري ونَقَلَها ياقوت الحموي فتفيد أن أبا طاهر إسماعيل بن محمد ابن عبيد الله الفاطمي الملقَّب بإسماعيل المنصور هو ابن القائم بأمر الله الفاطمي، أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي، وهو الذي سمّاها المنصورية نسبة إليه. ومن المفيد تاريخياً أن نعرِّج على أصل هذه الرواية، فالمعروف أن أبا طاهر إسماعيل بن محمد قد خرج متوجِّهاً إلى القيروان سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. محارباً أحد زعماء الخوارج، وهو أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الملقَّب بصاحب الحمار. وقد اتخذ إسماعيل مدينة صبرة أثناء هذه الحملة وسكنها وبنى قصره فيها ثم قطنها ابنه من بعده[1]. ويذكر البكري أن إسماعيل المنصور قد بنى صبرة سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، بعد قضائه على حركة أبي يزيد صاحب الحمار، وبعد سيطرته على مدينة القيروان وانتقامه من أهاليها لمناصرتهم ثورة أبي يزيد الخارجي. ففي هذه الفترة التي تبدو طبيعية جداً لأن إسماعيل أراد التنكيل بالقيروان بشكل أكثر، أمر ببناء مدينة صبرة وأطلق عليها اسم المنصورية. ونَقَلَ إليها مقرَّ الولاية فصارت هي منزل الولاة بدلاً من القيروان والمدن الأخرى، ثم إن إسماعيل عمد إلى نَقْلِ المؤسسات الإدارية من مدينة المهدية إلى صبرة.

استمرت مدينة صبرة تقوم بوظيفة العاصمة بدلاً من القيروان والمهدية فترة من الزمن إلى حين خرابها عندما أفلح الفاطميون في السيطرة على مصر وأسَّسوا بها دولتهم، فاضطروا إلى الانتقال من صبرة التي واجهت بعد ذلك عوامل الإهمال والخراب.

تُعَدُّ الفترة التي حكم فيها معد بن إسماعيل الفاطمي المعزّ لدين الله من الفترات المهمة في نموِّ مدينة صبرة واتساع أحوالها، فقد قام معد هذا بِنَقْلِ

---

(١) البكري: ص٢٥، ياقوت الحموي: ج٣ ص٣٩١ ـ ٣٩٢.

جميع أسواق وصناعات وتجارات مدينة القيروان إليها، وعمَّر البيوت، لذلك صارت أيام ولايته تحتوي على خمسة أبواب منها الباب الذي في الجهة القبلية والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح. وكان باب الفتوح هو الباب الذي تخرج منه الجيوش. ويبدو أن توزيع خط الأهالي كان وفقاً إلى القبائل التي رافقت جيش الفاطميين، فباب زويلة وباب كتامة يشيران إلى هذا التوزيع بوضوح. ومن بين التطوُّرات العمرانية التي شهدتها المدينة كثرة حمّاماتها التي بلغت حوالي ثلاثمائة حمّام، وكثرة قصورها الفخمة العالية، كما أن معداً قد حفر لها الآبار وعمل لها المصانع[١] التي توفّر للمدينة المياه. ومن الواضح جداً أن انتقال الطريق وتجارات القيروان أدى إلى انتقال التجار وأصحاب المِهَنِ والحِرَفِ أيضاً، مما ساعد على نموّ بنية المدينة اجتماعياً.

كما أوضحنا سابقاً أن الدافع السياسي العسكري يُعَدُّ دافعاً أساسياً في إتخاذ إسماعيل المنصور مدينة صبرة بدلاً من المهدية، والظاهر أنه ترك المهدية أثناء حملته العسكرية ضد صاحب الحمار، فأصبحت حينئذٍ بعيدة نسبياً عن مجريات الأحداث العسكرية التي سبَّبتها ثورة صاحب الحمار. علاوة على ذلك، فإن إسماعيل المنصور لم يكن راغباً في المكوث في مدينة القيروان لأسباب سياسية وذلك لأن أهاليها كانوا متعاطفين ومناصرين لثورة صاحب الحمار، وقد انتقم من الأهالي والمدينة انتقاماً شديداً. ولم يفكر في مدينة رقادة التي تمثّل كما ألمحنا مدينة الأغالبة، لذلك كلّه كان قراره باتخاذ صبرة (مدينة عاصمة) له بمثابة انتقام فعلي آخر للتقليل من هيبة القيروان ومكانتها التاريخية. كما ينبغي أن لا نغفل العامل الاستراتيجي العسكري في اختيار صبرة فقد أراد منها مدينة عسكرية إدارية لمراقبة التطوُّرات السياسية التي فرضها الخوارج بعد قضائه على ثورة صاحب الحمار. إذ إن هناك بقية منهم توالي هذه الثورة ومن المحتمل أنها ستكون مصدر متاعب له، ولذلك يجب عليه مراقبة تحرُّكات الخوارج من مدينة قريبة من القيروان.

---

(١) البكري: المغرب ص٢٦، ياقوت: ج٥ ص٢٣١.

ارتبط بقاء واستمرار حياة مدينة صبرة ببقاء الفاطميين في هذه المنطقة القريبة من القيروان وأنها سرعان ما واجهت انحلالاً في وَضْعِها بعد انتقال الفاطميين عنها. إن العوامل التي أدت إلى ضَعْفِ أوضاع المدينة هي العوامل نفسها التي أدت إلى اضطراب وسقوط وخراب المدن السياسية السابقة المتصلة بالقيروان. وتتركز هذه العوامل بوجود الإمارة التي ساعدت على تأسيس هذه المدن، فانتقال الأطماع الفاطمية صوب مصر ونجاح جوهر الصقلي في دخول مصر وتشييده القاهرة إلى رؤسائه الفاطميين قد أسرع في نهاية مدينة صبرة. إذ أدى النجاح العسكري للفاطميين إلى انتقالهم من المغرب ومن مدينة صبرة بالذات إلى مصر. وبانتقالهم انتقل الجهاز الإداري والسياسي والعسكري فَضَعُفَ أمْرُها وتحوَّلت، بمرور الزمن، إلى خرائب حتى صارت أيام الإدريسي وياقوت الحموي خراباً غير آهلة وليس فيها مساكن. وحسبما وَصَفَها ياقوت أنها كانت (خراب يباب)[1].

## مدينة المهدية:

إن الحديث عن هذه المدينة المستحدثة أيام سيطرة الفاطميين على المغرب مهم لما له من علاقة مباشرة بمدينة القيروان والمدن الأخرى المنبثقة عنها. ويرجع سبب أهمية المهدية إلى أن نموَّها وتطوُّرها العمراني والسكاني إنما حدث على حساب مدينة الرقادة بالدرجة الأولى، ولما كان ظهور مدينة رقادة واتساعها على حساب مدينة القيروان لأن الكثير من أهالي القيروان قد تركوها لمزاولة الأعمال والسكن في رقادة، فإنه يصبح من الواضح أن عاصمة الفاطميين المهدية هي الأخرى قد انتفعت من هذه الحالة التمدُّنية. صحيح أن المهدية هي مدينة عاصمة للفاطميين، وأن أبا عبيد الله المهدي قد أسَّسها لتحقيق أهداف سياسية عسكرية، لكنه واعتماداً على رواية الرحالة التجاني، فإن الجنود والأهالي الذين كانوا يقطنون رقادة وجدوا من الصعب عليهم تَرْكَ

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٩٢، الإدريسي: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، الحبيب الجنحاني ص١٧٤ ـ ١٧٥.

مدينتهم رقادة والانتقال إلى المهدية، غير أن سوء الأحوال وهطول أمطار غزيرة جداً ألحقت الضرر بِدُورهم في رقادة التي تهدَّمت على أثر ذلك، قد أجبرهم على تَرْكِ مدينتهم واللِّحاق بالمهدي في مدينته المهدية[1]. وبذلك يمكننا القول بأن تطوُّر بنية المهدية الاجتماعية اتصل اتصالاً عضوياً بمدينتَيْ رقادة والقيروان.

يتفق الجغرافيون على أن المهدية تبعد حوالي مرحلتين عن القيروان باتجاه البحر، وكانت تقع إلى شمال القيروان. والحقيقة أن عبيد الله المهدي الفاطمي كان في بداية الأمر قد اتخذ مقرَّه في القيروان، وظلَّ على هذه الحالة فترة من الزمن ثم قرَّر الانتقال عنها فأخذ يبحث عن موضع جديد لمدينته الجديدة سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م. وتحدثنا الروايات بأنه خرج بنفسه إلى منطقة مدينة تونس للتفتيش عن مكان مناسب.

سُمِّيَتْ المهدية بهذه التسمية نسبة إلى عبيد الله المهدي الذي يُعَدُّ أول خليفة للفاطميين في المغرب قبل انتقالهم إلى مصر..

من هذا، فإن تشخيصاً لوضع الفاطميين في هذه الفترة التاريخية المبكرة تجعل من السهل تلمُّس ومعرفة العوامل الدافعة إلى اتخاذ مدينة المهدية. فقد كان الفاطميون أيام عبيد الله المهدي يخشَوْن القوى الداخلية المعارضة لوجودهم، وكان موقع القيروان على طرق البر لا يؤهلها القيام بمهمة الوقوف ضد هذه المعارضة ورَصْدِ تحركاتهم، حقاً أنها كانت مناسبة لاستراتيجية الانسحاب من الموضع إذا ما داهم العدو العرب بهجوم مفاجىء، غير أن الأحوال السياسية للقرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ، تختلف كثيراً عما كانت عليه تلك الأوضاع في سنة ٥٠هـ، ولا سيما إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار موقف أهالي رقادة ـ القيروان من الدعوة الفاطمية. فإن مدينة رقادة مثلاً كانت خلال هذه الفترة مدينة الأغالبة ومقرَّ ولاية إبراهيم الثاني وكان هؤلاء ضد الفاطميين. علاوة على ذلك، فإن الفاطميين بعد انتصارهم على الأغالبة لم يكونوا بوضع نفسي يحبِّب إليهم أن يحلّوا محلَّ الأغالبة المنهزمين من رقادة.

---

(١) التجاني: رحلة التجاني (تونس ١٩٥٨) ص٣٢٠، نيقولا زيادة: مدن عربية ص٨١ ـ ٨٤.

فقد كان للعامل السياسي النفسي أثر واضح في تفضيل الفاطميين موضعاً آخر بدلاً من رقادة ـ القيروان. أيضاً فإن أطماع الفاطميين السياسية تجاوزت مسألة البحث عن موضع يقع على طرف البادية وقريب من الريف، لأنهم رسموا خارطة سياسية أوسع. وقد شخَّص الدكتور الحبيب الجنحاني ثلاثة عوامل جعلت أبا عبيد الله المهدي يصمِّم على تَرْكِ رقادة والبحث عن موضع جديد وهي.

١ ـ اضطراب الأوضاع السياسية والمذهبية في مدينة القيروان متمثلة بثورة كتامة على المهدي في القيروان، كما أن هذه المدينة التاريخية قد أصبحت تتألف من أخلاط من الناس والمذاهب، كالروم والبربر والعجم.

٢ ـ وكان خطر البربر كبيراً بالنسبة إلى الفاطميين فإنهم، كما كانت الحال مع عقبة بن نافع، كانوا يتوقعون هجوماً مباغتاً على قواتهم من جانب البربر في جبال أوراس..

٣ ـ طموح المهدي في إنشاء أسطول بحري لكي يستخدمه في تحقيق مخططه السياسي الموجَّه نحو فَرْضِ سيادة بحرية في البحر المتوسط ضد القوى الأوروبية، التي كانت لها السيادة آنذاك. وكذلك لاستثماره في غَزْوِهِ لمصر.

دفعت هذه العوامل مجتمعة المهدي أن يجدَّ في البحث عن موضع يوافق تلك الأهداف: ومن هذه المواضع قرطاجة، فهي توفر شروط الحصانة العسكرية والابتعاد قدر الإمكان عن الخطر الناجم عن مواجهة جبال أوراس. وكانت مدينة قرطاجنة إحدى المدن الواقعة في هذه المنطقة والتي تتصف بصفة الحصانة العسكرية كما أنها بعيدة عن خطر البربر، لكن أبا عبيد الله المهدي لهم يعجب بموقعها الساحلي. وقد انجذب اهتمامه نحو موقع لمدينة قديمة ترجع إلى الفترة الرومانية فاختارها وأطلق عليها اسم المهدية. وكان موضع هذه المدينة يتمتع بعدة خصائص عسكرية سياسية:

١ ـ أنه يقع على ساحل البحر المتوسط.

٢ ـ أنه كان موضعاً حصيناً بمثابة جزيرة تتصل بالبر فتكون على هيئة كفٌ تتّصل بزندها. وعلى هذا فإن إمكانية تطوُّره إلى ميناء أو مرسى كانت موجودة.

٣ ـ يبدو أنه لم يكن آنئذٍ أهلاً وبذلك فإن بناءه يعني تشييد مدينة على أسس جديدة توائم طموحات وأغراض المهدي.

٤ ـ توافر المياه الجارية الصالحة للشرب في قرية قريبة من الموضع تدعى ميانش أو منانش. وقد جلبه المهدي في أقداس وكان يصبُّ في صهريج داخل المدينة. علاوة على وجود الآبار الحلوة[1].

من هذه الأوصاف كانت المهدية، على عكس المدن السابقة في شمال أفريقيا، مدينة حصن، ومرفأ ساحلياً، أي أن سماتها لم تكن مقتصرة على الجوانب العسكرية ذات الصفة البرية، بل البحرية، فإنها كما وَصَفَ البكري تحيط بها المياه من ثلاث جهات ويدخل إليها من الجانب الغربي، وانتقلت بها الأحوال لتكون مرفأ للسفن القادمة من الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها، فكان مرساها منقوراً في حجر صلد وسَعَتُهُ بلغت حوالي ثلاثين مركباً[2].

شرع المهدي في وَضْع خطط المهدية في سنة ٣٠٠هـ وقيل سنة ٣٠٣هـ، ويرجِّح البكري أن سنة تأسيسها كانت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، واكتمل البناء سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، ويبدو أن سور المدينة قد اكتمل قبل سنة ٣٠٨هـ، إذ يقول البكري إن سورها قد بُنِيَ سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م. ولما كانت الأهداف السياسية العسكرية من بين الأهداف البارزة لاتخاذ أبي عبيد الله المهدي مدينة المهدية لذا نراه يولي أهمية خاصة إلى تحصيناتها فابتنى:

---

(١) عن هذه المواضيع أنظر البكري: المغرب ص٢٩ ـ ٣١، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣٠، الحبيب الجنحاني: القيروان ص٩٢.

(٢) البكري: المغرب ص٣٠، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣٠.

## السور:

يبدو أن عبيد الله المهدي حين اختار مكان المدينة وابتدأ تطبيق خططها، باشر في بناء سور متين له، وقد استمر في بناء هذا السور منذ بدئه في بناء المدينة سنة ٣٠٠هـ حتى سنة ٣٠٥هـ. وذكر أن المهدي كان حاضراً حينما وُضِعَ أول حجر للسور فأمر ناشباً أن يرمي سهماً بأقصى قوته ففعل فانتهى إلى المصلى وقيست المسافة فكانت ٢٣٣ ذراعاً (حوالي ١١٠م). وصف الجغرافيون وغيرهم هذا السور بأنه كان منيعاً ومحكم البناء. فقال عنه ابن حوقل الذي زار المهدية سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م، أي بعد حوالي ثلاثين سنة فقط من اتخاذ المدينة، بأنها حسنة السور والعمارة منيعة، وكان سورها مبنياً من حجارة وله بابان (ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملا ومثل شكلهما اتخذا..)[1] وبالفعل فإن البكري وياقوت الحموي قد أشادا بوصف حصانه وقوة أبواب سور المهدية، فكانت من الحديد المصمت وقد جعل المهدي في كل مصراع من الأبواب مائة قنطار حديد ولها بابان بأربعة مصاريع لكل باب منها دهليز يَسَعُ خمسمائة فارس. وأشار أبو عبيد البكري أن المهدي جعل لمدينته بابين من الحديد ولم يستعمل فيهما الخشب وأن زنة كل باب ألف قنطار وطوله ثلاثون شبراً ويزن كل مسمار من مساميره ستة أرطال حديد. ولم يكتفِ بذلك بل جعل فوق السور أبراجاً للمراقبة والرصد وكان عددها ستة عشر برجاً، ثمانية منها في السور الذي كان قد بُنِيَ في عهده، ويبدو أن المهدي بنى زيادة في السور هذا وجعل عليه ثمانية أبراج أخرى، ومن بين هذه الأبراج برج أبي الوزان النحوي وبرج عثمان وبرج عيسى وبرج الدهان. ويعقّب البكري أن هذه الأبراج قد نُسِبَتْ إلى هؤلاء لقرب مساكنهم منها.

ومن الجانب الآخر، فإن عبيد الله المهدي قد أضفى على مرساها طابعاً من الحصانة من الجهة البحرية فكان هذا المرسى منقوراً في حجر صلد يَسَعُ ثلاثين

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٣.

مركباً، وهناك برجان على طَرَفَي المرسى توجد بينهما سلسلة من حديد فإذا ما أريد إدخال سفينة في المرسى، أرسل حراس البرجَيْن أحد طَرَفَي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يعيدونها كما كانت. وقد اتخذت هذه الإجراءات الاحترازية خشية أن تُهاجِمَ المدينة مراكب الروم[١].

فلما انتهى المهدي من بناء هذه التحصينات الكبيرة على مدينته ذُكِرَ أنه قال (اليوم آمنت على الفاطميات.. وارتحل إليها وأقام بها)[٢] وهي إشارة واضحة إلى أنه لم ينتقل إلى المهدية بعد بناء القصر والوحدات العمرانية داخل المدينة، لكنه انتقل إليها بعد أن انتهى من بناء السور والأبراج وتحصين المرسى.

**القصر:**

ومن بين الوحدات العمرانية الأخرى التي اتخذها المهدي في المدينة القصر الكبير الخاص به وجعل حوله فسحة تشبه الميدان ثم بنى قصراً لابنه، ويبدو أن هذا الموضع صار مهيَّئاً لقصور الخليفة وأبنائه. كذلك ابتنى المسجد الجامع ولعلَّ مكانه في وسط المدينة، إذ يقول أبو عبيد البكري إن عبيد الله المهدي أجرى الماء إلى المهدية من قرية منانش القريبة من المدينة ويصبُّ داخل المدينة عند جامع المهدية ثم يُرْفَعُ من الصهريج إلى القصر بالدواليب. واهتمَّ المهدي بتوفير مياه الشرب لسكان المدينة، إذ إنه بنى حوالي (٣٦٠) من هذه المواجل علاوة على تلك القناة التي كانت تجلب المياه من قرية مجاورة. كان قصر عبيد الله المهدي كبير المساحة والظاهر أنه يتألف من عدة قصور ومبانٍ وكان بابه على الجانب الغربي بينما باب قصر ابنه أبي القاسم على الجانب الشرقي إزاء قصر أبيه وتفصلهما رحبة. وكانت هناك دار الصناعة تقع إلى شرقي قصر الخليفة، وهي دار واسعة تَسَعُ أكثر من ٢٠٠ سفينة وتحتوي على قَبْوَيْنِ كبيرَيْن طويلَيْن يستخدمان لآلات المراكب وعتادها وذلك لكي لا تصلها أشعة الشمس أو هطول الأمطار[٣].

---

(١) البكري: المغرب ص٢٩ ـ ٣٠، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣١.
(٣) البكري: المغرب ص٢٩ ـ ٣٠، ياقوت الحموي ج٥ ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

وعلى أثر انتقال الخليفة وجنده وحاشيته بدأ أهالي رقّادة ينتقلون إلى المهدية وبَنَوْا فيها البيوت والعمارة من الحجارة وقد وَصَفَها ابن حوقل بأنها (كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور)[١] واتخذت الأسواق ورتبت محلاتها وفقاً للمهن والتجارات بحيث صار أرباب كل صنعة أو مهنة في سوق خاصة بهم. وتأسست فيها الحمّامات والخانات وكثرت وحداتها العمرانية حتى صارت بعد فترة غير طويلة ضيّقة ومزدحمة بالسكان، الأمر الذي دفع المهدي إلى أن يتخذ مدينة إلى جانبها أطلق عليها اسم زويلة وقد عَزَلَها عن مدينته المهدية بسور يحتوي على عدة أبواب وأسكن فيها أرباب الأسواق من البزازين وغيرهم، ونَقَلَ عوائلهم معهم إلى زويلة، نفس الخطة التي اتَّبعها أبو جعفر المنصور حينما ضاقت المدينة المدوَّرة بالناس فاضطر إلى أن يبني لأصحاب الأسواق والتجار أسواقاً ومحلات في جانب الكرخ وأَمَرَهُم بالخروج من المدينة المدوَّرة، بغداد. وقد كان هدف عبيد الله المهدي من هذا الإجراء عَزْلَ أرباب الحِرَفِ والأسواق، كما هي الحال في مسألة المنصور مع أصحاب الحِرَفِ في بغداد، لانه لم يأمن جانبهم ولم يَثِقْ بهم وقد أبان هذا التخطيط بقوله (إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم وذاك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك، وإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حِرَفِهِم هناك، وبَنَيْتُ بيني وبينهم سوراً وأبواباً، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً لأني أفرِّق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبينهم وبين حِرَفِهِم نهاراً)[٢].

ولعلَّ المهدي أسَّس إضافة إلى زويلة عدداً من الأرباض (جمع رَبَض) وأسكنها مجموعات من الناس والجنود لتنفيذ خططه وتأمين جانبه فكان رَبَضُ زويلة القريب من المهدية والذي احتوى الأسواق والحمّامات ورَبَضُ الحمى وكان خاصاً بسكنى الجنود من العرب والبربر وقصر أبي سعيد ورَبَضُ قفصة وغيرها[٣].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٣، الروض المعطار ص١٧٢.
(٢) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣١، أنظر عن زويلة الكبرى ص٣٠، الروض المعطار ص٢٩٦.
(٣) البكري ص٣٠ ـ ٣١.

## أوصاف المهدية:

لقد وَصَفَ ابن حوقل المهدية بأنها كانت كثيرة التجارة حسنة السور كثيرة القصور والمنازل والحمّامات والخانات. وكانت خصبة تنتج الفواكه والغلّات. وقد وَصَفَها المقدسي بأنها صارت خزانة القيروان ومطرح صقلية ومصر، وهي عامرة آهلة بالسكان.. ووَصَفَها جغرافيون متأخرون بأنها كانت مقصد السفن الواردة من المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وتُجْلَبُ إليها البضائع التجارية الكثيرة. وكانت نظيفة حسنة الديار كثيرة الحمّامات والخانات، بهيئة المنظر ـ وكانت مشهورة بصناعة الأنسجة والثياب الرفيعة الجيدة التي تصدِّرها إلى الآفاق[1].

ظلت المهدية تلعب دور المدينة العاصمة الحصينة للفاطميين إلى أن انتقلوا منها بعد فَتْح مصر وتأسيس جوهر الصقلي القاهرة لهم. غير أن تحوُّل الفاطميين عنها لم يؤدِّ إلى نهاية أمر المدينة تماماً، إنما بقيت موجودة مستفيدة من موقعها الساحلي وكونها مرفأ السفن الآتية من الأندلس وبلاد الروم، لكن مع هذا أخذت أهميتها تتضاءل عما كانت عليه أيام الفاطميين، وقد أتت الضربة القاضية على وجودها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م عندما أخلاها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي أثناء الهجوم الذي شنّه صاحب صقلية. وبالفعل فقد صارت المدينة خاضعة لنفوذ الفرنج حوالي اثنتي عشرة سنة إلى حين قدوم عبد المؤمن إلى أفريقية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م فاستعادها من قَبْضَتِهِم، غير أنها لم تَعُدْ مدينة عامرة وأخذ الخراب يدبُّ فيها بمرور الزمن.

* *

وقد نُسِبَ إلى المهدية عدد من العلماء والفقهاء منهم: أبو الحسن علي بن

---

(١) أنظر عن ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٣، المقدسي: أحسن التقاسيم، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣٠، الروض المعطار في خبر الأقطار ص١٧٢، ٥٦١، أبو الفداء: تقويم البلدان ص٢٨.

محمد ثابت الخولاني المعروف بالحداد المَهْدَوِي، والفقيه أبو عبد الله عمر بن علي بن إبراهيم صاحب كتاب (شرح التلقين) وقد ذاعت مقالاته وفتاواه في الأقطار وقَصَدَهُ الناس لِعِلْمِهِ[1].

## تونس

من البديهي القول إن العلاقة الجغرافية بين تونس ومدينة القيروان لا تشابه تلك العلاقة بين القيروان، والمدينة الأم، وبين رقادة وصبرة. وذلك لأن مدينة تونس لم تنبثق من مدينة القيروان أو تقع إلى جوارها، إذ كانت تبعد عنها مسافة مائة ميل تقريباً، أو ما يقابل المرحلتين. وإن الرحلة على البغال بين المدينتين كانت تستغرق آنذاك ثلاثة أيام. على هذا الاعتبار، فإن من الصعب جَعْلَ مدينة تونس وكأنها فرع من المدينة الأم في هذه المنطقة من المغرب العربي. غير أنها من الجانب الآخر تشابه وضعية المهدية فيما يخصُّ علاقتها بالقيروان، فإن مدينة المهدية أثرت على المدينة الأم تأثيراً إدارياً واجتماعياً ولاسيما حينما تطوَّرت وظيفتها لتكون قاعدة أفريقية بدلاً من القيروان، وحينما صارت محلاً لإقامة السلطان وإليها تُجبى أموال الدواوين. فمدينة تونس هي الأخرى قد تولَّت هذه المهمة بعد أفول نَجْم القيروان والمدن الأخرى المنبثقة عنها.

لقد تباينت الروايات حول مسألة تأسيس مدينة تونس وفيما إذا كانت مدينة قديمة أم محدثة في الفترة الإسلامية، فاعتماداً على أقوال بعض الجغرافيين فإن مدينة تونس هي مدينة قديمة، وكما عبَّر عن ذلك ابن حوقل، في القرن الرابع للهجرة، بأنها مدينة قديمة أزلية، وقد أورد كلٌّ من ابن خرداذبة والمقدسي تعبير القديمة والأزلية حينما أشارا أيضاً إلى قِدَمِها وربطا بينها وبين قرطاجنة، فاعتماداً على ما ذكراه أن اسمها قرطاجنة[2]. وكما مرَّ بنا سابقاً فإن مدينة قرطاجنة أو قرطاج مدينة عتيقة قديمة ترجع إلى الفترة الرومانية، بذلك تكون

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٣١ ـ ٢٣٢، الروض المعطار ص٥٢١.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٥، ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٧٨ ـ ٧٩، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٧٩.

فكرة ابن خرداذبة والمقدسي واضحة في إبراز قِدَمِ الفترة التاريخية لتأسيس مدينة تونس.

وهناك من الجانب الآخر، نرى أن بعض الجغرافيين والمؤرِّخين من يجعل الأصول التاريخية لمدينة تونس عربية إسلامية فهي مدينة محدثة، أحدثها أو أسَّسها العرب فذكر ياقوت الحموي وصاحب الروض المعطار أنها مدينة كبيرة محدثة إسلامية في أفريقية. ويبدو أن هذا التباين في فترة تأسيس مدينة تونس ناجم بالدرجة الأولى عن أمْرَيْنِ مهمَّيْنِ يتعلقان بالموضع الذي تأسست فيه المدينة. أولهما أن للموضع، الذي صار فيما بعد مدينة تونس، تاريخاً طويلاً وقديماً، وحسبما أورد أبو عبيد البكري أنه كان يسمّى ترشيش وكانت هذه المدينة مأهولة بالسكان، وتقع على البحر الذي كان يسمّى بحر رادس حيث مرسى المدينة المعروف بمرسى رادس. ويرتبط بهذا الأمر مسألة أخرى وهي أن بعض الجغرافيين من يزعم بأن اسم مدينة تونس في الأصل ترشيش أو ترسوس وقد حوَّلها العرب المسلمون إلى تونس، وقد سُمِّيَتْ تونس عند العرب لأنهم عندما افتتحوا أفريقية كانوا يأخذون قسطاً من الراحة بإزاء صومعة ترشيش نسبة إلى راهب كان يقطن تلك الصومعة. فكان العرب، حسبما تزعم هذه القصة، يأنسون بصوت هذا الراهب فأخذوا يقولون إن هذه صومعة تؤنس، فطغت تسمية تونس على ترشيش. أما الأمر الثاني في هذا الاختلاف فمرجعه إلى الناحية الجغرافية، إذ إنه كان هناك، فعلاً، مدينة ساحلية قديمة تعرف بقرطاجنة أو قرطاج، المدينة التي اشتهرت بحصانتها وموقعها الساحلي الاستراتيجي، وكانت قريبة من الموضع الذي صار يدعى تونس، لكن من الضروري جداً الإشارة إلى أن قرطاجنة لم تكن فعلاً مدينة تونس كما أورد كلٌّ من ابن خرداذبة والمقدسي، وذلك اعتماداً على تقديرات البكري وياقوت الحموي وصاحب الروض المعطار، فإن المسافة بين قرطاجنة وتونس تتراوح من عشرة أميال إلى اثني عشر ميلاً[1].

---

(١) البكري: المغرب ص٤١، ذكر ياقوت (ج٢ ص٦٠) أن البكري قدر المسافة بأربعة أميال لكن الصحيح أن البكري أشار إلى (١٢ ميلاً) كما أنه أخطأ بقوله إن المسافة بينهما (ميلان) وقد كرَّر الخطأ ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ص٢٨٢، الروض المعطار ص١٤٣.

ومن الجدير بالذكر أن هناك رواية ربما هي التي أوحت إلى ابن خرداذبة والمقدسي بجعل تونس هي قرطاجنة، تلك الرواية تشير إلى أن العرب المسلمين حينما خططوا تونس وبَنَوْا الوحدات العمرانية فيها اعتمدوا في حركة التعمير هذه على أنقاض المواد البنائية التي كانت موجودة في قرطاجنة تلك المدينة الكبيرة القديمة. لذلك يقول بعض المؤلّفين إن مدينة تونس قد عُمِّرَتْ من أنقاض مدينة قرطاجنة.

تتفق الروايات التاريخية على أن فَتْحَ المنطقة التي صارت فيها مدينة تونس قد تَمَّ أيام عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، فإنه بعد مقتل والي أفريقية زهير بن قيس البلوي اختار عبد الملك حسان بن نعمان بن عدي بن بكر بن مغيث الأسدي الغساني والياً على أفريقية سنة ٧٤هـ/٦٩٣م. وإلى حسان بن نعمان الغساني هذا يعود الفضل في استكمال فَتْح المنطقة ثم تأسيس مدينة تونس. غير أنه من المناسب قوله في هذا المجال أن هناك حَدَثَيْنِ تاريخيَّيْن قد اختلطا على بعض المؤرِّخين في مسألة فَتْح تونس وتأسيسها وقد بيَّن البكري هذا الخلط التاريخي. فالرواية تفيد أن حسان الغساني بعد توليته ولاية أفريقية افتتح تونس، فتشير الرواية إلى توجُّهه برفقة الجيش لمحاربة الروم في المنطقة. لكن هؤلاء ـ أي الروم ـ طلبوا من حسان عدم دخول المدينة مقابل دَفْعِهِم الخراج على شكل أقساط وقد استجاب حسان إلى طلبهم هذا. والحقيقة أنهم بهذا العمل أرادوا أن يكسبوا الوقت فاحتالوا على حسان بذلك الطلب في الوقت الذي وضعوا فيه خطة الانسحاب والهروب من المدينة عن طريق سفن قد أعدُّوها مسبقاً. وعندما علم حسان بهربهم دون أن ينفِّذوا اتفاقهم دخل المدينة وأحرق بعض وحداتها العمرانية وخرَّب البعض الآخر منها، ثم ابتنى مسجداً وأسكن جماعة من المسلمين المرافقين له في الحملة فيها ثم تركها عائداً إلى مدينة القيروان. ويبدو أن الروم كانوا متهيِّئين لمثل هذه الظروف، إذ سرعان ما استغلّوا فرصة رحيل حسان عن المدينة فباغتوها على حين غرّة واستباحوها. وقد دفع هذا الإجراء حسان الغساني إلى أن يستنجد بالخليفة من أجل بَعْثِ إمدادات عسكرية، وبوصول هذه الإمدادات شنَّ حسان هجوماً قوياً

ضد الروم فدحرهم. ولكي يدفع عن المدينة أية محاولات أو هجمات مباغتة أخرى من جهة البحر، فإنه أحكم بناء المدينة وأنشأ سلسلة حديدية جعلها بمثابة رباط للمسلمين تعرقل دخول السفن إليها والخروج منها إلا بأمر الوالي. وقد أشار البكري إلى أن هذه الحادثة قد وقعت سنة ٧٠هـ/٦٨٩م، في حين أن رواية ابن عذاري توضح بأن سنة وصول حسان إلى أفريقية كانت ٧٤هـ. أيضاً فإنه من الجدير ذِكْرُهُ هنا بأن البكري وابن عذاري يذكران بأن المدينة التي دخلها حسان وأحرق بعض عمرانها لم تكن مدينة تونس إنما كانت مدينة قرطاجنة ويعلّق البكري على رأيه هذا بقوله (ولم تكن تونس يومئذٍ مذكورة إنما عمرت بحجارة قرطاجنة وبأنقاضها)[١] وهو رَأْيٌ صحيح يتفق مع مجريات الأحداث التاريخية.

وفي الوقت الذي بيّنت فيه الرواية السابقة أن حساناً قد أسّس مدينة تونس أثناء حملته على قرطاجنة في المرة الثانية التي وقعت سنة ٧٨هـ/٦٩٧م، فإن هناك رواية أوردها صاحب الروض المعطار يقول فيها إنه سمع عمّن ذكر له بأن تونس قد تأسست سنة ٨٠هـ/٦٩٩م.

## العوامل التي دفعت حسان إلى اتخاذ تونس:

لماذا اختار حسان الغساني موضع مدينة ترشيش لأن يكون الموضع الحقيقي لمدينة تونس، ولماذا لم يبتعد أكثر لاتخاذها في موضع مدينة قرطاجنة الحصينة الآهلة؟ ويقودنا هذا التساؤل إلى موضوع مهم يتعلق بالدوافع الأساسية التي دفعت حسان إلى تأسيس تونس في الوقت الذي كانت فيه مدينة القيروان هي القاعدة البارزة للمغرب في أفريقية وكانت مركزاً إدارياً وعسكرياً لتوجيه الفتوحات في المغرب، خاصة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن اختيار حسان لموضع تونس التي تقع على ساحل البحر المتوسط يُعَدُّ بحد ذاته خروجاً على الاستراتيجية العسكرية العربية التقليدية التي تركّز على المكان المختار أن يكون

---

(١) أنظر ابن عبد الحكم: فتوح ص٢٧١، البكري: المغرب ص٣٧ ـ ٣٩، ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ص١٩. ياقوت الحموي: ج٢ ص٦٠ ـ ٦١.

قريباً من الصحراء والابتعاد عن البحر خوفاً من أن يقوم العدو بأيٍّ هجوم مباغت بأسطوله الحربي البحري القوي.

الواقع أن التطوُّرات العسكرية الجديدة في المنطقة، وتوسُّع انتصارات العرب غرباً باتجاه بقية المناطق في المغرب العربي والأندلس قد فرض على القيادة العربية ابتكار خطط استراتيجية جديدة بخصوص المراكز التي اتخذوها كقواعد، وأخص بالذكر منها الاستجابة لتحدّي الأساطيل البحرية البيزنطية. فلم تَعُدْ القيروان الموضع المناسب الذي يمتلك مزايا المواجهة لتحدّي البيزنطيين في البحر والبربر من جبال أوراس، وقد تجلّى ذلك بوضوح، فيما بعد، في تأسيس المهدي الفاطمي لمدينة المهدية كما ذكرنا. الملاحظ أن نجاح حسان الغساني في طَرْدِ البيزنطيين عن مدينة قرطاجنة وسيطرتهم عليها، ثم مباغتة البيزنطيين مرة أخرى عن طريق البحر واستلائهم على المدينة قد جعل القائد العربي أمام مواجهة بحرية وحذر شديد من أيّ هجوم بحري، وكان لا بدَّ له من أن يواجه هذا الخطر والتحدي أو أن يستسلم له. ولعلَّ السبب في عدم اختياره قرطاجنة كمدينة عسكرية يرجع إلى كونها قاعدة وعاصمة بيزنطية سابقة ولأنها مدينة مأهولة وأن سكانها من المتعاطفين والمؤيّدين للبيزنطيين. علاوة على هذه الأسباب، فإن حساناً سبق أن دخل المدينة عنوة وانتقم من أهاليها لموقفهم فأحرق بعض معالمها وخرَّب الباقي. وبالفعل فقد أشار ابن عذاري إلى مثل هذا الاستناد حينما قال بأن هَدَفَ حسان من وراء حَرْقِهِ قرطاجنة وسَلْبِهِ إياها إحباط جميع المخططات البيزنطية المستقبلية في العودة إليها واغتنام فرصة تأييد أهاليها[1]. فضلاً عن ذلك، فإن حسان لم يرغب في المكوث في قرطاجنة لأن المعروف ومن خلال قراءة لحركات الفتوحات الإسلامية، أن العرب عندما اختاروا معسكراتهم وأمصارهم لم يحبذوا الإقامة في المراكز التمدُّنية الموجودة في المناطق التي حرَّروها، فإنهم لم يستقرّوا مثلاً في الأبُلّة إنما ابتعدوا عن شط العرب ليأسسوا البصرة، كذلك لم يقع اختيارهم على الحيرة إنما عسكروا

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج١ ص١٩، الحبيب الجنحاني: القيروان ص٣٩.

في موضع الكوفة القريب من الحيرة، ولم يعجبوا في حصن باب اليون والاسكندرية إنما ابتعدوا نحو الشرق قليلاً فأسسوا الفسطاط. ومن المحتمل أن يكون هذا الأمر مرتبطاً بهدفهم المركزي ألا وهو تأسيس مدن عربية جديدة في نشأتها وخططها وأهاليها لكي تكون موافقة تماماً لاستراتيجيَّتهم العسكرية وأذواقهم التمدنية.

## خطط المدينة:

هناك رواية طريفة أوردها صاحب الروض المعطار، نصُّها: (قال بعضهم لم يقصد بها ـ الحديث متعلق بمدينة تونس ـ أول أمرها وضع مدينة وإنما اجتمع الناس بها وبنوا وسكنوا وزادوا حتى صارت مدينة وعمرت)[1]. فإن هذه الرواية بالرغم من اقتضاب كلماتها تشكل حلقة تاريخية مهمة في تطوُّر خطط مدينة تونس، والرواية في الحقيقة لا تتعارض مع الواقع التاريخي خلال تلك الفترة. فالعرب لم يكونوا آنذاك بحاجة إلى مركز عسكري وتمدُّني جديد في الفترة بين ٧٤ ـ ٧٨هـ/ ٦٩٣ ـ ٦٩٧م، وذلك بأن مدينة القيروان ما زالت جديدة ولم تمضِ فترة طويلة على تأسيسها (حوالي عشر أو خمس عشرة سنة) كما أنها كانت قاعدة أفريقيا ومركز تجمُّع الجيوش العربية. والمعروف أيضاً أن المشاركين في فتوح المغرب من العرب كانوا خلال هذه الفترة المبكرة قلّة قياساً إلى البربر الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد، وعلى هذا فإنه لم تكن لديهم الفرص في التفكير بالإكثار من المراكز التمدنية لما تتطلبه مثل هذه المدن من مستلزمات سكانية وعسكرية دفاعية. لذلك كانت تونس في بداية أمرها عبارة عن موضع قد تجمَّع فيه عدد من المقاتلين العرب. وهناك احتمال وارد بأن زيادة سكان المدينة واتساع خططها وعمرانها جاء على حساب قرطاجنة بعد أن تمَّ إحراق وتخريب عمرانها، إذ يقول البكري وآخرون إن تونس قد بُنِيَتْ من حجارة قرطاجنة وأنقاضها.

---

(١) الروض المعطار ص١٤٣.

ومن المؤسف أنه ليس هناك معلومات واضحة عن الوحدات العمرانية التي اختطَّها حسان في الموضع، غير أن البكري وآخرين يشيرون إلى أن المدينة تميَّزت بعدد من المنشآت العمرانية منها:

### ١ ـ المسجد الجامع:

توضح الروايات أن حساناً قد أسَّس المسجد الجامع خلال أول حملة على المنطقة ويبدو أنه بقي يمثِّل أول خطة في المدينة، لكن المؤرّخين يشيدوا بأعمال عبيد الله بن الحبحاب العمرانية. وابن الحبحاب هذا تولى ولاية أفريقية من قِبَلِ الخليفة هشام بن عبد الملك وهو مولى لقبيلة بني سلول. إذ نُسِبَ إليه بناء المسجد الجامع المشهور في تونس ولعلَّه هَدَمَ المسجد القديم وأعاد بناءه. والمسجد الجامع هو المعروف بجامع الزيتونة، بناه عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م، وقد وَصَفَهُ البكري بأنه كان (رفيع البناء مطلٌّ على البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه ويرقى إلى الجامع من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة)[١] وقد أسهم هذا الجامع كثيراً في المجالات العلمية حتى أصبح أكبر جامعة إسلامية فيها العديد من العلماء، وذكره العبدري بأنه من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً. فكان دائره مسقفاً وفي وسطه فضاء قد شُيِّدَتْ فيه أعمدة خشبية على قدر ارتفاع الجدار ثم شُدَّتْ إليها حبال متينة في حلقات حديدية مثبتة فيها ومن الجانب الآخر في السقوف، فإذا كان الصيف فإنها تنشر عليها أيام صلاة الجمعة، شِقَقٌ كتانية حتى تظلِّل جميع ذلك الفضاء[٢].

### ٢ ـ دار صناعة السفن

لم يغفل الخليفة ولا القائد حسان بن النعمان الغساني الأهمية الاستراتيجية العسكرية لموقع مدينة تونس وأنه قد اتخذها لمواجهة الهجمات البيزنطية من جهة البحر. وقد أشار البكري في رواية تفيد بأن الخليفة عبد الملك بن مروان

(١) البكري: المغرب ص٤٠، ياقوت: ج٢ ص٦١.
(٢) أنظر العبدري كما ورد في كتاب (مدن عربية) نقولا زيادة: ص٧٦.

قد كتب كتاباً إلى أخيه عبد العزيز، والي مصر، بأن يوجِّه حساناً إلى بناء دار لصناعة السفن، وأمَرَهُ أن يبعث ألف قبطي مع عوائلهم وأولادهم إلى تونس للمساعدة في ذلك الأمر، وقد أمر عبد العزيز حساناً أن يدخل البربر في عملية جرّ الأخشاب لإنشاء المراكب. وكان هَدَفُ الخليفة من ذلك تكوين قوة بحرية لمحاربة الروم والهجوم بحرياً على سواحلهم كي يشغلهم عن مهاجمة القيروان. وبالفعل فقد وصل الأقباط إلى حسان وهو بتونس فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة وقام البربر بجرّ الخشب، وجعل فيها المراكب الكثيرة ثم أمر الأقباط بصناعة السفن. وتعكس هذه الرواية المهمة أن حساناً يُعَدُّ أول قائد عربي يقوم بتأسيس دار الصناعة وتصليح السفن في التاريخ الإسلامي. في الوقت نفسه، فإن التواريخ تهمل هذا العمل الكبير وتنسب بناء دار صناعة تونس إلى والي أفريقية عبيد الله بن الحبحاب. ولعلّ الأصح أنه جدَّد تلك الدار أو أعاد بناءها وبذلك يقول البكري إن هناك من روى بأن عبيد الله قد بنى دار الصناعة (فلعلَّ من روى ذلك يريد أن عبيد الله جدَّدها وزادها تحصيناً)[1].

ومهما يكن من أمر ذلك، فإن تأسيس دار لصناعة وتعمير السفن في تونس تبيِّن بجلاء أهمية موقع المدينة، فقد وُصِفَتْ جغرافياً بأنها تقع على بحيرة خارجة من البحر وأن المسافة بين ساحل هذه البحيرة عند تونس وبين فمها عند البحر عشرة أميال وهي تمثِّل المسافة بين البحر ومدينة تونس. وتبلغ مساحة هذه البحيرة[2] (٢٤) ميلاً، وبذلك خدمت الوضعية الطبيعية للبحيرة أن تكون الدار مؤهَّلة لدخول السفن وخروجها، وكذلك بناءها أو تعميرها.

### ٣ ـ وحدات عمرانية أخرى:

ذكر المؤلِّفون بأن لمدينة تونس سوراً كبيراً محكماً، غير أنه ليس من الواضح فيما إذا كان هذا السور يرجع إلى فترة قديمة أم أنه إسلامي محدث في الفترة الإسلامية. إذ يستشفُّ من الروايات أن ترشيش، المدينة القديمة، التي

(١) البكري: المغرب ص٣٩، ياقوت الحموي: ج٣ ص٦٢، الروض المعطار ص١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) البكري: المغرب ص٣٩.

حلّت تونس محلّها كانت محاطة بسور وتبلغ مساحته ٢١,٠٠٠ ذراع (حوالي ١٠,٠٠٠)م، لذلك يمكن القول بأنه بناء قديم. وقد ذكر البكري أن المدينة كانت محاطة أيضاً بخندق حصين. وكان في سورها خمسة أبواب هي: باب الجزيرة ويقع في الجانب القبلي وهو يُنْسَبُ إلى جزيرة شريك ويقابله الجبل المعروف بجبل التربة وكان جبلاً عالياً. وكان الخارج من هذا الباب يتجه نحو القيروان. وباب قرطاجنة حيث تقع دونه داخل الخندق البساتين والآبار، وباب السقائين منسوب إلى السقائين لوجود بئر أبي الغفار وهي بئر كبيرة غزيرة الماء، وهناك قصور لبني الأغلب ويتصل بها جبل أبي خفاجة وهو جبل أجرد ثم باب أرطة في الجانب الغربي تجاوره مقبرة سوق الأحد، وهناك دون الباب رَبَضٌ خارج المدينة وملّاحة كبيرة يُجْمَعُ منها ملح تونس، وباب المعشوق[١].

ووُصِفَتِ المدينة بكثرة أسواقها ومتاجرها العجيبة وفنادقها وحمّاماتها فقال البكري إنها كانت تحتوي على خمسة عشر حمّاماً. ويغلب على بناء دور أهالي تونس الرخام البديع الصنع[٢].

## أوصاف المدينة:

أشاد الجغرافيون بمدح مدينة تونس من حيث وفرة إنتاجها الزراعي وتوافر بعض الصناعات المحلّية، فذَكَرَها ابن حوقل أن (الانتفاع بها كثير والعائدة إلى أربابها صالحة، وهي خصبة في ذاتها، متسع بغلّاتها..)[٣] واشتهرت بكثرة فواكهها وجودة ثمارها واتساع غلّاتها من أمثال القطن حيث يحمل إلى القيروان، والقنب والكروبا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت، وكان يكثر فيها الماشية. وذكر البكري أن المدينة كانت مشهورة بصناعة آنية الماء من الخزف الرقيق الصنع، الشديد البياض ويعرف بالريحية، وقد علّق على ذلك بقوله (ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار وعامة الأمصار)[٤]، كما شار أيضاً

(١) ن.م. ص٣٩ ـ ٤٠، ياقوت الحموي: ج٢ ص٦٠ ـ ٦١.
(٢) البكري: المغرب ص٤٠.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٧٥.
(٤) البكري: ص٤٠ ـ ٤١.

إلى كثرة فواكهها وأثمارها ومن بين ذلك اللوز الفريك، إذ كان يفرك بعضه ببعض لرقة قشرة، وكانت مشهورة بزراعة وإنتاج الرمان الحلو، والأترج الطيب الطعم الزكي الرائحة والتين الخارجي الأسود وكان رقيق القشر كثير العسل والسفرجل المتناهي بالكبر، والعناب الجيد والبصل القلوري ويوجد في تونس أصناف من السمك لا يوجد في غيرها. وقد وَصَفَها صاحب الروض المعطار بأنها قاعدة البلاد الأفريقية وأم بلادها وحضرة السلاطين من الحفصيين. مشيراً إلى أن الناس رغبوا في اتخاذها والسكن فيها حيث ساعدوا على تطوير عمرانها. وأكد أيضاً مسألة شهرتها بإنتاج الفواكه الكثيرة الطيبة[1].

## اضطراب أحوال المدينة

تعرَّضت مدينة تونس إلى عدة انتكاسات بفعل التطوُّرات السياسية التي شهدتها المنطقة، منها على سبيل المثال الهجمات التي قام بها صاحب الحمار أبو يزيد مخلد الخارجي عندما اتسع نطاق حركته، فقد خضع عدد من المدن إلى سيطرته وكانت تونس واحدة منها، إذ إن أهاليها واجهوا سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، السَّبْيَ والقتل، ونُهِبَتْ أموالهم وخُرِّبَتْ منازلهم حتى قال بعض الشعراء في ذلك.

لَعَمْرُكَ ما لَقيتُ تُونُسَ كَاسْمِها ... ولكنَّني الفَيْتُها وَهْيَ تُوحَشُ

كما أنها لم تفلت مما جاء نتيجة لهجوم قبائل بني هلال وسليم على طرابلس والجنوب، فقد دخلوا القيروان وخرَّبوها ثم توجهوا بعد ذلك إلى تونس فسيطروا عليها ثم خضعت لهم سوسة والمهدية وغيرها من المدن. ومن المحتمل جداً أن ما شهدته القيروان من متاعب وانتكاسة في جوانب حياتها المختلفة أثناء هجوم بني هلال إذ كان له آثار مشابهة على مدينة تونس. كما تعرَّضت المدينة إلى هجوم آخر شنَّه عليها الأوروبيون، إذ غزتْ أساطيل البيزنطيين السواحل التونسية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، ونهبوا بعض ثغورها، وظلت

---

(١) البكري: ص٤١، ياقوت الحموي: ج٢ ص٦١، الروض المعطار ص١٤٣ ـ ١٤٤.

تونس تعاني من مرارة هذا الهجوم والاحتلال حتى الفترة التي جاء فيها أمير دولة الموحِّدين عبد المؤمن بن علي الزناتي البربري، فقد توجَّه إليها برفقة جيش قوي وأفلح في سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، في طَرْدِ النورمانديين منها ثم دخلها، وقد عاقب من وَقَفَ من أهالي تونس مع النورمانديين عقاباً شديداً. لذلك صارت المدينة تحت نفوذ الموحِّدين ومقرًّا لولاتهم[1]، وبقيت على هذه الحالة حتى مجيء يحيى بن إسحاق الميورقي الذي شنَّ هجوماً عليها وفَرَضَ عليها الحصار فترة، إلى أن استولى على المدينة فعاقب أهلها بفرض غرامة قدرها مائة ألف دينار.

وقد شهدت المدينة فترة من السلام والازدهار أيام الدولة الحفصية، إذ أسَّس فيها أحد أمرائهم، وهو أبو زكرياء، جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه، ثم بنى عدداً من المساجد الأخرى والمدارس، وأنشأ سوق العطارين، ودار كتب بلغ عدد كتبها ستة وثلاثين ألف مجلد. وقد اتسع نشاط جامع الزيتونة خلال الفترة الحفصية في مجال التعليم، فضلاً عن وجود مدارس اهتمت بذلك المجال من أمثال المدرسة العتيقة ومدرسة الشماغية. وقد وصف صاحب الروض المعطار مكانة تونس وانتعاشها أيام حكم الناصر أبي عبد الله الذي ساس المدينة سياسة طال عهد الناس بها فأمنهم ورعاهم، وقد رأى الأهالي من بركات أيامه وحسن سيرته وحكمه أمراً كثيراً بحيث إنهم أحبوه حباً شديداً. ولقد اتسع ذِكْرُ تونس أيام من حَكَمَها من بعده من أبنائه حتى غدت حضرة الملوك[2].

---

(١) الروض المعطار ص١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) أنظر ياقوت الحموي: ج٢ ص٦٠ ـ ٦٢، الروض المعطار ص١٤٤ ـ ١٤٥، أحمد صفر: مدنية المغرب العربي في التاريخ، الحبيب الجنحاني: القيروان، نيقولا زيادة: مدن عربية ص٧٥ ـ ٧٨.

الفصل الخامس

# مدينة واسط

تشير كل الدلائل التاريخية إلى أن واسط مدينة محدثة، وبأن العرب هم أول من أسَّسها على الرغم من توافر روايات تبيِّن أن هنالك موضعاً قديماً يقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة يرجع تاريخه إلى الفترة الساسانية، وأن هناك بلدة ساسانية تدعى كسكر أو كشكر كما يذكر اليعقوبي، وعلى الرغم أيضاً من توافر روايات أخرى تؤكد بأن التسمية، واسط، كانت تطلق على قرية أو موضع يقع على الجانب الغربي من دجلة، أي نفس المكان الذي تأسست فيه مدينة واسط، وكان يعرف بواسط القصب. واعتماداً على رواية أسلم بن سهل الواسطي المعروف، بحشل، فإن ذلك المكان، واسط القصب، كان مأهولاً. فقد ولى الخليفة الثالث عثمان بن عفان سعيد بن العاص ولاية الكوفة وواسط القصب والبصرة واستمر على تلك الولاية إلى أن عيَّن معاوية بن أبي سفيان عبد الأعلى بن عبد الله على ولاية البصرة وواسط القصب، كما أورد بحشل رواية تفيد بأن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد ولى الحجاج بن يوسف الثقفي، قبل شروعه ببناء مدينة واسط، ولاية الكوفة وواسط القصب والبصرة[1]. وتعني جميع هذه الدلائل التاريخية أن هناك موضعاً يدعى واسط القصب كان وحدة إدارية ضِمْنَ مجموعة البصرة والكوفة، ومع هذا كلّه، فإن المدينة التي سنخضعها للدراسة في هذا الفصل قد أسَّسها فعلاً الحجاج الثقفي

(١) أنظر اليعقوبي: البلدان ص٣٢٢، بحشل: تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد بغداد ١٩٦٧، ص٤٠، ٤٣، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٤٨، عبد القادر المعاضيدي: واسط في العصر الأموي.

وليس لها صِلَةٌ بموضع واسط القصب إلا في مسألة المجاورة التمدنية كما جاورت البصرة موضع باب سلامتي أو تريدون وجاورت مدينة الكوفة موضعاً يعرف بـ (سورستان).

## عوامل تأسيس المدينة:

إن دراسة الروايات المتعلقة بتأسيس مدينة واسط تبيِّن لنا أنها تأسست بسبب عوامل تختلف عن العوامل التي أدت إلى اختيار وتأسيس الأمصار الإسلامية، البصرة والكوفة. فمدينة واسط لم تنشأ كنتيجة من نتائج عمليات الفتوحات الإسلامية كظهور حاجة ماسة لدى القادة الفاتحين إلى مخيمات أو معسكرات تقوم بوظيفة تهيئة أماكن لإقامة المقاتلين العرب وتسهيل عمليات الإمداد والتموين، فضلاً عن أن واسطاً عند اختيارها وبنائها لم يؤخذ بنظر الاعتبار توافر مستلزمات ومتطلبات استراتيجية كان العرب آنذاك يشدُّدون على توافرها عندما اختاروا البصرة والكوفة. وهي أقرب إلى أن تكون مدينة (أمير) منها إلى مصر أو مخيم تركزت وظيفته على الجوانب العسكرية. والحقيقة أن تاريخ التمدُّن العربي قد شهد ميلاد مثل هذا الصنف من المدن خاصة التي لعبت العوامل السياسية والشخصية دوراً فعّالاً في نشأتها ونموّها واستمرارها، أو إلى ما كان يواجهه هذا الأمير أو الوالي أو الخليفة من تحديات سياسية، أو إلى مجرَّد رغبة أو شغف هذا الأمير أو ذاك الخليفة في تقليد أمير أو خليفة آخر في إنشاء مثل هذه المدن كما هي الحال في مدن سامراء والزهراء والزاهرة والقطائع والمهدية ونماذج عديدة أخرى. وعلى هذا الأساس، فإنه من الصحيح القول إن ظهور مدينة واسط وتأسيسها إنما يقع ضِمْنَ هذه المجموعة من المدن التي لعبت فيها جميع تلك العوامل السابقة أو أحدها، تلك المجموعة التي يمكننا إطلاق تعبير (مدن الأمراء أو مدن الخلفاء) عليها. وهي مدن في الغالب تتميَّز بالطابع الوقتي والمرحلي، إذ إنها تلعب دوراً مركزياً خلال فترة تأسيسها أو قل خلال فترة حكم هذا الأمير أو ذاك الوالي، إلا أنها في الغالب سرعان ما تبدو عليها مظاهر التدهور والانحلال حالما يتغير الأمير الذي أنشأها أو الإمارة التي أوجدتها أو حالما ينتقل منها إلى موضع أو مدينة جديدة أخرى.

والحقيقة أن هناك سنداً تاريخياً يوحي بأن الحجاج الثقفي، مؤسس واسط، كان نفسه يعتقد بهذا الطابع المرحلي للمدينة، إذ يشير ياقوت الحموي إلى قصة جارية كانت للحجاج وقد أصابها لَمَمٌ بعد أن سكن مدينة واسط وأن أحد أصحابه أشار عليه بأن يستخدم السحر كعلاج لمرضها فكان جواب الحجاج (أن هذا القصر سيخرب بعدي وينزله غيري ويحتفر محتفر فيجد فيه القلة . .)[1]. وقد تحققت نبوءة الحجاج وتوقعاته، فقد نَقَلَ أبو جعفر المنصور، فعلاً خمسة أبواب من أبواب مدينة واسط عندما بنى المدينة المدوَّرة، بغداد، وقد عبَّر الخطيب البغدادي عن هذه الحادثة تعبيراً طريفاً فلم يُشِرْ إلى هذه الأبواب بأنها أبواب مدينة واسط إنما اكتفى بقوله (أبواب الحجاج)[2].

أما من الناحية التاريخية فإن وَضْعَ مدينة واسط الإداري صار بعد موت الحجاج الثقفي، مؤسسها، أقل أهمية عما كانت عليه أثناء ولاية الحجاج حيث كانت تقوم بوظيفة العاصمة. صحيح أن بعض الولاة الذين جاءوا بعده قد اتخذوها مقرًّا لولايتهم، لكنَّ هناك آخرين لم يستقرّوا بها ولم يتخذوها مدينة لإدارتهم وسلطانهم.

ومن الجانب الآخر، فإنه من الثابت أن مدينة واسط، على خلاف ما حدث في عدد من المدن الوقتية الأخرى، لم تنتهِ تماماً بعد موت الحجاج الثقفي ولم تتبدَّل أمورها لتصبح مدينة خربة كما انقلبت أحوال الزهراء والزاهرة بعد فترة وجيزة من رحيل مؤسس كلٍّ منهما، فقد استمر وجود مدينة واسط ودورها ولاسيما في الشؤون الاقتصادية والسياسية خلال الفترة الأموية والعباسية. وربما يرجع سبب بقاء المدينة واستمرارها في القيام بِدَوْرٍ مهم بعد موت الحجاج الثقفي إلى جملة عوامل منها على سبيل المثال:

١ ـ من الواضح أن الحجاج الثقفي لم يكن يطمح من وراء اتخاذه مدينة له ولجنده من أهل الشام أن تكون مدينة تجارة أو أن تحتوي على مستلزمات المدينة التجارية، وخاصة خلال المرحلة التأسيسية

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٣٤٩.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٧٥، ياقوت الحموي: ج١ ص٩٨.

الأولى للمدينة. إن أبا جعفر المنصور لا الحجاج الثقفي كان واعياً ومدركاً لهذه المستلزمات فأراد توافرها في الموضع الذي كان يبحث وراءه كموضع لمدينة بغداد المدوَّرة. وفوق ذلك، فإن الحجاج الثقفي لم يكن يرغب في الموضع الذي اختاره لمدينة واسط أن تحلَّ محلَّ البصرة كقاعدة لجبهة الفتوحات باتجاه الكوفة ـ المدائن ـ المشرق. وذلك لأن هذين المصرين، البصرة والكوفة، كانا قد اتُّخذا لأسباب عسكرية ولتسهيل مهمة الإمداد المادي والبشري للجيوش المقاتلة وقد تحوَّلا إلى مركزَيْن إداريَّيْن لتلك الجبهات. وظلت مدينة واسط إبان فترة الحجاج لا تقوم إلا بوظيفة المدينة الإدارية كمركز إقامة الوالي. ولم تتضح وظيفتها التجارية إلا بعد فترة قصيرة من تاريخ تأسيسها وعلى وجه الخصوص إلا بعد تأسيس مدينة بغداد واتخاذها عاصمة الخلافة العباسية وتحوُّل ميزان الثقل التجاري من البحر المتوسط إلى الخليج العربي وازدهار الأحوال الاقتصادية والتجارية واستقرار العرب في المدن والأمصار على أثر انتهاء مرحلة الفتوحات. فإذا ما رجعنا إلى الروايات الأولى المتعلقة بتأسيس مدينة واسط نجد بأن الشروط التي فرضها الحجاج الثقفي في اختيار الموضع الذي أراده كمحلٍّ إقامة له ولجنده من الشام تتلخص بـ:

(أ) أن يكون الموضع في كرش من الأرض

(ب) أن يكون غير موبوء

(ج) أن يكون على نهر جارٍ

(د) والمهم أن يكون قريباً من المصرَيْن المهمَّيْن، البصرة والكوفة

غير أن التطوُّرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدها العراق أثناء العصر العباسي ويقف على رأسها تحوُّل مركز الإدارة السياسي والإداري إلى بغداد والعراق بدلاً من الشام قد وفرت دفعة حيوية لا بالنسبة إلى البصرة

والكوفة وواسط فحسب، إنما شمل القرى والمدن المتعدِّدة الأخرى. فإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الموضع الجغرافي لمدينة واسط وأنها لا تبعد كثيراً عن بغداد العاصمة والتي كانت مستقرَّ العباسيين ومحلَّ الدواوين والإدارة المركزية نكون قد أدركنا وضعيَّتها وأهمية دورها في المجالات المختلفة.

ومن حسن حظ مدينة واسط أنها كانت تقع على الطريق النهري الذي يربط بغداد بالخليج العربي والعالم الخارجي من جهة وبالأحواز وبلاد فارس والمشرق من جهة ثانية. في الوقت الذي لم توفِّر مدينة الكوفة مثل هذه الامتيازات في الملاحة النهرية الداخلية لأنها كانت تقع على بطائح ضيِّقة غير صالحة للملاحة. والمعروف أن الطريق التجاري النهري كان أسهل وأكثر أماناً للتجار والمسافرين من الطريق البري.

وقد ظهر أثر هذا الموقع الجغرافي التجاري بشكل متزايد إبان فترة نشاط الفعاليات التجارية بين العراق ومختلف البلدان حينما اتسعت علاقاته وصلاته التجارية مع العالم الخارجي من خلال الخليج العربي. فصار الطريق التجاري هذا يمرُّ بمدينة واسط على الوجه الآتي: بغداد ـ واسط ـ البصرة ـ الخليج العربي ـ الهند ـ الصين وبالعكس.

٢ ـ وقد رافق هذه التحوُّلات في الميزان التجاري تحوُّلات ذاتية في المدن والمراكز العراقية الأخرى، فإن منطقة البطائح، مثلاً التي لم تكن مستثمرة اقتصادياً وعلى نطاق واسع خلال الفترات السابقة تحوَّلت إلى منطقة مهمة في زراعة الحبوب وأهمها الأرزّ، وكذلك صارت منطقة خصبة لصيد الأسماك وكانت تزوِّد أسواق بغداد والمدن الأخرى بها. كما تحوَّلت وظيفة مدينة البصرة من مخيَّم ومعسكر للمقاتلين إلى مدينة التجارة وأخذت تصدِّر إنتاجاتها للمدن والبلدان المجاورة، ثم أضحت مرفأ العراق الرئيس. علاوة على ذلك، فإن طرق الحجيج السنوية من المشرق إلى مكة هي الأخرى أدت إلى بروز أهمية عدد من المدن والمراكز كمحطات في طريق قوافل الحجاج قبل توجُّهِهم إلى مكة.

وبذلك فقد ساعدت هذه العوامل وغيرها على توفير مستلزمات الاستمرار والبقاء لمدينة واسط، مدينة الحجاج الثقفي عبر قرون متعدّدة إلى جنب المدن العراقية الأخرى.

* * *

لا أريد الإفاضة في الحديث عن الدوافع التي دفعت الحجاج الثقفي إلى اتخاذ مدينة واسط لأن هناك عدداً من الدراسات الحديثة القيّمة حول هذه المواضيع أخص بالذكر منها أطروحة الماجستير (واسط في العصر الأموي) وأطروحة الدكتوراه (واسط في العصر العباسي) للدكتور المعاضيدي. ومع هذا فإن هناك جملة تساؤلات تتعلق بحقل التمدُّن تسبق الحديث عن الدوافع لا بدَّ من الوقوف عليها. فهل كان تأسيس مدينة واسط ضرورة تمدنية في فترة منتصف القرن الأول للهجرة، الفترة التي كانت فيه كلٌّ من مدن البصرة والكوفة تتحمّل مسؤولية إدارة الفتوحات في الجبهة الشرقية؟ فإذا ما كان الجواب على هذا التساؤل يشير إلى أن الحجاج كان يهدف فعلاً إلى تحجيم دور المصرَيْن، البصرة والكوفة، سياسياً وعسكرياً، ومن ثمَّ وهو الأهم إدارياً فهل أفلح في تحقيق هذا الهدف؟ أعني بذلك واقع مدينة واسط بالنسبة إلى هذه الأحوال، فهل شكّلت حقاً وحدة إدارية مستقلة لإدارة دفة المعارك والفتوحات أم أنها بقيت وحدة ضِمْنَ المفهوم الإداري العام (العراق) وأن الولاة الذين يُعَيَّنون من قِبَلِ الخليفة كانوا يحملون صفة (ولاة العراق) لا ولاة واسط؟ علاوة على ذلك، فإننا إذا ما صدَّقنا الرواية التاريخية التي تفيد بأن النفقات المالية التي أنفقها الحجاج الثقفي في بناء قصره والمسجد الجامع والسور والخندق في مدينة واسط قد بلغت (٤٣) مليون درهم، وأن كاتب الحجاج صالح بن عبد الرحمن قد استكثر هذا المبلغ وأبدى شكوكه في مسألة إقناع الخليفة بالموافقة، ثم اتفاقه أخيراً مع الحجاج بأن تحلَّ المشكلة باحتساب (٣٤) مليون درهم على أنها نفقات الحرب و(٩) ملايين درهم فقط كنفقات[1] بناء تلك الوحدات

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٤٩.

العمرانية، نتوصل إلى حقيقة العوامل والدوافع المرحلية التي دفعت الحجاج الثقفي إلى اتخاذ مدينة واسط، ونتفهم أن المرحلة التمدنية لم تكن آنذاك مهيّأة تماماً إلى إنفاق مثل هذه النفقات في الوقت الذي شهدت فيه تلك الفترة مشاكل سياسية. كذلك ينبغي علينا أن لا نغفل الدافع الأساس الذي رافق تأسيس المدينة، فاعتماداً على قول الحجاج الثقفي أنه أراد من الموضع ليكون بالقرب من البصرة والكوفة قائلاً (أخاف أن يحدث في إحدى المصرَيْن حدث وأنا في المصر الآخر)[١].

فهل نجحت المدينة بعد مرحلة التأسيس أن تقوم بمثل هذه الوظيفة. ولو رجعنا إلى الروايات التاريخية المختلفة حول سنة تأسيس مدينة واسط والتي يمكن جَعْلُها ما بين سنة ٧٨ أو ٨٠ أو ٨٢ أو ٨٤هـ/٦٨٧، ٦٩٩، ٧٠١، ٧٠٣م، نصل إلى قناعة مفادها أن ابتداء تفكير الحجاج في اختيار وبناء مدينته لم يكن نتيجة مباشرة من نتائج حركة ابن الجارود في البصرة التي وقعت سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م، بالدرجة الأولى، أو ثورة ابن الأشعث التي حدثت سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م، الأمر الذي يدفعنا إلى التشديد على الدوافع السياسية المرتبطة بطبيعة المقاتلين الذين كانوا بصحبة الحجاج، وكان الحجاج الثقفي يَثِقُ بهم كثيراً كما هي الحال تماماً في موضوع الخليفة العباسي المعتصم وبنائه مدينة سامراء. على هذا يبدو أن عملية عَزْلِ الجند الشامي في مدينة خاصة بهم، يحيطها سور وخندق ويخضع السكن فيها إلى جملة شروط صارمة يُعَدُّ العامل المركزي في إجراء الحجاج. إذ حسبما أورد المؤرِّخون أن الحجاج مَنَعَ أيَّ فردٍ من أهل السواد أن يتخذ سكناه في مدينة واسط[٢]. وأنه قد أعطى أوامره بِطَرْدِ كلِّ نبطيٍّ منها قائلاً (لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة) كما أنه فرض على أهل السواد إجراء بأن لا يقضوا ليلتهم في واسط وأن يغادروها في الليل. وأنه قام من أجل تطبيق هذا الإجراء، بفرض حراسة على كلِّ باب من أبواب المدينة (فإن كان المغرب رجع من كان خارج المدينة وخرج من كان بالمدينة من أهل

---

(١) بحشل: تاريخ واسط ص٤٣.

(٢) ن. م. ص٤٦.

السواد) ويستمر بحشل في هذا الحديث قائلاً (فربما دخل السوادي مع الرجل إلى أهله فيقول له الرجل: إن صاح بك أحد فتغافل كأنك واسطي)[١]. ومع أن المعتصم لم يفرض مثل هذه القيود الشديدة على سكان مدينته سامراء إلا أنه بالفعل قد اتخذها لظروف وأسباب تتعلق بما سبَّبه جنده الأتراك من أزمة اجتماعية وسياسية مع أهالي مدينة بغداد نتيجة أعمالهم الوحشية وتصرُّفاتهم غير اللائقة. ويبدو أن الحجاج الثقفي كان يخشى من نتائج وخيمة تشابه تلك التي ظهرت إبان خلافة المعتصم فيما بعد. إذ إن هناك دلائل تاريخية تبيِّن خوفه وخشيته على الجند الشامي من أن يختلطوا بأهالي البصرة والكوفة حتى قبل أن يفكر في تأسيس مدينته، إذ وَرَدَ عند البلاذري والطبري أنه اتخذ إجراء بعزلهم في بيوت خاصة بهم، وأنه منعهم من دخول مدينة البصرة بعد انتصاره على حركة ابن الأشعث[٢]. إضافة إلى هذا أن هناك قصة أوردها الطبري، لا نعلم مدى حقيقتها لكنها تشير بشكل مباشر إلى بروز أزمة سياسية واجتماعية بين جنده وأهالي مدينة الكوفة، وتظهر أن أهالي الكوفة كانوا غير مرتاحين إلى وجود الجنود الشاميين بين ظهرانيهم. فذكر الطبري في حوادث سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م، أن السبب المركزي الذي دفع الحجاج إلى بناء مدينة واسط اعتداء أحد الجنود وهو في حالة سَكَرٍ على زوجة رجل من بني أسد كان حينذاك غائباً ضِمْنَ الجيش الذي بَعَثَهُ الحجاج من أهالي الكوفة إلى خراسان. فلما عاد من خراسان أخبرته ابنة عمه قائلة له (لقد لقينا من هذا الشامي شراً) وتفيد القصة أن الزوج ثأر لزوجته فقتل الشامي، وأن خبر هذه الحادثة وصل إلى مسامع الحجاج فأمر بالنداء على الجنود الشاميين أن (لا ينزلنَّ على أحد واخرجوا فعسكروا)، وفي خضمِّ هذه الأحداث بَعَثَ عدداً من الرواد ليرتادوا له مكاناً جديداً من أجل عَزْلِ جنده[٣]. بذلك يظهر أن الدافع البارز والحقيقي الذي جعل الحجاج مصمِّماً على التفتيش عن موضع يعزل فيه جنده من أهل الشام

---

(١) بحشل: ص٤٦، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٥٠، المعاضيدي: واسط ص٩٧.
(٢) أنظر المعاضيدي اعتماداً على البلاذري والطبري: ص٩٧.
(٣) الطبري: ج٦ ص٣٨٣، ٣٨٤.

هو دافع سياسي واجتماعي بالدرجة الأولى. فهل نجح الحجاج في إجرائه هذا بعزله الجند الشاميين في واسط بصورة مستمرة؟ الظاهر أنه لم يفلح في ذلك تماماً، فاعتماداً على قول ياقوت الحموي أن مسألة القيود التي فُرِضَتْ على أهل السواد في مَنْعِهِم من دخول مدينة واسط قد بقيت نافذة المفعول طيلة فترة الحجاج الثقفي (فلما مات دخولها)[1]. ويبيِّن عدد من الروايات عند الطبري ترجع إلى فترة لاحقة لفترة الحجاج عن وجود جُنْدٍ من أهل الشام في البصرة[2].

ومن الجانب الآخر فَرُبَّ سائل يتساءل عما إذا كان الحجاج وغيره من الأمراء أو الخلفاء الذين أسّسوا مدناً خاصة بهم قد أخذوا بنظر الاعتبار توافر جملة من المستلزمات والصفات في المناطق التي اختاروها لمدنهم؟ الحقيقة أنه بالنسبة إلى بدايات تأسيس مدينة واسط لدينا عدد من الروايات المباشرة التي تدلّل بأن الوالي الأموي كان قد فرض بضعة شروط للموضع المختار. وهي عملية منطقية جداً بالنسبة إلى مدينة ستقوم بوظيفة العاصمة للوالي ومركز إدارته، كما أن هذه المستلزمات تعكس بوضوح مفهوم العرب الحضاري في البحث عن الأماكن المناسبة لاتخاذ المدن. فقد اتخذ الحجاج عدة تطوُّرات وإجراءات قبل أن يستقرَّ على القرار النهائي بشأن الموضع الذي صار مدينة واسط.

١ ـ حسبما أورده الطبري في القصة السابقة الذكر أن الحجاج قد أوعز إلى بعض الأشخاص، بعد حادثة الجندي الشامي، أن يجدّوا في التفتيش عن مكان لمدينته.

٢ ـ ومن المحتمل أن من جملة الذين بَعَثَهُم كروّاد للمكان في هذه الفترة الأطبّاء، وذلك لكي يحدّدوا موضع المدينة فتجوّل هؤلاء في المنطقة ما بين عين التمر والبحر كما تجوّلوا في جهات ومناطق أخرى من العراق.

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٥٠.
(٢) الطبري: ج٦ ص٥٨٠، ٥٨١.

٣ ـ وقد زوَّد الحجاج هؤلاء الروَّاد الأطباء بتوصياته عن المستلزمات الضرورية والتي كان يفضّل وجودها في الموضع هي:

(أ) أنه قال لرجل يَثِقُ بعقله (امضِ موضعاً في كرش من الأرض).

(ب) (وليكن على نهر جارٍ).

(ج) أن يكون بين الجبل والمصرين، الكوفة والبصرة[١].

٤ ـ وبعد أن استكملت بعثات التفتيش هذه أعمالها، اختارت موضع واسط فكان كما رأت أوفق مكان وجدته لأنه (في خفوف الريح وأنف البرية) توجّه الحجاج بنفسه لمشاهدة الموضع وبات فيه ليلة فاستطاب واستعذب المياه من النهر واستمرأ الطعام والشراب. وزيادة في ذلك فإنه استفسر عن موقع الموضع جغرافياً وبُعْدِهِ عن الكوفة والمدائن والأهواز والبصرة فلما وافقه المكان قرر بشكل نهائي تأسيس المدينة.

والمعروف أن الشروط التي أراد الحجاج توافرها في الموضع المختار تختلف كثيراً عن المستلزمات والشروط التي وضعها العرب، سواء أكانوا خلفاء أم قادة، في اختيارهم الأمصار فشرط أن تكون على نهر جارٍ يرتبط بوضوح بشرط الخليفة عمر بن الخطاب بالنسبة إلى البصرة أن تكون بالقرب من مناقع المياه، كما أن شرط أن يكون الموضع (بين الجبل والمصرين) يرتبط هو الآخر بشرط الخليفة الاستراتيجي أن لا يفصل الموضع عن مركز الإدارة العربية بحر أو جبل. أما شرط أو صفة أن الموضع يقع في (أنف البرية) فهو الآخر يرتبط ارتباطاً واضحاً بشرط صفة البصرة والكوفة والفسطاط أنها تقع على طرف البر. إن هذا التشابه بين المستلزمات التي فرضها الحجاج في موضع مدينته والمواضيع التي صارت الأمصار الإسلامية الأولى لم يأتِ مصادفة إنما يمثّل مفهوم العرب ورؤيتهم في تأسيس المدينة أو المصر، أي بما له علاقة بالظروف

(١) أنظر الطبري: ج٦ ص٣٨٤، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٤٨.

المناخية والصحية التي تعوَّد عليها العرب والتي توافق الاستراتيجية العسكرية في مسألة تزويد الجيوش بالإمدادات.

### خطط المدينة:

بعد أن عيَّن الحجاج موضع المدينة كتب إلى الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان شارحاً له الظروف التي جعلته يصمِّم على تأسيس مدينة جديدة له وطالباً منه الإذن والموافقة، كما أنه لم يغفل أن يبيِّن له صفات الموضع الذي اختاره. وبعد حصول موافقة الخليفة استفسر من مالك الموضع وكان دهقاناً اسمه داوردان، فعرض عليه أن يشتري الموضع فاشتراه بعشرة آلاف درهم ثم ابتدأ بوضع مخطَّط للمدينة.

### المسجد الجامع:

تشير الروايات التاريخية إلى أن الحجاج عندما أمر ببدء وَضْع خطط المدينة وبنائها ابتنى أولاً القصر والمسجد الجامع والسورَيْن.. الخ، وصرَّح بحشل بأن الحجاج كان قد ابتنى أولاً قصره وجعل له أبواباً أربعة واتخذ فيه القبة ثم ابتنى إلى جواره المسجد الجامع[1]. والواضح أن قصر الحجاج كان يقع كما ذكرنا إلى جانب المسجد الجامع من جهته القبلية، كما هي الحال في مواضع دور الإمارة في المدن العربية الأخرى. كذلك يرجِّح المعاضيدي إلى أن هذه المجموعة (المسجد + القصر) كانت تقع في وسط المدينة. ويبدو أن شكل المسجد الجامع كان مربَّعاً وأنه تضمَّن عدة أبواب، وقد تمَّ إجراء عمليات تنقيب في المسجد عُثِرَ من خلالها على بعض أضلاعه وأساطينه التي كانت مبنية من الحجر الرملي كما هي الحال في أساطين المسجد الجامع في البصرة. وكتب حول هذه التنقيبات الأستاذ فؤاد سفر تقريراً عنوانه (واسط: الموسم السادس للتنقيب)[2] بيَّن فيه ما تمَّ العثور عليه موضحاً تخطيط المسجد وشكله بالرسم.

---

(١) بحشل: ص٢٤.

(٢) أنظر المعاضيدي: واسط ص١١٤.

وقد ظلَّ هذا المسجد الجامع موجوداً وفعَّالاً حتى فترة القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، إذ إن الإصطخري وابن حوقل والمقدسي قد أشاروا إليه في كتبهم الجغرافية وذكروا بأن هناك مسجدين في مدينة واسط أحدهما يقع في الجانب الشرقي والآخر في الجانب الغربي حيث مدينة الحجاج. وكان يفصل بين هذين الجانبين جسر. ويقدِّم المقدسي معلومات أكثر مما ذكره الإصطخري وابن حوقل حول هذا المسجد الجامع فيقول إنه جامع الحجاج ويقع في الجانب الغربي وكان في طرف الأسوار بعيداً عن النهر وهو (متشعث عامر[1] بالقران) ويظهر من هذا الوصف أن المسجد صار بعيداً إلى حدٍّ ما عن مركز عمران المدينة. ولعلَّ السبب في إهمال هذا المسجد يرجع إلى انبعاث واسط الجانب الشرقي أو واسط الشرقية من نهر دجلة وانتقال أهالي واسط القديمة وأسواقها ومحلاتها، فكان من الضروري أن يحتوي أيضاً على مسجد جامع.

## دار الإمارة

لقد أوضحت الروايات أن دار الإمارة في واسط أو قصر الحجاج قد بُنِيَ قبل المسجد الجامع أو أن الوحدتين قد بُنِيَتا في وقت واحد. وكان القصر يقع في الجهة القبلية من المسجد. وطالما كانت الفكرة من وراء بناء واسط أن تكون مدينة للحجاج الثقفي، لذا فإنه بعد أن أكمل بناءها أخرج كل نبطيٍّ منها قائلاً (لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة)[2]. والحقيقة أن عدداً من المؤرِّخين قد أشاروا إلى واسط بأنها (مدينة الحجاج)، وبذلك نلاحظ أن هذا الوالي قد وجَّه اهتماماً كبيراً نحو تشييد قصره بالدرجة الأولى على خلاف ما ذُكِرَ بشأن دُور الإمارة في الأمصار الأخرى بأنها كانت بسيطة، خاصة تلك التي تأسست في البصرة والكوفة خلال المرحلة التأسيسية. فقد اتفق الحجاج على بناء هذا

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٨، أنظر عن المسجد: الإصطخري: المسالك ص٥٨، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٤، المعاضيدي: ص١١٤.

(٢) ياقوت ج٥ ص٣٥٠.

القصر مع الجامع والخندق والسور كما ذكرنا (٤٣) مليون درهم، أو بحسب تقدير بحشل ما يعادل خراج السواد كلّه ولمدة خمس سنوات[١].

وبينما كان ذرع أو مساحة المسجد الجامع مائتي ذراع في مثلها أي بما يقابل ٢٠/٠٠٠م، كانت مساحة القصر أربعمائة ذراع في مثلها أي بما يعادل ٨٠/٠٠٠م². وقد وصف بحشل القصر بأنه كان يحتوي على أربعة أبواب يفضي كل واحد منها إلى طريق أو شارع عرضه حوالي عشرين متراً. وكان الحجاج قد هدم من أجل عمارة قصره ومدينته العديد من المدن والمراكز والقرى ونَقَلَ أخشابها وأبوابها إلى واسط. فيذكر البلاذري وياقوت أن الحجاج قد نَقَلَ خمسة أبواب من مدن زندورد والدوقرة ودار (وربما دير) وساط ودار (دير) ما سرجيوس سرابيط (أو شرابط) إلى قصره. وجعله المركز الرئيس الذي تنطلق منه باقي خطط المدينة، وأسّس السوق إلى القرب من قصره. وكانت سوقاً عامرة تمتد من القصر حتى شاطىء دجلة. واتخذ إلى الجانب الغربي من القصر سجنه المعروف (الديماس). واشتهر قصر الحجاج بقبّته التي كانت تُعرف بالقبة الخضراء، وكانت تقع وسط القصر. وهي عبارة عن قبة مرتفعة تحتوي على أربعة أبواب مطلّة على أبواب القصر. ويبدو أن هذه القبة بقيت حتى القرن الرابع للهجرة، إذ إن المقدسي أشار إليها عند ذِكْرِهِ المسجد الجامع في الجانب الغربي من المدينة، غير أنه لم ينسبها إلى القصر إنما إلى المسجد الجامع،[٢] الأمر الذي قد يفهم من ذلك أن القصر قد تهدّم ولم يبقَ منه إلا القبة.

## خطط الأهالي

تتبّع الدكتور المعاضيدي بدقة أسماء المحلّات في مدينة واسط اعتماداً على ما ذكره بحشل والمصادر الأخرى وقد أورد طائفة من أسماء هذه المحلّات

(١) بحشل: ص٤٣.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٨، أنظر عن القصر بحشل: ص٤٤، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٤٨ ـ ٣٤٩، المعاضيدي: ص١٣٣.

كمحلّة الرزازين ومحلّة المهالبة ومحلّة الخزاعيين ومحلّة بني دالان ومحلّة قصر الرصاص[1]. غير أن المهم في موضوع المحلّات كيفية توزيعها في المدينة، وأعني بذلك الأسلوب الذي وزّع فيه الحجاج هذه المحلات والخطط السكنية. صحيح أن البعض منها يتضمن إشارة إلى مجموعات قبلية كالمهالبة والخزاعيين، لكن أسماء البعض الآخر لا توحي بأن التوزيع كان قبلياً. وهي مسألة قد تدعونا إلى الاعتقاد بأن الحجاج لم يستند إلى القاعدة القبلية كأساس وحيد في توزيع خطط المدينة ولا سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن البنية الأساسية لعناصر السكان في واسط كانت تتألف من الجنود الشاميين وأن الحجاج لم يفسح المجال أمام أيّ مجموعة أخرى خارج واسط أن تتجمع في مكان واحد وتشكل محلّة أو سكة.

## الأسواق:

كانت مجموعة القصر + المسجد الجامع تحتل وسط المدينة وكانت سوق واسط الرئيسة تقع بالقرب من المسجد، ولعلّ هذه السوق كانت تجاور الجامع والقصر. علاوة على ذلك، فإن هناك أسواقاً فرعية كانت تتفرّع من هذه السوق المركزية. وكانت الأسواق في واسط منظمة تنظيماً جيداً، وموزعة تبعاً للحِرَفِ والبضائع المعروضة في محلّات كل سوق. وقد أورد بحشل رواية مفصّلة عن الكيفية التي وزع فيها الحجاج هذه الأسواق، إذ إنه أنزل أصحاب (أو باعة) الطعام والبزازين والصيارفة والعطارين إلى الجهة اليمنى من السوق المركزية وتمتد هذه المجموعة من الأسواق والمحلّات إلى درب الخرازين.

كما أنزل البقالين وأصحاب (باعة) السقط وباعة الفواكه إلى الجانب المقابل للسوق المركزية وكانت هذه المجموعة من الأسواق تمتد إلى درب الخرازين أيضاً. وأنزل الخرازين والروزجارين والصناع إلى الجهة اليسرى من السوق المركزية وكانت تمتد أيضاً إلى درب الخرازين. فكأن درب الخرازين هذا

---

(١) المعاضيدي: واسط ص١٤٢ ـ ١٤٣.

يشكِّل النهاية لمجموعات الأسواق المتفرِّعة من السوق المركزية. وزيادة في التنظيم وتسهيل عمليات البيع والشراء، فإن الحجاج، حسبما ذكر بحشل، قد جعل في كل سوق أو لكل تجارة صيرفياً يقوم بعمليات الصيرفة لتسهيل النشاط التجاري داخل الأسواق[١].

## السوق والخندق:

لما كان الحجاج يهدف بالدرجة الأولى إلى عَزْلِ الجند الشاميين عن الاختلاط بغيرهم من أهالي الكوفة والبصرة وأهالي السواد النبط، فإنه لذلك استحدث لأول مرة مسألة السور والخندق. هذه الوحدات العمرانية التي لم تكن قد اتُّخِذَتْ في المدن التي سبقت واسط كالبصرة والكوفة. ويرجع سبب ذلك لأنه لا توجد هناك حاجة إلى مثل هذه التحصينات في المدينتَيْن البصرة والكوفة لضرورة بقائهما مفتوحتَيْن لحركة وصول المقاتلين والإمدادات، وكذلك للاتصال السهل بمركز الخلافة.

مما لا شك فيه أن اتخاذ الحجاج لسورَيْن محاطَيْن بخندق أمر مبالغ فيه خلال تلك الفترة المبكرة حينما كانت الجيوش العربية ما زالت في حركة لإمداد إخوانهم من أجل إقرار الأمور في بعض المناطق في المشرق. إن هذه التحصينات الشديدة لا يمكن تفسيرها فقط على أنها قد اتخذت لعرقلة أو لمنع هجرة أهل السواد إلى مدينة واسط، وربما أنها كانت تمثِّل مخاوفاً سياسية وعسكرية لدى الحجاج من أيِّ هجوم مباغت من أهالي البصرة أو أهالي الكوفة وذلك لعدم ثقته بهم. أيضاً فإن بناء مدينة خاصة للحجاج أو مدينة للوالي وجنده. وزيادة في التحصين فإن الحجاج قد أنشأ على الأسوار أبراجاً ومواضع حراسة.

وقد ذُكِرَ أن السور الخارجي كان يحتوي على عدة أبواب منها ما يُعرف بباب المضمار وآخر باب الزاب وباب القورج وباب الخلالين وباب النيل وباب

---

(١) بحشل: ص٤٤، المعاضيدي: ص١٤٤.

البصرة. لذلك فإن هذا السور كان يطوّق مدينة واسط حتى نهر دجلة ويعزلها تماماً عن المناطق المجاورة لها من الجانب الغربي في الوقت الذي يقوم نهر دجلة بعزل المدينة من الجانب الشرقي عدا الجسر[1]. إن أسماء بعض الأبواب تشير إلى جهات ومناطق جغرافية كباب الزاب وباب النيل وباب البصرة، كما تبيّن بعض الأسماء إلى أنها تقود إلى أسواق أو محلات كالخلالين والقورج. الخ.

لم يستمر وَضْعُ سور المدينة طويلاً بعد موت الحجاج، ويبدو أنه أخذ بالتضعضع ولم تَرِدْ رواية على أن أحداً من الولاة الذين جاءوا بعد الحجاج قد قام بعمليات تعمير أو إعادة بناء، لذلك يمكن القول إنه قد تهدّم في بداية القرن الثالث للهجرة[2] وإن كلاً من الإصطخري وابن حوقل لم يشيرا إلى هذا السور إنما حدّدا الجانب الغربي للمدينة بالبادية دون أن يذكرا شيئاً عن السور، فقالا (وهي مدينة تحيط بحدّها الغربي البادية بعد مزارع يسيرة)[3].

## وضع مدينة واسط بعد الحجاج:

كان من المتوقع أن يكون مصير مدينة واسط بعد موت الحجاج الثقفي، مؤسسها، مهدّداً وأن تتحوّل إلى خراب باعتبار أن وجودها قد ارتبط بهذا الوالي. غير أنها وحسبما أوردنا في بداية الحديث عن المدينة، ظلت مستمرة بعده ولم يحلّها، كما هي الحال في بعض المدن المؤقتة، الخراب والانحلال. بالعكس أنه ربما من الصحيح القول بأن المدينة شهدت فترات انتعاش وازدهار خلال العصر العباسي بصورة أكثر مما كانت عليه أيام الحجاج. إذ توضح أوصاف الجغرافيين العرب أن المدينة اتسعت فصارت تشتمل على جانبين، وأن الجانب الغربي، وهو مدينة الحجاج، ظل موجوداً لكن أهميته قليلة إلى حدٍّ ما مقارنة بالجانب الشرقي من نهر دجلة الذي أخذ يتسع ويزدهر على حساب

---

(١) المعاضيدي: ص١٢٥.
(٢) ن. م.
(٣) الإصطخري: المسالك ص٥٨، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٤.

الجانب الغربي، فتكاثرت أسواقه وشوارعه ومحلّاته وتزايد حجم السكان فيه فلم تَعُدْ المدينة مدينة الجند الشاميين فقط، إنما سكنتها عناصر مختلفة عربية وغير ذلك. وقد تناول الدكتور المعاضيدي في أطروحته (واسط في العصر العباسي) جميع هذه الأمور بشكل تفصيلي. إذ ألقى الأضواء على أحوال المدينة الاجتماعية والفكرية والإدارية[1].

ومن المرجَّح أن هذه الاستمرارية في بقاء المدينة وكذلك التطوُّرات العمرانية والاجتماعية التي شهدتها ترجع إلى مجمل المتغيُّرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدها العراق خلال الفترة العباسية وانتعاش الأحوال الاقتصادية للمجتمع العربي خاصة تلك المتعلقة بالتجارة. وعلاوة على هذا العامل، فإنه لا بدَّ من الإشارة إلى العامل الجغرافي وقرب واسط من بغداد فقد أتاح لها هذا العامل فرصاً اجتماعية وفكرية عديدة.

---

(١) د. عبد القادر المعاضيدي: واسط في العصر العباسي (بغداد ١٩٨٠).

الفصل السادس

# بغداد ـ الكرخ ـ الرصافة

لقد درس عدد من الباحثين والمؤرِّخين المحدثين مدينة المنصور بغداد من أوجه وزوايا متعدِّدة تاريخية وأثرية واقتصادية وعمرانية، وذلك فإن الهدف من دراسة هذه المدينة في هذا الفصل سيقتصر على تناول بعض الجوانب المتعلقة بالتطوُّرات والتحوُّلات التمدنية التي شهدتها المدينة مقارنة بما تمَّ ذِكْرُهُ من مدن عربية وإسلامية.

في الواقع أن هناك جملة عناصر مشتركة بين بدايات تأسيس المدينة المدوَّرة، عاصمة ابي جعفر المنصور وبين واسط عاصمة الحجاج الثقفي، الأمر الذي دفعنا إلى جعل الإثنين ضِمْنَ خطٍّ دراسيٍّ واحد. ومن بين هذه العناصر المشتركة.

١ ـ **العنصر الجغرافي**: إذ إنه من الواضح بأن المدينتَيْن متقاربتان جغرافياً وتقعان ضِمْنَ منطقة جغرافية واقتصادية ومناخية واحدة. وإذا ما رجعنا إلى الروايات التاريخية لتأسيس مدينة واسط نرى أن الحجاج قد أوصى الروّاد الذين بَعَثَهُم للبحث عن موضع ملائم لمدينته أن يكون الموضع في كرش من الأرض وعلى نهر جارٍ وأن يتوسط الكوفة والبصرة والمدائن والأهواز. فكانت واسط تقع على الجانب الغربي من نهر دجلة. أما بخصوص بغداد فإن أبا جعفر المنصور قد ارتاد أيضاً عدداً من الأماكن غير أنه لم يعجب بها بقدر ما أعجب بموقع بغداد إلى الجانب الغربي من نهر دجلة. ومما أورده الطبري اعتماداً على

الهيثم بن عدي وكرَّر الرواية ياقوت الحموي أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد بَعَثَ روّاداً يرتادون له موضعاً ينزل به أن يكون واسطاً رافقاً بالعامة[1] والجند

٢ ـ العنصر التمدني: تُعَدُّ كلٌّ من بغداد وواسط من المدن العربية المحدثة في التاريخ الإسلامي، فقد أسَّسهما العرب ولم يكونا من المواضع المأهولة بالناس والعمران قبل اتخاذهما.

٣ ـ العنصر السياسي: لقد تحدثنا في موضوع واسط أن الحجاج الثقفي قد صمَّم على الانتقال إلى موضع جديد بسبب جنده الشاميين، وأنه أيضاً لم يكن يأمن جانب أهالي الكوفة والبصرة ولا يَثِقُ بمساندتهم له فعمل جاهداً على مَنْع جنده الشاميين من الاختلاط بأهالي الكوفة وشدد على مسألة عَزْلِهِم. ولو أمعنَّا النظر في ما وَرَدَ من روايات تاريخية بشأن الأسباب والدوافع الضاغطة على أبي جعفر المنصور التي دفعته للبحث والتفتيش عن موضع لمدينته الجديدة لنرى حسبما أورده الطبري بأنه (كره سكن الهاشمية التي تقع بالقرب من مدينة ابن هبيرة لاضطراب الراوندية مع قرب جواره من الكوفة ولم يأمن أهلها على نفسه فأراد أن يبعد من جوارهم)[2] وتضيف رواية الطبري أيضاً إلى أنه نظراً لهذه العوامل فقد (خرج بنفسه يرتاد لها موضعاً يتخذه مسكناً لنفسه وجنده)[3]. كذلك اعتماداً على رواية عمر ابن شبة أن أهل الكوفة قد أفسدوا جند المنصور على سيِّدهم لذلك اضطر المنصور إلى الجد في البحث عن منزل جديد.

٤ ـ العنصر القصصي: أو عنصر النبوءة التي سبقت تأسيس كلٍّ من المدينتَيْن. فبالرغم من غرابة ذِكْرِ هذا العنصر في تأسيس واسط وبغداد غير أنه موجود ويبدو أنه كان يتضمن أهمية مشتركة. إن القصة التي أوردها المؤرِّخون تفيد بأن الحجاج الثقفي عندما استقر رأيه على موضع واسط رأى راهباً قد أقبل على حمار وقد عَبَرَ نهر دجلة فلما وصل الراهب إلى موضع واسط بال الحمار فنزل الراهب واحتفر ذلك الموضع ورماه في دجلة فلما سأله الحجاج عن سبب

---

(١) الطبري: تاريخ ج٧ ص٦١٥، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٥٧.
(٢) الطبري: ج٧ ص٦١٤.
(٣) ن. م.

قيامه بذلك العمل أجابه (نجد في كتبنا أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يُعْبَدُ الله فيه ما دام في الأرض أحد يوجده فاختطَّ الحجاج مدينة واسط)[1]. ووردت قصة الراهب مع الحجاج عند بحشل بشكل آخر إذ أجاب الراهب الحجاج قائلاً (أيها الأمير إننا نجد في كتبنا أنه لما كان يوم الطوفان انقطعت أرض من الأرض المقدسة فصارت ههنا[2] فهي هذه).

أما بشأن مدينة بغداد فتحدثنا الروايات عن قصة تفيد بأن أبا جعفر المنصور حينما استقر على موضع بغداد رأى راهباً في المنطقة فسأله عما إذا كان هناك دليل في كتبهم عن بناء مدينة في هذا المكان، فأجاب الراهب بالإيجاب قائلاً إن هذه المدينة يقوم ببنائها شخص يدعى (مقلاص) وفي رواية أخرى تشير إلى أن ذلك الراهب كان في دير كبير يقع في قرية سوق البقر حينما التقى به المنصور ووجّه إليه السؤال، وكان جوابه كالآتي (إنما يبني ها هنا ملك يقال له أبو الدوانيق)[3] فعندما سمع المنصور هذا القول ضحك وقال (أنا مقلاص) أو (أنا أبو الدوانيق) حينئذٍ أمر ببناء مدينة بغداد.

حقيقة أن هذه القصص قد تكون مختلفة أو مبالغاً فيها وأنها كما يرى بعض الباحثين[4] قد وُضِعَتْ بعد تأسيس هاتين المدينتَيْن غير أنني أرى بأنها تحمل أهمية غير قليلة في مسألة إضفاء طابع الشرعية على بناء مدينة جديدة في أرض اشتريت من أصحابها.

٥ ــ **العنصر الصحي**: لقد تطرَّقنا في السابق أن الحجاج الثقفي قد بَعَثَ أطباء كروّاد ليختاروا له الموضع المناسب صحياً لمدينته فلما عثر هؤلاء على المكان الذي صار واسطاً قالوا (ما أصبنا مكان أوفق من موضعك هذا في هفوف الريح وأنف البرية)[5]. في نفس الوقت فإن أبا جعفر المنصور قد تأكد بنفسه عن صحة الأوصاف التي ذَكَرَها الرواد الذين ارتادوا موضعاً لمدينة

---

(١) ن. م: ج ص٣٨٤.

(٢) بحشل: تاريخ واسط ص٣٦.

(٣) الطبري: ج٧ ص٦١٨، ٦١٩.

(٤) د. حمدان الكبيسي: أسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي (بغداد ٩٧٩) ص٣٤.

(٥) ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٤٨.

بغداد، فقضى في الموضع المنتخب ليلة وتأكد من طيب المبيت فيه، فضلاً عن ذلك فإنه استفسر من صاحب الدير في قرية سوق الغنم عن أحوال الحر والبرد والأمطار والوحول والبقّ والهوام. ولم يكتفِ بذلك بل وجّه جماعة من رجاله ليمكثوا ليلة في كل قرية من القرى المجاورة للموضع فاجتمعت آراؤهم على موضع بغداد[١].

٦ ـ العنصر العمراني: يُعَدُّ الحجاج الثقفي أول أمير يدخل فكرة بناء سور وخندق في مدينة واسط، إذ لم يكن هناك أيُّ سور في الكوفة والبصرة. ولم يكتفِ الحجاج باتخاذ سور واحد لمدينته، إنما بنى سورَيْن، وزيادة في الاحتراس لعَزْلِ جنده الشاميين حَفَرَ حول هذين السورَيْن خندقاً. وكان السور الخارجي يتضمن عدداً من الأبواب التي يمثّل بعضها اتجاهات المدينة جغرافياً، وجلب لواسط الأبواب والمواد العمرانية والإنشائية من مدن ومراكز مختلفة. كما أنه بدأ خططه في المدينة أولاً ببناء قصره ثم المسجد الجامع، وابتنى لقصره قبة عالية عُرِفَتْ باسم القبة الخضراء. إن هذه الدلائل مجتمعة تشير إلى أن الحجاج الثقفي أراد من واسط مدينة له ولجنده ويغلب عليها الطابع العسكري.

من الجانب الآخر، فإن بغداد، المدينة المدوَّرة، كانت هي الأخرى مدينة مسوَّرة بسورَيْن ويحيط بهما خندق. أيضاً فإن سورها الخارجي كان يضمُّ أربعة أبواب تمثّل أربعة اتجاهات جغرافية وهي باب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام. وزيادة في التحصين فإن كل باب من هذه الأبواب كان يتكون من بابَيْن عظيمَيْن مصنوعَيْن من الحديد وكان هناك عدد من الحراس يتولّون مهمة فَتْحِهِ وغَلْقِهِ[٢]. وقد حَفَرَ المنصور حول هذا السور الخارجي خندقاً أجرى إليه الماء من نهر يأخذ مياهه من نهر كرخايا. كذلك فإن المنصور قد بدأ خطط المدينة المدوَّرة ببناء قصره وكانت مساحته (١٦٠) ألف ذراع[٣].

(١) الطبري: ج٧ ص٦١٦.
(٢) أنظر اليعقوبي: البلدان (ط/ أوروبية) ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص١٠٧، حمدان الكبيسي ص ٦٠.

ثم ابتنى إلى جانب القصر، دون أن يأخذ بنظر الاعتبار مسألة اتجاه القبلة وجهة صحيحة، المسجد الجامع حيث بلغت مساحته (٤٠) ألف ذراع. ومن الجدير ذِكْرُهُ أن هناك تفسيراً لسبب تسمية مدينة بغداد بالزوراء هو أن مصلى المسجد الجامع كان منحرفاً قليلاً عن استقبال القبلة، أيضاً فإن المنصور قد ابتنى لقصره قبة أطلق عليها اسم القبة الخضراء ويبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً وقد نَقَلَ المنصور أبواب مدينة واسط لمدينته[١].

ومما له علاقة بهذا المجال أيضاً فإنه من المعروف أن الأسس التي استندت إليها تخطيطات مدن الكوفة والبصرة كانت متأثرة بالهيئة السكانية لكلٍّ منهما فكانت خططهما السكنية قبلية حيث اتخذت كل قبيلة وحلفاؤها خطة مرسومة لها. في الجانب الآخر فإن الحجاج الثقفي وأبا جعفر المنصور لم يتشددا كثيراً في هذه الأسس التخطيطية عندما وضعا الخطط السكنية في واسط وبغداد، فالمحلّات فيهما لم تكن موزَّعة توزيعاً قبلياً تماماً. بالعكس فإن محلّات وسكك مدينة واسط وبغداد قد غلب عليها الطابع الشخصي أو أنها قطاعات قطعت إلى عدد من الأشخاص، فهناك سكة أبي أحمد وسكة سليمان وسكة صاعد وسكة أسلم وسكة الربيع وسكة غزوان وغيرها في مدينة بغداد.

## مدينة بغداد:

كان الموضع الذي تأسست فيه مدينة أبي جعفر المنصور في الأصل عبارة عن قرية كانت تُعْقَدُ فيها سوق تجارية منذ الفترة الساسانية وتسمّى بنفس الاسم تقريباً (بغداد) إذ يذكر البلاذري والخطيب البغدادي أن الموضع كان مجمعاً للتجار في كل شهر وقيل في كل سنة حيث تقام فيه سوق عظيمة. وذكر أن هذه السوق كانت مشهورة بحيث اعتاد تجّار الصين على قَصْدِها جالبين تجاراتهم وبضائع الصين فكانوا يربحون في هذه العملية ربحاً كبيراً. كما أشار الخطيب البغدادي إلى رواية تحمل رأياً آخر، إذ قال بأن الموضع كان عبارة عن مزرعة

(١) أنظر المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣١، الخطيب البغدادي: ج١ ص١٠٧، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٦٠.

لجماعة من البغداديّين وكان يطلق عليها اسم المباركية وكان يسكنها حوالي ستين شخصاً من النصارى[1].

يبدو من التفسيرات المختلفة لأصل كلمة بغداد إلى أن الموضع قديم يرجع تاريخه إلى فترة أقدم من الفترة الساسانية، فقد أورد الدكتور مصطفى جواد في كتابه (دليل خارطة بغداد) بأن أصل التسمية ربما يرجع إلى اللغة البابلية (بعل جاد) بمعنى معسكر الإلهة بعل وبمعنى معسكر الجيش البابلي. ويرى بعض الباحثين أن أصل الكلمة كلداني مأخوذة من كلمة (بلداد) وهو اسم إلّه من الألهة الكلدانية. في الوقت نفسه، فإن هناك تفسيراً آخر يبيّن أن أصل الكلمة آرامي ويُقْصَدُ بها بيت الغنم[2].

إن إشارة التفسيرات السابقة إلى أن موضع بغداد قديم لا يعني بكل تأكيد أن مدينة المنصور، المدينة المدوَّرة قديمة أيضاً فهي مدينة عربية مستحدثة في الإسلام وأن الخليفة العباسي المنصور هو أول من أرسى قواعدها وأسَّسها ولم يكن الموضع مأهولاً بالسكان والعمران في الوقت الذي وقع اختيار المنصور عليه. ومن المحتمل أن يكون الموضع، كما قال الخطيب البغدادي، عبارة عن مزرعة تعود ملكيتها إلى عدد من النصارى وأنها كانت تُعرف بالمباركية حيث كان إلى جوارها عدد من الأديرة بدليل أن أبا جعفر المنصور قد ابتاع أرضها من مالكيها، وقيل في رواية أخرى إنه عوَّضهم[3] وأرضاهم.

كما تبيَّن إذن، فإن هناك تبايناً في إرجاع أصل كلمة بغداد، فمنهم من أرجعها إلى أصل بابلي أو أكادي ومنهم من قال بأنه آرامي ومنهم من زعم بأن أصلها فارسي يُقْصَدُ به بستان الرجل (بغ داد) أو أن بغ هو الصنم وداد بمعنى أعطاني، وبذلك تكون عطية الصنم أو بغ تعني الشيطان وبذلك تعني الكلمة

---

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص١٠٧.
(٢) د. مصطفى جواد: دليل خارطة بغداد ص١٨، الكبيسي: أسواق ص٤٤ أنظر مقالة «Baghdad» في E.I.(2) بقلم Duri.
(٣) الطبري: ج٧ ص٦١٩.

المركّبة عطية الشيطان، وتذكر الروايات أن المنصور لم يكن يحبذ تسميتها ببغداد لوجود عنصر الشر (الشيطان والصنم) هذا، وإنما كان يحبذ تسميتها بمدينة السلام. فالسلام هو الله فبذلك تكون مدينة الله[1].

وفي الوقت الذي تباينت فيه الآراء حول تفسير كلمة بغداد فقد تباينت أيضاً بخصوص سنة تأسيسها بالضبط، فيرى البعض أن أبا جعفر المنصور قد ابتدأ في بنائها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م، وقيل في سنة ١٤١هـ/٧٥٨م. كما يرى آخرون أن المدينة بُنِيَتْ سنة ١٤٤هـ/ وبضعة أشهر ومال رَأْيٌ آخر إلى أن سنة التأسيس هي ١٤٥هـ/٧٦٢م وانتهى العمل منها سنة ١٤٦هـ ٧٦٣م. ولعلَّ السنة التي أجمع عليها المؤلّفون هي سنة ١٤٥هـ كبداية للتأسيس، وفي سنة ١٤٦هـ انتهى العمل من بناء مجموعة القصر + المسجد الجامع ثم نُقِلَتْ إليها الدواوين وبيت المال. وظلت على هذه الهيئة الناقصة حوالي ثلاث سنوات إلى أن تمّ في سنة ١٤٩هـ ٧٦٦م بناء السور وحَفْرُ الخندق.

تتميَّز مدينة المنصور بعلة خصائص جديدة مقارنة بخصائص المصرَيْن القديمَيْن، البصرة والكوفة، وعدد من المدن المستحدثة الأخرى كالقيروان والفسطاط والموصل وغيرها. ومن بين هذه الخصائص:

١ ـ أن مدينة بغداد اتخذت شكلاً دائرياً لذلك عُرِفَتْ أيضاً بالمدينة المدوَّرة، وأحيطت هذه الدائرة بسور خارجي وآخر داخلي. حقاً أن المدينة تُعَدُّ أول مدينة عربية إسلامية صارت بهذا الشكل الدائري. ومن المحتمل جداً أن يكون العامل السياسي والعسكري هو العامل الأساس الذي دفع الخليفة المنصور إلى أن يجعلها مدوَّرة، فقد أشار المؤلّفون إلى أن الخليفة رفض أن يجعل شكلها على أساس المربع مثلاً وذلك انطلاقاً من إدراك جغرافي فإذا ما كان واقفاً وسط المربع فسيكون قريباً من جزء من المدينة وبعيداً عن أجزاء

---

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص٦٠، ياقوت: ج١ ص٤٥٦ ـ ٤٥٧، مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ص١٣٤.

أخرى في الوقت الذي يكون فيه مشرفاً وقريباً من الناحية الجغرافية في الدائرة على جميع الجهات بصورة متساوية[1].

٢ ـ مسألة القصر: إذ إن الخليفة المنصور قد ابتنى قصره اولاً وكانت مساحته كبيرة إذ قدَّرها الخطيب البغدادي بحوالي ١٦٠,٠٠٠ ذراع ثم ابتنى المسجد الجامع وجعله ملاصقاً للقصر. فحدث نتيجة هذا الإجراء ازورار قليل في قبلة المسجد[2].

٣ ـ لم يعلِّق المنصور أهمية كبيرة على الأسس العسكرية الاستراتيجية التي كانت سائدة في القرن الأول للهجرة والتي طُبِّقَتْ بدقة في تأسيس الأمصار الإسلامية الأولى وهي ١ ـ أن يكون الموضع على طرف البر وقريب من الريف ٢ ـ وأن لا يفصله عن مركز الخلافة نهر أو بحر أو جسر.. الخ. في نفس الوقت فإن المنصور أوْلَى اهتماماً شديداً إلى جوانب وأُسُسٍ أخرى أهمها:

(أ) الموقع الاقتصادي

(ب) الموقع الاستراتيجي أن لا يكون الموضع مكشوفاً أو يمثِّل الناحية الهجومية، إنما محصَّناً من أية هجمات قد يشنُّها عليه الأعداء.

(ج) الموقع التجاري بما يتعلق الأمر بوقوع الموضع على الطرق والمسالك التجارية.

(د) توافر الظروف والمستلزمات الصحية بما فيها وفرة المياه العذبة والمناخ الملائم.

وبخصوص مجمل هذه الخصائص يروي الطبري اعتماداً على الهيثم ابن عدي أن الرواد الذين بَعَثَهُم المنصور من أجل التفتيش عن

---

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٢.
(٢) ن. م: ج١ ص١٠٧.

مكان ملائم لمدينته قد وصفوا له في بداية الأمر موضعاً يقع بالقرب من بارما، وبالفعل فإن المنصور رحل إلى هذا الموضع بنفسه وقضى فيه ليلة فوجده موضعاً طيّباً ومناسباً. وفوق ذلك فقد استشار جماعة من أصحابه من بينهم سليمان بن مجالد، أبو أيوب الخوزي وعبد الملك بن حميد الكاتب فقالوا جميعاً (ما رأينا مثله، هو طيّب صالح موافق) ومع أن الخليفة كان متفقاً مع ما أبدوا من آراء حول صفات الموضع، لكنه أبدى اعتراضاً يشير إلى تفهُّم وإدراك عميقين، إذ قال بأنه موضع جيد لكن (لا يحمل الجند والناس والجماعات) ثم أضاف إلى ذلك قائلاً (إنما أريد موضعاً يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلو عليهم في الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فإني إن أقمت في موضع لا يجلب إليه في البر والبحر شيء غلت الأسعار وقلّت المادة واشتدت المؤونة وشقَّ ذلك على الناس)[1]. إن هذه الشروط والمستلزمات التي كان المنصور يفكر بها جديدة، إذا ما قورنت بالشروط التي فرضها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وقادة الفتوحات الإسلامية. وهي لا تعكس أيَّ تشديد على الأسس العسكرية السابقة الذكر بقدر ما تعكس من اهتمام بالغ في مسائل التموين والموقع الاقتصادي.

٤ ـ الناحية التخطيطية فالخليفة المنصور أيضاً لم يشدِّد كثيراً على الأسس التي شدَّد عليها مؤسّسو الأمصار في تخطيط المدن، فالمدينة المدوَّرة لم تخضع خططها ومحلّاتها السكنية لأيّ مؤثر قبلي. ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى أن المنصور لم يكن يرغب في توسيع المحلّات السكنية فيها وجَعْلِها مفتوحة لاستقبال أفراد آخرين ينتمون لهذه القبيلة أو تلك. فالمدينة كانت صغيرة الحجم

---

(١) الطبري: تاريخ ج٧ ص٦١٥.

نسبياً، إذ اعتماداً على قول الخطيب البغدادي إن مساحتها قدُرت بـ (١٣٠) جَرِيباً، أي بما يعادل تقريباً خمسة كيلو مترات مربعة. على هذا الأساس فإنها كانت خالية من الخطط السكنية وبصورة خاصة الخطط القبلية. وبمرور الزمن شكلت هذه الهيئة وحجم المدينة مشكلة كبيرة، لأن صغر حجمها صار لا يتناسب ومرتبتها الإدارية على اعتبار أنها العاصمة فقد تحوَّلت إلى مركز جذب بشري واقتصادي مستمرَّيْن في الوقت الذي لم تكن فيه المدينة وشوارعها وهيئتها الدائرية المحصَّنة مهيّأة لهذه التطوُّرات. فصار الخليفة أمام الأمر الواقع إذ اضطر إلى إخراج أصحاب المِهَنِ والتجارات والأسواق إلى خارج الأسوار أو إلى خارج المدينة وأسكنهم في منطقة الكرخ. وشجع الأهالي والناس على الانتقال إلى هذا الموضع الجديد.

٥ ـ لقد أعطى المنصور اهتماماً متزايداً بمدينته المدوَّرة، إذ إنه بعد أن انتهى من تحديد الموضع أراد أن تُرْسَمَ المدينة على الأرض، أي أن يحدِّد تصميمها قبل البدء في حَفْرِ أُسُسِها، وفعلاً فقد خُطَّتْ بالرماد فأخذ يتنقل بين أبوابها وطاقاتها ورحابها وخندقها وهي مرسومة بالرماد. بعد ذلك أمر أن توضع حبات القطن على هذا التخطيط وصَبَّ عليها الزيت ثم أشعلها فرآها مجسَّمة وهي تشتعل، لذلك فإنه (فهمها وعرف رسمها). حينئذٍ (وجه في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة)، وأمر بحفر الأسس والبدء في البناء، وقد ذكر الخطيب البغدادي أن الحجاج بن أرطأة وجماعة من أهل الكوفة[1] قد أشرفوا على تخطيطها.

(١) أنظر الطبري: ج٧ ص٦١٨، الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٠.

## مزايا الموضع الذي تأسست فيه المدينة المدوّرة:

تمتع الموضع الذي وقع اختيار المنصور عليه وفضّله على غيره من الأماكن التي اقترحها مستشاروه بجملة من المميّزات والخصائص. فتحدثنا الروايات التاريخية أن الخليفة خرج بنفسه يرتاد الموضع المناسب فذهب إلى جرجرايا ثم عاد إلى موضع بغداد ثم رحل منه إلى أن وصل الموصل وعاد ثانية إلى المكان الذي حدَّده. إن هذا المسح الميداني الذي قام به الخليفة نفسه يدعونا إلى أن نتسائل عن المزايا التي تمتع بها هذا الموضع والتي جذبت اهتمام الخليفة به فصار قريباً إلى نفسه:

١ ـ **المميزات العسكرية**: لقد سبق أن ذكرنا بأن الدوافع العسكرية تكاد تكون من بين الدوافع الضاغطة والأساسية في تصميم المنصور في بناء مدينة بغداد. ويذكر الطبري أن المنصور عندما عاد ثانية من الموصل إلى موضع بغداد قال (هذا موضع معسكر صالح)[1]. والحقيقة أن تعبير المعسكر والمستلزمات التي ينبغي توافرها يبدو بالفعل أنها واضحة في ذهن المنصور وهي تخالف ما كان مؤسسو البصرة والكوفة يفكرون به. فمفهوم المعسكر عند عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص كان يتضمن عنصر الاتصال الطبيعي بالصحراء وعنصر الانفتاح على البادية لتسهيل عمليات الكر والفر والإمداد والتموين. أما مفهوم المعسكر ومستلزماته عند المنصور فقد وُصِفَ بدقة في رواية تفيد بأن الخليفة استشار دهقاناً يعرف الموضع وصفاته فقال من بين ما قال (وأنت، يا أمير المؤمنين ـ بين أنهار لا يصل إليك عدوُّك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل إليك وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور)[2]. هنا نلاحظ أنه في الوقت الذي كان فيه مؤسسو الأمصار السابقة يخشَوْنَ من وقوع الأمصار بين الأنهار أو أن يفصلها نهر أو جبل أو جسر عن مركز القيادة صار موضع بغداد يمتاز عن غيره لأنه منفصل لوجود الأنهار حواليه فتكون هذه الشبكة من الأنهار عائقاً يصعب

---

(١) الطبري: تاريخ ج٧ ص٦١٤.

(٢) ن. م. ج٧ ص٦١٧.

عبورها للوصول إلى بغداد. علاوة على ذلك، فإن الخليفة وجد الموضع موافقاً لجنده وعسكره، إذ قال في هذا المجال إن هذا الموضع الذي أختاره قد (اجتمع لي فيه ما أريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس)[1].

٢ ـ المميزات الاقتصادية والتجارية: وهي مميِّزات أدرك المنصور أهميتها وضرورة توافرها في مجتمع شهد تطوُّرات اجتماعية واقتصادية جديدة. ويتجلى هذا الإدراك الواقعي في ملاحظة المنصور، إذ قال واصفاً الموضع (هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر، وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك[2]. فما الذي كان يقصده المنصور بإشارته إلى الصين من جهة دجلة وبلاد الشام والرقة من جهة الفرات؟ إنه يقصد دون شك الجوانب التجارية والاقتصادية لما تشتهر به كلٌّ من الصين وبلاد الشام من تجارات وبضائع. وتتضح هذه الرؤية التجارية الاقتصادية في ذلك الوصف الذي تحدَّث به الدهقان إلى الخليفة واصفاً صفات الموضع الأخرى بالإضافة إلى ما ذكرناه من صفات عسكرية، إذ قال الدهقان (يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وطيبها وما يختار منها، فالذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج (بمعنى نواحٍ زراعية) في الجانب الغربي طسوجان وهما قطربل وبادوريا، وفي الجانب الشرقي طسوجان وهما نهر بوق وكلوذاى، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء فإذا أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الآخر العمارات، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة، تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات، وتجيئك طرائف مصر والشام، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في تامرا حتى تصل إلى الزاب، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة..)[3] ويعزِّز قول الدهقان هذا ما ذَكَرَهُ اليعقوبي واصفاً بغداد أنها

(١) الطبري ج٧ ص٦١٦.
(٢) ن. م: ج٧ ص٦١٤.
(٣) الطبري: ج٧ ص٦١٦ ـ ٦١٧، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٩.

مشرعة الدنيا حيث تَرِدُها التجارات في دجلة من واسط والبصرة والأبُلّة والأهواز وفارس واليمامة والبحرين ومن الموصل وديار ربيعة وأذربيجان[1].

٣ ـ المميزات الاستراتيجية: دون شك إن المرحلة التاريخية التي تأسست فيها مدينة المنصور تختلف عن مرحلة الفتوحات الإسلامية في بداية القرن الأول للهجرة من النواحي الاستراتيجية. فقد أضحت الدولة العربية الإسلامية زمن العباسيين إمبراطورية واسعة الأرجاء، على هذا الأساس، فإن بناء وتأسيس مدينة جديدة كعاصمة، إنما تعبِّر عن مركزية هذه الامبراطورية. ربما كانت مدينة دمشق تتمتع هي الأخرى بهذه الأفضلية الاستراتيجية المركزية، غير أن العباسيين لم يرغبوا في المكوث والاستقرار في بلاد الشام لأنها تمثّل مرحلة سياسية سابقة. كما أنها تفتقر إلى العنصر السياسي المؤيد للعباسيين في نفس الوقت، فإن الحجاز كان يفتقر إلى صفة المركزية هذه لبعده جغرافياً. وأن الخليفة المنصور لم يحبذ اتخاذ الكوفة أو البصرة كعاصمة له لأمور تاريخية وسياسية وتمدنية. من هذا المنطلق فإن قراره باتخاذ مدينة بغداد ذات الشكل المدوَّر إنما يعبِّر عن مركز إدارة الامبراطورية، وتتجلّى هذه الفكرة بأنها كانت تقع في الوسط ابتداء بأنها وسط العراق ثم وسط الدولة العربية الإسلامية. وحول هذه السِّمَة أشار الدهقان أيضاً بقوله للمنصور (وأنت متوسط البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل)[2].

## خطط المدينة المدوَّرة:

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن الخليفة المنصور قد أمر أن تُخَطَّط تصميمات المدينة المدوَّرة على الموقع الذي اختاره بالرماد وأنه أخذ يتجول في وحداتها العمرانية وأسوارها. ثم أمر أن توضع حبات من القطن على هذا المخطَّط وصبَّ عليها الزيت ثم أشعلها فكانت المدينة وهي مجسَّمة. وعندما استقرّ نهائياً على الموضع والمخطط جمع العمّال والفنّيين والبنّائين من مختلف

(١) اليعقوبي: البلدان ص٢٣٧.
(٢) الطبري: ج٧ ص٦١٧، مصطفى عباس: العوامل التاريخية ص١٣١.

المدن والبلدان فحفروا أُسُسَ المدينة وأحكامها، فمما أورد الطبري أن المنصور جعل عرض السور من الأساس خمسين ذراعاً (حوالي ٢٥م) ومن أعلى عشرين ذراعاً (حوالي ١٠م).

وبلغت مساحة المدينة المدوَّرة (١٣٠) جريباً وكانت ميلَيْن في ميلَيْن وقُدِّرَ قطر الدائرة من باب خراسان إلى باب الكوفة ١٢٠٠ ذراع والقطر الآخر من باب الشام إلى باب البصرة ١٢٠٠ ذراع أيضاً. وقيست المسافة بين كل باب من أبوابها الأربعة والباب الآخر فكانت ميلاً[١].

وبلغت تكاليف بناء المدينة حوالي (١٨) مليون دينار وكانت تكاليف بناء مجموعة القصر + المسجد الجامع + الأبواب + الطاقات حوالي (٥) ملايين درهم. ويبدو أنها تكلفة كبيرة إذا ما أخذ بنظر الاعتبار أجور العمّال العاديّين والبنَّائين المهرة والقيمة الشرائية لبعض المواد الاستهلاكية الأساسية خلال تلك الفترة. فكانت أجرة الأستاذ من الصنّاع والبنّائين قيراطاً من الفضة إلى خمس حبات يومياً، وأجرة العامل الاعتيادي من حبَّتَيْن إلى ثلاث حبات يومياً. كذلك كانت أسعار السلع الأساسية منخفضة ورخيصة جداً، إذ بيع الكبش بدرهم والحمل بأربعة دوانيق وبيع التمر ستون رطلاً بدرهم وبيع لحم البقر ستون رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم وبيع العسل عشرة أرطال بدرهم[٢].

لقد هيَّأ المنصور كل ما تحتاج إليه المدينة المدوَّرة من خشب بأنواعه المختلفة وخشب الساج، وجلب لها الأبواب من مدن واسط والشام والكوفة وجمع الصنّاع والفنيين من مدن مختلفة ثم اختار جماعة من الفنِّيين ممن له دراية وفضل بالفقه والأمانة والعدالة وجماعة آخرين ممن كان لهم معرفة بالأمور الهندسية للإشراف على البناء[٣].

---

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص٦٩، ٧٣، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٥٩.
(٢) أنظر الطبري: ج٧ ص٦٥٥، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٥٩، الكبيسي: ص٦٤.
(٣) الطبري: ج٧ ص٦١٨، ٦٥١، الكبيسي ص٤٢.

## القصر:

لقد جرت العادة في تأسيس الأمصار الإسلامية الأولى أن يكون المسجد الجامع هو الوحدة العمرانية الأولى التي تمَّ تأسيسها في المرحلة الأولى. وقد شذَّت المدينة المدوَّرة عن هذه القاعدة لأن الخليفة المنصور، كما هي الحال في موضوع الحجاج الثقفي وواسط، أراد فيها أن تكون مدينة قصر له ولجنده فابتدأ خطط مدينته ببناء القصر والاعتناء بهندسته وعمرانه. وكان قصر المنصور يُعْرَفُ بقصر الذهب، وقيل إن مساحته بلغت ٤٠٠ ذراع × ٤٠٠ ذراع أي ما يعادل (١٦٠) ألف ذراع (٨٠ الف م) وكان هناك إيوان يقع في صدر القصر بلغ طوله ثلاثين ذراعاً وعرضه عشرين ذراعاً. وابتنى فيه أيضاً القبة الخضراء وجعلها فوق هذا الإيوان. وقد بلغ ارتفاع القبة ثمانين ذراعاً ونصب على رأسها تمثال على هيئة فارس يحمل في يده رمح. وظلت هذه القبة ماثلة للعيان حتى سنة ٣٢٩هـ/٩٤١م، وقد سقطت في هذه السنة بسبب الأمطار الغزيرة، ووُصِفَتْ من قِبَلِ المؤلِّفين بأنها كانت تاج البلد وعلم بغداد ومأثرة من مآثر بني العباس. وقد نقل أبو جعفر المنصور أبواب القصر أو أبواب القبة الخضراء من مدينة واسط.

لقد جعل المنصور قصره في وسط المدينة المدوَّرة وصار كل باب من أبواب المدينة الأربعة يواجه هذا القصر ويقابله. وظل قصر الذهب على هيئته ومساحته فترة من الزمن، غير أن الزيادات التي أضافها الخلفاء العباسيون فيما بعد إلى المسجد الجامع قد أدت إلى تقليص مساحة القصر فيقال إن الخليفة المعتضد بالله قد زاد في الصحن الأول وهو قصر المنصور ووَصَلَهُ بالجامع وفَتَحَ سبعة عشر طاقاً بين القصر والجامع[1].

## المسجد الجامع:

ابتنى المنصور المسجد الجامع بعد أن أكمل قصره وجعله ملاصقاً للقصر،

(١) أنظر الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٣، ١٠٧، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٥٩ ـ ٤٦٠، د. طاهر العميد: بغداد مدينة المنصور المدوّرة (بغداد ١٩٦٧) ص٢٦٢ ـ ٢٦٨.

وقد أورد الطبري رواية تشير إلى أن الحجاج بن أرطاة هو الذي أشرف على تخطيط المسجد الجامع ووَضَعَ أُسُسَهُ بأمر من المنصور. ومن المحتمل أن بناء القصر أولاً وجَعْلَ المسجد ملاصقاً له قد أدى إلى ازورار قليل في اتجاه القبلة فيه ويعلّق الطبري قائلاً: إن القبلة (على غير صواب وأن المصلي فيه يحتاج إلى أن ينحرف إلى باب البصرة قليلاً)[1]. وللتأكيد على صحة ما ذهبنا إليه، فإن الطبري يعلّق بأن المسجد الجامع في جانب الرصافة أصوب من جامع المدينة المدوَّرة لأن مسجد الرصافة قد بُنِيَ قبل القصر وأن القصر قد بُنِيَ عليه لا العكس.

لقد قُدِّرَتْ مساحة المسجد الجامع بحوالي ربع المساحة التي شغلها قصر الذهب، فكانت أربعين ألف ذراع، وقد بناه المنصور من اللَّبِن والطين، وكانت أساطينه من الخشب، وتتألف كل أسطوانة من هذه الأساطين من قطعتَيْن معقبتَيْن بالعقب والغرى وضبات من الحديد. ومن المحتمل القول بأن صغر مساحة المسجد الجامع قد جعلته بمرور الزمن يضيق بالمصلّين فكان ضيِّقاً مقارنة بتزايد حجم سكان المدينة، وكما ألمح اليعقوبي قائلاً: بأن الناس كانوا يصلّوا في أيامه (خلال نهاية القرن الثالث للهجرة) في سقيفة هي في حقيقة أمرها قد أُعِدَّتْ للشرطة والحرس وكانت مبنيّة من الآجُرّ والجصّ[2].

وشهد المسجد الجامع في مدينة السلام عدة تطوُّرات عمرانية كان أولها ما حدث في فترة خلافة هارون الرشيد. فقد أمر هذا الخليفة بنقضه ثم إعادة بنائه بالآجُرّ والجصّ بدلاً من اللَّبِن، وبعد اتمام مشروع البناء هذا كتب اسمه وسنة البناء واسم البنّاء والنجار عليه. وقد دامت عملية النقض وإعادة البناء سنة واحدة، إذ شرع فيها سنة ١٩٢هـ وانتهى منها سنة ١٩٣هـ/٨٠٧ ـ ٨٠٨م. كما أجرى الخليفة المعتضد بالله تعديلات أخرى على المسجد الجامع متمثلة بزيادة

(١) الطبري: ج٧ ص٦٥٢.
(٢) أنظر على ذلك اليعقوبي: البلدان (ط/أوروبة) ص٢٤٠، الخطيب البغدادي: ج١ ص١٠٧، الكبيسي: أسواق ص٦١، طاهر العميد: ص٢٦٩، ٢٧٢.

مساحته وذلك بإضافة قصر المنصور إليه، ثم فَتَحَ سبعة عشر طاقاً بين القصر والجامع. علاوة على ذلك، فإنه حوَّل المنبر والمحراب والمقصورة إلى المسجد الجديد، أو بالأحرى إلى الإضافات الجديدة التي أنجزها. وكما قلنا سابقاً إن السبب الرئيس الذي دفع الخليفة إلى إجراء هذه الزيادات هو ضيق المسجد بالمصلّين، الأمر الذي اضطرهم إلى إقامة صلاة الجمعة في مواضع لا يجوز الصلاة في مثلها، فكانت مساحة هذه الزيادات الجديدة التي شغلت القصر بمقدار مساحة المسجد الجامع القديم وبذلك صار واسعاً ولعلَّ إشارة اليعقوبي السابقة بأن المصلّين كانوا، لضيق المسجد الجامع، يصلّون في سقيفة الشرطة والحرس، إنما تشير إلى الفترة التي سبقت هذه الإجراءات والزيادات.

ظلَّ المسجد الجامع باقياً في المدينة المدوَّرة حتى فترة متأخرة، فقد ذكره ابن حوقل في حوالي منتصف القرن الرابع للهجرة وَوَصَفَهُ بأنه أحد المساجد الجامعة الثلاثة الموجودة في بغداد، ويقصد بذلك مساجد الرصافة والكرخ والمدينة المدوَّرة. غير أن ابن حوقل لم يعلّق على مدى أهميته، مما قد يشير إلى أن المدينة المدوَّرة وجامعها أخذا يفقدان من عظمتهما السابقة. ومع هذا فإن هناك أدلّة تاريخية تبيّن أن الجامع ظلَّ موجوداً حتى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م، فقد أورد صاحب كتاب الحوادث الجامعة في حوادث هذه السنة أن القبة الخضراء المجاورة إلى جامع المنصور قد وقعت في هذه السنة ووَصَفَها بأنها كانت من الأبنية القديمة وصارت مأوى البوم والغربان[1].

غير أن الرحالة ابن جبير الذي زار مدينة بغداد قبل هذه السنة لم يتحدث كثيراً عن المدينة المدوَّرة والمسجد الجامع فيها بقدر ما ذكره عن الجانبين الشرقي والغربي من بغداد، وأن كل ما ذكره عن هذه المدينة هو وَصْفٌ عام، إذ قال (هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية، فقد ذهب أكثر رسمها ولم يبقَ منها إلا شهير اسمها) وكرّر الرحالة ابن بطوطة هذا القول مع أنه زار بغداد في فترة متأخرة (حوالي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٦م)، فوصف بغداد أنها

---

(١) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص٣٠٢ ـ ٣٠٣، أنظر أيضاً الخطيب البغدادي: ج١ ص٨.

(المدينة العتيقة وأن رسمها قد ذهب ولم يبقَ إلا اسمها فهي كالطَّلَلِ الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال الشاخص)[1] دون أن يشيرا إلى وَضْعِ المسجد الجامع فيها.

## أسواق المدينة المدورة:

صارت مجموعة القصر + المسجد الجامع مركز المدينة المدوَّرة، وتفصلها عن بقية خطط المدينة ووحداتها العمرانية رحبة واسعة وهو تخطيط يشابه إلى حدٍّ كبير مجموعة المسجد الجامع + دار الإمارة + الرحبة التي تقوم بوظيفة العازل عن الدُّور والأسواق في الأمصار الإسلامية. ولكن الجديد في تخطيط المدينة المدوَّرة عن باقي المدن العربية موقع الأسواق بالنسبة إلى المسجد الجامع، فبينما كانت الأسواق الرئيسة في المدن العربية كالبصرة والكوفة تقع بِحَذاء أو حول المسجد الجامع نجد بأن أسواق المدينة المدوَّرة قد ابتعدت كثيراً عن مجموعة القصر والجامع ووُزِّعَتْ على أربعة أقسام بجانب أبواب المدينة الأربعة ووُضِعَتْ في طاقات مخصصة، وإلى ذلك يشير اليعقوبي بأن المنصور قد (وقع إلى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من أصحابه، وما قدره للحوانيت والأسواق في كل رَبَض، وأمَرَهُم أن يوسّعوا في الحوانيت في كل رَبَضٍ سوق جامعة تجمع التجارات[2])، فكانت أسواق بغداد وفقاً لذلك أربع مجموعات تقع بين السور الداخلي والرحبة الواسعة. وقد كان مجموع الطاقات ثلاثة وخمسين طاقاً وبلغ عرض كل طاق منها ٢٥ ذراعاً (١٢ م). واحتوت هذه الطاقات على منافذ تدخل منها أشعة الشمس[3].

وبقيت هذه المجموعات الأربع من أسواق بغداد تلعب دوراً اقتصادياً واجتماعياً فعَّالاً، وكانت العامل المباشر في جَذْبِ أصحاب المِهَنِ والحِرَفِ والتجارات إلى المدينة، وصارت بدورها عاملاً مساعداً على تزايد السكان

---

(١) ابن جبير: رحلة ص١٧٣، ابن بطوطة: رحلة ج١ ص١٣٩.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٢٤٢، الكبيسي: أسواق ص٦٦.
(٣) الخطيب البغدادي: ج١ ص٣٦، الكبيسي: أسواق ص٦٥ ـ ٧٠.

وتزاحمهم. ولعلَّ هذه النتائج الاجتماعية قد دفعت المنصور إلى إبعاد الأسواق وإخراجها من المدينة المدوَّرة إلى الكرخ سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م. فكانت نهاية وجود هذه المجموعات من الأسواق في هذه السنة عدا بعض المحلّات المتفرِّقة في أجزاء أخرى من المدينة.

إن دراسة أسماء هذه الأسواق في المدينة تدفعنا إلى القول بأنها كانت موزَّعة بحسب المِهَنِ والتجارات والحِرَفِ فهناك باعة الأشنان وباعة الرمان وسوق البزازين وسوق أصحاب الصابون وسوق الطعام وسوق الدواب وسوق العلافين.

## خطط الأهالي:

لم يكن قَصْدُ الخليفة المنصور من بناء مدينة السلام أن تكون بديلاً عن مدن الكوفة والبصرة وواسط من النواحي الاجتماعية. فالمدينة المدوَّرة كانت صغيرة الحجم، وأن التحصينات التي اتخذها المنصور حولها لا توفر لها صفة المرونة ولا تسمح لها بالتوسع سكانياً واجتماعياً وعمرانياً. ويبدو أن المنصور بالفعل أرادها أن تكون مدينة قصر له ولجنده فقط. وعلى هذا الأساس يكون من الواضح أن خطط أهالي المدينة والوافدين إليها لا تشابه خطط أهالي الأمصار التي استندت إلى الأساس القبلي.

ومع ذلك، فإن قراءة أسماء الإقطاعات والسكك والأرباض في داخل المدينة المدوَّرة تشير إلى أن بعضها كان يمثِّل تجمُّعاً ربما كان عائلياً أو إلى حدٍّ ما قبلياً، أمثال هذه الخطط إقطاع القحاطبة الذي كان يقع في شارع يمتد من باب الكوفة إلى باب الشام. والقحاطبة نسبة ترجع إلى اسم أبي الحسن بن قحطبة، القائد العباسي المشهور الذي أسهم بفعالية في بداية الثورة العباسية وقد توفي سنة ١٨١هـ/٧٩٧م. فهل كان الإقطاع يمثِّل محلّة سكنه وعائلته أو خطة له ولعشيرته. أيضاً هناك إقطاع باسم الخوارزمية واسمه يشير إلى مجموعة من جنود المنصور، فالإقطاع إذن يمثِّل محلّة لتجمُّع عنصري لأولئك الجنود الخوارزميين. وهناك إقطاع الحربية نسبة إلى شخص اسمه حرب بن عبد الله

وهو صاحب حرس المنصور، الأمر الذي يشير إلى أنه يمثِّل خطة لحرب هذا وجنده.. الخ.

أما فيما يتعلق الأمر بأسماء السكك والمحلّات، فإنها هي الأخرى تعكس وضعيتها المنسوبة إلى أشخاص بالدرجة الأولى. فقد ذكر الخطيب البغدادي بوضوح أن المنصور قد وزَّع سكك المدينة ودروبها على مواليه وقواده ومستشاريه والموظفين البارزين، ومن بين أسماء هذه السكك سكة ابن عميرة (وهو قائد) ودار خازم بن خزيمة (قائد) ودرب الأبرد وهو الأبرد بن عبد الله (قائد) ودرب سليمان وينسب إلى سليمان بن أبي جعفر المنصور، ودرب جميل وهو جميل بن محمد (أحد الكتاب) ودرب ابن دحية.

وتوحي قائمة أسماء الطاقات والأرباض والمربعات إلى أنها كانت موزَّعة على بعض الأشخاص، فهناك رَبَضُ سليمان بن مجالد (وهو أحد أصحاب الخليفة) ورَبَضُ إبراهيم بن حميد ورَبَضُ العلاء بن موسى ورَبَضُ حمزة بن مالك الخزاعي ورَبَضُ رواد بن سنان (أحد القواد) ورَبَضُ حميد بن شبيب الطائي (أحد القواد) ورَبَضُ الحارث (وهو قائد) ورَبَضُ نصر بن عبد الله ورَبَضُ عبد الملك بن حميد ورَبَضُ عمرو بن المهلب وغيرها. كما أن هناك أرباضاً تشير إلى تجمُّع عنصري أمثال إقطاع الخوارزمية ورَبَضِ الفرس ورَبَضِ المراوزة ورَبَضِ البخارية ودَرْبِ الدمشقيين[١].

## أسوار المدينة المدوَّرة:

أحاط المنصور المدينة بسورَيْن رئيسيَّيْن ثم حفر حول السور الخارجي خندقاً. وكان السور الأول (الخارجي) مدوَّراً يحيط بالمدينة تماماً ويتضمن أربعة أبواب هي باب الكوفة وباب البصرة وباب الشام وباب خراسان. وأشار الخطيب البغدادي إلى أن هذا السور الأول هو سور الفصيل حيث يقع بعده

(١) أنظر ابن الفقيه الهمذاني: بغداد مدينة السلام (تحقيق د. صالح العلي بغداد ١٩٧٧) ص٤١، ٤٥، ٤٨، الخطيب البغدادي: ج١ ص٨٤ ـ ٨٥.

الخندق. وقد اهتمَّ الخليفة كثيراً ببناء هذا السور من حيث المتانة والقوة، إذ يذكر المؤرِّخون أن المنصور جعل عرض السور من الأساس خمسين ذراعاً ومن أعلى عشرين ذراعاً، وأدخل في البناء جرائز من قصب (ولعلّ الأصح جرز من قصب بمعني حزم). وكان اللَّبِن هو مادة بناء السور. ولما كان هذا السور مجاوراً للخندق الذي احتفر من نهر كرخايا المتفرع من نهر الفرات فقد بُنِيَتْ مسناة عالية كانت من الآجُرّ والنورة، واستعمل الآجُرّ والجصّ في بناء حافات الخندق[1].

لقد كان كل باب من أبواب السور الأربعة يؤدي إلى دهليز يبلغ طوله (٤٣) ذراعاً وعرضه (٢٠) ذراعاً. وقد عقدت هذه الدهاليز بالآجُرّ والجصّ. والملاحظ أن بناء هذه الدهاليز جاء موافقاً لأهداف عسكرية حربية، فيصفها المؤلّفون أنها كانت مزورَّة عن اتجاه الأبواب الخارجية، لذلك فإن المار بها من الجانب الخارجي يضطر إلى أن يتجه أو يميل وِفْقَ ذلك الازورار نحو الجانب الأيسر فيكون (في حالة هجوم عسكري) الجندي أو المهاجم عرضة للرماح أو النشاب من الجنود الموجودين في داخل المدينة. من هنا يرى البعض أن اسم المدينة صار الزوراء. وقد كان السور الخارجي أو الأول خالياً من الأبراج. كما أنه كان أقصر من السور الداخلي. وبما أن هذا السور يمثِّل الخط الدفاعي الأول فقد خصَّص المنصور قائداً من قواده برفقة ألف رجل من الحرس على كل باب من أبواب السور الأربعة فكان القائد سليمان بن مجالد مسؤولاً عن باب الكوفة والقائد أبو الأزهر التميمي مسؤولاً عن باب البصرة وخالد العكي مسؤولاً عن باب الكوفة والقائد مسلمة بن صهيب الغساني مسؤولاً عن باب خراسان. وقد اتخذ عدد من الطاقات والأرباض أسماء هؤلاء القواد[2].

---

(١) أنظر الطبري: ج٧ ص٦١٩، الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٤، ياقوت الحموي: ج١ ص٤٥٨، عبد الله السوداني: أسوار بغداد (مجلة المورد (١٩٧٩) ص٤٢ ـ ٤٣.

(٢) الطبري: ج٧ ص٧٥٢، الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٧، ٨٢، الكبيسي: أسواق ص٥٥ ـ ٥٦.

أما السور الثاني الذي يلي السور الخارجي فكان يسمّى بالسور الأعظم أو السور الداخلي،وبلغ عرضه عشرين ذراعاً من الأساس، أما ارتفاعه فكان ستين ذراعاً (حوالي ٣٠م). وقد اشتمل هذا السور الذي كان يمثِّل الخط الدفاعي الثاني فصار عالياً يحتوي على أبراج عظيمة عالية يصل ارتفاع بعضها إلى خمسة أذرع (حوالي ٣م) وكان مجموع الأبراج هذه مائة وثلاثة عشر برجاً (١١٣) موزَّعة على السور الأعظم كالآتي: هناك (٢٨) ثمانية وعشرون برجاً بين باب الشام وباب خراسان، (٢٨) ثمانية وعشرون برجاً بين باب الشام وباب الكوفة، (٢٨) ثمانية وعشرون برجاً بين باب خراسان وباب البصرة، (٢٩) وتسعة وعشرون برجاً بين باب البصرة وباب الكوفة. ويشير الخطيب البغدادي إلى أن الخليفة منع الناس من بناء منازلهم، أو اتخاذ أيِّ خطة أو موضع للسكن تحت السور الأعظم هذا[١].

## مصادر المياه في المدينة المدوَّرة:

صحيح أن المدينة المدوَّرة قد تأسست إلى جوار نهر دجلة، غير أنها حسبما يبدو من القصة المتعلقة بزيارة وَفْدِ ملك الروم كانت تعاني من مشكلة عدم توافر المياه. إذ تشير القصة إلى أن الخليفة المنصور كان مجتمعاً برسول ملك الروم فسمع صراخاً عالياً ومزعجاً فلما استفسر عن الأمر قيل له إن بقرة أخذت تجوب أسواق بغداد وهي تصرخ صراخاً عالياً فلما سمع رسول ملك الروم تحدَّث مع المنصور قائلاً: (يا أمير المؤمنين إنك بَنَيْتَ بناء لم يبنِهِ أحد كان قبلك وفيه عيوب ثلاثة. قال ما هي، قال: أما أول عيب فيه فبُعْدُهُ عن الماء ولا بدَّ للناس من الماء لشفاههم، وأما العيب الثاني فإن العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة وليس في بنائك هذا بستان، وأما العيب الثالث فإن رعيتك معك..) وتوضح القصة بأن المنصور لم يصرِّح عن موافقته لرأيِ الوفد، لكنه كان في قرارة نفسه متفقاً مع الآراء فحفر قناتَيْن من دجلة وأغرس الأشجار

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٢، ٧٣، السوداني: أسوار ص٤٥.

ونَقَلَ الأسواق[1]. والمهم بالنسبة إلى الموضوع أن المنصور شقَّ أنهاراً جديدة إلى المدينة مع العلم بأن نهر عيسى المشهور كان يمرُّ بالقرب من المدينة ويصبُّ في نهر دجلة إلى جنوبها. ومع ذلك فإن الخطيب البغدادي يذكر أن المنصور قد أجرى من نهر دجيل المتفرع من دجلة قناة ثم أجرى من نهر كرخايا المتفرع من نهر الفرات قناة أخرى أجراهما إلى المدينة المدوَّرة في مجارٍ وثيقة محكمة بالصاروج (النورة) والآجُرّ. فكان كل من هاتين القناتين يدخلان المدينة وينفذان في الشوارع والدروب والأرباض، وهما يجريان الماء صيفاً وشتاء. واعتماداً على ما أورده ابن سرابيون في كتابه (عجائب الأقاليم السبعة) كان هناك عدة قنوات تأخذ من نهر كرخايا وتدخل المدينة المدوَّرة أمثال نهر رزين الذي يمرُّ بربض حميد وسويقة بن الورد ويصبُّ في نهر الصراة ونهر البزازين الذي يدخل المدينة أيضاً ويصبُّ في دجلة ونهر القلائين ونهر بطاطيا المتفرع من دجيل[2]. ويبدو أن هذه القنوات قد وفرت الماء داخل المدينة وحلَّت مشكلة شحته.

## الكرخ:

لم تمضِ سنوات كثيرة على تأسيس المنصور المدينة المدوَّرة حتى بدت تظهر نواقصها التمدنية الاجتماعية والعمرانية. وقد دفعت هذه العوامل المنصور إلى أن يتخذ عدداً من الإجراءات لتلافي تلك النواقص، فإن المتتبِّع لدراسة الدوافع التي حَدَتْ بالخليفة إلى تطوير منطقة الكرخ وجعلِهِ موضعاً لسكن الأهالي والعامة سيصل إلى نتيجة مفادها أن المدينة المدوَّرة لم تكن مدينة مهيَّأة لاستيعاب أعداد كبيرة من الناس وانخراطهم في صنوف مختلفة من النشاطات التجارية والمِهَنِ والأعمال. ومن المحتمل أن الخليفة لم يكن في بداية تخطيط المدينة المدوَّرة قد فكَّر بالتطوُّرات المستقبلية المحتملة، إذ إنه لم يهدف من ورائها إلى أن تكون مقرًا للأهالي بقدر ما تكون قصراً شخصياً له ومعسكراً

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٨ ـ ٧٩، الكبيسي: أسواق ص٧٧ ـ ٧٨.

(٢) ابن سرابيون: عجائب الأقاليم السبعة ص١٣٣، ١٣٤.

لجنده. وأن القصة التي أشرنا إليها سابقاً بخصوص وَفْدِ ملك الروم قد اعتبرها الكتّاب والمؤلّفون البداية الواقعية في مسألة قرار الخليفة في نَقْلِ الأسواق من مدينة السلام إلى الكرخ. غير أن القصة ونتائجها هي بحدّ ذاتها انعكاس لما كانت المدينة المدوَّرة تعانيه من مشاكل اجتماعية وعمرانية واقتصادية هذه المشاكل قد واجهتها المدينة ومؤسسها بمرور الزمن، لذلك فإن اعتبارها عاملاً أساسياً في اتخاذ قرار الانتقال يبدو أنه أمر مبالغ فيه. إذ ليس من المعقول تصديق ما ذَكَرَهُ أو تلمَّسه وَفْدُ ملك الروم ولم يكن الخليفة نفسه قد واجهه شخصياً.

ومن المحتمل جداً أن هناك أسباباً وعوامل ضاغطة أخرى لا تتعلق إطلاقاً بما طرحه وفد ملك الروم من آراء، إنما ترتبط ببعض المتغيرات السياسية الداخلية بما له علاقة بسلطات الخليفة وعلاقاته بجنده وقواده من جهة والأهالي من جهة ثانية. إذ إن روايات المؤرِّخين تتفق بأن الخليفة المنصور قد أقدم على اتخاذ قرار نَقْلِ الأسواق من المدينة المدوَّرة إلى منطقة باب الكرخ وباب الشعير والمحوّل في سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م. وهي فترة تاريخية لها دلالات اجتماعية وسياسية مهمة. بادىء ذي بدء، فإن الخطيب البغدادي يشير إلى أن الموضع الذي انتقلت إليه الأسواق، وهو الكرخ، كان قبل ذلك يقوم بوظيفة السوق أيضاً وكان يعرف بالكرخ مما يدفعنا إلى القول بأن التفكير في الانتقال إلى هذا الموضوع لم يكن آنيًّا كما أن عملية الانتقال لم تكن اختيارية إنما إجبارية ومنظَّمة، فقد أمر الخليفة أن تُبنى الأسواق والمحلّات من أمواله الخاصة، ثم إنه شجع الناس وأصحاب المِهَنِ على الانتقال إلى الكرخ واتخاذه مقرًّا لسكناهم، كذلك فإنه ملَّكهم الأراضي خارج أسوار المدينة المدوَّرة. ولكي يضفي الصفة الشرعية، فإنه قام ببناء قصر له على شاطىء دجلة سمّاه بقصر الخلد[1]. وعلى هذا الاعتبار يمكننا القول بأن عملية الانتقال كانت موجودة في ذهن الخليفة وقد خطَّط لها مسبقاً. فما هي العوامل التي دفعته إلى التفكير بهذا الإجراء؟

---

(١) الطبري: ج٧ ص٦٥٢ ـ ٦٥٣، الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٩ ـ ٨٠.

## العوامل الاجتماعية:

دون شك فإن العوامل الاجتماعية تُعَدُّ من بين هذه العوامل الضاغطة المباشرة، فالمدينة بمساحتها الصغيرة التي لا تعدو أكثر من خمسة كيلو مترات مربعة، وبحصانتها وإحاطتها بسورَيْن يحيط بهما خندق، وتشتمل هذه التحصينات على أبواب ومنافذ أربعة فقط مع وجود الدهاليز الطويلة التي تعقب كل باب من هذه الأبواب، لا تصلح أن تكون عاصمة مركزية للخلافة العباسية بما تتضمنه هذه المؤسسة من هيمنة سياسية واجتماعية. فالعاصمة، من الناحية الواقعية، تُعَدُّ مركز جَذْبٍ بشري وحضاري مستمرَّيْن وذلك لتعقُّد وتشابك متطلباتها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، فضلاً عن حاجتها المستمرة إلى الأيدي البشرية. غير أن المدينة المدوَّرة على عكس ذلك لم تكن مهيَّأة لمثل تلك التطوُّرات. فالطاقات التي كانت تمثّل الأسواق الرئيسة أصبحت بمرور الزمن ضيِّقة لا بدَّ لها أن تتوسع على حساب الرحبة الواسعة التي كانت تحيط بمجموعة القصر + المسجد الجامع والتي هَدَفَ المنصور من اتخاذها أن تمنع هذه التجاوزات. ومع أن هذا التوسع كان اضطرارياً، غير أنه إجراء غير عملي، فيقول اليعقوبي بأن بغداد حالما صارت عاصمة الخلافة وَفَدَ إليها الناس من شتى الأصناف ومن مختلف الأمصار والكُوَرِ وفضَّلها هؤلاء على مدنهم وأمصارهم، ويعلِّق أيضاً قائلاً: (فليس من أهل بلَد إلا ولهم فيها محل ومتجر)[1]. فلنا أن نتصوَّر المدينة المدوَّرة الصغيرة بشوارعها القليلة وخططها المحدَّدة المنسوبة إلى الأشخاص المتنفذين وهذا التوسع السكاني الكبير. كيف استطاعت أن تواجهه؟ وهناك إشارة مهمة تبيِّن أن الخليفة قد أدرك خطأ تخطيط الشوارع وعدم ملاءمتها لمسألة توسُّع السكان وتزاحمهم، فقام بتوسيع الطرق والشوارع في المدينة بأن جَعَلَ عَرْضَ الشوارع الرئيسة أربعين ذراعاً (٢٠م) اضطر إلى أن يقوم بهدم الدُّور والمنازل والحوانيت التي تعترض هذا المشروع في توسيع الطرق. غير أن هذا المشروع كان مرحلياً لا يمثِّل حلاً لمشكلة التزاحم السكاني.

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص٢٣٤، ٢٥١، الكبيسي: أسواق ص٧٤.

## العوامل السياسية:

هناك ثلاث روايات مهمّة، رواها الطبري وكرَّر بعضها الخطيب البغدادي، تعكس مدى قلق المنصور من مشكلة تزايد سكان المدينة المدوَّرة وتأثير هذا التزاحم على وَضْعِ الخليفة العباسي ونفوذه وسلطانه.

* تتعلق الرواية الأولى بالنصائح الأولى التي طرحها وَفْدُ ملك الروم على الخليفة. وبالرغم من وجود اختلافات غير جذرية في رواية أحداث تلك القصة فإن مركز الثقل فيها يدور حول النقطة الآتية: أن وجود الأسواق في داخل المدينة المدوَّرة له أضرار ومخاطر سياسية. الحقيقة أن رسول ملك الروم قد استحسن هندسة وبناء المدينة عند قيامه بجولة في شوارعها وأزقتها ووحداتها العمرانية، غير أنه أشار في قوله للخليفة إلى موضوع يتعلق بأحوال المدينة السياسية قائلاً: (رأيت بناء حسناً، إلا أني قد رأيت أعداءك معك في مدينتك) وعندما استفسر المنصور عما يقصد الزائر بالأعداء أجابه رسول ملك الروم (السوقة) وقيل في رواية أخرى أن رسول ملك الروم بعد أن أبدى انطباعاته الإيجابية بالمدينة قال: (رأيت أمرها كاملاً إلا من خلة واحدة) وعندما استفسر المنصور عنها أجابه بأن (عدوَّك يخترقها متى يشاء، وأنت لا تعلم وأخبارك مبثوثة في الآفاق لا يمكنك سترها) ويبدو أن المنصور أراد إجابة مباشرة وأكثر وضوحاً فقال له الزائر (الأسواق فيها والأسواق غير ممنوع فيها أحد فيدخل العدو كأنه يريد أن يتسوَّق، وأما التجار فإنها تَرِدُ الآفاق فيتحدثون بأخبارك).

ووَرَدَتِ القصة أيضاً بصيغة ثالثة تفيد أن رسول الروم كان مجتمعاً مع الخليفة في القصر فسمع الخليفة صراخاً مزعجاً وبعد التحقق من أمر هذا الصراخ وجد بأن سببه بقرة كان الجزار يريد ذبحها فهربت منه وصارت تجوب شوارع المدينة وهي تصرخ. وقد فهم رسول الروم ذلك فتدخَّل بأن أبدى رأيه بالمدينة مبرزاً ثلاثة عيوب فيها وكان أحد هذه العيوب قوله: (إن رعيتك معك في بنائك، وإذا كانت الرعية مع الملك في بنائه فشا سرُّه)[1].

---

(1) أنظر عن هذه القصة الطبري: ج٧ ص٦٥٢ ـ ٦٥٣، الخطيب البغدادي: ج١ ص٧٨ ـ ٧٩، ٨٠ ـ ٨١.

إن هذه القصص جميعاً تجمع على أن المنصور اتخذ فوراً إجراء نَقْلِ الأسواق وأصحاب المِهَنِ إلى جانب الكرخ.

* أما الرواية الثانية، فقد ذكرت أن العامل الرئيسي الذي دفع المنصور إلى القيام بإجرائه هذا هو وصول معلومات إليه تؤكد أن هناك عدداً من الغرباء يبيتون في المدينة ويبدو من هذه الرواية أن هؤلاء الغرباء غير ثقة، إذ وَرَدَ فيها بأنهم (لا يؤمن أن يكون منهم جواسيس ومن يتعرف الأخبار أو أن يفتح أبواب المدينة ليلاً لموضع السوق). وكان لهذه المعلومات أثر فعّال في نفس المنصور إذ أقدم على إخراج الأسواق من المدينة وجَعَلَ في السوق بدلاً من أصحاب التجارات والمِهَنِ الشرطة والحرس[1].

* أما الرواية الثالثة والأخيرة فإنها تتعلق بحادثة سياسية وقعت في المدينة المنوّرة وأنها أزعجت الخليفة وأقلقته باعتبار أن لها علاقة بحركة ذي النفس الزكية في البصرة التي حدثت سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، وتفيد الرواية أن محتسب مدينة المنصور الذي سبق أن عيَّنه الخليفة في سنة ١٥٧هـ على حسبة بغداد والإشراف على أسواقها، وهو أبو زكريا يحيى بن عبد الله، كان من أنصار إبراهيم ذي النفس الزكية وأنه استغل منصبه الذي له صِلَة وطيدة بالتجار وأصحاب المحلّات في أسواق بغداد، فأخذ يبشّر بدعوة ذي النفس الزكية في الأسواق وأثار التجار وأصحاب المحلّات ضد الخليفة، فيقول الطبري إنه جمع (على المنصور جماعة استغواهم من السفلة). وتوضح الرواية أن أبا زكريا وجماعته قد تمرَّدوا وأشعلوا الفتنة بقيامهم بحركة داخل المدينة ضد المنصور. ومع ذلك فإننا لا نعلم عن واقع الحركة وسَعَةِ حجمها، لكن الخليفة أرسل أبا العباس الطوسي، حينما علم بتطوُّراتها، فأسرع بإخمادها وإلقاء القبض على أبي زكريا. وأمر المنصور بقتله على باب قصر الذهب[2]. والمهم في هذه الحركة النتائج المترتبة إذ إن الخليفة اتخذ عدة إجراءات هي:

---

(١) الطبري: ج٧ ص٦٥٣، الكبيسي: أسواق ص٧٨.

(٢) أنظر الطبري: ج٧ ص٦٥٣ ـ ٦٥٤، الكبيسي: أسواق ص٧٩.

(أ) أنه قام بهدم البيوت التي تجاوزت على الطرق الرئيسة للمدينة وجَعَلَ عرض الطريق أربعين ذراعاً.

(ب) نَقَلَ الأسواق إلى الكرخ.

ومن المحتمل أن هذين الإجراءَيْن مترابطان على اعتبار أن هذه البيوت تتصل هي الأخرى بالأسواق أو تعتبر محلّات سكنية لأولئك الذين شاركوا بالتمرُّد.

* * *

فالروايات الثلاث السابقة تبيِّن بجلاء قوة العوامل السياسية في تصميم المنصور على اتخاذ قرار نَقْلِ الأسواق والتجار إلى خارج المدينة. وكما أوضحت في السابق أن تطبيق القرار كان إجبارياً فلم يبقَ بعد ذلك في المدينة مجاميع للأسواق عدا، بطبيعة الحال، بعض المحلّات المتفرِّقة القليلة، وهناك بعض الأبيات الشعرية التي تحمل دلالات تؤكد صحة الاستنتاج فقال عبيد الله ابن عبد الله الحافظ:

أقولُ وقد فارقْتُ بغدادَ مُكْرَهاً ... سَلامٌ على أهلِ القَطيعَةِ والكَرَخْ
هَوَايَ ورائي والمَسيرُ خلافَهُ ... فقلبِي إلى كَرْخٍ ووجهي إلى بَلَخْ[1]

## عوامل عمرانية وصحية:

ومع أن هذه العوامل ليست بالعوامل الأساسية لِنَقْلِ أسواق المدينة المدوَّرة إلى الكرخ غير أنها ربما عزَّزت من فعالية العوامل الأخرى. فالإجراء الذي اتخذه المنصور بشأن توسيع الطرق بجعل عرضها أربعين ذراعاً إنما يُعَدُّ مؤشراً إلى أن تخطيط بغداد العمراني قد تضمَّن عدداً من الأخطاء، كما أن تصميم طاقاتها بهذا الشكل الجامد غير القابل إلى التوسع فضلاً عن انغلاقها على نفسها يحتوي على أخطاء عمرانية أيضاً. ولعلَّ من الجدير بالذكر أن تفادي هذه

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٤.

الأخطاء العمرانية لا يمكن أن تُتَّخَذَ بعد تأسيس المدينة وثبات هيئتها. فمن الصعوبة بمكان توسيع خططها أو أن تضاف إليها إضافات جديدة لوجود الأسوار والدهاليز والطاقات... الخ، في الوقت الذي كان فيه الكرخ منفتحاً خالياً من تعقيد الأسوار والخنادق، الأمر الذي حبَّب فكرة نَقْلِ المحلّات التجارية إليه. وبالفعل فإن المنصور لم يقمْ في الكرخ بإجراء مماثل لما قام به في المدينة المدوَّرة، فلم يتخذ أسواراً حولها ولم يحتفر خندقاً فظلّت المحلّة قابلة للتوسع باستمرار.

وقد أورد ياقوت الحموي سبباً طريفاً لا يخلو من أهمية ويتعلق بمسألة تلوُّث البيئة والإبقاء على جمال المدينة، فيشير إلى أن السبب الذي دعا المنصور إلى نَقْلِ الأسواق هو (أن دخاخينهم ـ ويعني ياقوت دخان الأسواق ـ ارتفعت واسودَّت حيطان المدينة وتأذّى بها المنصور)[1] فإن تعبير تصاعد الدخان من الدكاكين والأسواق ثم اسوداد جدران هذه الأسواق وما كان يجاورها تدلل على وجود بعض الصناعات المحلّية ضِمْنَ تلك الطاقات، وأن تكاثرها قد لوَّث مناخ المدينة وجمال بنائها فاندفع المنصور إلى الحفاظ على طيب بغداد وحُسْنِها بِنَقْلِ الأسواق والصناعات عنها.

* * *

إنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون تحويل الأسواق من المدينة المدوَّرة إلى الكرخ الموضع الذي كان سوقاً تجارية قبل ذلك وقبل أن تؤسَّس المدينة المنوَّرة ذاتها، كما أنه يقع في منطقة لمسوج بادوريا الغنية زراعياً. لذلك يمكننا القول بأن تحويل المنصور الأسواق إلى هذا الموضع له دلالة حضارية وتمدنية. تُرْجِعُ بعض الروايات التاريخية تاريخ وجود السوق في منطقة الكرخ إلى الفترة الساسانية وأن الملك الساساني سابور الثاني (الذي حكم من سنة ٣٠٩ ـ ٣٧٩م) قد أسسه، والمهم أن سوق بغداد القديم الذي ذكرناه سابقاً وبأنه كان

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٤٨.

سوقاً تجارية يعقد كل شهر أو كل سنة ويرتاده التجار الصينيون ببضائعهم وتجاراتهم، هو السوق الذي صار موضع الكرخ فيه. وقد ظلّ يحمل هذه السِّمة التجارية في التاريخ الإسلامي قبل تأسيس بغداد، فيذكر البلاذري رواية تشير إلى أن المثنى بن حارثة الشيباني قد أغار على هذه السوق التي كانت تعجُّ بالتجارات والتجار القادمين من أنحاء مختلفة[1]. ومن المحتمل أن تكون هذه السوق هي التي أشار إليها الطبري وكانت سوقاً لبيع الدواب والماشية. ويذكرها بصراحة في حوادث سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م، خلال حديثه عن شبيب بن يزيد الشيباني وكان مقبلاً من المدائن. فوصل في طريقه إلى الكرخ فوجَّه إلى أهل سوق بغداد جمعاً من أصحابه ليهدأ أهل السوق بأن يستمرّوا على نشاطهم لأن الفترة التي وصل فيها شبيب تمثّل فترة نشاط السوق تجارياً، ويبدو أن أصحاب التجارات خافوا على تجاراتهم من أن يشنَّ شبيب هجوماً عليهم[2]. وقد استمرت هذه السوق تلعب دوراً تجارياً مهماً حتى فترة تأسيس المنصور المدينة المدوَّرة.

ترجع كلمة كرخ، كما قال ياقوت الحموي، إلى أصل نبطي، فالتعبير كرخت الماء وغيره من البقر والغنم إلى موضع كذا تعني جمعته فيه في كل موضع. ومعنى الكلمة، كرخ، في اللغة الآرامية الحصن. وكان كرخ بغداد مأهولاً بالسكان باعتباره سوقاً تجارية[3].

## إجراءات المنصور العمرانية في الكرخ:

عندما قرَّر الخليفة المنصور إبعاد الأسواق وأصحاب التجارات والحِرَفِ من المدينة المدوَّرة إلى جانب الكرخ وجَّه كلًّا من إبراهيم بن حبيش الكوفي ومولاه جواس بن المسيب اليماني سنة ١٥٧هـ لتنفيذ إجراءات النقل. فكانت الأعمال التي اتخذها المنصور في الكرخ قبل وأثناء مرحلة الانتقال هي:

---

(١) البلاذري: فتوح ص٣٤٤، الدينوري: الأخبار الطوال ص١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) الطبري ج٥ ص٧٦، ج٦ ص٢٣٦، ٢٣٩.
(٣) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٤٧، دائرة المعارف الإسلامية (ط/ جديدة) مقالة al-karkh.

١ - أمر المنصور إبراهيم الكوفي ببناء الأسواق في الكرخ شريطة أن يجعلها منظَّمة وموزَّعة بحسب الأصناف والتجارات والمِهَن.

٢ - كما أمر إبراهيم أن يقوم بتوزيع هذه الأسواق والبيوت على الناس الذين انتقلوا من المدينة المدوَّرة مجاناً. وقد وضع المنصور في بداية الأمر على أصحاب التجارات والمِهَنِ في أسواق الكرخ الغلة على قدر الذرع، غير أنه بمرور الزمن وعندما جذبت الكرخ أعداداً كبيرة من أهالي المدينة المدوَّرة وغيرها من المناطق وزاد إقبالهم على هذا الجانب واتخاذهم المحلّات بأنفسهم في هذه الأسواق المعدَّة، خرج المنصور عن هذه القاعدة في اتخاذ المحلّات وذلك بأن فَرَضَ على هؤلاء الجدد ضرائب أو غلة أقلّ من أولئك الذين شغلوا الأسواق مجاناً، لأن هؤلاء ابتنوا محلّاتهم من أموالهم الخاصة.

٣ - وأمر المنصور ببناء مسجد جامع لإقامة صلاة الجمعة، وهو إجراء اتُّخِذَ بهدف عَزْلِ الكرخ وشاغليه وعدم اضطرار أهاليه إلى دخول المدينة المدوَّرة أيام الجمعة للصلاة، وذلك لأن صلاة الجمعة لا تقام إلا في المساجد الجامعة وأن وضعية الكرخ لا تؤهِّله لاتخاذ مسجد جامع، لكن المنصور أراد أن يمنع دخول الناس ثانية إلى مدينته بحجة صلاة الجمعة.

وابتنى قصراً له أطلق عليه اسم قصر الوضّاح نسبة إلى متقلد بنائه الوضاح ابن شيبان. وفي رواية أخرى للطبري والخطيب البغدادي أن المنصور ابتنى قصر الخلد وجعله على شاطىء دجلة في سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م، أي بعد حوالي الشهرين من اتخاذ الأسواق[١]، وأن القصر الذي أشرف الوضاح على بنائه كان في الرصافة.

---

(١) الطبري: ج٨ ص٥٢، الخطيب: ج١ ص٨٠.

## أوصاف الكرخ:

لم يستطع الخليفة، كما فعل في المدينة المدوَّرة، أن يسيطر على التطوُّرات التمدنية التي شهدها الكرخ وعلى توسُّع رقعته وتعدُّد أسواقه وتزاحم أهله، فكان أول خروج على القواعد التي وَضَعَها إبراهيم الكوفي وعلى الخطط الثابتة التي اتخذها يتمثل باتخاذ الأهالي المحلّات والتجمعات السوقية خارج حدود تلك الأسواق الثابتة التي أشرف إبراهيم على بنائها وتنظيمها. لذلك فإنه بمرور الزمن صار الكرخ يحتوي على ثلاثة تجمعات للأسواق في ثلاث مناطق هي: الكرخ، المحوّل، الحربية. ومن المحتمل أن سوق الكرخ الأصلي ظلَّ متميِّزاً عن غيره من الأسواق لسبب جغرافي وهو وقوعه على شبكة من الأنهر الكبيرة كنهر عيسى ونهر الصراة والأنهار الفرعية. وقد سهَّلت هذه الأنهار والقنوات وصول التجارات والبضائع وصارت بالفعل أماكن تجمُّع هذه التجارات. ومن بين الأسواق الرئيسة التي وَرَدَ ذِكْرُها في الكرخ السوق العظمى التي كانت تمتد من قصر وضاح حتى سوق الثلاثاء وتقع محلّاتها على جانبَي الشارع الذي يبدأ من محلّة الشرقية حتى باب الكرخ. وتتوزع التجارات والمحلّات في هذا السوق الكبير وفقاً لأنواع التجارات والمِهَن[1].

وهناك أيضاً سوق البزازين الذي كان يقع على نهر البزازين ويمتد من القنطرة المبنية على النهر ويتجه جنوباً حتى نهر الدجاج. وسوق الثلاثاء وسوق باعة الرمان وسوق دار البطيخ[2]. وقد استمر جانب الكرخ من بغداد يلعب دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية لمنطقة بغداد حتى فترة متأخرة، فقد ميَّز ابن حوقل خلال منتصف القرن الرابع للهجرة الكرخ عن المدينة المدوَّرة بقوله إن الكرخ كان أعمر البقاع في مدينة بغداد وذلك لأنه مستقرُّ التجارات والتجار[3]. وأشار بعد ذلك بفترة قصيرة المقدسي إلى نفس الحالة، فتحدَّث عن بغداد

(١) الكبيسي: أسواق ص٨٤.
(٢) ن. م. ص ٨٤ _ ٨٥.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٧.

المدوَّرة وبأنها صارت خراباً وأن المسجد الجامع فيها لا يعمر إلا في الجمع أوقات صلاة الجمعة، وقال معقِّباً إن (أعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي..» ولم يكتفِ بذلك إنما جعل الكرخ أغنى وأنشط تجارياً من الجانب الشرقي فقال (والعمارات والأسواق بالغربي أكثر..)[1]. وقد تضرَّر الجانب الغربي من بغداد كثيراً إبان السيطرة البويهية والسلجوقية على بغداد وذلك لأن أمراء البويهيين قد أثاروا وشجعوا الفتن والنزاعات الطائفية والعنصرية بين أهالي الكرخ وغيرها من مدن وضواحي بغداد، فاشتعلت الاضطرابات والفتن فأدى إلى اضطراب الأحوال التجارية داخل أسواق الكرخ. ومع ذلك فقد بقي الكرخ يتمتع بعمر أطول من المدينة المدوَّرة، إذ أشار ياقوت الحموي في القرن السابع للهجرة إلى وجوده، معلِّقاً على ذلك بأنه بينما كان في الفترات السابقة يقع وسط بغداد تحيط به المحلّات، صار أثناء فترة ياقوت محلّة واحدة مفردة في وسط خراب وكان هناك عدد من المحلّات المحيطة به لكنها منعزلة عنه. فمحلّة باب المحوّل تقع إلى يسار الكرخ، وأما في قبلته فيقع نهر الصراة وفي الجنوب محلّة القلائين[2]. ويَصِفُ صاحب الروض المعطار الكرخ بأنه متصل العمارة ويتضمن قرى متعدِّدة. وزار مدينة بغداد كلٌّ من الرحالة ابن جبير في الربع الأول من القرن السابع للهجرة وابن بطوطة في الربع الأول من القرن الثامن للهجرة ووصفا الكرخ أو الجانب الغربي من بغداد بأنه كان من أعمر الجوانب لكنه تحوَّل إلى خراب خلال تلك الفترات المتأخرة وأن كل ما بقي فيه من محلّات تبلغ أيام ابن جبير سبع عشرة محلّة وتقلَّصت أيام ابن بطوطة إلى ثلاث عشرة محلّة. ويقولان إن كل محلّة من هذه المحلّات تعادل مدينة مستقلة وتحتوي كل واحدة منها على الحمّامات والجوامع التي يُصلّى فيها صلاة الجمعة، وأكبر هذه المحلّات أيام ابن جبير الحربية تقع على شاطىء دجلة على مقربة من الجسر، وكان لها جسران الأول قرب دُور الخليفة والآخر يقع فوقه، وقد سهَّلا هذان الجسران عملية العبور لكثرة الناس.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١١٩.

(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص٤٤٨.

وكانت محلّة الكرخ أيضاً من الحالات الباقية عند زيارة ابن جبير، لكنه لا يشير إلى أهميتها ونشاطها. أما ابن بطوطة فيشير إلى أن محلّة باب البصرة كانت من المحلّات الكبيرة ولم يميِّز محلّة الحربية، مما قد يشير بذلك إلى خرابها أو تضاؤل أهميتها. فيذكر ابن بطوطة أن باب البصرة محلّة تحتوي على جامع الخليفة المنصور والمارستان، وكان قصراً كبيراً إلا أنه خرب ولم تبقَ إلا آثاره. وهناك قبر معروف الكرخي. ولم يُشِرْ ابن بطوطة أيضاً إلى الكرخ وأسواقه. في نفس الوقت، فإن ابن جبير هو الآخر يصف محلّة باب البصرة كأنها مدينة. وذكر بأن هناك سوقاً تدعى سوق المارستان تقع بين محلّة الشارع ومحلة باب البصرة، ويَصِفُها بأنها مدينة صغيرة تضمُّ المارستان الشهير في بغداد[1].

## الرصافة:

تفيد الروايات التاريخية بأن تاريخ اتخاذ المهدي ابن الخليفة المنصور الرصافة قديم يرجع إلى فترة تسبق فترة تصميم الخليفة المنصور على نَقْلِ الأسواق والتجارات من المدينة المدوَّرة إلى الكرخ وبناء أسواق الكرخ وقصر الخلد في سنة ١٥٧هـ. وإذا ما عوَّلنا على قول المستشرق لسترنج الذي يبيِّن فيه تاريخ الشروع في بناء جامع الرصافة يرجع إلى سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠م[2]، أي قبل حوالي ثماني سنوات من اتخاذ المهدي، بشكل فعلي، معسكره في جانب الرصافة، يكون من الواضح جداً أن هناك موضعاً مأهولاً في هذه المنطقة قبل تأسيس بغداد. ومع أنه ليس هناك روايات تاريخية تؤيد ما ذهب إليه لسترنج، وأن القصص التي رافقت تأسيس بغداد لم تُشِرْ إلى وجود مسجد جامع في موضع قريب من المكان الذي استقر رَأْيُ المنصور عليه، لكن الرَّأْيَ يعكس من جانب آخر وجود موضع مأهول يشتمل على مسجد ليس بالضرورة هو المسجد الجامع الذي ابتناه المهدي وربما يكون المهدي قد وسَّعه وجدَّد فيه.

---

(١) أنظر الحموي: الروض المعطار ص١١١ ـ ١١٢، ابن جبير: رحلة ص١٧٩ ـ ١٨٠، ابن بطوطة: رحلة ج١ ص١٤١.

(٢) لسترنج: بغداد في عهد الخلافة العباسية (ترجمة بشير فرنسيس ١٩٣٦) ص١٦٢ د. صالح أحمد العلي: مدينة بغداد الشرقية.

وإذا ما كانت العوامل السياسية والاجتماعية هي العوامل الضاغطة على المنصور في اتخاذ قرار تحويل الأسواق والعمليات التجارية وأصحاب المِهَنِ والحِرَفِ من بغداد المدوَّرة إلى الكرخ سنة ١٥٧هـ، فإن الخليفة يبدو أنه كان مضطراً ومدفوعاً لعدة عوامل في أن يوجِّه ابنه المهدي إلى تأسيس الرصافة وشجَّعه على أن يتخذها معسكراً له ولجنده في سنة ١٥١هـ/٨٦٨م. ومن المحتمل أن تكون العوامل السياسية والاجتماعية هي أيضاً العوامل الضاغطة على المنصور في اتخاذ قرار تأسيس الرصافة، فبينما كانت الكرخ محلّة ومدينة تجارية للأسواق وأصحاب المِهَنِ والحِرَفِ صارت الرصافة محلّة ومدينة سكنية، فما هي يا ترى تلك العوامل والدوافع التي دفعت الخليفة إلى تأسيس هذا الجانب الجديد من بغداد؟

ليس هناك من شك في القول إن المتغيِّرات السياسية السريعة التي جابهت الخليفة المنصور خلال الفترة التاريخية من سنة ١٣٦هـ حتى سنة ١٤٤هـ أو ١٤٥هـ، كان لها تأثير مباشر وسريع في استجاباته في اتخاذ القرارات، سواء ما كان يتعلق منها بأساليب مجابهته لتلك الأحداث والحركات والفتن السياسية التي شغلت تلك الفترة التاريخية أم في العمل المجدّ والدؤوب على تثبيت سلطته وتقويتها والإبقاء عليها قوية بوجه الأعداء. فكان بناء مدينة بغداد المدوَّرة ثم تحويل الأسواق والتجار والعامة إلى الكرخ وتأسيس الرصافة وتحويل جانب من جنده إليها نتائج واضحة لتلك المتغيِّرات السياسية العديدة التي ابتدأت منذ سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م.

ويزوِّدنا التاريخ برواية مهمة تتعلق بالعوامل الأساسية لاتخاذ الرصافة، وتفيد هذه الرواية أن قثم بن العباس عبيد الله بن العباس، وكان شيخاً كبيراً مقدَّراً من العائلة العباسية، دخل يوماً على المنصور بعد حركة الراوندية التي شغلت المنصور فحاربها وقضى عليها. فاستشاره المنصور في مسألة الجند، ويبدو أنه كان غير واثق من إخلاصهم بعد تلك الحركة، وذلك لأنه قال لِقَثَم حَرْفِياً (أما ترى ما نحن فيه من الْتِيَاث الجند علينا، قد خفتُ أن تجتمع كلمتهم فيخرج هذا الأمر من أيدينا.. فما ترى؟). وقد أشار قثم على الخليفة أن يعطيه قدراً

من الحرية في التفكير في الموضوع ثم وَضَعَ خطة مفصَّلة تهدف إلى زرع بذور الفرقة بين القبائل العربية، بين اليمانية والمضرية. وذلك بتفضيل مضر على اليمن بحضرة القواد والجنود، فيثير بذلك الأحقاد القديمة ويتنازع المضري واليماني ويختلف الجند فيما بينهم على نفس الأساس بين مؤيد لمضر أو مؤيد اليمانية أو مؤيد للخراسانيين أو مؤيد لربيعة. فكان هدفه إذن أن يوجّه أنظار المنصور إلى اتِّباع سياسة فَرِّقْ تَسُدْ بضرب جماعة بأخرى عن طريق توطين ابنه المهدي مع قسم من الجيش في الجانب الشرقي من بغداد المقابل للمدينة المدوَّرة قائلاً له: (فتصير ذلك بلداً وهذا بلداً، فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها..[1]) فوافق المنصور على هذه النصيحة باتِّباع هذه السياسة، فابتنى الرصافة في الجانب الشرقي المقابل لمدينته وأقطع فيها القواد والجند القطائع. وبذلك فإن هذه القصة تدلل على أن العامل الأساس في بناء الرصافة هو خوف المنصور من تمرُّد الجند أو عصيانهم، بينما كان العامل الأساس في تأسيس مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ خوف المنصور من أهالي الكوفة فأراد أن ينعزل مع جنده في مدينة خاصة. ولعلَّ من الصحيح القول بأن هذا العامل المباشر جاء نتيجة عوامل سياسية أخرى أخذت تتراكم منذ حركة الراوندية وذي النفس الزكية وما جلبته الحركة السياسية الأخيرة من انشقاق بين أنصار المنصور إلى مؤيد لها أو معارض، وما فتنة المحتسب والمشرف على أسواق بغداد أبي زكريا في المدينة المدوَّرة إلا صورة واضحة لذلك.

كذلك علينا أن لا نغفل أحداث سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م التي من المرجَّح أنها أثارت من حفيظة المنصور وعرَّضته إلى مجابهة مباشرة مع العائلة العباسية ومن ثم فيما بعد مع أنصار هؤلاء العباسيين المعارضين للمنصور ومع القادة والجند والمؤيدين لهم أيضاً. وأعني بتلك الأحداث ما يتعلق بمقتل عبد الله بن علي

---

(١) الطبري: ج٨ ص٣٧ ـ ٣٩.

ابن عباس، وعَزْلِ عيسى بن موسى عن ولاية العهد ثم تَوْلِيَتِها المهدي ابن المنصور بدلاً من عيسى، الوريث الشرعي. كان عبدالله بن علي، عمّ المنصور وممن له مساهمة فعّالة ونشطة في قيام الدولة العباسية، ولكن يبدو من خلال الروايات والأحداث التاريخية أن العلاقة بين عبد الله وبين المنصور كانت متوترة وغير جيدة، فالروايات توضح أن عبد الله مثلاً لم يبايع المنصور بالخلافة إلا بعد سنتين، ومن المحتمل أن يكون ذلك متعلقاً برغبة عبد الله في أن يلي أمر الدولة بنفسه، على أية حال، فإن عبد الله كان منذ تلك الفترة مقيماً مع أخيه سليمان بن علي والي العباسيين على البصرة، وحدث أن المنصور قام بِعَزْلِ سليمان بن علي عن ولاية البصرة سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م، مما دفع الأمر بعبد الله إلى أن يختفي عن أنظار المنصور خوفاً على نفسه، غير أن الخليفة قبض عليه وألقاه السجن فظلَّ مسجوناً حتى سنة ١٤٧هـ ٧٦٤م. إذ قرَّر في هذه السنة أن يتخلص منه نهائياً فسلَّمه إلى ولي عهده عيسى بن موسى لينفِّذ مهمة القتل وكان يهدف من وراء ذلك تشويه سمعة عيسى أمام أفراد العائلة العباسية فيكسب موقفهم وتأييدهم بِعَزْلِهِ عن الولاية وتنصيب ابنه المهدي بدلاً منه. وكان عيسى واعياً فاستشار أحد الأشخاص حول الموضوع فاعترض على قَتْلِ عبد الله إنما أشار عليه بسجنه لفضح نوايا المنصور. إن هذه الحادثة علاوة على الإجراءات القاسية التي استعملها بحقِّ عيسى بن موسى من أجل إذلاله كي يغيِّر رأيه في عدم التنازل عن ولاية العهد قد أثَّرت على وضعية المنصور ونفوذه وزادت من شكوكه في أبناء جلدته من العائلة العباسية، ولا يستبعد أن يكون القادة والجند قد تأثروا أيضاً بتلك الأحداث، فمال بعضهم إلى صف عيسى بن موسى وعبد الله بن علي. لذلك صار المنصور لا يأمن جانب هؤلاء فأراد أن يضرب بعضهم ببعض. فأمر ابنه المهدي، وليّ العهد، أن يتوجه بقسم من القادة إلى الري وحينما عاد المهدي من عملياته العسكرية سنة[1] ١٥١هـ/٨٦٨م، أمره أن يتخذ معسكراً له وجنده في الجانب الشرقي من المدينة المدوَّرة فكان ميلاد جانب الرصافة.

---

(١) أنظر الطبري: ج٧ ص٥٠١ ـ ٥٠٢.

## بناء الرصافة:

اعتماداً على رواية البلاذري وياقوت الحموي أن الخليفة المنصور أمر ابنه المهدي أن يتخذ معسكره في الجانب الشرقي المقابل للمدينة المدوَّرة. وأمره ببناء الدُّور والمنازل وأن يوطِّن جنده فيه ويجعله معسكراً[1]. فالهدف الرئيس من وراء تأسيس الرصافة عسكري، ولهذا السبب فقد أطلق بعض المؤرّخين على مدينة الرصافة اسم عسكر المهدي. وقد نهج المهدي نفس النهج الذي سار عليه والده في بناء الوحدات العمرانية في الرصافة كالميدان والسور والخندق. فلقد كان السور والخندق من الوحدات العمرانية المهمة في المدينة المدوَّرة لكونها مدينة محصَّنة وصار السور والخندق أيضاً صفتَيْن متلازمتَيْن في الرصافة على اعتبار أنها مدينة معسكر أيضاً، في الوقت الذي لم يذكر فيه أيٌّ من هاتين الوحدتين عند تأسيس الكرخ وذلك لأنها مدينة سوق لا مدينة معسكر.

ووفقاً لما أورده البلاذري، فإن الخليفة المنصور قد ابتدأ في الرصافة ببناء قصر للمهدي قبل أن يتخذ الرصافة معسكراً سنة ١٥١هـ. وأنه أولى مسؤولية الإنفاق والإشراف على بناء هذا القصر لشخص يدعى الوضاح، ولذلك صار قصر المهدي يعرف باسم قصر الوضاح ويدعى أيضاً قصر المهدي وكان موقعه مما يلي باب الكرخ[2]. والحقيقة أن بداية الأعمال الإنشائية الفعلية في الرصافة كانت في سنة ١٥١هـ، أي عندما عاد المهدي من الريّ واتخاذه الموضع معسكراً، لذلك فإن رواية البلاذري المشار إليها ربما تعني هذه السنة أو أن هناك قصراً آخر اتخذه المهدي قبل توجُّهه نحو الريّ. تفيد الروايات أن المهدي ابتنى سنة ١٥١هـ السور والخندق والميدان والبستان ثم أجرى إلى الموضع الماء من نهر المهدي، وبيَّن اليعقوبي أن نهر المهدي كان يأخذ المياه من نهر النهروان. وامتدت فترة بناء الوحدات العمرانية في الرصافة حتى سنة

---

(١) البلاذري: فتوح ص٢٩٣، ياقوت الحموي: ج٣ ص٤٦.
(٢) البلاذري: فتوح ص٢٩٣.

١٥٤هـ/ ٧٧٠م، ولم تكتمل أعمال البناء بشكل نهائي حتى سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م، وقيل في رواية أخرى إن اكتمال بناء المسجد الجامع في الرصافة كان في سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م[١].

بُنِيَتِ الرصافة إلى الجانب الشرقي من نهر دجلة يربطها بالمدينة المدوَّرة جسر، ثم صار هناك جسران. أما بالنسبة إلى مساحتها فقد قدَّرها ياقوت الحموي بأنها كانت على قدر مساوٍ لمساحة مدينة المنصور[٢]. لكن ياقوت لا يوضح ما يقصده (بقدر مدينة المنصور) وهل يعني مساحتها التي لا تعدو أكثر من خمسة كيلومترات مربعة أم أنه يقصد بتعبيره الحجم العام للرصافة؟

وفي الوقت الذي كانت فيه وظيفة الكرخ اقتصادية معتمدة على الأسواق بالدرجة الأولى، كانت الرصافة قد تأسست لكي تكون مدينة معسكر أو مدينة قصر المهدي. غير أنها بمرور الزمن أخذت تجتذب الأمراء والعامة فتزايد حجم سكانها واتسعت حركة البناء والعمران فَبُنِيَتِ القصور وأُنشئت الأسواق فانتعشت الحركة التجارية فيها أيضاً، وقد زادت هذه الحركة العمرانية من مساحة المدينة حتى إنها صارت أيام الموفق حوالي (٢٥٠) حبلاً طولاً ـ و(١٠٥) حبال عرضاً بما يعادل حوالي ٢٦,٢٥٠[٣] جريباً. ووَصَفَها ابن حوقل في منتصف القرن الرابع للهجرة بتزايد أحوالها العمرانية وبالتالي تزايد كثافة سكانها حتى آل الأمر إلى أن ينتقل إليها كرسي الخلافة فصارت العاصمة. وقد وَرَدَ أن المهدي بعد إتمام أعماله العمرانية أقطع أخوته وقواده القطائع وتنافس الناس على الانتقال إليها حبًّا بالمهدي كذلك لأن أرض الرصافة أرض واسعة تستوعب الوافدين إليها، فصار فيها حوالي أربعة آلاف درب وسكة وحوالي خمسة عشر ألف مسجد وخمسة آلاف حمّام. وبالرغم من وجود عنصر المبالغة في هذه الأرقام لكنها بحدِّ ذاتها تشير إلى اتساع بقعة الرصافة بعد أن صارت

---

(١) اليعقوبي: البلدان ص٢٥١، الطبري: ج٨ ص٣٧، الخطيب البغدادي: ج١ ص٨٢.

(٢) ياقوت الحموي: ج٤ ص٦٤.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٧، وقد اكتفى صاحب الروض المعطار (ص١١٢) بلقب الخليفة فجعله الناصر لدين الله.

عاصمة. ويبدو أن انتقال العاصمة إلى سامراء لم يؤثّر كثيراً على وضعيتها وعلى حركة التجارة في أسواقها وذلك لأن الناس (لم يجدوا عنها عوضاً) وكذلك لاتصال العمارة والمنازل من هذا الجانب إلى سامراء وقد ظلّ اسم الرصافة وذِكْرُها مشهوراً حتى فترة متأخرة، فقد وَصَفَها الرحالة ابن جبير بقوله (أما الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفا بذلك شرفاً واحتفالاً)، ويضيف إلى حديثه هذا قائلاً بأنها كانت حافلة بالأسواق العظيمة المنظّمة تنظيماً جميلاً. وكان هذا الجانب مزدحماً بالسكان، ويحتوي على ثلاثة مساجد جامعة، هي جامع الخليفة وجامع السلطان وجامع الرصافة. وكان حافلاً بالمدارس والحمّامات والقصور. وكرّر الرحالة ابن بطوطة معلومات ابن جبير وأوصافه حول الرصافة وكثرة أسواقها وأشاد بسوق الثلاثاء فيها قائلاً إنه كان أعظم أسواقها إذ نُظِّمَتِ الصناعات والمِهَنُ فيه كلٌّ على حِدة. وكانت المدرسة النظامية تقع في وسطه وهي من المدارس العجيبة التي صارت مضرباً للأمثال بجمال بنائها، وتقع المدرسة المستنصرية في آخره وهي مدرسة جليلة كان لكل مذهب من المذاهب التي تدرَّس فيها إيوان فيه مسجد وموضع التدريس وكانت تضمُّ حمّاماً للطلبة وداراً للوضوء. وَوَصَفَ ابن بطوطة جامع الخليفة في الجانب الشرقي بقوله إنه كان جامعاً كبيراً فيه سقايات ومطاهر للوضوء وكان جامع السلطان خارج البلد تتصل به قصور السلطان، أما جامع الرصافة فيبعد حوالي الميل عن جامع السلطان[1]. ومما يثير الدهشة أن ياقوت الحموي الذي سبق ابن بطوطة بكثير لا يشير إلى الرصافة بمثل هذه الأوصاف، بل على العكس، فإنه يقول لقد خربت ولم يبقَ منها إلا جامع المهدي وبجواره مقابر خلفاء بني العباس، ولولا وجود الوقوف على هذه المقابر وعدد من الأشخاص الذين يقومون بخدمتها لخربت هذه القبور أيضاً. وهو يشير إلى محلّة أبي حنيفة ومحلّة وسويقة تجاور هذه المحلّة[2]. لكنه لا يبيِّن الآثار والمعالم الأخرى التي شاهدها الرحالة ابن جبير وابن بطوطة.

---

(١) ابن جبير: رحلة ص ١٨٢ ـ ١٨٣، ابن بطوطة: رحلة ج١ ص١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) ياقوت الحموي: ج٣ ص٤٦.

## الوحدات العمرانية في الرصافة:

إن المعلومات الخاصة بطوبوغرافية الرصافة قليلة إذا ما قورنت بتلك المتعلقة بالمدينة المدوَّرة ومن أهم وحداتها العمرانية.

## قصر المهدي:

وهو المعروف بقصر الوضاح إذ عهد المنصور إلى الوضاح بالإشراف والإنفاق على بنائه، ويبدو أن هذا القصر ظلَّ قائماً، إذ وَرَدَ ذِكْرُهُ أثناء العمليات الحربية التي وقعت بين الأمين والمأمون[1]. ولم يَرِدْ ذِكْرٌ آخر له فيما بعد وبشكل خاص عند تَرْكِ المعتصم ومن أعقبه مدينة بغداد إلى سامراء العاصمة الجديدة. ويذكر المؤرِّخون أن الخليفة المستعين حينما هرب من سامراء إلى بغداد نزل أول أمره في دار (قصر) محمد بن عبد الله الطاهري. وقد أحاط الجانب الشرقي وبضمنه الرصافة بسور دفاعي لمواجهة المعتز بالله والجند الأتراك. غير أن الخليفة المعتضد بالله يُعَدُّ أول خليفة عباسي يعود بالخلافة إلى بغداد ثانية ويترك سامراء نهائياً. وقد نزل المعتضد القصر المعروف بالقصر الحَسَني نسبة إلى الحسن بن سهل. وقد أجرى الخليفة عليه بعض التعديلات والإضافات، وعمل سوراً حول الجانب الشرقي. وبذلك صار القصر الحَسَني هو القصر المعتضدي ودار الخلافة العباسية، إذ تأسَّس حوله عدد من الدُّور والقصور من أمثال قصر الفردوس وقصر الثريا.

## المسجد الجامع:

تفيد رواية الطبري بأن المهدي قد بنى خلال السنة الثانية من توليته الخلافة مسجد الجامع في الرصافة، وقد وصف هذا المسجد بأنه كان كبيراً ويُعَدُّ أكبر من المسجد الجامع في مدينة المنصور وأحسن بناء. ومع ذلك، فإن اليعقوبي يشير في رواية إلى أن المهدي قد اختطَّ قصره إلى جانب المسجد الجامع في

---

(١) انظر الطبري: ج٨ ص٤٧٤، ٥٤٤.

سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠م. لكننا لا نعلم فيما إذا كان اليعقوبي قد أخطأ في سنة تأسيس الرصافة فجعلها في سنة ١٤٣هـ بدلاً من سنة ١٥١هـ (السنة المتفق عليها) أم أنه يقصد بأن بناء قصر المهدي والمسجد الجامع كان في سنة ١٤٣هـ. والحقيقة أن البلاذري أورد رواية غامضة مفادها أن الخليفة المنصور كان قد ابتنى في الجانب الشرقي من المدينة المدوَّرة مسجداً جامعاً بالإضافة إلى ذلك المسجد الجامع الموجود[1] في مدينته. ويبدو أن رواية البلاذري واليعقوبي هي التي جعلت المستشرق لسترنج يستنتج بأن تأسيس المسجد الجامع في الرصافة يمتُّ إلى فترة تسبق الفترة التي اتخذ فيها المهدي معسكره (سنة ١٥١هـ). ومهما يكن فإنه من المحتمل القول بأن المنصور قد أسَّس جامعاً في الجانب المقابل لمدينته على اعتبار أنه كان مأهولاً ولا يرغب أن يدخل أهاليه المدينة المدوَّرة بحجة صلاة الجمعة. علماً بأن صلاة الجمعة لم تكن آنذاك تقام في أيِّ جانب عدا المدينة المدوَّرة إلى أن تمَّ تأسيس المسجد الجامع في الكرخ. والمرجَّح أن صلاة الجمعة بَقِيَتْ تُعقد في هذه المساجد الجامعة (الرصافة والكرخ) حتى فترة الخليفة المعتضد، إذ يشير الخطيب البغدادي إلى أن هذا الخليفة اتخذ عند قدومه بغداد القصر الحَسَني الواقع على نهر دجلة سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م وأنفق عليه أموالاً كثيرة من أجل إعادة عمارته وتوسيعه وأنه أمر ببناء مطامير في ذلك القصر، فكانت صلاة الجمعة تقام في هذه الدار ولم يَرِدْ ذِكْرٌ للمسجد الجامع الذي ابتناه المهدي. إذ يقول الخطيب البغدادي ما نصه (وليس هناك رسم لمسجد) إنما كان يُسمح للمصلّين الدخول إلى هذه الدار أوقات صلاة الجمعة والخروج منه حال الانتهاء من أداء هذه الفريضة. وعندما تولّى المكتفي كرسي الخلافة في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م هجر القصر الحَسَني ووجَّه أوامره بهدم المطامير وبناء مسجد جامع يدلُّ على تلك المطامير وابتناه في موضع الدار. وبذلك أخذ الناس يؤدون صلاة الجمعة في المسجد الجامع الكائن في الدار دون أن يمنعهم الحراس من دخوله والإقامة

---

(١) البلاذري: فتوح ص٢٩٣، اليعقوبي: البلدان ص٢٥١، الطبري: ج٨ ص١١٦، لسترنج: بغداد ص١٦٢.

فيه وقتاً أطول[1]. ويتبيَّن من حديث ياقوت الحموي أن الوحدات العمرانية في جانب الرصافة قد أتى عليها الخراب باستثناء المسجد الجامع وما كان يجاوره من مقابر الخلفاء العباسيين. لكن قول ياقوت الحموي، كما ذكرنا، لا ينسجم مع مشاهدات الرحالة ابن جبير وابن بطوطة، فيصف ابن جبير أن الجانب الشرقي كان يحتوي على ثلاثة مساجد جامعة هي جامع الخليفة الذي يتصل بدار الخلافة وكان جامعاً كبيراً فيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كأمكنة الوضوء. وهناك جامع السلطان وكان يقع خارج البلد وتتصل به قصور تُنسب إلى السلطان المعروف بشاهٍ شاه وكان قد ابتنى هذا المسجد أمام داره. ثم جامع الرصافة وكان يبعد عن جامع السلطان بحوالي الميل.

## الأسواق والسكك وخطط الأهالي:

أورد المؤلِّفون أسماء العديد من الأسواق الكبيرة والصغيرة في الرصافة والجانب الشرقي من بغداد أمثال سويقة خضير نسبة إلى مولى صالح صاحب المصلى، وكان خضير في الأساس يبيع الجرار في هذه السوق، كما كانت تباع في السوق طرائف السلع الصينية، وكانت تحتوي على مسجد يحمل اسمها. وسويقة يحيى بن خالد البرمكي، وسويقة نصر بن مالك بن الهيثم وكانت تضمُّ مسجداً أيضاً. وسوق العطش الذي أنشأه سعيد الحرشي وقد كان يسمّى سوق الريّ لكن تسمية سوق العطش صارت هي السائدة وقد حوَّل المهدي كل صنف من التجار إلى هذا السوق بهدف إضعاف أهمية أسواق الكرخ. وسويقة العباسية. وسوق الثلاثاء وكان سوقاً قديمة موجودة في الموضع قبل تأسيس الرصافة، إذ يشير الخطيب البغدادي إلى أن هذه السوق كانت لقوم من أهل كلواذى وبغداد ثم صارت من الأسواق المشهورة في بغداد وتبدأ من الطرف الشرقي للجسر الأسفل وتمتد بمحاذاة الشارع الصاعد إلى باب الطاق، وقد طرأ عليها عدة تطوُّرات فصارت محلّة مشهورة سكنها الأهالي، علاوة على كونها مركزاً تتفرَّع منه بعض الأسواق الأخرى، فإلى جنوبها الشرقي كان هناك سوق

---

(١) الخطيب البغدادي: ج١ ص١٠٩.

الذباحين وإلى جانبه سوق العطارين. وسويقة خالد الواقعة بباب الشماسية وتنسب إلى خالد بن برمك، وابتنى الفضل فيها القصر المعروف بقصر الطين وابتنى جعفر بن يحيى قصراً آخر[1].

أما بشأن سكك ودروب الجانب الشرقي بضمنها الرصافة فقد قُدِّرَ عددها بأنها كانت أربعة آلاف درب وسكة، ومن المحتمل أن هذه الإحصائية، التي توضح سَعَةَ الرصافة وتشابك طرقها، تشير إلى الأزقة الضيِّقة والدروب المتوسطة ثم الطرق الرئيسة والفرعية. واعتماداً على ما قاله اليعقوبي فإن طرق الجانب الشرقي من بغداد والرصافة، والرئيسية منها على وجه الخصوص، كانت مقسمة إلى خمسة أقسام، فهناك طريق مستقيم رئيسي يقود إلى الرصافة مروراً بقصر المهدي والمسجد الجامع ويبدو أنه الشارع المركزي. ثم طريق رئيسي ثانٍ يمرُّ بسوق خضير ثم يخرج من هذا السوق باتجاه الميدان ودار الفضل بن ربيع. أما الطريق الثالث فكان إلى يسار باب البردان، ويبدأ الطريق الرابع وهو طريق الجسر من دار خزيمة بن خازم وينتهي بسوق يحيى بن الوليد (أو خالد) ويقود هذا الطريق المسافر إلى سامراء، أما الطريق الخامس وهو طريق الجسر الأول الذي كان يعبر عليه القادمون من الجانب الغربي ويأخذ من دجلة إلى باب المقير وباب[2] المخرم. ولعلَّ الطريق الثاني الذي ذكره اليعقوبي في قائمة الطرق الرئيسة هو نفسه الذي ذكره ابن الفقيه الهمذاني باسم شارع الميدان الذي كان يمتد من باب الشماسية مروراً بسوق الثلاثاء وكان شارعاً جميلاً يضمُّ عدداً من القصور منها الإقطاع الذي أقطعه المهدي إلى عباد بن أبي الخصيب الذي تحوَّل إلى محلّة تحتوي على مجموعة من القصور تعود ملكيتها للفضل بن ربيع وعائلته وصارت هذه المجموعة من القصور بعد ذلك إلى أم حبيب بنت الرشيد فصار يُعرف بقصر أم حبيب. وقد أشار ابن الفقيه

---

(١) أنظر ابن الفقيه الهمذاني: بغداد ص٥٥، ٥٦ ـ ٥٧، الطبري: ج٨ ص٣٩، الخطيب البغدادي: ج١ ص٩٣، الكبيسي: أسواق ص١٠٤، ١٠٦.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٢٥٣ ـ ٢٥٤، ابن الفقيه الهمذاني: بغداد، ص٥٦، الكبيسي: أسواق ص١٠٤، السوداني: أسوار بغداد ص٥٢ ـ ٥٤.

الهمذاني إلى شارع يُعرف بشارع الزراديين وكان أيضاً شارعاً جميلاً ومن المحتمل أن يكون شارع الزراديين هذا نفسه الشارع المعروف باسم شارع سويقة نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي ذكره الخطيب البغدادي، فالرواية المتعلقة بقصة وَفْدِ ملك الروم وتعجُّبه بصورة بغداد حينما تأملها فاستحسن شارع الزراديين وسويقة نصر بن مالك والقصور والأبواب الموجودة في هذا الشارع. كما أن الدرب الذي سمّاه الخطيب البغدادي بدرب خزيمة بن خازم ربما هو نفسه الشارع الرابع الذي أورده اليعقوبي والذي سمّاه بطريق الجسر الذي كان يبتدىء من دار خزيمة بن خازم[١].

وهناك عدد من الدروب والسكك المتفرّعة من هذه الشوارع الرئيسة منها على سبيل المثال شارع عبد الصمد المنسوب إلى عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس ودرب المفضل بن زمام مولى المهدي وشارع سوق الدواب وغيرها.

لقد قُسِّمَتِ الرصافة والجانب الشرقي من بغداد إلى قطائع وتولى صالح صاحب المصلى مسؤولية توزيعها فكانت من حصته القطائع الممتدة من باب الجسر وسوق يحيى ومسجد خضير، وأورد اليعقوبي قائمة طويلة بأسماء الأشخاص المتنفذين الذين مُنِحوا القطائع، بينهم عدد من أفراد العائلة العباسية وموالي الخليفة المهدي وكتّابه وقواده، من بينها قطيعة إسماعيل ابن علي بن عبد الله بن العباس وقطيعة العباس بن محمد وقطيعة السري ابن عبد الله وقطيعة قثم ابن العباس وقطيعة الربيع مولى المنصور وقطيعة مالك ابن الهيثم الخزاعي وقطيعة أبان بن صدقة الكاتب وقطيعة حمويه الخادم مولى المهدي وقطيعة نصير الوصيف مولى المهدي وقطيعة مسلمة الوصيف مولى المهدي وقطيعة العلاء الخادم مولى المهدي وقطيعة ثابت بن موسى الكاتب وقطيعة يعقوب بن داود الكاتب وغيرها من القطائع الأخرى. ومن المفيد ذِكْرُهُ أن بعض هذه القطائع قد شكّلت أهمية اقتصادية واجتماعية مثل قطيعة بدر

(١) ابن الفقيه الهمذاني: بغداد ص٥٦، ٥٩، الخطيب البغدادي: ج١ ص٩٣، ٩٤.

الوصيف حيث كان منها سوق العطش المشهور، وهو عبارة عن سوق عظيمة وتتضمن في نفس الوقت محلّة كبيرة تحمل الاسم ذاته. وقطيعة الربيع التي تطوَّرت إلى مجموعة أسواق ومستغلات. فضلاً عن ذلك، فإن منازل الناس والجند والتجار كانت موزَّعة هي الأخرى بين هذه القطائع(١).

## المدارس:

واشتهر الجانب الشرقي بوجود عدد من المدارس التي قدَّرها ابن جبير بحوالي ثلاثين مدرسة، ووَصَفَها بأنها عبارة عن قصور بديعة وتُعَدُّ مدرسة النظامية من أشهرها وأعظمها، فقد بناها نظام الملك الوزير السلجوقي وكانت تقع في وسط سوق الثلاثاء وقد أجرى عليها بعض التعديلات والتحسينات سنة ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، وكان للمدرسة أوقاف عظيمة وعقارات تقدِّم العون المادي للمدرسة وفقهائها ومدرِّسيها وطَلَبَتِها. وأشاد ابن بطوطة أيضاً بهذه المدرسة خلال زيارته بغداد كما أشار إلى مدرسة المستنصرية نسبة إلى الخليفة المستنصر بالله وتضمُّ في داخلها حمّاماً للطلبة ودار وضوء، وكان لكل مذهب يدرَّس فيها إيوان خاص فيه مسجد(٢).

## الحمّامات:

كما اشتهر الجانب الشرقي من بغداد بكثرة الحمّامات وقد حصرها اليعقوبي بأنها كانت حوالي خمسة آلاف حمّام، وقد علّق على هذه الإحصائية قائلاً إن هذا العدد لا يشمل الحمّامات التي بناها الأهالي بعد ذلك. وظلت هذه السِّمة باقية في الجانب الشرقي حتى فترة متأخرة، فقد تعجب ابن جبير من كثرة حمّامات هذا الجانب بقوله (أما حمّاماتها فلا تحصى عدة) وأورد رواية عن بعض مشايخ البلد بأنه قد أُحْصِيَتْ حمّامات الجانب الشرقي والجانب الغربي

(١) اليعقوبي: البلدان ص٢٥٢ ـ ٢٥٣، الخطيب البغدادي: ج١ ص٩٣، ٩٤، د. صالح أحمد العلي: المواصلات والجسور في بغداد (مجلة المورد ٩٧٩) ص١٠٧ ـ ١٣٦.

(٢) ابن جبير: ص١٨٣، ابن بطوطة: ج١ ص١٤١ ـ ١٤٢.

من بغداد فبلغت آنئذٍ حوالي ألفي (٢٠٠٠) حمّام جميعها كان مطلياً بالقار الذي يُجْلَبُ من موضع بين واسط والبصرة. وأشار ابن بطوطة أيضاً إلى نفس الملاحظة عن عدد الحمّامات ووَصَفَها بأنها كانت مطلية بالقار كأنه الرخام الأسود وقد استخدم القار أيضاً في فَرْشِ أرضية الحمّامات وطَلْيِ[1] جدرانها.

(١) ابن جبير ص١٨٣، ابن بطوطة: ج١ ص١٤٠ ـ ١٤١.

## الفصل السابع

# حلب

تُعَدُّ مدينة حلب في بلاد الشام من المدن الذاتية القديمة التي لم يؤسّسها العرب المسلمون خلال الفتوحات الإسلامية في القرن السابع للميلاد. وقد وضعنا هذه المدينة ضِمْنَ خط المدن التي تحمل أصولاً تمدنية قديمة كحلب والموصل وقرطبة.. الخ. صحيح أن العرب المسلمين عند فَتْحِهِم قنَّسرين وحلب أضافوا إلى هذه المدينة وحدات عمرانية مختلفة لكن هذه الاختلافات لم تغيِّر كثيراً من طبيعة المدينة القديمة.

إن مدينة حلب، في الواقع هي واحدة من المدن القديمة في التاريخ إن لم تكن حسبما يرى الأستاذ سوفاجيه، من أقدم المدن التي لا تضاهيها مدينة أو موضع آخر في تاريخها القديم وفي ديمومتها وبقائها حتى الوقت الحاضر كمدينة مزدهرة ومأهولة. ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ سوفاجيه المستشرق الفرنسي قد ألَّف كتاباً باللغة الفرنسية يحمل عنوان (حلب) وقد استوعب فيه تاريخ هذه المدينة منذ أقدم الفترات التاريخية وصولاً إلى الفترات الإسلامية المتأخرة. وهو ما زال يُعَدُّ مصدراً أساساً في الكتابة عن هذا الموضوع. ومن حسن حظ مدينة حلب، كما هي الحال في بغداد والموصل وواسط والقاهرة. أن هناك عدداً من المؤرِّخين الرواد المشهورين من حلب قد تناولوا دراسة مدينتهم وأخصُّ بالذكر منهم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد هبة الله المعروف بابن العديم (المتوفى سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، إذ كتب سفراً مهماً من تاريخ حلب أطلق عليه اسم (زبدة الحلب من تاريخ حلب) ورجع أيضاً إلى أعماق التاريخ بحثاً وراء أصالة هذه المدينة العربية، وهناك أيضاً ابن الشحنة الذي ألَّف كتاباً

اسمه (الدرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب) وعز الدين بن شداد الذي ألَّف كتاباً قيّماً (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) الذي تخصص الجزء الأول منه في ذِكْرِ مدينة حلب وعمارتها ومدارسها وحمّاماتها وأنهارها ومساجدها الخ، اعتمد فيه على ابن العديم وابن عساكر وآخرين. ومن المفيد الإشارة إلى اهتمام المعنيين بهذه المدينة فأقيمت ندوة عالمية في أيلول ١٩٨٣ تحت عنوان (كيف نحمي حلب) اشترك فيها العديد من المهندسين والمؤرّخين والمعماريين للبحث في الوسائل الكفيلة لحماية حلب القديمة مدفوعين بهدف التعريف بحلب وعمارتها وتشخيص المخاطر التي تواجهها حلب القديمة.

لقد اختلفت الآراء والتفسيرات حول أصل كلمة حلب، فالكلمة عند مؤلّفي المعاجم اللغوية العربية ترتبط بتعبير (حلبت أحلب حلباً) والحلب هنا يُقْصَدُ به اللَّبن الحليب. وقيل أيضاً إن كلمة الحلب تعني الجباية. ومما له علاقة بتفسير أن كلمة حلب من الحليب يذكر المؤلّفون رواية تفيد بأن إبراهيم (عليه السلام) كان معتاداً منذ تلك الفترات القديمة على حَلْبِ غنمه في موضع التل الذي صار فيما بعد قلعة حلب، وكان الفقراء إذا سمعوا بقدومه إلى ذلك الموضع يأتون إليه من كل جهة فيجتمعون في المكان لكي ينالوا من برّه وإحسانه من الحليب، ثم إن إبراهيم كان يوجّه بعد أن يقوم بتوزيع الحليب على الفقراء المجتمعين عنده، نفراً من عبيده بحمل الحليب إلى من كان يقطن جوار ذلك التل. فكانت العادة أن يتبادر هؤلاء الفقراء عندما يصل إليهم عبيد إبراهيم وهم يحملون الحليب بنداء (إن إبراهيم حلب) فصارت هذه التسمية تسمية لتل القلعة أو للتل الذي كان إبراهيم يحلب فيه الحليب. ويعلّق ابن العديم على هذا الموضوع تعليقاً واضحاً بقوله إن المكان لم يكن آنذاك مدينة مبنية. وعلاوة على هذا التفسير التاريخي، فإن ابن العديم يؤكد بأن أصل التسمية عربي. في مقابل ذلك، فقد وَرَدَتْ صيغة وشكل الكلمة (حلب) في اللغات القديمة بنفس الشكل العربي مما يشير إلى أنها لم تكن محرَّفة، فقد أورد سوفاجيه أن المدينة كانت تسمّى عند الحثيين خلب Khalap، وأطلق عليها المصريون القدامى كلمة خرب Kharb والكلمة في اللغة الأكّدية خلابا Khallaba وخلوان Khalwan وقد وقف

ياقوت الحموي على القصة التي تتعلق بإبراهيم (ع) وتسمية حلب موقفاً معارضاً إذ قال إن القصة لا يمكن أن تكون صحيحة تماماً على اعتبار أن أهل الشام لم يكونوا أيام إبراهيم عرباً وأن العربية إنما ولدت في ولد ابنه إسماعيل وقحطان. ويصل إلى نتيجة مفادها أن أصل الكلمة (حلب) إما عبراني وإما سرياني. بذلك ينقلنا تفسير ياقوت وتعقيبه إلى رواية أخرى أو تفسير آخر لكلمة حلب وتشير هذه الرواية إلى أن التسمية ترجع إلى اسم شخص قد أسهم في بناء المدينة واسمه حلب بن المهر بن حيص بن عمليق وأنه من العمالقة. وأن حلب في الحقيقة اسم أحد أخوة ثلاثة هم بردعة وحمص وحلب وأن كلٍّ واحد من هؤلاء اتخذ مدينة سُمِّيَتْ باسمه.

الحقيقة أن هذه الروايات والتفسيرات المختلفة تفيدنا في القول إن مدينة حلب مدينة قديمة سواء نُسِبَتْ تسميتها إلى اسم موضع كان إبراهيم (ع) يحلب فيه غنمه أم أنها تسمية أحد العمالقة. ومع ذلك، فإن المعاجم اللغوية العربية تفسِّر الكلمة بما يتعلق الأمر بالحليب فالتعبيرات حلب حلبها أو يحلبها وحلاباً، وأن الحلاب هو اللَّبن. أما التفسير المتعلق بالجباية أو الصدقة فجاء أنه (مما لا يكون وظيفة معلومة وهي الأحلاب في ديوان الصدقات). وأن الكلمة أيضاً بالضمِّ حلب تعني شجرة شديدة الخضرة ومن المحتمل أن تكون الكلمة تشير إلى البياض كبياض الحليب، فقد أورد شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) أن قلعة حلب كانت تسمّى بالشهباء لبياض[1] حجرها. فهل يمكن اعتبار هذا اللون لتكوين تربتها أو حجارتها له علاقة باسمها؟

إن السؤال الذي يفرض نفسه ونحن نتحدث عن حلب (المدينة القديمة) كمدينة عربية إسلامية هو كيف كانت هذه المدينة، أعني طبيعة عمرانها وتركيبها الداخلي وبُنْيَتَها الاجتماعية ووِحْدَتَها المدينية، في الفترة التي حرَّرت الجيوش

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص١٠، ١٢، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٢ ص٢٨٢، شيخ الربوة الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص٢٠٢ ـ ٢٠٣، ابن منظور: لسان العرب (حلب)، دائرة المعارف الإسلامية (ط جديدة) Halap بقلم المستشرق سوفاجيه، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تحقيق سورديل) دمشق ١٩٥٣ ج١ ص١٥ ـ ١٦.

العربية بلاد الشام من سيطرة البيزنطيين؟ وهل أسهم العرب في إيجاد أو تطوير أحوالها التمدنية التخطيطية والعمرانية؟ أم أنهم وجدوا فيها مدينة جاهزة فلم يتمكنوا إيجاد أو إضافة أيِّ وحدات عمرانية إليها؟ وعلى فَرْضِ أن العرب قاموا بهذه المحاولات من زيادة وإضافة عمرانية وتخطيطية، فهل جاءت موافقة لمفهومهم في تخطيط المدن أم خالفته؟ لذلك نجد من الضروري قبل تحديد وضعية مدينة حلب خلال التاريخ الإسلامي، وبالتحديد خلال فترة الفتوحات الإسلامية، أن نتطرَّق إلى وضعيتها عبر الفترات التاريخية القديمة. وهي حالة سنتناولها من جانبين، الأول من خلال التطوُّرات السياسية التي مرَّ بها تاريخ هذه المدينة، والثاني من خلال التطوُّرات العمرانية والاجتماعية والتخطيطية التي شهدتها المدينة وصولاً بالفترة التي حرَّرها العرب المسلمون من سيطرة البيزنطيين.

تشير المصادر الجغرافية والتاريخية إلى أن المدينة تحمل قدسية تاريخية وذلك لوجود مشهد يقصده الناس يقال إن إبراهيم الخليل (ع) كان يتعبد به، ويبيِّن ابن العديم، مؤرِّخ حلب، أن (بيت لاها) هو ذلك الموضع الذي كان يمثِّل محل إقامة إبراهيم الخليل. ويضيف إلى هذا القول إن هذا الموضع يمتاز أيضاً بأن الكنعانيين، وهم من الأقوام السامية، كان لهم بيت لصنم يتعبَّدونه في تل قلعة حلب، فلما صارَ إبراهيم إلى الموضع أخرج الصنم. غير أن هذه الإشارة لا تبيِّن أيَّ مظهر تمدني عمراني للموضع وفيما إذا كان هذا الموضع القريب من التل قد تحوَّل إلى مدينة أو أنه كان مجرَّد موضع لصنم وُضِعَ على مرتفع أو على التل. ولعلَّ الموضع كان على شكل قرية صغيرة. ويبدو أن هذا الموضع أو القرية الصغيرة بدأ يتطوَّر تدريجياً بمرور الزمن لعدة أسباب منها كما وقفنا عليه آنفاً، أسباب دينية تتصل بقصة إبراهيم الخليل (ع) وتعبُّده فيه. وهناك أسباب اقتصادية تتمثل بموقع هذه القرية التي تمحورت حول أو إلى جوار التل فإنها تقع في منطقة زراعية غنية مقارنة بالقرى الأخرى المجاورة حيث تتوافر فيها الموارد الزراعية الذاتية، وهناك أسباب استراتيجية عسكرية وذلك لأن وجود هذا التل الصخري قد جعل الموضع أو بالأحرى التل مكاناً آمناً يقدِّم الحماية لمن يتخذه من أيِّ هجمات. وبالفعل فقد قام هذا التل بهذه الوظيفة

المهمة آنذاك وبشكل خاص عندما بُنِيَتِ القلعة فوقه. حينئذٍ تطوَّرت القرية الصغيرة إلى قرية حصن اتسمت بالقوة والمناعة والحصانة مقارنة بالمواضع المجاورة. وبذلك صار الاستحواذ عليها سياسياً أو فَرْضُ السيطرة السياسية والعسكرية عليها يعني بحدٍّ ذاته بَسْطَ السيطرة السياسية والعسكرية على ما جاور التل والقلعة من قرى ومراكز. والظاهر أن هذه العوامل مجتمعة قد ساعدت على أن تتحوَّل القرية إلى قرية حصن أو قلعة ـ إلى مدينة ـ وبالتالي إلى مدينة ومملكة في آن منذ القرن العشرين قبل الميلاد. فقد أورد سوفاجيه بأن لمملكة حلب علاقات سياسية وديّة مع الحثّيين في أناضوليا. وقد طمح هؤلاء في القرن التاسع عشر قبل الميلاد في السيطرة على منطقة شمال سوريا فكانت مملكة حلب من بين الأهداف التي كانت في خارطتهم السياسية والتي أرادوا السيطرة عليها وضمَّها إلى مناطق نفوذهم. فتعرضت المدينة إلى هجوم حثّي مباشر، تمكّن فيه هؤلاء من دخولها وقَتْلِ أهلها وأَسْرِ الكثير منهم ولم يكتفوا بذلك، بل أحرقوا معالمها. ويبدو أن هذا الهجوم قد أثر تأثيراً سلبياً على أهمية المدينة، فتفيد الأخبار أنها شهدت بعد عام ١٤٣٠ ق.م تدهوراً في أحوالها الاجتماعية والاقتصادية فأهملت الأراضي الزراعية نظراً لمغادرة أهالي المدينة وما جاورها من قرى باتجاه المستوطنات الجديدة التي ظهرت آنئذٍ. ولم يقتصر هذا الإهمال على أحوال المدينة الاجتماعية والاقتصادية، إنما تعدّى ذلك إلى وَضْعِها كمدينة، فقد اختفى ذِكْرُها من التاريخ خلال الفترة الأشورية، ربما أعقب ذلك سيطرة الفرس الأخمينيين وقبل أن تنتهي فترة السيطرة الحثّية تعرضت المدينة إلى غزوٍ ميتاني وآخر فرعوني.

إن تضاؤل أهمية حلب، مدينة ومملكة، اختفاؤها نهائياً عن مسرح الأحداث التاريخية، فلقد استوطنها الآراميون العرب وأصبحت مدينة مقدسة تشتمل على معبد للإله (حدد) إله العاصفة والخصب عند الآراميين. فضلاً عن ذلك فإنها انتعشت ثانية من النواحي السياسية والتمدنية إبان الفترة اليونانية، وبالأخص حينما تشكلت المملكة السلوقية بعد فَتْحِ الاسكندرية، إذ يقال إن الملك نيكاتور Nicator السلوقي قد بنى في موضع مدينة حلب سنة ٣٠١ ـ ٢٨٢ ق.م

مستوطنة مقدونية أطلق عليها اسم بيرويو. وفي رواية أخرى، إن هذا لم يَبْنِ مدينة جديدة إنما طوَّر موضع المدينة نفسه وإنها سُمِّيَتْ بيروه نسبة إلى اسم المدينة المقدونية التي كانت مسقط رأس والد الاسكندر المقدوني. أما ابن العديم فيذكر أن سلوقس قد بنى بالفعل مدينة باروا (تشابه لفظة بيروه أو بيرويو (Beroio) وكذلك مدن اللاذقية وسلوقية وأفامية بعد موت الاسكندر بحوالي اثنتي عشرة سنة. فصار إذن اسم حلب خلال الفترة السلوقية بيروه أو بارو. وقد استمرت هذه المدينة تشهد تطوُّرات عدة خلال فترة السلوقيين ومن أعقبهم من البطالسة، فلما كانت الفترة الرومانية اندمجت مدينة باروا (حلب) بمقاطعة سوريا التي تشكلت سنة ٦٤ ق.م وتضيف الروايات التاريخية القديمة أن الظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك قد وفَّرت الفرصة لهذه المدينة في أن تتطوَّر أحوالها سياسياً واقتصادياً وعمرانياً واجتماعياً، إذ سادت فترة من السلام المنطقة فانتعشت طرق التجارة التي كانت تمرُّ عبر الجزيرة الفراتية، مما ساعد على انتعاش عدد من المراكز والمدن. غير أن ذلك لم يَدُمْ طويلاً ويعود السبب إلى توسُّع أطماع الامبراطورية الفارسية الساسانية وتوجُّهها نحو منطقة بلاد الشام. فكانت مدينة باروا (حلب) واحدة من بين تلك الأهداف التي توجَّهت أنظار الساسانيين نحوها، فقد جرَّد خسرو الأول عام ٥٤٠م حملة عسكرية ضد المدينة وفرض على قلعتها الحصار. وقد قاوم أهالي المدينة حصار خسرو بفضل ما قدَّمته إليهم قلعة المدينة من أمان، ولم يحصد الساسانيون من حصارهم الذي امتد فترة طويلة إلا الفشل، غير أن خسرو انتقم من أهالي المدينة الذين قاوموه من داخل القلعة بأن دمَّر المدينة وخرَّب معالمها ثم أحرقها وعاد إلى بلاده. ومع أن جستنيان الروماني قام بإعادة بناء ما استطاع من وحدات عمرانية في المدينة، غير أن نهب مدينة أنطاكية ثم التهديد الفارسي الساساني المستمر بِغَزْوِها والاستحواذ عليها وقف حائلاً أمام تطوُّر مدينة حلب، فظلَّت على هذه الحالة إلى أن جاءها العرب سنة ١٦هـ/٦٣٦م[1].

(١) عن أحوال المدينة السياسية أنظر ابن العديم: زبدة الحلب ص١٢ ـ ٢٧، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٨٢ ـ ٢٨٣، سوفاجيه، دائرة المعارف الإسلامية، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج١ ق١ ص١٢ ـ ١٦.

بالمقابل، فإن أحوال حلب العمرانية هي الأخرى شهدت تطوُّرات متعدِّدة ومرَّت بمراحل تاريخية مختلفة. فالموضع الذي اتخذت فيه مدينة حلب كان، كما مرَّ ذِكْرُهُ موضعاً يتعبد فيه الكنعانيون ولم يكن آنذاك يحمل صفة المدينة إنما عبارة عن تلٍّ صخري يقع عليه صنم للكنعانيين. ومما جاء ذِكْرُهُ في إحدى الروايات أن تاريخ تأسيس المدينة يرجع إلى أحد ملوك الموصل ويعرف بلوكوس او بلوغوس الموصلي. ومن المحتمل أن يكون ابن العديم قد خلط في روايته بين هذا الملك والملك السلوقي نيكاتور الذي أدخل بالفعل تعديلات طوبوغرافية على مدينة حلب بعد موت الاسكندر المقدوني. وعلى أية حال، فإن فترة حكم ذلك الملك الموصلي كانت في ٣٩٨٩ سنة لآدم. لكننا لا نعرف طبيعة الأعمال العمرانية التي أنجزها هذا الملك في المدينة، فهل ابتنى المدينة كاملة أم أنه بنى بعض الوحدات العمرانية فيها؟ والظاهر أنه، إذا كانت الرواية صحيحة، اتخذ بعض الوحدات العمرانية ثم أخذت تنمو عبر مراحلها التاريخية القديمة منذ أيام الأكّديين. وتحوَّلت أيام الدولة العمورية إلى عاصمة لمملكة يمحاض وبعد ذلك أيام الآراميين حين أصبحت مدينة مقدسة لاحتوائها على معبد لإله العاصفة والخصب، لكن هذه المعلومات لا تبيِّن وضعية المدينة عمرانياً. والواقع أن هذه المعلومات تبدأ تبرز بوضوح أكثر إبان الفترة اليونانية حينما قام سلوقس بتجديد عمارة المدينة وإعادة بناء ما تمَّ تخريبه قبل فترة الاسكندر ويعود الفضل إلى سلوقس هذا في بناء مدن أخرى في بلاد الشام، مما يدلُّ دلالة واضحة على اهتمامه بالجوانب العمرانية، وتحدثنا الروايات التاريخية بأن سلوقس عندما بنى باروا (حلب) ومدن أخرى ألزم اليهود الإقامة بها وقرّر عليهم الجزية. كما يذكر ابن العديم أن بطليموس الاريب الذي ملك بعد وفاة الاسكندر هو الذي بنى مدينة حلب وأطلق عليها اسم أشمونيت. وأن هذا الملك أراد أن يكون في موضع المدينة المياه فأمر المهندسين بأن يجرّوا إليها المياه من عيون تقع في قرية حيلان وهي إحدى قرى حلب. كذلك شجع الناس على عمارة المدينة وابتنى قصراً له في ذلك الموضع الذي صار يُعرف خلال الفترة الإسلامية بمحلّة الريحانيين. وذكر بأن آخر أعماله العمرانية كانت بناء باب مدينة حلب الذي يسمّى باب أنطاكية.

وبالرغم من هذا التباين في الروايات حول مؤسس المدينة أو الذي جدَّد في عمرانها وبنائها، فإن المدينة صارت، اعتماداً على ما ذكره سوفاجيه، مدينة منتظمة لأنها بُنِيَتْ وخُطِّطت على أُسُسٍ منظَّمة واتُّخِذَتْ فيها الشوارع المستقيمة. فضلاً عن ذلك، فإنه قد تمَّ خلال هذه الفترة بناء سورها على شكل مربع، وانتظمت المدينة شبكة من الأنهار والقنوات التي وفَّرت جَلْبَ مياه الشرب من الآبار. والمهم أن هذا التخطيط قد ظلَّ باقياً حتى مجيء العرب الفاتحين. علماً بأن المدينة قد شهدت تطوُّرات عمرانية أخرى إبان السيطرة الرومانية إذ أضاف الرومان إضافات مهمة أمثال مجمعات الأسواق التي تشابه ما كان يسميه الجغرافيون العرب القيساريات، كذلك فإنهم أنشأوا الأغورا في وسط المدينة وشارع الأعمدة، وما زال حي الجلوم في حلب ذي الشوارع المتقاطعة عمودياً، من آثار المدينة القديمة أيام الرومان. وقد صارت حلب عند تحوُّل الرومان إلى المسيحية أبرشية فأقيمت بها الكنيسة الكاتدرائية التي ما زالت موجودة حتى الآن تحت اسم المدرسة الحلوية. ويذكر ابن العديم أن أحد قياصرة الرومان ابتنى قِنَّسرين التي أطلق عليها اسم (مدينة العسكر) وقام بنقل الأسواق من حلب إليها (فلم يبقَ بحلب إلا من لا حاجة للعسكر به)[1]. وطالما نحن بصدد الحديث عن أحوال المدينة العمرانية فمن المفيد القول بأن هناك مجموعة من التلال الأثرية في حلب كتلِّ القلعة وتل العقبة وعين التل وتل النيرب تحتوي على الكثير من الأدلة الأثرية والعمرانية كالمعابد الحثِّية والأختام الأسطوانية من العهد العموري، وغيرها من الآثار التي تمَّ اكتشافها في قلعة حلب[2].

نخلص مما تقدَّم ذِكْرُهُ إلى أن الجيوش العربية الإسلامية عندما فُتِحَتْ مدينة حلب سِلماً وجدوا مدينة عامرة ذات خُطَطٍ ووحدات طوبوغرافية منظَّمة، كما

---

(١) ابن العديم: زبدة ص٢٠، ابن شداد: الأعلاق ص١٦، ٢٣، ٣٠.

(٢) أنظر عن التطورات العمرانية في المدينة ابن العديم ص١٥ ـ ٢٠، ياقوت الحموي ج٢ ص٢٨٢ ـ ٢٨٣، سوفاجيه (دائرة المعارف الإسلامية) كيف ننقذ حلب القديمة: مجلة المدينة العربية عدد ١٥/ ١٩٨٤ ص٤٠. ابن شداد: ج١ ق١ ص١٦ ـ ٣٠.

أنها كانت مدينة مأهولة، إذ إن الروايات التاريخية تشير إلى أن أهلها خافوا الجيوش العربية في بداية الأمر فتحصنوا في القلعة إلى أن طلبوا الصلح والأمان من أبي عبيدة بن الجراح فصالحهم على أنفسهم وأولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي في المدينة. فالعرب المسلمون في هذه الحالة أمام مدينة يونانية رومانية لا تتفق مخططاتها ووحداتها العمرانية اتفاقاً تاماً مع نظرتهم التمدنية في تخطيط المدن التي أسَّسوها كالبصرة والكوفة. فهل أبقوا كل شيء على وَضْعِهِ في المدينة أم أن الضرورة ألزمتهم بمرور الزمن إضافة خُطَطٍ جديدة أو إجراء تعديل أو تجديد في خُطَطِ المدينة ووحداتها العمرانية.

## خطط حلب في الفترة الإسلامية:

صحيح أن مدينة حلب كانت، عندما افتتحها العرب، مدينة مأهولة بالسكان والعمران غير أنها لم تكن ذات أهمية إدارية بارزة خاصة بعد أن دمجها الرومان ضِمْنَ مقاطعة سوريا، فصارت وحدة إدارية تابعة لهذه المقاطعة. على هذا الأساس، فإن دورها الإداري هذا لم يطرأ عليه أيُّ تغيُّر عندما فتحها العرب، إذ إن المدينة مع مدينة قِنَّسرين ظلتا خلال الفترة الإسلامية حتى فترة خلافة معاوية بن أبي سفيان أو فترة ابنه يزيد مضافَتَيْن إلى جند حمص[1]. ويبدو أن المدينة صارت في وقت من الأوقات، كما يذكر ابن حوقل في القرن الرابع للهجرة، مدينة من مدن جند قِنَّسرين[2].

إن موقف الجيوش العربية الإسلامية من مدينة حلب بعد افتتاحها لا يشابه الموقف العسكري تجاه الفرس الساسانيين في العراق، ولا سيما فيما يتعلق الأمر بحاجة العرب الفاتحين إلى معسكرات إمداد وتموين، إذ إن العرب بعد موقعة اليرموك أفلحوا في فَتْحِ أجناد الشام الخمسة جميعاً وهي جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قِنَّسرين. وتقهقر الروم من هذه

(١) ابن العديم: زبدة ص٢٩.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٦٣، أنظر أيضاً ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٧٥.

المنطقة العربية فلم تبرز الحاجة إلى اتخاذ قواعد عسكرية تتوافر فيها صفات الأمصار وأن تكون على طرف البر وقريبة من الريف. فمدن حلب وحمص وقنَّسرين وغيرها من المدن التي كانت محاطة بأراضٍ زراعية وهي فوق ذلك كلّه تتميَّز بحياة تمدنية مستقرة. كما أنها كانت مدناً مأهولة في حين لم تكن البصرة والكوفة مثلاً موجودة قبل مجيء العرب الفاتحين، فلما وضعوا مخططات تلك الأمصار الإسلامية كانوا هم النواة المركزية لسكان كلٍّ من هذين المصرين. ووفقاً لذلك صار تاريخ البصرة والكوفة السياسي والإداري كبيراً ومهماً في الوقت الذي لم تلعب فيه مدينة حلب الدور ذاته ولم تتطوَّر إلى مركز إداري مستقل. ويقال إن يزيد بن معاوية هو الذي مصَّر قنَّسرين وأفردها في جند خاص بها بعد أن كانت وحلب مندمجة في جند مصر. وظلت حلب تابعة إلى قنَّسرين حتى الفترة التي اتخذها سيف الدولة الحمداني مركزاً إدارياً لإمارته.

## المسجد الجامع:

ومع أن وضعية مدينة حلب الإدارية كانت خلال الفترة التي سبقت ظهور الإمارة الحمدانية ثانوية مقارنة بالأمصار الإسلامية التي اتخذت في الفترة التاريخية ذاتها، فإن ذلك لا يعني أن العرب المسلمين قد أهملوا المدينة من النواحي العمرانية والتخطيطية والاجتماعية على اعتبار أنها مدينة قديمة مأهولة بالعمران، كما أنهم يتماهلوا في تحقيق متطلباتهم ورؤيتهم التمدنية والعمرانية الأساسية على الرغم من ثبوت سِمَات مدينة حلب اليونانية والرومانية، إذ تحدثنا المصادر بأن أبا عبيدة بن الجراح بعد أن وافق على طَلَبِ أهالي حلب بالصلح دخلها من جهة باب أنطاكية حيث كان يمثِّل الاتجاه الجغرافي صوب مدينة أنطاكية. ويُعَدُّ هذا الباب من أبواب المدينة المهمة الذي تعرَّض إلى عمليات عدة من البناء والتعمير والتجديد وقد هدمه الملك الناصر صلاح الدين سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وبناه من جديد. المهم أن القائد العربي، أبا عبيدة، بعد أن دخل المدينة من هذا الباب بنى دونه المسجد الجامع، وصار يُعْرَفُ فيما بعد باسم المسجد الغضائري نسبة إلى أحد الأولياء من أصحاب السري السقطي

الذي قيل بأنه قد حجَّ ماشياً من حلب إلى مكة أربعين حجة[1]. وصار هذا المسجد يُعرف زمن ابن العديم بمسجد شعيب. وقد حاول المستشرق سوفاجيه أن يبرز الأثر الروماني في تشييد المسجد الجامع عندما أشار إلى أن هذا المسجد قد بُنِيَ في مدخل شارع الأعمدة الروماني وأن العرب لم يقوموا بشيء مبتكر في بنائه، إذ إنهم ابتنوا سوراً فقط بين هذه الأعمدة فحوَّلوها إلى مكان مغلق فصار مسجداً[2]، وهي حالة معروفة في اختيار العرب في بداية دخولهم المدن الذاتية القديمة مواقع المساجد الجامعة في أماكن غير مكلفة أي لا تكلِّفهم وقتاً وعناء في بناء جديد، وذلك لأهمية أداء فريضة الصلاة والصلاة الجامعة في المسجد وأن عملية بناء مسجد جديد يستغرق وقتاً طويلاً.

ويبدو أن هذا المسجد بقي يلعب دور المسجد الجامع إلى أن بُنِيَ المسجد الجامع الكبير زمن الوليد بن عبد الملك أو سليمان بن عبد الملك. وقد ابتنى الخليفة هذا المسجد في وسط المدينة، إذ قال المقدسي إنه كان في البلد. وقيل إنه اتخذه في الموضع الذي كان يمثِّل قديماً الأغورا الرومانية. وكان مسجداً كبيراً موصوفاً بمتانة البناء وكثرة أساطينه وقد وصف الرحالة ابن جبير وابن بطوطة هذا المسجد وصفاً واضحاً فقالا إنه كان في فترة رحلتهما من أحسن الجوامع وأجملها (قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع مفتح كله أبواباً قصر به الحسن إلى الصحن، عددها ينوف على الخمسين باباً فيستوقف الأبصار حُسْنُ منظرها). وقالا بأن هناك بئرين معيَّنَيْن وأن بلاطه القبلي كان خالياً من المقصورة، مما أدى إلى زيادة سَعَتِه، وقد انبهر ابن جبير من بناء المسجد وزخرفته فقال (وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله، وغرابة صنعته. واتصلت الصنعة الخشبية فيه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حُسْناً على تلك الصنعة الغريبة وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بمسلك السقف وقد قُوِّس أعلاه وشُرِّف

---

(١) ابن العديم: زبدة ص٢٧ ـ ٢٨، ابن الأثير: اللباب في معرفة الأنساب ج٢ ص١٧٤.
(٢) سوفاجيه (مقالة حلب في دائرة المعارف الإسلامية) ط/جديدة.

بالشُّرف الخشبية القرنصية وهو مرصع بالعاج والأبنوس، واتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليها من جدار القبلة دون أن يتبيَّن بينهما انفصال فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا[1]. وقد أشار ابن الشحنة في كتابه (الدرّ المنتخب) أن نور الدين زنكي الذي حارب الصليبيين وانتصر عليهم قد جدَّد في بناء المسجد الجامع ونَقَلَ إليه الأعمدة من مسجد جامع قنَّسرين، ولأجل زيادة مساحة المسجد هدم نور الدين زنكي السوق وأضافه إلى المسجد. ومن المفيد ذِكْرُهُ في هذا الصدد أن حلب تمتعت بفترة ازدهار إبان حكم الأتابكة فكان فيها خلال فترة عماد الدين زنكي ونور الدين زنكي حوالي عشرين مسجداً جامعاً إلى جانب مسجدها الكبير، ويقال إن صلاة الجمعة كانت تقام في جميع تلك المساجد؟[2]. وعندما استولى التتر على حلب دخلوا الجامع وأحرقوا حائطه الغربي فاحترقت المدرسة الحلاوية وسوق البزازين[*].

لقد تأسست في القرن الرابع للهجرة مدرسة إلى جانب هذا المسجد الجامع وَصَفَها أيضاً الرحالة ابن جبير بأنها كانت تتصل بالمسجد من ناحية الغرب وهي مدرسة تناسب الجامع حُسْناً وإتقان صنعة، حتى إن ابن جبير تعجَّب من بنائها فقال إنها (من أحفل ما شاهدنا من المدارس بناء وغرابة صنعة ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً ولها طبقات يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر، فحصل لكلّ طاق من تلك الطبقات قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها..)[3]. ومما له علاقة بهذا الموضوع أن هذه المدرسة ليست المدرسة الوحيدة في المدينة إنما كانت هناك مدارس أخرى أُحْصِيَتْ بأربع أو خمس مدارس.

وإلى جانب المسجد الجامع أيضاً ابتنى نور الدين زنكي مارستاناً (مستشفى) كان يُعرف بالبيمارستان النوري. وقد استشار، قبل بنائه المستشفى، الأطباء

---

(١) ابن جبير: رحلة ص٢٢٧، ابن بطوطة ص٦٥ ـ ٦٦.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص٦٤، نقولا زيادة: مدن عربية ص١٨٢.
أنظر أيضاً قائمة المساجد في حلب عند ابن شداد: الأعلاق ج١ ق١ ص٥٩ ـ ٧٠.

(*) أنظر ابن شداد: ج١ ق١ ص٣٦.

(٣) ابن جبير: رحلة ص٢٢٨، ابن شداد: ج١ ق١ ص١٠٠.

لاختيار أفضل موضع في حلب لبناء هذا المستشفى فوقع اختيارهم على هذا الموضع[1].

## السوق:

كان الرومان قد بنوا في مدينة حلب بعد أن دُمِجَتْ في مقاطعة سوريا مجمعاً للأسواق يسمّى قيسارية. غير أن المصادر لا توضح شيئاً عن هذه القيسارية ونظام توزيع الأسواق فيها أو موقعها من المدينة، ومن المحتمل أن هذه القيسارية كانت تقع إلى الجهة الغربية من الأغورا. ولم يستمر وجود هذا المجمع من الأسواق طويلاً، إذ إن أحد قياصرة الروم قد نَقَلَ هذه الأسواق إلى مدينة قنَّسرين التي ابتناها لأغراض عسكرية حتى إنه أطلق عليها اسم (مدينة العسكر). ولعلَّه من الصحيح القول بأن هذا الإجراء قد أضرَّ بوضعية القيسارية التي سبق أن اتخذها القياصرة قبله في مدينة حلب، فضعفت إمكانياتها ونشاطاتها الاقتصادية. وبقيت حالتها كذلك عندما جاء العرب إلى المنطقة، فلم نسمع كثيراً عن وَضْع أسواق مدينة حلب خلال القرون الإسلامية الأولى، لكن هذا لا يمنع من أنها كانت موجودة. وفي القرن الرابع للهجرة بدأ الانتعاش يدبُّ في أسواق مدينة حلب عندما تحوَّلت وظيفة المدينة من كونها مندمجة بجند قنَّسرين إلى أن صارت أيام الحمدانيين، وعلى وجه الخصوص، أيام سيف الدولة الحمداني، محلَّ إقامة الأمير وتُجبى إليها أموال الدواوين، فَوَصَفَها المقدسي بأنها صارت (مستقر السلطان) وكان دار أو قصر الأمير سيف الدولة[2] الحمداني فيها فانتعشت أحوالها الاقتصادية أيضاً، كذلك وَصَفَها ابن حوقل الذي سبق فترة المقدسي بأنها مدينة عامرة (غاصة بأهلها كثيرة الخيرات) أما بالنسبة إلى أسواقها فإن المدينة احتوت أسواقاً حسنة وكانت أسعار الأغذية فيها وجميع المآكل والمشارب رخيصة[3]. ويَصِفُ ابن حوقل المدينة بكثرة

(١) ابن الشحنة: الدر المنتخب ص٧٠.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٥٥.
(٣) ابن حوقل: ص١٦٣.

فنادقها وحمّاماتها. ومن المعروف أن الفترة التي ذكر فيها ابن حوقل مدينة حلب اتسمت بظهور خطر البيزنطيين في المنطقة، وقد تعرضت المدينة نفسها إلى هجوم بيزنطي حيث قتلوا الكثير من أهلها وفرضوا سيطرتهم عليها حتى إنهم فرضوا الجزية على كل صاحب دار ودكان[١]. وعلى الرغم من الأضرار التي ترتبت نتيجة هذه التطوُّرات السياسية، فإن مدينة حلب ظلت عامرة، إذ إن الرحالة ناصر خسرو قد مرَّ بها خلال رحلته في سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م، فوجدها مدينة عامرة كانت محل تحصيل الضرائب والمكوس لما يمر بها من تجارات من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، واعتاد التجار على الذهاب إليها للتجارة[٢].

إن خير وَصْفٍ لأسواق وقيسارية مدينة حلب موجود في رحلة ابن جبير، إذ إنه يشير إلى أن مجموعة هذه الأسواق كانت تقع، كما هي الحال في المدن العربية الأخرى، إلى جوار المسجد الجامع. فهو يقول بأن القيسارية كانت (مطيفة بالجامع المكرم) وأن كل سماط (أي صف أو سوق فرعية) من هذه القيسارية كان يتصل بباب من أبواب المسجد الجامع. وقد كرَّر ابن بطوطة وَصْفَ ابن جبير في هذا الجانب وقال إن القيسارية كانت تحيط بالمسجد الجامع وإن كل سماط منها كان يحاذي باباً من أبواب المسجد. وأضاف ابن جبير أن القيسارية كانت عبارة عن (حديقة بستان نظافة وجمالاً مطيفة بالجامع المكرم وأكثر جوانبها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شُرَفٌ خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر)[٣]. والظاهر أن الأسواق في هذه القيسارية كانت موزَّعة إلى قيساريات، كما هي الحال في تنظيم الأسواق في المدن العربية الأخرى. بحيث كان المرء يخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى، كما أن هذه

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٢) ناصر خسرو: سفرنامة ص٤٤ ـ ٤٥.
(٣) ابن جبير: رحلة ٢٢٦ ـ ٢٢٧، ابن بطوطة: ص٦٥ ـ ٦٦.

الأسواق جميعاً كانت مسقفة بالخشب (كأنها في ظلال وارفة فكل سوق فيها تقيه الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز[1] تعجباً).

كانت الحركة التجارية في قيسارية حلب نشطة وفعّالة، فقد ذكر ناصر خسرو أن التجار كانوا يقصدون حلب من كل الأنحاء للبيع والشراء، ويستشهد ياقوت الحموي بقيسارية حلب متعجباً بصورة خاصة بالنشاط الاقتصادي التجاري في قيسارية باعة البزّ، وهو من الأنسجة الرفيعة. فقال إن هناك عشرين دكاناً للوكلاء الذين هم متخصصون في بيع هذا النصف من الأقمشة وإنهم كانوا يبيعون في كل يوم ما قيمته عشرون ألف دينار. ويعقّب على ذلك بقوله إن هذا الأمر كان موجوداً من قبل عشرين سنة وما زال باقياً حتى فترته[2]. وبهذا الصدد يذكر ابن الشحنة أن المدينة كانت من المدن المشهورة بصناعة الصابون حيث كان يباع فيها في اليوم الواحد من الصابون ما لا يباع في غيرها من المدن في عدة أشهر. وذكر بأنه إذا ما جلب إلى أسواقها مائة حِمْلٍ من الحرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه. ويقارن هذه الحالة من النشاط الاقتصادي في أسواق القاهرة، إذ أشار بأنه إذا ما جُلِبَ إلى أسواق القاهرة آنئذٍ عشرة أحمال من الحرير فقط فإنها لا تباع في شهر[3].

## القلعة:

اشتهرت مدينة حلب بقلعتها التي يرجع تاريخها إلى فترة موغلة في القِدَم أقدم من تاريخ تأسيس المدينة نفسها. والحقيقة أن هذه القلعة تُعَدُّ العاملَ الأساس في نموّ الموضع المحيط بها إلى قرية ثم إلى مدينة مملكة في التاريخ القديم. وكانت تتمتع بموضع استراتيجي مهم يشرف من خلاله على ما جاورها من قرى ومراكز لوجود المرتفع الصخري الذي يصعب الصعود إليه. وعلى هذا

(١) ابن جبير: ص٢٤٧، ابن بطوطة: ص٦٦.
(٢) ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٨٤.
(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب ص٢٥٠ ـ ٢٥٤، نقولا زيادة: مدن عربية ص١٨٠.

فإنها قد وفَّرت حماية لأهالي المدينة ولعبت دوراً استراتيجياً عسكرياً بالنسبة لأهالي المدينة وربما للقرى المجاورة في حالة بروز أيِّ خطر عسكري. ولعلها صارت منذ القديم الوحدة الطوبوغرافية البارزة والمركزية في تخطيط المدينة قديماً لأنها احتلت وسط المدينة حيث تتوزع على أساسها الوحدات العمرانية الأخرى في داخل المدينة.

ولقد أشار العديد من الجغرافيين والرحالة والمؤرِّخين إلى هذه القلعة ومناعتها وصفاتها، وأطلق البعض منهم اسم الشهباء عليها لبياض حجارة هذه القلعة. فقال عنها ابن حوقل بأنها (قلعة غير طائلة وقد عمرت وقتنا هذا ولجأ إليها في وقت فتح حلب قوم[1] فنجوا). وذكر هذه القلعة أيضاً ناصر خسرو خلال زيارته فَوَصَفَها بأنها قلعة عظيمة جميعها مشيَّد على الصخر، كما ذكرها ناسخ كتاب ابن حوقل الذي زار مدينة حلب سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وقال عنها بأنها قلعة (حصينة منيعة في غاية الإحكام لا يُقدر عليها..)[2]. ووَصَفَها ياقوت الحموي وصفاً مفصَّلاً، إذ قال عنها بأنها كانت مضرب الأمثال في الحسن والمتانة والحصانة، فمدينة حلب أرض منخفضة يقع في وسطها جبل عالي مدوَّر فكانت القلعة مبنية على رأس ذلك الجبل. وكان يحيطها خندق عظيم وقد أنشأ فيها مصانع الماء لتوفيره أثناء الحاجة، كما احتوت على مسجد جامع وميدان وبساتين وفيها منازل كثيرة. وكان ممن اعتنى بهذه القلعة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، إذ عمَّرها وجدَّد في بنائها وأعاد حَفْرَ خندقها وأدخل الحجارة في بناء رصيفها. أما ابن جبير وابن بطوطة فقد وصفا متانتها وشهرتها فقال ابن جبير إن (من كمال خلالها المشترطة في حصانة القلاع أن الماء بها نابع وضع عليها جبّان فهما ينبعان ماء معيناً فلا تخاف الظمأ أبد الدهر والطعام يصير بها الدهر كله.. ويطيف بهذين الجبَّيْن المذكورَيْن سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونهما خندق.. وسورها الأعلى كلُّه أبراج منتظمة.. وكل برج مسكونة وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٦٣.
(٢) ابن حوقل: صورة ص١٦٣، ناصر خسرو: سفرنامة ص٤٤.

الملوكية..)[1] وقد شبهها ابن بطوطة بقلعة رحبة مالك بن طوق بين الشام والعراق، وأبرز حصانتها خلال هجوم قازان التتري على مدينة حلب، إذ إنه فرض الحصار على المدينة ولجأ أهاليها إلى القلعة فاحتموا بها، لذلك ظلَّ قازان محاصراً المدينة والقلعة أياماً لكنه لم يفلح في دخولها فاضطر إلى العودة والانسحاب خائباً[2].

## السور:

يرجع بناء سور مدينة حلب، كما يعتقد إلى زمن البطالسة، فتذكر المعلومات التاريخية أن بطليموس الأريب الذي يعود إليه الفضل في تعمير المدينة بأنه بعد أن بنى قصره أسَّس السور، وكان باب أنطاكية آخر مرحلة من بناء السور على يد بطليموس الأريب. ويبدو أن السور قد تعرَّض إلى عدة عمليات من التجديد والتعمير والإضافة، فقد كانت وضعيته أثناء زيارة ابن حوقل في حوالي منتصف القرن الرابع للهجرة جيدة فوصفه بأنه حصين مبني بالحجارة، غير أنه لم ينفع في إعاقة تقدُّم البيزنطيين أثناء هجومهم على حلب. وأشار المقدسي بعد ذلك إلى أن سور المدينة كان حصيناً وأنه كان يحتوي على سبعة أبواب. ويتفق ناصر خسرو الذي زار المدينة سنة ٤٣٨هـ بأن سورها عظيم لكنه أحصى عدد أبواب المدينة فجعلها أربعة بدلاً من سبعة وذكرها كالآتي: باب اليهود باب الله، باب الجنان، وباب أنطاكية. أما ياقوت الحموي فإنه يدلي برواية مصدرها ابن بطلان ويرجع تاريخها إلى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م أي بعد حوالي سنتين من زيارة ناصر خسرو. وكانت مدينة حلب آنئذٍ عاصمة إمارة بني مرداس العربية فقال إنه عندما زارها في تلك السنة وجدها مسوَّرة بسور من الحجارة البيضاء وكان سورها يحتوي على ستة أبواب، بينما أشار المقدسي إلى أنها كانت سبعة وناصر خسرو بأنها أربعة فقط. والحقيقة أن ياقوت الحموي أشار في موضع آخر من روايته عن مدينة حلب بأن سورها يحتوي سبعة أبواب هي:

---

(١) ابن جبير: رحلة ص٢٢٥ ـ ٢٢٦، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٢) ابن بطوطة: رحلة ص٦٥.

باب الأربعين، باب اليهود وقد جدَّده الملك الظاهر وغيَّر اسمه بعد عمارته إلى اسم باب النصر وباب الجنان، وباب أنطاكية وباب قِنَّسرين وباب العراق وباب السر[1]. الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأن ناصر خسرو قد توهَّم في وَصْفِهِ أبواب سور مدينة حلب.

## أحوال حلب الاقتصادية:

مقارنة بالدور الذي لعبته الأمصار الإسلامية الأخرى كالبصرة والكوفة والفسطاط، فإن مدينة حلب لم تلعب دوراً مركزياً من النواحي السياسية والإدارية خلال الفترة الأموية والعباسية حتى القرن الرابع للهجرة، وبشكل خاص إلى أن اختارها سيف الدولة الحمداني محلًّا لإقامته ومقرًّا لإمارته، والمعروف أن سيف الدولة دخل حلب سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م. ولقد أخذ نجمها، منذئذٍ، يرتفع سياسياً وإدارياً. حتى أضحت مركزاً إدارياً مستقلاً، فصارت قصبة قِنَّسرين واجتذبت الناس من شتى الأماكن. وشجع الحمدانيون الشعراء والأدباء فأطنبوا في وَصْفِ المدينة ومتنزهاتها وضواحيها، وأكثروا من مَدْحِها والحنين إليها.

ويبدو أن الإمارة الحمدانية واجهت تحديات سياسية من قِبَلِ البيزنطيين ولم تنجُ مدينة حلب. فقد تعرضت إلى هجوم بيزنطي قوي سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، لم يفلح الحمدانيون وأهالي حلب في مقاومته، فدخل الروم المدينة بعد حصار شديد. وبدخولهم واجه أهالي حلب مصاعب مرّة، إذ قتل الروم الكثير من الناس وأسروا الباقي ولم ينجُ منهم إلا أولئك الذين فرّوا إلى القلعة واحتموا بها. وجلب هذا الهجوم عوامل الانحلال والاضطراب إلى المدينة، ولم يسعفها

---

(١) أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص١٦٣، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٥٥، ٣٦٠، ناصر خسرو: ص٤٤ ـ ٤٥، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٨٣، ٢٨٦. ويذكر ابن شداد أبواب حلب كالآتي: باب قنسرين، باب العراق، باب دار العدل، الباب الصغير، باب الأربعين، باب التيرب، باب القناة، باب النصر الذي كان يعرف بباب اليهود، باب الجنان، باب أنطاكية، باب السعادة (الأعلاق) ج١ ١٩ ـ ٢٣.

الحظ إذ إن سيف الدولة هو الآخر قرّر تَرْكَها والتحوُّل إلى ميافارقين فصارت حلب بعد موته إلى ابنه سعد الدولة. فشهدت المدينة تقلبات سياسية سريعة زادت من تدهور أحوالها وضَعْفِ أهميتها، يقف على رأسها أطماع البيزنطيين في السيطرة عليها فتعرضت إلى هجمات متكررة من قِبَلِهم فضلاً عن هجمات القبائل البدوية ومحاولات الفاطميين المتكررة في الاستحواذ عليها وضمّها إلى مناطق نفوذهم. وأخيراً فقد اتخذها المرداسيون (بنو مرداس) مقرًّا لإمارتهم خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد. ثم دخلت في حوزة السلاجقة. ويبدو أن أوضاع المدينة العمرانية والسياسية أخذت تنتعش مرة أخرى إبان فترة الأتابكة والأيوبيين.

واعتماداً على أقوال وأوصاف الجغرافيين والرحالة العرب وغيرهم، فإن مدينة حلب اتسمت بعدد من الخصائص والسِّمات الاجتماعية والاقتصادية خلال الفترات الإسلامية المختلفة منها:

١ ـ الملاحظ أن المدينة ارتفع شأنها اقتصادياً حينما نشطت الحركة التجارية في المجتمع العربي بعد حركات الفتح الإسلامي، وقد أشار ابن حوقل صراحة إلى أهمية موقع حلب الجغرافي والتجاري فقال إنها تقع (على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات)[١] وكانت تمر بها عدة طرق تجارية برية ترتبط من خلالها بالمدن والمراكز الأخرى ببلاد الشام فهناك طريق يربطها بقنّسرين تبلغ مسافته يوماً واحداً، ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن حلب، كما مرَّ بنا، كانت خلال القرن الأول للهجرة مندمجة بجند قنّسرين. لكن قنّسرين هذه يبدو أنها أخذت أهميتها تضعف مقارنة بمدينة حلب، خاصة في القرن الرابع للهجرة، فقد وَصَفَ المقدسي قنّسرين بأنها مدينة (قد خف أهلها) ولم يُشِرْ إلى أهميتها ووَضعِها التمدني، ويقدِّم ابن حوقل جواباً شافياً عن أسباب تبدُّل

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٦٣.

أحوالها. فيذكر أن هجوم البيزنطيين عليها قد جلب الدمار والخراب للمدينة (فكأنها لم تكن إلا بقايا دِمَنٍ فديتها من دمن)[1]. وانحطت أمورها أكثر بمرور الزمن فلم تَعُدْ خلال زيارة ناصري خسرو مدينة إنما قرية تبعد حوالي ثلاثة فراسخ عن مدينة حلب.

وارتبطت حلب بمدينة معرَّة النعمان التي وَصَفَها بأنها كثيرة الخير وتشتهر بزراعة التين والفستق والكروم. فكانت تبعد عنها بمسافة يومين. كما كان هناك طريق برّي يربط حلب بأنطاكية التي تبعد عنها بمسيرة ثلاثة أيام وكانت أنطاكية قصبة العواصم. ويربط حلب بالرقة طريق مسافته أربعة أيام، كما ارتبطت بطرق برية بمدينة منبج المشهورة بفواكهها وبالجوز والفستق والكروم وكان زبيبها يُحَمَّل إلى حلب. والمسافة بين حلب وحماة مسيرة ثلاثة أيام، وبينها وبين حمص مسيرة أربعة أيام، وبينها وبين حران مسيرة خمسة أيام، وبينها وبين اللاذقية مسيرة ثلاثة أيام، وبين حلب وجبلة مسيرة ثلاثة أيام وكانت جبلة تقع على ساحل البحر المتوسط، وبين حلب ومدينة طرابلس أربعة أيام. كما يربط حلب بدمشق طريق برّي مسيرته تسعة أيام[2].

ونظراً لأهمية موقع حلب التجاري وارتباطها بالمدن الشامية فضلاً عن موقعها على الطريق البرّي عبر الجزيرة الفراتية، فقد توافد عليها تجّار العراق ومصر والروم وديار بكر وصارت أسواقها تحتوي على بضائع وتجارات تمثّل مختلف البلدان. وجلب هذا الموقع أيضاً الرخاء إلى أهاليها فقد وَصَفَهُم شيخ الربوة الدمشقي بأنهم كانوا (يتنافسون في الملابس والهبات والمراكب والمنازل)[3].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ١٦٤، ناصر خسرو ص٤٥. وقد وصف ابن شداد باب قنسرين في حلب بأنه يقود إلى جهة قنسرين. الأعلاق ج١ ق١ ص١٩.

(٢) أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص١٦٤، ١٧٠، ١٧١، ناصر خسرو: ص٤٤ ـ ٤٥، ياقوت الحموي: ج٢ ص٢٨٤. فيذكر ابن شداد أن باب العراق وباب أنطاكية يقود إلى العراق وباب أنطاكية يقود إلى أنطاكية ج١ ق١ ص٢١ ـ ٢٢.

(٣) شيخ الربوة الدمشقي: نخبة الدهر ص٢٠٥.

٢ ـ لم يقتصر دور المدينة الاقتصادي على موقعها الجغرافي حيث انتفعت منه في توسيع علاقتها التجارية مع المدن والبلدان المجاورة إنما تميَّزت بإنتاجاتها الذاتية التي دخلت كمَوْرِدِ اقتصادي في تجاراتها. فقد وَصَفَها ابن حوقل بأنها (كثيرة الخيرات) إذ كانت مشهورة بزراعة القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والمشمش والتين والتفاح. واشتهرت بصناعة العطور كالماورد المعروف بماوَرْدِ النصيبي الذي لا يوجد مثله والعطر المستخرج من وَرْدِ القرنفل. وكان الماورد يصدَّر إلى مصر. كما ذاع صيتها في صناعة الصابون، وكان هو الآخر يصدَّر إلى بلاد الروم والعراق وديار بكر وقيل عن اتساع تجارته بأنه كان من (أفخر الصابون يباع بحلب في اليوم الواحد منه ما لا يباع في غيرها في الأشهر)، ويقصد من هذا القول أن التجار من مختلف البلدان كانوا يتقاطرون على حلب لشرائه. وقد وَصَفَ ابن بطوطة ضواحي حلب بأنها قرى كثيرة المزارع وأشجار الأعناب والبساتين. بذلك يتضح بأن أهمية المدينة لم تتوقف على كونها مدينة ترانسيت على طريق القوافل من مصر والعراق وديار بكر، إنما انتفعت من هذا الموقع بتصدير إنتاجاتها وتطويرها لتنافس بضائع وإنتاجات المدن الأخرى. ولما كانت المدينة مقصد التجار فقد تميَّزت أسواقها بتوافر البضائع والسلع والتجارات الآتية من الشرق والغرب. حيث يجد الزائر فيها الحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والسنجاب والثعلب، وكذلك البضائع الهندية، وأجناس من الرقيق الشركسي والتركي والرومي.

لم تكن مدينة حلب تعاني من مشكلة عدم توافر مياه الشرب. فقد وُصِفَتْ مياهها بالعذوبة، وكان شرب أهلها من نهر قويق، ولما كان هذا النهر يجف في فصل الصيف فقد استثمر الأهالي الآبار وحفظوا مياه الأمطار في صهاريج.

## الفصل الثامن

# الموصل

مع أن وضعية مدينة الموصل وتركيبها التمدُّني لا يشابه تماماً الوضع التمدُّني لمدينة حلب وامتداد تاريخها إلى القديم وباعتبارها مدينة ذاتية لم يؤسسها العرب الفاتحون، فإن هناك جملة خصائص مشتركة بينهما دفعتنا إلى وَضْعِها ضِمْنَ خطّ تمدُّني واحد.

والخصائص هي:

١ ـ الواقع أن مدينة الموصل التي تعنينا في هذه الدراسة لم تأخذ الموضع الذي سبق أن احتلته المدينة الأشورية القديمة المشهورة في التاريخ، نينوى، لأن هذه المدينة كانت تقع في الجانب الشرقي من نهر دجلة. والمعروف أن مدينة نينوى كانت تقوم بوظيفة المدينة العاصمة خلال الفترة الأشورية غير أنها لم تستمر كذلك، إذ دمَّرها الميديون والبابليون عام ٦٠٨ق.م فلم تَعُدْ موجودة ولم يبقَ منها حتى الوقت الحاضر سوى أطلال. كذلك فإن مدينة الموصل لم تأخذ الموضع الذي استحدث بعد أن دُمِّرَتْ مدينة نينوى الأولى وتأسَّست نينوى الجديدة إزاءها من قِبَلِ الأشوريين بعد أن أطلق الملك الفارسي الأخميني كورش سراحهم من بابل. والمعروف تاريخياً أن هذه المدينة الجديدة ظلّت باقية، على عكس المدينة الأولى، حتى فترة ظهور تيمورلنك المغولي. وكانت تتمتع بأهمية زراعية فضلاً عن أهميتها الدينية الاجتماعية، إذ كانت تحتوي على

دير النبي يونان فقطنها لذلك النصارى والآراميون. ولكنها بعد تلك الفترة من التاريخ أهملت فتبدلت أحوالها التمدنية وصارت عبارة عن قرية صغيرة تدعى النبي يونس نسبة إلى ذلك الدير المقدس كما يقول سليمان صائغ الموصلي. ومع وجود كل هذه الحقائق والأدلّة التاريخية التي تبرز عدم وجود علاقة عمرانية وتمدنية بين نينوى القديمة ونينوى الجديدة من جهة ومدينة الموصل من الجهة الثانية، فإن لموضع مدينة الموصل تاريخاً قديماً أيضاً. إذ كان عبارة عن قلعة أو حصن ربما ترجع جذوره التاريخية إلى أيام الدولة الأشورية، فقد أورد الكتّاب الآراميون اسم مدينة صغيرة تدعى حصن عبرايا أو الحصن العبوري وتقع في الجهة المقابلة لمدينة نينوى القديمة (نينوى الأولى) أي في الجهة الغربية لنهر دجلة[1].

ولعلَّ تأسيس هذه القلعة كان لأمور استراتيجية باعتبارها تقع مقابل مدينة نينوى عاصمة الأشوريين فتقوم بمهمة عملية تتمثل برصد تحركات القوى المعادية من هذه الناحية وكذلك بصدّ أيّ هجمات متوقعة من الجانب الغربي. فيذكر القس سليمان الصائغ بأن هناك في مدينة الموصل في الوقت الحاضر موقعاً يدعى (القليعات) ويقع إلى الشرق من الموصل مقابل تماماً مدينة نينوى القديمة. المهم في الأمر أن هذا الموقع لمدينة الحصن (الحصن العبوري) كان مأهولاً بالسكان والعمران عندما قَدِمَ العرب المحرِّرون، فيقال إن الراهب يشوعياب القسري الذي كان معاصراً للملك الفارسي كسرى أنوشروان (حكم ٥٣١ ـ ٥٧٩م) كان قد بنى ديراً وهيكلاً كبيراً للعبادة وقد اجتذب هذا الدير والهيكل العديد من الرهبان والأهالي. وحينما اعتلى كسرى أبرويز ابن هرمزد كرسي المملكة الساسانية شجّع الناس على الانتقال إلى هذا الموضع والسكن فيه، وزيادة في عملية النقل السكاني هذه، فإنه قام ببناء منازل ودُور ثم سلّمها

(١) أنظر الطبري: تاريخ ج١ ص٥٤٢، ج٢ ص١٨٣، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٣، ٣٣٩، كذلك البلاذري: فتوح ص٣٢٧، سليمان الصائغ: تاريخ الموصل ج١ ص٣٧ ـ ٥٠.

للأهالي المتنقلين مجاناً. وبذلك ساعد على تحويل وضعية هذا الدير إلى مدينة صغيرة[1]. إذن فإنه قد يكون من الصواب أن نرتب مدينة الموصل ضِمْنَ المدن الذاتية التي كانت موجودة قبل مجيء العرب المسلمين، وكانت عبارة عن مدينة صغيرة نَمَتْ وتطوَّرَتْ إلى جوار القلعة أو الحصن أو الدير كما نَمَتْ مدينة حلب حول قلعة التل. ومع هذا، فإن تاريخ مدينة الموصل لا يوازي قِدَمَ تاريخ مدينة حلب.

٢ ـ مما تقدَّم ذِكْرُه، فإن الوضعية التمدنية لمدينة حلب أصلاً قد تشكلت ونما حول قلعتها التي كانت تتَّسم بالمناعة والحصانة فضلاً عن موقعها الاستراتيجي المشرف على المنطقة المجاورة، لهذا كلِّه، كان الأهالي يحتمون بالقلعة أثناء الشدائد. أيضاً فإن قلعة الموصل أو الحصن العبوري أو الموصل نفسها قد تشكلت هيئتها الطوبوغرافية والاجتماعية الأولى حول القلعة الأشورية التي كانت هي الأخرى تتمتع بموقع استراتيجي مهم هدفه الإشراف ورَصْدُ تحركات الأعداء وصدُّ هجماتهم. ومن المحتمل أن الأهالي الذين كانوا يقطنون الموضع قبل مجيء الراهب يشوعياب كانوا يحتمون أيضاً بالقلعة إذا ما داهمهم أيُّ خطر عسكري.

ومع أن العامل العسكري والسياسي قد لعب دوراً مهماً في اتخاذ قلعة حلب التي بُنِيَتْ فوق تلٍّ صخري وَعِر، غير أن هناك عاملاً آخر لا يقلُّ أهمية عن العامل العسكري ألا وهو العامل الديني. إذ كان التل قبل وجود القلعة يحتوي على عنصر مقدَّس فكان للكنعانيين صنم يتعبدونه على هذا التل. أما بالنسبة إلى مدينة الموصل أو قلعة عبوري، فإنها أُنشئت لأسباب استراتيجية عسكرية بشكل رئيس، وقد اتخذ الراهب ديره وهيكله إلى جانب القلعة حيث وفد الأهالي والرهبان للتعبُّد، فكان للعامل الديني أثر أيضاً في تصاعد أهمية الموضع ونموِّه وتطوُّره.

---

(١) أنظر الطبري: ج٢ ص٢٤، ج٤ ص٢١، سليمان الصائغ ج١ ص٣٧ ـ ٥٠، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

٣ ـ كانت كلٌّ من حلب والموصل عند قدوم العرب المسلمين في القرن السابع للميلاد تحتوي على هيئة عمرانية واجتماعية، فكانت حلب مدينة متكاملة تقريباً. أما الموصل فإن هناك روايات عدة تشير إلى أنها كانت مأهولة بالسكان، لكنَّ هيئتها العمرانية لم تبلغ بعد المستوى الذي كانت عليه مدينة حلب. فقد أوضحت الروايات أن هناك حصناً عامراً إضافة إلى الدير والهيكل اللذين أسَّسا من قِبَلِ الراهب، وهناك أيضاً دُور ومنازل الرهبان والأهالي من النصارى. ومن الواضح أن خطط الأهالي والوحدات المذكورة آنفاً كانت تقع حول أو خارج القلعة غير أن معرفتنا قليلة بخصوص الهيئة التخطيطية لمدينة الحصن هذه قبل مجيء العرب.

تعدَّدت الآراء والتفسيرات حول أصل كلمة موصل، كما هي الحال بالنسبة إلى تسميات المدن العربية الأخرى. ومن الممكن حَصْرُ تلك الآراء في مجموعتَيْن:

١ ـ تركز آراء هذه المجموعة على أن أصل الكلمة قديم وهو نسبة إلى مؤسس مدينة الموصل رواوند بن بيوراسف الازدهاق ـ ويذكر الاسم في رواية أخرى بأنه سينوس بن بالوس على أنه أول ملك بنى مدينة نينوى، وفي هذه الفترة كان في الموصل ملك يعاصره سابق بن مالك وأصله من اليمن. وهناك رواية أخرى ضِمْنَ هذه المجموعة تشير إلى أن الموصل كانت قد تأسست زمن الفرثيين وتدعى نوارد شير[1] تعكس هذه الآراء بأن أصل الكلمة غير عربي.

٢ ـ أما أصحاب المعاجم اللغوية العربية والجغرافيون العرب فإنهم اتفقوا على أن أصل كلمة الموصل عربي، يرجع لغة إلى أصل (الوصل) على اعتبار أن الموصل موضع وَصْلٍ بين منطقة وأخرى. ويذكر الجغرافيون أن الموصل وصلت بين الجزيرة الفراتية والشام،

(١) أنظر سليمان الصائغ: ج١ ص٤٢ ـ ٤٣، محمد جاسم حمادي: الجزيرة الفراتية والموصل (بغداد ١٩٧٧) ص٩٦.

وقيل إنها وصلت بين الجزيرة والعراق أو إنها وصلت بين دجلة والفرات، أو بين بلد سنجار والحديثة. ولعلَّ هذا التفسير يتضمن معاني جغرافية واقعية أكثر من التفسير الأول، إذ يصف الجغرافي ابن حوقل مدينة الموصل بأنها كانت (فُرضة لأذربيجان وأرمينية والعراق والشام[1]) وأضاف ياقوت قائلاً بأن الموصل كانت (محطّ الركبان ومنها يُقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يُقصد إلى أذربيجان)، ووَصَفَها في موضع آخر يتعلق بصفات المدن الإسلامية بأن نيسابور باب الشرق ودمشق باب الغرب والموصل (لأن القاصد إلى الجهتين قلَّ ما لا يمرُّ بها)[2]. جميع هذه الأوصاف الجغرافية تدلل على أهمية موقعها الجغرافي وأثره في إضفاء صفة الوصل بين منطقة وأخرى على تسميتها.

بقي علينا ونحن بصدد عَرْضٍ ملامح عن تاريخ مدينة الموصل قبل قدوم الجيوش العربية الفاتحة أن نتطرق إلى وَضْعِها التمدني وبُنْيَتِها الاجتماعية، أنها كانت قبل قدوم العرب مدينة أم مدينة صغيرة أم قرية؟ وما هي الوحدات العمرانية التي كانت موجودة في ذلك الموضع أو بالأحرى ما هي معالمها الذاتية القديمة؟ فالمعروف عند دراستنا مدينة حلب قديماً وجدنا بأن العرب المسلمين قد فتحوها سلماً وكانت المدينة تشتمل على سور ووحدات عمرانية، فهل كانت الموصل كذلك؟ في الواقع أن المعلومات التمدنية عن أحوال الموصل العمرانية خلال تلك الفترة السابقة للفتوحات الإسلامية قليلة لا تسمح بإعطاء صورة واضحة عن وضعية المدينة وفيما إذا كانت مدينة أم قصراً أم حصناً. فالرواية التي سبق ذِكْرُها تفيد بأن الراهب يشوعياب القسري كان قد قطن الموضع واتخذ فيها ديراً وهيكلاً، ثم إن الملك الساساني كسرى أبرويز قد شجَّع الأهالي على سكنى ذلك الموضع فبنى لهم الدُّور مجاناً ومَنَحَهُم إياها.

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥، ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص٢٦.
(٢) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٣.

إن هذه المعلومات لا تفيد كثيراً في البرهنة على أن الموضع كان مدينة، بل على العكس، إنها تؤيد كونه في المراحل التمدنية الأولى وأنه أقرب إلى القرية، لقلّة عدد الأهالي الموجودين وتبعثر خططه وأحواله العمرانية فضلاً عن أن المعلومات تدلُّ دلالة واضحة على أن الأهالي لم يكونوا راغبين في سكنى الموضع إنما دفعهم كسرى ووفّر لهم البيوت لوجود الدير والهيكل. من الجانب الثاني، فإن المصادر العربية توفّر لنا معلومات عن قِدَم العلاقة بين القبائل العربية والجزيرة الفراتية عموماً والموصل خصوصاً، فإن قبيلة تغلب مثلاً بعد حربها مع قبيلة بكر بن وائل في البحرين نزحت شمالاً وسكنت في مناطق سنجار ونصيبين حتى إن هذه المنطقة عُرفت بديار ربيعة، إذ ضمَّت فضلاً عن قبيلة تغلب بطون عديدة من قبائل ربيعة. غير أن هذا لا يعني قطعاً أن قبيلة تغلب وسائر قبائل ربيعة ومضر قد اتخذت موضع حصن العبوري موطناً. وقد استعمل المؤرّخون والجغرافيون العرب تعبيراً يوضح بداية العلاقات التأريخية بين العرب المسلمين وموضع الموصل، فذكر ابن الفقيه الهمذاني بأن (أول من اختطّ الموصل وأسكنها العرب ومصّرها هرثمة بن عرفجة)[1]، ويذكر الطبري أن الاسم هو عرفجة بن هرثمة الفارقي. فالنص يشير إلى ثلاث مراحل تمدنية مرّت بها الموصل تمّتْ جميعها على أيدي عرفجة، فهو الذي وضع خطة المدينة بمعنى أن الموضع كان قبل فترته خالياً من الخطط، أو أن الموضع الذي اختطّه عرفجة كان بعيداً نسبياً عن الموضع السابق (أي حصن العبوري) وربما يكون هذا الاحتمال صحيحاً. أما المرحلة الثانية، فإن عرفجة قام بتوطين وإسكان المقاتلة العرب بعد اختطاطه الموضع، وجاءت مرحلة التمصير أي تطوُّر الموضع إلى مصر أو مدينة معسكر بما يتضمنه مفهوم الأمصار الإسلامية في هذه الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي. علاوة على هذه الرواية، فإن هناك رواية أخرى تبيِّن أن مروان بن محمد الأموي هو أول من (عظَّمها ـ أي الموصل ـ وألحقها بالأمصار[2] العظام). ووَرَدَ تعبير آخر لِما قام به مروان فإنه

(١) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص١٢٨، ١٢٩.
(٢) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٣. أنظر أن مروان بناها ابن الفقيه الهمذاني: ص١٢٨.

بحسب هذه الرواية أول من بناها لا أول من عظَّمها. ومع أن هذه الرواية لا تتناقض كثيراً مع رواية ابن الفقيه الهمذاني إنما تمثِّل التطوُّرات التي مرَّ بها المصر الذي وَضَعَ أُسُسَ تمصيره هرثمة ثم تحوَّل إلى مدينة أكبر ذات مزايا مركزية، لكن المهم في أن هاتين الروايتين لا تشيران إلى أن الموضع كان قد بلغ مرحلة المدينة. وواقع الأمر كما بيَّن القسّ سليمان الصائغ بأن الموصل كانت قبل الفتوحات الإسلامية قليلة العمران. وأن الوحدات العمرانية الوحيدة التي كانت تشتمل عليها آنذاك، كما أوضحها البلاذري وابن الفقيه الهمذاني هي: أ ـ الحصن، بمعنى حصن العبوري، ب ـ بيع النصارى وربما تدخل مسألة دير الراهب والهيكل ضِمْنَ هذا الباب، ج ـ منازل قليلة للأهالي من النصارى ويبدو أنها بقايا للمنازل التي وفّرها الملك الساساني لتشجيع الأهالي على سكنى الموضع، ومن المحتمل أنها كانت تقع على جوار البيع والدير، د ـ محلّة اليهود[1]. أما بالنسبة إلى ما ذكره سليمان صائغ اعتماداً على مصادر أخرى، فإن الموضع كان يحتوي على ثلاث محلّات هي محلّة للفرس ومحلّة للنصارى ومحلّة للجرامقة، ولا نعلم مدى صحة هذه الرواية في الوقت الذي لم يذكرها المؤرّخون الرواد العرب. على أية حال، فإن هذه المحلّات إن صحَّت الرواية فإنها كانت تمثِّل الخطط الرئيسية للموصل وقد انتظمت قرب أو حول الحصن. وتفيد الروايات التاريخية أن هذه الخطط كانت تتصل بالموضع الذي اختطّه هرثمة بشارع رئيس. ومن المفيد ذِكْرُه أن بناء تلك الخطط القليلة والمنازل كان حسبما يبدو قوياً، إذ يشير ابن حوقل بأن أبنية الموصل كانت صلدة مبنية بالحجارة والجصّ[2].

## التحولات التمدنية التي طرأت على الموصل في الفترة الإسلامية:

هناك رواية تاريخية متشابكة الأحداث وفي بعض الأحيان تبدو متناقضة تدور

(1) أنظر البلاذري: فتوح ص٣٢٧ الأزدي: تاريخ الموصل ص١٩٩، ابن الفقيه الهمذاني: ص١٢٨ ـ ١٢٩، سليمان الصائغ: ص٥١.
(2) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥.

حول بداية فتوحات الموصل، إذ يشير جانب منها بأن القائد خالد بن الوليد هو الذي افتتح الموصل سنة ١٢ أو ١٣هـ / ٦٣٤م، في نفس الوقت فإن رواية محمد بن عمر الواقدي في كتابه فتوح الشام تشير إلى أن عياض بن غنم الأشعري هو الذي فَتَحَ الموصل وأخذ منها الغنائم ثم بعدئذٍ وصل خالد بن الوليد لنجدة ومساعدة عياض الذي يبدو أنه واجه مصاعب في فَتْحِ الموصل[١]. ففتحها عنوة بعد ذلك. ومن الناحية الأخرى، فإن هناك بعض المؤرِّخين من يجعل سنة فَتْحِ الموصل ١٦هـ/٦٣٧م، ويشير آخرون خطأً إلى واقعة عياض بن غنم إلى أنها وقعت في سنة ٢٠هـ/٦٤٠م. أما رواية البلاذري فإنها تختلف عما جاء في الرواية السابقة، إذ تعزو أَمْرَ فَتْحِ حصن الموصل إلى عتبة بن فرقد السلمي وأنه فَتَحَ الحصن سنة ٢٠هـ. ويذكر ابن خلدون في تاريخه رواية فتح عياض بن غنم للموصل والجزيرة لكنه يجعلها[٢] سنة ١٨هـ/٦٣٩م وليس (١٢) أو (١٣هـ).

والحقيقة أن هذا التباين والتضارب بين الروايات بشأن فَتْحِ العرب للموصل يعكس، كما وجدنا في مسالة سنة تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط، التحوُّلات التمدنية التي شهدها الموضع خلال عمليات الفتح العربي، إذ إن فَتْحَ موضع الموصل ربما قد تقدَّم تاريخياً على فَتْحِ القلعة أو حصن العبوري، ولتوضيح تسلسل الروايات التاريخية المتعلقة بفتح الموصل، فإن العملية يبدو أنها مرَّت بمراحل أهمها:

١ ـ أن عياض بن غنم الأشعري الذي تولّى مسؤولية فَتْحِ ديار ربيعة وأرمينية وخلاط سنة ١٢هـ/٦٣٣م كان من المفروض أن يلتقي، بعد عملياته، مع خالد بن الوليد إذا اكتملت عملية فَتْحِهِ في الحيرة. وأن عياضاً قد مرَّ على حصن الموصل (حصن العبوري) وربما حسبما يذكر البلاذري أنه فَتَحَ الحصن لكن لفترة مؤقتة، إذ

(١) الواقدي: فتوح الشام ج٢ ص١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢) البلاذري: فتوح ص٣٢٧، الواقدي: فتوح الشام ص١٢٢ ـ ١٢٣.

اجتمع الحصن، أي أهالي الموصل، ضده وأفلحوا في استرداد الحصن إذ خرجوا عليه بالعدد والسلاح وبقي الأمر كذلك إلى أن وصلت إمدادات جيش خالد بن الوليد فاستطاع أن يستولي على الحصن ثانية. وقد ذكر البلاذري أن الحصن لم يكن مسوَّراً وأن خالد بن الوليد هو الذي ذكر نينوى القديمة مشيراً إليها بأنها مدينة يونس بن متي.

ويبدو أن خالداً قد رجع إلى الحيرة مرة ثانية ثم توجه إلى بلاد الشام بعد أن أمره الخليفة أبو بكر بذلك[1].

٢ ـ اعتماداً على أقوال المؤرّخين أن الأحوال في الموصل بقيت على ما هي عليه منذ سنة ١٢ أو ١٣هـ حتى سنة ١٦هـ/٦٣٧م. والظاهر أن عرفجة أو هرثمة قد ترك جبهة الموصل متوجهاً نحو جبهة البصرة لنجدة قوات عتبة بن غزوان وقد أورد الطبري في حوادث سنة ١٦هـ/٦٣٧م أن أخباراً وصلت سعد بن أبي وقاص قائد جبهة الكوفة مفادها أن أهالي حصن الموصل قد تمرَّدوا واجتمعوا على ذلك وتوجهوا نحو تكريت، فَنَقَلَ بدوره هذه الأخبار إلى الخليفة عمر الذي أمر على الفور توجيه عبد الله بن المعتم على رأس جيش نحو الموصل وعيَّن ربعي بن الأفكل العنزي كقائد لمقدمة الجيش والحارث بن حسان الذهلي كقائد على ميمنة الجيش وفرات ابن حيان العجلي على ميسرته وهانيء بن قيس على ساقته، وعيَّن عرفجة بن هرثمة قائداً للخيالة. وتبيِّن الرواية أن قبائل إياد وتغلب والنمر والشهارجة وهم ممَّن سكن ديار ربيعة وديار مضر وممَّن اتخذ الموصل أيضاً، قد كانوا من بين هؤلاء الذين اجتمعوا مع الروم ضد إخوانهم العرب. لكن حميَّتهم العربية لم تسمح لهم بالبقاء إلى جانب الروم فاعتنقوا الدين الإسلامي وبذلك أفشلوا

(١) البلاذري: فتوح ص٣٢٧، الواقدي: ص١٢٢ ـ ١٢٣.

مخطّط الروم في الزحف على تكريت. المهم أنه بعد نجاح المسلمين في موقعة تكريت صار القائد ربعي بن الأفكل العنزي والياً على حرب الموصل، وعُيِّن عرفجة والياً على خراجها[1]. لهذا فإن هذه الرواية تثبت بأن أوضاع الموصل السياسية للفترة من سنة ١٢هـ حتى سنة ١٦هـ كانت مضطربة نوعاً ما، ولعلَّ أهالي الموصل الأصليين، بالاتفاق مع عدد من القبائل العربية التي لم تدخل الإسلام بعد، قد تمرَّدت على الفاتحين العرب الذين اختطّوا موضع الموصل. فخرجت السيادة على المدينة من أيدي المسلمين. وفي سنة ١٦هـ أعيد فَتْحُها ثانية من قِبَلِ القائد عبد الله بن المعتم، ويبدو أن عرفجة قد أرسى معالم الموصل التمدُّنية بعد هذه العملية العسكرية وحينما عُيِّن والياً اختطّ للمقاتلين العرب خططاً وبنى المسجد الجامع. لكن الموصل لم تتحوَّل بعد إلى مصر، إنما كانت عبارة عن معسكر للمقاتلين. ومع ذلك فإن رواية الطبري تعكس أيضاً أن الموصل خرجت مرة ثانية من أيدي الوالي عرفجة.

٣ ـ ففي سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م أورد البلاذري أن الخليفة عمر بن الخطاب قد ولّى عتبة بن فرقد السلمي والياً على الموصل. وتبيِّن هذه الرواية أن مهمة عتبة لم تكن سهلة إذ إنه عند وصوله قاتل أهل نينوى وأفلح في النهاية من أَخْذِ الحصن عنوة. والمقصود بهذا الحصن حصن عبوري أو الموصل، كما عبَّر عن ذلك البلاذري. وبعد استقرار فتوح الحصن، عَبَرَ السلمي نهر دجلة نحو مدينة نينوى القديمة، التي تبدو أنها كانت مأهولة بالسكان، فصالحه أهل هذا الحصن الآخر، أي حصن نينوى القديمة، على أن يدفعوا الجزية والسماح لمن أراد منهم الجلاء عن الحصن. بذلك يكون عتبة بن فرقد السلمي قد حقق إنجازاً عسكرياً متميِّزاً بإكماله فَتْحِ

(١) الطبري: ج٤ ص٣٤ ـ ٣٥.

الموصل (حصن العبوري) ونينوى القديمة، وصالحه أهل الديارات من النصارى على أن يدفعوا الجزية وأتمَّ فَتْحَ القرى المحيطة وجميع معاقل الأكراد وفَتَحَ المرج والقرى المحيطة به أرض باهذري وباعذري وحبتون والمعلة وداسير وبانعاثا وتل الشهارجة والسلق[1]. فقضى السلمي على جميع المحاولات التي كان أهالي المنطقة يقومون بها ضد العرب المحرِّرين في موضع الموصل القريب من حصن العبوري.

* * *

نالت مدينة الموصل وما جاورها اهتماماً مركَّزاً من قِبَلِ الخلفاء الراشدين والأمويين أكثر مما نالته مدينة حلب. ولعلَّ السبب الرئيس في هذا التوجُّه يرجع إلى أن موضع الموصل، كما هي الحال في البصرة قبل التمصير، قد تحوَّل إلى قاعدة عسكرية وإدارية مهمة تنطلق منه الجيوش العربية والإمدادات العسكرية صوب أرمينية وأذربيجان وقلاع الأكراد. ولو رجعنا إلى الوراء قليلاً نرى بأن عياض بن غنم مثلاً قام بمحاولة ناجحة لفتح أرمينية وخلاط وديار بكر وديار ربيعة وأنه بعد أن حقَّق هذه الانتصارات وجَّه عمرو بن جند على رأس حملة استطلاعية نحو الموصل. وأن القائد عتبة السلمي بعد أن أفلح في فَتْحِ حصن الموصل عبر دجلة باتجاه معاقل الأكراد والقرى الأخرى المحيطة بها. ومن بين الأدلّة الواضحة على اهتمام الخلفاء الراشدين بالموصل مسألة تمصيرها. إذ تجمع الروايات أن عرفجة بن هرثمة هو الذي مصَّرها أيام خلافة الخليفة عمر ابن الخطاب وأن هذا الخليفة قد عيَّن سنة ٢٠هـ السلمي والياً على الموصل، وتفيد روايات أخرى بأن الخليفة الثاني قد عيَّن على المدينة سنة ١٦هـ والياً على خراجها وآخر على حربها، كما هي الحال في الوظائف الإدارية في الأمصار الأخرى. واعتماداً على قول اليعقوبي إن الموصل صارت أحد الأجناد الستة التي جنَّدها العرب. وأخيراً وليس آخراً لا بدَّ من الإشارة إلى ما اتفق

(١) البلاذري: فتوح ص٣٢٧.

عليه المؤرّخون من اهتمام آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد بالمدينة عندما جعل لها ديواناً يرأسه بنفسه. وقيل إنه كان أول من عظّم المدينة وألحقها بالأمصار الكبيرة.

ولقد جلبت هذه التحوُّلات الإدارية والعسكرية لجبهة الموصل نتائج إيجابية مهمة بالنسبة إلى المدينة فتكاثر سكانها بتوافد القبائل العربية من الأمصار المجاورة كالبصرة والكوفة من أمثال قبائل الأزد والخورج وتميم وتغلب وطي وكندة وعبد القيس وغيرهم. أما من الناحية العمرانية فقد اتسعت خططها، ولم تعد تشتمل فقط على الخطط الأولى البسيطة التي وَضَعَها عرفجة أثناء ولايته على الموصل. إذ بُنِيَتِ الدُّور والقصور خلال الفترة الأموية من أمثال قصر الحر بن يوسف والي هشام بن عبد الملك على الموصل، وحفرت الأنهار من دجلة لتوفير المياه لأهالي المدينة كما هي الحال في النهر الذي حفره سعيد بن عبد الملك، الذي حمل اسمه فصار نهر سعيد، والنهر الذي حفره الحر بن يوسف لجلب المياه إلى وسط المدينة. وابتنى سعيد للمدينة سوراً، وقيل في رواية أخرى إن مروان بن محمد هو الذي نصب على نهر دجلة جسراً وابتنى السور. ومن بين أعمال مروان العمرانية تنظيم الشوارع والسكك في المدينة. وذكر البلاذري أن صاحب شرطة محمد بن مروان بن الحكم والي الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان قد فرش شوارع الموصل بالحجارة، وقيل إن ذلك كان من أعمال سعيد بن عبد الملك[1].

كان حظ مدينة الموصل أيام الأمويين أفضل بشكل ملحوظ عنه في أيام الدولة العباسية وربما يرجع سبب تضعضع أحوال الموصل خلال الفترة العباسية الأولى إلى مواقف أهاليها السياسية من ولاة العباسيين وبشكل خاص من والي كلٍّ من أبي العباس السفاح وهارون الرشيد. فقد تعرضت على أثر تلك المواقف المناوئة إلى عدة نكبات سياسية جلبت الخراب والانحلال لبعض

---

(١) أنظر البلاذري: فتوح ص٣٢٧ ـ ٣٢٨. الأزدي: تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٦٧) ص٢٤، ٢٧، ٣٢، ٣٦، ابن حوقل: صورة الأرض ص١٤٤، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٣.

معالمها العمرانية، إذ قد تهدَّم سورها مرتين، وقُتِلَ بسبب ذلك الكثير من أهاليها. لكن هذا لم يمنع قيام عدد من الولاة العباسيين بعدد من الإنجازات العمرانية، فقد تمَّ خلال ولاية إسماعيل بن علي بناء المسجد الجامع ويبدو أن هذا الوالي عمَّر أو وسَّع في المسجد الجامع القديم، كما قام الخليفة المهدي بإجراء توسيع آخر على المسجد الجامع بأن ألحق به الأسواق[1] المحيطة.

ظلَّت المدينة تسير سيراً بطيئاً من الجوانب الإدارية إلى أن اتخذها آل حمدان، الإمارة الحمدانية، عاصمة لإمارتهم فانتعشت أحوالها مرة أخرى. وخير شاهد على نهضتها هذه الجغرافي ابن حوقل لأنه كان معاصراً للفترة الحمدانية. فيقدِّم لنا ابن حوقل وصفاً جغرافياً تاريخياً مبرزاً فيه التحوُّلات التي شهدتها المدينة من بينها:

١ ـ كانت المنطقة المحيطة بالموصل خالية من الأشجار الكثيرة والبساتين وعندما تملَّك بنو حمدان شجعوا الناس على غرس وزراعة الأشجار وخاصة أشجار الفواكه، فكثرت الكروم والفواكه الأخرى وغُرِسَتِ النخيل وزُرِعَتْ أنواع مختلفة من الخضروات.

٢ ـ والمهم جداً في هذه التحوُّلات تلك المتعلقة بالنواحي الإدارية، إذ إن المدينة أصبحت أيام الحمدانيين محلَّ إقامة أمير الجزيرة الفراتية ومحلَّ دواوينها حيث صارت الأموال تُجبى إليها. وتنعكس هذه التحوُّلات على النواحي الجغرافية، إذ اتسعت رقعة المنطقة الإدارية التي تشرف عليها المدينة. وكما ذكرنا آنفاً أن والي الموصل صار في نفس الوقت والي الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان. ويقول ابن حوقل أن الموصل صارت تشتمل على أقاليم ورساتيق ومدن كثيرة فكانت (أضعاف أعمال نصيبين في فسحة الأعمال وكثرة الضياع)[2].

---

(١) أنظر الأزدي: تاريخ الموصل ص١٦٧، ٢٥٨، مصطفى عباس: العوامل التاريخية ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٤.

٣ ـ زيادة كثافة سكانها، وقد أبدى ابن حوقل ملاحظة حول البنية الاجتماعية للمدينة بأن أهلها عرب ولهم خطط قبلية فيها وأن أكثرهم من عرب البصرة والكوفة. ومن بين بيوتاتها المشهورة اجتماعياً بنو فهد وبنو عمران وهؤلاء يرجعون إلى قبيلة الأزد، كذلك هناك بنو شخاخ وبنو أود وبنو زبيد وبنو الجارود وبنو أبي خداش والصداميون والعمريون وبنو هاشم.

٤ ـ تزايد أهميتها الاقتصادية بتعدُّد أسواقها التي وُصِفَتْ بأنها كانت واسعة وموزَّعة توزيعاً حرفياً أو مهنياً، وكان كل سوق من هذه الأسواق يحتوي على أكثر من مائة حانوت.

٥ ـ ورافق هذه الأهمية الاقتصادية تطوُّرات تمدنية فكثرت الفنادق والحمّامات والرحاب والساحات في المدينة.

٦ ـ كما رافق التطوُّر الإداري في وظيفة المدينة تطوُّر تجاريّ بحيث إنها أضحت فُرضة لأذربيجان وأرمينية والعراق وبلاد الشام[١].

إن هذه الصورة التي عرضها ابن حوقل عن التحوُّلات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية لمدينة الموصل في القرن الرابع للهجرة تبيِّن بجلاء ارتفاع شأن المدينة واتساع رقعتها الجغرافية والإدارية وكثرة رساتيقها وأعمالها المحيطة بها من أمثال رستاق نينوى ورستاق المرج والقرى المجاورة ورستاق أرض حزه ورستاق سنجار ورستاق باهدار (أو باهدرى) ورستاق معلثايا (ووَرَدَتْ عند البلاذري بانعاثا) ورستاق فيشابور. ولما كان بنو حمدان من الأمراء العرب الذين اشتهروا بميولهم الأدبية والفكرية، فقد تطوَّرت المدينة لتكون سوقاً رائجة للأدب والشعر فاجتمع فيها فحول الشعراء العرب ناهيك عن الشهرة التي كسبها عدد من أمراء آل حمدان أنفسهم في هذا الحقل كَسَيْفِ الدولة وأبي فراس الحمداني.

* * *

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥.

لقد عانت مدينة الموصل بعد أفول نجم الحمدانيين من تقلُّبات وتوتُّرات سياسية أثَّرت على وضعيتها وأحوالها التمدنية، إذ أعقب العقيليون آل حمدان في السيطرة على الموصل وتشكيل إمارة عربية جديدة. فانشغل أمراء هذه الإمارة في حروب ومعارك ضد الديالمة والأتراك، فلم تنلِ المدينة اهتماماً ملحوظاً. وازدادت حدَّة الاضطرابات في المدينة إبان السيطرة السلجوقية على العراق. ومع ذلك فإن الجغرافي المقدسي الذي زار المدينة بعد فترة ابن حوقل بحوالي عشرين سنة وجد المدينة بأنها ما زالت تلعب دوراً بارزاً فقال إن (البلد جليل حسن البناء)، أما أسواقه فكانت هي الأخرى حسنة[1]، ومع ذلك فإنه لم يُشِرْ كعادته عند الحديث عن المدن القصبات، إلى أن الموصل ما زالت مركزاً إدارياً مستقلًا ومحلًا لإقامة الولاة. علاوة على ذلك، فإن التعبير الذي استخدمه (بلد) إنما قد يدل على أنه لم يرَ فيها مدينة كبيرة. وهو يذكر خلال وَصْفِهِ بأن هناك تبدُّلات سلبية في المدينة فقال:

(أ) إن بساتين المدينة كانت بعيدة.

(ب) كذلك فإن مياه النهر بعيدة المستقى، وكانت مياه الآبار مالحة.

صارت بوادر انحلال المدينة التي شخَّصها المقدسي خلال نهاية القرن الرابع للهجرة واضحة فيما بعد ولا سيما إبان فترة العقيليين والسلاجقة. صحيح أن هناك بعض الروايات التي توضح إسهامات عدد من أمراء الإمارة العقيلية غير أنها إسهامات قليلة إذا ما قورنت بالآثار السلبية التي جلبتها الاضطرابات والتوتُّرات السياسية داخل المدينة. فيشير ابن خلّكان مثلاً إلى أن الأمير مسلم ابن قريش العقيلي قد ابتنى سوراً للمدينة[2]، لكن المعلومات التي تمَّ ذِكْرُها تفيد بأن المدينة كانت تحتوي على سور يرجع تاريخه إلى الفترة الأموية ثم تعرَّض إلى الهدم أثناء خلافة هارون الرشيد وأعيد بناؤه ثانية. والظاهر أن

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧ ص٣٥٦، خاشع المعاضيدي: دولة بني عقيل في الموصل (بغداد ١٩٦٨) ص١٩٣.

الأمير مسلم بن قريش العقيلي قد عمَّر هذا السور أو أعاد بناءه بعد أن تصدَّع. وازدادت أوضاع المدينة ارتباكاً وقلقاً خلال أكثر من ثلاثين سنة من سيطرة السلاجقة الذين انشغلوا في نزاعاتهم الداخلية السياسية من أجل السلطة فلم يلتفتوا إلى تطوير أحوال المدينة العمرانية والاقتصادية فتسبب ذلك في خراب البلاد، وتناقص سكان المدن، وتضاءل حجمها العمراني بتحوُّل بعض محلّاتها إلى خرائب مقفرة من الأهالي، حتى إن المؤرِّخ ابن الأثير يشير نقلاً عن أبيه إلى أن المدينة كانت خراباً حينما تسلَّم أمرَ حُكْمِها الأتابكة بحيث إن المرء إذا وقف إلى القرب من محلَّة الطبالين يرى الجامع العتيق ودار السلطان وهما معزولان والمنطقة بينهما خالية من العمران. وذكر أيضاً بأنه كان من الصعب جداً على المرء أن يسير ماشياً إلى الجامع العتيق دون حماية وذلك لأنه صار بعيداً عن العمارة. وكان والد ابن الأثير متعجباً كيف آلت أمور الموصل التي قال عنها إنها كانت (أم البلاد) إلى هذه الحالة. فكانت جميع محلّاتها التي تقع إلى جوار السور خراباً غير معمورة، (وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر، وكان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعدِهِ عن العمارة)[1].

وتتفق المصادر التاريخية على أن الفترة التي حكم فيها الأتابكة مدينة الموصل تُعَدُّ من أهم الفترات التاريخية في حياة المدينة وانتعاش أحوالها في شتى المجالات بعد فترة الحمدانيين. ولعلَّ الصحيح القول بأن الإنجازات التي تمَّت على أيدي عماد الدين زنكي ونور الدين محمود ومن أعقبهما من الأمراء الأتابكة وخلال عهد بدر الدين لؤلؤ تفوق كثيراً الإنجازات التي حقَّقها الحمدانيون في فترتهم وذلك لأن الأتابكة عندما تسلّموا حُكْمَ المدينة كانت في حالة خراب وانحلال، إذ أقفر العديد من محلّاتها ووحداتها العمرانية وضَعُفَ تكوينها الاجتماعي السكاني وانحلَّ دورها الاقتصادي التجاري. فكانت أعمال عماد الدين زنكي بعد أن تسلَّم حُكْمَ المدينة سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م كما يأتي:

(١) أنظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ (ط/القاهرة) ج٩ ص١٣ ـ وكتابه الآخر: الباهر في الدولة الأتابكية (القاهرة ١٩٦٣) ص٧٧.

١ ـ أنه أقام بمدينة الموصل ليصلح أحوالها ويقرّ أمورها الداخلية فولّى نصير الدين دزدارية قلعة الموصل، وبهاء الدين قاضي قضاة البلاد جميعاً.

٢ ـ أقطع العساكر التي ترافقه الإقطاعات.

٣ ـ أعاد بناء دار السلطنة وشجّع الناس على عمارة المدينة. فازدادت بيوت الناس، وتكاثر إقبال الناس على سكنى الموصل، مما أدى إلى تقليص حجم الخرائب التي كانت تسود المدينة. ولقد بنى عماد دار المملكة وقصور السلاطين مقابل الميدان. كما أنه عمل على إعادة بناء السور وزيادة ارتفاعه فازداد الارتفاع بمقدار ما كان عليه السور قبل التعمير وقد ظلّت آثاره باقية حتى فترة المؤرّخ ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) وكذلك فإنه أعاد حَفْرَ الخندق وتعميقه. وقد فَتَحَ في السور الباب المشهور بالباب العمادي. وعاد الجامع العتيق ليكون في وسط العمارة.

٤ ـ وكان الخراب قبل عماد الدين زنكي قد أتى على البساتين أيضاً. لكن حركة العمران في المدينة أثناء حكمه أدت إلى تعمير المدينة وتعمير البساتين في أطرافها فصارت مشهورة بالفواكه كالرمان والكُمَّثرى والعنب والتفاح[1].

وقد شهدت مدينة الموصل تطوُّرات جديدة عندما تسلَّم حُكْمَها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م بعد أن أخذها من فخر الدين الذي استبد بأمور المدينة بعد وفاة عماد الدين زنكي. ومن بين أعمال نور الدين:

١ ـ أنه اتخذ محلَّ إقامته في القلعة وعيَّن سيف الدين على أمر الموصل.

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٧٧ ـ ٧٨، سليمان صائغ: تاريخ الموصل ج١ ص٢١٧.

٢ ـ رفع الضرائب والمكوس التي كان فخر الدين قد فرضها على الناس والتجارات.

٣ ـ تولّى بناء جامع كبير عُرِفَ بالجامع النوري أو الجامع الكبير وقد انتهى من بنائه سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م حيث أقيمت فيه صلاة الجمعة بدلاً من الجامع القديم. وقد وَصَفَه ابن الأثير بأنه كان في نهاية الحُسْنِ والإتقان ويُعَدُّ من أحسن أعمال نور الدين العمرانية.

٤ـ بنى الخانات والأبراج على الطرق التجارية فجلب الأمان للناس والتجار[1]. كما قام عز الدين بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي (المتوفى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) بعدة إنجازات في مدينة الموصل منها أنه ابتنى مدرسة تسمّى بالمدرسة الغربية وتقع بباب دار المملكة، وكانت مدرسة حسنة يدرس فيها على مذهب أبي حنيفة والشافعي ووقف عليها الوقوف. كما أنه فَتَحَ الباب الغربي في الموصل ويقع بين باب كندة وباب العراق. ويبدو أن فَتْحَ الباب الغربي يُعَدُّ مفخرة إذ انتفع بفتحه الناس القريبون منه[2]، وقد زار ابن جبير الرحالة مدينة الموصل خلال الفترة التي كانت فيها المدينة لعزِّ الدين مسعود الأتابكي، فقال إن الموصل (مدينة عتيقة ضخمة، حصينة فخمة) مما يؤكد وجود السور الذي بُنِيَ قبل ذلك. ويقول أيضاً إن بيوت الناس كانت ملاصقة للسور، وهي إشارة إلى تجديد عمران المدينة بعد أن كانت خراباً وغير آهلة بالسكان. كما أنه وَصَفَ قلعة الموصل قائلاً بأنها كانت عظيمة (قد رُصَّ بناؤها رصّاً) وكان يفصلها عن دُور السلطان شارع واسع يقطع البلد من الشمال إلى الجنوب. كما أن المدينة تشتمل على رَبَضٍ كبير فيه الحمّامات والمساجد والخانات والأسواق. وكان لها جامعان، الأول هو

---

(١) أنظر ابن خلكان: وفيات الأعيان (تحقيق إحسان عباس) ج٥ ص١٨٤، ابن الأثير: الباهر ص١٥٤، ١٧٠، ١٧١.

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٨٩، سليمان صائغ: ج١ ص٢١٨.

الجامع القديم أو الجامع الأموي إشارة إلى ذلك المسجد الجامع الذي ابْتُنِيَ أيام الدولة الأموية ثم الجامع الجديد. كما شاهد ابن جبير قيسارية المدينة فَوَصَفَها بأنها سوق واسعة للتجار كالخان تُغْلَقُ عليها أبواب حديدية، وكان حولها البيوت والدكاكين[1].

وقد أورد ابن بطوطة الذي زار المدينة خلال الربع الأول من القرن الثامن للهجرة وَصْفاً للمدينة مشابهاً لوَصْفِ ابن جبير فكانت قلعة الموصل، التي سمّاها بقلعة الحدباء عظيمة الشأن (عليها سور محكم البناء) وكان يفصلها عن دُور السلطان شارع واسع. أما المدينة فيقول ابن بطوطة إنها كانت محاطة بسورَيْن كبيرَيْن لا يشابههما أسوار إلا أسوار مدينة دهلي. ويبدو أن ابن بطوطة قد قصد بالسورَيْن، ذلك الذي كان إبان الفترة الأموية والسور الآخر المرتفع الذي بُنِيَ أثناء عهد الأتابكة. كذلك أشار ابن بطوطة إلى رَبَضِ مدينة الموصل وما يشتمل عليه من مساجد وحمّامات وفنادق وأسوار. ووَصَفَ سوق قيساريتها بأنها (مليحة) تحتوي على أبواب حديدية وتقع حولها دكاكين متقنة البناء[2].

وقد اعتنى الأتابكة وبدر الدين لؤلؤ (فترة حكمه من ٥٧٦ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٨٠ ـ ١١٩٣م)، ببناء المدارس كمدرسة النظامية ومدرسة المعزية نسبة إلى عز الدين مسعود والمدرسة النورية نسبة إلى نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود، والمدرسة القاهرية التي أُنْشِئَتْ زمن بدر الدين لؤلؤ والمدرسة التي أسَّسها بدر الدين أيضاً[3].

## خطط مدينة الموصل:

كما ألمحنا في بداية الحديث عن الموصل بأنها، على الرغم من تمتُّعها بتاريخ قديم يرجع إلى تاريخ بناء قلعة عبوري وفيما بعد الفترة الساسانية وأن

---

(١) ابن جبير: رحلة ص٢١٠ ـ ٢١٢.
(٢) ابن بطوطة: رحلة ص٢٢٨.
(٣) أنظر ابن الأثير: الباهر ص١٨٩، د. سوادي عبد محمد: إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ (ط١/ ١٩٧١) ص٢٠٢ ـ ٢٢٢.

بُنْيَتَها الاجتماعية السكنية قد تمركزت حول هذه القلعة (أو الحصن)، فإن الموضع الذي اتخذه العرب كمعسكر أثناء الفتوحات الإسلامية قد كان نتيجة من نتائج هذه العمليات العسكرية. إذ إن وصول الجيوش العربية الإسلامية إلى منطقة الجزيرة الفراتية والموصل، واهتمام الخليفة الثاني بإعطاء صفة الاستقلال الإدارية للموضع بجعله مصراً من الأمصار الإسلامية الأولى وتعيين والٍ للحرب وآخر للخراج عليه، ثم اعتبار هذا المصر الجديد أحد الأجناد الستة بتحديد وظيفته في إمداد الجيوش الفاتحة لمناطق أذربيجان وأرمينية وقلاع الأكراد، كلُّ ذلك يوفر أدلّة للتوجُّه نحو جَعْلِ العوامل العسكرية هي العوامل الأساس في اختيار العرب لموضع المدينة. ووفقاً لذلك، يذكر البلاذري أن عرفجة بن هرثمة هو أول من اختطَّ المدينة ومصَّرها وأنزل العرب في مساكنهم فيها. وبالرغم من عدم توافر أدلّة صريحة تفيد بأن الموصل قد اتُّخِذَت وفقاً للسّمات العسكرية الاستراتيجية التي توافرت في الأمصار الأخرى كالبصرة والكوفة وأعني بذلك أن يكون المصر على طرف البرّ وقريب من الريف، وأن لا يفصله أيُّ نهر أو بحر، فإن اختيار عرفجة لموضع مدينة الموصل قد يشير إلى أنها اتُّخِذَت كذلك لأنها كانت أقرب إلى البرّ وبعيدة نسبياً عن القلعة أو حصن عبوري، فهي لم تُتَّخَذْ إلى جوار القلعة القديمة، كما أنها كانت بعيدة عن مدينة نينوى القديمة التي كانت عَبْرَ نهر دجلة. علاوة على ذلك، فإن بُنْيَتَها الاجتماعية السكانية تمثلت بشكل رئيسي بالقبائل العربية المختلفة التي وفدت من البصرة والكوفة والجزيرة العربية منذ مراحلها التأسيسية الأولى، كل هذه العناصر تؤكد لنا بأن العرب الفاتحين قد استحدثوها أيضاً.

## المسجد الجامع:

تشير المصادر إلى أن عرفجة بن هرثمة قد ابتنى المسجد الجامع عندما وَضَعَ خطط الموصل وأسكنها القبائل العربية. ويبدو أن بناء المسجد الجامع وتوزيع خطط المقاتلين المرافقين لعرفجة جاء في فترة واحدة. غير أنه لم تتوافر معلومات حول الأسلوب الذي اتُّبعه في توزيع المقاتلين على الخطط لأننا نجهل أيضاً الموضع الذي اتخذ فيه عرفجة المسجد الجامع وعلاقته بتلك الخطط من

الناحية الطوبوغرافية. ومن المحتمل أنه كان في وسط الموضع أيضاً آخذين بنظر الاعتبار بساطة البناء في هذه المرحلة وقلّة عدد المرافقين لعرفجة باعتبار أن حَمْلَتَهُ لم تكن حملة رئيسية موجَّهة ضد حصن الموصل، إنما كانت موجَّهة لفتح مدينة تكريت.

على أية حال، فقد شهد هذا المسجد عمليات من البناء والتعمير والتوسيع أثناء الدولة الأموية وصار يحتوي على أبواب عديدة ويشير ياقوت الحموي أن ذلك كلَّه قد أنجز خلال خلافة مروان بن محمد. والظاهر أنه صار واسعاً بعد أن كان بسيطاً وصغيراً إذ يَرِدُ ذِكْرُهُ خلال ثورة أهالي الموصل على والي العباسيين، محمد بن صول في سنة ١٣٢ أو ١٣٣هـ/ ٧٥٠ أو ٧٥١م. وأن عدد من قُتِلَ من أهالي المدينة داخل هذا المسجد بعد أن وفَّر لهم الأمان، بحسب رواية المقريزي (أحد عشر ألفاً ممَّن له خاتم وممَّن ليس له خاتم خلق كثير)[١].

وقد تعرَّض أثناء الفترة العباسية إلى تحسينات وإضافات جديدة، إذ يشير الأزدي إلى أن الخليفة العباسي المهدي قد وسَّع المسجد الجامع وذلك بإضافة الأسواق المحيطة به إلى بنائه الأصلي. وقد تمَّت عملية التوسيع هذه سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م، بأن زاد الصفاف الدائرة بالصحن وكان موضعها حوانيت[٢] للمسجد وسوقاً لأهالي المدينة. ومع ذلك، فإن هذا المسجد صار يُعرف عند أهالي الموصل حتى الفترة التاريخية المتأخرة باسم المسجد العتيق أو المسجد الأموي. وهناك استشهاد تاريخي يبيِّن بأن هذا المسجد العتيق أو الأموي كان يحتل موضعاً في وسط المدينة، إذ يذكر ابن الأثير أن المسجد العتيق ودار الإمارة كانا قبل فترة حُكْم عماد الدين زنكي بعيدَيْن عن العمارة، وعندما شجَّع عماد الدين الناس على البِناء والعمران صار المسجد الجامع وسط العمارة.

---

(١) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم (النجف ١٩٦٦) ص٥٢ ـ ٥٣، حمادي: الجزيرة الفراتية ص٣٤١.
(٢) الأزدي: تاريخ الموصل ص٢٤٨.

وقد بقي هذا المسجد الجامع العتيق هو المسجد الوحيد الذي تقام فيه صلاة الجمعة في الموصل، ويؤيد ابن الأثير ذلك عند حديثه عن المدينة والمسجد الجامع قبل فترة عماد الدين زنكي. مع هذا، فإن هناك أدلّة تبيِّن وجود مساجد أخرى، علاوة على هذا الجامع كالمسجد الذي بناه سليمان بن علي والي الخليفة المنصور. والواضح أن تأسيس الجامع النوري المنسوب إلى نور الدين محمود الأتابكي المعروف بالمسجد الجامع الكبير قد قلّل من أهمية المسجد العتيق، لكن دوره لم ينتهِ نهائياً إذ إن كلًّا من ابن جبير وابن بطوطة يشيران إلى أن هناك جامعَيْن أحدهما الجامع الجديد وهو الجامع الكبير والآخر الجامع الأموي. ويؤكد سليمان صائغ أن الجامع المصفى الحالي المنسوب إلى الحاج محمد مصطفى الذهب هو عبارة عن جزء من الجامع العتيق.

المهم أن الجامع الكبير صار هو الجامع المركزي للمدينة، إذ يقول ياقوت الحموي بأنه كان في وسط السوق وفي طريق الذاهب والقادم. بينما صار الجامع القديم على نشزٍ من الأرض في صقع من أصقاع المدينة[١].

دار الإمارة:

لم تذكر الروايات التاريخية الأولى أن عرفجة قد اتخذ دار إمارة إلى جانب المسجد الجامع عندما اختطَّ خطط الموصل الأولى. غير أن هناك رواية تؤكد أن والي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، الحر بن يوسف بن الحكم، عندما قَدِمَ إلى المدينة بعد تَعَيُّنِهِ أجرى جملة أعمال من بينها حَفْرُ نهر يتفرَّع من نهر دجلة ليمرَّ وسط المدينة، كما أنه ابتنى داراً له وأدخل عليها الزخارف وزيَّنها بالتصاوير ونقشها بخشب الساج والفسيفساء والرخام وأدخل في بنائها الحجارة الملوَّنة، فلذلك صار هذا القصر أو الدار يسمّى بالدار المنقوشة. وقد حدَّد موقعها المؤرِّخون بأنها كانت تمتد من سوق القتابين إلى الشارع المعروف بشارع الشعاريين ثم إلى سوق الأربعاء وبعدها إلى سوق الحشيش. والظاهر أن هذا القصر هو قصر خاص بالوالي الحر بن يوسف لا دار الإمارة التي

---

(١) ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٤.

نقصدها، وذلك لأن يحيى بن محمد أخ الخليفة العباسي السفاح عندما تولى ولاية الموصل من قِبَلِ أخيه على أثر ثورة قام بها أهالي المدينة على الوالي العباسي السابق المعروف بمحمد بن صول سنة ١٣٢هـ أو ١٣٣هـ، قَدِمَ المدينة ونزل في قصر الإمارة التي حدَّد المؤرّخون موقعها إلى جوار المسجد الجامع، في نفس الوقت، فإن محمد بن صول، الوالي السابق، كان قد اتخذ قصر الحر ابن يوسف. مما يؤكد أن قصر الحر بن يوسف لم يكن دار الإمارة التي كانت مبنية وفقاً لهندسة العرب في اتخاذ دُور الإمارة إلى جوار المسجد الجامع. وأن الرواية تدلل أيضاً بأن هناك داراً للإمارة قرب المسجد الجامع. ويبدو من مجريات الأحداث السياسية التي رافقت ثورة أهل الموصل على الوالي محمد ابن صول أن قصر الحر بن يوسف لم يكن واقعاً في وسط المدينة، وعلى أغلب الظن أنه كان خارج سور الموصل[1].

ومما وَرَدَ أيضاً بشأن دار الإمارة أن أحد القواد العسكريين الذين رافقوا جعفر ابن الخليفة المنصور أثناء توجُّهه إلى الموصل قد ابتنى قصراً كبيراً في الجانب الأسفل من الموصل وكان يُعرف بقصر حرب نسبة إلى اسم ذلك القائد حرب بن عبد الله وهو من أكابر القواد. وحدَّد سليمان صائغ موضع القصر اليوم عند قرية قنيطرة[2]. والحقيقة أن جعفر بن المنصور قد اتخذ دار حرب هذا قصراً له. ومن المحتمل أن دار الإمارة صار فيما بعد خلال فترة الحمدانيين والأتابكة ضِمْنَ مجموعة الدُّور التي تسمّى دُور السلطنة أو دُور السلطان، وكما أطلق عليه ابن حوقل (مسكن السلطان) الذي كان يتصل بقلعة الموصل بشارع واسع.

### خطط الأهالي:

إن المصادر لا توفّر لنا معلومات تتعلق بالهيئة التخطيطية لمدينة الموصل

---

(١) أنظر: الأزدي: تاريخ الموصل ص٢٤، ٢٧، ١٤٥، ١٤٦، سليمان الصائغ: ج١ ص٧٠ ـ ٧١.

(٢) أنظر: الأزدي: تاريخ الموصل ص ـ ١٥٦، ١٩٤، سليمان الصائغ ج١ ص٧٠ ـ ٧١.

عند التأسيس وأن جميع الأدلّة المتوافرة عن فترة عجرفة والأعمال التي قام بها والفترة التي أعقبته تبيّن أن هذا القائد عندما خطّط الموضع أنزل الناس في منازل واختطّ لهم الخطط. لذلك فإنه لا يستبعد قد تأثر بتخطيطات البصرة والكوفة فجعلها على أساس قبلي أيضاً لكنها لم تتخذ بعد شكلاً منتظماً. ومن بين الأدلّة التاريخية التي تؤيد ما ذهبنا إليه ورود إشارات إلى عدد من القبائل أو البطون ومحلّاتها كانت تقطن في داخل المدينة وتقع خططها على وجه التحديد بالقرب من المسجد الجامع، فكانت مثلاً منازل وخطط بني سليمة تقع بالقرب من أحد أبواب المسجد الجامع هو باب سنجار، واختطّت بطون من قبائل تغلب خططها بالقرب من باب العراق في محلّة اتخذت اسم محلّة التغالبة، واختطّت قبيلة الأزد خططها قرب المسجد الجامع أيضاً، كما سكن بنو شيبان في الرَّبَضِ الأعلى. وهناك محلّة تحمل اسم محلّة الطمثانيين وهؤلاء من القبائل الأزدية اليمانية، وهناك سكة تحمل اسم سكة جماع سكنتها بطن من بني سليمة وبنو أبي السرداح، وسكن بنو الحشاش من سليمة السكة الكبيرة، ونزل بنو الرواد محلّة تعرف بمحلّة بني عمران. وفي الرَّبَضِ الأسفل من المدينة تقع قطائع بني وائل. واتخذ بنو السماك خططهم في سكة تُعْرف بسكة السند[1]. وقد احتوت خطط المدينة بالإضافة إلى المحلّات والسكك القبلية محلّات قديمة كانت موجودة في الموضع قبل مجيء العرب المسلمين وتحرير المنطقة، من بينها محلّة اليهود وكانت لهم فيها كنيس. ثم محلّة النصارى، ومحلّة الفرس[2]. ويبدو أن هذه المحلّات كانت تقع إلى جوار قلعة الموصل، ولكنها مهمة بالنسبة إلى خطط أهالي المدينة إذ تكشف لنا عن أن بعض خططها قد اتُّخِذَ على أساس ديني أو عنصري.

ويؤكد ابن حوقل هذا التوزيع السكاني القائم على الأسلوب القبلي في المدينة، إذ يذكر أنها كانت تحتوي على بيوتات وأقوام مشهورة في المجتمع من

---

(١) أنظر: الأزدي: تاريخ الموصل ص١٥٦، ١٩٤، سليمان الصائغ ج١ ص٧٠ ـ ٧١.
(٢) أنظر البلاذري: فتوح ص٣٢٧، بنيامين التطيلي: رحلة ص١٢٧، د. فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل وحلب (بغداد ١٩٧٠، ج١ ص١٧٨ ـ ١٨٠).

أمثال بني فهد وبني عمران وقد سبق ذِكْرُهُم بأن هناك محلّة تحمل اسمهم هي محلّة بني عمران يقطنها بنو الرواد. ومن البيوتات أيضاً بنو شحاخ وبنو أود وبنو زبيد وبنو الجارود وبنو أبي خداش وبنو هاشم ودور قريش وغيرهم، ويبدو أن لكلٍّ من هؤلاء خطة أو محلّة خاصة بهم ومسجد.

كان في الموصل شارع رئيس واسع يربط المدينة بالقلعة، أو بالأحرى يربط دار الإمارة والمسجد الجامع على اعتبار أنها وسط المدينة بالقلعة. وقد أورد المقدسي قائمة بأسماء بعض الدروب المهمة في المدينة، وأن دراسة أسماء هذه الدروب تعكس لنا أيضاً بأن بعضها يحمل أسماء أشخاص أو قبائل أو مواضع وبالأخص الديارات وهناك دروب تحمل أسماء مِهَنٍ أو حِرَف، ومن بين هذه الدروب درب الدير الأعلى، ودرب باصلوت ودرب الجصاصين ودرب الدباغين ودرب بني ميده ودرب رحى أمير المؤمنين ودرب جميل وهناك سكك أخرى لم يذكرها المقدسي، منها سكة جماع وسكة خاقان وتقع بين مسجد موسى بن مصعب ومسجد آخر وسكة السري وسكة السند[1].

لقد استخدم أهالي الموصل الحجارة والجصّ كمادتَيْن رئيسيَّتَيْن في بناء دُورهم وأبنيتهم، وكانت بيوتهم كما يقول ابن حوقل كبيرة غناء، وأضاف ياقوت الحموي قائلاً إنها (حسنة جيدة وثيقة بهية المنظر). وقد أدخلت مواد إنشائية أخرى في بناء وتزيين البيوت كالنورة والرخام. فجاء وَصْفُ بيوت الأهالي بأنها جميعها كانت (أزاج وسراديب مبنية) حتى إن أهالي المدينة قلّما كانوا يستخدمون الخشب في بناء سقوف بيوتهم[2].

## أسواق المدينة:

مما اشتهرت به مدينة الموصل كثرة وتعدُّد أسواقها وانتظام توزيعها بحسب الحِرَفِ والتجارات. فيقول ابن حوقل بأن أسواق المدينة كانت واسعة (وكان

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣٨، الأزدي ص٩١، ١٤٧، ٣١٢.
(٢) أنظر ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥، ياقوت الحموي: ج٥ ص١٢٤.

بها لكل جنس من الأسواق الاثنان والأربعة والثلاثة، مما يكون في السوق المائة حانوت وزائد)[1]. ويضيف المقدسي إلى ذلك قوله بأنها كانت أسواقاً حسنة.

هناك أدلّة تاريخية تبيّن موقع هذه الأسواق الأولى في المدينة، إذ كانت حول أو جوار المسجد الجامع، فيذكر الأزدي في تاريخه أن الخليفة المهدي عندما أراد أن يوسع مساحة المسجد الجامع في المدينة زاد فيه الصفاف الدائرة وهي بالأصل كانت عبارة عن مجموعة أسواق وحوانيت للمدينة. وشملت هذه الزيادات مما يلي السوق الداخل إلى سوق البزازين ومما يلي باب جابر في المسجد الذي يؤدي إلى سوق السراجين ومما يلي جهة القبلة حيث سوق السقط وأصحاب المطابخ التي يطبخ فيها للناس أيام شهر رمضان[2]. ويؤكد الأزدي أيضاً فكرة أن أسواق مدينة الموصل كانت تقع حول المسجد الجامع، فكان كل باب من أبواب المسجد الجامع يقود إلى سوق أو أصحاب مهنة أو حِرفة. ومن المحتمل أن هذه المجموعة من الأسواق التي تتمحور حول المسجد الجامع كانت هي الأسواق الرئيسة في المدينة لكنها لم تكن الأسواق الوحيدة. فقد وَرَدَ ذِكْرُ سوق يقع إلى القرب من جسر المدينة، أي باتجاه الشرق نحو نهر دجلة ويسمّى سوق الحر ولعلَّ التسمية ترجع إلى والي المدينة الحر بن يوسف في الدولة الأموية. ثم إن الحر هذا قد بنى قصره المعروف بالدار المنقوشة في مكان تحيطه الأسواق، فهناك سوق القتابين الذي يقود إلى سوق الشعاريين وسوق الأربعاء وسوق الحشيش. وكان هناك سوق للدواب يقع إزاء دُور قريش. وهناك سوق للطعام يقع في ناحية دُور أبي[3] وهب وهو سوق يجاور سوق الحشيش المذكور آنفاً.

لقد طرأ على مجموعة الأسواق الأولى للمدينة المحاطة بالمسجد الجامع تحوُّل أيام العباسيين، إذ قام والي الخليفة أبي جعفر المنصور،

---

(1) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣٨.
(2) الأزدي: تاريخ الموصل ص١٦٦.
(3) ن. م: ص٢٤، ٢٠٤، ٣٦٣.

إسماعيل بن علي، بِنَقْلِ هذه الأسواق إلى منطقة مقبرة الموصل ويبدو أنها كانت داخل المدينة لأن الأزدي يقول بأن إسماعيل هذا قد نَقَلَ المقبرة إلى الصحراء وخارج الدروب. بذلك نستشف من هذه الرواية أن الوالي إسماعيل هدف إلى إبعاد الأسواق من دار الإمارة والمسجد الجامع إلى موضع بعيد نسبياً، لكننا نجهل العامل الذي دفعه إلى ذلك وربما يكون سياسياً. المهم أن عملية نَقْلِ الأسواق قد ثبَّتت موضع هذه الأسواق مكان المقبرة وبقيت كذلك حتى فترة متأخرة، إذ يقول ياقوت الحموي بشأن الجامع الكبير الذي أسَّسه نور الدين زنكي الأتابكي المعروف بالجامع النوري بأنه كان يقع في وسط السوق على طريق الذاهب والقادم في حين كان الجامع القديم الأموي يقع في صقع من أصقاع المدينة وعلى نشز من الأرض[١].

كانت أسواق مدينة الموصل كما ذكرنا موزَّعة توزيعاً منتظماً فقد كان كل سوق يضم نوعاً من المِهَنِ والحِرَف، فهناك إشارة إلى سوق لبيع المواد الغذائية هو سوق الطعام وآخر لبيع المواشي والدواب يحمل اسم سوق الدواب، وهناك سوق للشعاريين وآخر للأساكفة وسوق للبزازين وسوق للدباغين وسوق للجصاصين وسوق لباعة السقط وسوق للسراجين.

ولم يقتصر الأمر على الأسواق كمحلَّات للنشاطات التجارية داخل المدينة إنما وَرَدَ ذِكْرٌ لقيسارية كانت في الموصل. وقد شاهدها ابن جبير في القرن السابع للهجرة ووَصَفَها بأنها كانت كبيرة وواسعة كالخان العظيم، وتحتوي على أبواب عدة، لها بوابات حديدية تُغْلَقُ ليلاً، فكانت بالإضافة إلى ما تحتويه من أسواق فرعية ومحلَّات في داخلها تحتوي على دكاكين كثيرة للتجارة محيطة بها من الخارج فضلاً عن بيوت للأهالي[٢].

إن هذا التعدُّد في أسواق المدينة وقيسريتها يدلل لنا بوضوح نشاط المدينة الاقتصادي والتجاري منتفعة من موقعها التجاري كمدينة وَصْلٍ بين الجزيرة الفراتية والعراق وبلدان أخرى.

---

(١) أنظر الأزدي: تاريخ الموصل ص١٦٦ ــ ١٦٧، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٤.
(٢) ابن جبير: رحلة ص٢١١.

## أوصاف مدينة الموصل التجارية:

الراجح أن القائد عرفجة عندما وضع اللَّبِنات الأولى لخطط المدينة لم يكن يهدف إلى تأسيس مدينة تجارية توصل بين أذربيجان وأرمينية من جهة والجزيرة وبلاد الشام من جهة ثانية. لكن الموضع كسب هذه الأهمية بمرور الزمن ونتيجة لجملة تطوُّرات شهدها المجتمع العربي منذ القرن الثاني للهجرة فصاعداً. إن تزايد حجم عمليات البيع والشراء والتبادل التجاري بين البلدان قد أبرز بالفعل أهمية موقع مدينة الموصل جغرافياً فصارت مدينة ترانسيت في عالم التجارة. وليس غريباً أن يَصِفَها ياقوت الحموي بأنها فُرضة لأذربيجان وأرمينية والعراق وبلاد الشام. ولم يقتصر الأمر كذلك إنما صارت محطة تحيط بها القوافل التجارية المتوجِّهة شرقاً أو غرباً، فهي باب العراق ومفتاح خراسان، وتصل الجزيرة بالعراق وسنجار بالحديثة.

وقد أفصح البلدانيون عن أهمية موقع الموصل في التجارة والترانسيت من خلال تعرُّضهم إلى المسالك والطرق التجارية المعروفة آنذاك، فإن الطريق الذي يخرج من بغداد إلى الرقة يمرُّ بالموصل؛ كما أن هناك طريقاً برياً يربط الموصل بنصيبين، وطريقاً برياً بين سامراء ـ الحديثة ـ الموصل. وطريقاً بين الموصل ـ بلد. وطريقاً بين الموصل ـ أرمينية.. الخ[1].

فهل انتفعت مدينة الموصل من موقعها هذا في استثمار مواردها الذاتية الاقتصادية؟ إن وظيفة الموصل لم تقتصر على كونها مدينة ترانسيت إنما اشتهرت بإنتاج عدد وافر من المحاصيل الزراعية والإنتاجات الصناعية، فقد كانت تنتج الحبوب بأنواعها والفواكه كالرمان والتفاح والأترج والعنب وكانت مشهورة بالعسل والجبن، واشتهرت بوجود الفحم والقير والحديد واشتهرت بصناعة أنسجة الحرير والستائر والثياب والنشاب والسكاكين والأواني.

(١) أنظر ابن خرداذبة: مسالك الممالك ص٩٣، ٩٥، ١١٦، ٢١٤.

وقد اتضحت أهمية المدينة في أقوال الجغرافيين، فَوَصَفَها ابن حوقل بكثرة الفنادق والحمّامات والعمارات والأسواق، وجذبت الناس لرخص أسعارها وميرها وقال المقدسي بأنها جليلة البناء حسنة الأسواق والفنادق كثيرة الحمّامات موصوفة بلمومها الجيدة وتنتج الكثير من المنتوجات والصناعات. وقال ياقوت الحموي بأنه (قل ما عدم شيء من الخيرات في بلد من البلدان إلا ووجد فيها)[1].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٩٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٣٨، ١٤٥، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢٢٤.

## الفصل التاسع

# قرطبة ـ الزهراء ـ الزاهرة

تشترك مدينة قرطبة في الأندلس مع مدينة حلب بشكل خاص ومدينة الموصل إلى حدٍّ ما بصفة أنها من المدن الذاتية القديمة التي كانت موجودة وآهلة بالسكان والعمران قبل مجيء العرب الفاتحين إلى إسبانيا. وبالفعل فإن الجغرافيين العرب قد أطلقوا على مدينة قرطبة تعبير (مدينة قديمة) تمييزاً عن المدن العربية المحدثة.

يرجع تاريخ مدينة قرطبة إلى فترات تاريخية قديمة جداً، وعندما وصلها العرب الفاتحون بقيادة مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م وجدوها مدينة متكاملة يحيط بها سور متين حصين يحتوي على عدة أبواب، ويحيط بالسور خندق يربطه بالسور قنطرة كبيرة مشهورة، أما داخل المدينة فقد وجد العرب كنيسة وسكة كبيرة تُعرف بالمحجة العظمى وكان يقطنها كثير من الناس. على هذا الأساس فإن العرب لم يكونوا المؤسسين الأوائل للمدينة. إذن ما هو موقفهم من المدينة هل أضافوا إلى خططها، كما فعلوا في مدينة حلب؟ أم أنهم أسّسوا موضعاً جديداً إلى جوارها كما فعلوا في مدينة الموصل؟ يبدو من دراستنا للمدينة أن العرب اتّبعوا، كما هي الحال في مدينة حلب، أسلوب الزيادات والإضافات العمرانية التي تتسم بِسِمات عربية وتوافق رؤيتهم التمدنية.

فاعتماداً على المعلومات التي أدلى بها ياقوت الحموي بشأن أصل مدينة قرطبة أن أصل كلمة قرطبة ترجع إلى مصدرَيْن، أولهما أعجمي روماني وثانيهما

عربي. أما معنى الكلمة في اللغة العربية فيقصد بها العدوّ الشديد، ووَرَدَ في الشعر العربي بيت جاء فيه ذِكْرُ الكلمة:

إذ رآني قد أتيتُ قرطبا وجالَ في جحاشةٍ وطرطبا

وفي رواية أخرى أن التعبير قرطبه بمعنى صرعه، وتعني أيضاً أن القرطبا هو السيف كأنه من قرطبه أي قطعه[1]. أما بخصوص إرجاع أصلها إلى اللغات القديمة فقد أشار إليه مؤلف مقالة قرطبة في دائرة المعارف الإسلامية والعديد من الكتّاب الغربيين والعرب فالكلمة أصلها أيبري قديم مأخوذ من كلمة كوردوبا Corduba أو Cordova. وهي بالفعل كما وجد المؤلفون العرب كلمة قديمة تشير إلى مدينة قديمة أزلية. فقد وَرَدَ ذِكْرُها أثناء الصراع بين اليونان وقرطاجنة حيث اشترك أهالي قرطبة في حملة هانيبال على روما. كما أنها أصبحت تابعة للامبراطورية الرومانية بحدود سنة ٢٠٦ ق.م، لهذا السبب، فإن ما أورده ياقوت الحموي من رَأيٍ أن الكلمة رومانية الأصل له ما يبرّره، وذلك لأن المدينة كسبت أهمية وشهدت انتعاشاً في أحوالها أيام الرومان. فأخذت تجتذب العوائل والأُسَرَ الرومانية لما يتوافر فيها من عناصر المناعة والحصانة وقوة البناء وجمال الطبيعة والموقع الاستراتيجي الجغرافي. ويبدو أن تطوُّرها صار سريعاً إذ اتسع حجمها ومساحتها فأضحت تتألف من جانبَيْن يفصلهما سور منيع وذلك من أجل عَزْلِ خطط ومنازل الأهالي عن المنشآت الإدارية الحكومية فاستقر الأهالي في الجانب الشرقي في حين صار الجانب الغربي مخصَّصاً لقصر الحاكم وجنده وقواده والمؤسسات الإدارية الأخرى. وفي رواية أخرى أن أصل كلمة قرطبة قوطي والأصل فيها قرضبة بالضاد وتعني القلوب[2] المختلفة.

لقد تعرضت المدينة منذ الفترة الرومانية إلى أحوال سياسية مختلفة وكانت عرضة لعدد من الهجمات التخريبية التي شنَّها القوط الغربيون، الأمر الذي أثَّر كثيراً على هيبتها وأضعف أهميتها. في هذا الوقت ارتفع شأن مدينة أخرى هي

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٢٤.

(٢) أنظر الحميري: الروض المعطار ص٤٥٦ ـ ٤٥٧، مقالة Kurtuba في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة جديدة)، عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج١ ص١٧، ٦٤.

طليطلة لتأخذ محلَّ قرطبة سياسياً وإدارياً، فصارت هي المدينة التي يستقر فيها الملك وهي المركز الإداري بدلاً من قرطبة. غير أن هذه التبدُّلات لا تعني الحكم على قرطبة بالانحلال النهائي وخراب عمرانها وهيئتها الاجتماعية السكانية. لأن العرب حينما وصلوا إليها كانت آنذاك مدينة مسوَّرة بسور متين مع أنه كان مثلوماً من أحد جوانبه. كذلك فإنها كانت تحتوي على شارع مرصوف يشقُّ وسط المدينة الغربي التي تقع بعد السور ويسمّى بالسكة العظمى أو المحجة العظمى ويبدأ من مدينة قادس ماراً بإشبيلية وأستجة وبلنسية وبرشلونة وينتهي بمدينة أربونة. ثم إن المدينة كانت تشتمل على عدة أرباض وضواحٍ حملت أسماء إسبانية منها شبلار وفرن بريل وشقندة. وكانت أيضاً تحتوي على قيسارية وهي عبارة عن مجموعة أسواق يتفرَّع حولها الأسواق الفرعية والشوارع والطرق الفرعية الأخرى. وكانت هناك قنطرة تقع على نهرها المشهور لكنها تعرضت بمرور الزمن إلى الهدم والتخريب نتيجة لارتفاع منسوب المياه خلال الفترات التاريخية[1] المختلفة. وبالفعل فإن العرب المسلمين وجدوا بعض أجزاء هذه القنطرة قد أتى عليها الخراب ولم تَعُدْ صالحة في هذه الأجزاء.

## الدوافع التي دفعت العرب إلى اتخاذ قرطبة:

مهما يكن من أمر، فإن هذه المدينة القديمة التي يرجع تاريخها إلى أبعد من الفترة الرومانية صارت مركزاً للجيوش العربية الفاتحة لإسبانيا، فما هي العوامل التي دفعتهم إلى اتخاذها، ولا سيما أن ذلك يمثّل تقريباً خروجاً عن المألوف في اتخاذ المدن العواصم الجاهزة لأمور عسكرية استراتيجية؟ كما أنه يُعَدُّ أيضاً خروجاً على القواعد العسكرية الاستراتيجية المألوفة، وذلك لأن المدينة لا تصلح كمعسكر مستمر على الفتح والتحرير، إنما تصلح كمكان دفاعي محاط بسور وخندق؟ لماذا لم يحاول العرب تأسيس أو إيجاد مدينة أخرى تتوافر فيها مواصفات المدن العربية الإسلامية كما فعلوا في مصر والمغرب العربي؟ إنهم،

(١) د. عبد العزيز سالم: قرطبة ج١ ص١٩٧.

وخاصة خلال مرحلة بداية فَتْحِ إسبانيا، كانوا بحاجة إلى مثل هذه القلعة لحماية أنفسهم من أهالي البلاد الذينَ ما زالوا يواجهون الجيوش العربية؟

في بداية الحديث عن هذه المواضيع المختلفة لا بدَّ من القول إن العرب وبشكل خاص، القائد طارق بن زياد، لم يكن مخطِّطاً، بعد أن أحرز انتصاراً رائعاً على جيش القوط الغربيين بقيادة لوذريق في معركة وادي لكة عام ٩٢هـ/ ٢٥ تموز ٧١١م، إلى توسيع رقعة انسيابه عسكرياً بزحفه نحو قرطبة المدينة القديمة الحصينة. إنما كان همُّه متركزاً على الزحف والتوجه نحو قاعدة الملك ومحل إقامته ومركز الإدارة آنذاك وهي كما ألمحنا مدينة طليطلة. ومن أجل تنفيذ هذا المشروع الحربي الضخم كان عليه أن يمرَّ بعدد من المدن والمراكز التي اتخذها القوط الغربيون معاقل ومراكز عسكرية لمجابهة الجيوش العربية ومن بينها مثلاً مدينة إشبيلية وأستجة. ومن المعروف أن سقوط مدينة طليطلة محل إقامة روذريق وهي العاصمة تعني من الناحية العسكرية نهاية المقاومة العنيفة للقوط الغربيين. ويبدو أن طارق بن زياد كان على دراية وإدراك بأن السيطرة والاستيلاء على مدينة قرطبة خلال هذه الفترة المبكرة سيجعله وقواته أمام مخاطر ومآزق عسكرية، إذ إنها كانت تحتل مركزاً وسطاً وتبعد عن ساحل البحر بمسافة مسيرة خمسة أيام. وكما مرَّ بنا عند تطرُّقنا إلى استراتيجية العرب العسكريين، فإن ساحل البحر لم يَعُدْ عائقاً استراتيجياً يواجه تقدُّم العرب لكنه يُعَدُّ أقرب نقطة عسكرية في سبيل إبقاء طريق التموين والإمدادات العسكرية والمادية مفتوحاً وميسوراً. وأن فكرة الابتعاد كثيراً عن هذا الساحل قد يدفع العدو إلى احتوائه والالتفاف عليه لقطع طريق الانسحاب من جهة والإمداد من جهة ثانية، وبذلك تكون الجيوش العربية أمام مأزق عسكري جدي. وهناك مسألة أخرى ربما أيضاً كانت واضحة في نظر القائد طارق بن زياد ألا وهي أن القوط الغربيين لم يولوا قرطبة أيَّ أهمية عسكرية فلم يتركوا فيها جيشاً قوياً دفاعياً، على العكس فإن مجريات الأحداث التاريخية قبل فَتْحِها من قِبَلِ العرب تكشف لنا بأن غالبية أهلها، ولا سيما العوائل والأسر الأرستقراطية، كانوا قد أخلَوْا المدينة وتركوها. ولعلَّ ذلك قد كان نتيجة للأخبار التي وصلتهم عن

انتصارات الجيوش العربية في معركة وادي لكة على الملك لوذريق أو روذريق. إذ اعتماداً على أقوال ابن عبد الحكم وابن عذاري والمقري أن مغيث (ووَرَدَ الاسم عند ابن حكم معتب) الرومي وهو غلام الوليد بن عبد الملك عندما دخل مدينة قرطبة لم يجد فيها سوى حامية عسكرية تتألف من بضع مئات من الجنود كانوا قد تحصنوا، بعد نجاح العرب في كنيسة في داخل المدينة.

أما الموضوع الآخر الذي يرتبط بمسألة عوامل اتخاذ مدينة قرطبة فإنه يتعلق بوضعية المدينة بعد افتتاحها. فهل اتخذها مغيث (أو معتب) والجيوش العربية المرافقة له قاعدة عسكرية ومركز انطلاق أو مركزاً إدارياً لتقدُّمهم وفتوحاتهم؟ إن هذا التساؤل سيكشف لنا عن طبيعة العلاقة بين العرب الفاتحين ومدينة قرطبة أولاً، ثم عن الخصائص المتوافرة في المدينة وموضعها العسكري ضِمْنَ مشاريع العرب العسكرية العامة في الأندلس تعكس لنا الروايات التاريخية لقصة فَتْحِ طارق بن زياد وموسى بن نصير للأندلس بأن هذين القائدين لم يتخذا مدينة قرطبة مقرًّا لقيادتهما وأن طارقاً كان بعد فَتْحِ إشبيلية وطليطلة أمام عدة خيارات. فقد كانت طليطلة عاصمة للقوط الغربيين وأنهم اختاروها لتقوم بهذه الوظيفة وفقاً لنظرتهم العسكرية للمرحلة القائمة آنذاك وأنها كانت مدينة تقع في موقع وسط في الأندلس وتتمتع بأهمية جغرافية واستراتيجية، وكانت قاعدة لإقليم كاربتانيا. والواقع أن القوط قد اختاروها بدلاً من إشبيلية لتلك الأسباب العسكرية بعد نجاحهم العسكري على قبائل الوندال المخرِّبة. غير أن العرب لم يختاروها مركزاً إدارياً وعسكرياً ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى رؤيتهم التمدنية بأنهم لم يفضلوا المدن التي كانت تلعب دور العاصمة للعدو، وأنهم على العكس فضلوا الابتعاد عن المراكز الحضارية المأهولة. ومن الواضح أن العرب بعملهم هذا كانوا قد انطلقوا من تشدُّدهم على المعايير العسكرية والاستراتيجية بالدرجة الأولى ومن خشيتهم وعدم ثقتهم بأهالي المدينة باعتبارهم موالين للقوط، وتوافر فرص خيانتهم ومداهمتهم بغتة للعرب. علاوة على عامل آخر مهم وهو حذر العرب من أن يقوم أهالي البلدة بقطع طرق الاتصال والمواصلات بين الجيوش العربية الإسلامية والساحل الجنوبي. لهذه الأسباب مجتمعة اختار القائد موسى بن نصير لابنه مدينة إشبيلية سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م

عاصمة له وقاعدة لولايته عندما قرَّر مغادرة الأندلس إلى بلاد الشام. وأن مدينة إشبيلية كما يراها الجغرافيون العرب مدينة كبيرة حصينة وكانت تمثّل (قاعدة ملك الأندلس وسريره)، فضلاً عن ذلك فإنها كانت تتمتع بهذا الإرث السياسي (أي عاصمة) منذ فترة الامبراطور الرومانية، إذ كانت عاصمة ملك الروم أيضاً (وبها كان كرسيهم الأعظم). وفوق أهميتها كمركز إداري فإن للمدينة موقعاً استراتيجياً وجغرافياً لوقوعها قرب ساحل البحر وكان يطلُّ عليها جبل كثير الأشجار والزيتون والفواكه. على هذا الأساس كان موقعها ملائماً لتفكير العرب العسكري ومتطلباتهم المتمثلة بسهولة اتصالها عبر البحر بالمغرب. وكذلك بطريق الإمدادات البرّي مع مركز الخلافة العربية. كما أن المدينة كانت تقع على شاطىء نهر عظيم يوازي في عظمته، كما يرى الجغرافيون، نَهْرَيْ دجلة والنيل. وأنه كان صالحاً لسَيْرِ السفن والمراكب التجارية، وكان يُعرف بنهر الوادي الكبير. وكانت إشبيلية تبعد عن مدينة قرطبة بمسافة مسيرة ثمانية أيام. ومع ذلك، فإن المدينة ليست مستحدثة إنما يرجع تاريخها إلى الامبراطورية الرومانية ويقال إن يوليوس قيصر هو الذي ابتناها لأنه أعجب بموقعها الجغرافي والاستراتيجي وابتنى حولها أسواراً من الصخر[1].

يتبيَّن مما تقدَّم ذِكْرُهُ أن العرب في كلتا الحالتين، أي بخصوص طليطلة وإشبيلية، لم يكونوا قد قرَّروا اتخاذ مدينة جديدة عربية النشأة والتخطيط وأنهم فضلوا الاستقرار في المدن القديمة ومن ثم إجراء عمليات التوسيع والتجديد والإضافة الملائمة لتفكيرهم. وهي حينما وجدنا من خلال الحديث عن النماذج العديدة من المدن حالة جديدة تقريباً. ولعلَّ ذلك يعود إلى عامل اجتماعي سياسي بالدرجة الأولى، فإنهم فضَّلوا تلك المدن القديمة لحداثة عهدهم بالأندلس ولخشيتهم من هجمات مضادة من قِبَلِ العدو خلال هذه المرحلة المبكرة، فلذلك لم يتورَّطوا بتأسيس مدن جديدة تشغلهم عن مهمتهم العسكرية في متابعة تقدُّمهم لِفَتْحِ المدن الأخرى في إسبانيا.

---

(١) أنظر ياقوت الحموي: ج١ ص١٩٥، الحميري: الروض المعطار ص٥٨ ـ ٥٩، أيضاً مقالة Ishbiliya (دائرة المعارف الإسلامية طبعة جديدة) بقلم Bosch vila.

وكما يظهر لنا بأن مدينة قرطبة، على الرغم مما تتمتع به من حصانة ومناعة وقِدَم تاريخي، لم تجتذب أنظار واهتمام القادة العرب في هذه الفترة وذلك لأنهاً كانت تقع في داخل الأندلس فتكون بذلك بعيدة عن الساحل الجنوبي للبحر.

وقبل أن نختتم الحديث عن البدايات الأولى للتمدُّن العربي الإسلامي في الأندلس، وانجذاب العرب نحو المدن القديمة لا مندوحة من إثارة استفسار يتعلق بالمدى الذي تمتعت به هذه المدن القديمة المختارة بالمستلزمات والمواصفات العسكرية العربية القديمة تلك التي تفرض في المركز المختار أن يكون على طرق البر وقريباً من الريف ومشارب المياه وأن لا يفصله نهر أو بحر أو سهل عن مركز القيادة العربية المركزية. حقيقة أن الفترة التاريخية التي نحن بصددها في مسألة التمدُّن العربي بالأندلس هي فترة غير بعيدة تماماً عن الفترة التاريخية التي تأسست فيها الأمصار الإسلامية الأولى ولا سيما أن هذه المرحلة تُعَدُّ ضِمْنَ مرحلة الفتوحات الإسلامية، الأمر الذي يؤكد على ضرورة مراعاة تلك المعايير التمدنية وتلك المستلزمات العسكرية غير أنه من الضروري أيضاً الاعتراف بأن العرب شعب متطوِّر وغير خامل، فالمستلزمات والمعايير التمدنية التي رافقت ظروف الفتوحات في المشرق الإسلامي وشمال أفريقيا ربما وجدوها غير ملائمة لذلك، فإنه ليس من الضروري التشدُّد عليها، وأن ظروفاً مستحدثة في بلاد الأندلس بعد أن عبروا مضيق جبل طارق أبرزت مستلزمات ومعايير تمدنية جديدة.

وأمامنا مسألة تأسيس العرب لمدينة تونس في شمال أفريقيا دليل على ذلك، فإن اختيارهم لموضع تونس دون أن تجذبهم مدينة قرطاجنة المدينة القديمة ودون أن يظلّوا في قاعدتهم التاريخية القيروان يُعَدُّ جواباً شافياً لتطوُّر رؤيتهم وعدم ثبوتها على خصائص جامدة تقليدية في أمور التمدن وتأسيس المدن. لقد جمعت القيروان مثلاً أكثر تلك المواصفات والمعايير العسكرية الأصلية عندما تأسست سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م غير أن سنة سبعين للهجرة أبرزت تطوُّرات وظروفاً عسكرية جديدة نابعة من التهديد المستمر من جانب العدو بقيامه بمحاولات

بحرية وهجمات بحرية مفاجئة فكان اختيارهم لمدينة تونس على ساحل البحر تعبيراً واضحاً لتلبية هذه الظروف المستحدثة. إن ظروف شمال أفريقيا الطبيعية المتمثلة بوجود ساحل بحري طويل يلعب فيه الأسطول البحري للعدو دوراً سياسياً بارزاً، وكذلك وجود سلسلة جبلية مرتفعة، هذه الصفات والمظاهر الطبيعية تشابه إلى حدٍّ كبير الظروف الطبيعية التي اتسمت بها بلاد الأندلس، فعلى العرب إذن مواجهة هذه المتغيرات الجغرافية الطبيعية. أريد القول من هذا العرض إن عبور العرب مضيق جبل طارق قد فرض عليهم متغيرات استراتيجية جديدة لا بدَّ من مجابهتها، تلك المتغيرات تتركز على ضرورة التعامل عسكرياً مع مسألة الساحل البحري. فبدلاً من أن يكون الشريط الساحلي البحري هذا موضعاً عسكرياً لمجرَّد تربُّص ورصد تحركات العدو البحري صار طريق إمداد عسكري ترتكز عليه الخطوط الخلفية للجيش العربي. من هنا صار شرط أو معيار أن يكون الموضع المختار على طرق البر والقريب من الريف من الشروط غير الواقعية أو المنطقية في منطقة جديدة يفصلها البحر والجبل في آن عن مركز القيادة العربية في القيروان أو الفسطاط أو دمشق. ومما يستحق الفخر أن العرب قد تفاعلوا مع هذه الظروف الطبيعية الجديدة تفاعلاً عسكرياً إيجابياً بارعاً متمثِّلاً بالانتصارات الساحقة التي حققوها على جيش لوذريق أو (روذريق) والقوط الغربيين سكان المنطقة. ومن الجانب الآخر فإن الأخذ بهذه المبادىء الجديدة لا تعني تماماً أن العرب قد تغافلوا أو أهملوا الشروط والمستلزمات التمدنية الأخرى كمسألة توافر المياه ووفرة الإنتاجات الذاتية الاقتصادية للمنطقة سواء أكانت هذه الإنتاجات والموارد إقتصادية أم إنشائية تدخل في عملية التوسع العمراني والبناء.

## قرطبة عاصمة الجيوش العربية:

إذن كيف أصبحت مدينة قرطبة قاعدة الجيوش وعاصمة الإدارة العربية بدلاً من إشبيلية؟ ولا سيما أننا قد ذكرنا سابقاً أن إشبيلية كانت تتصف بمواصفات ملائمة لاستراتيجية العرب العسكرية في الأندلس؟. ما هي العوامل التي دفعت العرب إلى تَرْكِ إشبيلية والانتقال منها إلى قرطبة؟ الحقيقة أن مدينة إشبيلية

استمرت تلعب دور العاصمة الإسلامية في الأندلس فترة قصيرة بلغت حوالي أربع سنوات، إذ انتقل الوالي أيوب بن حبيب اللخمي منها إلى قرطبة في سنة ٩٩هـ/٧١٧م. وحسبما يذكر أن هناك دافعين مهمَّين أجبرا اللخمي على اتخاذ قرار الانتقال من إشبيلية أحدهما مباشر والآخر غير مباشر. وقد تضمَّن العامل المباشر مجموعة من الدوافع والأسباب الثانوية الفرعية تلاقت في هدفها، وترجع أحداث هذه الدوافع الثانوية إلى سنة ٩٨هـ/٧١٦م، وبالأخص على أثر مقتل الوالي الذي سبق اللخمي وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير. فقد أثبت الوالي عبد العزيز مقدرة وكفاية عسكرية متميِّزة، فأشار الرازي إلى أنه ضبط أمر الأندلس وسدَّ ثغورها وافتتح مدائن كثيرة فكان بحقّ من الولاة الجيدين. فقد قام العرب خلال ولايته بعدة عمليات عسكرية حققت فتوح الإقليم الشرقي والإقليم الغربي من الأندلس ثم اتجهت الجيوش العربية نحو فَتْحِ كلٍّ من مدن مالقة والبيرة واستولوا على أوريولة عاصمة كورة تدمير. وقد تمَّت هذه النجاحات العسكرية بفضل ما تميَّزت به إشبيلية عاصمة المسلمين من موقع مؤهل لاستمرار بقاء الإمدادات العسكرية للجيوش العربية المتحركة. لكن عبد العزيز هذا قد قتل فكان مقتله سبباً مباشراً دفع الوالي الجديد بأن يفكر بترك المدينة والانتقال عنها. فاعتماداً على ما أورده ابن عذاري عن أسباب مقتل عبد العزيز والتي تُعَدُّ بحد ذاتها عوامل مشجعة للوالي الجديد باتخاذ قراره في الانتقال إلى قرطبة أن الجنود هم الذين وثبوا على عبد العزيز وقتلوه لأمور نقموها عليه. وهناك سبب آخر لمقتله إذ يذكر أن سليمان بن عبد الملك، الخليفة الأموي هو الذي بعث إلى الجند أوامره بقتل الوالي لموقفه أو لسخطه من أبيه موسى بن نصير، وقد أورد ابن عذاري أسماء بعض هؤلاء الجند المتآمرين على قتل الوالي منهم شبيب بن أبي عبده الفهري وزيادة بن النابغة. وتفيد رواية ثالثة عن مقتل الوالي أن هؤلاء الجند هم الذين كاتبوا الخليفة بشأن مسائل وأمور أنكروها على عبد العزيز، حينئذٍ أمرهم الخليفة بقتله. ويرجع سبب قتله في رواية رابعة إلى أن الوالي كان قد تزوج من أرملة روذريق وقد دفعه هذا الزواج إلى تحقيق رغباتها الهادفة إلى استقلال الوالي بالأندلس وإعلان انفصاله عن الدولة الأموية. وقد اتهمت روايات أخرى الوالي بأنه لبس

تاج النصارى وأنه كان ينوي اعتناق الديانة النصرانية. إن جميع هذه القصص والاتهامات بحقِّ الوالي عبد العزيز التي أدت بالنهاية إلى مصرعه توضح بجلاء أن على خليفته الوالي الجديد مسؤولية كبيرة وهو في مدينة إشبيلية وأن نفسه سوف لا تخلد إلى الراحة في مدينة حيكت فيها المؤامرات السياسية، وزيادة في تأكيد هذا الرأي نستند إلى رواية ابن عذاري التي بيَّن فيها الأحوال السائدة في إشبيلية بعد مصرع الوالي عبد العزيز، فقال ما نصه (ومكث أهل الأندلس شهراً لا يجمعهم والٍ حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي)[1]. والمهم في أمر هذا الوالي الجديد بأنه كان من قرابة الوالي المقتول فهو ابن أخت موسى بن نصير لذلك بات من الضروري جداً بالنسبة إليه أن يبتعد عن أعداء موسى بن نصير وابنه عبد العزيز. وبالفعل فإنه حالما تسلَّم منصب الولاية اتخذ قرار الانتقال إلى قرطبة ونزل فيها في دار السلطان، ذلك القصر الذي اتخذه مغيث بن الحارث الرومي. ومع أن هذه الخطوة لم تكن إعلاناً رسمياً بالانتقال غير أن الأمر أصبح كذلك في أيام الوالي الذي جاء بعد أيوب اللخمي وهو الوالي الحر بن عبد الرحمن.

ومن بين الأسباب غير المباشرة في الانتقال إلى قرطبة العوامل العسكرية والاستراتيجية، إذ إن الانتصارات العسكرية التي حققها الوالي عبد العزيز قد وسَّعت كثيراً من الرقعة الجغرافية السياسية في المناطق والأقاليم الخاضعة للسيادة العربية، فلم يَعُدْ الشرط المتركز على الشريط الساحلي لبلاد الأندلس هو الشرط الوحيد، بل امتد العرب إلى الأقاليم الشرقية والغربية مما أظهر حاجة ماسة إلى أن تتحرك قاعدة الدولة الإسلامية ومحل إقامة الوالي والإدارة والجيش من موضعها السابق على الساحل الذي صار بعد تلك الانتصارات بعيداً من الناحية الجغرافية، وهي حالة تولِّد، إذا ما ظلَّت الأمور كما هي، خطورة سياسية وعسكرية تتمثل بظهور الحركات السياسية المعارضة وصعوبة إخمادها وكبحها بسرعة. فكان اختيار مدينة قرطبة حلًّا موفَّقاً في التغلب على

(١) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (بيروت) ج٢ ص٢٥، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (القاهرة، ص١٢).

جميع تلك المصاعب لأنها مدينة تقع في وسط البلاد وتتميّز أيضاً بالحصانة والمنعة فضلاً عن توافر المواصفات الاقتصادية فيها والمستلزمات المتعلقة بتوفير مياه الشرب. وكما قلنا إن الانتقال في المرحلة الأولى لم يكن رسمياً فظلّت المدينة العاصمة بين إشبيلية وقرطبة إلى أن أقر عامل أفريقية محمد بن يزيد الانتقال الرسمي إلى قرطبة زمن الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي.

## خطط مدينة قرطبة:

صار واضحاً الآن أن العرب الفاتحين لم يؤسسوا مدينة قرطبة إنما هي مدينة قديمة، وأنهم عندما افتتحوها وجدوا فيها مدينة ذات وحدة مدينية متكاملة إلى درجة كبيرة على الرغم من وجود بعض الثغرات المهدمة في سورها وخراب أجزاء من قنطرتها المشهورة. وبناء على ذلك، فإن استعراض خطط المدينة هو في حقيقته استعراض للوضعية العمرانية والتمدنية لقرطبة القديمة، لكننا ينبغي أن لا نغفل الإضافات المهمة التي أضافها العرب خاصة تلك التي جاءت موافقة لنظرتهم الإسلامية في اتخاذ المدن، تلك الإضافات التي تتجلى في التوسعات الكبيرة التي شهدتها المدينة بظهور الضواحي والمنيات (جمع منية) في خارج أسوار المدينة والتي كانت منبثقة من مدينة قرطبة. ويرجع السبب في بروز الحاجة إلى اتخاذ الأرباض أو المنيات حول المدينة إلى أن المدينة نفسها كانت صغيرة الحجم والمساحة فقد قُدِّرَتْ مساحتها بحوالي أربعة كيلو مترات مربعة، الأمر الذي جعل ابن حوقل يَصِفُها بأنها بقدر حجم أحد جوانب بغداد (لبغداد جانبان الكرخ والرصافة). الحقيقة أن مساحتها تذكِّرنا بمساحة مدينة المنصور (بغداد المدوّرة) وكيف أصبحت تعاني من مشكلة التزاحم، مما ساعد الأمر على ظهور الكرخ والرصافة والحربية والمحوّل وغير ذلك. فمدينة قرطبة بالنظر إلى صغر حجمها صارت بمرور الزمن غير مهيَّأة لأن تكون القاعدة والعاصمة فساعدت هذه الظروف على ظهور الضواحي والمنيات.

## المسجد الجامع:

مما يجدر ذِكْرُهُ في بداية الحديث عن المسجد الجامع أن العديد من

الباحثين العرب والأجانب قد وقفوا على جامع قرطبة ودرسوه دراسة مفصَّلة لأنه يُعَدُّ لوحة فنية ومعمارية اشتهرت بها قرطبة. ومن بين هؤلاء الدكتور عبد العزيز سالم وحمودة وعبد الرحمن الحاجي ومؤلِّف مقالة قرطبة في دائرة المعارف الإسلامية ووَصَفَهُ صاحب كتاب الروض المعطار وصفاً دقيقاً أيضاً. لقد تعرَّض مسجد الجامع في قرطبة إلى عدة تحوُّلات عمرانية خلال فترات تاريخية مختلفة. لهذا سوف نقدِّم صورة مكثَّفة ووصفاً عاماً من هذه الوحدة العمرانية المهمة بما يتعلق الأمر بتركيب المدينة الداخلي ونظرية التمدن العربي بصورة عامة. كيف تأسس المسجد الجامع وما هي العلاقة التمدنية بينه وبين الوحدات العمرانية الأخرى؟ وما أهميته التمدنية في تحديد معالم قرطبة الطوبوغرافية؟ إن هذه التساؤلات وغيرها تدفعنا إلى العودة إلى الروايات التاريخية الأولى عن فَتْحِ مدينة قرطبة لكي تتضح الأسس التخطيطية الأولى للإضافات التي أضافها العرب في هذه المدينة.

وجَّه طارق بن زياد مغيث الرومي على رأس قوة تتألف من حوالي سبعمائة فارس صوب قرطبة، وكانت المدينة عند وصول العرب محصَّنة بسور متين البناء يحيط بها من كل جانب. ومع حصانة سور المدينة وخندقها فقد منّ الله على المسلمين بالنصر وأفلحوا في اقتحام السور من ثغرة كانت موجودة فيه. ودخل مغيث الرومي وأصحابه المدينة فاحتل قصر حاكم قرطبة. أما بخصوص الحامية القوطية التي كانت تحمي المدينة فقد فرَّت بدخول العرب من حاكم المدينة إلى كنيسة كانت تقع في الجانب الغربي من المدينة.

المهم أن مغيث الرومي اتخذ من قصر الحاكم دار إمارة له وظلَّ بها إلى الفترة التي تحوَّل عنها بأمر من القائد موسى بن نصير إلى دار خاصة على اعتبار أن ذلك القصر، أي قصر الحاكم، أصبح داراً لأمير المدينة. ويبدو من مجريات الأحداث أن مغيثاً اختار المسجد الجامع في هذه الحقبة التاريخية المبكرة في موضع جاهز كما هي الحال في اتخاذه قصر الحاكم كدار إمارة. ومن المحتمل أن مغيث الرومي لم يرغب في الانشغال ببناء مسجد جامع جديد، وهو اتجاه كما أكَّده ابن عذاري قد سبق أن اتخذه القائد أبو عبيدة

ابن الجراح وخالد بن الوليد في بلاد الشام عندما شاطروا الروم في كنيسة دمشق. فكان اختيار مغيث كنيسة قرطبة المعروفة بكنيسة شنت بنجنت ليكون قسم منها مسجداً جامعاً ووكَّل رجل من أصحابه اسمه حنش الصنعاني لتعيين وجهة قبلة هذا المسجد، كما أناط أمر تأسيس محراب المسجد الجامع إلى شخص آخر هو أبو عبد الرحمن الحبلي. وقد بقي الجزء الآخر من الموضع يمثّل كنيسة للنصارى. لقد كانت هذه الكنيسة تقع داخل مدينة قرطبة تحت السور، الأمر الذي يجعلنا نستشفُّ بأن السبب الرئيس الذي شجّع مغيث الرومي على اختيارها باعتبارها تقع في وسط المدينة تقريباً وهي العادة المتبعة في اتخاذ المسجد الجامع في المدن العربية. أما موقع الجزء الذي صار المسجد الجامع من الكنيسة فإنه كان يحتل الجانب الغربي، بينما ظلّت الكنيسة في الجانب الشرقي منه. ولم ينشغل المسلمون خلال هذه الحقبة في التفنُّن في بناء المسجد الجامع وزخرفته وعمرانه، إذ كان بناؤه بسيطاً مستخدمين اللَّبِن وقد سقف بسقائف متلاصقة اتخذت بفترات متعاقبة بالنظر إلى تزايد عدد المسلمين والمصلّين من جهة وضيق البناء البسيط الذي اتخذ عند دخول المسلمين المدينة من جهة ثانية. فكانوا كل مرة يزيدون في سقائفه إلى أن صارت هذه الزيادات في السقائف عائقاً بوجه المصلّين وذلك لأن هذه السقائف كانت أقلَّ ارتفاعاً من سابقتها. وكما لمَّح الدكتور سالم أنها كانت إضافات اقتصرت على الجهة الشمالية من المسجد التي تتدرج في الارتفاع تدريجياً، مما يؤدي إلى أن تكون السقائف المضافة أقلَّ ارتفاعاً من تلك السقائف التي أسِّست في بداية الأمر. وظلّت أحوال المسجد الجامع على هذه الحالة إلى أن قام عبد الرحمن الداخل بإجراء عمراني وذلك ببنائه المسجد الجامع وتوسيع فنائه سنة ١٦٨ أو ١٦٩ هـ/ ٧٨٤ أو ٧٨٥م، وامتدت عمليات التعمير والتوسيع هذه أكثر من سنة، فقيل إن المسجد الجامع صار مهيَّئاً للصلاة، بالرغم من وجود بعض النواقص في البناء، سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وقيل في رواية أخرى إنه اكتمل سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧. والظاهر أن عبد الرحمن كان على عجلة من أمره في إكمال بناء المسجد فاستعان بجلب أعمدة وجدها في أطلال موضع دارس وكان خلفاء عبد الرحمن الداخل من المهتمين أيضاً ببناء هذا المسجد، فقيل إن هشام بن عبد الرحمن

أكمل النواقص التي كانت موجودة في بناء المسجد الجامع، إذ شيَّد مئذنة الجامع التي بلغ ارتفاعها أربعين ذراعاً، وابتنى في آخر المسجد سقائف خاصة للنساء، وابتنى في شرقه الميضأة. وقد شهد هذا المسجد زيادات وتحسينات كثيرة خلال الحِقَبِ التي أعقبت هشام فزاد عبد الرحمن بن الحكم في جهته القبلية وزاد في أبهائه، ثم قام عبد الرحمن الأوسط والأمير محمد بن عبد الرحمن ببناء بلاطاته وإجراء ترميمات على حائطه واعتنى بتنميقه وإضافة النقوش والزخارف، فقد مدَّد عبد الرحمن الأوسط أروقة المسجد الأحد عشر بأن أضاف سبعة عقود أخرى إلى طولها ثم ابتنى محراباً إضافياً، وابتنى الأمير محمد المقصورة وكانت تحتوي على ثلاثة أبواب. منذ هذه الفترة تطوَّر ذلك المسجد الجامع البسيط ليصبح مفخرة مدينة قرطبة واكتسب شهرة واسعة وأعجب به كل من زار المدينة من الرحالة الجغرافيين. وقد تعرَّضت مئذنته إلى حادث زلزال فاستبدلها عبد الرحمن الناصر بمئذنة جديدة فخمة صارت أنموذجاً لمآذن إشبيلية وغيرها من المدن. وشيَّد الحكم المستنصر بالله داراً من ثماني زوايا عليها قبة وتشتمل على ثلاث غرف. وأضاف الحاجب المنصور عدداً آخر من الأروقة فصار يحتوي على تسعة عشر رواقاً في كلٍّ منها خمسة وثلاثون عموداً وعَزَلَ الصحن الرئيس الذي كان يقود إلى المحراب عن صحن المسجد الجامع الأصلي. ولقد وصف الجغرافيون كبر مساحته وجمال هيئته (فصار يحار في الطرف ويعجز عن حُسْنِهِ الوصف وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً، طوله مائة باعٍ وثمانون باعاً ونِصْفُهُ مسقف ونِصْفُهُ صحن بلا سقف. وعدد قسيّ سقفه أربع عشرة قوساً، وسوارٍ مسقفة بين أعمدته وسواري قببه صغاراً وكباراً مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح وأقلها تحمل اثني عشر مصباحاً وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي... وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش وما لا يشبه بعضها بعضاً قد أحكم ترتيبها وإبدع تلوينها... ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وَصْفِها وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها وفيها من الفسيفساء المذهَّب والبلور مما بعث له صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر... وعلى وجه المحراب سبع

قسيّ قائمة على عمد . . . . . . . . . . . وعلى أعلى الكل كتابات منحوتات من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي وعلى وجه المحراب أنواع من التزيين والنقوش. . . واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبه. . . ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة، خشبه آبنوس. . . يقال إنه صنع في سبع سنين. . . ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس. . وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجبلية الأعمال، الرائعة الشكل والمثال ارتفاعها في الهواء مائة ذراع. . .)[1] من هذه الأوصاف يتبيَّن لنا بجلاء أن العرب على الرغم من أنهم جعلوا المسجد الجامع البسيط كجزء من الكنيسة غير أنهم بمرور الزمن نشطوا إلى تعميره وإعادة بنائه وإضافة الكثير من الإضافات والنقوشات وأنواع من التزيين التي تدلُّ دلالة واضحة على سموِّ ذوقهم المعماري الفني، ذلك البناء الشامخ الذي ما زال ماثلاً إلى حدٍّ الآن يحكم قصة واقعية لتطوُّر فَهْمِ العرب، واهتمامهم المتزايد يرفع شأن هذه الوحدة العمرانية المهمة التي ارتكزت عليها خطط المدينة.

ولقد اتخذ هذا المسجد الجامع موضعاً تجمع حوله بعض المنشآت الإدارية منها على سبيل المثال دار القومة الخاصة بقومة الجامع وتقع إلى الشمال منه ثم هناك دار الصنعة وتقع إلى الغرب من المسجد الجامع، فضلاً عن وجود القصر[2].

صار جامع قرطبة منذ الفترات الأولى لتأسيسه مدرسة وجامعة للعلم، إذ وفد إليه طلاب العلم من المغرب العربي وأوروبا. وكان كما هي الحال في المساجد الجامعة الأخرى يتحوَّل بعد أوقات الصلاة إلى مدرسة يتحلق العلماء حول أعمدته ويشكلون حلقات للدراسة في شتى العلوم والآداب، فضلاً عما يقوم به من وظيفة قضائية وإدارية وسياسية.

---

(١) أنظر عن وصف الجامع ابن حوقل: صورة الأرض ص١٠٨، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٢٣، الروض المعطار ص٤٥٦ ـ ٤٥٧، عبد العزيز سالم: ص٢٢٠ ـ ٢١١، ١٩٥.

(٢) عبد العزيز سالم: ص٢٢١، حمودة: تاريخ الأندلس السياسي والعمراني (مصر) ص٢١٢ ـ ٢١٣.

## دار الإمارة:

لم يقتصر الأمر على اتخاذ العرب في بداية الأمر جزءاً من كنيسة قرطبة العظمى ليكون المسجد الجامع، وأن قصة فَتْحِ المدينة تشير إلى أن مغيث الرومي قد نزل أولاً، بعد دخول المدينة، في قصر حاكم قرطبة واتخذه دار إمارة له، علماً بأنه لم يكن حينذاك والياً أو أميراً على المدينة. وبقيت الأحوال على هذا المنوال إلى أن أمره القائد موسى بن نصير بترك القصر إلى دار أخرى على اعتبار أن القصر يعد داراً للأمير. وعوَّضه بدارٍ أخرى تقع غربي المدينة إذ كانت أيضاً من أملاك حاكم قرطبة السابق. وعندما ابتنى مغيث منزله فيها تحوَّل اسم المنزل ليكون بلاط مغيث وصار المنزل من أرباض قرطبة في جانبها الغربي.

لذلك فإن القصر الذي نزله مغيث اولاً تحوَّل إلى دار إمارة كان أمير ووالي قرطبة ينزله. فقد نزله الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ومن أعقبه من الولاة إلى أن قامت الدولة الأموية. وكان هذا القصر يقع في داخل المدينة، ويفصل بينه وبين المسجد الجامع المحجة العظمى. وأشار مؤلف الروض العطار إلى تحديد موقع القصر من المسجد الجامع بقوله إن هناك باباً يقع إلى يمين المحراب والمنبر يفضي إلى القصر بين حائطي الجامع في ساباط ويتضمن هذا الساباط ثمانية أبواب، أربعة منها تنغلق من جهة القصر أما الأربعة الأخرى فتنغلق من جهة الجامع. إذن فإن الجامع يقع بإزاء القصر من الجهة الشرقية وقد وصل بينهما هذا الساباط الذي يسلكه الناس من المحجة العظمى التي بين الجامع والقصر حتى باب القنطرة. وقد تمَّ افتتاح باب لهذا الساباط في جدار الجامع[1].

لقد شهدت دار إمارة قرطبة عدة تطوُّرات من إضافات وزيادات خلال فترة الدولة الأموية في الأندلس، إذ صارت تحتوي على قاعات وأبهاء ومجالس وقصور فرعية مرتبطة بها، وتفنَّنوا بجلب المياه الصالحة للشرب إليها من جبال

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص٤٥٧.

قرطبة. واستمر أمراء الدولة الأموية يقطنون هذه الدار حتى فترة عبد الرحمن الثاني أو الأوسط، إذ ابتنى لنفسه قصراً جديداً إلى جوار دار الإمارة القديمة وقام بحفر قناة لجلب المياه إليه من الجبال. واتخذ فوقه أبراجاً معمولة من الزجاج الشفاف وبذلك صارت هذه الأبراج تطلُّ على مناظر خلابة من المدينة. كما أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) كانت له اهتمامات خاصة بالعمران والبناء فأضاف إلى القصر إضافات جديدة كبناء مجموعة قصور مجاورة ومجالس. فتحوَّل قصر قرطبة، الذي كان في بداية الأمر قصراً للحاكم عند افتتاح المسلمين للمدينة، إلى مجموعة عديدة من القصور والمجالس وصار يمثِّل جزءاً من هذه الإضافات الجديدة، إذ كان هناك قصر المجدد وقصر الحائر وقصر المعشوق وقصر المبارك وقصر السور وقصر التاج وقصر البستان. علاوة على ذلك، فإن هذا القصر قد تبدَّل شكلاً وجمالاً، إذ أضيفت إليه مظاهر الأبهة وجمال الذوق الفني من حيث التزيين والنقوش وبناء قنوات الرصاص التي تجلب المياه العذبة. ونُصِبَتْ فيه التماثيل من الذهب والفضة وأنشئت فيه البرك والصهاريج وغير ذلك من الابتكارات المعمارية[1].

وهناك مسألة أخرى لا بدَّ من ذِكْرِها بأن دار الإمارة في قرطبة على الرغم من كونها في مراحلها الأولى قصراً قديماً لحاكم المدينة إلا أن ارتباطها وانسجامها مع بناء المسجد الجامع من خلال فَتْحِ باب في المسجد وبناء ساباط يربط بينهما يشير بجلاء إلى تقيُّد العرب بالمفهوم التمدني العام وعدم خروجهم على تلك القاعدة التي أُرْسِيَتْ قواعدها في الأمصار الإسلامية ألا وهي ارتباط ومجاورة القصر له.

يبدو أن مدينة قرطبة الصغيرة ظلت كما هي الحال في الفترة التي سبقت فَتْحَها تحتوي بالدرجة الأولى على المنشآت الإدارية فكان القصر والمسجد الجامع والمؤسسات الإدارية هي الوحدات الرئيسية فيها. وتحوَّلت أطرافها أو أرباضها إلى مناطق سكنية. وتشير الروايات إلى أن هذا القصر كان واسعاً إذ

---

(١) أنظر أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص١٠، ٢١، الروض المعطار ص٤٥٧.

يشتمل على عدة أبواب منها الأبواب الواقعة على جهته القبلية والأبواب الواقعة في جانبه الشمالي والأبواب في جانبه الشرقي. أما الملحقات أو المؤسسات الإدارية التي كانت مرتبطة به فهي بيت العمال ودار الوزراء والسجن.

## الأسواق:

لقد ذكرنا آنفاً أن مجمَّع الأسواق المركزية في مدينة قرطبة القديمة أو ما يسمّى بالقيسارية كان يقع في وسط المدينة، وصار موقعه بالنسبة إلى المسجد الجامع بعد دخول العرب إلى الجانب الشرقي من المسجد الجامع. ومن المحتمل أن هذه القيسارية كانت أيضاً تضمُّ مجموعات من الأسواق الفرعية بحسب اختصاصاتها أو المِهَنِ السائدة فيها، فقد وَرَدَ ذِكْرُ أسماء بعض هذه الأسواق التي صار بعضها شوارع في آن، مثل شارع وسوق القصابين أو اللحامين وشارع وسوق الخياطين وشارع وسوق السراجين وشارع وسوق الخلالين وشارع سوق الوراقين وشارع وسوق الحصارين. وهناك تسميات لأسواق صارت تطلق أيضاً على محلّات من أمثال محلّة حوانيت الريحاني ومحلّة النشارين. وصارت بعض المساجد في قرطبة التي أُحصيت زمن العذري (المتوفي سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) بحوالي ٤٩١ مسجداً صغيراً، تحمل أسماء مِهَنٍ وربما كانت داخل الأسواق أيضاً كمسجد الزجاجين. فضلاً عن ذلك فقد جاء ذِكْرٌ لسوق العطارين الذي صار اسماً يُطلق على أحد أبواب سور المدينة وهو باب العطارين وكان هذا السوق بالفعل يقع إزاء الباب. وكان هناك سوق للدواب يقع خارج أسوار المدينة[١].

وعلى كلٍ، فإن تسميات هذه الأسواق تشير إلى أن قرطبة كانت تحتوي على مجموعتَيْن من الأسواق المركزية الأولى القيسارية كما أوضحنا وهي في الجانب الشرقي من المدينة، أما المجموعة الأخرى فتقع في جهتها الجنوبية الغربية. فإن السوق الذي تمّ ذِكْرُهُ أعلاه وهو سوق القصابين مثلاً كان يضمُّ عدداً من

---

(١) العذري: نصوص عن الأندلس: تحقيق الأهواني، ص١٢٤، المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (بيروت) ج١ ص٥٦٠، د. عبد العزيز السالم: ص٣٠ ـ ٣٥.

الحوانيت التي تمتد حتى النهر. وكان سوق السراجين يقع في الجهة الشرقية من المدينة. لقد وُصِفَتْ أسواق قرطبة بأنها كانت فسحة ونظيفة، ويذكر المقدسي بأن البلد كثير الخير رشيق الأسواق، وأن أغلب أسواق المدينة ودار السلطان في الرَّبَض. وكانت هذه الأسواق تخضع، كما هي الحال في أغلب أسواق المدن العربية الإسلامية، لإشراف مباشر من قِبَلِ المحتسب[1].

## خطط الأهالي:

إن مدينة قرطبة القديمة لم تكن مهيَّأة لاستقبال أعداد كبيرة من الناس، كما هي الحال في بغداد مدينة المنصور، لأنها مدينة صغيرة محاطة بالأسوار، لا تسمح في توسيع خططها السكنية، وهي في البداية قُسِّمَتْ إلى جانبَيْن، الجانب الشرقي منها كان الجزء المخصَّص لخطط الأهالي وبيوتهم في الوقت الذي بقي فيه الجانب الغربي مخصصاً للمؤسسات الإدارية وقصر الحاكم. إن قراءة لأسماء بعض المحلات ومجمّعات الدُّور السكنية والمنيات أو الضواحي التي كانت موجودة في الجانب المخصَّص لسكنى الأهالي لا تشير أبداً إلى أن هذه الخطط والتوزيعات السكانية كانت مستندة إلى قاعدة قبلية كما هي الحال في الأمصار الإسلامية الأولى. أما بالنسبة إلى بعض أسماء المنيات فهي تشير إلى أن أصلها كان عبارة عن قصر لشخص متنفذ أو عبارة عن رَبَضٍ يعود إلى شخص معيَّن أيضاً، ويبدو أن هذا القصر أو هذا الرَّبض أخذ ينمو ويتطوَّر بمرور الزمن ليصبح ضاحية أو محلّة سكنية تابعة لمدينة قرطبة، من أمثال هذه المنيات منية عامر بن هاشم القرشي، وعامر هذا قد ابتنى أصلاً داراً في الموضع في الجانب الغربي من سور المدينة. وهناك بلاط أو منية مغيث الرومي وهو القائد الذي دخل المدينة واتخذ داره مكان قصر الحاكم لكنه مُنِحَ من قِبَلِ موسى بن نصير موضعاً لبناء قصر جديد له ويبدو أن هذا القصر قد تحوَّل إلى رَبَضٍ أو محلّة سكنية أيضاً، وهناك منية نصر التي تنسب إلى نصر

(1) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٠٧، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٣٣.

خادم الأمير عبد الرحمن الأوسط، ولعلّها أيضاً كانت في الأصل قصراً لنصر ثم تحوَّلت إلى محلّة سكنية، وهناك منية الناعورة وتقع جنوب المدينة ومنية عبد الله ومنية عجب جارية الحاكم بن هشام ومنية المغيرة ومنية المصحفية التي أسَّسها حاجب الخليفة الحكم المستنصر واسمه جعفر بن عثمان المصحفي.

في المقابل فقد وَرَدَتْ أسماء عدد من المحلّات التي يشير بعضها كما ألمحنا سابقاً إلى أنها في الأصل قصر ثم تحوَّل إلى منية ثم إلى محلّة، ومن الأمثلة على ذلك محلّة بلاط مغيث الذي سبق ذكرها بأنها منية مغيث ومحلّة حوانيت الريحاني ودرب بني فطيس وزقاق الشبلاوي والزقاق الكبير ومحلّة القناطير ومحلّة النشارين والمحلّة المجاورة لباب الجوز والمحلّة المجاورة لباب القنطرة والمحلّة المجاورة لباب الحديد[1]. وهي أسماء لا تعكس انتماءات قبيلة إنما تشير إلى أن بعضها عبارة عن إقطاع شخصي والأخرى أسماء أبواب لسور المدينة وبعضها الآخر ربما كان سوقاً ومحلّة في نفس الوقت.

وأورد المؤرِّخون أسماء عدد من الدور المشهورة في المدينة وهي في الحقيقة لا يمكن اعتبارها محلّة قائمة بذاتها. وربما تحوَّل بعضها إلى محلّة نسبة إلى هذه الدار أو تلك، والمهم أن أسماء هذه المجموعة من الدُّور لا تبرهن أيضاً على أنها ترجع في نسبتها إلى قبيلة أو بطن من قبيلة وهي منسوبة إلى بعض الأشخاص المتنفذين ومن بينها: دار منذر بن سعيد البلوطي وتقع خلف أحد أبواب السور المعروف بباب عامر القرشي، ودار بقي بن مخلد وتقع على الشارع الممتد من باب عبد الجبار ودار ريان الوصيف الواقعة إلى جوار الجامع، ودار الأمير عبد الله بن محمد الواقعة إلى جوار باب الجامع، ودار عبد الله بن محمد الواقعة إلى جوار باب قرطبة الغربي ودار قاسم بن يعيش وكانت تقع داخل المدينة. ويشير مؤلف أخبار مجموعة إلى عدد من البيوتات العربية المشهورة أمثال بني فهر وقبائل قريش وموالي بني هاشم.

---

(١) أخبار مجموعة لمؤلف مجهول (ط أوروبية ١٨٦٧) ص١٠، ٢١، المقَّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج١ ص٥٦٠.

نخلص إلى القول بأن المقاتلين العرب الذين رافقوا مغيث الرومي وأولئك الذين قاموا فيما بعد من الجند الشامي لم يتجمعوا في خطط خاصة بهم وقبائلهم، إنما تمَّ توزيعهم في المدينة وفقاً إلى رغباتهم أو إلى المحلّات القائمة آنذاك. والدليل على هذا أن المتمعن بدراسة الأحداث السياسية التي شهدتها المدينة والتي برزت بشكل خاص عند قدوم أعداد غفيرة من الجنود الشاميين إلى قرطبة. فتأججت الأحقاد بين العرب الجنوبيين والشماليين فانشقّ سكان قرطبة إلى مجموعتَيْن فكانت مضر وربيعة في جانب وكندة ومذحج وقضاعة وحمير في جهة أخرى. إن المتمتعين بتفصيلات هذه الحوادث لا يجدون دليلاً على أن المدينة مقسَّمة إلى أحياء قبلية، وإن أحياءها السكنية التي ظهرت خارج أسوار المدينة لم تتخذ هذا الأساس القبلي أيضاً. علاوة على كل ذلك، فإن أسماء المساجد التي تأسست في المحلّات والأرباض هي الأخرى لا تدلل على أنها كانت ضِمْنَ مخططات قبيلة، فهناك مسجد ابن حيويه، ومسجد ابن ضرغام ومسجد أبي عبيدة ومسجد الليث ومسجد بنفسج ومسجد الزجاجين ومسجد السيدة ومسجد السقا ومسجد الغازي ومسجد فخر ومسجد ابن فطيس ومن المحتمل أن هذا المسجد كان يقع في درب بني فطيس[1].

## انحلال وضع مدينة قرطبة:

يتفق الجغرافيون والمؤرِّخون العرب على الأهمية والمكانة السياسية والإدارية والاقتصادية والفكرية التي كسبتها مدينة قرطبة منذ دخول العرب إليها، وأن اشتهارها في عالم الفكر والتمدن والعمارة، إنما تدلل بوضوح على أن العرب الفاتحين لم يدمِّروا معالم المدينة التي كان بعض أجزائها قبل مجيئهم خرباً كما هي الحال في السور والقنطرة الكبيرة، كما أنهم لم يضغطوا على السكان الأصليين أو يعاملوهم بقسوة وأن الكثير من هؤلاء كانوا قد غادروا المدينة وأخلوها قبل وصول مغيث الرومي إليها ولم يبقَ فيها إلا القليل مع حامية لا

(١) أنظر أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص٩٥. كذلك ما أورده ابن بشكوال في كتابه الصلة، ابن عذاري: البيان المغرب ج٢ ص٩، عبد العزيز سالم: ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

يتعدى أفرادها بضع مئات. مع هذا، فإن دراسة مدينة قرطبة منذ فَتْحِها يُعَدُّ مؤشراً حضارياً واضحاً ضد أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خرّبوا مدن إسبانيا ونهبوها. فقد وَصَفَها الجغرافي ابن حوقل وصفاً يمثّل مدى التطوُّر الذي حصلت عليه خلال الفترة الإسلامية والتي يرجع الفضل في ذلك التطوُّر إلى الأمراء والقادة والإداريين العرب الذين اهتموا اهتماماً كبيراً بأحوال المدينة عمرانياً واجتماعياً وفنياً. فهي عند هذا الجغرافي (أعظم مدينة بالأندلس وليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسَعَة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمّامات وفنادق) ويضيف إلى وَصْفِهِ البديع هذا بأنها كانت مدينة مسوَّرة بسور من حجارة ومحلّاتها حسنة ورحابها فسيحة وكانت منزل السلطان. وكانت أبنيتها ومنازلها مشتبكة مستديرة على البلد من الجانب الشرقي والشمالي والغربي، وأما الجانب الجنوبي فكان فيه طريق معروف مرصوف فيه الأسواق والبيوت والخانات والحمّامات ومساكن العامة بِرَبَضِها. وكانت المدينة من الناحية الاقتصادية تتمتع بالرخاء وسَعَةِ الحال وكثرة الأموال والإنتاجات ففيها تصنع الثياب الجيدة والكسيّ من الكتان الناعم وهي مشهورة بصناعة نسيج الخزّ والقزّ، وأسواقها زاخرة بالمأكول والمشروب)[1]. ويذكر المقدسي أن مدينة قرطبة أجلّ وأعظم من مدينة بغداد، ويقول ما نصه (وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفق طيب وأن ثمّ عدلا ونظراً وسياسة وطيبة ونعماً ظاهرة وديناً... وحدثني بعض الأندلسيين أنها ثلاثة عشر رستاقاً على خمسة عشر ميلاً...).[2] ويَصِفُها ياقوت الحموي بأنها مدينة عظيمة كانت محل إقامة أمراء بني أمية وهي (معدن الفضلاء ومنبع النبلاء في ذلك الصقع)[3] أما أبو الفداء فيقول إنها من أعظم مدن الأندلس مدينة حصينة مسوَّرة بلغ عدد ما فيها من المساجد ألفاً وستمائة ومن الحمّامات تسعمائة حمّام، وأخيراً ليس آخراً،

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٠٧.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٣٣.
(٣) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٢٤.

فإن الحميري جعلها قاعدة الأندلس (وأم مدائنها) وأنها كانت مستقرَّ الخلفاء الأمويين، ويعقِّب على ذلك قائلاً: (وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر... وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجَّارها مياسير وأحوالهم واسعة..)[1] فالمدينة كما وجدنا من أوصاف بعض الجغرافيين العرب تفيدنا بالتعرُّف على الوظائف المتعدِّدة التي قامت بها المدينة، فهي مدينة قصبة إذ كان يحلُّها الأمير وتُجمع إليها أموال الدواوين، وهي عاصمة جذبت الناس للمساهمة في حركة المدينة التجارية، كما أن بلاطات الخلفاء والأمراء جذبت العلماء والأدباء حتى إن ياقوت الحموي يقول إن من انتسب إلى قرطبة من أهل العلم كثيرون، منهم المحدِّث والفقيه والأديب. واشتهر جامع قرطبة بفنِّه المعماري الذي ما زال حتى الوقت الحاضر يعكس تلك المكانة الرائعة التي كان يحتلها. أما في المجالات التجارية والاقتصادية فقد ذَكَرَ البلدانيون والجغرافيون رساتيق المدينة المشهورة بزراعة الفواكه كالكروم والتين والرمان والزيتون والمزارع. وكانت ترتبط بالمدن الأندلسية الأخرى وبالضواحي بطرق برية، فبين قرطبة وساحل البحر مسافة مسيرة خمس ليالٍ، والمسافة بينهما وبين إشبيلية ثلاث مراحل وبينها وبين حصن أستجة مرحلة، ومن قرطبة إلى سرقسطة مسيرة عشرة أيام ومن قرطبة إلى طليطلة مسيرة تسعة أيام ومن قرطبة إلى مرسية أربعة عشر يوماً ومنها إلى مدينة بلنسية ثمانية عشر يوماً[2]. وقد وَصَفَ المقدسي رساتيق قرطبة الخمسة عشر بأنها عبارة عن بساتين من أشجار الفواكه وتتوافر فيها مياه العيون والأمطار ومن رساتيقها أرجونة وقسطلة وشوذر وبلكونة وقرسيس وغير ذلك[3].

بقيت المدينة تلعب هذا الدور النشط فترة من الزمن لكنها واجهت منذ الربع الأول من القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد عدة تحدِّيات سياسية وتمدنية ساعدت بمرور الزمن على إضعاف دورها وانحلالها ومن بين هذه التحدِّيات:

(١) الحميري: الروض المعطار ص٤٥٦.
(٢) أنظر الإصطخري: المسالك والممالك ص٣٦ ـ ٣٧، ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص٨١.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٢٣٣ ـ ٢٣٤. كذلك أنظر عن الوصف العام لرساتيقها كتاب البلدان: اليعقوبي: ص١٠٥.

١ ـ الإجراء الذي اتخذه عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م ببناء مدينة خاصة به وهي الزهراء إلى الشمال الغربي من مدينة قرطبة. ولم يكتفِ بذلك العمل بل شجع الناس والتجار والأهالي على الانتقال من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة، وهو إجراء يشابه إلى حدٍّ ما، ما قام به الخليفة أبو جعفر المنصور من إلزام التجار وأصحاب الأسواق على الانتقال من المدينة المدوَّرة إلى الكرخ. ولتأكيد عَزْمِهِ في إعطاء أهمية متميِّزة إلى مدينته الجديدة الزهراء، فإن عبد الرحمن الناصر نَقَلَ محلَّ إقامته ومقرَّ سلطانه من قرطبة إلى المدينة الجديدة وانتقلت تبعاً لذلك المؤسسات الإدارية والمنشآت المرتبطة بوجوده.

٢ ـ العامل السياسي: دون شك أن عبد الرحمن الناصر قد صمّم على تَرْكِ مدينة قرطبة لدوافع متعدّدة، ولم يكن الأمر كما يظن لأول مرة مجرَّد رغبة خاصة به أو بإحدى جواريه كما تشير الروايات. إن المتمعِّن بدراسة الأحوال السياسية داخل قرطبة يجد نفسه أمام مدينة برزت فيها الاضطرابات السياسية والفتن الاجتماعية بين العرب الشماليين والعرب الجنوبيين من جهة وبين هؤلاء والبربر من جهة ثانية، وقد تطوَّرت هذه المشاحنات والمنازعات إلى درجة كبيرة وأضرَّت بالأحوال الأمنية داخل المدينة كما أقلقت من وحدتها. ويصوِّر صاحب الروض المعطار أحوال المدينة على أثر هذه العوامل السياسية قائلاً: (وبعد ذلك طحنتها النوائب واعتورتها المصائب وتوالت عليها الشدائد والأحداث فلم يبقَ من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها وقنطرتها التي لا نظير لها..)[1]. ويضيف في جانب آخر من وَصْفِهِ بأن هذه التوتُّرات السياسية قد أدت إلى نكبتها وأفول نجمها (فلما عثر جدها وخوى

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص٤٥٨ ـ ٤٥٩.

نجمها وضَعُفَ أمر الإسلام واختلَّت بالجزيرة كلمته تغلَّب عليها النصارى وحكموا عليها في شوال من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة)[1].

إن بناء الناصر لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ لا يعني انتهاء دور مدينة قرطبة نهائياً في تلك السنة. ففي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، مثلاً وصل المدينة رسول ملك الروم قسطنطين بن ليون حاملاً رسائل من الملك إلى الناصر واستقبله الناصر في مقبرة بالمدينة. كما وصل مدينة قرطبة سنة ٩٤٦/٣٣٥م أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيدان الأباضي رسولاً عن والده أبي يزيد واستقبله الناصر في قصر الرصافة في قرطبة. كذلك قرىء في سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م كتاب انتصار أحد قواد الناصر على أهالي جليقية في المسجد الجامع في قرطبة. وفي سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، وصل حميد المكناسي من المغرب إلى قرطبة فاستقبله الناصر بالجيش والزينة. وفي سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م وصل أحمد بن الاطرابلسي رسول النوري بن موسى بن أبي العافية إلى قرطبة حاملاً كتاباً إلى الناصر. وفي سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م، وصل وفد من البربر، كانوا قد تمرَّدوا على الناصر، إلى قرطبة طالبين الأمان فكساهم الناصر.[2] وغير ذلك من الأحداث التي تدلل على أن المدينة بالرغم من تأسيس الزهراء ظلّت تمثِّل المركز الإداري للناصر لكن أهميتها اقتصرت على كونها المدينة الأم. أما الزهراء فصارت مدينة الناصر حتى إنه عندما عَزَلَ عبد الله بن محمد صاحب السكة في قرطبة عيَّن بدله عبد الرحمن ونُقِلَتِ[3] السكة إلى الزهراء.

فالاحوال السياسية التي آلت إليها المدينة تؤكد أنها أثَّرت كثيراً على وَضْعِها الاجتماعي السكاني والعمراني. وأن المؤرِّخين يذكرون العديد من الأمثلة التي تبيِّن توتُّر الأوضاع السياسية في المدينة مثلما حدث مثلاً عندما تغلَّب عليها

(١) ن. م.
(٢) أنظر ابن عذاري: البيان المغرب ج٢ ص٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦.
(٣) أنظر ابن عذاري: البيان المغرب ج٢ ص٢١٥.

محمد بن هشام بن عبد الجبار وما واجهه من هجوم قادة سليمان بن الحكم وجيش من النصارى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م، ودخول المهاجمين المدينة وقَتْلِهِم حوالي ثلاثين ألفاً من أهل قرطبة... وما حدث في هذه السنة أيضاً من توتُّر بين البربر وأهالي المدينة امتد حتى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وفي سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، سيطر البربر على قرطبة، وكانت الأحوال قبل دخولهم مثيرة، إذ يذكر ابن عذاري أن هؤلاء عندما سيطروا على مدينة شقندة قتلوا الناس وخرَّبوا المدينة (فلم يزل الحال إلى أشد اضطراب والطريق خالٍ.. والحرب كل يوم قائمة والقتل ذريع فكانوا في نقص الأموال والأنفس وانضم مع ذلك الوباء والمرض..... وواضح في كل ساعة يحدث الناس بالكذب والارجاف بالبربر بما لا نهاية له ويخرج أهل قرطبة كل يوم للقتال فلا يتجاوزون خندقهم ويصاب منهم فيرجعون..) وقد أدت هذ الاضطرابات إلى إضعاف مكانة قرطبة الاقتصادية لأن البربر قطعوا وصول الميرة إلى المدينة فاشتدَّ الجوع بالناس وانعدمت المواد الغذائية. ومع وجود هذه الظروف التعيسة، فإن أهل قرطبة انشقّوا على أنفسهم فسادت الفتن فيما بينهم بين متعصب للبربر ومعادٍ لهم. كذلك اضطربت الأوضاع فيها سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وسنة ٤١٣هـ/١٠٢٣م. وأن خير تعبير للمِحَنِ التي دارت في المدينة وتطلُّع أهاليها إلى الأمان والسلام عندما اجتمعت آراؤهم على تفويض الأمر إلى أبي حزم جهور بن محمد بن جهور سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وعدَّدوا فضائله فيقول ابن عذاري: (فأعطوا منه قوس السياسة باريها وولّوا أمر الجماعة أمينها فاخترع لهم لأول وقته نوعاً من التدبير حملهم عليه وأجادوا السياسة فانسدل الستر على أهل قرطبة[1] مدته).

٣ ـ عوامل عارضة أخرى: إن تأسيس مدينة الزهراء والتوتُّرات السياسية كان لها الأثر البالغ في انحلال أوضاع المدينة الاجتماعية والاقتصادية. وقد زاد الطين بلّة حدوث المجاعات والأمراض

---

(١) أنظر ابن عذاري: البيان ج٣ ص٤٩ ـ ٥١، ٥٥، ٨١، ٨٥، ٨٦ ـ ٨٧، ١٠١، ١١٧، ١٣٣، ١٥٠ ـ ١٥١، ١٨٧.

والعوارض الطبيعية، ففي سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م غلت الأسعار وعمَّ القحط لعدم تساقط الأمطار، وفي سنة ٣٣١هـ/ ٩٤٢م ارتفعت المياه ارتفاعاً عظيماً فخرب جزءٌ من قنطرتها، وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م حدث زلزال عظيم مدمِّر في المدينة (لم يُرَ قط مثلها ولا سمع من قوتها. . . ودامت ساعة ففزع أهل قرطبة فزعاً شديداً ولجأوا إلى المسجد فيها) وأعقبت هذه الزلازل ريح عاصفة شديدة اقتلعت الكثير من أشجار الزيتون والتين والنخيل وغيرها من أشجار الفواكه. وجاء بعد هذه الريح القوية مطر شديد وبرد كبير قتل الحيوانات والطيور والماشية وأتلف الزروع. وبعدها بسنة أي ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م هبت ريح شديدة ونزل معها برد كبير أتلف المزروعات. وفي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م وقع فيضان عظيم في قرطبة حتى إن المياه ارتفعت فبلغت البرج الذي يُعرف ببرج الأسد، وهدَّم الجزء الأخير من القنطرة وهدَّم جزءاً من الرصيف. وفي سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م حدث قحط في المدينة[1]. وفي سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م وقع زلزال مدمِّر في المدينة. إن هذه الأمثلة من العوارض الطبيعية والمناخية، كما رأينا، أضرَّت أيضاً بأحوال مدينة قرطبة وتفاعلت مع العوامل الأخرى في إبراز عوامل الانحلال والضعف على المدينة، ولا بدَّ أنها أيضاً أثَّرت على الوضع الاجتماعي والسكاني والاقتصادي.

* * *

تُعَدُّ فترة سيادة الموحِّدين من أبرز الفترات التاريخية التي ظهر فيها انحلال أحوال مدينة قرطبة وضَعُفَتْ مكانتها وتضاءلت أهميتها. وفي مقابل ذلك انتعشت مدينة إشبيلية التي صارت هي المدينة العاصمة في الأندلس بدلاً من قرطبة. ثم توالت النكبات على المدينة فكان هجوم فرناندو الثالث ملك قشتالة

(١) ابن عذاري: ج٢ ص٢٠٠، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٠.

وليون سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م ضربة موجعة أخيرة في حياة واستمرار المدينة، فقد فرض عليها القشتاليون حصاراً استمر حوالي أربعة أشهر أبدى العرب مقاومة عنيدة خلال هذه المدة لكن الحظ لم يسعفهم في الصمود أمام حصار القشتاليين الذين دمَّروا السور ودخلوا المدينة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وقد جرت معركة محتدمة في داخل المدينة قتل فيها القشتاليون الكثير من سكانها. فكان سقوط قرطبة بأيديهم يعني الإعلان عن نهاية عظمتها ومجدها فرفعوا الصليب على المسجد الجامع واضطر سكانها العرب إلى تَرْكِها[1].

## الزهراء:

لم تكن الأسس التمدنية الرئيسة في ظهور ونشأة مدينة الزهراء المتفرِّعة أصلاً من المدينة الأم، قرطبة، جديدة ومقتصرة على هذا النموذج فلقد شهد تاريخ التمدن العربي الإسلامي عدداً من النماذج الأخرى المتشابهة في أُسُسِ تكوينها كما هي الحال في مسألة بغداد وانبثاق مدينة سامراء، ومسألة الفسطاط وظهور العسكر والقطائع ومسألة القيروان وانبثاق صبرة ورقادة والقصر وغير ذلك من الأمثلة الأخرى. ومع أن بعض المؤرِّخين قد حدَّدوا جملة أسباب جعلوها الأسباب الرئيسية الدافعة إلى ظهور الزهراء. وذلك أن من بين العوامل التي دفعت عبد الرحمن الناصر إلى تشييده المدينة شخصية بحتة، فيرى البعض من المؤرِّخين أنه أسسها تلبية لرغبات إحدى جواريه المعروفة (الزهراء) في أن يؤسس لها مدينة تحمل اسمها، وأن البعض منهم من جَعْلِ هذه الجارية تمتلك ثروة طائلة وأن عبد الرحمن الناصر لم يجد منفذاً لإنفاق هذه الثروة إلا ببناء مدينة. وهناك قسم من المؤرِّخين من يحاول إرجاع فكرة تأسيس الناصر للزهراء إلى عامل يتعلق بمدى اهتمام الناصر وحبِّه للعمران والبناء، بينما يرى آخرون بأنه ابتنى هذه المدينة لأنه أراد أن يظهر عظمته وأبهة خلافته بعد أن حقق شهرة واسعة في أوروبا من خلال انتصاراته العسكرية وتوحيده البلاد بعد أن كانت

---

(١) ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٢٤، الروض المعطار ص٤٥٩، عبد العزيز سالم: ص١٥٣ - ١٥٤.

تعاني الكثير من الفتن والانقسامات فاندفع إلى بناء مدينة عظيمة شامخة جديدة أنفق عليها أموالاً كثيرة واستخدم في بنائها آلاف العمّال غير الفنيين وأعداداً كثيرة من العمّال والمهندسين والبنائين.

ولو أخضعنا هذه العوامل منفردة أو مجتمعة للمناقشة نخرج بنتيجة مشتركة هي أن العامل الذي دفع الناصر إلى بناء مدينة الزهراء لا يختلف كثيراً عن العامل المباشر والأساس الذي دفع الأغالبة والفاطميين مثلاً إلى تأسيس المدن الملحقة بمدينة القيروان وهي صبرة ورقادة والمهدية، وهو أيضاً لا يختلف كثيراً عن العامل المباشر الذي دفع ابن طولون ومن بعده جوهر الصقلي إلى تأسيس مدن القطائع والقاهرة، كما أنه لا يختلف عن العامل أو مجموعة العوامل التي دفعت بالخليفة العباسي المعتصم إلى بناء مدينة سامراء ولا سيما إذا ما جعلنا عملية بناء مدينة الزهراء ضِمْنَ الظروف العامة للدولة والمحتوى العام للفترة التاريخية، وبشكل أخص بظروف عبد الرحمن الناصر منذ توليته. فلقد تولى الناصر الولاية من سنة ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م. وهي فترة ملحّة جداً بسبب الأزمات السياسية التي مزّقت وحدة البلاد بكثرة الفتن والاضطرابات. وعلى هذا الأساس، فإن المتغيِّر السياسي المهم جداً الذي أسهم في تشكيله الناصر وذلك بإعلان نفسه خليفة للمسلمين سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م، قد جلب عدة نتائج خطيرة في الأندلس من أهمها الاستقلال السياسي التام عن جسم الدولة العباسية المركزية وتحويل النظام السياسي من مرتبة الولاية إلى الخلافة. ولأجل حماية هذا التحوُّل السياسي الخطير، قام الناصر بعدة خطوات وأعمال أهمها، الوقوف بحزم ضد التوسع السياسي والعسكري للفاطميين في شمال أفريقية ومصر وساحل البحر المتوسط وذلك عن طريق تطوير وتقوية الأسطول البحري في الأندلس وتحصين وتقوية الثغور الساحلية المواجهة للساحل المغربي، كذلك فَرْضُ السيطرة العسكرية على المراكز الثغرية في المغرب ولا سيما تلك التي تطلُّ على مضيق جبل طارق من أمثال مدينة مليلة التي أفلح في السيطرة عليها سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٧م، وبعد أن ضمَّها إلى مناطق نفوذه ابتنى عليها سوراً، ثم استيلاؤه على مدينة سبتة وطنجة في حوالي سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م. وقد قام بتلك

الأعمال السياسية والعسكرية لضمان الساحل المغربي، لكنه لم يكتفِ بذلك، فإنه التفت إلى الأحوال السياسية في إسبانيا وخاصة ما يشكله الخطر الإسباني من مواجهة وتحدٍّ فركّز على مراقبته ورَصَدَ تحركات الإسبان في القسم الشمالي من البلاد، ودخل عدة معارك وحروب مع الإسبان المتمرّدين استطاع من خلالها أن يستعيد السيطرة على حصن ومدينة أستجة ومعاقل جيان وحصن المنتلون والمعاقل الموجودة بجهة بشيرة حتى توغّل بجيوشه إلى جبل الثلج فاحتل حصن شبيلش وهو من أعظم حصون ابن حفصون. وأعاد فَتْحَ رية والجزيرة وقرمونة ولبلة ومطونية ومدينة بلدة واحتل مدينة بيشتر وحصن طرش ومدينة قلونية وتطيلة وحصن قلهرة وغير ذلك من الحصون والمدن التي كانت تتحدى الوجود العربي في إسبانيا. باختصار فإن عبد الرحمن الناصر نجح نجاحاً عسكرياً وسياسياً باهراً سواء أكان في داخل بلاد الأندلس أم خارجها، وخير من يمثّل إمكانيته هذه وأعماله وانتصاراته قول ابن عذاري الذي جاء فيه (وولى والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطرم شقاقاً ونفاقاً، فأخمد نيرانها وسكن زلازلها وغزا غزوات كثيرة وكان يشبه بعبد الرحمن الداخل)[١].

لقد رافقت إنجازات الناصر العسكرية الكبيرة هذه تطوُّرات تمدنية عمرانية واجتماعية واقتصادية، فكان من الطبيعي أن يفكر الخليفة الجديد في الانتقال من المدينة القديمة إلى مدينة جديدة يُنْسَبُ تأسيسها إليه وكان الموضع الذي اختاره لتأسيس مدينة الزهراء لا يبعد كثيراً عن المدينة الأم، قرطبة. ويبدو أن موضع الزهراء يتمتع بأصالة تمدنية قديمة، إذ كان الموضع يسمّى قديماً قومريط وهو يبعد حوالي أربعة أو خمسة أميال إلى الجانب الغربي من مدينة قرطبة. وكان يقع على سفح جبل يسمّى العروس وسمّاه ابن حوقل جبل بطلش[٢].

ويشير ياقوت الحموي إلى نقطة تبدو مهمة في هذه المرحلة التاريخية من حياة الخليفة الناصر، إذ قال إنه ابتنى الزهراء (وعملها متنزهاً له)[٣]. والحقيقة

---

(١) أنظر ابن عذاري: البيان ج٢ ص١٥٧، ١٦٩، ١٧٢ ـ ٢٠٤.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٠٧، الروض المعطار ص٢٩٥.
(٣) ياقوت الحموي: ج٣ ص١٦١.

أن استعراض طريقة بنائها والمنشآت الأولى التي ابتُنِيَتْ بها وما استُخْدِمَ فيها من مواد إنشائية غالية وثمينة وما احتوى قصر الخليفة من مجالس جميلة مترفة مثل المجلس المؤنس والمجلس البديع، والبساتين الواسعة الجميلة التي احتوت على برك وبحيرات للأسماك والسباحة تؤكد إشارة ياقوت الحموي إلى أن الناصر ابتنى الزهراء لتكون متنزهاً له بعيداً عن المدينة القديمة الصغيرة التاريخية المكتظة بالناس والمؤسسات الإدارية. ولذلك فإنه من الممكن القول بأن الخليفة الناصر لم يهدف من وراء تأسيسه للزهراء إلى تحقيق أمور استراتيجية أو عسكرية أو أنه كان يهدف إلى عَزْلِ جنده وعسكره ومواليه إنما أراد فيها مكاناً جميلاً جديداً. والدليل على ذلك أن مدينة قرطبة ظلت تمثّل العاصمة حيث كان يستقبل فيها الوفود والرسل في الوقت الذي كان العمل فيه ماضياً في بناء الزهراء الذي استغرق حوالي أربع سنوات ابتداء من سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، وأنه لم ينتقل إليها مع حرسه وجنده وخدمه إلى بعد مرور سنة من إكمال بنائها. كما أن عدداً من المؤسسات الإدارية كالسكة (دار الضرب) مثلاً بَقِيَتْ في قرطبة ولم تنتقل إلى الزهراء إلا في سنة ٣٣٦هـ،[(١)] أي بعد حوالي ست سنوات من تأسيس الزهراء. أما إذا دققنا بالوحدات العمرانية التي اهتم الناصر ببنائها في المرحلة الأولى، فإننا نجد أنه لم يُعْطِ أهمية خاصة إلى الأسس الأصلية في تركيب المدينة الإسلامية أو بمعنى آخر الأسس التمدنية لمدينة العاصمة كالمسجد الجامع والمنشآت الإدارية لأنه بعد أن ابتنى مجمع قصوره والبساتين الواسعة وأسّس أبواب المدينة اختطّ فيها الأسواق ثم ابتنى الحمّامات والخانات والمتنزهات. فضلاً عن هذا كلّه، فإن الناس أو أهالي مدينة قرطبة يبدو أنهم لم يشغلوا أنفسهم في بداية الأمر بهذه المدينة أو بالأحرى لم يفكروا بالانتقال إليها وظلوا في المدينة القديمة قرطبة. ومما يؤكد هذا الرأي ما أشار إليه ابن حوقل الذي يُعَدُّ معاصراً لفترة تأسيس الزهراء، إذ قال إن الناصر حينما بنى المدينة (اجتلب لها العامة بالرغبة وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الأندلس: إلا من أراد أن يبتني داراً أو أن يتخذ مسكناً بجوار السلطان فَلَهُ من المعونة

(١) ابن عذاري: البيان ج٢ ص٢١٥.

أربع مائة درهم) حينئذٍ يشير ابن حوقل تسارع الناس على الانتقال إليها وبناء الدُّور والعمارة، ويعقِّب تعقيباً جميلاً قائلاً فيه: فتكاثفت على أثر ذلك (الأبنية وتزايدت فيها الرغبة). على اعتبار أن الناس في بداية الأمر لم يرغبوا في سكناها واتخاذ بيوتهم فيها فكانت عبارة عن مجمع قصور الخليفة وبساتينه فلما شجّعهم الناصر وأغراهم بالأموال ازداد إقبالهم على الانتقال إليها والبناء فيها فاتصلت الأبنية والأحياء السكنية بين قرطبة والزهراء. في هذه المرحلة من انتقال الناس قام الخليفة بالإجراء المهم وهو نقل بيت المال والديوان والسجن والخزائن والذخائر[١].

## خطط مدينة الزهراء:

تُعَدُّ مجموعة قصور الخليفة والمجالس الموجودة داخلها من أهم الوحدات العمرانية التي شغلت مساحة واسعة من المدينة الجديدة التي كلّف بناؤها مبالغ طائلة. وقد وَصَفَ ابن عذاري المواد الإنشائية التي دخلت في بناء هذا المجمع فقال أولاً بأنه كان يصرف يومياً من الصخر المنجور في البناء حوالي ستة آلاف صخرة منجورة ما عدا التبليط الذي دخل في بناء الأُسُس. وقد جلب الناصر الرخام من مدن وبلدان مختلفة كقرطاجنة وتونس، وقد وكلَّ جماعة في جَلْبِهِ (الأمناء) وهم عبد الله بن يونس وحسن القرطبي وعلي بن جعفر الاسكندراني. وكان الناصر يعطيهم على جلب كل رخامة ثلاثة دنانير وعلى كل سارية ثمانية دنانير سجلماسية فكانت عدد السواري التي جُلبت (٤٣١٣) سارية كان منها حوالي ١٠١٣ سارية قد جُلبت من أفريقية وقد أهدى إليه ملك الروم (١٤٠) سارية، أما الباقي فكان من رخام الأندلس. وقد أشار ياقوت الحموي في هذا المجال أن الناصر أنفق على عمارة الزهراء من الأموال (ما تجاوز فيه عن حدّ الإسراف) وأنه قد قسم جباية بلاد الأندلس الى ثلاثة جوانب: ثلث مواردها كانت تُصرف على الجند، والثلث الثاني لبيت المال أما الثلث الآخر فهو لنفقة بناء وعمارة مدينة الزهراء، وقد قُدِّرت أموال النفقات بالدراهم القاسمية نسبة

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٠٧.

إلى عامل دار الضرب وهي دراهم فضة خالصة (٨٠) مديا و(٦) أقفزة وأكيال. وكان وزن المدى ثمانية قناطير والقنطار (١٢٨) رطلاً والرطل (١٢) أوقية. أما القيمة سِمَة أقفزة فكانت نصف المدى[1].

كانت مجموعة قصور الخليفة الناصر في مدينة الزهراء تحتوي على (١٣٠) داراً وأحصاها ابن عذاري بـ (٤٠٠) دار، جميع هذه الدُّور معدَّة لسكن السلطان وحاشيته وأهل بيته، وذكر أن عدد الغلمان الصقالبة كان (٣٧٥٠) غلاماً، أما عدد النساء الموجودات الكبار والصغار وخدم الخدمة فكن (٦٣٠٠) امرأة. وتتضمن هذه المجموعة أيضاً المخازن والسجن الكبير. وكان قصر الخليفة يقسم إلى مجلسَيْنِ كبيرَيْنِ المجلس الشرقي وهو يمثِّل بيت الخليفة والمجلس الغربي ويسمّى بالمجلس البديع، وكان هناك بهو أوسط يربط بين الدارين. وأشار ابن عذاري إلى اليتيمة الموجودة في هذا المجلس البديع بأنها من تحف القيصر اليوناني صاحب القسطنطينية بعث بها إلى الناصر مع تحف كثيرة. وكان في هذه المجموعة حوض غريب منقوش يحتوي على تماثيل مذهَّبة، وقد وَضَعَهُ الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي الذي يسمّى بالمجلس المؤنس وعليه (١٢) تمثالاً من الذهب الأحمر المرصَّع بالدرِّ النفيس، وقد تمَّ صُنْعُ ذلك في دار الصناعة بقرطبة[2].

وعندما نَقَلَ الناصر المنشآت الإدارية كبيت المال والديوان أنشأ داراً لصناعة الآلات التي يحتاجها. كما أن الغلمان الصقالبة ودُور العبيد والكثير من الجند كانت تقع في الجانب الغربي من المدينة خارج مجموعة القصر، أما دُور الوزراء والأشراف وكبار رجال الدولة فكانت تقع في الجانب الشرقي.

أما المسجد الجامع فكان صغيراً في مساحته وأصغر من مسجد جامع قرطبة وقد استغرق العمل في بنائه ثمانية وأربعين يوماً فقط، ويبدو أن الأهمية الأولى كانت لمسجد جامع قرطبة الذي بقي يقوم بوظيفته الرئيسية (في صلاة الجمعة)

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج٢ ص٢٣١، ياقوت الحموي: ج٣ ص١٦١.
(٢) ابن عذاري: ج٢ ص١٣١ ـ ٢٣٢.

والثقافية والسياسية. ولعلّ الراجح أن بناء المسجد الجامع في الزهراء جاء بعد فترة الانتهاء من بناء مجموعة القصور، إذ تذكر الروايات بأن أول صلاة جمعة أقيمت فيه كانت في سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م.

كانت المدينة تحتوي على خمسة عشر ألف باب منها الأبواب المصنوعة من الحديد ومنها المصفحة بالنحاس ومنها أبواب خشبية.

لقد اشتهرت مدينة الزهراء بأنها حاضرة الخلافة خلال فترة حكم الناصر وابنه الحكم الثاني المستنصر بالله الذي قام بإضافة بعض الإضافات في المدينة ووصلت المدينة أوجها خلال هذه الفترة. غير أنه من المهم القول بأن الخليفة الناصر وابنه الحكم قد افتتح خلافته بتعمير مسجد جامع قرطبة وزيادة مساحته لأنه كان يضيق بالمصلّين وذلك من جهة الساباط. وأنه كان يستقبل الوفود في قرطبة أيضاً. كما أنه ابتنى في سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م دار الصدقة إلى الجانب الغربي من المسجد الجامع في قرطبة[١]. كل ذلك يؤشر إلى أن الخليفة الحكم الثاني قد أعاد إلى قرطبة هيبتها التي فقدتها.

## انحلال أحوال الزهراء:

لقد تبيَّن لنا من خلال الدراسة السابقة أن العوامل التي أدت إلى ظهور مدينة الزهراء شخصية إلى درجة كبيرة ارتبطت ارتباطاً قوياً برغبة الخليفة الجديد الناصر في تشييد مدينة نَزِهة تبعده عن المدينة الأم المزدحمة الضيِّقة ذات الوحدات العمرانية القديمة. وعلى هذا الأساس، فإن ديمومة واستمرار حياة الزهراء صارا أيضاً مرتبطين بحياة مؤسسها، تماماً كما هي الحال في المدن المؤقتة التي أتينا على بعضها في السابق. ثم هناك أمر مهم آخر له علاقة بمدينة الزهراء وعدم استمرار بقائها مدة طويلة بعد وفاة مؤسسها وهو أنها كانت تفتقر إلى العوامل المساعدة التي تجعل أحياناً من بعض المدن الوقتية الشخصية مدناً ذات وظيفة متميِّزة كمدينة سوق أو مدينة مرفأ أو مدينة عسكرية.. الخ.

---

(١) أنظر ابن عذاري: البيان المغرب ج٢ ص٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤١.

والظاهر أن الزهراء لم تستطع أن تبرز مكانة وأهمية قرطبة التجارية ناهيك عن مكانتها وأصالتها التاريخية.

لقد برزت عوامل الانحلال والضّعف في مكانة الزهراء بعد وفاة الخليفة الناصر سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، ووفاة ابنه الحكم الثاني المستنصر في سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م. وعلى الرغم من أن اهتمام الحكم الثاني كان موجّهاً نحو قرطبة بالدرجة الاولى لكنه لم يترك مدينة الزهراء فكان يقطنها ويستقبل بعض الوفود والرسل فيها، وأضاف إليها بعض الإضافات العمرانية. فبعد وفاة الحكم الثاني بسنتين فقط واجهت الزهراء تحدّيات عمرانية وتمدنية جديدة أدت إلى الإسراع بانحلالها. ففي سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، اتخذ الحاجب المنصور محمد بن عبد الله ابن أبي عامر المعافري اليماني إجراء مماثلاً لما قام به الخليفة الناصر، إذ أسّس مدينة جديدة له تدعى الزاهرة وجعلها مقابلة لمدينة الزهراء. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اتخذها، باعتباره صار متنفذاً من الناحية السياسية، مقرًا لحكمه وولايته بدلاً من المدينة التي أسّسها الخليفة الناصر. فقد ظهر تأثير ابن أبي عامر السياسي خلال فترة المستنصر بالله، الحكم الثاني، إذ أنيطت إليه جملة وظائف مهمة مثل وكالة دار السكة والخزانة وخطة المواريث، واستقضاه المستنصر على كورة إشبيلية وليلة وأعمالها، وصار بعدها والياً على الشرطة الوسطى، ثم أمر عمّاله وقوّاده ألا ينفّذوا أمراً دون موافقة ابن أبي عامر وبعدها أضاف اليه مسؤولية النظر في الحشم. فيقال إن نفوذه اتسع كثيراً جداً بحيث إنه عَزَلَ الخليفة في القصر الخلافي في الزهراء وسوّره بسور ثم حفر خندقاً حوله من الجانبين وفرض حراسة مشدّدة على الخليفة هشام بن الحكم ومَنَعَهُ من الظهور والاتصال بالناس وبذلك تحوّل القصر إلى سجن بينما نزل هو والجند والناس في مدينته الجديدة الزاهرة ونَقَلَ إليها كل المنشآت الإدارية كالدواوين والأعمال. لذلك أثر هذا الإجراء تأثيراً جذرياً على الزهراء وذلك بتحجيم أهميتها وتحويلها إلى مجرّد قصر مسوّر بسور وخندق لسكنى الخليفة الذي لم يكن يمارس أيَّ صلاحيات. فتدهورت أحوالها العمرانية والاجتماعية والسكانية وانقضى دورها، ولم يَعُدْ الناس والأهالي يرغبون في المكوث فيها، وبطبيعة

الحال فإنهم التفتوا إلى المدينة الجديدة، مقرّ السلطان الجديد، فتحوَّلوا إلى الزاهرة.

وبالإضافة إلى هذا العامل السياسي العام، فإن هناك عوامل أخرى تُعَدُّ بمثابة العوامل المساعدة في أفول نجم مدينة الزهراء من بينها:

١ ـ **العوامل السياسية**: وتتمثل بالأحداث السياسية التي شهدتها سنوات ٤٠٠ إلى ٤٠٣ هـ/١٠٠٩ ـ١٠١٢م، وأعني حركات البربر في مدينة قرطبة، وما تبع ذلك من تأثير على مدينة الزهراء إذ انتقل البربر بعد دخولهم قرطبة إلى الزهراء واستقروا بها. غير أن تبدُّل الأحوال السياسية وفشل حركة البربر سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩ أدى الأمر بهم إلى إخلاء المدينة وتَرْكِها، فقام أهالي المدينة الأم قرطبة، انتقاماً من البربر، بالتوجُّه إلى الزهراء والسيطرة عليها ونهبها، ونهبوا ما كان موجوداً في المسجد الجامع من حصر وقناديل ومصاحف وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه. غير أن البربر عاودوا الأمر ثانية بعد أن وحَّدوا صفوفهم فرجعوا إلى الزهراء سنة ٤٠١هـ/١٠١٠ بعد أن فرضوا عليها حصاراً شديداً دام ثلاثة أيام. كان دخولهم هذه المرة لا لغرض اتخاذها مكاناً لهم إنما لمعاقبة أهلها والانتقام منهم ففتكوا بأهاليها وأحرقوا القصر والمسجد الجامع[(١)]. وأغاروا على ضواحيها ونهبوا الأموال وأحرقوا العمران والقرى.

٢ ـ **الأزمة المالية**: لقد تعرضت فترة المستكفي بالله محمد بن عبد الله ابن عبيد الله بن الناصر إلى أزمة مالية خانقة دفعته إلى محاولة الانتفاع من المواد الإنشائية والعمرانية لمدينة الزهراء، وهي حالة شاذة، فقد باع سواري المدينة والأعمدة الرخامية التي كلَّفت الناصر كثيراً جداً والتي جُلِبَتْ من مختلف الأرجاء، ثم باع أخشاب المدينة ومجموعة القصور، وقد أدى عمله هذا إلى تهديم

---

(١) أنظر ابن عذاري: ج٣ ص٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٢، ١٠٧.

هذه القصور، وبيع الأنقاض المعدنية والحجرية والرخامية والخشبية. ويشير الدكتور عبد العزيز سالم[1] إلى أن فترة حُكْم محمد بن جهور هي الفترة التي ابتدأ فيها هذا الإجراء التخريبي إذ بيعت أخشابها ونحاسها وحديدها ومرمرها، وكانت رسل ملوك الطوائف تتردَّد على مدينة الزهراء لشراء هذه المنشآت العمرانية فتحوَّلت تلك المدينة الجميلة الشامخة إلى مجرَّد حطام وأنقاض معروضة للبيع فتركها أهلها. وقد أثار منظر هذه الأنقاض وتحوُّل المدينة الجميلة إلى حطام من حفيظة الشعراء فذكروا عظمتها فقال ابن زيدون:

الأَهْـلُ إلـى الـزَّهْـراءِ أوبَـةُ نـازِحٍ ... نَقَضَـتْ مَـبـانيـها مَدامِعُهُ مَنْـحا

مَـقـاصِـرُ مُـلْـكٍ أَشْـرَقَـتْ جـنَـبـاتُـهـا ... فَخِلْنا العشاءَ الجَوْنَ أثناءَها صُبْحا

يُـمَـثِّـلُ قَـرْطَـبْـهـا لِـي الـوَهْـمَ جُـهْـرَةً ... فَقُبَّتُها فالكَوْكَبُ الرَّحْبُ فالسَّطْحا

وقال هذا الشاعر أيضاً:

إنّـي ذَكَـرْتُـكِ بـالـزهـراءِ مُـشْـتـاقـا ... والأُفْـقُ طَـلْـقٌ ووجهُ الأرضِ قدْ راقـا

ولـلـنَّـسـيـمِ اعـتِـلالٌ فـي أصـائـلِـهِ ... كـأنَّـمـا رَقَّ لـي فـاعْـتَـلَّ إشْـفـاقـا[2]

صارت مدينة الزهراء منذئذٍ عرضة لمعاول الهدم والتخريب والتشويه إلى أن غدت أطلالاً خربة قليلة الأهل والعمران، ووَصَفَها الإدريسي بأنها خرائب، ثم ازداد خرابها عندما استولى القشتاليون على مدينة قرطبة في سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، فوُصِفَتْ بأنها مجرَّد أطلال لا تشير إلى تلك العظمة التي كان الخليفة الناصر يقصدها من وراء تأسيسها.

---

(١) عبد العزيز سالم: ص٢٥٠ ـ ٢٥٦.

(٢) ياقوت الحموي: ج٣ ص١٦١، الروض المعطار ص٢٩٥.

## الزاهرة:

تدخل مدينة الزاهرة ضِمْنَ مجموعة المدن المرحلية التي انبثقت من مدينة قرطبة، وأن أسباب ودوافع تأسيسها لا تختلف كثيراً عن تلك التي ساعدت في ظهور مدينة الزهراء. فقد تأسست مدينة الزاهرة إلى جوار مدينة قرطبة كمدينة قصر بالدرجة الأولى لصاحبها المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري الحاجب سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م. ولقد مرَّ بنا سابقاً أن هذا الحاجب بدأ حياته بدايات إدارية بسيطة إلى أن تنفَّذ في الأمور فأصبح الرجل الأول في الدولة وبلغ أوج نفوذه السياسي عام ٣٧١هـ/ ٩٨١م، حينما تلقّب بلقب المنصور وصار اسمه يذكر من على المنابر في صلاة الجمعة. وأضحى هو الشخص الذي تنفذ إليه الأوامر والكتب، حتى صار في الصلاحيات والنفوذ والأهمية مساوياً للخليفة آنذاك هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الملقب المؤيد بالله.

توحي تسمية المدينة الزاهرة بأنها قد شُيِّدَتْ لكي تحلَّ محلَّ الزهراء مدينة الخليفة الناصر، وتنافسها في الأهمية، وبالفعل فانه اعتماداً على أقوال ابن عذاري وآخرين، فإن ابن أبي عامر أراد من هذه المدينة أن يكون الناصر الثاني في العظمة والأهمية، وكانت الظروف والأحوال السياسية للدولة آنذاك في صالحه وهي التي ساعدته على توسيع نفوذه وصلاحياته السياسية والإدارية وساعدته كذلك على تحجيم دور الخليفة الشرعي. إذ إنه أولاً كان يتمتع بصفات متميِّزة من الدهاء والفطنة والجرأة والحنكة السياسية منذ أن ابتدأ حياته الإدارية أيام الخليفة الحكم المستنصر بالله. وتجلَّت هذه العظمة السياسة والصفات المتميِّزة بما حققه من انتصارات في جَمْعِ الجنود إلى جانبه والتغلُّب على تمرُّد الجنود الصقالبة فتقلَّد قيادة الجيش وبدأ عدة عمليات عسكرية ناجحة ضد الممالك النصرانية في قشتالة وليون وبرشلونة. ففي سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م قاد أول غزوة باتجاه الثغر الجوفي وعاد بالسَّبْي والغنائم إلى قرطبة، وفي عيد الفطر من نفس السنة أيضاً قاد غزوة ثانية فافتتح حصن موله وعاد بالسَّبْي والغنائم إلى قرطبة أيضاً. وفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م قاد غزوة ثالثة ودخل فيها مدينة طليطلة

وافتتح عدداً من الحصون وعاد منتصراً إلى قرطبة. كذلك فإنه نجح في خلال عمليات عسكرية أخرى بالإبقاء على الساحل المغربي تحت السيطرة الأندلسية ضد الخطر الفاطمي. لقد برزت هذه النجاحات العسكرية مجالاً واسعاً لتفرُّده وتسلُّطه خاصة بعد مقتل جعفر بن عثمان الحاجب، إذ يقول ابن عذاري إن ابن أبي عامر انفرد بعد ذلك بشأنه واستبدَّ بأمور الدولة (فأخذ في تغيير سير الخلفاء المروانية في استجرار الأمور لنفسه وسبك الدولة على قالبه)[1]. على هذا الأساس جاء تأسيس مدينة الزاهرة أمراً طبيعياً بالنسبة إلى وَضْعِ ابن أبي عامر.

من هذا العرض يمكننا إذن تشخيص العوامل الأساسية التي دفعت ابن أبي عامر إلى تشييد مدينته الجديدة بدلاً من الزهراء وقرطبة.

١ ـ العوامل السياسية: وتتمثل أولاً بما حققه ابن أبي عامر من انتصارات عسكرية جعلت الخليفة يقرّبه ويسلّمه المناصب العالية، فيقال مثلاً إنه بعد عودته من غزوته الثانية عَزَلَ الخليفة هشام الحاجب وقلّد ابن أبي عامر المنصب بدلاً منه. كما أنه تقلّد الباب بولاية الشرطة والجيش لأنه يقوده والدار لعناية الحرم به، وعندما عاد من غزوته الثالثة (زاد له السلطان في التنويه وأنهضه إلى خطة الوزارتين.. ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر وهو راتب الحجابة.)[2] ويحدثنا ابن عذاري أيضاً أن من بين الأسباب السياسية الأخرى لتأسيس المدينة خوف ابن أبي عامر على نفسه وحماية نفوذه وسلطانه. فمن الواضح أن تعاظم أمر المنصور الحاجب (ابن أبي عامر) واستحواذه على مقاليد الأمور سوف يخلق له الأعداء فأصبح لا يأمن البقاء مع الخليفة في مكان واحد، وهو الذي سيطر على سلطان الخليفة وحَجَّمَ دوره. وكان الخليفة آنذاك في مدينة الزهراء. ومما زاد من خطورة الموقف وجود موالي الخليفة وجنده وحاشيته وأنصاره ومؤيديه من جانب، وخوف ابن

---

(١) ابن عذاري: البيان ج٢ ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) ن. م: ج٢ ص٢٦٧.

أبي عامر من بروز أعداء جُدُدٍ من أنصار الحاجب السابق أو من المنافسين لسلطته أو ممَّن يكرهون تنفُّذه واستبداده من جانب ثانٍ. لذلك فإن بناء مدينة قصر له ولجنده وغلمانه وحرسه يجلب له الراحة والاستقرار والطمأنينة السياسية والعسكرية. فاعتماداً على ابن عذاري أن سبب تأسيسه الزاهرة (وذلك عندما استفحل أمره... وظهر استبداده، وكثر حساده، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان..)[1].

٢ ـ **العوامل الشخصية**: كذلك ينبغي أن لا نقلِّل من أهمية هذه العوامل فإن بناء مدينة قصر زاخرة وحصينة تُعَدُّ تعبيراً عما بلغه المنصور من نفوذ وعظمة وهي في نفس الوقت تعكس لمؤيديه وأنصاره القوة والمنعة كما أنها تعكس لأعدائه ومنافسيه القوة والسطوة مقابل نفوذ الخليفة الشرعي. وبذلك يقول ابن عذاري (وسما إلى ما سَمَتْ إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحلّه بأهله وذويه، ويضمُّ إليه رياسته، ويتمّم به تدبيره وسياسته ويجمع فيه فتيانه وغلمانه..)[2].

* * *

إن هذه العوامل السياسية هي التي أثَّرت على ابن أبي عامر أن يختار موضعاً لمدينته بالقرب من قرطبة، إذ كانت تقع في طرف من أطراف قرطبة على الجانب الشرقي من نهرها. فقد أورد ابن عذاري أنها اتخذت على طرف البلد على نهر قرطبة العظيم[3]. ولذلك فإنها كانت تقع إلى الجانب الغربي من مدينة الزهراء. فموقعها يمثِّل أهمية سياسية أيضاً فهي إزاء عاصمة الخلافة القديمة قرطبة، والعاصمة الجديدة الزهراء.

الحقيقة أن حياة هذه المدينة وتطوُّرها قد ارتبط، كما هي الحال في

---

(١) ابن عذاري: ج٢ ص٢٧٥.
(٢) ن. م.
(٣) ن. م،: الروض المعطار ص٣٨٤.

الزهراء، بمؤسسها المنصور الحاجب. وأن الروايات تجمع على أنه بعد أن انتهى من بنائها الذي استغرق سنتين، إذ شرع بالبناء سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م وانتقل إليها في سنة ٣٧٠هـ/ ٩٧١م. إنه انتقل إليها في المرحلة الأولى مع جنده ومؤيديه وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته ثم اتخذ فيها الدواوين والأعمال. وعمل في داخلها الأهراء وأطلق بساحتها الأرحاء. بعد ذلك أقطع الإقطاعات والخطط لوزرائه وكتّابه وقواده وحجابه فابتنوا القصور والدُّور. ويذكر ابن عذاري أن الأهالي أخذوا يتنافسون في النزول بها بعد أن أُنشئت أسواقها وكثرت خيراتها ومرافقها. وازداد الإقبال على بناء الدُّور والقصور والعمران في أطراف مدينة القصر. وكانت قصور الوزراء والكتّاب وغيرهم تقع حول المدينة، بينما كانت بيوت الناس في أطرافها. وقد اتسعت حركة العمران فيها حتى اتصلت بأرباض قرطبة.

لقد قلّد المنصور الحاجب تخطيط مدينته وتوزيع منشآتها ووحداتها ما كان متّبعاً في مدينة الزهراء. فكان قصره يمثّل مجموعة قصور تتسم بجمال البناء والعمارة والموقع ومن بين هذه القصور قصر السور وقصر ناصح والقصر الزاهي. وابتنى حول المدينة سوراً، وأسّس مجموعة قصور ومتنزهات خارج السور. وابتنى في داخلها المسجد الجامع، لكننا لا نعلم فيما إذا كان موقعه من القصر يشابه موقع المسجد الجامع من القصر الخلافي في مدينة الزهراء أم لا.

وقد وُصِفَتِ المدينة بعد اكتمال بناء قصورها وأبنيتها بالجمال فقال عنها ابن عذاري بأنها (في نهاية الجمال، نقاوة وسَعَة فناء، واعتدال هواء رقَّ أديمه وصفاؤه هوا واعتل نسيمه ونضره بستان وبهجة للنفوس فيها افتنان)[1]. حتى قال فيها بعض الشعراء:

تَحُفُّها مِنْ فنونِ الأيكِ زاهرةٌ قد أوْرَقَتْ فِضَّةً إذ أثْمَرَتْ ذَهَبا
بديعةُ المُلْكِ ما يَنْفَكُّ ناظِرُها يَتْلو عَلَى منها آيةً عَجَبا[2]

---

(١) ابن عذاري: البيان ج٢ ص٢٧٥ ـ ٢٧٧، الروض المعطار ص٣٨٤.
(٢) ابن عذاري: البيان ج٢ ص٢٧٧.

حلَّت مدينة الزاهرة محلَّ الزهراء كمدينة إدارية حيث يحلُّها الأمير صاحب السلطة والنفوذ وتُجمع إليها الدواوين، كذلك صارت مركزاً للحكم وقاعدة للجيش، فعيَّن عليها المنصور والياً للإشراف المحلّي، ورتَّب فيها الوزراء، ونصب على بابها كرسي شرطته. وقد كتب إلى مدن الأندلس وولاياته بأن تحمل إلى مدينة الزاهرة أموال الجبايات وأن تكون هي لا الزهراء مقصد الوفود والرسل. فكان من نتائج هذا الإجراء عَزْلُ الخليفة في قصره بالزهراء دون سلطة.

## انحلال أحوال المدينة:

وكما هو متوقع في أمثال هذه النماذج من المدن الشخصية، فإن أوج ازدهارها وفعاليتها وأهميتها تحدَّدت بالفترة التي ساد فيها المنصور وتوسع فيها نفوذه السياسي والعسكري، وأنها، لهذا العامل، لم تعمِّر طويلاً بعد موته إذ أتى عليها الخراب بعد حوالي ثلاثين سنة فقط من بنائها. وبشكل أخصّ خلال الاضطرابات السياسية التي برزت إبان فترة عبد الرحمن بن المنصور المعروف شنجول. ففي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م، أفلح مناوؤه في مهاجمة المدينة واقتحامها، والاستحواذ على ما فيها من خزائن، وهَدَمَ ما أمكن هَدْمُهُ من عمران المدينة وسورها[1]. والظاهر أن أعمال النهب كانت شاملة وسريعة بحيث أدى ذلك إلى اندراس آثارها وصارت أنقاضها من مواد بناء وأخشاب ومرمر وأبواب وأمتعة تباع في الأسواق. وقيل إن مواد بنائها وصلت إلى مختلف النواحي حتى إنها بيعت في أسواق بغداد. غير أن الضربة القاصمة للمدينة ومعالمها جاءت إبان فترة محمد بن هشام بن عبد الجبار عبد الرحمن الناصر الملقَّب بالقلم فإنه بعد أن آلت إليه مقاليد الأمور نَقَلَ كل ما كان موجوداً في قصر مدينة الزاهرة، ولم يكتفِ بذلك، إنما أمر بهدمها وهَدْمِ أسوارها وقلع أبوابها ونقض قصورها وطمس آثارها ومعالمها. وللإسراع في هذا العمل جمع محمد بن هشام الأيدي العاملة الكثيرة وذلك لأنه أراد هَدْمَها فيقضي بذلك على جميع المخاوف من

---

(١) ن. م.: ج٣ ص٤٧ ـ ٥٩ ص٦٣/ المقري: نفح الطيب ج٢ ص١٢١، ١٣١، ١٤٦.

عودة عبد الرحمن بن المنصور ثانية. إذ إن المدينة كانت رمزاً لسيادة ونفوذ عبد الرحمن. وبالنظر إلى ذلك، فإن محمد بن هشام أباح لمؤيديه تخريب المدينة واقتلاع المرمر من قصورها ودُورها، واستمر التخريب عدة أيام إذ يقول ابن عذاري (فبلغوا من تدميرها في أيام قلائل ما لم يقدر أنه يبلغ في مدة طويلة) فكانت نهاية المدينة إذ (عفا رسمها فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس)[1].

لقد كانت نهاية مجد مدينة الزاهرة متوقعة لأنها قد تأسست في الأصل بفعل العامل السياسي الشخصي المتمثل بظهور المنصور الحاجب واتساع نفوذه وأن المنصور الحاجب لم يكن يهدف من وراء تأسيسها إلى بناء مدينة تستند إلى قواعد وأُسُس متينة، إنما أرادها لأهداف سياسية شخصية محضة ليضاهي بها مدينة الزهراء وليقلّل من أهمية وعظمة الزهراء عاصمة الخليفة الشرعي. ولما كان المنصور الحاجب يفتقر إلى هذه الشرعية السياسية بأنه ظهر وبرز على مسرح الأحداث لما يتمتع به من خصائص وصفات شخصية ونتيجة لعدة ظروف سياسية وإدارية كانت قائمة آنذاك، لذلك صارت مدينته مرتبطة ارتباطاً عضوياً بوضعه السياسي. وعلى هذا الأساس بلغت الزاهرة أوج تطوُّرها إبان الفترة التي كان يتمتع بها المنصور بالقوة والعظمة والسيادة، بينما انحسرت مكانتها بعد وفاته وضَعُفَتْ أحوالها أكثر خلال فترة خليفته.

إن الزهراء والزاهرة تُعَدَّان نموذَجَيْنِ واضِحَيْنِ من نماذج مدن القصور أو المدن المؤقتة التابعة للمدينة الأم، قرطبة، فإن مدينة قرطبة ظلَّت هي المدينة المهمة بعد انحلال أحوال تلك المدن المؤقتة.

(١) ابن عذاري: البيان ج٣ ص٦٤ ـ ٦٥.

## الفصل العاشر

# مدن عربية في المشرق الإسلامي

لقد واجهت الأمبراطورية الساسانية والممالك والتكوينات السياسية الأخرى السائدة في المشرق وآسيا الوسطى وجنوب شرقي آسيا تحدّيات عسكرية قوية خلال حركات التحرُّر العربية منذ القرن السابع للميلاد فصاعداً. ولم تقوَ الأمبراطورية الساسانية والتكوينات السياسية القائمة آنذاك على مواجهة التحدِّيات العربية فتهاوت وتساقطت تباعاً أمام تقدُّم الجيوش العربية الإسلامية مدنٌ وأقاليم ومراكز بلاد فارس والسند والهند وآسيا الوسطى. وصارت شعوب تلك البلدان والمناطق الواسعة أمام خيارات دينية وسياسية وحضارية، إما اعتناق الدين الإسلامي والرضوخ لسيادة اللغة العربية والحضارة والسلطة العربية السياسية وإما دَفْعُ الجزية وعَقْدُ الاتفاقيات والمعاهدات المشروطة أو القتال. ولم تمرّ فترة تاريخية طويلة على هذه الحالة حتى دانت هذه المناطق التي صارت منهجياً تسمّى بالمشرق الإسلامي لهيمنة الدولة العربية المركزية. من هذا بات من الواضح القول بأن الجيوش العربية الإسلامية قد حققت انتصارات عسكرية كبيرة وسيطرت على مناطق جغرافية واسعة شملت عشرات بل مئات من المدن والقرى والمراكز التمدنية الأخرى. كيف تعامل المقاتلون العرب مع هذه المؤسسات الحضارية القائمة التي يرجع تاريخ تأسيس الكثير منها إلى فترات تاريخية قديمة؟ هل صحيح أن العرب والجيوش العربية قد خرَّبت هذه المدن والقرى والضواحي والمراكز التمدنية في المشرق الإسلامي كما زعم بعض المستشرقين حينما اتهموا الفتوحات الإسلامية بأنها عمليات غَزْوٍ دمَّرت التمدن

الأوروبي، أم أن العرب حافظوا على تلك المعالم الحضارية وطوّروها؟ وهل أبقوا على أحوال هذه المراكز التمدنية على الهيئة التي كانت عليه قبل مجيئهم أم أنهم أضافوا إليها إضافات وزيادات تتفق ومبادئهم أو ورؤيتهم التمدنية العربية الإسلامية؟ وفي هذا الصدد، فإنه من المعروف تاريخياً أن الكثير من مدن ومراكز المشرق كانت تمثّل مراكز دينية مجوسية أو وثنية فهي تعتبر إما بيوت نار أو معابد أو أنها تضم بيوت نار أو معابد وثنية كما هي الحال في مدن بلاد فارس والسند وجنوب شرق آسيا. ما هو موقف العرب من هذه المعالم أو الوحدات العمرانية الدينية أو المدن الدينية؟.

إن هذه التساؤلات وغيرها تُعَدُّ في غاية الأهمية ونحن نتحدث عن إسهامات العرب الحضارية عموماً وفي حقل المدن والتمدن بشكل خاص. باديء ذي بدء، فإن الدلائل المتوافرة الكثيرة تؤكد بأن الجيوش العربية لم تهدم المدن الفارسية أو السندية أو مدن آسيا الوسطى ولم تَقُمْ بأية أعمال وإجراءات تخريبية لمعالمها العمرانية أو لضواحيها ومزارعها وحقولها الزراعية المنتجة. وأنها لم تنهب أو تحرق أو تدمِّر قلاع هذه المدن أو أسواقها أو حصونها، وهناك كما ألمحنا أدلّة تاريخية لا تحصى تؤيد ما ذهبنا إليه وتدحض المزاعم بأن حركات التحرُّر العربية كانت عمليات غزو موجَّهة ضد المدن والمراكز الحضارية والمعالم العمرانية، والعكس هو الصحيح، فإن العرب في بداية الأمر لم يجازفوا بدخول هذه المدن أو اتخاذها مقرّات سكن لهم كما أنهم لم يسكنوا المدن القديمة إنما تمركزوا عسكرياً في ضواحيها أو أطرافها وهي استراتيجية دفعت العرب عملياً إلى أن يتخذوا ويؤسسوا مراكز ومدناً خاصة بهم. وحينما استقرَّ العرب في المدن القديمة فيما بعد، فإنهم أضافوا إلى وحداتها العمرانية وحدات أخرى تتفق وتفكيرهم في تأسيس المدن. كما أنهم شجعوا إمكانات هذه المدن الاقتصادية وطوَّروا قدراتها الإنتاجية في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية. إن دراسة مؤلّفات الجغرافيين والبلدانيين العرب تكشف بوضوح عن موقف العرب أو الجيوش العربية الإيجابي من هذه المدن في

المشرق الإسلامي، وكيف أن بعضها صار يتمتع بمكانة وأهمية سياسية وحضارية واقتصادية كبيرة في التاريخ العربي الإسلامي أمثال مدينة إصطخر وسمرقند وبخارى ونيسابور والريّ وبلخ وهراة ومرو ومدن طبرستان ومدن الجبال ومدن الديلم ومدن السند، ومدن بلاد فارس العديدة.

* * *

إن الحديث عن إسهامات العرب في حقل المدن في المشرق الإسلامي سيركّز على جانبَيْن، أولهما بموقف العرب من المدن المشرقية الذاتية أو القديمة، ثانيهما يرتبط بتلك المراكز أو المدن التي أسّسها العرب ولم تكن مدناً قديمة.

فمن الواضح، كما تقدَّم ذِكْرُه، أن العرب حرَّروا وفتحوا مدناً ومراكز تمدنية عديدة في بلاد فارس والسند والهند وطبرستان والجبال والديلم وأذربيجان وغيرها من المناطق. وكانت مدن هذه البلدان تتمتع بأصالة تمدنية وحضارية قديمة فيما يتعلق الأمر بوحداتها العمرانية وشوارعها وسككها وحصونها وقلاعها وأسوارها. فماذا كان إذن موقف العرب إزاء هذه النماذج من المدن؟ تبيِّن الأوصاف الجغرافية المتوافرة عن هذه المدن في المشرق الإسلامي بأن العرب اتخذوا عدة إجراءات عمرانية وإدارية منها:

١ ـ اهتموا اهتماماً متميِّزاً بتأسيس المساجد الجامعة ودُور الإمارة وهما وحدتان عمرانيتان أساسيتان في المدن العربية.

٢ ـ طوَّروا وظائف بعض المدن إذ صارت قصبات أو أمصار بمعنى أنها صارت تتفق والمبادىء الفقهية والجغرافية العربية في موضوع المدينة بأن يحلّها الوالي أو الأمير وأن تُجمع إليها الدواوين وتنفَّذ منها الأعمال.

٣ ـ أضافوا إلى وحداتها العمرانية الموجودة وحدات جديدة أخرى، أو أنهم عمَّروا ما تهدَّم من وحدات عمرانية أو رمَّموها وجدّدوها.

٤ ـ اهتمامهم بتوفير المتطلبات الأساسية للمدن كالمياه العذبة من الأنهار والعيون والآبار.

٥ ـ تطوير السّمات الإنتاجية التي اشتهرت بها بعض المدن المشرقية.

فمن بين الاستشهادات حول هذه المواضيع نستشهد بمدينة إصطخر في بلاد فارس، وهي من المدن الفارسية القديمة المهمة التابعة لكورة إصطخر وقد اعتبرها الإصطخري بأنها من أقدم مدن بلاد فارس وأشهرها لأنها كانت تقوم بوظيفة العاصمة الإدارية ومقرّ سكنى ملك فارس قبل أن تتحوّل العاصمة إلى مدينة جور في كورة أردشير. وعندما قَدِمَ إليها العرب زمن الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب سنة ١٨هـ/٦٢٩م بقيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي وقيل إن أهالي المدينة تمرَّدوا على العرب بعد ذلك ففتحت ثانية سنة ٢٣ أو ٢٨هـ/٦٤٣ أو ٦٤٨م، كانت المدينة عند مجيء العرب تحتوي على المعالم العمرانية الآتية:

١ ـ قلعة حصينة مشهورة

٢ ـ السور، وكان مبنياً بالطين ثم الحجارة والجصّ

٣ ـ بيت نار للعبادة وكان معظَّماً عند المجوس

٤ ـ مساكن الأهالي

٥ ـ قنطرة تُعرف بقنطرة خراسان وهي خارج المدينة

٦ ـ توافر المياه من نهر فرواب. كما أن هناك أحواضاً تخزَّن فيها مياه الأمطار يُنتفع منها عند الحاجة[1].

كيف أصبحت أحوالها عندما افتتحها العرب؟ تشير أوصاف الجغرافيين إلى أن قلعة المدينة بقيت تتمتع بالحصانة والمتانة وقد اتخذت في عدة مناسبات ملاذاً لجأ إليها وتحصَّن فيها بعض الأفراد. وذكر أن الخارجي قطري بن الفجاءة

---

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص٧٣، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٤٥، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٣٦، ياقوت الحموي: ج١ ص٢١١ ـ ٢٢١.

قد هَدَمَها، وفي أغلب الظن أنه لم يهدمها تماماً إنما هَدَمَ بعض أجزائها. وأن محمد بن واصل الحنظلي التميمي والي العباسيين زمن الخليفة المعتمد قد أعاد بناءها، وقد عمَّرها أيضاً يعقوب بن الليث الصفار. ووفقاً لما ذكره المقدسي، فإن العرب ابتنوا المسجد الجامع لمدينة إصطخر في وسط الأسواق، ويبدو أنه كان في وسط المدينة. وكانت هذه الأسواق تحيط بالمسجد الجامع من جهاته الثلاث، وهنالك إشارة تبيِّن أن المسجد الجامع قد أخذ موضع بيت النار الموجود في إصطخر. ومن بين الإسهامات العربية الأخرى فقد ذكر أن بني حنظلة اتخذوا مساكن ودوراً في خارج المدينة القديمة. وقد لمع بنو حنظلة اجتماعياً فكانت لهم مكانة ودور اجتماعي واقتصادي وسياسي كبير في إصطخر. وقد استثمر العرب الموارد المائية والاقتصادية للمدينة، فاهتم بنو حنظلة بالزراعة حتى إن عَمْرَ بن عيينة الحنظلي كان يمتلك القرى الزراعية وبلغ خراج الأراضي والقرى التي يمتلكها حوالي (١٠) ملايين درهم. وصارت مدينة إصطخر تشتهر بزراعة الفواكه والقطن[١].

كما أنتجت مدينة إصطخر خلال الحكم العربي عدداً من العلماء والفقهاء، من بينهم القاضي أبو سعيد الحسن بن أحمد بن يزيد الإصطخري وكان أحد أئمة الشافعية وأبو سعيد عبد الكريم بن ثابت الإصطخري وأحمد بن الحسين ابن داناج الزاهد الذي سكن مصر، والجغرافي ابن إسحق إبراهيم بن محمد وغيرهم.

وهناك مدينة نيسابور وهي إحدى مدن خراسان المهمة، وقد كانت أيضاً من المدن الفارسية القديمة التي تأسست أيام الملك الفارسي سابور بن هرمز. وارتفعت مكانتها الدينية عندما أخذ زرادشت فيها بيت النار. وتشير الأوصاف الجغرافية إلى أن العرب حينما قَدِموا إلى هذه المدينة بقيادة والي البصرة عبد الله بن عامر بن كريز أيام خلافة الخليفة عثمان بن عفان كانت نيسابور مدينة قائمة تحتوي على المعالم العمرانية الآتية:

---

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص٧٣، ٧٥، ٨٥، ٩٠، ٩١، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٥٩، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٣٦، ياقوت: ج١ ص٢١١ ـ ٢١٢، مقالة Istakhr في دائرة المعارف الإسلامية (ط/جديدة) بقلم ستريك ومايلز.

١ ـ القلعة، ووُصِفَتْ بأنها كانت قلعة حصينة منيعة عامرة تقع خارج المدينة ويحيط بها رَبَضٌ واسع. وكان للقلعة بابان.

٢ ـ الأسواق وأهمها سوقان كبيران أحدهما يدعى سوق المربعة الكبيرة والآخر سوق المربعة الصغيرة.

٣ ـ فنادق للتجار وخانبارات لتجمُّع وخزن البضائع. وكانت هذه الفنادق كبيرة تمثِّل أسواقاً لتبادل التجارات والبضائع.

٤ ـ موارد مائية تتكون من أنهار كبيرة تجري في قنوات إلى المدينة وهناك آبار مياه عذبة.

٥ ـ للمدينة مكانة تجارية وتتوافر فيها المعادن ولها أهمية في الجوانب الزراعية[١].

ما هو موقف العرب إزاء هذه المدينة وما احتوته من وحدات ومعالم عمرانية وحضارية؟ هنا أيضاً تصوِّر المصادر الجغرافية العربية أحوال نيسابور بعد أن أصبحت تحت الحكم العربي، فتبيِّن أنها ظلَّت محتفظة بأهميتها ومكانتها بعد افتتاحها من قِبَلِ العرب ولعلَّه من الصحيح القول بأن أهميتها ومكانتها قد تعاظمت أكثر مما كانت عليه من الجوانب الإدارية والاقتصادية والاجتماعية. فالأوصاف الجغرافية المتوافرة تؤكد أن قلعة المدينة الحصينة (كانت تسمّى القهندز) بقيت كذلك إذ يقول الإصطخري وابن حوقل بأن قهندزها كان يقع خارج المدينة وكان يحيط بها، وبقيت تحتوي على بابَيْنِ وكان لها رَبَضٌ واسع له أبواب عدة منها: باب القباب الذي يقود الخارج منه إلى منطقة جرجان والعراق. ثم باب جيك ويتوجَّه منه إلى مدن بلخ وما وراء النهر. وباب أحوص أباد ويتوجَّه منه المسافر إلى فارس وقوهستان. وباب آخر يقود إلى طوس. وغير ذلك من الأبواب التي تدلل على سَعَةِ هذا الرَّبَضِ وكأنه مدينة بحدِّ ذاته. وقد أضاف العرب إلى وحدات المدينة العمرانية المسجد الجامع، إذ

(١) أنظر عن ذلك الإصطخري: المسالك ص١٤٥ ـ ١٤٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٦١ ـ ٣٦٢، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٣١٦، ياقوت: ج٥ ص٣٣١ ـ ٣٣٣.

ابتنوه في الرَّبَضِ أيضاً في مكان يدعى المعسكر. وأسَّسوا دار الإمارة بموقع يبعد حوالي ربع فرسخ عن المسجد الجامع في مكان من الرَّبَضِ يُعرف بميدان الحسين. كذلك أسَّسوا الحبس إلى جوار دار الإمارة. وكانت المسافة بين المسجد الجامع ومجموعة دار الإمارة + السجن حوالي ربع فرسخ (أقل من ميل). ويتحدث الجغرافيون عن تصاعد الفعاليات التجارية وعمليات البيع والشراء في أسواق نيسابور، فكان السوقان المشهوران سوق المربعة الكبيرة وسوق المربعة الصغيرة ما زالا يتمتعان بشهرة تجارية واسعة. ويظهر أن المسافة التي تصل بين هذين السوقين قد تحوَّلت وتطوَّرت إلى سوق أخرى، فيذكر الجغرافيون أن هناك الخانات والفنادق التي يقطنها التجار والتي تُجمع فيها البضائع والتجارات. وهناك أيضاً الخانبارات التي صارت مكاناً للبيع والشراء. أما فنادق المدينة فقد كانت منظَّمة ومتخصصة لأنواع البضائع والتجارات فكان كل فندق منها يضاهي سوقاً كبيراً، وهناك فنادق لسكنى التجار الأغنياء وربما تجّار الجملة، بينما كانت هناك فنادق وخانات أخرى معدّة لسكنى أصحاب المِهَنِ والحِرَفِ وأصحاب الصنائع، بمعنى أنها عبارة عن أسواق تحتوي على حوانيت ودكاكين للصناعات والحِرَفِ، فضلاً عن غرف لسكنى أصحاب تلك الصنائع ومن بين تلك التجمعات مثلاً أن القلانسيين كان في سوقهم عدة فنادق فيها الحوانيت والحجر للسكن. وكذلك الحال بالنسبة إلى الأساكفة والخرازين والحبالين.

ليس هذا فحسب، إنما اتسعت المنطقة الجغرافية التي كانت نيسابور تشرف عليها خلال الفترة الإسلامية فأصبحت تشتمل على عدة رساتيق زراعية عامرة وعدة مدن صغيرة مشهورة، وذلك لأن مدينة نيسابور تطوَّرت وظيفتها إلى أن أصبحت داراً للأمير خلال إمارة الطاهريين. وقد عمَّرها أمراء هذه الإمارة وكبَّروها وشجعوا التجار والفعاليات التجارية. وصارت المدينة تشتهر بصناعة الأنسجة كنسيج البزّ وأصناف من الثياب القطنية واشتهرت بالقزّ حيث كان يصدَّر إلى مختلف البلدان. كما أن نيسابور اشتهرت بكثرة معادنها من أمثال الماس الجيد والرخام والأحجار الكريمة الثمينة كالفيروز، والنحاس والحديد والفضة

والبلور وغير ذلك... وشجع الطاهريون الجوانب الثقافية والأدبية فاحتضنوا الكتّاب والأدباء والعلماء والفقهاء حتى قيل إن نيسابور قد خرّجت عدداً لا يُحصى من العلماء والفقهاء المشهورين البارزين من أمثال الحافظ الإمام الحسين بن علي النيسابوري، والنحوي أحمد بن محمد الميداني صاحب كتاب الأمثال ورضي الدين النيسابوري وأبي سعيد عثمان وغيرهم. وقد وجد في المدينة كلٌ من ناصر خسرو وابن بطوطة خلال زيارتهما المدارس ودُور العلم في المدينة، فكان هناك أيام ناصر خسرو في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد مدرسة بينما عدَّ ابن بطوطة مدارسها في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد فوجدها أربع مدارس فيها خَلْقٌ كثير من طلبة العلم وكانت تدرِّس علوم القرآن والفقه[1].

أما مدينة بخارى فقد كانت من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر، وتُعَدُّ أيضاً من المدن القديمة. ومع أنه ليس من الواضح فترة تأسيسها لكنها مدينة قديمة كانت تُعرف ومجكث. ولقد ذكر الجغرافيون أن المدينة كانت، عندما قَدِمَتْ إليها الجيوش العربية، تحتوي على عدة معالم عمرانية أهمها:

١ ـ السور وكان متيناً وكبيراً قُدِّرَتْ مساحته باثني عشر فرسخاً في مثلها. وكان يشتمل على سبعة أبواب حديدية تمثّل اتجاهات جغرافية نحو خراسان وسمرقند وغيرها من الجهات. وهناك أيضاً سور آخر أصغر.

٢ ـ القلعة (القهندز) وكانت تقع خارج المدينة ولها بابان.

٣ ـ بيوت الأهالي، وكان بناؤها يغلب عليه الخشب، وتوجد فيها القصور وغيرها من الوحدات العمرانية الراقية.

٤ ـ أسواق تقع داخل السور الصغير.

---

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص١٤٥ ـ ١٤٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٦١ ـ ٣٦٢، المقدسي: احسن التقاسيم ص٣١٦، ياقوت الحموي: ج٥ ص٣٣٢.

٥ ـ للمدينة أهمية اقتصادية من النواحي الزراعية والصناعية وتحتوي على معادن.

٦ ـ مصادرها المائية من الأنهار.

كيف وقف العرب بعد فَتْحِهِم المدينة من هذه المعالم العمرانية والحضارية. إن الروايات التاريخية تبيِّن أن الجيوش العربية قد وصلت مدينة بخارى خلال خلافة معاوية بن أبي سفيان. وأن سعيد بن عثمان بن عفان هو الوالي الذي عقدت له ولاية المدينة. وتؤكد أوصاف الجغرافيين أن وضعية المدينة منذ افتتاحها من قِبَلِ العرب فصاعداً قد تحسَّنت كثيراً من شتى النواحي. فإنها مثلاً صارت من الناحية الإدارية تحتوي على دار إمارة جميع منطقة خراسان أيام الإمارة السامانية. وقد ذكر الجغرافيون القلعة (قهندز) بأنها كانت تقع خارج المدينة وتتصل بها. وكان قهندز بخارى كبيراً يشبه مدينة صغيرة ويحتوي على قلعة ومساكن أو قصور ولاة أمراء آل سامان. وقد أسَّس فيها العرب المسجد الجامع وجعلوه على باب القهندز باتجاه المدينة، كما ابتنوا السجن داخل القهندز. وظلت المدينة تشتمل على سبعة أبواب حديدية هي: باب المدينة، باب نور، باب حفرة، باب الحديد، باب القهندز، باب بني أسد، باب بني أسعد. إن هاتين التسميتين تشيران إلى أنهما قد أسَّسا من قِبَلِ العرب، كذلك تشيران إلى التوزيع القبلي للسكان ومن المحتمل أن بني أسد وبني سعد قد اتخذا خططهما بالقرب من هذين البابين للمدينة. ووَرَدَ أيضاً أن قهندز المدينة يحتوي على بابَيْن أحدهما أخذ اسم المسجد الجامع فَسُمِّيَ بباب الجامع وكان يشرع على المسجد الجامع.

ولقد اتسعت الرقعة الجغرافية التي تشرف عليها مدينة بخارى، إذ اشتملت على الكثير من الرساتيق الزارعية والأعمال والضياع الجليلة المنتجة. وصارت المدينة مزدحمة بالسكان فقال عنها ابن حوقل (ليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى ولا أكثر أهلاً) واشتهرت أيضاً في عالم التجارة وبصورة خاصة تجارة الرقيق وأوبار السمور والثعالب وكانت تصدِّر أنواعاً من

الثياب والأنسجة المعروفة بالثياب البخارية وهي مصنوعة من السلك، وتنتج البسط والثياب الصوفية ومصليات المحاريب. ولها أنواع من المعادن[١].

٢ ـ ولم تنحصر إسهامات العرب الحضارية في المشرق الإسلامي ولاسيما تلك المتعلقة بالمدن والمراكز التمدنية والمحافظة على معالمها وتوسيع فاعليتها في المجالات المختلفة وتنمية مواردها الاقتصادية وتطوير وظائفها التمدنية وإضافة معالم عمرانية جديدة إلى معالمها القديمة إنما الأهم من ذلك كلّه أن العرب قاموا بتأسيس عدد من المدن الجديدة في هذه الرقعة من الدولة العربية الإسلامية، وقد اتخذوها وفقاً لرؤيتهم العسكرية والاقتصادية والتمدنية. وهناك استشهادات عديدة على ما قام به العرب في هذا المجال فقد أورد الجغرافيون والمؤرّخون العرب أن مدينة قزوين في منطقة إقليم الديلم مثلاً قد مصّرها. أي جعلها مدينة أو مصراً، أولاً، سعيد بن العاص ابن أمية والي الكوفة. وقد ابتنى فيها المسجد الجامع الذي عمّره وجدّده فيما بعد الخليفة العباسي هارون الرشيد. ولما قَدِمَ موسى الهادي (الذي تولى الخلافة العباسية في سنة ١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م إلى الري أمر أصحابه ببناء مدينة تقع إزاء مدينة قزوين وكانت تُعرف بمدينة موسى، والواقع أن الهادي ابتاع الأرض التي تأسست فيها مدينته، وكانت تسمّى قبل بناء هذه المدينة رستم أباذ[٢].

ووَرَدَ أيضاً بأن القائد العربي محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل الذي ولّاه الحجاج الثقفي فَتْحَ السند ومكران والديبل قد اتخذ عدة إجراءات تمدنية، إذ ابتنى في الديبل المسجد الجامع واختطّ للمقاتلين العرب الخطط القبلية وأسكن في هذه المدينة حوالي (٤٠٠٠) عربي ينتمون إلى قبائل عدة[٣].

---

(١) الإصطخري: المسالك ص١٧٤ ـ ١٧٥، ابن حوقل: ص٤٠٢، المقدسي: ص٢١٦، ياقوت الحموي: ج١ ص٣٥٣، مقالة Bukhara في دائرة المعارف بقلم فري Frey.

(٢) أنظر ياقوت الحموي: ج٤ ص٣٤٣.

(٣) البلاذري: فتوح ص٤٢٤.

كذلك تشير المصادر إلى أن المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور قد ابتنى مدينة الري عندما وجَّهه والده على رأس جيش لمحاربة المتمرِّدين في خراسان سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م. وقد أطلق عليها اسم المحمدية واتخذها مقرًّا له ولجنده عدة سنوات فابتنى فيها القصور وأسكن الناس والجند فيها. وابتنى المهدي في مدينة المحمدية المسجد الجامع بإشراف عمار بن أبي الخصيب، وسجَّل اسمه على حائط هذا المسجد. كما أنه احتفر حول المدينة خندقاً وبنى لها سوراً من الآجُرّ يحيط بها. ويعلّق الجغرافيون أن مدينة المحمدية كسبت شهرة واسعة وأن أهالي الأقليم كانوا يطلقون على المدينة القديمة اسم (المدينة) (أي على مدينة الري) بينما كانوا يسمُّوْن مدينة المهدي المحمدية بالمدينة الخارجية. ومن بين الإجراءات العمرانية التي قام بها المهدي بناء دار للإمارة إلى جوار المسجد الجامع، وحوَّل الحصن الموجود داخل المدينة إلى سجن[١].

وابتنى أسد بن عبد الله القسري سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م مدينة تدعى أسد أباذ وكانت من أعمال مدينة بيهق في نيسابور، وكان أسد والياً على خراسان من قبل أخيه خالد بن عبدالله القسري[٢].

ويُذكر أن مدينة تبريز وهي من أشهر مدن أذربيجان كانت في الأصل عبارة عن قرية صغيرة، وبقيت كذلك إلى أن سكنها الرواد الأزدي الذي كان متنفِّذاً في أذربيجان أيام الخليفة العباسي المتوكل. وقد استقر في هذه القرية بعده ابنه الوجناء بن الرواد الأزدي حيث ابتنى فيها القصور له ولإخوته ثم حصَّنها بسور وأنزل الناس معه فيها فتطوَّرت القرية إلى مدينة إلى أن أضحت مدينة مشهورة في صناعة الأنسجة ولا سيما ثياب العبائي السقلاطون والخطائي والأطلس والنسج. وكانت هذه الأنواع من الثياب والأنسجة تصدَّر إلى البلدان شرقاً وغرباً[٣].

---

(١) أنظر اليعقوبي: البلدان ص٢٧٣ ـ ٢٧٤، ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص٢٤٨، ياقوت الحموي: ج٣ ص١١٨.
(٢) ياقوت الحموي: ج١ ص١٧٦.
(٣) ن.م. ج٢ ص١٣.

وعلاوة على هذه النماذج هناك استشهادات ونماذج أخرى اخترنا على سبيل المثال لا الحصر مدينتَيْن من هذه المدن هما شيراز والمنصورة لأجل إظهار دور العرب في هذا المضمار وإبراز موقفهم من هذه الجوانب الحضارية.

## شيراز:

تتفق المصادر الجغرافية والتاريخية على أن مدينة شيراز مدينة مستحدثة أسَّسها العرب المقاتلون خلال حركات التحرُّر العربية. ومع ذلك، فإن الجغرافي المقدسي يشير إلى رأيٍ مخالف يفيد بأن تسمية شيراز ترجع إلى شخص يدعى شيراز بن فارس الذي يعتبر مؤسس هذه المدينة، وأن العرب المسلمين هم الذين مصَّروا المدينة عندما افتتحوا إقليم فارس[1].

وتوضيحاً لما أشار إليه المقدسي، فإن هناك رواية أدلى بها الإصطخري وابن حوقل تظهر وجود بيتَيْنِ لعبادة النار في منطقة شيراز كان أحدهما يُعرف بـ (كارنيان) والآخر (سوكان) وبيت نار يُعرف بـ (المنسريان) وكان هذا البيت يُرى من شيراز. وتبعد هذه القرية وبيوت النار مسافة ميل عن مدينة شيراز. لهذا، فإنه صار من الواضح أن هذا الموضع الذي ربما يقصده المقدسي لم يكن الموضع الذي تأسست فيه المدينة، ومن المحتمل أنه كان عبارة عن بيت لعبادة النار في قرية تُعرف بشيراز نسبة إلى شيراز بن طهمورث أو شيراز بن فارس وأن الجيوش العربية عندما افتتحت مدينة إصطخر، معقل الفرس، للمرة الأخيرة وجدت من المناسب أن تعسكر في ضواحي إصطخر لأسباب عسكرية وسياسية واستراتيجية ولعدم الثقة بأهاليها الذين نكثوا العهد مرات عدة.

أما بخصوص التسمية، شيراز، فإن هناك تفسيرين أحدهما تاريخي والآخر لغوي، ويرى بعض الجغرافيين أن الاسم يرجع إلى شخص كان قد أسَّسها هو شيراز بن فارس أو شيراز بن طهمورث. وقد أرجع النحويون أصل الكلمة إلى شيراز (وجمعها شرارشز أو شواريز) وأن شيراز كلمة مركَّبة من شير واز وتعني

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٢٣. وقد كتب الأستاذ أربري كتاباً عن شيراز مدينة المتصوفة والشعراء A.J. Arberry Shiraz Persian City of Saints & Poets (1960).

تشبُّهاً (جوف الأسد) تعبيراً عن أن الميرة والموارد الاقتصادية تأتيها من النواحي المحيطة ولا يُحَمَّلُ منها شيء أو يورَّد إلى أيِّ جهة من الجهات[1]. إن إبقاء العرب على التسمية الفارسية للموضع الذي أسَّسوا فيه المدينة دليل آخر على ما ذهبنا إليه من وجود عدد من بيوت لعبادة النار وآثار مدينة أو قرية يحتمل أن تاريخ تأسيسها يعود إلى فترات قديمة.

والحقيقة أن تأريخ تأسيس مدينة شيراز لم يرتبط ارتباطاً مباشراً مع بداية حركات التحرُّر العربية التي استهدفت سنة ١٧هـ أو ١٨هـ إصطخر وخراسان وأرد شيرخره وسابور ودارا بجرد وفساً وغيرها من المدن والأقاليم في بلاد فارس. وحسبما أورد المؤرِّخون العرب أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أذن للقواد العرب بِحَمْلِ الألوية والانسياح بالجيوش العربية إلى مختلف الاتجاهات وقد وزَّع الأحنف بن قيس القواد والعساكر من أهالي البصرة والكوفة. واستغرقت هذه الاستعدادات العسكرية قرابة السنة، إذ بدأت العمليات العسكرية فعلاً سنة ١٨هـ/٦٣٩م، وصار لواء فَتْحِ وتحرير إصطخر إلى القائد عثمان بن أبي العاص الثقفي. ويبدو أن تحرير مدينة إصطخر قد مرَّ بمرحلتين كانت الأولى سنة ١٨هـ والثانية سنة ٢٣هـ/ ٦٤٣م حسبما اتفق عليه المؤرِّخون بقيادة ابن أبي العاص بعد أن نقض شهرك حاكمها وأهاليها الاتفاقية المبرومة مع العرب. وقيل في رواية أخرى إن فَتْحَ إصطخر الأول كان سنة ٢٣هـ ولكن أهالي المدينة نقضوا العهد فكان أن تقدَّم إليها عثمان بن أبي العاص ثانية سنة ٢٨هـ/٦٤٨م وأفلح في فَتْحِها. على أية حال، إن الأحداث العسكرية لهذه العمليات لا توضح أن هناك موضعاً أو قرية أو مدينة تحمل اسم شيراز اتخذها العرب قبل أو بعد فَتْحِهِم مدينة إصطخر. لقد أورد المؤرِّخون اسم موضع خلال أحداث سنة ٢٣هـ هو (ريشهر) الذي كان يبعد مسافة ٣ فراسخ (حوالي ٩ أميال) عن إصطخر[2] ولا يعتقد تماماً أن المقصود به شيراز.

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص٧٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٦، ياقوت الحموي: ج٣ ص٣٨٠.

(٢) أنظر عن ذلك الطبري: تاريخ ج٤ ص١٤، ١٧٥ ـ ١٧٧، ٢٥٧.

ومن الجانب الآخر، فإن المصادر العربية الجغرافية منها والتاريخية تتفق على أن القائد محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي وهو ابن عم الحجاج والي البصرة والكوفة هو أول من استحدث مدينة شيراز. فقد قلّده الحجاج الثقفي زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ولاية بلاد فارس. ويظهر أن محمداً كان محباً للعمران وبناء المدن، إذ يرجع إليه الفضل عند فَتْحِهِ بلاد السند في وَضْعِ الخطط وبناء المساجد الجامعة في مدن الديبل ومكران وراور، كما أنه ابتنى مدينة المنصورة في السند. وقد ارتبطت مسألة تأسيس محمد بن القاسم مدينة شيراز بالأوضاع السياسية لمدينة إصطخر مرة أخرى، إذ يستشفُّ من الأقوال أن أهالي مدينة إصطخر لم يحترموا مواثيقهم مع العرب وأنهم عادوا فنقضوا ما تعهدوا به في السابق منذ فَتْحِها للمرة الثانية فما كان من محمد بن القاسم الوالي إلا أن يوجّه الجيوش لإعادة الأمور إلى نصابها في إصطخر، وكان ذلك في سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م. وقد عسكر بجيوشه قبل دخوله المدينة في موضع قريب من المدينة فلما أحرز النصر وفَتَحَ إصطخر قام محمد ببناء مدينة شيراز تبرُّكاً بالموضع[١] كما قيل. لذلك فإن الدافع العسكري يكاد يكون الدافع المهم في تصميم محمد بن القاسم على تأسيس مدينة شيراز على اعتبار أنها تهيمن استراتيجياً على مدينة إصطخر المتمردة.

## خطط المدينة:

يبدو من الروايات والأوصاف الجغرافية المقتضبة عن المرحلة الأولى لتأسيس مدينة شيراز أن محمد بن القاسم قد اتخذها معسكراً وأحلَّ فيها المقاتلين العرب لمراقبة أحوال مدينة إصطخر السياسية، وبهذا المعنى يشير الإصطخري إلى أن العرب قد نزلوا في الموضع وجعلوه معسكر فارس. ومن المحتمل أن محمد بن القاسم ومن جاء بعده من الولاة العرب قد شدَّدوا على هذا الاتجاه العسكري للمدينة، إذ وَرَدَ أنها أضحت بمرور الزمن شحنة جيش

(١) الإصطخري: المسالك ص٧٦ ـ ٧٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٤٦، الروض المعطار ص٣٥١.

فارس ونُقِلَتْ إليها دواوين بلاد فارس وعمّالها وولاة الحرب فيها[1]. ولقد ساعد هذا التطوُّر في وضعية شيراز واعتبارها معسكراً على اجتذاب الناس والأهالي من المناطق المختلفة فتكاثر سكانها واتسعت مساحتها فبلغت نحو فرسخ مربع (ثلاثة أميال مربعة) وتصاعدت حركة البناء والعمران في المدينة.

ومع أنه لم تَرِدْ إشارات واضحة عن الإجراءات العمرانية الأولية التي اتخذها محمد بن القاسم في موضع شيراز، غير أنه من المؤكد القول بأن محمداً قد أسَّس الوحدات العمرانية الآتية:

## المسجد الجامع ودار الإمارة:

لا تذكر أوصاف الجغرافيين وروايات المؤرِّخين معلومات تتعلق بالمسجد الجامع خلال الأحداث السياسية التي رافقت فَتْحَ محمد بن القاسم مدينة إصطخر، ولعلّه كان بناء بسيطاً. والحقيقة أننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ أربري مؤلف كتاب (شيراز مدينة الشعراء والمتصوفة) بأن الفضل في تأسيس المسجد الجامع في شيراز يرجع إلى عمرو بن الليث الصفار أخي يعقوب بن الليث. فإنه يقول إن عَمْرَ هذا قد أسَّس المسجد الجامع القديم سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م بحيث صار أول مسجد جامع تجمَّع فيه الناس في مدينة شيراز لأداء فريضة صلاة الجمعة. إن هذا الأمر لا يمكن برهنته إذ لا يُعتقد أن تبقى مدينة شيراز خالية من المسجد الجامع منذ تأسيسها سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م إلى حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة. علاوة على ذلك، فإن المصدر الذي اعتمد عليه أربري في هذا المجال وهو ابن زرقوب صاحب كتاب (شيراز نامه) باللغة الفارسية يشير في موضع آخر من الكتاب إلى أن المدينة كانت تحتوي على عدد من المساجد والمشاهد خلال الفترة الأموية زمن خلافة عمر بن عبد العزيز[2].

يُعَدُّ المقدسي الجغرافي الوحيد الذي أدلى ببعض المعلومات عن المسجد

(١) الإصطخري: المسالك ص٧٧، ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٤٦.

(٢) Arberry. Shiraz P. 36,38.

الجامع في شيراز خلال فترته (في أواخر القرن الرابع للهجرة)، فقد قال عنه بأنه كان جامعاً لا نظير له في الأقاليم الفارسية الثمانية. وكان يحتوي على أساطين تشابه أساطين المسجد الأقصى. وأشار أيضاً إلى أنه كان يقع في الأسواق، ربما وسط المدينة، فكان أحد أبوابه يقود إلى سوق البزازين. وقد امتدح المقدسي المسجد الجامع بأنه كان يضمُّ الكثير من علماء الصوفية. وظلَّ هذا المسجد الجامع يتمتع بمكانة رفيعة حتى الفترة المتأخرة، إذ وَصَفَهُ ابن بطوطة خلال زيارته المدينة في القرن الثامن للهجرة فقال عنه ما نصه (مررت يوماً بنص أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجداً متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي، وفي الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شبك مفتح إلى جهة السوق..)[١].

كان هناك مستشفى يقع بعيداً عن المسجد الجامع وقد وقفت عليه أوقاف كثيرة، وكان يضمُّ أطباء حذاق وآلات حسنة.

أما بخصوص دار الإمارة فإنه لم يَرِدْ ذِكْرٌ على أن القائد محمد بن القاسم قد ابتنى دار إمارة له في مدينة شيراز، غير أن هذا لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على عدم وجود دار الإمارة ولا سيما أن المدينة صارت معسكراً للجيش العربي. ومن المحتمل أن هذه الدار كانت بناء بسيطاً وأن عدم ذِكْرِها والمسجد الجامع خلال القرن الأول للهجرة يرجع إلى إهمال الجغرافيين والمؤرخين ذِكْرَ مدينة شيراز عموماً لأنها لم تكن قد اتخذت بعد مركزاً إدارياً مستقلاً. أما أوصاف كل من الإصطخري وابن حوقل والمقدسي للمدينة فإنها ربما تشير إلى فترة الإمارة الصفارية وبشكل خاص خلال فترة مؤسسها يعقوب بن الليث أصفار الذي اهتمَّ كثيراً بأحوال مدينة شيراز العمرانية والإدارية. وقد ارتفع نجم المدينة إبان فترته حتى إنها أصبحت عاصمة ومحلَّ إقامته، ولذلك أشار الإصطخري وابن حوقل إليها بأنها شحنة جيش بلاد فارس ومحلُّ دواوين

---

(١) ابن بطوطة: رحلة ص٢١٠.

وعمال وولاة الحرب في بلاد فارس. ويبدو أن إشارة المقدسي إلى دار الإمارة في شيراز وقوله إنها كانت داراً عظيمة تعود إلى فترة الإمارة الصفارية أو فترة حكم عضد الدولة البويهي الذي اهتمَّ هو الآخر بمدينة شيراز اهتماماً كبيراً. وقد وَرَدَ ذِكْرٌ دار الإمارة أيضاً خلال الإشارة إلى والي الحرب والدواوين الحسن بن رجاء، فإنه عندما توفي دفن عند دار الإمارة التي كانت تُعرف بدار حراب بن ضرار المازني.

## خطط الأهالي:

دون شك فقد كان العرب يشكلون العنصر الأساس في مدينة شيراز عند تأسيسها من قِبَلِ محمد بن القاسم، وقد وَرَدَتْ بعض الإشارات إلى أسماء عوائل وبيوتات عربية مشهورة مثل بني مازن وآل حبيب، وكما مرَّ بنا سابقاً، فإن دار الإمارة في المدينة أخذت تسمية إحدى شخصيات بني مازن. وكان آل حبيب يتوارثون أعمال الدواوين منذ الفترات الإسلامية الأولى. في الوقت ذاته فقد أورد المقدسي أسماء دروب وسكك مدينة شيراز الثمانية فكان من بينها درب غسان ودرب أسلم وهما أسماء عربية قد تشير إلى خطط هؤلاء العرب فيها.

ومن الجدير ذِكْرُهُ في هذا الصدد أيضاً أن بناء بيوت الأهالي في شيراز كان من الحجارة، وقد اشتهرت بفن البناء والعمران[1].

يقدم لنا المقدسي وصفاً لدروب مدينة شيراز وشوارعها، فيذكر أنها كانت ثمانية دروب هي درب باب إصطخر ودرب تستر ودرب بند أستانة ودرب غسان ودرب أسلم ودرب كوار ودرب فندر (أو بندر). ولم يكن المقدسي مرتاحاً خلال زيارته المدينة من شوارعها ودروبها فَوَصَفَها بأنها كانت ضيِّقة مزدحمة وقذرة.

---

(١) أنظر المقدسي: ص٢٢٩ ـ ٢٣٠، ٤٤٠.

كذلك فإنه وَصَفَ أسواق المدينة بأنها ضيِّقة ومزدحمة أيضاً، وكانت هناك ضرائب ثقيلة مفروضة على أصحاب الحوانيت، ويبدو أن أسعار المواد الغذائية في أسواقها كانت مرتفعة[1].

لم تبيِّن الأوصاف الجغرافية للمدينة بأن محمد بن القاسم قد ابتنى سوراً عند اختياره الموضع، وأن ابن حوقل خلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد يوضح بصراحة أنها كانت خالية من السور. وأن الفضل في هذا المجال يرجع إلى سلطان الدولة بن بويه خلال الفترة البويهية، إذ إنه شرع في سنة ٤٣٩هـ/ ١٠٥٤م في بناء السور وكان طوله (١٢,٠٠٠) ذراع (حوالي ٦ آلاف متر) وعرض حائطه ثمانية أذرع (حوالي أربعة أمتار) وقد جعل له اثني عشر باباً. ومع أن هذا الوصف يوحي بأن السور كان متيناً، لكنه حسبما يظهر لم يبقَ طويلاً لأن ابن بطوطة لم يذكر وجوده عندما زار المدينة[2].

## أوصاف المدينة الجغرافية والاقتصادية:

لقد شهدت مدينة شيراز، مدينة المعسكر، تطوُّرات كبيرة منذ أن استحدثها العرب، فصارت من النواحي العمرانية والاجتماعية واسعة البناء والعمارة، كثيرة الأهل والسكان. فَوَصَفَها اليعقوبي بأنها مدينة واسعة وقورنت بمدينة دمشق. وكانت منازل الأهالي محاطة بالبساتين التي تحتوي على جميع أنواع الثمار والرياحين والبقول. كما وُصِفَتْ مياه آبارها بالعذوبة وكان لها عيون تجري في أنهار تأتيها من الجبال[3].

أما بخصوص أحوالها الاقتصادية فقد امتدح المقدسي رخاءها وأن أهاليها أهل يسار وتجارة ولهم خصائص وصنائع، فكانت مشهورة بصناعة الأنسجة كثياب الحرير والأكسية والبرود والسكاكين والأقفال الجيدة والوقايات والرقاع، وكانت المدينة تصدِّر نوعاً من الثياب الشيرازية إلى مختلف الجهات. وكذلك

---

(١) ن. م: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٢) عن السور أنظر ياقوت الحموي: ج٣ ص٣٨١، ابن عبد الحق: مراصد ج٢ ص٨٢٥.

(٣) اليعقوبي: البلدان ص١١٣، المقدسي: ص١٣٠.

اشتهرت بصناعة العطور والأدهان المعروفة بالأدهان الريحانية. كما أنها كانت غنية في محاصيلها الزراعية كالحنطة والشعير والقطن وزراعة الزعفران والرياحين والفواكه كالعنب والتين ووُصِفَتْ بحيرة دشت أرزه القريبة من شيراز بوفرة أسماكها وأنها كانت تُزَوِّدُ المدينة بما تحتاج إليه من الأسماك[1].

كان لموقع شيراز التجاري ووقوعها على الطرق التجارية البرية أثر بارز في تطوير أحوالها الاقتصادية، فإن هناك طريقاً يربط شيراز بالأهواز ويمتد هذا الطريق إلى البصرة. وترتبط المدينة أيضاً بأرَّجان. وهناك طريق بري يربطها بمدينة سيراف، وآخر يربطها بمدينة كثة، وطريق يربطها بمدينة جنابة على ساحل الخليج العربي، وطريق يربطها بمدن كرمان وهرمز، وطريق يربطها بمدينة أصبهان، علاوة على الطريق الذي يربطها بإصطخر[2].

وكسبت المدينة أيضاً شهرة في الجوانب العلمية، فَوُصِفَتْ بأنها كانت كثيرة العلماء المتصوفين ومجالس قراءة القران. وقد اهتمَّ عضد الدولة البويهي في هذه المجالات فأنشأ مكتبة عامرة في قصره وجمع إليها الكتب من الأماكن كافة، وخصَّص للمكتبة موظفين منهم وكيل المكتبة وخازن الكتب ومشرف على المكتبة. فصارت هذه المكتبة تحتوي على أنْفَسِ الكتب وقيل فيها إن عضد الدولة (لم يبقَ كتاب صُنِّفَ إلى وقته من أنواع العلوم كلِّها إلا وحصَّله فيها) ووَصَفَها المقدسي بأنها كانت مكتبة منظَّمة تحتوي على رفوف ارتفاعها حوالي القامة وعرضها ثلاثة أذرع. وكانت الدفاتر فيها منضدة على الرفوف، وقد احتوت أيضاً على فهارس بأسماء الكتب الموجودة[3].

ومن بين العلماء الذين تخرَّجوا في مدينة شيراز أحمد عبد الرحمن الشيرازي وكان عالماً بالحديث ثقة بهذا الحقل، توفي سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م. وهناك أبو إسحق إبراهيم بن علي الفيروزابادي المشهور بِوَرَعِهِ وعِلْمِهِ وزُهْدِهِ وقد توفي

(١) أنظر الإصطخري: المسالك ص٩٤، ٩٥ ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٦٢، المقدسي: ص٤٠٩، ٤٤٢ ـ ٤٤٣، ٤٥١.
(٢) أنظر ابن رستة: الأعلاق ص١٨٩، ١٩٠، ابن الفقيه الهمذاني: البلدان ص٢٠٣، ٢٠٦.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٤٩.

سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م، وأحمد بن منصور الشيرازي الصوفي المتوفى سنة ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، وأبو العباس بن سريج القاضي والمجتهد وكان على مذهب الإمام الشافعي إبراهيم بن أحمد بن عثمان الشيرازي.

واشتهرت المدينة بمدارسها، فكانت تحتوي إبان الفترة البويهية على مدرسة ومستشفى، غير أن عدد المدارس قد تزايد فيما بعد خلال زيارة ابن بطوطة. فإنه قد وجد فيها عدداً من المدارس التي تضمُّ مشاهير العلماء وتحتوي على زوايا لطلبة العلم والفقهاء والعلماء. وباختصار، فإن ياقوت الحموي يشير إلى أن عدداً كبيراً من العلماء قد انتسبوا إلى شيراز في كل فن من الفنون والعلوم[1].

## المنصورة:

تُعَدُّ المنصورة من المدن التي أحدثها العرب منذ القرن الأول للهجرة كنتيجة من نتائج حركات التحرُّر العربية في بلاد السند. ولقد اتفقت آراء الجغرافيين والمؤرِّخين العرب على أنها مدينة محدثة في الإسلام. لكنهم اختلفوا في أصل تسميتها واسم مؤسسها. فمنهم من رأى أن اسم المنصورة نسبة إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، ورأى آخرون بأنها قد سُمِّيَتْ كذلك نسبة إلى اسم أحد العمّال وهو منصور بن جمهور الكلبي[2].

الظاهر أن هذه المدينة قد تأسست إلى جوار موضع قديم في السند يُعرف (برهمناباذ) أو كما وَرَدَ أيضاً (وهمناباذ)، وقيل إنها كانت من مدن بلاد السند. ويفيدنا البلاذري كثيراً في تحديد هوية هذه القرية أو المدينة القديمة خلال حديثه عن مسيرة القائد محمد بن القاسم بن الحكم الثقفي نحو فَتْحِ بلاد السند، إذ إنه بعد أن أفلح في فَتْحِ مدينة الرور إحدى مدن السند، ابتنى فيها المسجد الجامع ثم توجَّه نحو موضع برهمناباذ وكان، حسبما ذكر، موضعاً

---

(١) أنظر ياقوت الحموي: ج٣ ص٣٨١، ابن بطوطة: ص٢٠٧.

(٢) أنظر ياقوت الحموي: ج٥ ص٢١١، ابن عبد الحق: مراصد ج٣ ص١٣٢١، الروض المعطار ص٥٤١.

عتيقاً يقع على رأس فرسخَيْن من مدينة المنصورة (حوالي ٦ أميال)، مما يدلل بجلاء أن المدينة المنصورة التي نتحدث عنها ليست هي نفسها قرية أو موضع برهمناباذ إنما تقع بالقرب منها.

أما بشأن سنة تأسيسها ونسبتها إلى منصور بن جمهور فالمعتقد أنه رَأْيٌ غير صحيح وذلك لأن منصوراً هذا الذي يرجع نسبه إلى بني عامر بن عوف قد بدأ نجمه السياسي يتصاعد منذ سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م. عندما عَزَلَ الخليفة الأموي يزيد بن الوليد والي العراق يوسف بن عمر ووَلّى منصوراً هذه الولاية. لقد كان عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي قائد عمليات فتوح السند والياً على السند ومقيماً في مدينة المنصورة وقد وجَّه منصور بن جمهور في بداية الأمر محمد بن غزان (أو عزان) الكلبي عاملاً على السند وسجستان بدلاً من عمرو بن محمد بن القاسم. لكن منصور بن جمهور لم يستمر في ولايته على العراق طويلاً. إذ عُزِلَ في نفس السنة غير أنه من المهم بالنسبة إلى موضوعنا بأن ذِكْرَ مدينة المنصورة قد وَرَدَ فعلاً في حوادث سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م، إذ كانت خاضعة إدارياً إلى منظور بن جمهور وهو أخو منصور بن جمهور. ولم يَرِدْ أيُّ ذِكْرٍ عن علاقة منصور بن جمهور بمدينة المنصورة إلا في سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، عندما انضمَّ إلى الخوارج وتوجَّه بعد ذلك إلى المنصورة للمكوث بها مع أخيه. كذلك فإنه عُيِّن سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، خلال بداية الثورة العباسية عاملاً على السند وظلَّ في منصبه هذا حتى سنة ١٣٤هـ/ ٧٥١م، ففي هذه السنة بعث الخليفة العباسي أبو العباس السفاح موسى بن كعب على رأس حملة عسكرية نحو الهند لقتال منصور بن جمهور[1]. لذلك تثبت هذه الأحداث العسكرية أن مدينة المنصورة كانت موجودة بالفعل قبل فترة ولاية منصور للسند، كما أنها توضح بجلاء بأنه لم يكن عاملاً عليها في بداية الأمر أي قبل سنة ١٣٢هـ، وأن العامل عليها كان منظوراً وليس منصور بن جمهور. هذا من ناحية، كما أن تلك الدلائل التاريخية تبيِّن أن تسمية المنصور لا علاقة لها مطلقاً باسم الخليفة العباسي أبي

(١) الطبري: تاريخ ج٦ ص٣٦٥، ج٧ ص٢٧٠ ـ ٢٧١، ٢٧٧ ـ ٢٧٨، ٢٨٤، ٣١٤، ٣٧٣، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٤.

جعفر المنصور الذي لم يكن بعد قد تولى الخلافة، إنما كان الخليفة آنذاك أبا العباس السفاح.

على هذا الاعتبار فإنه من الممكن القول بأن تاريخ تأسيس المدينة لا يرتبط كثيراً بالعامل منصور بن جمهور كما يعتقد المؤرِّخون والجغرافيون، ويحتمل أن تاريخ تأسيسها يرجع إلى الفترة الأموية وفترة ولاية الحجاج الثقفي خاصة عندما عهد إلى محمد بن القاسم الثقفي مهمة فَتْحِ بلاد السند. ويقدِّم لنا البلاذري معلومات قيِّمة بهذا الصدد، إذ يذكر أن محمد بن القاسم هذا بعد أن نجح في فَتْحِ مكران والديبل وأسكن في الديبل حوالي (٤٠٠٠) عربي توجه بعسكره نحو مدينة البيرون فَعَبَرَ نهر مهران ونجح في فَتْحِ مدينة رور عنوة ثم توجه نحو موضع برهمناباذ، وكانت قرية قديمة وموضعها غيضة. ويبدو أن حاكم السند (فل داهر) قد اتخذ برهمناباذ موقعاً عسكرياً لمجابهة الجيوش العربية وصدِّ تقدُّمهم فحشد فيها جيشاً يبلغ تعداده حوالي ثمانية آلاف جندي (وفي رواية أخرى بلغ عدد الجيش ستة وعشرين ألف جندي). وقد جرت معركة تمكن فيها محمد بن القاسم من دحر العدو من المنطقة[١].

على هذا الأساس فإن الموضع الذي تأسست فيه مدينة المنصورة كان عبارة عن غيضة إلى جوار القرية القديمة، وأن محمد بن القاسم حينما انتصر في المعركة لم تكن هذه الغيضة حينذاك آهلة بالناس والعمران. ومع ذلك، فإنه من المؤسف القول بأننا لا نستطيع الجزم في أن محمد بن القاسم قد اختطَّ خططاً في هذا الموضع أو جعله مصراً وابتنى فيه المسجد الجامع. وعلى أغلب الظن أنه فعل ذلك لوجود عدة قرائن أهمها اهتمامه بهذا الجانب العمراني وأنه كان يتخذ مسجداً جامعاً في كل مدينة أو موضع يقوم بفتحه سواء أكان ذلك في بلاد فارس أم في بلاد السند. ومن المحتمل أنه بعد أن قام بمثل هذه الإجراءات العمرانية في الموضع أطلق عليه اسم المنصورة تعبيراً عن انتصاره الكبير على جيوش (فل داهر) حاكم السند.

---

(١) البلاذري: فتوح ص٤٢٤ ـ ٤٢٦.

في الوقت نفسه، فإن هناك انقطاعاً في استمرار تردُّد ذِكْرِ مدينة المنصورة منذ هذه الحادثة التي يُحتمل أنها وقعت أيام الحجاج الثقفي في الفترة الأموية وقد وَرَدَ ذِكْرُها مرة أخرى في حوادث سنة ١٠٩ أو ١١٠هـ/٧٢٧ ـ ٧٢٨م، أي خلال ولاية الحكم بن عوانة الكلبي على خراسان. ويتضح من خلال هذه الحادثة أن أسد بن عبد الله القسري، أخا خالد القسري، كان عاملاً من قبل أخيه على خراسان وقد عزله تحت ضغوط سياسية فاستخلف أسد الحكم بن عوانة الكلبي على ولاية خراسان. والواقع أن الفضل يرجع إلى الحكم بن عوانة هذا في تأسيس مدينة عربية أخرى في بلاد السند وراء البحيرة وأطلق عليها اسم المحفوظة. كما أنه قلَّد عَمْرَ بن محمد القاسم الثقفي (وهو ابن فاتح بلاد السند الذي سبق ذِكْرُه) قيادة جيش لفتح ما تبقّى من المدن في بلاد السند، وأفلح عمرو في تحقيق انتصارات عدة. ويذكر البلاذري خلال هذه الأحداث العسكرية أن الحكم بن عوانة قد أمر عَمْر بن محمد أن يبني في المنطقة التي فتحها تلك والتي تقع دون البحيرة مدينة سمّاها مدينة المنصورة. وتحوَّلت منذئذٍ إلى مدينة مركزية ينزلها الولاة والعمال[١]. والراجح أن عَمْرَ بن محمد قد ابتنى فيها المسجد الجامع ووزّع الخطط على المقاتلين العرب الذين رافقوه في الحملة. وتشير الروايات فيما بعد إلى أن المدينة صارت ضِمْنَ ولاية منظور بن جمهور، أخي منصور، في سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م، ثم أعقبه منصور إذ صار عاملاً على بلاد السند سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، وقد اتخذ مدينة المنصورة مركزاً لولايته. وأعقب منصور على ولاية السند موسى بن كعب التميمي الذي وجُّهه الخليفة أبو العباس السفاح أو أبو مسلم الخراساني لمحاربة منصور، وأفلح هذا بعد معركة في أن يهزمه. وكانت من أهم أعمال موسى بن كعب وإجراءاته التمدنية أن قام بترميم ما تهدَّم من مدينة المنصورة وبشكل خاص المسجد الجامع فيها إذ عمل على توسيع مساحته[٢].

(١) البلاذري: فتوح ص٤٣٠ ـ ٤٣١.
(٢) البلاذري: فتوح ص٤٣١.

## خطط المدينة وأوصافها :

ليس هناك ما يبرهن على أن القائد محمد بن القاسم الثقفي اختطّ الخطط في الموضع الذي اتخذت فيه مدينة المنصورة بعد انتصاره على الحاكم المحلّي في بلاد السند. كذلك لا تتوافر لدينا معلومات عن الإجراءات والأعمال التي قام بها ابنه عمرو بن محمد، وهو الشخص الذي تشير الروايات إلى أنه مؤسس المدينة فعلاً. لكن من المؤكد أنه ابتنى المسجد الجامع فيها ووزّع الخطط على المقاتلين العرب. وهناك دليل على هذا الاستنتاج، إذ يذكر البلاذري أن موسى ابن كعب الذي أرسله أبو العباس والياً على المنصورة قد رمّم بناء المسجد الجامع وزاد في مساحته، ويبدو أنه كان مسجداً ضيّقاً مقارنة بعدد المقاتلين المرافقين لعمرو بن محمد، وأن المدينة بمرور الزمن اجتذبت الناس فضاق المسجد بالمصلّين. ولم يذكر كل من الإصطخري وابن حوقل شيئاً عن هذا المسجد، غير أن المقدسي الذي يبدو أنه زار المدينة قد وَصَفَهُ فصارت روايته ووَصْفُهُ للمسجد الجامع مصدراً رئيساً لبقية الجغرافيين المتأخرين. يذكر المقدسي أن بناء المسجد الجامع كان من الآجُرّ والحجر، وأنه كان يتصف بكبر المساحة بحيث أنه كان يقارب مساحة المسجد الجامع في عمان. وقد احتوى المسجد الجامع في المنصورة على سوارٍ من خشب الساج. أما موقعه من المدينة فإنه كان يقع في وسط الأسواق[1]. وهي إشارة قد تبيِّن أن موقعه فعلاً كان في وسط المدينة وأن الأسواق محيطة به كما هي الحال في المساجد الجامعة في المدن العربية الإسلامية الأخرى.

وُصِفَتْ مدينة المنصورة بأنها كبيرة المساحة، وقد قدَّر الجغرافيون مساحتها بأن طولها وعرضها كان ميل × ميل. وأوضح المقدسي أن المنصورة كانت قصبة بلاد السند ومصر الإقليم، لذلك فإنها كما ذكرنا سابقاً كانت محل إقامة عامل أو والي بلاد السند في الفترة الأموية والعباسية. وشبَّه المقدسي المدينة بدمشق من حيث مكانتها الإدارية وحجمها، إذ إنها كانت مدينة كبيرة تشتمل

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٧٩، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢١١.

على أربعة أبواب هي: باب البحر وباب طوران وباب سندان وباب الملتان، الأمر الذي يشير إلى أنها كانت محاطة بسور وأن هذه الأبواب تمثّل اتجاهات جغرافية نحو تلك الجهات. كما أنها كانت محاطة بنهر أو خليج يتفرَّع من نهر مهران ولذلك صارت عبارة عن شبه جزيرة محاطة بالمياه(١).

تبيِّن الدلائل التاريخية المرتبطة بسنة تأسيسها بأن سكان المدينة كانوا عرباً نظراً لأن عَمْرَ بن محمد بن القاسم الثقفي، مؤسسها، كان عربياً من ثقيف وقد وصل الموضع برفقة جيش عربي من أهالي البصرة والكوفة، كذلك فإن منظور وأخاه منصور بن جمهور كانا عرباً أيضاً، وأن عمال المدينة وولاتها كانوا ابتداء من عمرو بن محمد إلى موسى بن كعب التميمي عرباً، ومن الطبيعي أنهم كانوا برفقة قبائل عربية. ويشير ابن حوقل والمقدسي بأن المدينة كانت مزدحمة بالسكان وكانوا مسلمين وأن واليها خلال فترة هذين الجغرافيين في القرن الرابع للهجرة، كان قرشياً من ولد هبار بن الأسود ويرجع نَسَبُهُ إلى أن الهباري وهم يتوارثون ولاية المدينة. وكان أهلها بناء على ذلك وأهل مدينة ملتان ونواحيهما في بلاد السند يتكلمون العربية والسندية. أما بناء بيوتهم فكان من الطين والخشب(٢).

احتوت المنصورة على عدة أسواق، وصارت تحتل مكانة مهمة في عالم التجارة، فهناك تجار كثيرون في المدينة وُصِفوا بأنهم أهل يسار ونعمة. واشتهرت المدينة بزراعة النخيل وقصب السكر وكان يعمل منه القند الغزير الوافر، كما اشتهرت بزراعة الفواكه وبصورة خاصة فاكهة تسمّى الليمونة تشبه في حجمها التفاح غير أن طعمها حامض شديد الحموضة، وهناك فاكهة أخرى تشبه في شكلها ومذاقها الخوخ وتسمّى الأنبج. وكانت المنصورة تصدِّر أنواعاً من الأحذية تُعرف بالنعال الكنباتية النفيسة وتصدِّر الفيلة والعاج والعقاقير النافعة وأمور أخرى ثمينة. والواقع أن المدينة كانت ترتبط بغيرها من مدن الهند

(١) أنظر المقدسي: احسن التقاسيم ص٤٧٩، ياقوت الحموي: ج٥ ص٢١١، الروض المعطار ص٥٤٩.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٨٥.

المجاورة بعدد من الطرق البرية والنهرية والبحرية، فكان هناك طريق تجاري يربطها بمدينة ديبل التي كانت واقعة على الجانب الشرقي من نهر مهران وعلى البحر، كما كانت ديبل مدينة فُرضة ومتجراً عظيماً، فهي فُرضة بلاد السند تأتيها التجارات من كل مكان. وهناك طريق آخر يربط المنصورة بمدينة ملتان، وكانت ملتان مدينة تقارب في الحجم المنصورة غير أن المنصورة كانت أكثر منها عمراناً وخصوبة. وارتبطت المنصورة بمدينة طوران بطريق آخر، كما أن هناك طريقاً يربطها بمدينة قامهل وهي أول حدود الهند، وهناك طريق يربطها بمدينة قالدي[١].

كانت هناك مياه واسعة بين مدينة المنصورة ومكران وهي تشابه البطائح في العراق، وقد سكن هذه الرقعة الواسعة من المياه طائفة من الناس من بلاد السند يعرفون بالزط وكانوا يربون الجواميس. ويحدثنا التاريخ أن الحجاج الثقفي والي البصرة والكوفة كان قد نَقَلَ عدداً من هؤلاء الزط من هذه الأهوار وأسكنهم بطائح العراق. ويبدو أن أعدادهم أخذت تتزايد بحيث إنهم قاموا بحركة سياسية في الفترة العباسية وقطعوا الطريق التجاري بين البصرة وبغداد.

---

(١) أنظر ابن حوقل: ص٢٧٧، ٢٨٢، ٢٨٣، المقدسي: أحسن التقاسيم ص٤٨١، ٤٨٥، ٤٨٦.

# الملاحق

## ملحق (١)

## الملاحق
## قائمة بأسماء المدن القصبات

| المدينة | صفتها | المصدر |
|---|---|---|
| المنصورة | قصبة السند ومصر الأقاليم تكون مثل دمشق | المقدسي ص٤٧٩ |
| الملتان | قصبة في إقليم السند مثل المنصورة غير انها اعمر | المقدسي ص٤٨٠ |
| بنجبور | قصبة مكران لها حصن | المقدسي ص٤٧٨ |
| قنوج | قصبة كبيرة لها ربض ومدينة في إقليم السند | المقدسي ص٤٨٠ |
| ويهند | قصبة جليلة أكبر من المنصورة في إقليم السند | المقدسي ص٤٧٩ |
| طبرية | قصبة الأردن وبلد وادي كنعان | المقدسي ص١٦١ |
| دارا بجرد | قصبة نفيسة لها مدينة شديدة العمارة | المقدسي ص٤٣٨ |
| أرجان | قصبة شديدة العمارة | المقدسي ص٤٢٥ |
| سيراف | قصبة أردشير خره | المقدسي ص٤٢٢ |
| تاهرت | وهي اسم القصبة وهي بلخ المغرب | المقدسي ص٤٢٨ |
| برقة | قصبة جليلة عامرة نفيسة | المقدسي ص٢٢٤ |
| فاس | اسم القصبة وتسمّى كورة السوس الأدنى | المقدسي ص٢١٩ |
| القيروان | قصبة أفريقيا | المقدسي ص٢١٦ |
| زويلة | قاعدة بلاد فزان | أبو الفداء تقويم ص١٤٦ |
| طره | قاعدة بلاد مكراوة | أبو الفداء ص١٤٦ |
| البصرة | قصبة سرية في العراق | المقدسي ص١١٧ |
| توزر | قاعدة بلاد مسطيلة في المغرب | أبو الفداء ص١٤٤ |
| تونس | قاعدة أفريقية | أبو الفداء ص١٤٢ |

| المدينة | صفتها | المصدر |
|---|---|---|
| قفصة | قاعدة مشهورة بالمغرب | أبو الفداء ص١٤٢ |
| سبيطلة | كرسي مملكة أفريقية في القديم ولها آثار عظيمة | أبو الفداء ص١٤٠ |
| بسكرة | قاعدة بلاد الزاب في المغرب | أبو الفداء ص١٣٨ |
| بجاية | قاعدة المغرب الأوسط | أبو الفداء ص١٣٦ |
| تلمسان | قاعدة مملكة بني زناتة | أبو الفداء ص١٣٦ |
| قصر عبد الكريم | قاعدة الدراسة | أبو الفداء ص١٣٢ |
| طرطوشة | من كراسي شرق الأندلس | أبو الفداء ص١٨١ |
| سرقسطة | قاعدة الثغر الأعلى (الأندلس) | أبو الفداء ص١٨١ |
| مدينة سالم | قاعدة الثغر الأوسط الأندلس | أبو الفداء ص١٧٩ |
| طليطلة | قاعدة الأندلس | أبو الفداء ص١٧٧ |
| أشبونة | قاعدة مملكة على البحر المحيط | أبو الفداء ص١٧٣ |
| إشبيلية | من قواعد الأندلس | أبو الفداء ص١٧٥ |
| الفرما | قصبة الجفار في مصر | المقدسي ص١٩٣ |
| بلبيس | قصبة الجوف في مصر | المقدسي ص١٩٣ |
| العباسية | قصبة الريف في مصر | المقدسي ص١٩٤ |
| الفسطاط | قصبة مقدونية وهي المصر | المقدسي ص١٩٤ |
| آمل | مدينة بطبرستان بها منزل الولاة | ابن الفقيه الهمذاني البلدان ص٢ |
| الرملة | قصبة فلسطين بهية حسنة البناء | المقدسي ص١٦٤ |
| سجلماسة | قاعدة ولاية مشهورة في المغرب | أبو الفداء ص١٣٦ |
| أنحمات | كانت كرسي ملك يوسفين تاشفين | أبو الفداء ص١٣٤ |
| شماخي | مدينة عامرة وقصبة بلاد شروان في طرف إيران | ياقوت الحموي معجم البلدان ج٣ ص٣٦١ |
| بيشك | قصبة كورة رخ من نواحي نيسابور | ياقوت الحموي ج١ ص٥٢٨ |
| الأنبار | قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان | ياقوت ج١/ ٢٥٧ |
| قوص | مدينة كبيرة عظيمة قصبة صعيد مصر | ياقوت ج٤ ص٤١٣ |

| المدينة | صفتها | المصدر |
|---|---|---|
| الطبسان | قصبة ناحية قهستان قاين | ياقوت ج٤ ص٢٠ |
| شيراز | مدينة إسلامية بناها محمد بن القاسم فيها دواوين فارس | |
| | الإصطخري: المسالك والممالك وعمالها وولاة الحرب | ص٧٦ ـ ٧٧ |
| مكة | مصر إقليم الحجاز | المقدسي ص٧١ |
| الكوفة | قصبة جليلة خفيفة | المقدسي ص١١٦ |
| زبيد | قصبة تهامة وهو أحد المصرين لأنه مستقر ملوك اليمن المقدسي | ص٨٤ |
| صحار | قصبة عمان | المقدسي ص٩٢ |
| شهرستان | قصبة سابور | المقدسي ص٤٣٣ |
| جازر | قرية وهي قصبة طسوج جازر | ياقوت ج٢ ص٩٤ |

## ملحق رقم/ ٢

# قائمة بأسماء مدن كانت كورة أيضاً وناحية في نفس الوقت

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| الضميرة | مدينة كورة في المشرق | اليعقوبي: البلدان ص٢٦٩ |
| طنجة | وهي كورة عظيمة تحيط بمدن وقرى | الإصطخري: المسالك والممالك |
| السوس الأقصى | اسم المدينة إلا أنها كورة عظيمة ذات مدن وقرى | الإصطخري: المسالك ص٣٤ |
| سطيف | مدينة لها كورة تشتمل على قرى كثيرة | أبو الفداء: تقويم ص١٤٠ |
| خيل | كورة وبليدة بين الري وقزوين | ياقوت ج٢ ص٤١٣ |

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| فرغانة | مدينة وكورة واسعة في ما وراء النهر | ياقوت ج٤ ص٢٥٣ |
| خلخال | مدينة وكورة | ياقوت ج٢ ص٣٨١ |
| رويان | مدينة كبيرة من جبال طبرستان وكورة واسعة | ياقوت ج٣ ص١٠٤ |
| خابران | ناحية ومدينة فيها عدة قرى | ياقوت ج٢ ص٣٣٤ |
| غزنة | مدينة عظيمة وولاية واسعة | ياقوت الحموي ج١ ص٢٠١ |
| باميان | بلدة وكورة بين بلخ وهراة وغزنة | ياقوت ج١ ص٣٣٠ |
| المهجم | بلد وولاية من أعمال زبيد في اليمن | ياقوت ج٥ ص٢٢٩ |
| إيذج | كورة بين خوستان وأصبهان وهي أجلُّ مدن الكورة | ياقوت ج١ ص٢٨٨ |

# ملحق رقم ٣

## قائمة بأسماء مدن كبيرة

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| الترمذ | مدينة جليلة على نهر بلخ في مرورد | اليعقوبي: بلدان ص٧٩١ |
| الكرج | لم تكن أيام الأعاجم مدينة مشهورة | اليعقوبي ص٢٧٢ |
| نهاوند | مدينة جليلة لها عدة أقاليم | اليعقوبي ص٢٧٢ |
| الدينور | مدينة جليلة القدر أهلها | اليعقوبي ص٢٧٠ ـ ٢٧١ |
| حلوان | مدينة جليلة كبيرة | اليعقوبي ص٢٧٠ |
| كازرون | عامرة كبيرة هي دمياط العجم لشهرتها بثياب الكتان | المقدسي ص٤٣٣ |
| النوبندجان | مدينة نزيهة لها ذكر وشأن | المقدسي ص٤٣٤ |
| ذات الخمام | مدينة عمرت من قريب في المغرب | المقدسي ص٢٢٤ |
| طرابلس | مدينة كبيرة | المقدسي ص٢٢٤ |
| أزيلة | مدينة كبيرة على شاطىء البحر المحيط أقصى المغرب | الإصطخري: المسالك ص٣٤ |

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| نصرة المغرب | مدينة كبيرة واسعة خصبة بحذاء جزيرة جبل طارق | الإصطخري/ المسالك ص٣٤ |
| المهدية | مدينة استحدثها المهدي الفاطمي | أبو الفداء ص١٤٤ |
| رقادة | مدينة استحدثها آل الأغلب | أبو الفداء ص١٤٢ |
| المسيلة | محدثة بناها الفاطميون في المغرب وهي مدينة عظيمة | أبو الفداء ص١٣٨ |
| تطيلة | محدثة بنيت أيام بني مروان في الأندلس | أبو الفداء ص١٨١ |
| مرسيه | مدينة محدثة إسلامية بنيت أيام الأمويين في الأندلس | أبو الفداء ص١٧٩ |
| مدينة وليد | من أحسن المدن يحل بها ملك الفرنج في الأندلس | أبو الفداء ص١٧٧ |
| تنيس | هي بغداد الصغرى لسعتها | المقدسي ص٢٠١ |
| القاهرة | مدينة كبيرة حسنة | المقدسي ص٢٠٠ |
| حلب | مدينة عظيمة واسعة | ياقوت الحموي ج٢ ص٢٨٢ |
| ممطير | مدينة بطبرستان | ياقوت ج٥ ص١٩٨ |
| العريش | مدينة جليلة كانت مرسى مصر | ياقوت ج٤ ص١١٤ |
| قرطبة | ليس بجميع المغرب لها شبيه | ابن حوقل صورة الأرض ص١٠٧ |
| حماة | مدينة كبيرة عظيمة | ياقوت ج٢ ص٣٠٠ |
| بست | مدينة كبيرة في سجستان | الإصطخري الأقاليم ص١٠٢ |
| خيرفت | مدينة كبيرة جليلة من أعيان مدن كرمان | ياقوت ج٢ ص١٩٨ |
| حلوان | مدينة عامرة كبيرة في العراق | ياقوت ج٢ ص٢٩١ |
| الأنبار | مدينة واسعة فيها آثار الخليفة العباسي القائم بالله وكانت داره | الإصطخري: الأقاليم ص٣٩ |
| سرت | مدينة كبيرة على سيف البحر في المغرب | ياقوت ج٣ ص٣٠٦ |

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| هراة | مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خرسان | ياقوت ج٥ ص٣٩٦ |
| همذان | أكبر مدينة بالجبل | ابن الفقيه الهمذاني ص٢١٩ |
| سيهي | مدينة كبيرة في المغرب | ياقوت ج٣ ص٣٠٢ |
| تستر | أعظم مدينة بخوزستان | ياقوت ج٢ ص٣٠ |
| جوزوان | مدينة عامرة آهلة من أعمال جوزجان | ياقوت ج٢ ص١٢٥ |
| جرجان | مدينة حسنة | ياقوت ج٢ ص١٢٠ |
| حمدان | مدينة حواليها مائة وعشرون قرية | ياقوت ج٢ ص٣٠١ |
| فره | مدينة من نواحي سجستان كبيرة وبها رستاق يشتمل على أكثر من ٦٠ قرية | ياقوت ج٤ ص٢٥٩ |
| منية أبي الخصيب | مدينة كبيرة حسنة على شاطيء النيل في الصعيد الأدنى | ياقوت ج٥ ص٢١٨ |
| جويم | مدينة بفارس واسعة رستاقها عشرة فراسخ | ياقوت ج٢ ص١٩٢ |
| الزهراء | بناها عبد الرحمن الناصر | ابن حوقل صورة ص١٠٧ |
| منبج | مدينة كبيرة واسعة | ياقوت ج٥ ص٢٠٦ |
| طواويس | مدينة كثيرة البساتين لها قهندز وجامع | ياقوت ج٤ ص٤٦ |
| قاسان | مدينة كانت عامرة آهلة | ياقوت ج٤ ص٢٩٥ |
| نسف | مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق ولها قهندز بين جيحون وسمرقند | ياقوت ج٥ ص٢٨٥ |
| آهر | مدينة عامرة كثيرة الخيرات | ياقوت ج١ ص٢٨٣ |

## ملحق رقم/ ٤

# قائمة بالمدن التي برز فيها العامل التجاري

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| جدة | فرضة مكة | الإصطخري: المسالك ص٢٣ |
| يافة | على البحر وهي فرضة الرملة | المقدسي ص١٧٤ |
| مهربان | على البحر وهي فرضة الكورة وخزانة البصرة | المقدسي ص٤٢٩ |
| عدن | بلد جليل عامر وهي فرضة اليمن ومعدن التجارات | المقدسي ص٨٥ |
| صحار | على البحر وبها متاجر وهي مقصد المراكب | الإصطخري: المسالك ص٢٧ |
| طلميثا | وهي فرضة مشهورة منها تحمل المراكب الشعير والعسل | أبو الفداء ص١٤٨ |
| الجار | مدينة على ساحل بحر القلزم وهي فرضة سفن الحبشة ومصر وعدن | ياقوت ج٢ ص٩٢ |
| سفاقس | على ضفة الساحل يقصدها التجار من الآفاق لابتياع الزيتون | ياقوت ج٢ ص٢٢٢ |
| صملة | مدينة عامرة يقصدها التجار من كل بلد | ياقوت ج٣ ص٤٠٦ |
| قلهات | مدينة بعمان على ساحل البحر ترفأ أكثر سفن الهند فيها وهي فرضة عمان | ياقوت ج٤ ص٣٩٣ |
| طبرقة | مدينة بالمغرب عامرة لورود التجار فيها | ياقوت ج٤ ص١٦ |
| القلزم | مدينة على البحر بها فرضة مصر والشام قاعدة مشهورة بالمغرب | ياقوت ج٤ ص٣٨٨ |

ملحق/ ٥

## المدن التي اتخذت دور الحصن

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| العيمي | حصن صغير بين ينبع والمروة | الإصطخري المسالك ص٢٥ |
| العشيرة | حصن صغير بين ينبع والمروة | الإصطخري ص٣٥ |
| ينبع | حصن به نخيل وماء | الإصطخري ص٢٥ |
| أبرقوه | مدينة محصنة كثيرة الزحمة | الإصطخري ص٧٧ |
| سطيف | مدينة بين تاهرت والقيروان وهي حصينة | الإصطخري ص٣٤ |
| طرابلس المغرب | مدينة مبنية من الصخر على ساحل البحر حصينة جداً | الإصطخري ص٣٣ |
| ميماس | على البحر حصينة في بلاد الشام | المقدسي ص١٧٤ |
| توزر | مدينة حصينة في المغرب مبني بالحجر والطوب | ياقوت ج٢ ص٨٥ |
| المرية | مدينة مسورة | أبو الفداء ص١٧٧ |
| غرناطة | في نهاية من الحصانة لها قلعة عالية شديدة الامتناع | أبو الفداء ص١٧٧ |
| أسفي | مدينة مسؤرة في مراكش | أبو الفداء ص١٣٠ |
| حمص | بلد مشهور مسوّر فيه قلعة حصينة على تلٍ عالٍ | ابن عبد الحق مراصد الاطلاع ج١ ص٤٢٥ |

ملحق رقم (٦)

## مدن وصفت بأنها قديمة

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| تدمر | مدينة قديمة عجيبة البناء | اليعقوبي البلدان ص٣٢٤ |
| حماة | مدينة قديمة في بلاد الشام | اليعقوبي ص٣٢٤ |

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| دمشق | مدينة جليلة قديمة | اليعقوبي ص٢٦٩ |
| جسر النهروان | بلد جليل قديم في كور الجبال | اليعقوبي ص٢٦٩ |
| عمواس | كانت قصبة في القديم | المقدسي ص١٧٦ |
| بعلبك | مدينة قديمة في بلاد الشام | المقدسي ص١٦٠ |
| جدة | فيها آثار مدينة تدل على أنها كانت مدينة قديمة | ابن جبير: رحلة ص٥٣ |
| الكوفة | مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى عليها الخراب | ابن جبير: رحلة ص١٨٧ |
| إصطخر | من أقدم المدن وكان فيها سرير الملك في القديم وبها آثار عظيمة | أبو الفداء ص٣٢٩ |
| سلا | مدينة قديمة ضخمة في المغرب | أبو الفداء ص١٣٠ |

## ملحق رقم/ ٧

# قائمة بالمدن التي وصفت بأنها متوسطة الحجم

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| إصطخر | مدينة وسطة سعتها مقدار ميل | الإصطخري المسالك ص٧٦ |
| زويلة | مدينة وسطة لها كورة عريضة في المغرب | الإصطخري ص٣٤ |
| سجلماسة | مدينة وسطة من حد تاهرت وهي معدن الذهب | الإصطخري ص٣٤ |
| برقة | مدينة وسطة ليست بكبيرة وحواليها كورة عامرة كبيرة في المغرب | الإصطخري ص٣٣ |
| الفيوم | مدينة وسطة في مصر | الإصطخري ص٤٠ |
| هيت | مدينة وسطة على غربي الفرات في العراق | الإصطخري: أقاليم ص٣٩ |

## ملحق رقم/ ٨

# المدن التي وصفت بأنها صغيرة

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| الأسوس | مدينة صغيرة آهلة خصبة في مصر | الإصطخري: أقاليم ص٢٩ |
| عدن | مدينة صغيرة وإنما شهرتها لكونها فرضة على البحر | الإصطخري: أقاليم ص١٤ |
| الأشمونين | مدينة صغيرة عامرة في مصر | الإصطخري: المسالك ص٤١ |
| الفرما | مدينة صغيرة خصبة بها قبر جالينوس | الإصطخري: المسالك ص٤٢ |
| طبرقة | مدينة صغيرة وبها معدن المرجان ولا يعرف في الأرض معدن للمرجان إلا بها في المغرب | الإصطخري: المسالك ص٣٤ |
| المهدية | مدينة صغيرة في المغرب | الإصطخري ص٣٣ |
| كازرين | مدينة صغيرة نحو الثلث من إصطخر | الإصطخري: المسالك ص٧٧ |
| النهروان | مدينة صغيرة عامرة في العراق | ابن حوقل صورة الأرض ص٢١٨ |
| تركنيشان | مدينة صغيرة سعة رستاقها نحو مرحلة | المقدسي ص٤٣٧ |
| صاهة | مدينة صغيرة في إقليم فارس | المقدسي ص٤٣٧ |
| القدس | مدينة صغيرة في إقليم الشام | المقدسي ص١٦١ |
| تبوك | مدينة صغيرة | المقدسي ص١٧٩ |
| جومة | مدينة صغيرة في إقليم فارس | المقدسي ص٤٢٥ |
| راس كشم | مدينة صغيرة لها سوق واسع | المقدسي ص٤٢٧ |

| المدينة | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| سورو | مدينة بحرية صغيرة في كرمان وقد بدت تعمر الآن لأن حمولات عمان إليها ونفركرمان ترفع منها | المقدسي ص٤٢٧ |
| فرج | مدينة غير كبيرة في إقليم فارس غير أن بها جامعاً وحمّاماً ليس لهما نظير في الأقاليم | المقدسي ص٤٢٨ |
| هزار | مدينة صغيرة لها رستاق واسع في إقليم فارس | المقدسي ص٤٣٢ |
| رستاق الرستاق | مدينة صغيرة ليس لسوقها ذلك الكبير إلا أن رستاقها أربعة فراسخ في مثله في إقليم فارس | المقدسي ص٤٢٨ ـ ٤٢٩ |
| كاريان | مدينة صغيرة إلا أن رستاقها عامر في إقليم فارس | المقدسي ص٤٢٧ |
| ده أشتران | مدينة صغيرة قربها قرية ولها جامع به منارة طويلة في إقليم فارس | المقدسي ص٤٣٧ |
| خوراذان | مدينة صغيرة إلا أنها عامرة رفقة العيش بها سوق وجامع | المقدسي ص٤٣٥ |
| ميلة | مدينة صغيرة بأقصى أفريقية ليس بها غير المزروع | ياقوت ج٥ ص٢٤٤ |

## ملحق رقم/ ٩

# قائمة بأسماء القرى الكبيرة والجامعة

| القرية | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| كفر سلام | من قرى قيسارية في إقليم الشام كبيرة آهلة بها جامع | المقدسي ص١٧٧ |
| خانقين | وهي من أجل القرى في الجبال وأعظمها أمراً | اليعقوبي: البلدان ص٢٧٠ |
| الفراذية | قرية كبيرة في إقليم الشام بها منبر | المقدسي ص١٦٢ |
| عاقر | قرية كبيرة بها جامع نفيس قرية غناء كبيرة من نواحي المدينة | المقدسي ص١٧٦ |
| جنوجرد | قرية كبيرة ذات سوق وجامع فسيح وعمارات حسنة قريبة من مرو | ياقوت ج٢ ص١٧٢ |
| ودار | قرية كبيرة كثيرة البساتين والزروع من قرى سمرقند | ياقوت ج٥ ص٣٦٩ |
| منستير | قرية كبيرة آهلة بأفريقية بها جامع وفنادق وأسواق | ياقوت ج٥ ص٢١٠ |
| ماخوان | قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو | ياقوت ج٥ ص٣٣ |
| الصالحية | قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في بلاد الشام | ياقوت ج٣ ص٣٩٠ |
| منع | قرية كبيرة فيها منبر بالقرب من حلب | ياقوت ج٥ ص٢١٣ |
| الجحفة | قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة | ياقوت ج٢ ص١١١ |
| الجيزة | قرية كبيرة حفيلة البنيان قرية | ابن جبير: الرحلة |
| تل بني صباح | قرية كبيرة جامعة فيها سوق وجامع كبير قرب بغداد | ياقوت ج٢ ص٤٠ |
| قرنوط | قرية كبيرة جامعة على النيل فيها أسواق ومسجد جامع | ياقوت ج٢ ص٢٧ |
| الموشية | قرية كبيرة جامعة في غربي النيل بمصر | ياقوت ج٥ ص٢٢٣ |

## ملحق/ ١٠

# أسماء قرى وصفت بأنها شبيهة بالمدن

| القرية | وصفها | المصدر |
|---|---|---|
| الفضلية | قرية كبيرة كالمدينة في نواحي شرقي الموصل | ياقوت ج٤ ص٢٦٧ |
| شنشت | من قرى الري كبيرة كالمدينة | ياقوت ج٣ ص٣٦٨ |
| فال | قرية كبيرة شبيهة بالمدينة في بلاد فارس | ياقوت ج٤ ص٢٣٢ |
| همانية | قرية كبيرة كالبلدة بين بغداد والنعمانية | ياقوت ج٥ ص٤١٠ |
| طرق | قرية من أعمال أصبهان كبيرة شبه بلدة | ياقوت ج٤ ص٣١ |
| باذبين | قرية كبيرة كالبلدة تحت واسط في العراق | ياقوت ج١ ص٣١٨ |
| جحشية | قرية كبيرة كالمدينة من قرى الخابور | ياقوت ج٢ ص١١١ |
| باعيناثا | قرية كبيرة كالمدينة فوق جزيرة ابن عمر | ياقوت ج١ ص٣٢٥ |
| البت | قرية كالمدينة من أعمال بغداد | ياقوت ج١ ص٣٣٤ |

# المحتويات